المجلد الأول

الرحلة العياشية

1661 - 1663 م

عبد الله بن محمد العياشي

حققها وقدّم لها:

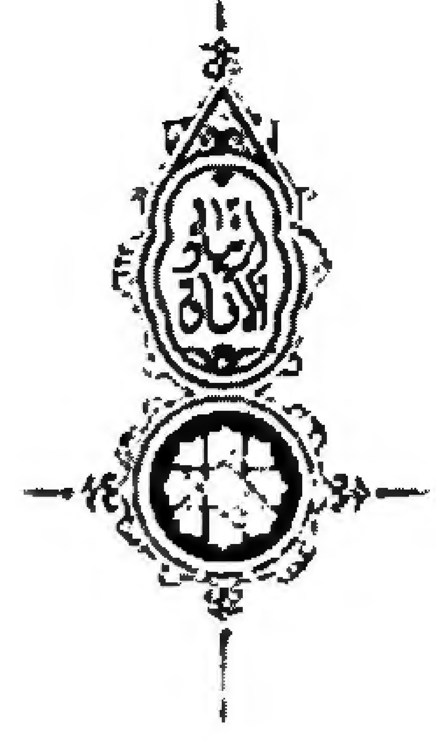
د. سعيد الفاضلي   د. سليمان القرشي



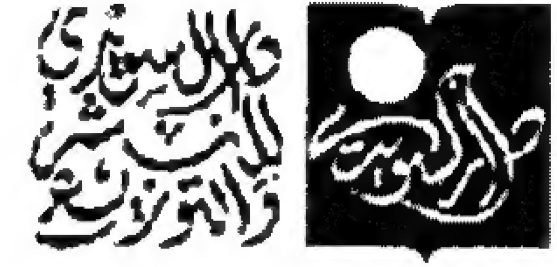
موسوعة رحلات الحج

الرّحلة العياشية

1661-1663م



الرِّحلة العياشيَّة – المجلد الأول
أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي/مؤلف، [حققّها وقدّم لها: د. سعيد الفاضلي ود. سليمان القرشي]
الطبعة الأولى، 2006
حقوق الطبع محفوظة



دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي، ص. ب: 44480
الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 6322079، فاكس: 6312866

تصميم الغلاف: الفنان ناصر بخيت
الصف الضوئي: القرية الإلكترونية/أبو ظبي
الخطوط: محمد مندي

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

الرّحلة العياشيّة

1661 — 1663م

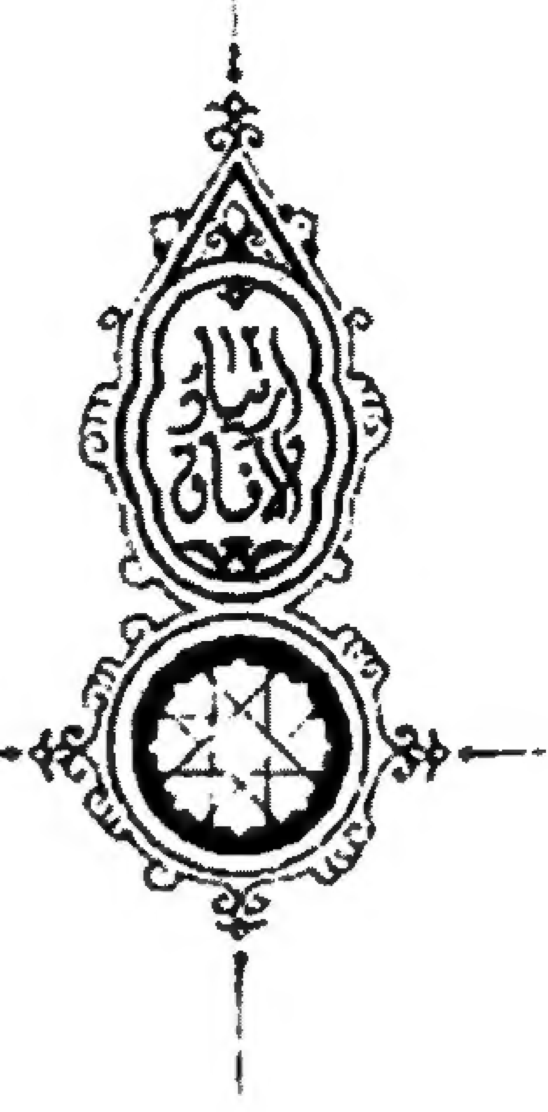
أبو سالم عبد اللّه بن محمد العياشي

المجلد الأول

حققّها وقدّم لها :

د. سعيد الفاضلي و د. سليمان القرشي

الكتاب الحائز على
جائزة ابن بطوطة
للأدب الجغرافي 2005



يشرف على هذه السلسلة :

نوري الجراح

مستشار التحرير:

علي كنعان

أمانة التحرير:

محسن خالد

أيمن حجازي

الإشراف الفني:

ناصر بخيت

التنضيد والتنسيق:

علاء البيوك

"... وهو ميدان كبير في القاهرة يسع الآلاف من الخيل، وآخر من يخرج الباشا، فتخرج أمامه طائفة من عسكره... وآخر من يخرج معه طائفة الشاوشية على أرجلهم، عليهم جلود النمر، وعلى رؤوسهم طراطير طويلة... ويُؤتى بكسوة باب الكعبة منشورة على الأعواد، كلها مخوصة بالذهب... ثم يُمر بكل ذلك بين يدي الباشا والأمراء، ويقومون لها إذا مَرَّت بهم تعظيماً... ثم يذهب بها كذلك حملتها ويمرون بها وسط السوق والناس يتمسحون بها حتى يبلغوها إلى المشهد الحسيني، تنشر في صحن المسجد وتخاط هناك".

نص الرحلة ص 252

"... والمصريون يتكارمون في ما بينهم بشراب البن الذي يسمونه القهوة، ونحن لا نعرفها، وليست عندنا بطعام ولا دواء ولا شهوة".

نص الرحلة ص 229

"... ثم ارتحلنا وأخذنا في نزول العقبة، وهي عقبة كؤود، صعبة الهبوط والصعود، وهي عقبة أيلة المشهورة... ولما كان المحل معروفاً بتلصص الأعراب وحرابتهم، تهيأ الناس وأخرجوا أسلحتهم خوفاً من عدوانهم... وتقَدَّمت طائفة من الحجاج بمدافعهم أمام الركب وتأخرت طائفة، ولم نرَ بها سارقاً ولا غائراً... وبعد أن نزلنا من المنحدر الصعب جعلت الطريق تلتوي في شعاب كأنها أزقة يكثر فيها المخاوف والمتالف".

نص الرحلة ص 272

"... وبعد الرجوع من أُحُدٍ نزل الوافدون بالمدينة ينتظرون الرجبية... وقدم خلق كثير من الأعراب، وأكثرهم حفاة ليس لهم من دين ولا مذهب، جلهم لا يعرف صلاة وصوماً، فتدخل جماعة منهم المسجد غاسلين أطرافهم يريدون الصلاة على زعمهم، فيقف أحدهم مليا ثم يسجد على قدر ما يرى، إما ثماني سجدات أو عشر سجدات أو أكثر، على حسب نشاطه، ثم ينصرف."

نص الرحلة ص 453



تَهْدُفُ هذه السِّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية، من خلال تقديم كلاسيكيَّاتِ أدبِ الرِّحلةِ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتاب ورحَّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميَّاتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبروهُ في أقاليمه، قريبة وبعيدةً، لاسيما في القرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنَّاس في الغرب، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشَّرق، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً، خصوصاً في اللغاتِ الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمتهيئ لترويج صور عن "شرق ألف ليلة وليلة" تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم، وتُمهِّدُ الرأي العام، تالياً، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق. ولعل حملة نابليون على مصر، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك. فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري.

على أن الظَّاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأويله، كانت دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غربيَّة لمجتمعاتها جديدة عليها، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري، لتجد نفسها تملك، بدورها، الدوافعَ والأسبابَ لتشدّ الرحال

نحو الآخر، بحثاً واستكشافاً، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته، ونمط عيشه وأوضاعه، ضاربة بذلك الأمثال للناس، ولينبعث في المجتمعات العربية، وللمرة الأولى، صراع فكري حاد تُستَقْطَبُ إليه القوى الحيَّةُ في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمِّسٍ لأفكاره وصياغاته، وبين معادٍ للغرب، رافض له، ومستعدٍّ لمقاتلته.

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسمِ صورِ دنيا لهم، بواسطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحري والأيروسيِّ والعجائبيِّ، فإنَّ أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم، كما سيتَّضِحُ من خلال نصوص هذه السلسلة، ركّز، أساساً، على تتبع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة، وتطوّر العمران، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين، غالباً، بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساساً، من باب طَلَب العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشَّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها. هنا، على هذا المنقلب، نُجد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته، وهي نظرة المتطلّع إلى المدنيَّة وحداثتها من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة، المتحسِّر على ماضيه التليد، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية.

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة، والانتباهات التي ميَّزت نظرهم إلى الدول والناسِ والأفكار. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يشكّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه

مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكّرُ بها.

أخيراً، لابد من الإشارة إلى أن هذه السِّلسة التي قد تبلغُ المائة كتاب من شأنها أن تؤسس، وللمرة الأولى، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاق، واستعداده للمغامرة من باب نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمتعةِ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربعِ جهات الأرض وفي قارّاته الخمس، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية.

محمد أحمد السويدي



المقدمة

شَكَّلت الرحلة بالنسبة لمسلمي الغرب الإسلامي، منذ فجر الدعوة الإسلامية وإشراق شمسها على ربوع هذا الجانب من العالم العربي الإسلامي، هاجساً دائم الحضور ومطلباً قوي الإلحاح، ورغبة دفينة في النفوس سرعان ما تعبر عن ذاتها وتتفتق مستندة إلى الواجب الديني مُمَثَّلاً في الركن الخامس من أركان الدين الإسلامي، ومتكئة على تقاليد راسخة في شَدِّ الرحال نحو الآفاق بحثاً عَمَّا تجود به من زاد ديني أو دنيوي.

كما أنَّ العامل الجغرافي الذي جعل الغرب الإسلامي في أقصى نقطة من خارطة العالم العربي الإسلامي، حتى سُمِّي في بعض الحوارات الطريفة بذيل الطاووس[1]، كان دافعاً قوياً لأهله للتواصل مع عواصم الثقافة العربية في المشرق، وفي مقدمتها المدينة المُنَوَّرة التي شَكَّلت مكاناً أثيراً للمجاورة والتزام حلقات العلماء ومجالس الفقهاء و نوادي الأدباء.

بل إن الرحلة بأنواعها الدينية والعلمية والسياحية والاضطرارية، مَثَّلت طريقاً للمجد وشَكَّلت سبيلاً للشهرة والتألق في مجتمع ظَلَّت أنظارُه وقلوبُه وأفئدتُه مرتبطةً بالمشرق كرَمْز للصفاء والطهارة والنقاء، وكعلامة للجذور والأصول، وكمنبع للشريعة والحقيقة.

(1) أورد المقري حكاية لطيفة مفادها أن هارون الرشيد قد وفد بين يديه بعض أهل المغرب، فقال الرشيد: " يقال إن الدنيا بمثابة طائر ذنبه المغرب. فقال الرجل: "صدَقوا يا أمير المؤمنين وإنه طاووس، فضحك أمير المؤمنين الرشيد وتعَجّب من سرعة جواب الرجل وانتصاره لقطره". (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الشيخ 243/1).

وفي هذا الصدد فقد ذكرت المصادر بكثير من الإسهاب والتفصيل مدى الحفاوة التي كان يُستقبل بها العائدون من رحلاتهم والقافلون إلى أوطانهم بعد طول النأي والبعاد، بل لقد تَحَوَّل هؤلاء العائدون في كثير من الأحيان إلى مصدر للعلم يأخذ عنهم الآخذون، وتُشَدُّ إليهم الرحال للسماع عنهم واستجازتهم، أو للتبَرُّك بهم والتماس الدعاء منهم وتَنَشُّق عبير الأرض المقدسة في ثيابهم ومحمولاتهم.

ولا غرابة أمام هذه الهالة التي أُعطيت للرحلة في الغرب الإسلامي أن تشرع الرحلات أبواب الشهرة والمجد في وجه الرحّالة الذين كان منهم العلماء والمتصوفة والزُهَّاد والعُبَّاد والأدباء والشعراء والأطباء والفلاسفة والسفراء والأمراء والمغامرون وغيرهم.

ولما كان جانب كبير من الرحّالين المغاربة نحو آفاق المشرق من الفقهاء والعلماء والقضاة والأدباء، أي أنهم مَثّلوا النخبة المُثَقّفة في عصرهم، فقد كان حرصهم شديداً على تدوين وتوثيق دقائق رحلاتهم إلى المشرق ومجرياتها، وتسجيل يومياتهم وملاحظاتهم التي لا تخلو في الغالب من إشارات دالة ببلاغة على جوانب من الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية للبلد موضوع الزيارة ولِمَا حَفَّ بالطرق المؤدية إليه من بلاد وعباد.

وأمام كل هذه الدوافع، فإنَّ المكتبة المغربية تزخر بعدد هائل من الرحلات، سواء منها الحجية أو غيرها، وسواء منها المطبوعة والمشهورة بين الناس، أو تلك التي لا زالت مخطوطة وحبيسة جدران المكتبات العامة والخاصة، ومن هذه الرحلات نذكر رحلة أبي سالم العَيّاشي المغربي التي تتميز بالمسار الجغرافي الهام الذي مسحته، فقد انطلقت هذه الرحلة سنة (1072 هـ/ 1661م) من سجلماسة بأرض المغرب لتصل إلى القاهرة، مروراً بكل من الجزائر وتونس طرابلس، قبل أن تأخذ وجهتها المُحَدَّدة وهدفها المقدس؛ مكة المكرمة والمدينة المنورة، موئل الشريعة والحقيقة، ومهوى قلوب المسلمين وأفئدتهم، وموطن الرجال والأفكار، ورمز الخلاص الديني والدنيوي.

ولكنَّ أبا سالم العياشي في خضم هذا المسار الباذخ لم يكتف بما اكتفى به غيره من الرحّالة، فقد آثر أن تمتد رحلته إلى القدس الشريف للقاء الرجال والاحتكاك بالأفكار، والتمسح بالمقامات والمزارات، فحَلَّ، ضمن ما حل به من

مدن وقرى، بكل من غَزَّة والرملة وبيت المقدس والخليل، والتقى خلال هذا المسار الجغرافي الغني بكثير من الرجال، ووقف على عدد من الكتب والأفكار، وجَابَه عدداً من التيارات العقائدية والصوفية.

على أنَّ عُمدة هذا العمل الرحلي الموسوعي يبقى بلا منازع المدينة المنورة التي لازمها أبو سالم العياشي لمدة سبعة أشهر درس خلالها فنوناً من العلم وألواناً من المعرفة، وجالس أثناءها عدداً من الرجال، واحتكَّ بجُملة من الأفكار والمعتقدات، وأجاز واستجاز، وتلَّقى وأخَذ، وأفاد واستفاد، وقيَّد وألَّف.

رحلة أبي سالم العياشي ديوان علم وأدب:

تميَّزت الرحلة العياشية، انسجاماً مع شخصية مؤلفها واتساقاً مع خصائص عصرها، بنشاط علمي مُتَميِّز، فكانت، كما وصفها صاحبها ديوان علم لا كتاب سمر وفكاهة، أي أن عجلتها قد دارت باتجاه الديني في تساوق تام مع العلمي، ولا غرابة أن يتلازم الهدفان عند أبي سالم العَيّاشي الفقيه العالم، والمؤمن الورع الذي يرتجي الخلاص ويقصد منابعه، يقول العياشي مؤكداً: "وقصدي إن شاء الله من كتابة هذه الرحلة أن تكون ديوان علم لا كتاب سمر وفكاهة، وإن وجد الأمران فيها معا فذلك أدعى لنشاط الناظر فيها، سيما إن كان صاحب تلوين، وأما صاحب التمكين فلكل شيء عنده موقع ونفع لا يوجد في غيره، والله المسؤول أن يلهمنا رشدنا ويخلص لوجهه فيما نأتي ونذر قصدنا، فهو حسبنا ونعم الوكيل، وبالإجابة لدعاء سائله كفيل"[1].

وبالفعل، فإن الرحلة العياشية تعتبر ديوان علم وأدب، وسجل تاريخ وتصوف، وكتاب أخبار وآثار، ويكفي أنها قد انفردت، دون سواها من الكتب والرحلات وأمهات المصادر، بإيراد جملة من النصوص والرسائل والإجازات والنقول وخطب الكتب التي لا نكاد نقف لها على أثر في غيرها من المظان، كما أنها تترجم لعدد من الأعلام الذين لا نكاد نحس منهم من أحد أو نسمع لهم رِكْزاً في غير هذه الرحلة التي تحتاج لوحدها إلى حَلْقةٍ من حَلْقات الدرس والبحث لكشف النقاب عن عدد من المواقف والرجال، والطرق والزوايا، والكتب

(1) الرحلة العياشية: 1:195.

والأشعار، والخزائن والمكتبات، والوقائع والأحداث، والمعارك والجولات، والبيوع والمعاملات، والإجازات والتوقيعات التي لا شك أن الوقوف عندها سيُعطي فكرة عامة وشاملة وموضوعية عن خصائص القرن الحادي عشر الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

الرحلة العياشية، أفكار ومعتقدات:

ولأنها تَمَّت في سياق تاريخي مُحَدَّد، ونظراً لخصوصية المجتمع العربي الإسلامي، الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية، خلال القرن الحادي عشر للهجرة، فقد عَمَد أبو سالم العياشي بحرص الفقيه العالم، وبخصوصية عين الرحالة اليقظة، إلى تسجيل وتدوين كل ما صادفه في طريقه أثناء رحلته الموسوعية من أفكار ومعتقدات، وأعراف وعادات، وطقوس وممارسات، تداخل في تكوينها الخرافي بالديني، وشارك في نشأتها الاجتماعي والاقتصادي، وتعاون على تشكيلها اليومي والمعيش جنباً إلى جنب مع الثقافي والمكتسب.

وإذا كانت عين الرحالة يقظة وهي تُسَجِّل كل هذه الطقوس والعادات وترصد تلك الأعراف والمعتقدات، فإنَّ هذه العين لم تكن عن كل عيب كليلة، إذ حَرَص أبو سالم العياشي، الفقيه العالم، على رد كثير من المعتقدات الخاطئة، وتسفيه عدد من الأفكار الباطلة، ودَحْض جملة من المزاعم الضالَّة، وصَدّ الأفكار الجانحة نحو أطراف الغلو والشذوذ، سواء ما تَعَلَّق منها بالديني أو الاجتماعي أو الاقتصادي، ولعل هذا ما يُعطي لرحلة العياشي خصوصية ويُكسبها نوعاً من التميز، باعتبارها رحلة موسوعية يجد كل باحث فيها ضالته ويستقي منها بسخاء مادته.

أفكار ومعتقدات دينية:

كان لمسار الرحلة العياشية نحو الديار المقدسة دور هام في تحديد ورسم طبيعة الأفكار التي وقف عندها أبو سالم العياشي في طريقه نحو المشرق، وتوجيه عين الرحَّالة إلى التركيز على أفكار ومعتقدات تتناغم وشخصية الرحَّالة ذاته،

باعتباره فقيهاً وَرِعاً وعالماً مشاركاً، فقد حَرَص العياشي على تدوين كل ما صادفه في طريقه من ضلالات وبدع وممارسات لا تمت إلى الدين الإسلامي الحنيف بصلة، فكان أهم ما لَفَت نظره "هو البِدَع التي نَخَرت كيان المجتمع الإسلامي، شرقاً وغرباً، فعبَّر عن رأيه فيها بصراحة، وانتقد بكل جرأة العلماء والفقهاء على سكوتهم على تفَشِّي الضلالات، وهو في رحلته كلما سَنَحت له الفرصة يقدم لنا نماذج من هذه البِدَع والضلالات ويُبدي فيها رأيه ولو كان الأمر يتعلق بذوي السلطة والجاه"[1].

ومن الانحرافات التي سَجَّلها العَيّاشي في رحلته ما شاع في ركب أهل تونس من غلو وبدع وتضييع للأموال ومباهاة في مقام أبعد ما يكون عن زُخرف الحياة الدنيا و عوارضها الفانية، يقول: "وماتت في الركب تلك الليلة امرأة موسرة من أهل تونس، وكانت لها مَحَفَّة رفيعة تُحمل فيها، فلَمَّا ماتت أوسعوا في حفر قبرها ودفنوها بمحفتها، وذلك غلو وبدعة وتضييع مال فإن المَحَفَّة لها مال وقيمة. وحضر أمير ركب تونس وكبراؤهم، ولم ينكر ذلك أحد منهم"[2].

ولما كانت هذه البِدَع والضلالات والطقوس والممارسات الضالة ليست على مجتمع معيّن بمحصورة أو على بيئة مُحَدَّدة بمقصورة، فإن أبا سالم العياشي لم يقدم جهة ما من جهات العالم العربي الإسلامي التي شملتها رحلته باعتبارها مركزا صحيحاً ومثالاً صافياً للعلم والعمل، أي أنه لم يتحيز لمنطلقه، ولم يؤخذ بموئله وهو يسجل ما حَلَّ بعقيدة المسلمين وعملهم من خلل وزلل خلال القرن الحادي عشر للهجرة، بل إنه بدا مُتَحَلِّياً بموضوعية كبيرة لا شك أن وراءها، وكما قَدَّمنا، شخصية الرحالة العالم التي لا تبغي غير عين الحقيقة، على الأقل كما كانت تراها و تعتقدها. ففي الحرمين الشريفين، والعياشي يؤدي مناسك الحج، فإنه قد أثار الانتباه إلى ما اعتور سلوك الناس وممارساتهم ومعتقداتهم التي لا تمت إلى جوهر الحقيقة بصلة، وأعطى الأمثلة على هذه الضلالات، عامداً إلى تفنيدها بالبرهان والدليل، حرصاً منه على أداء دوره الديني، وتتريهاً منه لهذا المقام المقدّس من جهل الجاهلين وسفاهة السفهاء، ومما سجله العياشي في رحلته بهذا الخصوص نذكر قوله: "ثم ارتحلنا من ينبوع، وسرنا يومنا في رمال ليست بالقوية، وأشجار قليلة

(1) إتحاف الأخلاء، ص: 19.
(2) الرحلة العياشية 1:149.

إلى أن نزلنا بموضع يُسَمَّى السقائف، ويقال له دار الوقدة، يقدون فيها الشمع الكبير، يستصحبه الناس معهم من مصر لذلك ويبيعونه في الركب، ويجعلونه على أقتاب الجمال بالليل، فترى الركب كله كأنَّه من أعظم المساجد المُسْرجة مصابيحها في أحد المواسم، وشاع عندهم أن الصحابة في غزوة بدر أوقدوا هنا نيراناً كثيرة فنحن نتشبَّه بهم. وتلك غفلة منهم وخطأ من وجهين: أحدهما أن وقوع الأمر بإيقاد النيران إنما كان في غزوة الفتح بمرّ الظهران كما هو معروف في كتب السير، وأما بدر فلم يقتل فيها أحد ذلك. وثانيها: لو سلم أن ذلك وقع فيها فقد كان لإرهاب العدو وإظهار قوة المسلمين وكثرة عددهم، فحيث لا عدوّ فلا معنى له. ولا شكَّ أن الفرح بنصر الله أولياءه على أعدائه، والاستبشار بالأماكن التي أعزّ الله فيها الإسلام أمر مطلوب مستحسن، ما لم يؤدِ ذلك إلى محظور، مثل اعتقاد أن الوقود سنّة متبعة، بل ربما ظَنَّ بعضهم أنها من أفعال الحج، فلتُعظم بغير ذلك من فرح وسرور وصدقة وعبادة وإعلان بشكر. وقد جاءني كثير ممن لا شمع عنده يستفتون ويقولون: لا شمع عندنا فهل يلزمنا شراؤه ممن هو عنده؟ ظانّين أن ذلك من مناسك حجهم وشعائره، وكم مثلها من بدعة مُحدثة يرى الناس أنها من أعظم القربات، نسأل الله أن يميتنا على سنة النبي المستقيمة"[1].

على أنَّ البدع والضلالات التي سَجَّلها العياشي لم تقتصر على الطرقات، ولكنها تطاولت على المساجد وانتهكت حرمتها وقدسيتها، كما أنها لم تقتصر على العامة ولكنها امتدت لتشمل الخاصة من العلماء والفقهاء، ويُسَجِّل العياشي في هذا الإطار اتخاذ المساجد بالمدينة لعقد الإملاكات، مع ما يصاحب ذلك في كل زمان ومكان من تصنُّع ومباهاة أبعد ما تكون عن وظيفة المساجد الروحية ومهمتها القدسية، يقول العياشي مستنكراً: "ومن عاداتهم في الإملاكات أن يكون عقد النكاح بالمسجد، ولقد حضرت إملاك هندي قَدِم من مكة مع الشيخ عيسى في الرجبية، وكان بينه وبين الشيخ صحبة، فأراد العقد لولده على ابنة رجل آخر من كبار تجار الهند، فلما كان وقت العقد ذهب بي الشيخ معه وكرهت خلاف أمره، وما كنت أحب حضور محافل أهل الدنيا المشوبة بأنواع من التصنيع والمباهاة، خصوصاً في ذلك المحل الذي حق الإنسان فيه أن يخضع ويخشع، ويضع نفسه بالمحل الذي وضعها الله فيه من الذل والاحتقار، فجلس الشيخ مُسْنِداً ظهره

(1) الرحلة العياشية 162:1.

للمنبر النبوي وجلست بإزائه، وجلس أرباب المراتب من العلماء والخطباء وأكابر الناس صفّين من المنبر إلى الحجرة الشريفة، صف مُستَقْبل القبلة وصف مُسندٌ ظهره إلى جدار القبلة، وجلس عن يسار الشيخ كبير الخَطباء بالمدينة الخطيب أحمد البري، وبإزائه المتعاقدان والابن وأبو البنت، فشرع في الخطبة وأطال وأجاد في الثناء عليهما إلى أن ذكر العَقْد وأشار إلى المتعاقدين، ورضيا بذلك، كل ذلك بلسان ذلق وصوت جهوري، وذلك الذي أنكرته مع المبالغة في الثناء على المتعاقدين بما أكثره زور وباطل بحضرة أشرف الخلق وفي روضة الجنة، فصغرت نفسي عندي، وتضاءلت، ووددت أني لم أحضر ذلك المجلس، ولو كنت أعلم أن صورة المجلس على هذا الوجه ما حضرته"[1].

على أن هذه البدع والضلالات كانت تأخذ بعدا أفظع لدى العامة، وتكتسي طابعا أكثر غواية وضلالة حين تقترن بفئة جاهلة لا تحمل من الإسلام إلا الاسم، ولا تميز صالح الأمور من فاسدها لغلبة الجهل عليها، وقد أورد العياشي في هذا الصدد بعض الوقائع والأحداث التي لولا معرفتنا الحقة بشخصٍ ناقلها لاعتبرناها من قبيل الغرائبي والعجائبي، ومن ذلك ما رواه العياشي قائلاً: "حكى لي بعض المجاورين أنه وُجد في بعض المواسم رجل مع امرأة في الحرم الشريف، فحملا إلى الحاكم، فشهدت البيّنة أنها زوجته، وقيل له: ما حملك على ما فعلت؟ فقال إنه لا ولد لنا، فرجوت أن تحمل المرأة ببركة هذا الحرم، فعذر بجهله، ولم يعاقب"[2].

ويبدو العياشي وهو يرصد مظاهر الخلل في عبادات ومعاملات الناس، وخاصة العامة منهم، بالحرمين الشريفين حريصاً على تقديم الأسباب الموضوعية لذلك، وهو كثيراً ما يربط بين العوامل الاجتماعية والاقتصادية في توجيه سلوك الناس وتأطير عاداتهم ومعتقداتهم، ثم إنه يحمل على البعد عن مراكز الحضارة والانعزال عن الناس، إذ يرى في هذا العامل سبباً لاستشراء الجهل والضلالة لغياب عنصر الاحتكاك والتأثير والتأثر، وبهذا فإن العياشي لا يكتفي بدور ناقل الأحداث والوقائع، ولكنه يتحوَّل إلى قارئ لخلفيات الأمور ومُحَلّل لها، يقول العياشي مستعرضاً بعض ما شاع من جهل في صفوف الأعراب من أهل الحجاز:

(1) الرحلة العياشية 1:287.
(2) نفسه 1:247.

"وبالجملة فعرب الدرب والحجاز وتهامة ونجد أجهل العرب وأكثرهم جفاء، قلّمَا تجد أحدهم يُحسن شيئاً من رسوم الشريعة الظاهرة وصلاة وصيام إلا القليل، وعوام الأعراب والبربر بمغربنا بالنسبة إلى هؤلاء فقهاء، فلا تجد عاميّاً بالمغرب، وإن بلغ الغاية في الجفاء، إلا وهو يعلم أن الصلاة ذات ركوع وسجود، وإن كان لا يُحسن أن يقرأ فيها، ويعلم وجوب صوم رمضان، بل هو أشدّ عندهم من الصلاة، بخلاف هؤلاء، فقد أخبرني مُخبر عن عرب الدرب أنه سأل بعضهم هل صام أم لا؟ وهو رجل كبير كهل، فقال: إني إلى الآن لم أصم، لكن أبي صام ثلاثة أيام، فاستفهمه عن ذلك فقال: إنّ الرجل عندنا إذا قارب أوان الهرم والشيخوخة صام ثلاثة أيام، فيقولون فلان صام، وذلك علامة بلوغه حد الكبر، وأما قبل ذلك فلا يعرف صياماً ولا غيره، وهم جديرون بذلك لبعدهم من الأمصار، وقلّة القرى في بلادهم، فلا يجدون أحداً يُعَلّمهم الخير ولا يرشدهم إليه، وعلى تقدير دخولهم الأمصار في بعض الأحيان فلا يُلقي إليهم أحد بالاً، ولو رآهم أكبر فقهاء الأمصار يصلّون الصلاة المتقدمة من تتابع السجدات لا يزيد على أن يضحك منهم، أو يتغافل ويذهب عنهم، فمتى يعرف هؤلاء صلاة أو صياماً أو حَدّاً من حدود الشريعة؟ ولقد رأيت رجلاً بالينبع ظهر الشيب في مفرقه، وسألته عن مكّة فقال لي: ما حججت قط. وبينه وبين مكّة ثمانية مراحل، وسألته عن المدينة فقال لي: دخلتها مرتين أو ثلاثاً، وبينه وبينها ثلاثة مراحل، وأمثال هؤلاء كثيرون"(1).

الملمح الاجتماعي في مسار الرحلة العياشية:

كان للاجتماعي نصيب وافر من مدونة العياشي الرحلية، ولا عجب أن يحظى الملمح الاجتماعي بمكانة خاصة في الرحلة العياشية التي حرص صاحبها على الاختلاط بالناس والدخول إلى الأسواق، والاعتكاف في المساجد، وزيارة المقابر، والوقوف على المكتبات، والمشاركة في المناسبات، والمساهمة في حَلْقات الدرس. ولا شك أن هذه المشاركات الاجتماعية الواسعة قد كانت مؤطرة بشخص العياشي الفقيه الذي كان لا يُغْمِضُ جفناً عن مُنكر، ولا يغض طرفاً عن بدعة، ولا يتجاوز ضلالة إلا ودَوَّنها في رحلته وسَجَّل ملاحظاته بخصوصها، وقد كان

(1) الرحلة العياشية 1:300.

العياشي أثناء هذا التدوين والتسجيل حريصاً على قياس الشاهد على الغائب لرد الأمور إلى نصابها، على الأقل نظرياً، مع تقديم الدليل من الكتاب والسنة، والاعتماد على التاريخ، والمقارنة بين الأحداث والوقائع، مع الميل إلى التفسير والتعليل واستحضار العامل الاقتصادي في بروز ظاهرة اجتماعية معينة أو تفشي سلوك مُعيَّن.

وقد سَجَّل العياشي بذكاء السبب الكامن وراء انتشار البُن في بيوت أهل الحجاز، فقد عزا العياشي هذا الأمر إلى أسباب اقتصادية ضاغطة، يقول: "أخبرني شيخنا الملا إبراهيم بن حسن الكوراني أن شيخنا الإمام صفي الدين القُشاشي كان يقول: مما أنعم الله به على أهل الحجاز هذا البن لأنهم ضعفاء فقراء في الغالب، والناس يقدمون عليهم من الآفاق، والإنسان لا بُدَّ له من طعام يُقَدِّمه لمن دخل عليه، ولا قدرة لهم على تكلُّف ذلك لكل أحد يدخل عليهم، وهذه القهوة خفيفة المؤنة، والناس راضون بها، غنيهم وفقيرهم، ورئيسهم ومرؤوسهم، فكانت صيانة لوجوه الفقراء عند ورود أحد عليهم، فلا يبعد أن تكون مستحبة عند أهل الحجاز لأنَّ اتخاذ الإنسان ما يصون به عرضه مطلوب شرعاً"[1].

على أنَّ العامل الاقتصادي لم يكن المُحَدِّد الوحيد للعادات الغذائية في الحجاز، فقد كان المناخ أيضاً عاملاً مهماً في تحديد نمط الغذاء السائد في هذا الركن من العالم العربي الإسلامي خلال القرن الحادي عشر، يقول العياشي: "ولأهل المدينة ولوع وغرام شديد بأكل اللحم، زاعمين أنهم يستضرُّون بتركه لحرارة أبدانهم ويبسها، فيحصل لهم الترطيب به، فإذا أكلوا غيره حصل لهم يبس في الطبيعة، حتى إنَّ من نسائهم من لا يطبخ غداءً ولا عشاءً إلا أن يكون لحماً، ويقلن: نحن لا نعرف الطبخ بلا لحم، ولو أدَّى ذلك إلى بقائهم بلا عشاء ولا غذاء. وقد أخبرني بعض أصحابنا أن من أهل المدينة من يشتري العبد فلا يكون له شغل إلا شراء اللحم، فيدور عليه في المدينة وأسواقها وفي العوالي وقباء، في زمن قلته، فلا يرجع إلى سيده حتى يحصله، أو يدور المدينة ونواحيها كلها، فإذا حصله كان ذلك شغله في ذلك اليوم، ولا يستعمله في غيره، لأنه إنما تَمَلَّكه بقصد ذلك"[2].

---

(1) الرحلة العياشية 122:1.
(2) نفسه 293:2.

وإذا كان العياشي قد بدا معجباً عبر دروب هذا النص الرحلي المتميز بأهل المدينة المنورة مبجلاً لهم، فإن هذا الإعجاب والتبجيل لم يمنع صاحبنا أحياناً من توجيه دفة ملاحظاته وتسجيلاته نحو مرفأ الانتقاد، خاصة حينما يتعَلَّق الأمر ببعض ما كان يشذ في نظره عن السليم والسوي من السلوك والعادات. وفي هذا الصدد فقد نالت العامة دون الخاصة أكبر نصيب من هذه الملاحظات والانتقادات، وإن كانت في مجملها ذات طابع سلوكي مقارن بما خَلَّفه العياشي وراءه في قريته المغربية.

ووسط العامة تبرز المرأة المدينية في رحلة العيّاشي ذات نزعات خاصة تكمن بالأساس في رغبتها المُلِحَّة في الميل نحو مظاهر البذخ والترف، يقول العياشي مسجلاً: "ولقد أُخبرت أنَّ للنساء عليهم عادة يسمونها الشخشخة، وهو ما تشتري به المرأة ما تشتهيه من الأزهار، فربما بلغ ذلك ريالاً في كل يوم"[1].

على أنَّ العياشي لا يقف عند هذا الحد في انتقاده لسلوك المرأة في المدينة المنوَّرة خلال القرن الحادي عشر للهجرة، ولكنه يُسَجِّل أن للنساء "على الرجال في ذلك الوقت إتاوة يؤدونها لهن يبتعن بها ما أحببن من اللائق بهن، من طيب أو شبهه، وربما لا تقنع إحداهن من زوجها إلا بالخمسين ديناراً فما فوقها، فقد حُكي أن امرأة بعض المدرسين بها أعرفه طلبت منه في ذلك اليوم ما تخرج به إلى السوق على العادة، فدفع لها عشرة دنانير ذهباً، فاستقلتها وذهبت من شدة الغيظ فرمت بها في المرحاض وأتلفتها عليه وقالت له: أمثلي يخرج إلى السوق بهذا المقدار، فلم يملك من أمره إلى أن ذهب وتسلف خمسين ديناراً فدفعها لها، وهذه حسرة عظيمة وذُل للرجال"[2].

ومن الآفات الاجتماعية الخطيرة التي سَجَّلها العياشي نذكر آفة الرشوة التي وجدت في الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي ساد خلال القرن الحادي عشر تربة خصبة ومجالاً ملائماً للانتشار حتى إنها أصابت كل المجالات ومست مختلف المهن، بما فيها المهن الشرعية؛ كالإمامة والخطابة والقضاء، يقول العياشي: "والحاصل أنَّ المناصب الشرعية كلها في البلاد المشرقية، حجازاً ومصراً وشاماً، من إمامة وخطابة وأذان وإقامة وقضاء وفتوى وشهادة، بل ووَقِيد المساجد

(1) نفسه 1:294.
(2) نفسه 1:247.

إنما تُنال بالشراء من الولاة، فإذا مات صاحب خطة أو عُزل دفع الراغب فيها مالاً للولاة فيولونه مكانه، على أي حال كان من صلاحيته لذلك أم لا، فعظم الخطب على المسلمين والإسلام في ذلك، خصوصاً منصب القضاء فما رأينا ولا سمعنا في البلاد المشرقية كلها بقاضٍ يقارب الحكم بما يشبه أن يكون شرعاً، وإنما مدار أمرهم على الرشا جهاراً، فينقض الحكم الواحد في اليوم الواحد مراراً متعَدِّدة بحسب كثرة الرشا وقلتها"(1).

والواقع، فإنَّ المتصفح لرحلة أبي سالم العياشي يجد أمامه دراسة اجتماعية متميزة، بحيث لا ينتهي من قراءة هذا النص الرحلي الضخم إلا وقد أخذ فكرة عامة وشاملة على مختلف نواحي الحياة الاجتماعية في أهم مدن وحواضر العالم العربي الإسلامي خلال القرن الحادي عشر للهجرة.

جوانب من الحياة الاقتصادية بعين العَيَّاشي الرحالة:

حرص أبو سالم العياشي خلال رحلته الشهيرة إلى الديار المقدَّسة بحس الفقيه العالم على تتبع مختلف نواحي الاختلال في مجريات الحياة الاقتصادية كما لمسها في مختلف المعاملات التجارية، سواء بأسواق الغرب الإسلامي أو بأسواق المشرق التي خَبرها عن قرب ولمس خصائصها عن طريق المعاينة والمعاملة، ومن هذه المعاملات وتلك المعاينات نذكر مسألة الموازين والمكاييل وقيمة العملات وشرعيتها، والعياشي في هذا الجانب يتحول إلى صاحب حسبة يحرص على قيمة العملات حفاظاً على الاقتصاد من الانهيار والتداعي، كما يحرص على سلامة الموازين والمكاييل تأميناً لمصالح المشتري وحفظا لها.

كما أشار العياشي إلى احتكار السماسرة لعمليات البيع والشراء في أسواق الحجاز وانتشار عمليات السمسرة، سواء بأسواق المغرب أو المشرق، إلا أنه يقدم سبباً طريفاً لانتشار هذه الظاهرة وشيوعها، ويتمَثَّل هذا السبب في التشابه والتشاكل بين السماسرة، من حيث المظهر والطباع، وبين جالبي السلع والمؤن من الأعراب إلى أسواق الحجاز، يقول العياشي: "ومن عادتهم في الشراء من الأعراب الذي يجلبون اللبن والجبن والسمن والغنم أن يشتري منهم قوم من الأعراب

(1) الرحلة العياشية 282:1.

الساكنون بالمدينة وأطرافها، ولهم اسم يختصون به، كالبرغازين عندنا بالمغرب، فيدخلونه الأسواق ويشتري منهم أهل المدينة، وهذا من تلقي السلع المنهي عنه، ولكنهم قد ألفوا ذلك واستمَرَّت عليه عادتهم، وألف ذلك القادمون أيضاً، و لو أنّ أحداً من أهل المدينة أراد أن يشتري منهم لم يبيعوه إلا بأضعاف ما يشتري به البرغازون، فإذا جاء البرغازون أخذوه منهم بأقل من ذلك، ويركنون إليهم ويميلون إلى قولهم ويعرفون كيفية المساومة معهم، فلا يعتاصون عليهم لقرب الشكل من الشكل وغيرهم ليس بتلك المثابة، فلا يكاد أحد يشتري منهم لجفائهم وغلظ طباعهم، فاستسهل الشراء من البرغازين بربح قليل زيادة على ما اشتروا به من الأعراب"[1].

ولقد تتَبَّع العياشي بدقة بالغة أسعار السلع وقيمتها، وأشار إلى أسباب ارتفاعها أو تدنيها، وألمح بين الحين والآخر إلى الأسباب المحددة للأسعار، كما أنه قدم خلال هذا عرضاً مفصلاً لمختلف معروضات الأسواق من أثواب ومفروشات، وخضر وحبوب، ومياه ومأكولات، وكتب وجوار، وبهائم وعلف، وغيرها مما يُباع ويُشترى، يقول: "وقد كانت الأسعار أيام مجيئنا المدينة شديدة، فكان القمح ثلاثة آصع بريال، والصاع عندهم يقرب من ثلاثة آصع بصاع الزعوة، وأما التمر فنحو أربعة آصع بالريال، والشعير ليس بينه وبين القمح إلا يسير تفاوت، خلاف المعهود في غالب البلاد، والعسل اشتريت رطلاً منه للدواء بقريب من ثلث الريال، والسمن دون ذلك، وأما الفواكه فكانت في أيامها ووسط إبّانها العنب بثلاثة مائدية للرطل، وقد رأيت رمانة في آخر الإبان بيعت بخمس مائدية. وفواكه المدينة مع غلائها في غاية الجودة خصوصاً عنبها ورطبها".

ولا شك أنّ الاهتمام بهذه الجزئيات، والحرص على إيراد هذه الدقائق ينسجم والطبيعة الموسوعية للرحلة العياشية التي اهتمت بكل الجنبات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمسار الذي سلكته، كما أن هذا كله يكشف عن شخص الرحالة الذي بدا خبيراً مجرباً للأسفار والأخطار، فهو غير مأخوذ بما تقدمه الطريق كل يوم من جديد، كما أنه غير مشدود لذاته منعزل عن محيطه.

---

(1) الرحلة العياشية 1:291.

المجال الصوفي في الرحلة العياشية:

كان لمسار المجتمع العربي الإسلامي نحو الانحدار خلال القرن الحادي عشر للهجرة، لأسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية وحضارية، دور كبير في انتشار الطرق والزوايا بمختلف ألوانها الشعبية والعالمة، والسنية والشيعية، والحضرية والبدوية، والمشهورة والمغمورة. وإذا استحضرنا انتماء أبي سالم العياشي إلى مدرسية صوفية معينة، وانحداره من مؤسسة الزوايا، أدركنا سر اهتمامه الكبير بالوقوف عند مختلف الطرق الصوفية المنتشرة في أرجاء خارطة العالم العربي الإسلامي التي مسحها خلال رحلته، أو تلك التي التقى أتباعها وأنصارها وحاور المنتسبين إليها.

ولقد عَرَّف أبو سالم العياشي بتعاليم بعض هذه الطرق وقَدَّم أدبياتها، وسَجَّل بعض المحاورات التي دارت بينه وبين أصحابها وأتباعها، وأبدى إعجابه، بل وافتتانه، ببعضها، كما أنه لم يُخفِ تحفظه من بعض الطرق المغالية، وقد صَرَّح العياشي أن سر اهتمامه بتعريف الطرق والمدارس الصوفية لقراء رحلته إنما هو بسبب غرابة تلك الطرق ببلده المغرب الذي لم تشتهر به غير طرق معينة، يقول: "وإنما ذكرت من ذلك شيئاً قليلاً لئلا تتشَوَّف نفس الناظر في هذا الكتاب إلى من تُنسب إليه هذه الطرق لغرابة أكثرها بقطرنا ما عدا الشاذلية وشُعَبها، والله تبارك وتعالى ينفعنا بمحبتهم ويرحمنا بالتطفل عليهم بمجرد الانتساب العَاري عن الاكتساب، فهو المتفضل على الإطلاق، بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم"[1].

ومن هذه الطرق التي عُرِف بها العياشي نذكر الطريقة النقشبندية التي وجَدَها كبيرة الاقتراب من مذهب السنة والجماعة، شديدة الشبه بالطريقة الشاذلية، يقول: "ولَمَّا كانت طريق ساداتنا النقشبندية مع نفاستها وظهور محاسنها ولطيف أسلوبها وجريانها مع الكتاب والسنة قَلَّما تُوجد في أرض المغرب، بل لا يعرفها أهله حتى بالاسم لبعد مشايخها، فلم تصل تآليفهم إليه ولا دَخَل هذه البلاد أحد من أهلها فيما نعلم، مع اكتفاء أهل المغرب منها ومن غيرها من الطرق بالطريق التي بان رشدها واتضح أمرها وأُمنت غائلتها، واستقامت أصولها، وجرت

---

(1) الرحلة العياشية 193:2.

مع ظواهر الكتاب والسنة فصولها، طريق القطب الجامع، وشمس المحافل والمجامع، الإمام أبي الحسن الشاذلي وأتباعه أئمة الهُدَى والحق وأصحاب الإخلاص والصدق، رضي الله تعالى عن فريقهم، وجعلنا من سالكي طريقهم، ولعمري، وما عمري علي بهيّن، ما طريق ساداتنا النقشبندية منها ببعيد، وما أصولها إلا كأصولها عند كل موفق سعيد"[1].

ويبدو أن سر اهتمام العياشي بهذه الطريقة واهتباله بشيوخها وأقطابها، هو اقتراب أصولها وفروعها وتعاليمها من الطريقة الشاذلية بحيث إن من "تأمَّل رشحات النقشبندية وحكم الشاذلية لم يجد بينهما اختلافاً إلا في بعض الاصطلاحات الراجعة إلى الأعمال الظاهرة، وأما الأعمال القلبية والمنازلات العرفانية فلا فرق أصلاً"[2].

ولقد حرص العياشي أثناء رحلته على زيارة الأضرحة والتبرُّك بالمقامات، والوقوف عند الزوايا والرباطات، وبدا مشغولاً بإيراد أخبار المتصوفة والزهاد والعباد، مع ذكر كراماتهم ومأثوراتهم والتأكيد على مكانتهم الروحية والاجتماعية. ولا غرابة في هذا، فالعياشي نتاج صادق لمؤسسة الزوايا، ووليد شرعي لبيئة أولت الكرامات أهمية بالغة في مسار ومصير البشر، وهو قبل هذا وذاك متصوف سني، وفقيه عالم، يُقَدِّر السلف الصالح حق قدره.

ولقد بدا العياشي في دروب نصه الرحلي متصوفاً سُنيًّاً، عميق الإيمان، شديد التعلق بمحبة الرسول عليه السلام، "كما أنّه يقتدي بالسلف الصالح ويقدر شيوخ التصوف وأهله، ولكنه صاحب حس نقدي وله نظرة صريحة إلى بعض المفاهيم والأقوال التي يأخذ بها العامة لأنها صادرة عن رجل صالح أو قطب من أقطاب التصوف بدون تأويل، وقد ألَحَّ في أكثر من مناسبة على ضرورة التأويل، وصرح بأن لكلام الأئمة ظاهراً واضحاً، ولكن مراميه الخفية لا ينالها إلا العارف المجتهد العامل المتخلق بأخلاق المتصوفة"[3]، كما حاول العياشي البحث عن أصول سنية لبعض الممارسات الصوفية، فمن خلال "عرض أبي سالم لأسانيده الصوفية

(1) نفسه 1:181.
(2) نفسه 1:187.
(3) الخلق الصوفي عند أبي سالم العياشي، نفيسة الذهبي، مجلة المناهل (وزارة الثقافة – المغرب)، ع 38، دجنبر 1989،ص: 342.

ولمختلف مظاهر الاقتداء والانتساب والتبرك عند السالكين، يبدو مظهر اللباس الذي يتم برواية يتعين سندها، وقد تَتَبَّع عدداً مهماً من أسانيد لبس الخرقة الصوفية في كتاباته"[1] محاولاً خلال ذلك تسنين هذا الفعل ورده إلى جذور نبوية طاهرة، وهو الفعل الذي تَحَوَّل من الرسول عليه السلام/ الصحابي، إلى الشيخ /المريد، ولتتحَوَّل الملابس النبوية الشريفة إلى خرقة العارف، وليتحَوَّل الفعل برمته إلى نوع من المباركة وإيداع السر والتعبير عن الرضا والانتساب إلى الطريقة.

لقد كان التصوف عند أبي سالم العياشي محكوماً بقاعدة أخلاقية كبرى تستمد أسسها من الكتاب والسنة وما أُثر عن السلف الصالح، وقد كانت هذه القاعدة معياراً لتقييم مختلف الطرق الصوفية التي احتك بها العياشي في طريقه نحو محجه الروحي والعلمي، يقول ناصحاً: "إياك والاهتمام بالرزق، والخوف من الخلق، فإنهما أصل كل وهن في الدين، وضعف في اليقين، فإنّ الأول يوجب الشك في المقدور، وفتور في النفس، وكل زائد في المعاش، وتعب في لاش، والثاني يثبط عن كثير من الخيرات، ويحمل على قبيح المداهنات، ويستعجل به المرء هماً لا ينقضي، إلى غير ذلك من المفاسد، والاعتماد على الله كاف عنهما وناف عنك مَعَرَّتهما، مع التبري من الحول والقوة. وكن أعمى وأصم عن الأمور المستقبلة، وإنما لكذلك، واجعل زمامك بيد الشرع المحمدي الواضح"[2].

وإذا كان الشرع المحمدي الواضح البَيِّن هو الذي أطَّر تصوف العياشي، ومعه كافة أهل الغرب الإسلامي، فإن زمام الطرق الصوفية بالمشرق قد أفلت لدى بعضها، فابتعدت درجات عن الشرع المحمدي، ومن ثمة فقد بدا العياشي حريصاً على تعضيد ودعم التصوف السُنِّي، كما عمل بالمقابل على نقض ومدافعة التصوف الفلسفي الذي عَلَت بعضُ أصواته بالمشرق، وانتشر بعضُ أتباعه بالحجاز، وشاعت بعض مؤلفاته بين الناس، ومن هنا تبدو الرحلة العياشية بمثابة رصد دقيق وصادق لكل ما ضجت به الحياة في العالم العربي الإسلامي خلال القرن الحادي عشر للهجرة من تيارات فكرية وعقدية، ومذاهب صوفية وفلسفية عملت الحياة السياسية المضطربة على نموها وشيوعها بين الأفراد والجماعات.

(1) اقتفاء الأثر، ص: 45 من مقدمة المحقق.
(2) الرحلة العياشية 1:64.

رحلة أبي سالم العياشي... رجال وشخصيات:

تميز القرن الحادي عشر للهجرة، في وجهه الثقافي والعلمي، بظهور حركة فكرية نشيطة، خاصة في الحجاز الذي شَكّل نقطة استقطاب للعلماء والفقهاء والمتصوفة من مختلف ربوع العالم العربي الإسلامي، ورغم هذا فإن الباحث في التاريخ الأدبي خلال القرن المذكور يجد أن صفحات مُشرقة من النتاج الأدبي قد تم تجاوزها ونسيانها خلال مرحلة مديدة تعَدَّت هذا القرن لتشمل قروناً أخرى بحيث لا يكاد التاريخ الأدبي في هذه المراحل التاريخية يذكر إلا في ارتباط بمصر والشام وبعض المراكز الأخرى هنا وهناك، علماً بأنَّ هذا مجانب تماماً للحقيقة ومخالف للواقع الذي لا زالت المصادر التي أرَّخت للمرحلة تمدّنا ببعض حقائقه التي تحتاج لمزيد من الجهد والعمل، دراسة وإخراجاً وكشفاً، لإنصاف مرحلة غنية بعطائها العلمي والفكري من تاريخ الأدب العربي، سيما في الحجاز الذي كان على الدوام منطلقاً وموئلاً للأدب والأدباء، ومهوى للأفئدة والعقول التي بقدر ما أعطت وتلاقحت بقدر ما أخذت واستفادت قبل أن تعود إلى بلدانها مُحَمَّلة بأغلى زاد وأشرف بضاعة.

مجاورة العلماء والفقهاء في الحرمين الشريفين؛ الجامعات المفتوحة:

شَكَّلت المجاورة بالحرمين الشريفين من طرف الفقهاء والعلماء والأدباء والمتصوفة الذين شَدُّوا الرحال إلى البقاع المطهرة من مختلف بقاع العالم الإسلامي وأصقاعه خلال القرن الحادي عشر للهجرة، وخلال ما سبقه وما تلاه من قرون أيضاً، ظاهرة مُتَمَيِّزة أغنت الحركة الفكرية والأدبية بالحجاز الذي أصبح بمثابة جامعة مفتوحة تستقطب الأساتذة الزائرين وتحتضن الطلبة المقيمين والوافدين على السواء، وساعد على قوة هذه الظاهرة وحيويتها انتشار المدارس والأربطة وإيقاف الأوقاف وتحبيس المكتبات وإهداء الكتب، والعناية بالطلبة والمُدَرِّسين.

ويسجل الدارسون أن المجاورة أصبحت تُشَكِّل ظاهرة علمية واجتماعية بارزة كان لها كبير الأثر في المجالات الاقتصادية والبشرية والعمرانية والثقافية

للحجاز، فقد عملت هذه الظاهرة على اختلاط الأجناس وتمازج الثقافات، وتجاور الأعراف والعادات، وانتقال الكتب والمؤلفات، وتبادل الرسائل والإجازات. كما ساهمت ظاهرة المجاورة في عملية التأليف والتدوين التي وجَدَت في الحجاز بيئة خصبة لنموها وانتشارها بعد ذلك في الآفاق، خاصة وأنها كانت تأخذ في كثير من الأحيان طابع المساجلات والمطارحات والمناقضات والمعارضات، والردود والتعقيبات، والشروح والتوضيحات، وهذا ما سَاهَم في بَعْث الحياة الثقافية في الحجاز الذي أصبح عاصمة للثقافة العربية الإسلامية حينئذ، إليه تُشَدُّ الرحال، وفي أرجائه تنزل الوفود، وفي مكتباته تستقر مختلف الكتب التي جادت بها القرائح على امتداد رقعة العالم العربي الإسلامي.

وقد كان أبو سالم العياشي المغربي واحداً من هؤلاء العلماء الذين شدوا الرحال باتجاه الحرمين الشريفين، وقد حرص في طريقه نحو وجهته المقدسة على لقاء الرحال والاتصال بالأعلام من متصوفة وفقهاء وقضاة وعلماء وأدباء وغيرهم، كما عمل أثناء مدة مجاورته التي فاقت السبعة أشهر على التفاعل الإيجابي والخلاق مع محيطه الاجتماعي، وهو ما نتج عنه جملة من الإجازات والاستجازات، وأفرز عدداً من القصائد والرسائل والخطابات.

أعلام وشخصيات:

عمل أبو سالم العياشي علي المشاركة الفاعلة في الحياة الثقافية والعلمية لعصره، فقد أجاز واستجاز عدداً من معاصريه من العلماء، المشارقة منهم والمغاربة، كما عمل على تداول العلم والمعرفة بين قصاد مجلسه والوافدين عليه من مشارق الأرض ومغاربها، طلباً لما في يده، ورغبة في ما في جعبته من فنون العلم وضروب المعرفة، كما أنه قد تبادل مع معاصريه الرسائل والخطابات، وتناوب معهم الردود والتعقيبات.

و لقد بدا العياشي عبر مختلف دروب عمله الرحلي الضخم حريصاً على ترجمة عدد من الأعلام الذين التقاهم في مساره الرحلي وجالسهم، أو من الذين استجازهم وأخذ عنهم، حتى إنه عَقَد فصلاً خاصاً" في ذكر بعض السادات المشايخ الأعلام أئمة العلماء الكرام الذين [أخذ] عنهم ما تيسر من العلم الشريف

[وانتفع] بفوائدهم الجليلة تبركاً بذكرهم، وإيضاحاً لجليل قدرهم، واستجلاباً للدعاء لهم، رحمهم الله تعالى أجمعين آمين"[1].

والواقع فإنه يصعب، بل يستحيل التعرض في هذا المقام لكل من ترجم له العياشي في رحلته من العلماء والفقهاء والمتصوفة الذين يُعَدُّون بالعشرات، ويتوزعون بين المشهور والمغمور، والمشرقي والمغربي، والأديب والمتصوف، والعالم والمتعالم. ويكفي أن نذكر من كل هؤلاء محمد بن عبد الرحمن الديّبع اليمني الزبيدي، يقول العياشي: "أول من قرأت عليه بالمدينة وأخذت عنه، بقية السلف الصالح وقدوة كل غاد في اكتساب الحمد ورائح، أستاذ المقرئين وإمام المحدثين، الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الرحمن الديّبع اليمني الزبيدي، زاده الله عِزّاً وشرفاً، وأسكنه من منازل التقرب غرفاً، هو من قدماء مشايخي"[2]. ومن مشايخ العياشي كذلك الشيخ عبد الجواد الطريني وإبراهيم الميموني، يقول العياشي فيهما: "وممن لقيته من مشايخنا في ذلك اليوم الشيخ عبد الجواد الطريني، ووجدناه قد أسن، وهو مع ذلك ملازم لباب خلوته في الجامع كما هو شأنه رضي الله عنه. ولقيت أيضا ذلك اليوم شيخنا الهمام علم الأعلام، وشيخ مشايخ الإسلام، أبا إسحاق إبراهيم الميموني، وقد أثر الهرم فيما عدا عقله، وأخذت السن من قواه ما ظهر أثره في قوله وفعله، ومع ذلك قد متع بسمعه وبصره وبنضارة الوجه على كبره"[3].

ومن شيوخ التصوف الذين التقاهم العياشي نذكر الشيخ زين العابدين الطبري، يقول في حقه: "وفي يوم الأربعاء المذكور ذهبت إلى شيخنا زين العابدين الطبري فوجدته بداره وسلمت عليه، ورَحَّب بي كثيراً وعزيته في أخيه شيخنا أبي الحسن، وواعدني يوم السبت لتلقين الذكر ولباس الخرقة، واعتذر بكثرة الأشغال بولايته الفتوى، مضافة إلى إمامة المقام، مع شغل البال بأيام الموسم، فلما كان يوم السبت لقيته بالمسجد الحرام بإزاء باب السلام، ولقنني وأجاز لي الخرق الثلاث: القادرية والسهروردية والكُبروية، وقد كان أجازنيها أيضا قبل ذلك"[4].

(1) الرحلة العياشية 2:289.
(2) نفسه 1:303.
(3) نفسه 1:115.
(4) نفسه 1:181.

والواقع فإن رحلة العياشي تعد بمثابة كتاب لتراجم أعلام القرن الحادي عشر للهجرة، إذ لم يبق ممن انتسب لهذا القرن من فقيه عالم، أو متصوف عارف، أو أديب شاعر، سواء بالغرب الإسلامي، أو بمصر والحجاز، أو بالقدس وما والاها من المدن والأمصار، إلا وحرص العياشي على الالتقاء به ومقابلته والأخذ عنه والتعريف به، أو اكتفى بالإشارة إليه حين حالت عوارض زمانية أو مكانية دون لقائه، ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى أن أبا سالم العياشي قد ألف كتابين اثنين[1] سجل فيهما نشاطه العلمي والثقافي في مختلف المراكز الثقافية العربي الإسلامية خلال القرن الحادي عشر للهجرة.

الرحالة ورحلته، أبو سالم العياشي؛ مسار رجل:

تصدى للتعريف بأبي سالم العياشي وترجمته عدد من المصادر[2]، القديمة والحديثة، بل لقد خُصصت مؤلفات بذاتها تناولت جوانب مختلفة من شخصيته[3]؛ فهو ينتمي إلى قبيلة آيت أعياش بسجلماسة، وهو رحالة المغرب عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن يوسف بن موسى العياشي، الملقب بعفيف الدين، ولد لليلة بقيت من شهر شعبان سنة (1037هـ: 4 ماي 1628م)، وتُوفي بالطاعون يوم (الجمعة 18 ذي القعدة عام 1090هـ: 1679م)، وبين التاريخين فقد مَرَّ صاحبنا بأطوار النشأة والتكوُّن التي ميزها حرصه على الأخذ عن علماء بلده وفقهاء قطره، وخاصة منهم شيوخ الزاوية العياشية، قبل أن يشتد عوده فيؤثر الرحلة إلى المشرق، يقول: "وكنت أول معاناتي للطلب، وتشبثي بأذيال الأدب، كَلِفاً بالرواية، ومستروحاً إليها من أثقال الدراية، فأخذت عن الأعلام الذين أدركتهم بالمغرب قليلاً، فلم يشف ما لديهم مما أجد غليلاً ولا أبرأ عليلاً، لأنهم اقتصروا من الكتب

---

(1) نقصد بذلك كتاب: اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، وهو فهرس لأبي سالم العياشي. أما الكتاب الآخر فهو: إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، وعنوانه دليل على مضمونه.

(2) من المصادر التي عرفت بأبي سالم العياشي نذكر: اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، و إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، وهما بقلمه، كما نذكر: التقاط الدرر، ص: 212 – 213. نشر المثاني 2:254. إجازة عبد القادر الفاسي لأبي سالم العياشي، ص: 127. تاج العروس: عيش. عجائب الآثار 1:115. فهرس الفهارس 2:832 – 835. شجرة النور الزكية 1:454.الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين 2:509. الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، ص: 90. الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى 3:763. الفكر السامي 4:333. هدية العارفين 1:478.

(3) من ذلك نذكر كتاب: الثغر الباسم، وكتاب: أبو سالم العياشي المتصوف الأديب.

على ما اشتهر، واستغنوا بما غاب بما ظهر، دون المسلسلات والأجزاء الصغار وعوالي الإسناد وغرائب الأخبار، فلَمَّا مَنَّ الله تعالى بالرحلة إلى البلاد المشرقية أولاً وثانياً، ولعنان العزم نحو الرواية ثانياً، تتبعت ذلك عند مظانه وعند أربابه، ورميت، والحمد لله، بسهم مصيب مع أصحابه"(1).

"وتعد هذه الفترة من أخصب مراحل حياة أبي سالم، فقد ساهم في الحركة الفكرية التي عرفها عصره في العلوم والآداب، فسجلت رحلته ماء الموائد العلاقات الفكرية والاجتماعية بين المغرب والمشرق.. كما تصَدَّى للتدريس في المدينة المنوَّرة، وأجاز كثيراً من العلماء الذين أجازوه بدورهم"(2).

وأما شيوخه الذين أخذ عنهم واستجازهم وأجاز لهم، فقد جَرَّد قلمه وسَجَّل أسماءهم بحرص بالغ في كتابيه: إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، واقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، فلا داعي لجردهم في هذا المقام، لكن ما نؤكد عليه هو الدور البالغ للرحلة العياشية في التقاء أبي سالم العياشي بالعلماء والفقهاء والأدباء من كل الأقطار والآفاق، الشيء الذي فتح باب التأثير والتأثُّر، وسمح بانتقال الكتب والمصنَّفات، ورواج الأفكار والمعتقدات على نطاق واسع بين المشرق والمغرب.

ولعل هم ما ميز حياة أبي سالم العياشي هو رحلاته الثلاث نحو الديار المقدسة(3)، وتدوينه لجريات ثاء الأثاني منها، الشيء الذي أتاح له الانتشار على نطاق واسع، فكان بحق ملمحاً صادقاً من ملامح القرن الحادي عشر للهجرة بكل تجلياته.

لم يشع بين الناس من كتب ومؤلفات أبي سالم العياشي التي تناولت كل جوانب الأدب بمفهومه الواسع، بالإضافة إلى الفقه والتصوف؛ سوى ثلاثة كتب، وهي:

- اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر.

(1) اقتفاء الأثر 100-101.
(2) أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، ص: 85 – 86.
(3) قام أبو سالم العياشي برحلته الأولى سنة 1059 هـ، ورحل للمرة الثاني سنة 1064 هـ، أما رحلته الثالثة التي تمخض عنها هذا النص فلقد انطلقت سنة 1072 هـ.

- إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء.

- ماء الموائد، أو الرحلة العياشية[1]، وهي موضوع هذا التحقيق.

أما مؤلفات الرحل المخطوطة فهي عديدة ومتناثرة بين المكتبات في عدد من الأماكن والبلدان، وقد جردتها الأستاذة نفيسة الذهبي في سياق تقديمها لكتاب اقتفاء الأثر، فمنها:

- إرشاد المتنسب إلى فهم معونة المكتسب. (مخطوط الخزانة العامة رقم: 1956 د).

- التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز (مخطوط الخزانة العامة رقم: 43 ك ضمن مجموع).

- تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية (مخطوط الخزانة العامة رقم: 1388 د ضمن مجموع).

- الحكم بالعدل والإنصاف الرافع للخلاف فيما وقع بين فقهاء سجلماسة من الاختلاف (مخطوط الخزانة العامة رقم: 39 ك).

- معارج الوصول؛ وهو كتابٌ في التصوف (مخطوط الخزانة العامة رقم: 1674 د).

الرحلة:

تستمد الرحلة العياشية قيمتها الحقيقية من مضمونها الغني الدسم الذي جعل صدرها يتسع لاحتضان عدد كبير من النصوص والأشعار والتراجم والأخبار، الشيء الذي أضفى عليها طابع الموسوعية، كما تستمد هذه الرحلة قيمتها من مكانة صاحبها، فالعياشي عالم من كبار العلماء، وفقيه من أجلّة الفقهاء، وهو بعد هذا شخص يبدو متزن الخطى رصين النزعات كما ينبغي لمثله أن يكون. ثم إنّ مسار الرحلة، وهو مسار مقدس، قد رسم معالمها العامة وحد حدودها التي آلفت

(1) طبعت الرحلة العياشية على الحجر في جزأين سنة 1316 هـ 1898 م، وأعيد طبعها بالرباط سنة 1977م.

بين جغرافيا الأرض والفكر، وزاوجت بين متطلبات الروح والعقل، ففي تساوق تام مع مسار الرحلة، فإن صاحبها بدا مسكوناً بالتعَرُّض لعلماء الأمصار وذكر تآليفهم وعرض لقاءاته بهم، وإيراد القضايا الفقهية والعلمية التي تطارحها معهم، كما أنَّه كان بين الفينة والأخرى يُلمح إلى طرف من مؤلفاتهم، ويشير إلى النوازل التي يطرحها الارتحال والسفر من أفق إلى آخر، كما كان يهتم بكل ما يتخلَّل العبادات والمعاملات، هنا وهناك، من شوائب وزيادات.

ولعل هذا ما حفظ للرحلة العياشية مكانتها منذ أن خرجت للوجود، فكانت نبراسا اهتدى على ضوئه كثير من الرحالة، وتتبع خيوطه وخطوطه عدد من الكتاب والمصفين، سواء في مجال الرحلة أو مجال التراجم والأعلام، وبالنظر إلى قيمتها العلمية الكبيرة فإن الرحلة العياشية قد طبعت مرتين؛ الأولى على الحجر والثانية مصورة عنها، كما صدرت بعض مقتطفاتها وأجزائها[1].

والواقع، فإن رحلة العياشي، بالنظر إلى موسوعيتها، وبالنظر كذلك إلى طبيعة مادتها التي توزعت بين شتى ألوان المعرفة وفنون العلم، تعد بمثابة موسوعة علمية جامعة نأمل أن يكون إخراجها في هذه الحلة دافعا لإعادة قراءتها وكشف مخبئاتها.

---

(1) من هذه المقتطفات نذكر: المدينة المنورة في رحلة العياشي لمحمد أمحزون. و مقتطفات من رحلة العياشي لحمد الجاسر. وما الموائد ليبيا طرابلس وبرقة لسعد زغلول عبد الحميد ومحمد عبد الهادي شعيرة ومحمود حسن عطية السعران ونبيلة حسن محمد.

خطة التحقيق

اعتمدنا في تحقيق كتاب الرحلة العياشية على النسخة الخطية المحفوظة بالخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط تحت رقم: 406 ق[1]، وللإشارة فقد استنسخ عن هذه المخطوطة ميكروفيلم محفوظ بذات الخزانة، رقم: 493. ونشير إلى أن النسخة الخطية التي اعتمدناها أصلا لهذا العمل هي بخط أحمد بن عبد الرحمن العياشي، وقد نسخها لأبي العباس سيدي أحمد بن ناصر الدرعي سنة 1102 هـ.

تقع مخطوطة الرحلة العياشية في 720 صفحة، كل صفحة تحتوي ما يقارب من 28 سطرا، ولا تخلو هذه النسخة من بعض الرسوم والبيانات، كما تتخللها بعض الهوامش والإضافات والحواشي والطرر. وقد رمزنا إلى هذه النسخة بالرمز: خ.

وإلى جانب هذه النسخة التي كانت معولنا في إخراج الرحلة العياشية، فقد استأنسنا بالطبعة الحجرية للرحلة، واعتمدناها للمقابلة وتصويب الخطأ ورد الخلل والزلل الذي يمكن أن يكون قد اعترى عملية الكتابة والنسخ، وقد رمزنا إليها بالرمز ط.

وقد سمينا هذه الرحلة بالرحلة العياشية، كما هو مثبت على أغلب النسخ التي رجعنا إليها، وارتأينا أن نتجاوز الاسم الذي أطلقه عدد من الباحثين على الرحلة، ونقصد بذلك ماء الموائد لأننا لم نجد لهذا الاسم أثرا في الرحلة ولا في سواها من أعمال أبي سالم العياشي وأعمال معاصريه.

ولإخراج هذه الرحلة في صورة تليق بمكانتها ومكانة مؤلفها، فقد اعتمدنا على مجموعة من المصادر والأصول، أهمها كتب المؤلف، سواء منها المطبوعة أو المخطوطة، كما ركزنا على الكتب التي شكلت مادة الكتاب الرئيسة. ولإضاءة

(1) تحمل هذه النسخة عنوان: الرحلة العياشية إلى الديار النوارنية، ولعل المقصود: الديار النورانية.

النص واستجلاء خباياه وتبيين غامضه، فقد عولنا على مجموعة من الأصول التي تراوحت بين القرآن الكريم وكتب الحديث النبوي الشريف، والمتون الفقهية، وكتب التاريخ والرحلات، ومعاجم اللغة والبلدان، بالإضافة إلى كتب التراجم والأعلام.

وقد عملنا على ضبط النصوص وتخريجها ونسبة الأقوال إلى أصحابها، وأشرنا إلى أوزان الأشعار الواردة في المتن مع التنصيص على مصادرها وأصولها، كما عنينا بضبط الألفاظ الغريبة وشرحها ووضحنا العامي منها، وعرفنا بالأعلام البشرية المغمورة مع الإشارة إلى مصادر الترجمة، وقد راعينا أن تكون هوامش التحقيق وظيفية ومسعفة على قراءة النص والتفاعل معه، فلم نُثقلها بما يُخرج الرحلة عن غرضها، أو يفقدها خصوصياتها وطابعها العام.

وقد ذَيَّلنا هذا الكتاب بفهارس كشافة؛ كفهرس الآيات القرآنية، وفهرس الأحاديث النبوية الشريفة، وفهرس الأعلام، وفهرس الأشعار، وفهرس المدن والأماكن والبلدان، وفهرس البحار والأنهار والآبار والمياه، وفهرس الزوايا والأضرحة والمقامات والأربطة والكنائس، وفهرس الأبواب، وفهرس الكتب الواردة في المتن، وفهرس المصادر والمراجع، وختمنا كل هذا بفهرس للمحتويات.

ولقد عملنا على احترام السياق التاريخي لهذا العمل الرحلي الضخم، فتعاملنا مع المعطى الجغرافي في استحضار تام للمعطى التاريخي؛ فعرفنا بالأماكن والمواضع والمسارات انطلاقاً من معاجم البلدان والنصوص الرحلية المقاربة زمنياً لزمن الرحلة.

وقد لا نتفق مع كثير مما أورده العياشي في رحلته من آراء وما ساقه من أفكار ومعتقدات، كما أننا قد لا نشاطره الرأي في كثير من التأويلات والتبريرات التي ذَيَّل بها عدداً من القضايا الفقهية والاجتماعية والنوازل والوقائع التاريخية وغيرها، إلا أننا، وحفاظاً على نكهة النص، واحتراماً لصاحبه وعصره، وتحلياً بالأمانة العلمية، فقد اكتفينا في عملنا هذا بمحاولة إخراج النص في صورة أقرب إلى الصورة التي أرادها لها صاحبه.

كما أنَّ العياشي قد ذَيَّل رحلته هذه بإثبات فهرسته المسماة: إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، ولأنها لا تدخل في صميم متن الرحلة، ولأنها جاءت

في سياق زمني مخالف للسياق المتني للرحلة، ولأنها، كذلك، مطبوعة ومتداولة بين عموم المهتمين والباحثين، فقد رأينا أن نحتفظ بالنص كما كُتِب في الأصل مستقلاً بذاته مستغنياً عَمَّا سواه.

رموز التحقيق

خ	:	النسخة الخطية.
ط	:	الطبعة الحجرية
[ ]	:	ما بين معقوفتين غير وارد في المتن.
(ـ تاريخ)	:	تاريخ وفاة العلم.
دت	:	دون تاريخ.
هـ رقم	:	هامش الصفحة رقم.

مَسَارُ الرحلة

- انطلاق الرحلة من بلد المؤلف صبيحة يوم الخميس أول يوم من ربيع الثاني عام 1072 هـ
- سجلماسة
- توات
- أوكرت
- واركلا
- نفزاوة
- طرابلس
- أنبابة
- القاهرة
- السويس
- أرض التيه
- مغائر شعيب
- العقبة السوداء
- الينبع
- جبل الرمل
- رابغ

- عقبة السكر
- مر الظهران
- التنعيم
- مكة المكرمة
- المدينة المنورة
- مكة المكرمة
- المدينة المنورة
- غزة
- الرملة
- القدس
- الخليل
- غزة
- العريش
- دمياط
- مصر
- الإسكندرية
- طرابلس
- توزر
- بسكرة
- محطة الوصول يوم الأربعاء ظهراً سابع عشر شوال من سنة أربع وسبعين وألف.



الصفحة الأولى من النسخة الخطية

الصفحة الأخيرة من النسخة الخطية

بسم الله الرحمن الرحيم   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي فرق بين روح السبق لجمود الكفر وحث عليه في طلب
السعادة فقال تعالى ولذلك فالسعادة لمن نفر الى الله مع ذا الدائم ولم يزل
البشر في الليل إذا أدبر والسبق في الصبح إذا أسفر بين أبناء المدارس والمراسي عند الله
ذا بما فعل وأزواج المعاصر إذا أثبت الركائب الكتب لديه من البشر الأذى لا يميز
عن ضمية نضارة العنبر الأخضر وبه أروان الجنبري الأشم ولا يبلغ عزمه إعلان
الأزرق ولذلك أرواح بين الحق ضمع فالموت الأحمر ورموزها إذا اشتعل من البرق
وصلى الله على النبي المحيطة بأعلى مراتب الفضل والإحسان المشتق لصلاة كامل
وجار ولنسار وصلاته المكمل بأنه قلما بين الأعمار المتوج بأشرف حقائق الأيار
على نعمة وأبرك الوجود ومن ينابيع الجود والجود فبلغ أشرف الملائكة في
الركوع والسجود وغيرهم من حيث الجمهور في وصله لدين المحمود وأعلت السر في البيت
الذي ينقطع الأغرار والنمود بسيدنا محمد المحمود في حضرات الرحمان والتعريف
المنزل القرآن بطلع التعريف والتشريع المنصور من الله بأعلى منازل العبودية في
الإنتماء من الابتداء الممنوح في كل المراتب أجل مراتب العبادة والاستمداد
بصحبة الملائكة والجن والإنس في الإفتداء ولم يسع أحدا منهم بما حل له الاقتداء
بخواص الله وخليفته وأوليائه الذين استنارت خليفته بين العالم للعالم
وسموا العوالم بالعالم فاشتروا بأنوار ما استناروا بسرائره واختموا بالنجاة
الذين حين التجأوا بحمايته ارشدهم بين الإرشاد بأرشد الطرق والمراجعة فنادى من
رجعه فيما أرشده الى التجارة الرابحة فلم يزل الدين بالجد والاجتهاد داعيا وكلامه
في الشرق والغرب غالبا وإعلاما لا يطلع في حمادا غرابه اغترابا ولا بالغ المرغبات اجتنابه
اقترابا بجمهور الأركان ومحل جار الشيطان وقطع في الله الخلد ومن ثم
ودع بالتبشير والإنذار تم عليه ثم يرد السبق بالسبق في جهاد من أتى وكفر

الصفحة الأولى من الطبعة الحجرية

في الغد خرجنا من المحل ولقينا إخواننا في ذلك اليوم وبتنا معهم ومع الحجاج
أصحابنا تلك الليلة وفي الغد فارقنا الحجاج وبقينا معهم من وطنهم إلى زركلاف
ووصلنا بلدنا أعمره الله بذكره ضحوة يوم الأربعاء سابع عشر
شوال من سنة أربع وسبعين وألف ولقينا على التيسار واستقرت بنا الدار
وأكثرنا الاستغفار للملك الغفار وحمدنا الله على السلامة من ركوب الأخطار
والنجاة من غوائل الأسفار ونسأله الإنابة والعافية وحسن القرار
في عفو الدارين ذلك القرار بجاه سيدنا محمد المختار وآله الأطهار
وصحابته الأخيار ومن تبعهم بإحسان من الأبرار والله يختم بالسعادة
آجالنا ويغفر بالعافية عن ذنوبنا وآمالنا ويبلغنا من خير الدارين آمالنا
بجاه سيد الوجود ومنبع الجود سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل
الصلاة وأزكى السلام وعلى آله وصحبه أجمعين سبحان ربك رب العزة
عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ——— انتهى

انتهى الكتاب المبارك بحمد الله
وعونه اللهم اختم لنا بالسعادة
التي ختمت بها لأوليائك
واجعل خير أيامنا
وأسعدها يوم
لقائك
يا أرحم الراحمين بجاه سيدنا محمد
صلى الله عليه وعلى
آله وصحبه
وسلم

الصفحة الأخيرة من الطبعة الحجرية

نموذج من صفحات النسخة الخطية

حيث تبدو بعض الهوامش والإضافات

نص الرحلة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه[1] وسلم[2]

الحمد لله الذي قرن ممدوح السفر بممدوح الظفر، وحثّ عليه في طلب السعادة فقال تعالى: "فلولا نفر"[3]، فيا سعادة من نفَر إلي الله مع ذلك النفر، ولم يمل السُّري في الليل إذا أدبر، والسيرَ في الصبح إذا أسفر، فذنب المجاهل والموامئ عنده دائماً مغتفر، وأرواح المعاطِن[4] إذا أثيرت الركائب أطيب لديه من المسك الأذفر[5]، لا يصده عن طيبة نضارة العيش الأخضر، ولا ازورار المحبوب الأصفر، ولا يَفل حد عزمه اعتراض العدو[6] الأزرق، ولو كان من بني الأصفر، فالموت الأحمر دون مرماه أشهى من الثريد الأعفر[7].

وصلاة الله المحيطة بأعلى مراتب الفضل والإحسان، المستغرقة لصلاة كل مَلك وجان وإنسان، وسلامه المحلى بأبهى ملابس الأمان، المتوّج بأبهى حقائق الإيمان، على نقطة دائرة الوجود، ومدَد ينابيع المجد والجود، قِبلة أسرار الملك والملكوت في الركوع والسجود، وخير من جفت الجفون في وصله لذيذ الهجود، وواصلت السرى في المسير إليه بقطع الأغوار والنجود[8]، سيدنا محمد المحمود في حضرات العرفان والتعريف، المزمل المدثر بخلع التقريب والتشريف، المخصوص من الله بأعلى منازل الحظوة في الانتهاء والابتداء، الممنوح في كل العوالم أجلى مراتب

---

(1) ساقط من ط.
(2) في خ أضاف الناسخ عبارة: "قال الشيخ الفقيه العلامة تاج العارفين وإمام المحققين، أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، رضي الله تعالى عنه، ونفعنا به وبأمثاله".
(3) يشير إلى قوله تعالى: (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون): التوبة: 123.
(4) المعاطن: جمع معطن، والمعطن كالوطن للإبل وقد غلب على مبركها حول الحوض: لسان العرب: عطن.
(5) نفر: ذكي الريح: لسان العرب: نفر.
(6) ساقط من ط.
(7) الثريد الأعفر: المُبيض: لسان العرب: عفر.
(8) النجود: جمع نجد، الطريق في الجبل، وهو ما خالف الغور: لسان العرب: نجد.

الهداية والاهتداء، فصح للملائكة والجن والإنس به الاقتداء، و لم يسعْ أحدا منهم في ما حد له الاعتداء، فهو أمين الله وخليفته، ونوره الذي به استنارت خليقتـــه، بيّن المعالم للعوالم، وهدى العوالم للمعالم، فاهتدوا بأنواره لما اســـتناروا بهدايتـــه، واحتموا، باللجإ إليه حين التجؤوا لحمايته، أوضح طريق الرشاد[1] بأرشد الطرق الواضحة، فقاد من ربحت تجارته إلي التجارة الرابحة، فلم يزل لله بالجد والاجتهاد داعياً، ولكلامه في السر والإعلان واعياً، لا يمل في جهاد أعدائه اغتراباً، ولا يألو لمرضاة أحبابه اقترابا، فهجر الأوطان، وحارب حزب الشيطان، وقـــاطع[2] في الله أحبابه وعشيرته، ورفع بالتبشير والإنذار لهم عقيرته، يردف السفر بالـــسفر، في جهاد من أبى وكفر، إلى أن ختم أسفاره الدنيوية وتنقلاته البشرية بخروجه لحجة الوداع، فأظهر فيها من محاسن الشريعة ما شاع وذاع، وأودع القلوب من غرائب الحِكم أحسن الإيداع، وأكثر في خطبه الخمس التنبيه على معالم الحج المشروعة، ونهى عما كانت الجاهلية ابتدعته من الأفعال الممنوعة[3]، وأكمل الله للمـــسلمين دينهم في هذه الحجة، وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام دينـــا[4]، وأوضـــح المحجة، وحض على حج البيت مستطيعَه، وجعله من دعائم الإســـلام الخمـــس الرفيعة، فقال عليه السلام: من حج هذا البيت فلم يرفث و لم يفسق خرج مـــن ذنوبه كيوم ولدته أمه[5]، واختار القرطبي وابن بزيزة[6] وغيرهما أن ذلك يتـــضمن الكبائر والصغائر، وقال عليه السلام: العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحـــج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة[7].

---

(1) في ط: الإرشاد.
(2) في ط: قطع.
(3) في ط: المنوعة.
(4) إشارة إلى قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا): المائدة: 4.
(5) ورد الحديث بنصه في تفسير القرطبي 142:4، كما ورد الحديث في الصحيحين بصيغة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثم من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه: صحيح مسلم 983:2، صحيح البخاري: 553:2.
(6) عبد العزيز بن إبراهيم بن أحمد التميمي التونسي، المعروف بابن بزيزة، فقيه مشارك، له شرح الأحكام، توفي سنة 700هـ: معجم المؤلفين 293:5.
(7) صحيح مسلم 983:2.

قال المازري[1]: أي لا يقصر لصاحبه من الجزاء على تكفير بعض ذنوبه، ولا بد أن يبلغ به إدخاله الجنة. وقال عليه السلام: تابعوا بين الحج والعمرة فإن متابعة ما بينهما تزيد في العمر والرزق، وتنفي الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد[2].

وقال عليه السلام: من أراد دنيا وآخرة فليؤم هذا البيت، ما أتاه عبد يسأل الله دنيا إلا أعطاه منها، ولا آخرة إلا اذخر له منها. وفي صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص، رضي الله عنه، أنه عليه السلام قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله[3]. وقال عليه السلام: الحُجاج والعُمار وفد الله وزواره، إن سألوه أعطاهم، وإن استغفروه غفر لهم، وإن دعوا استُجيب لهم، وإن تشفعوا شفعوا. إلى غير ذلك من فضائل الحج المبرور، الحاملة على تجشم المشاق إليه مع الابتهاج والسرور، الواردة في الكتاب المبين، وعلى لسان الرسول الأمين، صلى الله وسلم عليه صلاة تكون لقدره الكريم كفاء، ولِحَقه العظيم وفاء، وعلى آله الحائزين قصب السبق بقرابته، وأزواجه وأصهاره وجميع الكرام صحابته، ما تشرف تابع بشرف متبوعه، وزكى مكتسب الخلق الحسن بزكاء مطبوعه.

أما بعد، حمدا لله الذي هو أول الذكر وآخر دعوى أهل الجنة، وأكد على افتتاح الأمر ذي البال به صحيح السنة، فيقول العبد الفقير، الذليل الحقير، المستجير بالله ورسوله، الملتجئ إلى كرم الله في حصول أمله من الخير وسؤله، أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المغربي المالكي، جعل الله جميع تصرفه فيما يرضاه ابتغاء مرضاته، وغمره بلطائف إحسانه في حياته، وعند وفاته وبعد مماته، ولقاه في كل المخاوف أنسا وتأمينا، ويرحم الله عبدا قال آمينا: إني كنت منذ عقدت يداي إزاري، وتلوث مبيض صحيفتي بسواد أوزاري، متتابع الزفرات والأنين، كثير الاشتياق والحنين، إلى تكحيل إنسان العينين[4] بمشاهدة مشاهد الحرمين، ويتضاعف الوجد والتوقان، ويتزايد الشوق والبرقان، في أوان تجاوب أصداء الرفاق، إذا أهاب بهم مهيب التوفيق من جوانب الآفاق، فيطير الروح

---

(1) محمد بن علي بن عمر التميمي، المازري، الإمام المحقق، له عدة مؤلفات تدل على تمكنه من الفقه وعلم الحديث، توفي سنة 536 هـ بتونس ودفن بالمنستير: شجرة النور الزكية 1:186.

(2) الفردوس بمأثور الخطاب 2:46.

(3) صحيح مسلم 1:112.

(4) إنسان العين: المثال الذي يرى في السواد: لسان العرب: أنس.

بأجنحة الشوق إلى ذلك المكان ويود[1] مرافقتهم على أي حال كان، فإذا استتبع الجسم المثقل بالآثام إلى ذلك المحل، تمشت به مشي المقيد في الوحل، فربما فزعتُ إلى مدح الرسول، لأدرك به المنى والسُّؤل، وربما أغضيت الجفون على قذاها، وكظمت الجوانح على أذاها، إلى أن دعا داعي الفلاح فلبيت، وهدى رائد الهداية فاهتديت، ونظمني وافد التوفيق في سلك خير رفيق، فركبت متون المجاهل، ونقيت[2] القذى عن عيون المناهل، مع ركب يؤمون البيت العتيق، وينشرون[3] من طيب نشرهم على البلاد فتيت المسك الفتيق[4]، وكان ذلك في شهر ربيع النبوي سنة تسع وخمسين وألف، والشباب إذ ذاك ناعمة أغصانه، والهوى شديد على القلب عصيانه، وفن[5] الصبا ناعمة أوراقه، والوطن حبيب يشق فراقه، واستسهلت قطع تلك العلائق كلها، وخف عن القلب المشوق ثقيل كلها، ومتى أوجست من النفس بعض التلكي، أو أظهرت من الجزع شبه التبكي، ذكرتها ما تترجاه من لذيذ التهاني، وأنشدتها مغيري الروي بيتي الحسن بن هانئ[6]:

[طويل]

ذريني أَردْ ماءَ المفاوزِ آجنا ... إلى حيث ماءُ للكرام معينُ

دعيني أكثرْ حاسديك برحلةٍ ... إلى بلد فيها الرسولُ دفينُ

فكانت تلك الرحلة، وهي من الله أعظم نحلة، تقبَّل الله فيها صالح أعمالنا، وجعل مدد بركتها ساريا في جميع أحوالنا، ولم يَكن فيها كبير أمر يعتني بكتابة الرحلة لأجله، ويكاد علمه يستوي بجهله، إلا ما يشترك في معرفته عامُّ الحاج وخاصهم من أوصاف المسالك، وتعداد[7] المراحل وأسماء البلدان وما يضاهي ذلك، مما لا تطمح إليه عيون أولي الفضل، وترتاح لذكره همم أهل النبل، من لقاء

---

(1) في ط: يريد.
(2) في ط: نفيت.
(3) في ط: ينثرون.
(4) الفتيق: من فتق المسك، أي استخرج رائحته بغيره: لسان العرب: فتق.
(5) فن: أفنون الشباب أوله: لسان العرب: فنن.
(6) البيت الأول لابن دراج القسطلي الأندلسي (ت 421 هـ) برواية نمير بدل معين (الديوان، ص: 250) أما البيت الثاني فالشطر الأول منه لأبي نواس الذي يقول: ذريني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير (ديوان أبي نواس، ص: 481).
(7) في ط: تعدد.

المشايخ الفضلاء، ومحاضرة الأدباء النبلاء، ومباحثة الأذكياء، وزيارة الأتقياء، إلا أشياء إن انفردت بالذكر قلَّت، وإن أدرجت مع غيرها ضلت.

فعندما انقضى أمد الغيبة، وحصلت إلى الأوطان الأوبة، ظننت أن مشاهدة تلك الأماكن المشرفة بشرف الساكن، تشفي من أليم الشوق عليلا، أو تُبرد من أليم البعد غليلا، فبدا الأمر على خلاف المظنون، وافتضح المكنون، فلا يأتي أوان ارتحال الركب، إلا أطاعت الجفون داعي السكب، وحنت حنين الثكلى الواله إلى معاهد الرسول وآله، ودَبَّ بين الجلد والعظام دبيب الشوق إلى تلك المشاعر العظام، فعللت النفس في العام الأول والثاني، وسليتها بخُدع الأماني، وفي الثالث استجمعت لفك رهانها، وأظهرت وضح[1] برهانها، بما رويناه في صحيح ابن حبان ومصنف ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله تعالى يقول: إن عبدا أصححت له جسمه، ووسعت عليه في المعيشة تمضي عليه خمسة أعوام لا يفد إلي لمحروم[2].

فهذا الحديث الصحيح يعطي بظاهره تكرار وجوب الحج، لولا ما عارضه من الإجماع على قصر الوجوب على المرة الواحدة، فحينئذ يحمل الحديث على الاستحباب المؤكد كالأحاديث المتقدمة في المتابعة بين الحج والعمرة، فلما ظهرت لي قوة هذا الدليل، وأوضح الشوق منه فهم السبيل، نويت العمل بمقتضاه، وقبلت بما دعا به داعي الغرام وارتضاه، وعزمت على العود في الرابع ثانيا، ولعنان التوجه نحو البقاع المطهرة ثانيا، فيسر الله ذلك في أواخر ربيع النبوي سنة أربع وستين وألف، وتوجهت على بصيرة، وأعددت لفوائد الرحلة عددا كثيرة، فاتسع المجال في لقاء الرجال، ومذاكرة الإخوان في كل أوان، ومحاضرة الأدباء، ومجالسة الظرفاء، وحصلت في تلك الرحلة المباركة ما حصلت لي به مع المرتحلين المشاركة، فعزمت على تدوين ذلك في مجموع تحصل به الإفادة لمن طلب الاستفادة، فإذا زبدة فائدته وثمرة عائدته أسماء المشايخ وذكر[3] مروياتهم، وذكر شيء من مصنفاتهم، وقد استوفيت جل ذلك لمن طلبه مني، ورام أخذه عني في كتاب اقتفاء الأثر بعد ذهاب الأثر، فانصرف العزم عن كتابة ما سواه، إذ هو بدونه قليل

(1) في ط: واضح.
(2) فيض القدير 2:310.
(3) ساقط من ط.

جدواه، وصممت العزم على الرجوع، وجعلته أكبر همي في اليقظة والهجوع، وأتحين الوقت المذكور في الحديث المتقدم، وأقرع على ما فاتني من المجاورة في تلك الأماكن المشرفة سن المتندم.

فلما جاء الوقت المذكور، ورجوت حصول السعي المشكور، وذلك في سنة تسع وستين دبت في مغربنا عقارب الفتن، وهاجت بين الخاصة والعامة مُضمرات الإحن، فانقطعت السبل أو كادت، وهاجت الأرض بأهلها ومادت، فكربت أيأس من بلوغ المرام، ولم يخمد مع ذلك متأجج نار الغرام، فعدت إلى طريقتي المثلى من أمداح الرسول التي في إلى أن كان أوائل سنة اثنين وسبعين أحسن الله عاقبتها، وكفى المسلمين غائلتها، اشتد العزم مني كما كان قبل ذلك وأعظم، وخيل لي أن أمر التوجه في سلك التوفيق قد انتظم، إلى أن قرب أوان السفر، خدشت أظفار التعويق في وجه الظفر، واكفهرت ظلمات موانع يتعجب اللبيب من صباحها إذا أسفر، وأضرم الجوع في سائر الأرجاء ناره، فتولد منه من الفتك والحرابة ما أعلى تفريق الكلمة مناره، وتطاير في كل أفق شراره، وأهان خيار كل قطر شراره، واتخذت البدعة شعارا والزندقة دثارا، وفر الساكن من بلده، والوالد من ولده، وبلادنا إذ ذاك مجلل من الله برداء العافية،إلا أن مخايل جوانبها تدل أنها لعروض غيرها من البلاد قافية، فلأجل ذلك أشار بترك السفر من لا تُعصى له إشارة، ونهى عنه من له عليَّ أكبر حق بصريح العبارة، فأيست إذ ذاك منه بعد العزم القوي، وطويت شقة ذلك العزم أي طي، فلحقني من التخلف كرب شديد، وعناء في القلب مديد، فاستروحت من ذلك العناء والألم، إلى مدح النبي، صلى الله عليه وسلم، منها عدة قصائد في أيام مولده الشريف، وبذلت فيها من خامد القريحة التالد[1] والطريف[2]، نسقتها نسق حروف المعجم، وأفصحت فيها عما في القلب من الود استعجم، فأتممت منها قبل يوم المولد عشرا، حسنت مخبرا وطابت نشرا، أظهرت فيها التودد والتعطف، وأكثرت التشكي والتبكي والتلهف، على ما فات من القصد الجميل في هذه السنة، وممانعة السيئات الجمة هذه الحسنة، وأطنبت في الاستغاثة إلى الله بنبيه الكريم أن يُيَسر لي في زيارته من فضله العظيم، وما كنت أطمع أن ذلك يكون عن قريب، بل هو عندي أغرب من غريب. فلما

(1) التالد: المال القديم الأصلي: لسان العرب: تلد.
(2) الطريف: الطريف والطارف من المال: المستحدث: لسان العرب: طرف.

مضى يوم مولده الشريف بيوم أو يومين، والعزم قد أمحى أثره بعد العين، هبت رياح الرحمة من حيث لا أحتسبها، ونفحت نفحات من كرم الله وما كنت إذ ذاك أرتقبها، فأزعجت للسير بعض الإخوان، إزعاجا لا يمكن رده بالمال والأعوان، فرمت صرفه عن ذلك بما صرفني، ومنعه عنه بما عنه منعني، فصارت الموانع عنده بواعثا، وعاد عزمه لكل عقد عقدناه ناكثا، فلا أذكر له دليلا إلا رماه وراءه ظهريا، فعلمت أن الوارد بذلك قهريا، لا تمكن مدافعته، ولا تحسن مراجعته.

فائدة:

كنت مذ تقوّى العزم مني في السنين الماضية كثير الاستخارة لله تعالى في خلال ذلك بالكيفية الواردة في الصحيح، فلا يقع في العزم فتور، أو يبدو مانع عن التوجه المذكور، إلا طبت نفسا بالواقع رضى بخيرة الله وتصديقا بالوعد، إلى أن يسر الله المأمول في هذه السنة مع العوارض المذكورة والعوائق المشهورة، لم أرتب أن المنع فيما مضى والتيسير الآن لم يكن إلا لخير أراده الله تعالى[1] ممن ألقى إليه أزمة اختياره، وسلم إليه أمر تدبيره في إيراده وإصداره، فلم أزل بعد ذلك أتعرف حسن اختيار الله لي فيما صرفني عنه وصرفني إليه شيئا فشيئا، وتبدو لي اللمحة منه بعد اللمحة، فأحمد الله على ذلك كثيرا، فلا تعلم نفس ما أخفى لي في ذلك من قرة أعين[2]، فلله الحمد على ما أنعم والشكر على ما ألهم. فعلى المؤمن المهتم بإصلاح حاله دينا ودنيا أن لا يغفل عن الاستخارة في مهم عرض له، مع توطين النفس على الرضى بما يجريه القضاء، واعتقاد أنه الأولى، ثقة بوعد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. وقد منَّ الله علي بعد ذلك بملازمة الاستخارة في كل شؤوني والإعراض عما هو من قبيل الطيرة وما شاكل ذلك، والاهتبال بالمرائي

---

(1) ساقط من ط.
(2) إشارة إلى قوله تعالى: (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون): السجدة: 17.

الموحشة، فحيث لم ألتفت إليه بالكلية، فلم أر من الله في كل أحوالي إلا خـــيرا، وإن خفي عني ذلك في بعض الأحيان اعتقدته حتى يبدو لي ما أراد الله ابتداءه من ذلك، والله المسؤول أن يتم نعمته علينا، ويديم إحسانه إلينا،إنه سميع مجيب.

ذكر ابتداء التهيئ للمسير في ذلك الأمد اليسير

وحين رأينا من الأخ المذكور قوة عزمه، وشدة إقدامه على القدوم وحزمه، لم يمكن إلا مساعدته، إذ لم تغن مواعدته، فارتفعت الموانع قهرا، وأذن من كان نهى دهرا، وركبنا للتهيئ للسفر كل صعب وذلول، وطبنا أنفسا بمفارقة المنازل والطلول، فيسَّر الله غالب المحتاج إليه في أقرب مدة، وجعلنا الاعتماد عليه فيما تيسر وتعسر أقوى عُدة، وكان العزم منا وقد بقي من الشهر نحو من نصفه، والركب في سجلماسة[1] قد عزموا على الخروج في ذلك الوقت لطول إقامتهم بها وغلاء الأسعار، فوجهت كتابا إلى أمير الركب الأخ الصالح، والمحب الناصح، سيدي محمد بن محمد الحفيان رضي الله عنه، أخبره بقدومنا عليه وعزمنا على التوجه، وكان يحب ذلك كثيرا لما بيننا وبينه من الألفة و المودة، وما كنا نحج قبل ذلك إلا معه، فجزاه الله خيرا من أمير هو في الحقيقة خادم لرعيته، وساع في مصالح أهل رفقته، قد جمع الله له ما زانه به من الأخلاق الحسنة حياء وكرما وصبرا وشجاعة وديانة وحلما. وسألته أن يثبط الحجاج ويستوقفهم لنا ريثما نيسر من أمرنا أيسره، وأخبرته أني خارج أول الشهر، وكتبت أيضا إلى من له من أهل الركب وجاهة أو كلام يسمع، كصاحبنا الفقيه النبيه المحترم الوجيه، قاضي مدينة مراكش وأعمالها، وأحد قضاة العدل في مغربنا على اختلاف أعمالها، سيدي أحمد الخطيب[2]. فلما وصلهما كتابي وجدهما قد تهيئا للخروج، وشق على الحجاج انتظارنا، والعذر لهم[3] في ذلك مبذول، فبذل كل واحد منهما وسعه في سياسة الحجاج وتثبيطهم، وتحيلا في ذلك من الحيل ما هو معدود في حسناتهما،

(1) سجلماسة: في صحراء المغرب، بينها وبين البحر عشرة مراحل، وهي على نهر يقال له زيز، وهي مدينة كبيرة كثيرة العامر، وهي مقصد للوارد والصدر: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 1:225. الروض المعطار، ص: 305.

(2) أحمد الخطيب المراكشي: وصفه صاحب الإعلام ــ نقلا عن الرحلة العياشية ــ بالفقيه النبيه المحترم الوجيه، قاضي مدينة مراكش وأعمالها، وأحد قضاة العدل في المغرب على اختلاف أعمالها: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام 2:320.

(3) في ط: لهم.

فجزاهما الله خيرا، وأنا في خلال ذلك في غاية الانزعاج، والسعي في أمور المشي على استقامة تارة واعوجاج، وكنت كثيرا ما أنشد في تلك الأيام قولي[1]:

[رمل]

فَـوض الأمـرَ إلى مـن حكمـه نافِـذ في كـل وِرد وصـدر

وإذا نازَعـك الـوهمُ فقـل كـل شـئ بقـضَاء وقَـدر

وأسندت التراع إلى الوهم دون العقل، لأن العقل لا ينازع في ذلك إلا عند غلبة الوهم عليه. ولما جد جد البين وأزيحت العلل وزال المَيْن[2]، عظم فراقنا على كل من له بنا تعلق، وأكثرواْ التضرع في ذلك والتملق، و لم يدعوا حيلة في تثبيطنا إلا ارتكبوها، ولا حبالة إلا نصبوها، وبعثوا في ذلك إلى شيخنا ومفيدنا، وهادينا ومرشدنا، سيدي أبي محمد عبد القادر الفاسي[3]، رضي الله عنهم[4]، يستنجدون به فيما أرادوا من التأخر هذه السنة، وكتب رضي الله عنه إسعافا لرغبتهم، يشير بجَبْر خواطرهم، والجري على مقتضى أوامرهم، وقد – والله – امتثلت إشارته، وقبلت سفارته، لولا العذر الذي تقدم آنفا، وغلبة القدر الذي لا نجد له مخالفا، ولقد قال لي في أثناء المداعبة بعض من يتمنى المصاحبة: ما كان مشيُك هذا إلا فرارا من هذه السنة الشهباء التي أكثرت في القرى حرقا وفي الأقوات نهبا، وفي ذلك قلت:

[متقارب]

وقـالوا: فـررتَ ولـيس الفـرارُ لمثلـك في القـوم مـن فعلـهِ

فقلـت: فـررتُ إلي المـصطفى ومثلـي يفـر إلى مثلـهِ

---

(1) ورد البيتان في: النبوغ المغربي 3:819. كتاب: أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، ص: 408.
(2) المين: الكذب: لسان العرب: مين.
(3) أبو محمد عبد القادر بن علي بن الشيخ أبي المحاسن الفاسي، إمام مشارك، وعالم متصوف، ولد عام سبعة وألف، أخذ عن أئمة كبار، كالحافظ المقري، وأبي الحسن بن الزبير، وغيرهما. تولى خطة التدريس بزاوية سيدي عبد الرحمن، توفي سنة واحد وتسعين وألف للهجرة: خلاصة الأثر 2:444، التقاط الدرر، ص: 117–181. الأعلام 4:41.
(4) في ط: عنه.

وقال آخرون في محاورتهم عندما رغبت عن مجاورتهم[1]: ما قصدت إلا الإضرار بإخوانك، والفت في عضد أعوانك، والمرء - كما قيل - كثير بأخيه، وقل من يعدم إصابة الغرض في تأنيه وتوخيه، وفي ذلك قلت:

[طويل]

أحبة قلبي لا ضرار ولا ضرر ... ولكننا نرضى بما ساقه القدرْ

سأنفعكمْ في غيبتي بالدعاء في ... مواقف حجي حيث أصفو من الكدرْ

ولست بناس عهدكم ووداكم ... و إن طالت الأيام واتصل السفرْ

يذكرُنيكم كل حسن رأيته ... ولا سيما برد العشية والسحرْ

ولقد نفعتهم، والله، أي نفع، ودفعت عنهم مع غيبتي أعظم دفع، وأي نفع ودفع أعظم من المثول بين يدي النبي، صلى الله عليه وسلم، بكرة وعشيا في أوقات الشدائد التي كانت عليهم، والأهوال التي طارت[2] لديهم، أستشفع به إلى الله في دفع الأسواء، وإزالة الأدواء، وما غفلت عنهم ولا عن واحد من أحبائي، وخالصي أودائي، إلا في أيام المرض التي غفلت فيها عن نفسي، وكدت أغيب عن حسي، وإني لأرجو لي ولهم حصول بركات تلك الأوقات، في سائر أحوالنا في المحيا والممات.

ولما علمت أن نفس الناظر قد تتشوق إلى القصائد المدحية التي ذكرنا أولا أن بركتها هي التي أزالت العوائق، ونهجت لنا الطرائق، أردت أن أذكرها، وذكرها بتمامها يستدعي طولا، وقد أفردنا لها محلا لما جمع الله شملها بأخواتها، ولكن أذكر منها بعض أبيات تناسب المقصود، وترغم أنف الحسود، فمن ذلك مطلعها المحمود، وهو[3]:

[طويل]

أقولُ وحمدُ الله أجعله بدَءا ... مقالَ مريض قلبةُ يطلب البُرْءا

(1) في ط: مشاورتهم.
(2) في ط: صارت.
(3) وردت القصيدة في: التوجيهات (مخطوط الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط، ضمن مجموع، رقم: ك 1773) الورقة: 130.

مديحُ رسولِ الله طِبُّ عَلائلي ... وردِءي من الأهوال حَسبي به رِدْءا

فقلبي به جذلانُ والروحُ ناعم ... وعيني به قرتْ وكفي به مَلْئا

إذا نابني أمرٌ فزعتُ لمدحه ... فأُعْطى به خيرا وأُكفا به رزءا

نبيٌّ له الخلقُ الكريمُ وكُملتْ ... محاسنهُ لا نقصَ فيها ولا سوءا

فبكر الشفاعة العميمة ما ارتضت ... وكم خاطب غير ابن آمنة كفؤا

يقول، وقد حار الفحول: أنا لها ... بمسمعِ أهل الجمع طرا وبالمرأى

فيشفعُ بدءا ثم يرجع عائدا ... وقد حمدوا من أحمدَ العوْدَ والبدءا

ومن ذلك في قافية الثاء[1]:

[طويل]

هنيئا لمنْ قد زارَ طيبةَ لابثا ... إلى الموت فيها لا عدمتُ بها اللُّبثا

فمنْ حلَّ فيها طابَ حيا وميتا ... فقد صحَّ فيها أنها تدفعُ الخبثا

فَحسن بجيران النبي جميعهم ... ظنونك وامدحْ كلهم ودعِ البحْثا

هو الليث هم أشبالهُ وهْيَ غابهم ... ومن أغضبَ الأشبال فليتقِ الليثا

فيا ليت شعري هل أرى طيبة وهل ... أحث ركابي في زيارتها حثا

وهل أقِفَن ما بين قبر ومنبر ... أصلي، وكم سرٌّ هنالك قد بُثا

أناجي رسولَ الله بالسِّر تارة ... وأشكو إليه بعدها الحزن والبثّا

وأطلب من مولاي مستشفعا به ... هدى وسرورا قارن الموت والبعثا

ومنها في قافية الجيم[2]:

[طويل]

(1) وردت القصيدة في التوجيهات: 138.
(2) وردت القصيدة في: التوجيهات ص: 139.

جمَاعُ الهدى في حب أحمـدَ أُدرِجـا ... فما لِي سواهُ في الـشدائدِ مُلتجـا

إذا ضاقَ بي أمرٌ وكانـتْ وسـيلتي ... إلى الله مـدحِي للـنبي تَفرَّجـا

وقِدْما بـه قـد فـرج الله كُـربتي ... ويَسَّر لي من فـضله كـل مرتجـا

وجربتُ في دفع الرَّدى كل حيلـة ... فلم أرَ في شيء سوى مدحه النَّجـا

فما المـدح إلا مـا يخُـصُ جنابَـهُ ... ومدح سـواهُ في الحقيقـة كالهِجـا

ولم أر في نيـل المـنى كتوسـل ... به سيما إن غلب الـسائلُ الرجـا

وأخْلصَ فيـه القـصدَ لله وحـده ... وناجى به مولاهُ في ظلمـةِ الـدجى

وحاشـا إلهـي أن يخيـب سـائلا ... لخير عبـاد الله كـان لـه اللجـا

فيـا رب فاجعـلْ لي بجـاه محمـد ... حبيبكَ من كل الـشدائد مخرجـا

وجدْ لي بما يُرضيك عني وأهتـدي ... إليك به ربي مـن العلـم والحِجـا

ومُنَّ على ضعفي ونُـور بـصيرتي ... بنورك في ليل الخطوب إذا سـجى

ولا تجعلِ الدعوى مقـاميَ والهـوى ... إماميَ واسلُك بي إلى الحق منـهجا

ويَسرْ إلى البيـتِ العتيـقِ وفـادة ... لعبدكَ لا يشكو كلالا ولا وجـا[1]

وأخرى إلى خيْـرِ الـورى وإقامـة ... هناك فمـا أحلـى المقـام وأبهجـا

فيا طيب ذاك العيش لو نلتـهُ فمـا ... أشـد إذًا فقـري إليـه وأحوجـا

فيا خير خلق الله مـا لي أُذادُ عـن ... حماك وقدما كنتُ نحـوك مزعجـا

إذا هاج شوقي رمتُ نحوك رحلـة ... فعاد صحيحُ العـزم مـني أعوَجـا

فكم مـرة صـممتُ دون تـردد ... وألجم مني العـزم خـيلا وأسْـرُجا

فيصرف شؤم الذنب وجهي وينطفي ... من العزم ما قد كان من قبل مسرجا

---

(1) الوجا: شدة الحفا: لسان العرب: وجا.

وما ذاك إلا مــن خــصال كريـمــة ... بها صالحُ الأعمالِ قد صــارَ بهرجــا

سلِ الله يــرزقني اتباعــك سـيدي ... فلم يــنجُ إلا باتباعــك مــن نجــا

وصلِّ وسلمْ يــا إلهــي عليــه مــا ... غدا قاطعا في سيره البــدرُ أبْرجــا

صلاةً تفوق الحصرَ منــك أعُــدها ... لــصالح أعمَــالِي لبابــك معْرجــا

ومن ذلك في قافية الخاء[1]:

[طويل]

سريعٌ لبذلِ المال إن جــاء ســائلٌ ... وللطعن في الهيجاءِ إن جاء صــارخُ

إذا لم ينلْ منــه المؤمــلُ كــل مــا ... رجاهُ لعذرٍ فهْــو لاشــك راضــخُ

بمدحكَ قرتْ عــينُ كــل موحــدٍ ... وحَن إليه القلبُ والــسمع صــائخُ

إذا تُليــتْ آياتــهُ زاد وجــدهُ ... وباتَ ودمعُ العين للخــد ناضــخُ

فهــل لي وصــلٌ والمهامِــهُ بيننــا ... وبينــك قفــرٌ والجبــال بــواذخُ

وأرضٌ يحارُ الفكرُ في قطعهــا فمــا ... تعــد بــه أميالُهــا والفراســخُ

يحارُ القطا في قطعهــا وتكِــل عــن ... تجاوز أدناهــا المطايــا الــدوائخُ[2]

فيا بُعدَ ما أرجو من الوصــل إنــني ... من المال صفرُ الكف والرجل بائخُ[3]

فما تركَ المــشتاقُ للوصــل حيلــةً ... وما ساعدَ التوفيقُ بــالعزم رائــخُ[4]

أ أرجــو وِصــالا للــنبي محمــد ... و إني لثوب التوْب بالذنب لاطــخُ

عليه صــلاة الله تمحُــو جرائمــي ... كما أن ضوءَ الصبح لليــل ســالخُ

ومن ذلك في قافية الدال:

---

(1) وردت القصيدة في التوجيهات ص: 145.
(2) الدوائخ: التي تدوخ المكان؛ أي تجول فيه: لسان العرب: دوخ.
(3) بائخ: عدا حتى باخ؛ أعيا وانبهر: لسان العرب: بوخ.
(4) رائخ: من راخ، أي لان واسترخى: لسان العرب: ريخ.

[طويل]

أرومُ ارتحـــالاً نحـــوهُ فتـــصُدني ذنوبٌ بها قد صرتُ في الغل والقيـــدِ

فصرتُ معنى لا الوصـــالُ يُتـــاح لي ولا المكثُ يهنا لي لما بي من الوجـــدِ

رضيتُ بما يقضي به الله مـــن نـــوى وبُعدِ مكان ما سلمتُ مـــن الـــصد

فكيفَ أخافُ الصدَّ والمدحُ شـــافعٌ إليه وما يحوي الفـــؤادُ مـــن الـــودِ

فإني وإن حالَ القـــضا دون وصْـــله فقلبي بفضل الله باقٍ علـــى العقـــدِ

ولا يأسَ مـــن روح الإلـــه ففـــضْلُه عميمٌ فلا يُحصى بحـــصرٍ ولا عـــد

عسى نفحة منـــه يهـــب نـــسيمُها فتجذبني من غير عـــزم ولا قـــصدِ

فيا خيرَ خلقِ الله ضـــاقت مـــذاهبي وقلبي في سهو عظيم علـــى عمْـــدِ

وقد سَاءني ما نالني مـــن بِعـــادكم وقد غاظني غيظ الأسير على القيـــدِ

أُصـــبرُ نفـــسي تـــارة ثم تـــارة أُعلـــل إن عـــز التـــصبرُ بالوعـــدِ

وهل نافعٌ وعدُ امرئ لا يفـــي بـــه وليس لمصدورٍ عن النفثِ مـــن بُـــد

ومن تأمل ما أبديته في هذه القصائد من لطيف الخطاب، وحسن المـــترع الذي يستلذ في الأسماع ويستطاب، وبارع التوسل بأفضل رسول، وفي بلوغ المنى والسؤل، لم يرتب أن بركتها لي مزعجة، وأن مقدمات سعيي لبلوغ الوطر منتجة.

لطيفة:

أخبرني الشيخ الراوية أبو مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجعفـــري[1] عـــن بعض أكابر مشايخه أنه كان يقول: إن للقصائد، خصوصا إذا كانت عن حضور قلب، أثرا عظيما في تفريج الكربات، ونيل الرغبات، أعظم من أثـــر الأوفـــاق والدعوات وترتيبها في الخلوات، وقد جرب ذلك فظهر صدقه، ولا يبعد أن يكون

(1) عيسى بن محمد الثعالبي الجعفري، من فقهاء المالكية الكبار، جاور بالمدينة المنورة مدة، وتوفي في رابع وعشرين من رجب عام 1080هـ: خلاصة الأثر 3:240، التقاط الدرر، ص:179. الأعلام 5:108.

لترتيب الألفاظ على وزن مخصوص ينشرح معها الصدر للتضرع واللجإ إلى الله، ويقوى معه الرجاء في حصول المطلوب، خاصية في تسهيل المقاصد، وأغرب من ذلك ما رأيته في بعض التقاييد بعد قول الشاعر[1]:

[طويل]

وكنتُ إذا ما جئتُ سُعدى[2] أزورُها   أرى الأرض تُطوى لي ويدْنو بعيدُهَا

من الخفرات البيضِ ود جليسُها   إذا ما انقضت أحدوثةٌ لو تعيدُها

قال ابن عديس رحمه الله: إن هذا الشعر ما قيل في طريق إلا سهلت، ولا مكان مخيف إلا أمن فيه، ولا مجاعة إلا حصل الشبع، ولا معطشة إلا حصل الري، وذلك لخاصية في حروفه، وهو مما سمع من كلام العرب.

قال: ومن هذا المهيع[3] أن هذا الشعر الآتي ما قيل ثلاث مرات في ضيقة إلا فرج الله عن قائله، وهو:

[رجز]

كم حاصرتني شدةٌ بجيشها   وضاقَ صدري من لقاها وانزعج

حتى إذا أيِستُ من زوالها   جاءتني الألطاف تسعى بالفرج

انتهى.

قلت: وما ذكر من كون الخاصية في ترتيب الحروف قد ذكر نحوه بعض أهل الطريق في توجيه كون بعض الأذكار يعزى إليه من الخواص ما ليس لغيره،مع اشتماله على ما فيه وزيادة، والله أعلم.

---

(1) ورد البيتان بلا نسبة في كتاب: التذكرة الفخرية 2:97. نثر المثاني 2:139.
(2) في ط: ليلى.
(3) مهيع: طريق مهيع: واضح واسع: لسان العرب: هيع.

لطيفة:

ظفرت في بعض التقاييد بسر من أسرار الله الحسنى وذلك اسمه تعالى: الكافي الغني الفتاح الرزَّاق، ومن لازَم ذكر هذه الأسماء وهو يتمنَّى شيئاً حصل له بفضل الله. ولما عزمنا على المشي وأخذت[1] في جمع أسباب السفر، وأهمني أمر الرواحل إذ لم يكن عندنا منها شيء، وضاق الوقت غاية عن[2] السعي في ذلك، وجعلتُ هذه الأسماء من ورْدي وأضفتها إلى التهليل، فما مضت ثلاثة أيام أو نحوها من يوم شرعت في ذلك إلا وقد يَسَّر الله العظيم، ومنح من خزائن جوده الواسعة ما فضل عن الكفاية، ولله في أسمائه أسرار، تضيق عن حملها الأسفار، فمن لازم هذه الأسماء بصدق وهو يتمنى مقصوداً محمودا شرعا ويسعى في إدراكه، يسر الله له بمنه "وكرمه"[3].

(1) في ط: أخذنا.
(2) في ط: على.
(3) زيادة من ط.

ذكر خروجنا من البلد ووداع الأهل والوالد والولد

خرجنا من بلدنا والعجلة لنا حادية، وعناية الله هادية[1]، صبيحة يوم الخميس أول يوم من ربيع الثاني، وتوخينا ذلك اليوم رجاء بركة قول النبي، صلى الله عليه وسلم، اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم الخميس[2]. وقد برزنا أمس ذلك اليوم إلى خارج البلد بإخراج الخباء والأمتعة والرواحل، ليتهيأ لنا التبكير المقصود. وبعد صلاة الصبح من يوم الخميس خرجت إلى زيارة قبر الوالد[3] رضي الله عنه ووداعه، ثم ودعت الأهل والعم والوالدة، وودعوني وأودعتهم الله الحفيظ وأودعوني، وقرأت من الآيات والأذكار ما وردت في قراءته عند الخروج من المنازل الآثار[4]، وجعلت آخر عهدي بالمسجد، وشاهدت بركة امتثال السنة في كل ذلك في المستقبل، ثم خرجنا إلى مخيمنا حيث الخباء والرواحل، وزرنا قبر الرجل الصالح سيدي عبد الله المازغي الدادسي، وكان بإزاء المترل. ثم أخذنا في الترحال عند طلوع الشمس من المترل الذي برزنا إليه بالأمس، وودعنا هنالك كثيراً من الأصحاب، وجملة من الأولاد والأحباب، في موقف مدت الأيدي فيه إلى الله ضارعة، وجأرت[5] الألسن بالدعاء بقلوب خاشعة، وتتابعت الزفرات، وأثارها الحسرات، وغبط المقيم الذاهب، وشكر الظاعن الواهب، ومزجنا بحلاوة المتوقع مرارة الواقع، وقد يستشفى من بعض الأدواء باحتساء السم الناقع.

وحين فارقت الولد، والغرام فيه خصم ألد، سكبت من الدموع سجلا، وقلت أودعك الله نجلا، وفي ذلك أنشدت[6]:

---

(1) في ط: بادية.

(2) سنن ابن ماجة 752:2.

(3) هو محمد بن أبي بكر العياشي مؤسس الزاوية العياشية، أخذ عن عدة شيوخ، وكانت بينه وبين الجميع صحبة ومخاطبات كما يقول ولده، توفي سنة 1067هـ: اقتفاء الأثر، ص: 103، التقاط الدرر، ص: 129. صفوة من انتشر، ص: 242.

(4) في ط: وردت الآثار في قراءته عند الخروج من المنزل.

(5) في ط: عبارات: وجأر: يجأر جأرا: رفع صوته بالدعاء مع تضرع واستغاثة: لسان العرب: جار.

(6) ورد البيتان، الأول والثاني في كتاب: أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، ص: 434.

[كامل]

أبُنيّ إني مــا تركتُــكَ عــن قِلــى | مني وأختك مــا قللــت وصــالها
لكمــا بقلــبيَ رحمــةٌ ومــودةٌ | بنياط قلبيَ قــد عُقــدت حبالُهــا
لكن مــنْ طلــبي العزيــز يلَــذُ لي | تركــي العزيــزَ بمــاءه وجمالَهــا
إني ليُــذْكرني بمــا داعــي الهــوى | فــأقولُ مــالي إذا يئــستُ ومالهــا
قد ذقتُ بُعدكما وبُعــديَ ذقتمــا | نارَ الفــراق ومــا أمــض وبالهــا

وزاد معنا بعض الإخوان والجيران، ممن هو في تخلفه عنا حيران، ولم يرجعوا إلا من مسيرة فرسخ أو أكثر، وأفكارهم في أذيال الحسرة تتعثر، وربما أذكــرني الوهم بعد المسير، محاورة الأهل قبل ذلك بيسير، وقولهم: لقد حملت نفسك من البين ما لا تطيق، وألزمتنا من فراقك ما عنه نطاق الصبر يضيق، فأنشدت في ذلك واصفا للحال، والقلب عن تذكره ما مال[1]:

[طويل]

ولم أنسهَا يقظانــةَ الهــم في الحــشا | مُبلبلة الأشجان وســنانةَ الطــرفِ
تقولُ وقد جَــد الرحيــلُ أهكــذا | تُحملني ثقل الفراقِ علــى ضــعْف
أتتركُ أفراخا كزَغبِ القطــا ومــا | رحمتَ بنيك إذ سلوتَ عن الإلْــفِ
فقلتُ لها: كُفي المــلامَ وأعرضــتْ | كخِشْف[2] النقا[3] تستعرض الــدمعَ
فودعتها والقلــبُ منطبــقٌ علــى | أساهُ ودمعي لا يمل مــن الوكــفِ
عليــك ســلا مٌ لا زيــارةَ بيننــا | مع البعدِ إلا أن أزورَ مــع الطيــفِ

وسرنا يومنا ذلك إلى العصر، ولم نصل إلى حلة ولا قصر، لقِصر النهار في ذلك الفصل، مع ما كان يُثبِّطنا عن المشي من أسباب الفصل والوصل، فبتنا قريباً من خنق تليشت في أرغد عيش، وزال عنا بعض ما كنا فيه من الطيش، إذ كنــا

(1) وردت الأبيات في: النبوغ المغربي 743:3.
(2) الخشف: الظبي: لسان العرب: خشف.
(3) النقا: كثبان الرمل: لسان العرب: نقا.

قبل ذلك في أشد ما يكون من القلق، خوف التعويق عن الركب لأنهم عـــازمون على الخروج من سجلماسة، وخشينا ألا ندركهم، ورســـلنا تتـــابع إلـــيهم أن ينتظرونا، ورسلهم تترادف إلينا تستحثنا، فأقلقنا ذلك و لم يلذ لنا مكث في البلد ولا قرار حتى خرجنا، وبات معنا تلك الليلة أخونا سيدي محمد، وكان خـــرج ونيته التوجه معنا، ثم عرض له في تلك الليلة عارض مرض، فرجع من الغـــد إلى البلد، فشق على النفس رجوعه، وسالت على ذلك من الجفن دموعه، وكان ممن يعتد به في الطريق، ويرى فيه خير رفيق، وتألمنا لفراقه غاية، ولكن في الله الكفاية.

لطيفة:

مما ألهمته عند ذلك التألم الرجوع إلى الله، والاستغناء بـــه عمـــن ســـواه، وأكثرت من قول حسبنا الله ونعم الوكيل، وجعلته وِرْدي ذلك اليوم، فظهر سر ذلك وبركته، فقد جاء في الأثر أن من نزل به أمر وأكثر الحسبلة جعل الله له منه فرجا ومخرجا، والكتاب العزيز مرشد إلى ذلك بقوله: "فانقلبوا بنعمـــة مـــن الله وفضل"[1]، الآية، بعد قوله: "وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل"[2].

وقد قالت زينب[3] بنت جحش[4] لعائشة رضي الله عنهما في كلام جـــرى بينهما: ماذا قلت حين حملك صفوان[5] على جمله؟ قالت: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت زينب: لقد وفقت لما وفق إليه خليل الرحمن حين ألقي في النيران.

وهذا من السر المكنون، فينبغي للمؤمن إذا نابه أمر أن يلجـــأ أولا إلى الله تعالى في دفعه مخلصا في ذلك، فلا يشوبه نظر إلى حوله وقوته وحيلتـــه وتـــدبيره فضلا عن حول غيره، ثم يكثر من الذكر المأثور، مستحضرا لمعناه، واثقا بوعد الله، فانه يرى عجبا. ولقد شاهدنا ذلك في هذه النازلة وغيرها، حتى رأينا من لطفـــه

---

(1) آل عمران:174.
(2) آل عمران: 173.
(3) ساقط من ط.
(4) أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، توفيت سنة عشرين: شرف الطالب في أسنى المطالب، ص: 12.
(5) صفوان بن المعطل بن رخصة، من الصحابة، تكلم عنه أهل الإفك، اختلف في تاريخ وفاته، ورجح صاحب سير أعلام النبلاء أن تكون سنة 19 هـــ: سير أعلام النبلاء 2:547.

تعالى بنا وتوليه لنا في كل أمر وكفاية لما نعده في سالف الدهر، ما لا يخطر ببال، ولا ينال بمنال.

غريبة:

ولقد بكيت في ذلك اليوم بدموع غزيرة، كادت أن تنفضح منها السريرة، فظللت أتفكر في ذلك، وأقول لقلبي عجبا لحالك، كم شاهدتِ للبين قبل هذا من مواقف، وفارقت اليوم من أصحاب ومعارف، وتجرعت من كؤوس الفراق، الذي لا يرجى بعده تلاق، وما كان الجفن في كل ذلك يسمح بقطرة، بل غاية ما يقع زفرة تثيرها حسرة، وأراك لهذا الفعل المرتضى، قد خالفت عادتك فيما مضى، فما السبب في هذا، وخرق هذه العادة لماذا ؟. فألقي في روعي أن القلب لما قسا قسا في كل شيء، ولما لان بفضل الله لان في كل شيء. فحمـــدت الله وشـــكرته، وعلمت أن العلة ما ذكرته، وما يقضي الله من قضاء لعبده المؤمن إلا كان خـــيرا له.

ثم سرنا يومنا ذلك إلى الليل وبتنا في تعلالن، ومن الغد ارتحلنا، وهـــو أول يوم من أيام الشتاء، ودخلنا الخنق[1] ونزلنا بقصر بني عثمان، وبتنا فيه ولقيت هناك محبنا الفقيه النبيه المقرىء المجيد محمد بن محمد السوسي، وبات معنا، وهش وبش وأنس وأحسن قدر وسعه، وودعناه هناك واستودعنا عنده صالح الدعاء. ثم ارتحلنا من هناك وزرنا عشية ذلك اليوم بمدغرة قبر الإمام الحسيب النسيب الحافظ اللافظ المقرىء المحدث مولاي عبد الله بن علي بن طاهر الحسني[2]، نفعنا الله به. وبتنـــا تلك الليلة عند ولده الذرية الطاهرة، والسلالة الطيبة الباهرة، الفقيه الأرضى السني المرتضى، الحسن الأخلاق الطيب الأعراق، مولاي محمد المدعو ابن علي[3] رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا بمحبته، فقد بالغ في الإحسان، بما قرت به عين كل إنسان، وأجزل القِرى لحجاج أم القرى، فلم يدع خيرا إلا فعله، ولا ميسورا إلا بذله، من

(1) الخنق: بالقاف المعقودة، والخنق هو ممر ضيق في الجل: أنس الساري والسارب، ص: 27/ هـ 2.
(2) أبو محمد عبد الله بن علي بن طاهر بن الحسن بن يوسف الحسني السجلماسي، عالم عامل، توفي عام 1044 هـ: التقاط الدرر، ص: 97، نشر المثاني1:321، فهرس الفهارس 1:469.
(3) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن علي، المعروف بمولاي بن علي، فقيه مشارك، حج ولي المشايخ، توفي بالطاعون عام 1089 هـ: صفوة من انتشر،ص: 341. إتحاف الأخلاء، ص: 90.

طعام وشراب، وعلف دواب، وغير ذلك نسأل الله أن يكافيه عنا بأحسن المكافأة، ويحفظه دنيا وأخرى من جميع الآفات. فبتنا عنده في نعمة كاملة ومسرة شاملة، واغتنمنا بركة لقائه وصالح دعائه، واستودعناه الدعاء في خلواته وأدبار صلواته، فتكفل بذلك لنا، ورأيناه من أجل نعم الله علينا، وعقدت معه عقدة الأخوة في الله تعالى، أكرم به من عقد لا تحله يد الحدثان، وما لصروف الدهر عليه بفضل الله يدان. نسأل الله أن يحشرنا به في ظل العرش، ويصفي قلوبنا من كدورات[1] الغش.

لطيفة:

مما استفدته من مولانا المذكور حفيظة تلقاها من والده، رضي الله عنهما، تقرأ في محل الخوف، وهي آية الكرسي ثلاث عشرة مرة إلى (العظيم)، وسبع عشرة إلى (خالدون). وذكر لنا حفيظة أخرى وهي سورة يس معها بسم الله الرحمن الرحيم إحدى عشرة مرة.

ثم ارتحلنا من عنده ومررت بالفقيه النبيه الدراكة المتفنن سيدي أبي بكر بن علي بن محسن، فودعناه وأودعناه الدعاء الصالح، وتوفي رحمه الله أيام غيبتنا بالحجاز في أوائل سنة اربع وسبعين والف. ولم نترل ذلك اليوم إلى وادي الرتب عند رئيس البلد محمد بن جعفر، وأحسن الترل، وأطعم الجزل، فجزاه الله خيرا.

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا بزاوية سيدي أحمد بن عبد الصادق، فتلقانا ولده سيدي بن عبد الله بالبر والتعظيم، والترحيب والتكريم، فوجدنا بين أهل بلده فتنة عظيمة، وحاصر أحد الفريقين الآخر، واستعانوا بأمير البلد، وقطعوا لهم مئين من النخل، والله يخمد نار الفتنة.

ثم ارتحلنا صباحا وتلقانا في الطريق الشريف العفيف الفقيه اللبيب المجتهد في دينه، المتحري في دنياه مولاي محمد بن عبد الله بن سعيد[2]، وهو ممن تأكدت المعرفة والمحبة بيننا وبينه قبل ذلك، واستودعناه الدعاء وتكفل به، وذلك أيضا من أجل النعم لدينا.

---

(1) كدورات: جمع كدر؛ نقيض الصفاء: لسان العرب: كدر.
(2) في ط: السعيد.

لطيفة:

استفدت من مولانا المذكور حفيظة تستعمل في محل الخوف، وهي سورة يس خمسين مرة، قال: ما قرئت في أمر مهم إلا حصل.

ثم سرنا يومنا ذلك، ودخلنا سجلماسة عشية، ونزلنا بمصلى العيد خارج قصبتها، ووجدنا الركب قد نزلوا الغرفة خارج سجلماسة منذ أيام، وخرج أمير الركب سيدي محمد بن الولي الصالح سيدي محمد الحفيان يوم دخولنا لسجلماسة، وكان وصولنا يوم الأربعاء والركب قد عزم على الخروج يوم الخميس، فلما بلغه خبر قدومنا رجع إلينا وقام معنا في حوائجنا أتم القيام، فجزاه الله خيرا، وأخر الخروج بسببنا إلى يوم السبت، فلم نقم في البلد إلا يومين، وما كدنا أن نصل فيها إلى غرض من الأغراض لضيق الوقت، وقضينا من الحوائج ما أمكن، ولم نتفرغ لزيارة الصالحين الأموات، ولا لقاء الأفاضل الأحياء، فما زرنا من مزاراتها إلا قبر الولي الصالح سيدي عبد الله الدقاق[1]، وكفى به. وما تركنا زيارة غيره رغبة عنه بل لما ذكر من الاستعجال. والشيخ الدقاق ممن ظهرت بركته، وهو ممن ذكره التادلي[2] في كتاب[3] التشوف[4] وآثر من أحواله و كراماته ما يدل على شرف قدره، ونباهة أمره، وهو من أهل السادسة، والله أعلم.

ولقينا[5] من أفاضلها ومجمع فواضلها، وأمثل أماثلها، وواسطة عقد نبلائها، وزين محافل رؤسائها، وأنموذج علمائها، جامع الشرفين، وطيب الطرفين، مولاي محمد بن مبارك[6]، أسخى أهلها يدا، وأرشحهم ندى، وأكثرهم إنفاقا، وأحسنهم

---

(1) عبد الله الدقاق، من أهل سجلماسة وأحد كبار مشايخ التصوف، أخذ عن أبي مدين وأبي عمرو التلمساني، كان يتردد كثيرا على فاس: التشوف إلى رجال التصوف، ص: 156.

(2) التادلي: أبو يعقوب يوسف بن يحيى المغربي، المعروف بابن الزيات، علامة مؤرخ، له تأليف في صلحاء المغرب وشرح لمقامات الحريري، توفي وهو قاض بدقواق سنة سبع أو ثمان وعشرين وستمائة للهجرة: شجرة النور الزكية 1:265.

(3) ساقط من ط.

(4) التشوف إلى رجال التصوف، ص: 156.

(5) في ط: لقيت.

(6) محمد بن مبارك السجلماسي المغرواي، فقيه نحوي، توفي في ربيع الأول من عام 1092 هـ: التقاط الدرر، ص: 222.

أخلاقا، فواسى بالنفس والمال، واستمال كل قلب منا فمال، فجزاه الله عنا وعن المسلمين أحسن الجزاء، ووقاه سائر الأرزاء.

ولقينا[1] أيضا خطيب جامعها الأعظم، ومدرسها الأفخم، الفصيح اللسان والثبت الجنان، ذا الهمة العالية، والوجاهة السامية، مولاي محمد بن عبد الله بن السيد[2]. ولقيت بها أيضا يوم الجمعة في مصلى الأمير الأخوين الفاضلين الفقيهين النبيهين اللبيبين المدرسين سيدي أحمد بن محمد[3] وأخاه محمد[4] التاجموعتين، و لم يقتض المحل في الملاقاة اتساعا، فكان السلام معهما وداعا. ولقيت أيضا في ذلك المجلس الفقيه الأجل، القاضي الأبجل، سيدي رضوان. وأما الأخوان الأمجدان الأسعدان الفقيه المدرس سيدي العربي بن عبد العزيز وأخوه الأديب الأريب سيدي أحمد[5] فلم ألقهما إلا يوم انفصالنا من البلد لما خرجوا لوداع الركب. وأما الأمير (مولاي محمد الشريف بن علي الحسني)[6]، فقد أجزل الضيافة في يومي الإقامة، وزود مما يحتاجه المسافر أمامه، تقبل الله منه صالح عمله، وبلغه من الخير منتهى أمله.

---

(1) في ط: لقيت.
(2) ذكر العياشي في إتحاف الأخلاء محمد بن عبد الله بن السيد الذي أشركه معه في استدعاء الإجازات من شيوخه بالمدينة المنورة سنة 1073، أنظر: إتحاف الأخلاء، ص: 90.
(3) أحمد بن محمد التجموعتي الفيلالي، من أشياخ الحسن اليوسي، توفي عام 1080هـ: خلاصة الأثر 348:1، التقاط الدرر، ص: 179. الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين 526:2.
(4) محمد بن محمد التجموعتي، عالم محقق، من أشياخ أبي علي اليوسي، توفي عام 1088 هـ: خلاصة الأثر 348:1، التقاط الدرر، ص: 200. الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين 526:2.
(5) أحمد بن عبد العزيز السجلماسي: أديب مغربي، حج في سنة اثنتين وثمانين وألف، وجاور بمكة وأقرأ بالحرم الشريف، توفي بمصر سنة 1085 هـ: خلاصة الأثر 236:1.
(6) ما بين قوسين ساقط من ط.

وكنا قدمنا معنا بثلاثة من الخيل واشتريت آخر بسجلماسة، وأعطيت أفضلها لأمير الركب، واستصحبت الثلاثة الباقية إلى توات، وكتب الأمير أيده الله،إلى عماله فيما استقبلنا من البلاد أن يمدونا بالمحتاج من علف إلى توات.

ذكر خروجنا من سجلماسة

ثم سافرنا من سجلماسة يوم السبت العاشر من ربيع الثاني، وما خرجنا من البلد حتى وجدنا الركب أمامنا قد ارتحل وسار، و لم يبق منهم في المترل داع ولا مجيب، واقتفينا أثرهم. فلولا أن أمير الركب خلف واحدا من أصحابه في منتصف الطريق يدلنا على مترل الركب لكدنا أن نذهب عنه، إذ لم نصل إليهم إلا بعد العشاء الآخرة، ووجدنا الركب قد نزل في عين العباس، فترلنا معهم وأقمنا غدا هناك ننتظر لحاق بعض أصحابنا ممن تخلف عنا بسجلماسة لقضاء بعض الأوطار، فلحقوا بنا في ذلك اليوم. ومن هناك ودعنا آخرين جاءوا معنا من أهل بلدنا، وانقطعت أخبارنا عنهم وأخبارهم عنا. وكتبنا معهم كتابا للإخوان والأصحاب، وكتبنا من هناك إلى أصحابنا ومشايخنا بفاس[1]، ونحن في غاية وصول الكتب إليهم بين الرجاء واليأس.

ثم ارتحلنا من هناك مسرعين، وإلى داعي البين مهطعين[2]، و لم يبق لنا التفات إلى من وراءنا، و لم نشغل بغير ما نحن فيه آراءنا. واستقبلنا أراضي واسعة، ومناهل عن العمران شاسعة،لا يهم المرء فيها إلا نفسه، ولا يكون بغير راحلته أو عصاه أنسه، أرض لا يتشعب في شعاها إلا خوافق الرياح، ولا يجترئ على قطعها إلا ذو خف أو جناح. ثم نزلنا ذلك اليوم عشاء منهلا يسمى الرفاعية، وهي أحساء تحفر في رمل وماؤها طيب كالذي قبله، ومنه يؤخذ ماء ثلاثة أيام لقطع الحماد، فتفقد الناس قِربهم، ورووا ركائبهم، وأصبحوا مرتحلين، وطلعنا إلى ظهر الحماد ظهرا، وبتنا قريبا من الركب في موضع يقال له وادي السبط ثم ارتحلنا منه وسرنا يومنا إلى الليل في أرض حرشة وعرة، يغني عن وصفها ما لها من الشهرة، لا حطب فيها ولا كلا، ولا ماء إلا ما في القرب وإلا فلا، فلا تلمح العين في صلعتها[3] إلا

---

(1) فاس: مدينة عظيمة، وهي قاعدة بلاد المغرب، يشقها نهر كبير يسمى وادي فاس، وهي مدينة محدثة، أسست سنة 192 هـ: الروض المعطار، ص: 434.

(2) مهطعين: من هطع؛ أي أقبل على الشيء ببصره فلم يرفعه عنه: لسان العرب: هطع.

(3) الصلاع: الصلعة والصلع: الموضع الذي لا نبت فيه: لسان العرب: صلع.

الصلاع[1]، ولا للإبل وأربابها إلى غير مواقع أقدامها اطلاع. وصادفنا فيه ريح بارد كأنه من نفس جهنم وارد، قد جمع إلى برده عصفا لا أكاد أستطيع له وصفا، و لم نبت إلى المغرب، و لم يجد الناس وقودا إلا أخضر صلاعها في بعض تلاعها. ثم من الغد نزلنا من الحماد بعد الظهر، وبتنا قبل العصر تحته في أرض سهلة مسترملة فيها بعض ما ترد به الأرض جرعتها، وتطفئ به لوعتها. ثم ارتحنا من هنــاك وبلغنــا وادي جير ضحى، وهو وادي كبير أفْيَح، ملتف الأشجار، قليل الأحجار، كثير المرعى، غمض المسعى، يجتمع إليه السيول من المسافات البعيدة، ولا تصل إلا بعد أيام عديدة، وابتداؤه من ناحية بلادنا، وعليه قرى ومزارع، ويمتــد كــذلك إلى ناحية الصحراء، والعمارة متصلة في جوانبه إلى أن يصل إلى أطراف الحماد الكبير الذي بينه وبين سجلماسة، فمن هناك تنقطع العمــارة إلى أن يــصل إلى وادي الأساور، فتتصل قراه كذلك نحو من عشرة أيام إلى قريب من توات، فينعطف يمينا في رمال كثيرة، وهو من أطول أودية المغرب مسافة، وأقلها فائدة وأكثرها مخافة، إلا أنه في وقت مرورنا به في غاية العافية، قد وجدنا به أفراسا مهملة ليس معهــا أحد، ولا يقدر إنسان أن يقربها لمبالغة الأمير في التنقيب عن لصوص تلك البلاد، وإبلاغه في معاقبتهم فنفع الله البلاد بذلك، وإن كان غالبه ظلما لا تنكر الباطل في طوره، فإنه بعض ظهوراته.

وسرنا مع ذلك الوادي إلى الظهر، ونزلنا على ماء يقال له طاية الحمار، ثم ارتحلنا منه وقطعنا حمادة أخرى، ونزلنا قريبا من موضع يقال له السد على ماء في وادي جير غادرته السيول، ثم ارتحلنا منه ومررنا ضحى بقرية يقال لها أجلي، وهي أول قرى وادي الساورة، وأول القرى التي كتب لنا الأمير إليها، فمــا أحــسن صاحبها ولا أفضل، ونزلنا ذلك اليوم بقرية يقال لها مازر، ثم ارتحلنا منها ونزلنــا قرى بني عباس[2]، وهي ثلاث قرى متصلة في جبل صغير، على شفير الوادي فيها نخل كثير، وفاكهة وبساتين حسنة، وفيها ساقية من الماء الجاري العذب، وبأحد

---

(1) الصلاع: الحر: لسان العرب: صلع.
(2) بنو العباس: قرى عل وادي الساورة: الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية 4: 271.

قراها كان سيدي أحمد بن عبد الله ابن أبي محلى[1] القائم فيما مضى، ومنها كان ابتداء أمره وقيامه، وداره الآن معروفة.

لطيفة:

ولما وصلنا إليها وجه إلي سيدي إبراهيم السوسي[2]، وكان معنا في الركب، ولم تكن لي به إذ ذاك معرفة، سؤالا منظوما في ثلاثة أبيات لا أستحضرها الآن، وحاصله أنه قال: هل يجوز للشاعر اللحن في القوافي أم لا ؟. فاستهجنت هذا السؤال، واستنكرت أن يكون صاحبه ممن له بصناعة الأدب ماسة، وعلمت أن قصده السؤال عن ضرائر الشعر وما يقع فيه مما هو بعيد عن منهج العربية ولا يجري على قواعدها. فأجبته بأبيات مضمنها أن اللحن لا يسوغ في شيء من الكلام نظمه ونثره، إلا أن النظم لما كان أضيق من النثر اغتفرت فيه أشياء كثيرة لا يغتفر مثلها في النثر ولا يسوغ، وتلك الأشياء متفاوتة بعضها أخف من بعض، كقصر الممدود وعكسه، وصرف الممنوع من الصرف وعكسه بالنسبة إلى التقديم والتأخير والقلب في حروف الكلمة والحذف، فإن هذه أشد من الأولى. وقد استوفى ابن عصفور في كتاب ضرائر الشعر[3] غالب أنواع الضرورات، وإن كان بعضها لا يخلو من نقد. فإذا علم ذلك فارتكاب الشاعر شيئا مما ذكر أو نحوه ضرورة لا يسمى لحنا، لأن اللحن إنما هو ما لا وجه له في العربية، إذ لم تستعمله العرب ولا قيس على ما استعملته، وهذه الضرائر قد استعملتها العرب، فهي جارية على نهج أشعارهم، موجودة في بليغ كلامهم، فلا تسمى لحنا، ولا فرق في ذلك بين القافية وغيرها، وإنما تخالف القافية غيرها من أجزاء البيت في أمور ليس

---

(1) أبو العباس أحمد بن عبد الله بن أبي محلي، ثائر متصوف، ولد بسجلماسة بالمغرب سنة 967 هـ، وخرج إلى فاس لطلب العلم مدة، رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج، توفي سنة 1022 هـ بعد أن خاض غمار السياسة وقاد عدة ثورات: نشر المثاني 1:188. الأعلام 1:161.

(2) إبراهيم بن محمد السوسي: ذكر المحبي أن له معرفة بعلم الأوفاق والزيرجا، دخل فاس بعد مراكش وأخذ عن جمع، وأقام بالزاوية من أرض الدلاء مدة، و دخل مصر سنة 1075 هـ، ثم وصل إلى مكة وأقام بها إلى أن مات سنة 1077 هـ: خلاصة الأثر 1:44.

(3) ذكر ابن عصفور أن ضرائر الشعر منحصرة في الزيادة والنقص والتأخير والبدل: ضرائر الشعر، ص: 22.

مرجعها اللحن، كالسناد[1] والإقواء[2] وغير ذلك من عيوب القوافي، كما أن للأجزاء سواها عيوبا أخر، ومحل ذلك في العروض لا النحو. هذا محصل الجواب.

ثم ارتحلنا من قرى بني عباس ظهرا على إثر سماء، ونزلنا بعيدا منها على شفير الوادي، ثم منه إلى قرب قرية يقال لها بشير، ثم ارتحلنا من هناك وتركنا الغابة عن يسارنا، وهي قرى كثيرة ذات نخيل، وهي أكثر قرى الوادي تمرا، وتقصدها العرب كثيرا للميرة[3]، و لم يكن مرورنا عليها بل أخذنا على حمادة عن يسارنا حتى نزلنا بموقع يقال له فم المدفع، وبه تجتمع الطريق التي سلكناها مع طريق صابر التي تقطع الحماد الكبير وتنزل على مزعمو.

ثم ارتحلنا منه ومررنا على قرية يقال لها بني خلف، وسرنا يوما حتى نزلنا بزاوية سيدي أحمد بن موسى، نفعنا الله به، وأحسن صاحبها في القرى لنا ولسائر أهل الركب، وأعطى ما بعث إليه الأمير. ثم ارتحلنا منه صباحا بعدما زرنا قبر السيد المذكور، وسرنا مع قراها ذلك اليوم حتى نزلنا وراء آخر قرية منها بموضع يقال له الطويل. ثم ارتحلنا منه وتركنا قرى أولاد رافع عن يسارنا، وقطعنا حمادة هناك، ونزلنا على ماء يقال له تمغارن، وبتنا به وأخذنا منه ماء ثلاث ليال، ثم ارتحلنا منه. ومر بعض الركب مع الوادي على قرى يقال لها القصبات، ومر الآخرون عن يسارها، وظن أصحابهم أنهم قد تاهوا فلم يجتمعوا إلا عشاء، ونزلنا آخر الوادي بمضيق من الجبل حيث ينعطف ذاهبا في الرمل. ثم ارتحلنا منه وذهبنا في الحماد الذي بين توات[4] والوادي. ونزلنا بموضع يقال له الدميرنة، تصغير دمران، اسم شجرة تأكلها الإبل كثيرا وتصلح عليها، وسمي بها المحل لوجودها فيه. ثم ارتحلنا منه وسرنا يومنا وما وصلنا إلى المهوى إلا قريبا من ثلث الليل الأول، وهي ثنية في آخر الحماد مشرفة على أول بلاد توات، وما سرنا قط مرحلة مثلها

---

(1) السناد من عيوب الشعر، وهو على خمسة اضرب، وأصل السناد من قولك: أسندت الشيء إلى الشيء إذا حملته عليه وأضفته، أو من قولهم خرج بنو فلان متساندين، أي خرجوا على رايات شتى، فهم مختلفون غير متفقين، فكذلك القصيدة اختلفت ولم تتألف بحسب جاري العادة في انتظام القوافي واستمرارها: الكافي في العروض والقوافي، ص: 165.

(2) الإقواء: اختلاف حركة الروي في قصيدة واحدة: الكافي في العروض والقوافي، ص: 160.

(3) الميرة: جلب الطعام: لسان العرب: مور.

(4) توات: واحة كبرى بصحراء المغرب، تفرعت عنها أسر كثيرة انتشرت بأنحاء المغرب: معلمة المغرب 8:2608.

كلالا وجوعا للإبل، وقاسيناه يوما قمطريرا وليلة نابغية[1]، والله يكفر بها الزلات، ويجعلها آخر ما نلقاه[2] من المشقات.

ثم ارتحلنا منها ودخلنا إلى أول عمالة توات، وهي قرى تسابت، وزرنا بأول قرية منها قبر الولي الصالح المتبرك به حيا وميتا سيدي محمد بن صالح[3] المعروف بعريان الرأس، تلميذ الولي الصالح المشهور سيدي أبي الرواين[4] دفين مكناسة بمغربنا، نفعنا الله بهما وأدركنا بعنايتهما. وكان وصولنا إليها ضحى يوم الخميس آخر يوم من ربيع الثاني، وأقمنا بها ستة أيام وبعنا بها خيلنا وما ضعف من إبلنا، واشترينا ما يحتاج إليه من التمر، وبها من التمر أنواع كثيرة، ووجدنا التمر فيها رخيصا، ولم نلق هناك أحدا ممن ينتسب إلى ولاية أو صلاح، ولا من أهل العلم والفلاح، وغالب أهلها عوام أهل تجارة جل عيشهم التمر، وبخارج البلد مرعى حسن للإبل، صلحت فيه إبل الحجاج أيام الإقامة. وعدد المثقال عندهم أربع وعشرون موزونة، ويقولون للمثقال الأربعيني مثقال شريفي نسبة للأمير الشريف صاحب سجلماسة[5]، وكل هذه البلاد في طاعته. وقد صلينا الجمعة فيها أول يوم أقمنا فيها، وسرد الخطيب خطبة عظيمة وعظية حسنة تلقفها من صحيفة، إلا أنه أكثر فيها اللحن، وآخرها: فقد نصحكم الواعظ يا أهل الإسلام، فاقبلوا النصيحة والسلام. وحضر الخطبة رجل ممن كان معنا في الركب فبكى بموعظته تلك بكاء كثيرا، وأظن أن بكاءه ذلك كان عن صدق لا استعمال فيه، ولم أعلم حتى الآن من هو. وسبب إقامتنا في هذه البلاد في هذه المدة أن كثيرا من الحجاج لما غلا صرف الذهب في تافيلالت أخروا الصرف إلى توات فإن الذهب فيها أرخص، وكذلك سعر القوت من الزرع والتمر، وهذه البلدة هي مجمع القوافل الآتية من

---

(1) إشارة إلى بيت النابغة الذبياني: فبت كأني ساوَرتني ضئيلة من الرُقــش في أنيابها السم ناقعُ ديوان النابغة الذبياني، ص: 33.

(2) في ط: نتلقاه.

(3) محمد ابن صالح، الولي الصالح، من مؤلفاته كتاب الهدية، وضعه في سر الحرف وعلم الفلك والتنجيم: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام 342:4.

(4) أبو عبد الله محمد المعروف بأبي الرواين، متصوف من أتباع الملاماتية، أثرت عنه أحوال ومقانات، توفي آخر العشرة السادسة من القرن العاشر: دوحة الناشر، ص: 74.

(5) نسبة إلى مولاي الشريف بن علي، أنظر: الاستقصا 14:7.أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، ص: 25.

تنبكت[1] ومن بلاد أكيدز من أطراف السودان، ويوجد فيها من البضائع والسلع التي تجلب من هناك شيء كثير، والسلع التي تجلب من الغرب مما هو خرج السودان نافقة في هذه البلاد كالخيل وملابس الملف والحرير، فإذا قدم الركب إليها كان فيها سوق حافل.

ثم ارتحلنا من توات بعدما لحق بنا جملة ممن يريد الحج من أهلها يوم الخميس السابع من جمادى الأولى، وخلفنا قرى توات وراءنا وعدلنا ذات اليسار إلى بلاد أوكرت[2]. ونزلنا بقرى الدغامشة[3] قرب زاوية سيدي عبد الله ابن طمطم[4]. فلما ارتحلنا ذهب أمير الركب مع بعض أصحابنا لزيارته، ولم تتيسر لي زيارته لأن الركب عدل عنه يمينا وأنا لا أقدر إذ ذاك على المشي كثيرا راجلا، والبلاد ذات رمل، وقد أثنى لنا أصحابنا عنه كثيرا، وأنه من أهل الخير والدين، يطعم الواردين عليه في بلاد كاد الطعام أن يكون فيه دواء.

غريبة:

ومما تواترت به الأخبار عن هذا السيد أنه لا يترك أحدا من أعراب ذلك البلد يأكل طعامه، فإن لم يشعر به حتى جلس بين الناس أقامه، ويقول لهم: هؤلاء اللصوص لا أتركهم يأكلون طعامي يستعينون به على ظلم المسلمين، ومع ذلك لا يقدر أحد منهم، مع عتوهم واستكبارهم، على إذايته، وعلى كل حال فالرجل من أهل الخير والصلاح تؤثر عنه كرامات كثيرة.

---

(1) تنبكت: عاصمة السودان العلمية، اشتهرت بكثرة المكاتب والعلماء: تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، ص: 82.

(2) أوكرت: من القرى الواقعة في توات: أنس الساري والسارب، ص: 30.

(3) الدغامشة: ضبطها ابن مليح بالعين، وسماها الإفراني في الصفوة: الدغامسة، وهي قرى كثيرة بقرب بلاد توات: أنس الساري والسارب، ص: 30. صفوة من انتشر، ص: 169.

(4) عبد الله بن طمطم: صاحب الزاوية بتوات، صاحب أحوال ومقامات: التقاط الدرر، ص: 251. صفوة من انتشر، ص: 169.
نشر المثاني 2: 384.

لطيفة:

أخبرني الأخ في الله المحب المخلص سيدي عبد الرحمن بن الحسن، وكان ممن ذهب لزيارة هذا السيد، أنه لما خرج لوداعهم قرأ لهم فاتحة وبالغ في رفع يديه، فلما فرغ منها قال له رجل آخر من الحجاج: يا سيدي اقرأ لي فاتحة، فانتهره وقال له: أما علمت أن فاتحة الكتاب لما قرئت له، وأنها السبع المثاني والقرآن العظيم، فهلا نويت حاجتك عند شروعنا في قراءة الفاتحة، فإن فاتحة واحدة تكفي أهل السماوات والأرض، أو كلاما هذا معناه. ولقد صدق في ذلك، رضي الله عنه، وذلك مما يدل على أن له حالا مع الله وسعة معرفة به وبأسمائه وأسرار كلامه، وقد[1] نفعني الله بكلامه هذا، فلا أقرؤها بعد ذلك لنفسي أو لمن طلبها مني إلا نويت مطالبي كلها أو مطالب الطالبين، وإن تعددوا فأجد بركة ذلك، وهذا شأن أهل الصدق مع الله في ظهور أثر سماع كلامهم فيمن سمعه أو بلغه. والله تعالى يمدنا بمدد أهل القرب، الموجب لحصول مرضاة الرب.

و لم يلحق بنا أصحابنا الذين ذهبوا لزيارة هذا الرجل الصالح حتى نزلنا قرية يقال لها أولاد محمود، وهي من قرى الدغامشة، ثم ارتحلنا منها ونزلنا ببلاد أوكيرت عشاء، وهي قرى كثيرة ذات نخيل جم، وهي معدودة من بلاد تجورارن[2]. واشترى الناس منها ما احتيج إليه من الزاد إلى بلاد واركلا[3]، وأقمنا بها يومين وبدلنا بها من الأباعر ما ضعف.

لطيفة:

وكنا نزلنا بقرب زاوية سيدي محمد[4] عمر بن محمد بن صالح الأنصاري الخزرجي الشامي[1]، ولقيت بها رجلا ممن ينتحل الفقه اسمه سيدي محمد بن محمد

---

(1) في ط: وقد.

(2) تيجورارن: أو تيكورارين، تقع في الجزء الشمالي الشرقي لواحة توات، وهي قصور كثيرة: رحلة ابن خلدون، ص: 255 / هـ 1216.

(3) واركلا: غالبا ما ترد في المصادر باسم واركلان، وهي بلد في طرف الصحراء مما يلي إفريقية، قال صاحب الروض المعطار: وهو بلد خصيب كثير النخل والبساتين، وفيه سبع مدائن مسورة حصينة، بعضها قريب من بعض: الروض المعطار، ص: 600.

(4) ساقط من ط.

بن علي بن أبي بكر[2]، وهو في غالب الظن من أهل الخير، وله بعض الخبرة بفروع الفقه. وكان قد وجه إلى الركب بسؤالين أحدهما في نازلة من الأحباس والآخر في نازلة من البيوع، وألزمني بالكتب على الأخيرة منهما. ومضمن السؤال، وكان فيه طول، أن رجلا اشترى من آخر ستة أجزاء أو قريبا من ذلك من ماء عين جلبت من بعيد بالفقاقير[3]، وذلك وصف ماء هذه البلاد كلها، وثمانية أجزاء من عين أخرى. والعينان مختلفتان[4] في القلة والكثرة والبعد والقرب، وغير ذلك من الأوصاف التي تختلف بها رغبة الناس في المشترى اختلافا كثيرا. ثم إن هذا المشتري باع من آخر أجزاء معلومة العدد من كلتا العينين كخمسة مثلا، ولم يبين ما لكل عين من الأجزاء.

فأجبت بفساد هذا البيع للجهل بالمثمون، إذ لا يدري ما له من العين المرغوب فيها وماله من الأخرى، ثم إن خصم هذا المستفتي وجه بسؤال فيها إلى القاضي سيدي أحمد الخطيب، إلا أنه زاد في السؤال أن الماءين يجتمعان في بركة حتى يصيرا ماء واحدا، ثم بعد ذلك يجزأ أجزاء، وأن الأجزاء المبيعة إنما هي من الماء بعد اجتماعه في ذلك المحل، فأجاب بالصحة لأن الماء بعد اجتماعه في ذلك المحل صار معلوم القدر، وأجزاؤه معلومة وإن اختلفت مواده التي يجتمع منها. وذكر لي أن هذه المسألة كثيرة الوقوع عندهم ببلاد مراكش لأن أكثر بساتينهم بالخطاطير، ويسميها أهل هذه البلاد الفقاقير، وهو أنسب لأنها آبار متعددة بفقر من جنب كل واحد إلى الآخر، فيزيد ماؤه وينمو مع زيادة ماء غيره عليه، ولا يزال كذلك حتى يخرج على وجه الأرض فتسقى به الأجنة والمزارع، ويجزأ أجزاء كثيرة بالأيام، وقد يجزأ اليوم الواحد بأجزاء كثيرة فتباع تلك الأجزاء.

ولما كتبت الجواب على النازلة المذكورة على الوجه الذي ذكر في السؤال ذهب به المستفتي إلى القاضي المذكور ليضع خطه فيه بالصحيح فأبى وقال إن الجواب صحيح، وتحيَّل في عدم الكتب بعذر أبداه، فلما لقيته سألته عن عدم

---

(1) عمر بن محمد صالح الخزرجي الشامي صاحب زاوية بلاد وكرت، بالكاف المعقودة، على مرحلتين من توات، من أقطاب التصوف، توفي عام 1008 هـ: التقاط الدرر، ص: 33، نشر المثاني 1:74. صفوة من انتشر، ص: 191.

(2) أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أبي بكر الأكرتي، أخذ الطريقة على يد والده، ترجم له صاحب نشر المثاني نقلا عن الرحلة العياشية: نشر المثاني 2:370.

(3) الفقاقير: والفقير؛ الآبار المجتمعة الثلاث فما زادت: لسان العرب: فقر.

(4) في ط: مختلفان.

تصحيحه للجواب، فقال لي: إنه وجه إلي بسؤال في النازلة على خلاف ما وجه به إليك وأجبت بالصحة، فلا أحب أن يوجد خطي في سؤالين متناقضين في نازلة واحدة، وإن كان كل منهما صحيحا بالنظر إلى ما ذكر في سؤاله، وكثيرا ما يقع هذا فينسب به المفتي إلى الميل والتعصب وإن كان بريئا من ذلك، وقبلت عذره في ذلك، وهو صحيح، وقد ذكر لي بعض مشايخنا أن سيدي أحمد المقري[1] لما ولي الفتوى بفاس كان لا يجيب في نازلة قد تقدم له جواب عنها بما يخالف مقتضى السؤال الثاني، ويقول: إن ذلك مما يوجب الطعن في المفتي عند كثير من الناس، فربما يقذف من أجل ذلك بألسنة الذم ويلحف برداء الحيف.

والذي يظهر لي، وإن كان لما ذكر وجه، أن الأولى الجواب عن السؤالين (معا، وينبه في الثاني على أنه قد تقدم له جواب في مثلها بما يخالف هذا)[2]، لاختلاف فصول السؤال بأن كان الأمر كما ذكر فالحكم كذا، فإذا فعل ما ذكرنا زالت الريبة وتبين الحكم لمن أراد اقتفاءه، وإلا أدى ذلك إلى التضييق على كثير من المستفتين والإبطال لحقوقهم، والله أعلم.

لطيفة:

وقد أخذ سيدي محمد بن محمد بن علي بن أبي بكر المتقدم طريق الإرادة عن والده، ووالده أخذ عن سيدي عبد الله بن أحمد الحجام[3] بزرهون، وهو أخذ عن سيدي عمر الخطاب[4] بفاس، وهو عن سيدي عبد العزيز التباع[5] بمراكش، رضي الله عنه، هكذا أملى علي السند. وقوله: إن سيدي عمر الخطاب بفاس، لعله كان بها حين أخذ عنه، وإلا فهو دفين زرهون.

(1) أحمد بن محمد المقري التلمساني، أديب فقيه مؤرخ، صاحب كتاب نفح الطيب وغيره، ولد سنة 922هـ، وتوفي بالقاهرة سنة 1041 هـ: خلاصة الأثر 302:1، شجرة النور الزكية 434:1.

(2) ما بين قوسين ساقط من ط.

(3) عبد الله الحجام الصبيحي، الولي الصالح، نزيل جبل زرهون، أثرت عنه خوارق وكرامات: نشر المثاني 39:1. ممتع الأسماع، ص:128.

(4) عمر بن عبد العزيز بن عمر الخطاب الزرهوني، فقيه نحوي، ولد سنة 972هـ، وتوفي قتيلا عام 1002هـ: ممتع الأسماع، ص: 74. نشر المثاني 41:1.

(5) عبد العزيز بن عبد القادر التباع: وصفه صاحب شجرة النور الزكية بالشيخ الكامل الولي القطب الواصل الكثير الكرامات والأتباع، توفي سنة 914هـ: دوحة الناشر، ص: 122. ممتع الأسماع، ص: 52. شجرة النور الزكية 397:1.

وقد ذكر لي سيدي محمد المذكور أن سيدي عمر صاحب الزاوية التي نزلنا بإزائها كان يذكر بالقطبانية، وأنه توفي عام ثمانية وألف، وأنه أخذ الطريق عن سيدي محمد بن أبي بكر الودغاغي، وهو عن سيدي موسى المسعودي التسفاوتي، وكلاهما بتجرارن، وهو عن سيدي أحمد بن يوسف الملياني[1]، وعن سيدي عبد الله الخياط[2]، وعن سيدي عبد الله الغزواني[3] رضي الله عنهم. ولما جئنا لزيارة سيدي محمد المذكور وقفنا بباب داره، وقيل لنا إنه داخل الدار، فكتبت إليه بيتين، وكان ذلك قبل اجتماعنا به، وهما[4]:

[طويل]

بِبابِكَ قومٌ يطلبونَ زيارةً | لكيما ينالوا دعوةً منك رابحةْ

أحبوكَ لا عن رؤيةٍ قد تقدمتْ | ولكنْ لأخبارٍ أتتْ عنكَ صالحةْ

فخرج إلينا وهش وبش وأنس وأجزل القرى، جزاه الله عنا خيرا، وعقدت معه أخوة في الله، فلما ودعته طلبت منه الدعاء، فدعا لي وقال لي: معرفة الله كنز، ومعرفة أحكامه طريق إلى ذلك الكنز، فمن مات قبل الوصول إلى معرفة الله فقد مات في الطريق ولم يصل إلى الكنز، وهذا كلام حسن في بابه.

غريبة:

أخبرني من أثق به من طلبة توات وتجرارن أن من عادة أهل بلدهم أن من نشزت امرأته وطلقها، يأتي إلى شهود يسترعيهم ويقول: اشهدوا أني ما طلقت امرأتي إلا كي أكسر من سورتها وشدتها، فمتى أرادت التزوج استظهر بذلك الرسم، فلا يتزوجها أحد حتى ترجع إليه، وأخبروا أن حكامهم يحكمون بذلك،

---

(1) أحمد بن يوسف الملياني، نزيل مليانة بين الجزائر وتلمسان، يعتبر من مشايخ التصوف وأقطابه الكبار، صحب الشيخ أحمد زروق، توفي سنة 927 هـ: دوحة الناشر، ص: 112، الأعلام 1:275.

(2) أبو عبد الله محمد الخياط، نزيل جبل زرهون، عارف واصل، أخذ عن الشيخ أحمد بن يوسف الملياني، توفي مسموما في العشرة الثالثة من القرن العاشر: دوحة الناشر، ص: 77.

(3) أبو محمد عبد الله بن عجال الغزواني، من مشايخ التصوف وأقطابه الكبار، استقر بمراكش وبها توفي سنة 935 هـ: دوحة الناشر، ص: 88. ممتع الأسماع، ص: 56. الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام 8:235.

(4) ورد البيتان في نشر المثاني 2:370.

وأن عندهم فتوى لبعض الفقهاء بصحة ذلك. ولا أعلم الآن وجها لما ذكروا، إذ ليس نشوزها بإكراه لا يلزم معه طلاق الزوج، اللهم إلا أن يكون الزوج لم يصدر منه طلاق ويأمر من يشيع عند الناس أنها مطلقة، ويستحفظ عند الشهود أن ما شاع لا أصل له، وسكوته عند تحدث الناس بذلك إنما هو للغرض المذكور، فقد يقبل هذا، أو يطلقها بلفظ ليس بصريح، وإنما هو كناية مما ينوي فيه المطلق، ويشهد على نفسه أنه ما نوى به الطلاق، أو غير ذلك من الحيل المقبولة شرعا، والله أعلم.

ولما اطلع شيخنا أبو محمد عبد القادر الفاسي، رضي الله عنه، على ما كتبته هنا، ذكر لي نازلة[1] البرزلي[2] المذكورة في فتاويه[3]، لما عزم على الرحيل من القيروان، وأبت زوجته إلا أن يجعل بيدها طلاق من يتزوج عليها، ففعل ذلك واسترعى أنه غير ملتزم له، فنفعه ذلك عند قيامها. وقال لي: إن هذا يدل على صحة ما ذهبوا إليه من ذلك. وكنت قبل ذلك أرى أن نازلة البرزلي غير مساوية لما ذهبوا إليه، لما ظهر لي من كلام المخبر أنه إنما يفعل ذلك بعد وقوع الطلاق، ورأيت أن ذلك يعد منه ندما، فلو صح لكان كل من طلق وندم أتى بما يدفع طلاقه. ولما فاوضت شيخنا، رضي الله عنه، في ذلك علمت أن قصد المخبر بذلك الذي يودع الشهادة عندهم أن ما يوقعه من طلاق لأجل النشوز المذكور ويصدق فيه، وإن لم تقم عليه بينة، وهو قريب من نازلة البرزلي، رضي الله عنه، فليتأمل.

لطيفة:

ولما نزلنا بهذه القرية وجه إلي سيدي إبراهيم السوسي سؤالا منظوما ونصه:

[طويل]

أجنــــةَ علـــمٍ في سمــــاءِ جلالـــة سقتها غوادي البر دانيـــةَ القطـــفِ

(1) في ط: نازلة أخرى بل نازلة.

(2) أبو القاسم بن أحمد البلوي القيرواني الشهير بالبرزلي، الفقيه المفتي، له ديوان كبير في الفقه، وله الحاوي في النوازل، توفي بين سنة 841 وسنة 844هـ، وقد نيف على مائة سنة: شجرة النور الزكية 352:1.

(3) يوجد للبرزلي بالخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط نسخة مخطوطة من كتاب: جامع مسائل الأحكام مما نزل بالمفتين والحكام، رقم 450 د.

جوابُكَ عن ثوبِ كثيــف ومحــشو | بقطن فهل به الــصلاة بــلا زيــف
وعن أمرِ خير الرسْل في النوم إن جرى | أيلزمُ أم لا دُل حيرةً مــن خلْــفِ
وعن نازلِ ربْعــا يقــيم لأن بــدا | يصلي طرا ما يوجبُ القصرَ عن صرف
أفِضْ من عبابِ ذلك البحر ســامحا | فلا زلتَ مجدا للمعــارف واللطــفِ

فأنت ترى ما في هذا النظم من الركاكة والكسر وعدم البيان الذي هو شأن السؤال، ولكن لما فهمت مقصده في المسائل الثلاث أجبته بقولي:

[طويل]

حمدتُ إلاهًا قد تــنزهَ عــن كيْــفِ | وعز وجل عن ثناءِ وعــن وصــفِ
وأزكـــى صـــلاةِ الله ثم ســـلامةُ | على المصطفى المبعوثِ بالذكرِ والسيفِ
وهذا جوابي عــن ســؤالِ مهــذبِ | أتى بنظامِ رائــقِ محكــمِ الرصــفِ
فمنهُ سجودُ المرء فوق البــساطِ لا | صلابة فيه كالبــساط وكــالقطفِ
تَوقفَ فيه الــبعضُ مــن علمائنــا | وشهر فيه المنعَ بعــضٌ بــلا وقــفِ
وذا كلهُ ما دام رخــوًا و إن يكــنْ | تلَبد قــالوا بــالجوازِ بــلا ضــعفِ
وهذا الذي حصلتُهُ عــن مــشايخي | وقد عللوا هذا الجوابَ بمــا يــشفي
ومنهُ لزومُ الفعــلِ إن كــان آمــرًا | به المُصطفى في النوم أو قالَ بــالكَف
فإن كان ما قد قالَ وافــق شــرعَهُ | فذلك أحرى باللزوم بــلا خُلــفِ
وإن خالفَ المنصوصَ فهْــوَ مــؤولٌ | وتأويلهُ بالعلم يُــدرى وبالكــشْفِ
ومنهُ الذي ينــوي بــأرضِ إقامــةً | فيــدو لــه أمــرٌ إقامتَــهُ ينفــي
فذا حكمُه حتى يسافرَ حكــم مــن | أقام فقد لاح الجوابُ بمــا يكفــي
فإن وافقَ المطلــوبَ مــنكم فمنــةٌ | من الله أو لا فهو مما جنــت كفــي
وأطلبُ مــنكم أن تَمُنــوا بــدعوةٍ | أنال بها من سيدي غايــة اللطــفِ

ثم وجهت الجواب والسؤال معا إلى الفقيه الأجل، القاضي الأعدل، سيدي أبي العباس أحمد الخطيب المراكشي، وكان معنا في الركب، وطلبت منه أن يتصفحهما، واستفهمته عن السائل من هو، إذ لم أكن أعرفه إذ ذاك، وكنت أظنه رجلا آخر. فكتب إلى ما نصه: وعلى سيادة سيدنا أفضل السلام وأطيبه وآرجه، هذا وإن صاحب السؤال في علمي مجهول لا يعرف، ونكرة لا تتعرف، فإن كان ممن توسمناه حين تكلمنا على سؤاله الأول فإنما يعلمه بشر، فليستعمل الكل منا غاية في الفحص عن ميسمه، والتفرس في توسمه، وليس من ناحية حضرتنا قطعا، وقد طالعنا السؤال والجواب، وما لكم في ذلك من حسن محاضرة الخطاب، فلكم أجر من سئل وأجاب، وأرشد وأصاب. ومسألة أمره صلى الله عليه وسلم مناما لا جائز أن يكون زائدا على مضمون الأوامر الشرعية لكمالها، (اليوم أكملت لكم دينكم)[1]، ولا مخالف لها، إذ لا يقع ذلك منه صلى الله عليه وسلم، وإن كان موافقا باللزوم من غيره، وإلا لزم تحصيل الحاصل. فليتأمل سيدنا بذهنه الثاقب، وعقله الصائب، والله تعالى يحفظ ودكم، ويديم سؤددكم، والسلام عائد عليكم والرحمة والبركة.

وهو، كما ترى، مع وجازة لفظه وإبرازه في صورة التحقيق بحصر الأقسام وإبطالها، كلام من لم يحط بالمسألة خبرا، أو ذهل عما ذكره العلماء فيها طُرا، وتكلم فيها بمقتضى نظره، ومع ذلك فإن في تقسيمه تداخلا وتدافعا كما ستراه عند تعرضنا لذلك. ولما تأملت كلامه وفهمت معناه، وعلمت معتمده في رد ما ذكرناه، أردت أن أراجعه بما تتبين به المسألة وتتضح من أقوال المحققين وأنظار المدققين، فرأيت ذلك يستدعي تمهيد فصول، وتحرير أصول، وتبيين معنى حديث الرؤيا واختلاف رؤيته[2] وتعارض العلماء فيه، وتحرير كل ذلك لا يكون إلا في رسالة مفردة، وقد زورت[3] غالبها في نفسي وسميتها: تحرير كلام القوم في أمر النبي عليه السلام في النوم، فلما هممت بكتبها رأيت أن أمرها لا يتم دون كثرة المطالعة وصحة المراجعة، وذلك أمر متعذر في السفر، فأرجأت أمرها إلى أن يساعد المكان والإمكان. ولنكتب من ذلك الآن ما يتعلق بكلام صاحبنا القاضي الأجل فأقول: قوله لا جائز أن يكون زائدا الخ، إن أراد بالكون الوقوع وأن ذلك

(1) المائدة: 4.
(2) في ط: رواياته.
(3) زروت: زورت في نفسي كلاما؛ هيأت وأصلحت: لسان العرب: زور.

لا يقع منه، صلى الله عليه وسلم، في النوم، وهو ظاهر كلامه، فالدليل إنما قام على أنه لم يبق شيء من مقاصد الشرع غير مذكور في الكتاب والسنة، وذلك إنما يقتضي أنه لا يثبت حكم زائد بما يأمر به في النوم لأن الدين قد كمل. لا على أن النائم لا يرى أن النبي، عليه السلام[1]، أمره بأمر زائد على المشروع، فان ادعى ذلك من يوثق به[2] و لم تظهر تهمة، سيما إن رآه على صفته، صدق في أنه رأى ذلك، وأن رؤياه حق، للحديث الصحيح، فاحتيج إلى التأويل، وتأويله إما بالعلم، أي بعلم التعبير، كأن يقول له حرام عليك أكل كذا وكذا من الفواكه، أو غير ذلك مما علم من الشريعة إباحته، فينظر في تأويل تلك الفاكهة عند علماء التعبير، وأنه، عليه السلام، نهاه عن ذلك الفعل لما يتوقع من ضرره ويترتب عليه من المفسدة للرائي، وإن كان الفعل في نفسه مباحا، أو يحمل لفظ التحريم على مجرد النهي لما له في ترك ذلك من المصلحة، كأن يكون الرائي مريضا ويشتهي تلك الفاكهة، فيكون قوله عليه السلام: حرام عليك، أي مضر بك غير موافق لمرضك، أو غير ذلك مما هو مقرر في فن التعبير، وهذا معنى قولنا: وتأويله بالعلم يزرى[3].

وأما قولنا: وبالكشف، فذلك إذا كان الرائي من أهل الكشف الصحيح، فيكشف الله له عن تأويل تلك الرؤيا وما أريد بها، وعن محل الأمر والنهي الوارد فيها من غير نظر إلى علم التعبير، فإذا علمت هذا علمت أنه لا يمتنع أن يأمر النبي، عليه السلام، بشيء أو ينهى عن شيء في النوم على خلاف المشروع، لأن الرؤيا كما هو عند المحققين من عالم الأمثال، وهو أوسع من عالم الحس حتى قال بعضهم: عالم الحس علويه وسفليه في عالم الأمثال كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض. وإذا كان كذلك فما في عالم الأمثال لا يوافق المحسوس منه على وجهه إلا النادر، وأكثره إنما يوافقه بالتأويل، فرؤيا النبي إنما فارقت رؤيا غيره في أنها ليست بأضغاث أحلام، ولا من تمثيل الشيطان، بل هي حق، فتخرج تارة على موافقة المرئي وتؤول تارة، وليس تأويلها بالذي يدفع حقيقتها، لأن ما ليس بحق لا يؤول بل يطرح بالكلية، فإن معنى التأويل تطلب ما يؤول إليه هذا الكلام من الحق لأنه حق، ولو كان باطلا كأضغاث أحلام وتخييل الشيطان ما تطلبنا له حقا يرجع إليه لأن الباطل لا يرجع حقا وبالعكس، وإنما ذلك في الحق الذي يشبه الباطل

---

(1) في ط: صلى الله عليه وسلم.
(2) ساقط من ط.
(3) في ط: يدرى.

وهو في نفسه حق، فيرجع به إلى الحق بتأويل[1] يزيل تلك الشبهة ويظهر حقيقته، فكذلك ما نحن بسبيله، فإن الرؤيا حق والأمر حق، وكون المأمور به باطلا أوقع[2] في الأمر شبها بالباطل، فيطلب لهذا الأمر مكانا من الحق يرجع إليه، ولا باطل فيه، فإذا حمل ذلك الأمر على محمل موافق للشريعة زالت عنه شبهة الباطل وظهرت حقيقته. وما قررناه ليس خاصا بالرؤيا بل هو جار حتى في أوامر اليقظة وأخبارها من كتاب وسنة، فقول النبي صلى الله عليه وسلم مثلا: حتى يضع الجبار فيها قدمه[3]، كلام حق لاشك فيه لأنه إخبار الصادق. ولما كان لفظ القدم في اللغة إنما هو الجارحة، واعتقاد ذلك في الجبار باطل، تطلبنا لهذا الكلام الحق مكانا يؤول إليه من الحق فتزول عنه شبهة الباطل، فتأولنا القدم بما لا يلزم منه محال مما هو مقرر في محله.

فإذا تأملت هذا حق التأمل عرفت أن رؤياه عليه السلام حق وأوامره فيها حق، ولا فرق بينها وبين اليقظة، فما وافق منها المشروع أجري على ظاهره، وما خالف أول، وحينئذ لا يحتاج إلى ما قاله جمع من المحققين كالعز بن عبد السلام[4] وأتباعه أنه إنما لم يعمل بما خالف المشروع لعدم الثقة بضبط الرائي، وأن من شرطه العدالة، وهي تقتضي التكليف، والنائم ليس بمكلف ولا ضابط إلا فيما لا يمكن فيه التأويل، فيرجع حينئذ فيه إلى الترجيح، فترجح رواية اليقظة على رؤيا النوم بما ذكر، فيكون من ترجيح رواية العدل على غيرها. والفرق بين ما ذكرته وما ذهبوا إليه أن ما ذهبوا إليه يقتضي أنه لا يعمل بما يراه الرائي مطلقا وافق أو خالف، ولا يؤول لأنه ليس بمكلف فضلا عن أن يكون ضابطا ثقة، وما كان كذلك لا يلتفت إليه، وهو خلاف ما عليه جمهور السلف والخلف من تأويل الرؤيا وعملهم بأشياء يأمر بها النبي صلى الله عليه وسلم من أذكار وأدعية، ويذكر

---

(1) في ط: بما.
(2) في ط: إن وقع.
(3) إشارة إلى الحديث النبوي الشريف: إن النار لن تمتلىء حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول قط قط وأما الجنة فيبقى منها فينشيء الله لها خلقا آخر: تفسير القرطبي 49:16.
(4) عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن، عز الدين الدمشقي ثم المصري، الشيخ الإمام، سلطان العلماء، فقيه شافعي، ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة، وتوفي بمصر سنة 660 هـ: طبقات الشافعية 109:2.

خاصيتها فيحصل لهم ذلك، وحسبك من ذلك ما نقله ابن الحاج[1] في مدخله عن المرجاني وابن أبي جمرة[2] وغير ذلك مما هو مستفيض. ولو تتبعنا ما ورد في ذلك عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى هلم جرا لكان فيه ما يملأ أسفارا، فالمحمل الذي ذكرنا أولى وأبين.

وأما قول صاحبنا المتقدم: ولا جائز أن يكون مخالفا للأوامر إذ ذاك لا يقع منه صلى الله عليه وسلم، فهو مثل قوله الذي قبله حذو النعل بالنعل، بل هو أعم منه لأن أمره بما ليس بمأمور به شرعا، أو نهيه عما ليس بمنهي عنه هو معنى مخالفة أمره المشروع، وإن كانت المخالفة تقع بالنقص كما تقع بالزيادة، فكل ما قيل في القسم الأول يقال هنا، وكل ما لزم هناك لزم هنا، وبهذا يتضح معنى قولنا أولا: إن في تقسيمه تداخلا، لأن القسم الأول داخل في هذا.

وأما قوله وإن كان موافقا فاللزوم من غيره وإلا لزم تحصيل الحاصل فنقول: سلمنا أن اللزوم من غيره، ولا نسلم أنه تحصيل الحاصل فقد يكون الحكم في اليقظة ثابتا إباحته وجواز الأمرين، فيأمر عليه السلام بأحد الجائزين لما فيه من مصلحة الرائي، أو ينهى عنه لما فيه من المضرة، أو يكون مندوبا فيتساهل الرائي فيه، فيأمره به في النوم ويبين له خاصيته ومنفعته لتقوى رغبته فيه، فيكون ذلك الأمر تأكيدا للأمر المتقدم في اليقظة، وقد وقع مثل هذا منه عليه السلام في حياته فلم يعد أحد ذلك تحصيلا للحاصل ولا مخالفة للمشروع، فيأمر بأحد الجائزين إن رأى فيه مصلحة للمأمور، وينهى عنه إن رأى فيه مضرة، ويأمر بالمندوب تأكيدا له، بل يأمر بالواجب بعد ذكر وجوبه من صلاة وصيام وحج وزكاة وأداء الأمانة وصلة الرحم وغير ذلك. ومن روى الأحاديث وشدا طرفا من السنة علم صدق ما قلنا من أمره بالصلاة، وما عطف عليها بعد وجوبها من علم وجوبها. فقد اتضحت هذه المسألة كل الوضوح، وتبين أمرها كل البيان والحمد لله من غير نقل كلام أحد من الأئمة، ولا التعرض لمعنى حديث الرؤية وما قاله الأئمة فيه، ولا نقل شيء من أقوالهم في أوامره عليه السلام في النوم. وربما تتشوق نفس الناظر إلى

---

(1) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم بن لب التجيبي القرطبي المالكي، ابن الحاج، فقيه محدث، توفي مقتولا سنة 529 هـ وله إحدى وسبعون سنة: سير أعلام النبلاء 614:19. شجرة النور الزكية 479:1.

(2) عبد الله بن سعد بن أحمد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي، فقيه مؤرخ مفسر، توفي بالقاهرة سنة 675 هـ: معجم المؤلفين 57:6. الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية 25:1.

شيء من ذلك، بل ربما أعرض عن هذا كله، سيما إن كان بمعزل عن شيمة المنصفين، فيقول: لا يقبل منك شيء مما ذكرت إلا بنقل الحديث الذي هو أصل في هذا الباب وكلام الأئمة عليه وما لهم في ذلك من تحقيق وتدقيق. فاحتيج إلى التعرض (لنقل)[1] شيء من ذلك بحسب ما اقتضاه الوقت من الاختصار، ولعل عند نقلنا لذلك يكون في هذا القدر المذكور غنية عن الرسالة التي ذكرنا أولا أنا عزمنا على تأليفها في هذه المسألة. فمن أراد أن يجعلها رسالة مستقلة ويفصلها عن محلها فليضف ما ذكرناه مما منَّ الله به علينا من خزائن فضله إلي ما نذكره بعده مما استخرجناه بالمطالعة من النقول التي يعز اجتماعها في غير هذا، فتحصل بالمجموع الإفادة.

ولنذكر الآن حديث الرؤيا وما يتعلق به فنقول: روينا في صحيح البخاري من حديث ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رآني في المنام فقد رآني، فان الشيطان لا يتمثل بي[2]. وفي الصحيحين من حديث أبي قتادة، رضي الله عنه، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: من رآني فقد رأى الحق[3]. وفي البخاري من حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أنه سمع النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: من رآني في المنام فقد رأى الحق، فإن الشيطان لا يتكونني[4]؛ أي لا يتكون كوني، فحذف المضاف ووصل المضاف إليه بالفعل.

وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير عن جابر، رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من رآني في النوم فقد رآني، إنه لا ينبغي للشيطان أن يتمثل في صورتي[5]، وفي رواية: فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتشبه بي. وفيهما عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي[6]، زاد مسلم: أو فكأنما رآني في اليقظة، هكذا

(1) زيادة من ط.
(2) صحيح البخاري 6:2568..
(3) صحيح مسلم 4:1776.
(4) صحيح البخاري: 6:2567، وفيه: لا يتمثل بي.
(5) صحيح مسلم 4:1776.
(6) صحيح مسلم 4:1775.

بالشك. ووقع عند الإسماعيلي[1] في الطريق المذكور: فقد رآني في اليقظة، بدل قوله فسيراني. ومثله في حديث ابن مسعود عن ابن ماجه وصححه الترمذي وأبو عوانة، ووقع عند ابن ماجه من طريق جحيفة: فكأنما رآني في اليقظة.

فهذا حديث صحيح مشهور متواتر المعنى عن سبعة من أجلاء الصحابة المتقدمين وغيرهم ممن لم نسق حديثه، بألفاظ مختلفة مرجعها كلها إلى تأكيد صحة الرؤيا، وهي قوله: فقد رآني، فقد رأى الحق، فقد رآني في اليقظة،(فكأنما رآني في اليقظة)[2]، فسيراني في اليقظة. وقوله: فإن الشيطان لا يتمثل بي. وقوله: إنه لا ينبغي للشيطان أن يتمثل في صورتي، وفي رواية لا ينبغي أن يتشبه بي، وفي رواية لا يتكونني. وهي كلها صادعة بأن الشيطان لا يتكون ولا يتمثل ولا يتشبه به، وأن رؤياه حق على كل حال. وعند البخاري، (رضي الله عنه)[3]، لا يتراءى بالراء بوزن يتعاطى، قال في المواهب[4]: ومعناه لا يستطيع أن يتمثل بي، يعني أن الله تعالى وإن مكنه من التصور في أي صورة أراد، فإنه لم يمكنه التصور في صورة النبي صلى الله عليه وسلم. وقد ذهب إلي هذا جماعة فقالوا في الحديث: إن محل ذلك إذا رآه الرائي على صورته التي كان عليها، ومنهم من ضيق الذرع في ذلك حتى قال: لا بد أن يراه على صورته التي قبض عليها حتى يعتبر عدد الشعرات البيض التي لم تبلغ عشرين شعرة.

وعن حماد بن زيد قال: كان محمد، يعني ابن سيرين، إذا قص عليه رجل أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم قال: صف الذي رأيته، فإن وصف له صفة لا يعرفها قال: لم تره، وسنده صحيح[5].

وقد أخرج الحاكم من طريق عاصم بن كليب، حدثني أبي قال: قلت لابن عباس: رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام، قال: صفه، قال: فذكرت الحسن بن علي فشبهته به، قال: قد رأيته. وسنده جيد[6]، ولكن يعارضه ما

(1) أبو بكر محمد بن إسماعيل بن مهران النيسابوري المعروف بالإسماعيلي، الإمام الحافظ، توفي سنة 295 هـ: سير أعلام النبلاء 118:14.
(2) ما بين قوسين ساقط من ط.
(3) زيادة من ط.
(4) وردت هذه الفقرة في كتاب المواهب 292:2، ويبدو أن العياشي يستقي كلامه هنا من كتاب فتح الباري.
(5) فتح الباري 384:12.
(6) نفسه.

أخرجه ابن أبي عاصم من وجه آخر عن أبي هريرة، (رضي الله عنه)[1]، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رآني في المنام فقد رآني، فإني أرى في كل صورة[2]، وفي سنده ابن التوأمة، وهو ضعيف لاختلاطه، وهو من رواية من سمع منه بعد الاختلاط. قال القاضي أبو بكر بن العربي[3]: رؤيته صلى الله عليه وسلم بصفته المعلومة إدراك على الحقيقة، ورؤيته على غير صفته إدراك للمثال، فإن الصواب أن الأنبياء لا تغيرهم الأرض، ويكون إدراك الذات الكريمة حقيقة، وإدراك الصفة إدراك المثال. قال: وقد شد بعض القدرية فقال: الرؤيا لا حقيقة لها أصلا، قال: فسيراني معناه فسيرى تفسير ما رأى لأنه حق وغيب، وأما قوله فكأنما رآني فهو تشبيه، ومعناه أنه لو رآني في اليقظة لطابق ما رآه في المنام، فيكون الأول حقا وحقيقة، والثاني حقا وتمثيلا. قال: وهذا كله إذا رآه على صورته المعروفة، فإن رآه على خلاف صفته فهي أمثال، فان رآه مقبلا عليه مثلا فهو خير للرائي، وعلى العكس فالبعكس[4].

وقال المازري: اختلف المحققون في ذلك، فذهب مقتدى أهل السنة وإمامهم القاضي أبو بكر بن الطيب إلى أن المراد بقوله: من رآني في المنام فقد رآني، أي رؤياه صحيحة لا تكون أضغاثا ولا من تشبيهات الشيطان. قال: ويعضده قوله في بعض طرقه: فقد رأى الحق، وفي قوله: فإن الشيطان لا يتمثل بي، أي أن رؤياه لا تكون أضغاثا. قال: وقال آخرون: بل الحديث محمول على ظاهره، والمراد أن من رآه فقد أدركه ولا مانع يمنع من ذلك. وأما كونه قد يرى على غير صفته أو يرى في مكانين مختلفين، فإن ذلك غلط في صفته وتخيل لها على غير ما هي عليه. وقد يظن بعض الخيالات مرئيات لكون ما يتخيل مرتبطا بما يرى في العادة، فتكون ذاته صلى الله عليه وسلم مرئية وصفاته متخيلة غير مرئية. والإدراك لا يشترط فيه تحديد البصر ولا قرب المسافة، ولا كون المرئي ظاهرا على وجه الأرض أو مدفونا، وإنما يشترط كونه موجودا، ولم يقع دليل على فناء جسمه، صلى الله عليه وسلم، بل جاء في الخبر الصحيح ما يدل على بقائه، ويكون ثمرة اختلاف الصفات اختلاف الدلالات.

---

(1) زيادة من ط.
(2) فتح الباري: 12:383.
(3) نفسه.
(4) في ط: فالعكس.

قال القاضي عياض[1]: يحتمل أن يكون معنى الحديث إذا رآه على الصفة التي كان عليها في حياته لا على صفة مضادة لحاله، فإن رئي على غيرها كانت رؤيا تأويل لا رؤيا حقيقة، فإن من الرؤيا ما يخرج على هيئته، ومنها ما يحتاج إلي تأويل.

وقال النووي[2]: هذا الذي قاله ضعيف، بل الصحيح أنه يراه حقيقة، سواء كان على صفته المعروفة أو غيرها، كما ذكره المازري.

وقال شيخ الإسلام ابن حجر[3]: وهذا الذي رواه النووي روي عن ابن سيرين اعتباره؛ فقد روى إسماعيل القاضي بسند صحيح من طريق حماد بن زيد عن أيوب قال: كان محمد بن سيرين إذا قص عليه رجل أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم قال: صف الذي رأيته، فإن وصف له صفة لا يعرفها قال: لم تره. والذي قاله القاضي توسط حسن، ويمكن الجمع بينه وبين ما قاله المازري بأن رؤياه على الحالين حقيقة، لكن إذا كان على صورته كان ما يرى في المنام على ظاهره لا يحتاج إلي تعبير، وإذا كان على غير صورته كان النقص من جهة الرائي لتخيله الصفة على غير ما هي عليه، ويحتاج ما يراه في ذلك المنام إلى التعبير.

قلت: وهذا جار على ما ذكرنا أولا من التأويل في أخباره، فكما أن خبره النومي إذا لم يوافق المشروع يؤول، كذلك أيضا وصفه المرئي في النوم إذا لم يوافق صفته التي كان عليها بأن زاد أو نقص أول. ومعنى التأويل في ذلك مثل ما ذكره أهل التعبير، إن رئي شابا جَلدا دل على سنة شديدة، وإذا رئي شيخا كبيرا دل على سنة مخصبة، وإذا رئي ناقص بعض الأعضاء دل على نقص وخلل في دين الرائي، أو زائد بعض الأعضاء دل على غلوه في الدين وإدخاله فيه ما ليس منه، إلي غير ذلك، فالرؤيا على كل حال حق، والمرئي إن وافق فذلك وإلا أول.

فهذا زبدة ما تقدم من النقول، وما يأتي بعد هذا، وهو معنى التوسط الذي تقدم عن القاضي، والطرق الأخر حقيقتها على كل حال بمعنى مطابقتها لما في نفس الأمر فلا تؤول، والآخر محكي عن ابن سيرين أنها إذا خالفت فتلقى جملة ولا

(1) فتح الباري 384:12.
(2) نفسه.
(3) نفسه.

تأول[1]. ولا بد من حمل كلامهما على هذا، وإلا لزم الأول حقيقة المرئي ولو خالف، وهو لا يقول به، ولزم الثاني إسقاط التعبير رأسا لأنها إن وافقت فلا تؤول لمطابقتها للواقع، وإن خالفت فتلغى، وهو لا يقول بسقوط التعبير في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم، فلزم حمل كلاميهما وكل من وافق كلاميهما على هذا التوسط الحسن وتعين ذلك.

ولنذكر ما بقي من كلام الأئمة على معنى الحديث فنقول: قال العارف بالله الشيخ محمد ابن أبي جمرة ذاهبا إلى ما اختاره النووي بعد أن حكى الخلاف[2]: ومنهم من قال إن الشيطان لا يتصور على صورته أصلا، فمن رآه في صورة حسنة فذلك حسن في دين الرائي، وإن كان في جارحة من جوارحه شين أو نقص فذلك خلل في الرائي من جهة الدين، قال: وهذا هو الحق، وبه تحصل الفائدة الكبرى في رؤياه حتى يبين للرائي هل عنده خلل أو لا، لأنه، صلى الله عليه وسلم، نوراني مثل المرآة الصقيلة، ما كان في الناظر إليها من حسن أو غيره تصور فيها وهي في ذاتها على أحسن حال، لا نقص فيها ولا شيْن، وكذلك يقال في كلامه، صلى الله عليه وسلم، في النوم إنه يعرض على سنته، فما وافقها فهو حق، وما خالفها فالخلل في سمع الرائي. فرؤيا الذات الكريمة حق، والخلل إنما هو في سمع الرائي أو بصره، قال: وهذا خير ما سمعته في ذلك. انتهى.

قال شيخ الإسلام ابن حجر: ويظهر لي في التوفيق بين جميع ما ذكروه، وأن من رآه على صفته أو أكثر مما يختص به فقد رآه، ولو كانت سائر الصفات مخالفة، وعلى هذا فتتفاوت رؤيا من رآه، فمن رآه على هيئته الكريمة فرؤياه الحق التي لا تحتاج إلى التعبير، وعليها يتنزل قوله: فقد رآني، ومهما نقص من صفاته فيدخل التأويل بحسب ذلك، ويصح إطلاق أن من رآه في أية حالة كانت من ذلك، فقد رآه حقيقة. انتهى ما قاله ابن حجر.

وقال حجة الإسلام الغزالي[3]: ليس معنى قوله رآني أنه رأى جسمي وبدني، قال: والآلة تكون حقيقة وتارة تكون خيالية، والنفس غير المثال المتخيل، فما رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى ولا شخصه، بل هو مثال له على التحقيق.

---

(1) في ط: تأويل.
(2) فتح الباري 12:385.
(3) فتح الباري 12:89.

قال: ومثل ذلك من يرى الله سبحانه وتعالى في المنام، فإن ذاته منزهة عن الشكل والصورة، ولكن تنتهي تعريفاته إلى العبد بواسطة مثال محسوس من نور أو غيره، ويكون ذلك المثال حقا في كونه واسطة في التعريف، فيقول الرائي: رأيت الله (تعالى)[1] في المنام، لا معنى أني رأيت ذات الله كما يقول في حق غيره.

قال الأبي[2] بعد نقل كلام المازري والقاضي ما نصه: قد علمت مما تقدم في حقيقة الرؤيا إن المرئي في النوم من حجر أو جبل أو إنسان أو غيره إنما هي أمثلة لتلك المرئيات لأنفسها، وبه يتوجه ما ذكروا من أنه يصح أن يراه إنسانان في وقت واحد في مكانين، فمعنى من رآني فقد رآني: من رأى مثالي فقد رأى مثالي، وعلل ذلك بأن الشيطان لا يتمثل به، وهي شهادة منه صلى الله عليه وسلم بأن الله قد عصم مثاله أن يتمثل به الشيطان في النوم كما عصم ذاته الكريمة منه في اليقظة، هذا هو التوجيه الحق في أنه يصح أن يراه اثنان في مكانين. ووجهه الصوفية بأنه، صلى الله عليه وسلم، كالشمس هي واحدة وترى في أماكن عدة، وهو تنظير لا يصح لأنه غير موازن، لأن الشمس وهي بالأفق ترى من مكانين لا في مكانين، ورؤية واحد من مكانين تصح، بخلاف رؤيته في مكانين. وإنما الذي يوازن أن يرى زيد جرم الشمس في بيت، ويراه عمرو في ذلك الوقت في بيت آخر. ولو فرض ذلك كان فرض محال، كاستحالة أن يرى ذاته الكريمة اثنان في مكانين. انتهى كلام الأبي.

وما قرره هو ما قاله الصوفية، إلا أنه قبل التأمل ظن أن قولهم في مكانين وصف للمرئي، وإنما هو للرائي، فمعنى رآه اثنان في مكانين أي وهما في مكانين، وهذا سائغ في الاستعمال، بقول: رئي هلال العيد في بلادين، بمعنى أن الرائي له في بلدين، ولا يتوهم أن الهلال حل البلدين. فإن قيل: معنى ذلك رئي فيما يقابل البلدين من الأفق، تقول مثله هنا رئي عليه السلام في مقابلة مكان الرائيين. نعم إذا كشف الحجاب عن ذاته الكريمة لشخص بالمغرب وآخر بالهند في آن واحد فرآه كل واحد منهما، ظن كل واحد أنه رآه في مكانه وهو لم ينتقل عن موضعه، ورؤية البعيد كأنه قريب غير مستنكر، فإن النجم يرى على جبل، بل على مئذنة،

(1) زيادة من ط.
(2) أبو عبد الله محمد بن خلف المعروف بالأبي، العلامة المحقق، أخذ عن ابن عرفة وغيره، له شرح على مسلم سماه إكمال الإكمال، وله شرح المدونة توفي سنة 828 هـ: وفيات الونشريسي، ص: 139. شجرة النور الزكية 351:1.

بل على طرف حائط بيتك، لولا علمك أنه بالأفق لتوهمت أنه حيث رأيته. بل رأينا كثيرا من ضعفة العقول ممن يتوهم ذلك، فليتأمل.

وقال الإمام أبو القاسم القشيري ما حاصله أن رؤياه على غير صفته لا تستلزم ألا يكون هو، فإنه لو رأى الله تعالى على وصف يتعالى عنه، وهو يعتقد أنه متره عن ذلك،لا يقدح في رؤيته، بل يكون لتلك الرؤيا ضرب من التأويل.

وقال الطيبي[1]: المعنى من رآني في المنام بأي صفة كنت فليستبشر، ويعلم أنه قد رأى الرؤيا الحق الذي هي من الله، وهي مبشرة، لا الباطل الذي هو الحلم المنسوب للشيطان، فإن الشيطان لا يتمثل بي. وكذا قوله: فقد رأى الحق، وكذا قوله: فقد رآني، فإن الشرط والجزاء إذا اتحدا دل على الغاية والكمال، أي فقد رآني رؤيا ليس بعدها شيء، والله أعلم[2].

قال القسطلاني في المواهب[3] بعد نقل كلام الطيبي المذكور: والحاصل من الأجوبة أنه على التشبيه والتمثيل، ويدل عليه قوله: فكأنما رآني في اليقظة. ثانيها: معناه سيرى في اليقظة تأويلها بطريق الحقيقة. ثالثها: أنه خاص بأهل عصره من آمن به قبل أن يراه. رابعها: المراد أنه يراه في المرآة التي كانت له إن أمكنه ذلك. قال شيخ مشايخنا الحافظ بن حجر: وهذا من أبعد المحامل خامسها أنه يراه يوم القيامة بمزيد خصوصية لا مطلق من رآه حينئذ ممن لم يره في المنام[4]. والصواب كما قدمناه في رؤيته، عليه الصلاة والسلام، التعميم على أي حالة رآه الرائي، بشرط أن يكون على صورته الحقيقية في وقت ما، سواء كان في شبابه أو رجوليته أو كهوليته أو آخر عمره. وقد يكون لما خالف تعبير يتعلق بالرائي كما قال بعض علماء التعبير: إن من رآه شيخا فهو غاية سلم، ومن رآه شابا فهو غاية حرب. وقال أبو سعيد أحمد بن محمد بن نصر: من رأى نبينا على حاله وهيئته فذلك دليل على صلاح الرائي وكمال جاهه وظفره بمن عاداه، ومن رآه متغير الحال عابسا مثلا، فذلك دال على سوء حال الرائي.

---

(1) أبو الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي، عالم فقيه، له عدة مؤلفات، توفي سنة 743 هـ: الأعلام 256:2.

(2) فتح الباري 388:12. المواهب اللدنية 296:2.

(3) المواهب اللدنية 296:2.

(4) فتح الباري: 385:12.

تنبيه:

قال القرافي[1] في القواعد، وتبعه الزركشي في الخادم[2]، وحكاه جماعة من العلماء: إنما تصح رؤية النبي، صلى الله عليه وسلم، لأحد رجلين أحدهما صحابي رآه فعلم صفته، فانطبع في نفسه مثاله، فإذا رآه جزم بأنه رأى مثاله المعصوم من الشيطان، وثانيهما رجل تكررت عليه صفاته صلى الله عليه وسلم المنقولة في الكتب حتى انطبعت في نفسه، كما حصل ذلك لمن شاهده ورآه، فإذا رآه جزم برؤية مثاله عليه الصلاة والسلام كما يجزم به من رآه. وأما غير هذين فلا يحصل الجزم، بل يجوز أن يكون رأى النبي صلى الله عليه وسلم بمثاله، ويحتمل أن يكون من تمثيل الشيطان، ولا يفيده قول الذي يراه: أنا رسول الله ولا قول الذي معه.

قال الشيخ عبد القادر بن مغيزل الشاذلي[3] في كتابه الكواكب الزاهرة في اجتماع الأولياء يقظة بسيد الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة بعد نقله وجلبه للنصوص المتقدمة، ومنه نقلت ما نصه: حاصل ما قاله القرافي هو عين ما قاله القاضي عياض وشيخ الإسلام ابن حجر، ووجه التحقيق في ذلك هو أن مراد القرافي رحمه الله بهذين الرجلين كون الرؤية في حقهما قطعية لا تحتاج إلى تأويل، لأن التعبير علم باجتهاد، والاجتهاد مظنون، فأشبه الفقه، ولأن الاجتهاد أيضا لا مجال له في القطعيات كما هو مقرر في أصول الفقه، بخلاف غيرهما بأن يراه أحد على غير صفته، فلا يحصل الجزم برؤيته لأنه جعل الرؤية في حقهما، والحالة هذه قطعية، وفي حق غيرهما ظنية. وهذا ملحوظ من فحوى قوله: وأما غير هذين فلا يحصل الجزم، ونفى الجزم فقط لكونه قطعيا، فتعين قسيمه، وهو الظن، بطريق اللزوم. فافهم ذلك فإنه نفيس لا تراه الآن مسطورا، والله أعلم.

---

(1) بدر الدين محمد بن يحيى القرافي، من فقهاء المالكية بمصر، له مؤلفات في الفقه والحديث، توفي سنة 1008هـ: التقاط الدرر، ص: 35، شجرة النور الزكية 417:1، خلاصة الأثر 258:4.

(2) الإشارة هنا إلى: خادم الرافعي والروضة في الفروع لبدر الدين الزركشي الشافعي المتوفى سنة 749 هـ، شرح فيه مشكلات الروضة وفتح مقفلات فتح العزيز، وهو على أسلوب التوسط للأذرعي: كشف الظنون 698:1.

(3) عبد القادر بن مغيزل بن الحسين بن علي الشاذلي، المعروف بابن مغيزل، له كتاب: الكواكب الزاهرة، توفي بعد سنة 594 هـ: معجم المؤلفين 286:5.

وقال ابن بطال[1]: معنى قوله فسيراني في اليقظة، يريد تصديق تلك الرؤيا في اليقظة وصحتها وخروجها على الحق، وليس المراد أن يراه في الآخرة لأنه سيراه يوم القيامة في اليقظة جميع أمته، من رآه في النوم ومن لم يره[2].

قال ابن التين: المراد من آمن به في حياته و لم يره لكونه حينئذ غائبا عنه، فيكون هذا مبشرا لكل من آمن به و لم يره أنه لا بد أن يراه في اليقظة قبل موته[3]، كذا قاله بعض العلماء.

قال المازري: إن كان المحفوظ فكأنما رآني في اليقظة، فمعناه ظاهر، وإن كان المحفوظ: فسيراني في اليقظة، احتمل أن يكون أراد أهل عصره، فمن لم يهاجر إليه فإنه إذا رآه في المنام جعل ذلك علامة على أنه يراه بعد ذلك في اليقظة، وأوحى الله بذلك إليه صلى الله عليه وسلم[4].

وقال القاضي عياض: قيل معناه سيرى تأويل تلك الرؤيا في اليقظة وصحتها. وقيل معنى الرؤية في اليقظة أنه سيراه في الآخرة. وتعقب بأنه يراه في الآخرة جميع أمته، من رآه في المنام ومن لم يره، يعني فلا يبقى بخصوص رؤيته في المنام مزية[5].

وأجاب القاضي عياض باحتمال [أن تكون][6] رؤياه له في النوم على الصفة التي عرف بها ووصف عليها موجبة لتكرمته في الآخرة، وأن يراه رؤية خاصة من القرب منه والشفاعة له بعلو الدرجة ونحو ذلك من الخصوصيات[7]. قال: و لم[8] يبعد أن يعاقب الله بعض المذنبين في القيامة بمنع رؤية نبيه صلى الله عليه وسلم مدة[9]. وحمله ابن أبي جمرة على محمل آخر، فذكر عن ابن عباس أو غيره أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فبقي بعد أن استيقظ مفكرا في هذا الحديث،

---

(1) أبو عبد الله بن بطال بن مهدي التميمي، فقيه محدث، رحل إلى المشرق وأخذ عن جملة أعلام كعبد الملك بن جلاب وابن أبي أصبغ، توفي سنة 366هـ: شجرة النور الزكية 1:147.
(2) فتح الباري 12:385.
(3) فتح الباري 12:385.
(4) فتح الباري: 12:385.
(5) نفسه.
(6) زيادة من فتح الباري.
(7) نفسه.
(8) في ط: لا.
(9) فتح الباري: 12:385.

فدخل عليه بعض أمهات المؤمنين، لعلها خالته ميمونة، فأخرجت له المرآة التي كانت للنبي صلى الله عليه وسلم فنظر فيها فرأى صورة النبي صلى الله عليه وسلم، و لم ير صورة نفسه[1].

قال شيخ الإسلام ابن حجر: ويعكر عليه أن جمعا جما رأوه في المنام ثم لم يذكر واحد منهم أنه رآه في اليقظة، وخبر الصادق صلى الله عليه وسلم لا يتخلف[2]. انتهى.

قال في المواهب[3]: وقال بعضهم ليست رؤيته عليه الصلاة والسلام رؤيا عين، إنما يرى بالبصائر، وذلك لا يستدعي حصر المرأى، بل يرى من المشرق إلى المغرب ومن الأرض إلى العرش كما ترى الصورة في المرآة المحاذية لها، وليست الصورة منتقلة إلى جرم المرآة وعين الناظر مقابلة جميع الكائنات كالمرآة. واختلاف رؤيته، صلى الله عليه وسلم، بأن يراه بعضهم شيخا وآخر شابا، وآخر ضاحكا وآخر باكيا، يرجع إلى حال الرائين كاختلاف الصورة الواحدة في مرائي مختلفة الأشكال والمقادير، ففي الكبيرة يرى وجها كبيرا، وفي الصغيرة صغيرا، وفي المعوجة معوجا، وفي الطويلة طويلا إلى غير ذلك، فالاختلاف راجع إلى اختلاف الرائي إلى وجه المرئي، كذلك الراؤون له، عليه الصلاة والسلام، أحوالهم بالنسبة إليه مختلفة، فمن رآه متبسما إليه دل على أن الرائي متمسك بسنته، والله أعلم.

وقد أجاب الشيخ بدر الدين الزركشي عن سؤال رؤية جماعة له، صلى الله عليه وسلم، في آن واحد من أقطار متباعدة مع أن رؤيته صلى الله عليه وسلم حق، فإنه صلى الله عليه وسلم سراج، ونور الشمس في هذا العالم مثال نوره في العوالم كلها، وكما أن الشمس يراها كل من في المشرق والمغرب في ساعة واحدة وبصفات مختلفة، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم[4]، ولله در القائل[5]:

[كامل]

(1) نفسه.
(2) فتح الباري: 385:12.
(3) المواهب اللدنية 2:297.
(4) المواهب اللدنية 2:297.
(5) البيت لأبي الطيب المتنبي: شرح ديوان المتنبي، ص: 58.

كالبدْرِ من أي النـواحي جئتَـهُ[1] يهْـدي إلى عينيـكَ نُـورًا ثاقبَـا

قال الأبي ما نصه: تنبيه، قد علمت من الحديث ومما تقدم أن الله عصم مثاله أن يتمثل به الشيطان في النوم كما عصم ذاته الكريمة منه في اليقظة. وذكر القرافي من الكلام ما يشكل على هذا الأصل، ثم ساق كلام القرافي المتقدم بأبسط مما ذكر ثم قال بعده: وموضع الإشكال قصر رؤياه على الرجلين، وتجويزه في رؤية غير الرجلين أن يكون ما رآه من تخيل الشيطان مع شهادته، صلى الله عليه وسلم، أن الشيطان لا يتمثل به، فإن قلت: إذا لم تقصر رؤياه على الرجلين فبم يعلم غيرهما أنه رأى مثاله؟. قلت: يجوز أن يكون باعتقاد خلقه الله تعالى للرائي إن الذي رآه هو مثاله صلى الله عليه وسلم، وقد تقدم أن محل الإدراك من النائم لا يأتي عليه النوم.

قال القرافي: وإذا تقرر أنه لا بد من تحقيق رؤية مثاله المخصوص فيشكل][2] ذلك بما تقرر في كتب التعبير أنه يُرى شيخا وشابا وأسود وذاهب القدمين والعينين، وعلى أنواع شتى من المثل التي ليست هي مثالا. قال: والجواب أن الأحوال صفات الرائي، وأحوالهم تظهر فيه، وهو كالمرآة لهم، فإذا صح للرائي المثال وانضبط فرؤيته أسود تدل على ظلم الرائي، ورؤيته ذاهب العينين تدل على عدم إيمان الرائي لأنه إدراك ذهب، ورؤيته ذاهب القدمين يدل على أن الرائي منع من ظهور الشريعة ونفوذ أمرها، لأن اليد يعبر بها عن القدرة. ورؤيته شابا يدل على أن الرائي يستهزئ به لأن الشاب يحتقر. ورؤيته شيخا يدل على أن الرائي يعظم النبوة لأن الشيخ يعظم، وغير ذلك من الصفات الدالة على الأحكام المختلفة. ثم قال الغزالي: قلت لبعض مشايخي:إذا صح أن يراه على هذه الكيفيات فكيف يبقى المثال و لم يبق و لم يكن كذلك في الحياة؟. فقال لي: لو كان لك أب شاب تغيبت عنه ثم جئت فوجدته شيخا أو أصابه يرقان أصفر أو يرقان أسود، أو أصابه برص أو جذام أو بطلت أعضاؤه، أكنت تشك أنه أبوك؟. قلت:لا. قال: فما ذلك إلا لما انطبع في نفسك من مثاله المتصور عندك الذي لا تخلف[3] له مع

(1) في الديوان: من حيث التفت رأيته.
(2) زيادة من فتح الباري.
(3) في ط: تحيف.

عروض هذه الأحوال، فكيف من ثبت في نفسه مثاله من أحد الرجلين لا يشك فيه مع عروض هذه الأحوال له وغير الرجلين لا يثق بأنه رآه؟.

فصل:

وفي ما ذكرناه من كلام الأئمة على معنى الحديث كفاية، وهي كلها مصرحة بصحة الرؤيا مطلقا، ولنذكر كلامهم فيما يأمر به النبي، صلى الله عليه وسلم، في النوم، وما يلزم منه وما لا يلزم فنقول: قال النووي في فتاويه[1]: رؤية النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام لا يختص بها الصالحون. قال في الروضة[2]: ولكن لا يعمل بما يسمعه الرائي منه في المنام مما لا يتعلق بالأحكام لعدم ضبط الرائي، لا للشك في الرؤية، لأن الخبر لا يقبل إلا من ضابط مكلف، والنائم بخلافه. انتهى.

وسبقه إلى ذلك ابن الصلاح[3] في فتاويه، وقال: ليس ذلك من عدم الوثوق بالمرئي بل من جهة عدم الوثوق بضبط الرائي، وإن حالة النوم حالة غيبية وبطلان القوة الحافظة لما يجري في النوم على التفصيل.

وقال ابن الأستاذ: عندي في هذا نظر، فان رؤيته حق وقوله حق. قال الشيخ عبد القادر بن مغيزل: و لم أر واحدا من العلماء وافق ابن الأستاذ على هذا. فقد ذكر القاضي حسين[4] في فتاويه في مسألة صيام رمضان في من رأى ليلة الثلاثين من شعبان النبي صلى الله عليه وسلم قال له: غدا من رمضان. قال: لا يجوز له العمل به، لأنه، عليه الصلاة والسلام، حكم أن الصوم لا يجب إلا برؤيته الهلال أو استكمال ثلاثين، ووافقه على ذلك جماعة من الأصحاب. ونقل القاضي عياض الإجماع عليه. ونقل النووي أيضا في شرح مسلم عن أصحابنا وغيرهم أنهم نقلوا الاتفاق على أنه لا يغير بسبب ما يراه النائم ما تقرر في الشرع.

---

(1) فتاوي الأمام النووي المسمى المسائل المنثورة، ص 199.

(2) الإشارة هنا إلى روضة الطالبين وعمدة المتقين للإمام يحيى بن شرف النووي المتوفى سنة 676 هـ: كشف الظنون 1:929.

(3) أبو عمرو عثمان بن الصلاح، الفقيه الإمام، له تآليف مفيدة منها كتاب علوم الحديث، له الفتاوى المسددة، توفي سنة 643هـ: الفكر السامي 4:402.

(4) القاضي الحسين خضر النسفي، من فقهاء الحنفية، أقام ببغداد مدة ومات في بخارى سنة 424 هـ، له: الفوائد والفتاوي: الأعلام 2:237.

وفي فتاوي الحناطي أحد أئمة أصحابنا إن إنسانا رأى النبي، صلى الله عليه وسلم، في منامه على الصفة المنقولة عنه، فسأله عن الحكم فأفتاه بخلاف مذهبه، وليس مخالفا للنص والإجماع. فقال: فيها وجهان، أحدهما يأخذ بقوله، لأنه مقدم على القياس، وثانيهما لا، لأن القياس دليل والأحلام لا تعويل عليها، فلا يترك من أجلها الدليل. وعن[1] كتاب الجدل لأبي إسحاق الاسفرايني حكاية وجهين، في أن الرجل لو رأى النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام وأمره بأمر هل يجب عليه امتثاله إذا استيقظ؟ كذا هو في مجموع منسوب لابن الصلاح حكاه عنه ابن الملقن[2]. وحكى الزركشي في الخادم عن كتاب أدب الجدل ما حكيناه عن فتاوي الحناطي، فلعله انتقل نظره أو سقط شيء من النسخة. وفي المجموع المذكور لابن الصلاح حكاية وجهين في وجوب التمسك بالحكم من حيث هو في الحالة المذكورة.

وعن روضة الحكام للقاضي شريح من أصحابنا: لو كان النبي صلى الله عليه وسلم قال: لفلان على فلان كذا، هل للسامع أن يشهد لفلان على فلان كذا؟. وجهان. ونقل الزركشي عن الشيخ عز الدين خطيب الأشموني قال: أخبرني والدي أن إنسانا رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقال له: اذهب إلى موضع كذا وخذ ما فيه[3] من ركاز ولا خُمس عليك فيه. وأنه توجه إليه فوجده كما أخبره عليه الصلاة والسلام، وأنه استفتى الفقهاء بدمشق فكلهم أفتاه بعدم الوجوب، وقالوا قد ظهرت دلائل صدق الرؤيا، والشيطان ممنوع من التمثيل بالنبي صلى الله عليه وسلم. قال وأفتاه شيخنا عز الدين بن عبد السلام بوجوب الخمس عليه، واستدل على ذلك بأن طريق رفع القواعد النسخ، فلا نسخ بعد انقطاع الوحي بموته صلى الله عليه وسلم. قال: ثم إني حكيت هذه الحكاية بين يدي شيخنا تقي الدين بن دقيق العيد[4] رحمه الله فصدق روايتها، وزاد على ذلك أن الشيخ عز الدين كان يرى ذلك من باب الترجيح على تقدير صدق النائم. قال:

---

(1) في ط: في.
(2) عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي، ابن الملقن، من أكابر علماء الحديث والفقه، توفي سنة 804 هـ، من مصنفاته: إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال، التوضيح لشرح الجامع الصحيح: الأعلام 57:5.
(3) في ط: به.
(4) عمر بن علي بن وهب المعروف بدقيق العيد، من أكابر العلماء بالأصول، ولي قضاء مصر وتوفي بالقاهرة سنة 702 هـ، له عدة تصانيف منها: إحكام الأحكام: الأعلام 283:6.

وأظن أنه أراد بالترجيح أن رواية الجمهور وجوب الخمس نصا، ورواية هذا شاذة في منام، والأول أرجح قطعا، فالعمل بها راجح، والله أعلم.

وقال الأبي في شرح مسلم ما نصه: قال القرافي: واختلف الفقهاء لو قال لرائيه: امرأتك طالق ثلاثا وهو يجزم أنه لم يطلق ثلاثا. هل يلزمه الطلاق ثلاثا لأنه صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا حقا؟ أو لا يلزمه شيء؟. قال القرافي: وهو الأظهر، لأن إخباره صلى الله عليه وسلم في اليقظة مقدم على إخباره في النوم، ولأن احتمال الغلط في ضبط المثال في النوم أرجح من الغلط في ضبط عدم الطلاق، لأن هذا لا يختل إلا على النادر من الناس، وأما المثال في النوم فلا ينضبط إلا للأفراد من الحفاظ لصفته صلى الله عليه وسلم، والعمل بالراجح واجب.

قلت: ونزلت، فيذكر أن الشيخ (الفقيه)[1] ابن البراء كان يقرئ في مسجد القبة من تونس[2] فأتاه رجل وقال له: رأيت البارحة النبي صلى الله عليه وسلم وقال لي: قل لفلان يعطيك جبة، فقال له الفقيه: قال لي أنا في اليقظة لا أعطيك شيئا. فذهب الرجل فدخل على الرجل الصالح أبي عبد الله المشتهر بالمغربي في موضعه القريب من المسجد المذكور فأعطاه، فقيل له إن الرجل يتخرص، فقال الشيخ: لو علمت أنه محق لأعطيته الدنيا. انتهى كلام الأبي.

وقال شيخ شيوخنا محب الدين الفيشي[3] في تكملة السيرة الشامية ما نصه: قال النووي: أما إذا رآه يأمره بفعل ما هو مندوب إليه، أو ينهاه عن منهي عنه، أو يرشده إلى فعل مصلحة، فلا خلاف في استحباب العمل على وفقه، لأن ذلك ليس حكما بمجرد المنام، بل بما تقرر من أصل ذلك الشيء.انتهى.

فحاصل ما تقدم كله أن الرؤيا حق، فإن وافق المرئي صفته فلا تأويل، وإلا فيؤول. وكذلك أوامره إن وافقت بقيت على ظاهرها وأفادت تأكيدا وإرشادا لمصلحة وإلا أولت، وهو مقتضى كلام النووي هذا الأخير. ولو قال قائل: إن هذه الأخبار المنقولة عنه، عليه السلام، في النوم تترل مترلة ضعيف الحديث وشاذه

---

(1) زيادة من ط.

(2) تونس: مدينة بإفريقية، محدثة إسلامية، بينها وبين القيروان مسيرة ثلاثة أيام: الروض المعطار، ص: 143.

(3) أبو عبد الله محمد بن محمد محب الدين الفيشي، فقيه مالكي، ولد سنة 917هـ، له تآليف منها: شرح العشماوية: شجرة النور الزكية 1:406.

فيعمل به في الفضائل و تحصل به الشواهد والاعتبارات، لم يبعد ذلك لأن الشارع لم يلغ الرؤيا عن الاعتبار أصلا، سيما رؤياه عليه السلام التي هي حق ومعصومة من تمثيل الشيطان. وقد اعتبر الشرع جنس الرؤيا إذ جعل منها مبشرات، وجعلها جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة. نعم تخالف أخبار الرؤيا أخبار اليقظة في أن أخذ الأحكام من الكتب والسنة وفهمها له طريق معلوم مدون مهذب في أصول الفقه والنحو وغير ذلك بما يتوقف عليه الاجتهاد، وتأويل ما يؤول من الكتب والسنة يؤول على تلك الطريقة بخلاف أخبار الرؤيا، فإن لفهمها وتأويل المؤول منها طرقا غير ذلك لا تكاد تنضبط، ولذلك لم يكلفنا الشرع بالعمل بمدلولاتها لغموضها ودقة مدركها وخفي إشاراتها. فإن فهم الإنسان منها ما يوافق المشروع عمل به، وإلا توقف من غير أن يحكم ببطلانها جملة. ولنقصر عنان الكلام فإن للعلم في مباحث هذه المسالة مجالا واسعا، وللنظر فيها مرمى شاسعا، ولو تتبعناها خطر لنا فيها من المباحث المؤيدة بالأدلة التي هي على الركون إليها بواعث، لطال المقال، وتعارضت الأنقال، وتقارب ما بين الأصل والفرع، بشواهد العقل والشرع، وبالله تعالى نستنزل[1] عزيز التوفيق، ونستهدى سواء الطريق.

(1) في ط: والله يستنزل.

ذكر خروجنا من بلاد أوكرت

وهي آخر البلاد التي هي تحت طاعة الشريف صاحب سجلماسة رحمه الله وعفا عنه آمين

كان رحيلنا من هذه البلاد صبيحة يوم الثلاثاء الثاني عشر من جمادى الأولى قاصدين إلى واركلا، وخرج معنا جملة من أهلها قاصدين الحج، وأخذنا على طريق وادي ايمكيدن ومعنا رجل من عرب الخنافسة اكتراه أمير الركب يدلهم على الطريق. ومعاطن المياه كثيرة في هذا الوادي، قل ما يخلو يوم من منهل، وماؤه عذب غزير، وفيه يقول أعراب ذلك البلد:

واد امكيدن ما نعطش فيه   كل يوم نجيء على ما

إلا أننا وجدنا غالب المناهل قد دفنها أولاد محمد، عرب توات، خائفين من عدوهم من[1] سعيد أن يغيروا عليهم، فطمسوا ما في طريقهم من الماء لأجل ذلك، ولم نزل نسير مع ذلك الوادي نرد الماء يوما بعد يوم في أيام بلغ بردها الغاية، وأفرط إلي غير نهاية. إلى أن نزلنا عاشر يوم على قرية يقال لها والاّ، بعدما قطعنا قربها رمالا كثيرة يحار النظر في كثرتها وصعوبتها، وقاسينا منها شدة، ولقيت الإبل أضعاف ما لقينا، وعلمنا عند ذلك حسن مبالغة القائل: اللهم صلّ على سيدنا محمد عدد الرمال.

ولولا أن هذه القرية في مثل هذه المفازة ما حسن تسميتها قرية، إذ ليس فيها إلا نخلات معدودة قد يبس أكثرها، وبقيت جدرات تسفى عليها الرياح وحجرات من جريد النخل، وعرش من الجريد مرفوعة من الأرض مقدار القامة، يبس فيها تمر ذلك النخل، إذ لا يقدرون على وضعه على الأرض لئلا يغلب عليها الرمل فيذهب أدراج الرياح، ولم نجد في هذه القرية إلا رجلا واحدا ومعه نساء

(1) في ط: ابن.

من قرابته يعولهن، وهو من ذرية رجل من الصالحين اسمه سيدي محمد بن موسى مدفون في تلك القرية عليه بناء، وزعموا أنه أول من بنى تلك القرية وأحياها وفجر ماءها وغرس نخيلها، والعرب يحترمون النازل بها بحرمته، ويتأثر من تعدى عليه منهم بذلك، ويأتون ببعض صدقاتهم إليه. وقد وجدنا في روضته سفرا من نوازل البرزلي بخط الإمام ابن مرزوق، قد أفسد القطر جانبا منه. ومعه إجازات لبعض السادات القادرية[1] بخط مشرقي، وكثر تعجبنا من وصول ذلك إلى هذه القرية. وما كنا نظنه إلا من كتب سيدي محمد بن إسماعيل[2] الذي مات بتكورارن، فإنه لما مات هناك سنة أربع وستين خلف كتبا كثيرة وأوصى بها لخادم الروضة النبوية، وأوصى بأن يصبر شخصه بصبر وكافور، ويحمل إلى المدينة المشرفة يدفن فيها، وعين لمن يحمله نحوا من ثلاثمائة دينار من متخلفه، وكان له فرس أدهم من عتاق الخيل وأوصى به للجهاد، وأعتق عبيده ودفع لكل حصة من ماله، فلما مات أنفذ[3] أهل البلد وصيته إلا في حمله فانهم لم يجدوا من يحمله معتلين بخوف ظلم الولاة بمصر والحجاز أن يطالبوهم بماله إذا رأوا جنازته محمولة من العرب، ويقولون ما فعل به هذا إلا وله أموال تفوت الحصر، فدفنوه في بلادهم بعدما همَّ بعض التجار بدفعه. وبقيت كتبه هناك مدة ثم حملوها إلى القليعة فارين بها لما بلغهم أن متولي البلد يتحدث بأخذها، ولم تزل هناك إلى أن ذهب سيدي علي ابن الشيخ الحفيان للحج بعد ذلك بسنين، فبعثوها معه وضاع كثير منها بسبب ذلك. وقد رأيت بعضها بالمدينة المشرفة، ورأيت زمام ما وصل منها وليس يشبه ذلك عدة كتبه. وقد أخبرني بنفسه رحمه الله قبل موته بسنة لما لقيته بفجيج أن كتبه تبلغ قريبا من ألف وخمسمائة تأليف، والذي بلغ منها إلى المدينة المشرفة نحو من مائة وسبعين سفرا رأيت منها جملة كثيرة، وهي كتب نفيسة جدا اقتنى أكثرها لما كان بمدينة اصطنبول، اشتراها له الوزير الأعظم بسبب حكاية وقعت له معه قبل أن يتولى الوزارة، وذلك أنه لقيه ببغداد عند ضريح قطب الزمان عبد القادر الجيلاني، والوزير إذ ذاك مصروف عن عمالة كبيرة من أعمال السلطان فهو يتخوف من غائلة السلطان ويأمل الوزارة. فقال يا سيدي، ادع الله لي فإن

(1) نسبة إلى القطب أبي محمد عبد القادر الجيلاني، المتصوف الشهير، توفي ببغداد سنة 561 هـ: مرآة المحاسن، ص: 249.

(2) محمد بن إسماعيل: عالم فاضل، توفي بتكورارين عام 1064 هـ: صفوة من انتشر، ص: 222. نشر المثاني 2:69.

(3) في ط: أنفذ.

توليت الوزارة فاقترح علي ما شئت. فلما ذهب سيدي محمد بن إسماعيل إلى القسطنطينية وجده قد تولى الوزارة، فأكرم مثواه وأحسن نزله. فقال له شأنك وما تقترح ؟. فقال له: إن بهذه المدينة كتبا نفيسة وليس لي ما أحصل به أمنيتي منها. فبعث إلى دلال الكتب وقال له: كل ما يقع بيدك من الكتب فاعرضه على هذا الشيخ فما استحسن منها فاتركه له وخذ الثمن من عندي لأربابه، فلم يزل ذلك دأبه مدة إقامته هناك. وكان هذا الرجل أعجوبة في سائر أحواله، فإنه ممن حصل جانبا عظيما من العلوم الشرعية، ولم يخل من جانب الأذواق والوهبية، وجال البلاد شرقا وغربا، فلم يدع المغرب الأقصى ولا إفريقية ولا بلاد السودان، وأقام بمصر مدة، نحوا من سبع سنين في حياة الشيخ اللقاني. وأخبرني أنه ختم المختصر بالأزهر سبع مرات، ولقي مشايخ ذلك الوقت، وجاور بمكة والمدينة مدة، ودخل اليمن وادعى فيه المهدية أو ما يشاكلها فلم يتم له ذلك، ودخل العراق وأقام مدة ببغداد وانتسب للشيخ عبد القادر، وأخذ العهد على طريقه، ودخل في جملة أتباعه. ثم ذهب من هناك إلى القسطنطينة، وهو في كل ذلك يصرح بما في نفسه من الإمارة ولا يكني، غير متهيب صولة سلطان ولا غيره. ثم جاء من الروم إلى طرابلس في سنة ستين. ولقيته إذ ذاك بمسراتة عند ضريح الشيخ زروق. وقال لي: إني قد أذن لي في نصرة الدين وإظهار الكلمة، وأخبرني بذلك من لقيته من الصالحين. وقد جئت إلى هذا الشيخ أستأذنه، فأنا أنتظر الإذن من قبله. وتركناه هناك إلى أن بلغنا خبره أنه بلغ إلى سواحل البحر الغربي وزار سيدي عبد السلام بن مشيش[1]. وأقام بتلك البلاد مدة ولم يتم له ما أراد، وكان أظهر أمره قبل ذلك بسنين عديدة بالسوس الأقصى فلم يتم له الأمر. ثم كر راجعا من جبال غمارة إلى القلعية، وأقام بها مدة ثم سار من هناك إلى أن خرج إلى فجيج وأقام بها مدة، ولقيته بها أوائل سنة أربع وستين، فطلب منا المساعدة على ما يحاوله، فلم يصادف عندنا ما يحب، وأظهرنا له جلية أمرنا، وأنا لسنا ممن يتعرض لما ليس من شأنه، ولا ممن له قدرة على أقل ما يحاوله. فلما تحقق ذلك منا أظهر التأسف والتلهف على ما مضى من عمره وسعيه في غير طائل. وقال: إني جلت جوانب الأرض فلم أجد من يبكي الإسلام بالعين التي أبكي بها، فوالله ما كذبت ولا كذبت إلا أني عسى أن أكون قد غلطت في فهم ما أخبرت به، فإني رأيت

(1) أبو محمد عبد السلام بن مشيش، متصوف عارف، له الصلاة المشيشية، توفي مقتولا بجبل العلم سنة 622 هـ: مرآة المحاسن، ص: 249.

النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي: أنت عالم وغني وسلطان، فأما العلم فقد حصلت منه ما قسم لي، وأما الغنى فإني لا أعدم الخمسمائة دينار أو ما يقاربها متى طلبتها، وأما السلطنة فلعلها سلطنة الآخرة، وكنت أظنها في الدنيا. وأنا الآن تائب مما أنا فيه، عالم أن الله لم يرد بي ذلك، فنيتي الرجوع إلى الحج والزيارة، ثم أستوطن جوار الشيخ عبد القادر الجيلاني أعبد الله حتى أموت. ففارقناه على هذه النية، فذهب من هناك إلى تجورارن ومات بها. وكان رحمه الله ينتحل السيمياء والكيمياء ويحسن الوفاق ويخبر عن نفسه ببعض ذلك. ولو استقصينا أخباره لطال الكلام. ومن محاسنه أنه لما دخل إلى طرابلس قال له عثمان باشا: اقترح علي، فقال له: إني أريد أن تحرر كل من في مملكتك من الأشراف فلا يعطون شيئا مما يعطيه غيرهم، وتحرر جيران الشيخ زروق. فعد من في عمالته من الأشراف، فوجد نحوا من خمسمائة دار، فحررت كلها ولم يؤخذ منها شيء إلى الآن. ولعمري إنها لفعلة حسنة. أنشد عند تأسفه على ما مضى من تطوافه في البلاد على غير طائل:

[وافر]

مشيْناها خطى كُتبتْ علينا ... ومنْ كُتبت عليه خطى مشَاها[1]

وأرزاقٌ لنا متفرقاتٌ ... فمنْ لم تأتِه منا أتاهَا

ويزاد بعد هذا البيت:

ومن كتبتْ منيتهُ بأرض ... فليس يموت بأرض سواها

وأنشدني أيضا:

[كامل]

فسد الزمانُ كما ترى من حاله ... وكذا عوائِدُ آخرِ الأزمانِ

وأولى من هذا قول الآخر[2]:

[وافر]

(1) ورد البيتان في لمح السحر، وقال المصنف إنهما مكتوبان على قبر المتنبي: لمح السحر، ص: 211.

(2) ورد بلا نسبة في التمثيل والمحاضرة، ص: 247. لمح السحر، ص: 181.

يقولـــون الزمـــانُ بـــه فـــسادٌ   وهم فسَدوا ومـــا فـــسدَ الزمـــانُ

وبالجملة فهذا الرجل كان أعجوبة زمانه ونادرة وقته سخاء وذكاء ودهاء، ونجدة وعلو همة وعبادة، لولا ما ابتلاه الله به من وسوسة الإمارة التي توسوس في دماغه، فلا تدعه يسكن في مكان ولا يقر له معها في أرض قرار. نسأل الله العفو والعافية والمعافاة من كل ما يقطع عنه بمنه وكرمه.

ثم ارتحلنا من قرية والا ونزلنا ضحى بينها وبين القليعة، ولحق بنـــا هنـــاك سيدي علي بن الشيخ الحفيان، وهو أخو أمير ركبنا سيدي محمد، ولحـــق معـــه حجاج من أهل تجورارن. ثم ارتحلنا من هناك في يوم عاصف لم نر مثله فيما تقدم من سفرنا، لقي الناس فيه كلالا، ولا تفتح العين إلا ملئت رمـــالا. فالركبـــان بأرديتهم مترفلون[1]، والمشاة بجانب الإبل قهرا يرملون[2]. ونزلنا بالقليعة، تـــصغير قلعة، وهي قرية حصينة على حجر صلد في سفح جبل منقطع عنه، وبهـــا آبـــار كثيرة طيبة الماء، ونخيل ليس بكثير. وهي من طاعة سلطان واركلا، وبها عاملـــه، وهمته على قدر همة مستعمله. وقد أخبرني من رآه أسود حافي الرجـــل عـــاري الرأس، في ملاءة وسخة، ومع ذلك يتحاكم إليه أهل قريته ويذعنون لأمره. وبهذه القرية كان يترل الشيخ الحاج الأبر سيدي أبو حفص ابن الولي الصالح سيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان ابن بوسماحة، ويعرف عند أهل بلده بسيدي الشيخ، وأولاده حتى الآن يدعون أولاد سيدي الشيخ، وله حرمة وصيت في هذه النواحي بلها[3] وصحرائها. خصوصا ولده هذا سيدي أبو حفص، فله هدي وصيت حسن وتنسك، مثابر على فعل الخيرات من جهاد وحج، فقد أفنى عمره في التردد على الحرمين الشريفين، وربما رجع من الطريق قبل أن يصل. ولم يزل كـــذلك إلى أن توفي في سنة إحدى وسبعين وألف، ودفن عند والده بمقبرتهم المعروفة بـــالأبيض، قرب بوسمغون. وقد حججنا معه سنة تسع وخمسين، وقفلنا معـــه إلى تـــوزر[4]، وزرناه مرارا عديدة، ولقيناه بعد ذلك في حجة سنة خمس وستين ونحن قافلون،

---

(1) مترفلون: من رفل؛ أي جر ذيله وتبختر: لسان العرب: رفل.
(2) يرملون: من الرمل؛ وهو الهرولة: لسان العرب: رمل.
(3) في ط: يمها.
(4) توزر: مدينة في أقصى إفريقية من نواحي الزاب الكبير من أعمال الجريد معمورة، بينها وبين نفطة عشرة فراسخ وأرضها سبخة بها نخل كثير: معجم البلدان: توزر. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 277:1.

وتؤثر عنه كرامات وله أتباع، وكان يسير غالبا للحجاز بنسائه وأولاده. ويعامله الناس كثيرا، الأمراء فمن دونهم، ويتبركون به.

ثم ارتحلنا من القليعة وسرنا نصف يوم والجبل عن يميننا، في يوم عاصف، إلى أن صعدناه عشاء وبتنا. وفي الغد سلكنا في أرض وعرة حرشة، إلا أنا وجدنا بها الكلأ للإبل فحمدناها. والطريق في غالبها يسلك في شعاب تنساب بين فدافد[1] انسياب الأرقم، فمن رآها من بعيد ظنها أرضا بيضاء يتصل بعضها ببعض وهي تتقطع تقطع السحاب. وفي اليوم الرابع جئنا إلى ماء يقال له زيرارة، وهي بئر طويل جدا متوحد في بسيط من الأرض بين جبلين، أحدهما من رمل، وماؤها حلو جدا، وفيه يقول أعراب ذلك البلد: ما أحلى ماءك وما أبعده يا زيرارة. فلما تجاوزناها حصلت للركب روعة لخبر أخبروه أن بازائهم قوم من العرب يريدون الإغارة، فشمر الناس للقتال وأخرجوا عدتهم، وهيؤوا آلة حربهم فلم يلقوا كيدا. وتبين بعد ذلك أن الخبر لا أصل له. وبات الحجاج في تلك الليلة على ماء يقال له الجديد. وفي ثاني يوم منه، وهو سادس يوم من رحيلنا من القليعة، نزلنا على ماء يقال له ولت دغير ضحى يوم الجمعة التاسع والعشرين من جمادى الأولى، وهو بئر واحد غزير الماء في بسيط من الأرض بين جبلين، لا يخلو من العمارة في الغالب ممن يجاوره من الأعراب. وغالبهم أهل عافية لا إذاية فيهم.

ثم ارتحلنا منها وأخذ الناس ماء أربع ليال، ومررنا في طريق بأسفل واديها، وفيها تل في بسيط من الأرض به رسم مسجد وقبور، وكأنه مزارة، فصلينا[2] به الظهر.، وزرناه بحسن اعتقاد لأنه محل تعبد في أرض قل ما يذكر فيها اسم الله كثيرا. وقد سألنا الدليل عن ذلك الموضع فأخبرنا أنه مصلى السيد الحاج أبي حفص، والرجل من الصالحين يسمى الحاج يوسف. وعن يمينه في شعبة من تلك الشعاب ماء يقال له أبو الرغاوي. ثم بتنا تلك الليلة أسفل من العقبة التي يطلع منها إلى الحماد. ولم يسر الركب في ذلك اليوم إلا نصف مرحلة لأنهم وجدوا الكلأ كثيرا، فظلت الإبل راتعة، وصحابتها أمامها هاجعة. وتسوقنا هناك فئة قليلة من الأعراب بغنم قليلة تخاطفتها الحجاج بأغلى ثمن لطول عهدهم باللحم، ثم ارتحلنا غدا وطلعنا الحماد، وتراخى الناس في السير أيضا لأجل الكلأ تراخيا

(1) الفدفد: المكان المرتفع: لسان العرب: فدد.
(2) في ط: وصلينا.

أورثهم زيادة رحلة ألجأتهم إلى سير جاد مخافة العطش، إذ لا ماء من المورد المذكور إلى واركلا.

ثم بتنا تلك الليلة وقد قل الكلأ، وأنذر قلته بالطلوع إلى سطح الحماد الكبير الذي قل مثله في بلاد المغرب. ثم ارتحلنا غدا وطلعنا إلى السطح المذكور، وهي أرض جرداء حرشاء لا علم فيها إلا المراير[1]، التي شقت على سلوكها المزاير[2]، وأرجام[3] على الطريق مبنية، هي لمتأملها عن الدليل مُغنية.

ثم بتنا تلك الليلة، وهي ثالثة الليالي، بواد معشوشب انتفعت فيه الإبل، ونزلناه عند العصر، ثم ارتحلنا غدا في يوم عبوس قمطرير، ذو قتام[4] وزمهرير، وسلكنا في مهمه مغبرة أرجاؤه، كأن لون أرضه سماؤه، قد سخرت فيه الرياح للرمال، تحملها أمامها كالجبال، حتى لا يكاد الرجل أن يعرف مسايره، ولا يسمع مسامره، وسايرتنا ذلك اليوم حتى الليل، والرمال أمامنا كالسيل، ولقينا من ذلك ما نقص علينا عافية تلك البلاد، واستسهلنا معه ذهاب الطريف والتلاد، أستغفر الله، بل العافية لا يعدلها شيء، اللهم عافيتك أوسع لي.

ثم بتنا تلك الليلة وقد كلت الأبدان، وتشابهت ألوان الأحرار والعبدان، وهي الليلة الربعة، لألوان التعب جامعة، كأنها رابعة ليالي القادسية[5]، أو إحدى الليالي النابغية. ثم ارتحلنا غدا، وسلكنا في أرض كأنها المحشر ومحل المنشر، إلا أنها ليست بيضاء ولا نقية، بل سوداء شقية، لا تسمع فيها إلا همسا، ولا يسلك الدليل فيها إلا حدسا، لم تضع الإبل رؤوسها إلى الأرض، كأنها سائرة ليوم العرض، في أرض مزقت من حروشتها النعال، وآلمت أخفاف الإبل وحوافر البغال، فلففنا على الأرجل الخرق والرقاع، كأننا في غزوة ذات الرقاع[6]، نتعارج

---

(1) المراير: جمع مرة، وهي شجرة أو بقلة، وهي من أمرار البقول: لسان العرب: مرر.

(2) المزاير: جمع مزير، وهو الشديد القلب القوي: لسان العرب: مزر.

(3) الأرجام: والرجام؛ الحجارة المجموعة على القبور: لسان العرب: رجم.

(4) القتام: الغبار: لسان العرب: قتم.

(5) القادسية: بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخا، وبينها وبين العذيب أربعة أميال، وبهذا الموضع كان يوم القادسية بين سعد بن أبي وقاص والمسلمين والفرس في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سنة 16 من الهجرة، وقاتل المسلمون يومئذ وسعد في القصر ينظر إليهم فنسب إلى الجبن، وذكر أصحاب الفتوح أن القادسية كانت أربعة أيام، فسموا الأول يوم أرماث، واليوم الثاني يوم أغواث، واليوم الثالث يوم عماس، وليلة اليوم الرابع ليلة الهرير، واليوم الرابع سموه يوم القادسية، وكان الفتح للمسلمين، وقتل رستم جازويه ولم يقم للفرس بعده قائمة: معجم البلدان: القادسية.

(6) وقعت غزوة ذات الرقاع في محرم من السنة الرابعة للهجرة: شذرات الذهب 1:11.

في أرض صفصف قاع، هي في ما رأينا شر البقاع، وقد فرغ من عند الناس الطعام والشراب، وتعوضوا منهما الرمل والسراب. وكثير من الناس يظنون أنهم يُحصلون تلك الليلة واركلا، فكان الأمر على خلاف ما أملوه، وفوق الحساب الذي عملوه.

ثم بتنا تلك الليلة أيضا في أرض كالتي قبلها، ونراها في الجوع والعطش أعظم منها لا مثلها، ثم ارتحلنا غدا وهبطنا من الكرب، بعد شدة الكرب، قبل الظهر بقليل، والجسم من كل منا عليل، وأنشدت لبعض الإخوان في ذلك اليوم:

[وافر]

لئن طالَ الجِهادُ لقد حَمدنا ... بفضْلِ الله عاقبةَ الجهادِ

سنَبْلغُ سالمينَ وفضلُ ربي ... علينا كل يومٍ في ازديادِ

سَيحسنُ في التناهي دون ريب ... كما قد كانَ أحسنَ في المَبادِ

وتراءى لنا نخل واركلا كأنه سحابة وطفاء[1] أو ناقة عجفاء، يتقطع السراب دونه، وكثير من الناس لا يفهمونه. فدخلنا واركلا قبل غروب الشمس، ونزلنا باب المدينة المسمى باب السلطان، وكان من لطف الله بالحجاج أن صادف دخولهم دخول قافلة من أعراب الأرباع قدمت بسمن كثير وغنم وابل وزرع، اشترى الناس ما احتاجوا إليه بأرخص ثمن، وقدمت أخرى بعدها بيوم تحمل مثل ذلك وأكثر، فتنعم الناس في اللحم والتمر والسمن، واشترى الحجاج غنما كثيرة حتى كأن تلك الليالي الثلاث التي أقاموها ليالي منى من كثرة اللحم.

وكان دخولنا للمدينة عشية الخميس، وأقمنا بها يوم الجمعة واليومين اللذين بعده، ودخلنا للمدينة لحضور صلاة الجمعة، وصلينا بجامع يسمى جامع المالكية، وخطب الخطيب بخطبة أكثر فيها اللحن والخطأ والتحريف، والتقديم والتأخير، مع إدغام أكثر حروفها، حتى كأنها همهمة، فكنت أتخوف ألا تصح لنا معه جمعة إن كانت صلاته كخطبته، فنجى الله، فأحسن في قراءة الفاتحة. فما ظننا أن صلاتنا معه مجزية، ودعا في خطبته للإمام المهدي ثم للسلطان الأعظم، الخاقان الأفخم، محمد بن إبراهيم بن مراد، ثم لسلطان بلده مولاي علاهم. فلما فرغ من الصلاة

(1) الوطفاء: الديمة السح الحثيثة: لسان العرب: وطف.

بعثت بعض أصحابنا ليسأله عن المهدي المدعو له في الخطبة، أهو المنتظر أم أحد المنتحلين ذلك ممن مضى، فسأله عن ذلك فإذا هو لا يفقه شيئا من ذلك، وقال: أظنه النبي صلى الله عليه وسلم. فعلمت أنه إنما وجد الخطبة مكتوبة في صحيفة عنده فحفظها كما وجدها، إلا أنه لم يحرر حفظها ونقلها، ولعلها من خطب بعض من كان في أيام المهدي بن تومرت[1] زاد فيها هذا[2] الدعاء للإمامين اللذين في عصره.

ثم بعد الصلاة طلعنا للمئذنة، وهي مشرفة على المدينة كلها، فنظرنا إلي أطرافها ووسطها، وكنا نستقلها قبل ذلك، فإذا هي مدينة لها سبعة أبواب، وهي في وسط خط من النخل، ومساحة المدينة بالتخمين نحو من نصف فرسخ[3] في مثله، محيط بها خندق مملوء ماء من كل جهاتها، لا يصل أحد إلى سورها إلا من ناحية الأبواب، وقد خلا كثير منها بسبب فتنة وقعت فيها قبل قدومنا بنحو من شهرين. وذلك أن طائفة منها، وهم بيضة البلد وعصبة أهلها اتهمهم الأمير بالقيام عليه، فاتفق مع رعيته على قتلهم كلهم، وأن لا يفلتوا أحدا منهم كبيرا أو صغيرا. فأمر بسد أبواب المدينة، وتقدم إلى من هو خارج البلد من الأعراب أن يترصدوا[4] خارج السور، فمن أفلت من البلد قتلوه. فقام عليهم بالسيف بغتة هو ومن معه فقتل منهم مقتلة عظيمة نحوا من المائتين، و لم يسلم منهم إلا من تسور جدار السور إن لم يلقه الأعراب أو افتدى منهم. وهي فعلة شنيعة عدت من هفوات ذلك الأمير، وأسقط ذلك مترلته عند كثير من الناس. مع أنه معروف قبل ذلك بحسن السيرة، وأورث ذلك شحناء بينه وبين أخواله أولاد الشيخ أحمد بن جلاب، فإن أمه أخت الشيخ أحمد، وكانوا قبل ذلك شيعة له وبهم تمكن من البلد.

---

(1) ابن تومرت: أبو عبد الله محمد بن عبد الله، فقيه عالم، مؤسس دولة الموحدين بالمغرب، أقام بالمشرق مدة قبل أن يعود إلى المغرب للقيام بدعوته، من أهم كتبه: أعز ما يطلب. توفي سنة 525: شرف الطالب، ص: 61. شجرة النور الزكية 1:204.

(2) في ط: هو.

(3) الفرسخ: أصله فارسي دخل العربية بمعنيين، يدل الأولعلى الزمن، والثاني ارتبط بمسافة اتفق على تحديدها بالمسافة التي إذا مشاها الرجل قعد واستراح، وهي عند بعضهم ستة أميال، غير أن الفقهاء المسلمين قدروا الفرسخ بثلاثة اميال: لسان العرب: فرسخ. معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية، ص: 337.

(4) في ط: يرتصدوا.

ثم لقيت إمام المسجد بعد ذلك وأدخلني إلى مترله وأحضر لي ما عندي من الكتب فإذا عنده أجزاء من الموطإ ومن البخاري ومن الإكمال[1]، وبعض شراح المختصر[2] والرسالة[3] غالبها لم يكمل.

وحبسني لطعام صنعه حتى حانت صلاة المغرب، فدخلنا[4] المسجد بازاء داره لصلاة المغرب، وهو مسجد متقن الصنعة مجصص الأرض والحيطان، على بابه أماكن وفي جوانبه معدة للوضوء وقضاء الحاجة، ومكان لتسخين الماء، فأعجبني غاية. فلما دخل المؤذن كبر في أذانه أربعا أول الأذان وأربعا آخرا، فأنكرت ذلك في نفسي إذ القوم مالكية في ظني. فلما دخل الناس للصلاة ابتدروا زوايا المسجد يتيممون، فقلت عجبا، هؤلاء كلهم من ذوي الأعذار؟. ثم وقع في نفسي أنهم عزابة روافض. ثم سألنا بعد ذلك فإذا المسجد مسجدهم يصلون فيه، وهو معروف بهم[5]، وهم طائفة من الإباضية[6] من أتباع عبد الله بن إباض يوافقون المعتزلة في أكثر عوائدهم، كنفي الرؤية والقول بخلق القرآن، ويبغضون بعض الصحابة، وهم كثيرون في تلك البلدة. وأصل مادهم من جبال مزاب فإنهم كلهم روافض، وبها علماؤهم، وهي عند من هو على معتقدهم معظمة.

غريبة:

وهؤلاء الروافض يسمون أشياخهم بعم فلان، فيقولون نص على هذه المسألة عم داود أو عم إبراهيم.

(1) الإكمال للقاضي عياض (ت 544هـ): تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، ص: 93.
(2) يقصد مختصر خليل في الفقه المالكي.
(3) الرسالة لابن أبي زيد القيرواني.
(4) في ط: فدخلت.
(5) في ط: لهم.
(6) الإباضية: نسبة إلى عبد الله بن يحيى بن إباض الذي خرج في أيام مروان الحمار وانتشر أتباعه بالمغرب: التعريفات 1:20. سير أعلام النبلاء 15:153.

غريبة أخرى:

وأخبرني من أثق به من أهل ريغ من أشياخنا أنه مر بهم رجل قاصدا لمزاب، فسألوه من هو فقال: من أهل البصرة[1] جئت زائرا لبلاد مزاب، فقبح الله الزائر والمزور، ورده مأزورا غير مأجور.

وسألت بعض الناس عن عدم إنكار والي البلد على هذه الطائفة الملعونة، مع أنه ليس على معتقدهم، فأخبرني أنهم عصبيته في حروب تقع بينه وبين أخواله وأعرابهم، فلا يقدر أن ينكر عليهم لذلك. وهذا كله من رقة الديانة، وخيانة الأمانة. ولما كان آخر أيام الإقامة سألت صاحبنا إمام المسجد هل في البلد شيء من خزائن الكتب، فأخبرني أن عند الأمير خزانة من الكتب، وأنه لا يمنع من أراد الدخول إليها. فذهبت معه إليه ودخلنا ورحب بنا، وأخبره صاحبنا بما أريد، فأدخلني إلى كتبه، فإذا عنده نحو من أربعين سفرا من جملتها التوضيح والتتائي[2] وبهرام[3] وحواشي على الصغرى[4]. وأخرج لنا طعاما وسأل عن مسائل فقهية، وله بعض الإلمام بها. وجرى في الكلام معه ذكر تعارض الأصل والغالب، فطلب مني أن أكتب له في ذلك شيئا، فكتبت له بعد الخروج من عنده ما حضر من كلام العلماء في ذلك وأوردت له بعض الأمثلة.

وحضرني عند الكتابة بيتان في مدح هذا الأمير لما شاهدت من حسن خلقه ولين جانبه، وهما[5]:

[طويل]

فَإِنَّ وُلاةَ الأمرِ في كلِّ بلدةٍ كثيرٌ ولكنْ الأميرَ علاهُمُ

(1) البصرة: مدينة بأرض المغرب، كانت مدينة مقتصدة عليها سور ليس بالحصين، ولها قرى وعمارات وغلات: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 2:531.
(2) أبو عبد الله شمس الدين محمد بن إبراهيم التتائي، الفقيه الفرضي، تخلى عن القضاء وتصدر للتأليف والإقراء، له شرحان على المختصر وشرح على ابن احاجب، توفي سنة 942 هـ: لقط الفرائد، ص: 295.شجرة النور الزكية 1:393. الأعلام 5:32.
(3) بهرام بن عبد الله بن عبد العزيز الدميري، حامل لواء المذهب المالكي بمصر، أخذ عن الشيخ خليل وبه تفقه، له تآليف منها شروح على المختصر، كبير ووسيط وصغير، وشرح مختصر ابن الحاجب، توفي سنة 805 هـ: وفيات الونشريسي، ص: 135. شجرة النور الزكية 1:345. الأعلام 2:76.
(4) لمحمد بن يوسف بن عمر السنوسي عالم تلمسان، من تصانيفه: العقيدة الصغرى والعقيدة الكبرى، توفي سنة 895 هـ: تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، ص: 47، هـ 2.
(5) ورد البيتان في كتاب: أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، ص: 287.

عَلاهُـــم علاهـــم إذ تحلـــوا بحِليـــةٍ   من العدلِ والممدوحِ رقـــم حلاهُـــمُ

وبعثتها له مع صاحبنا إمام المسجد، وهذا الإمام يدعى عند أهل بلده بيـــا سيدي، وأخوه سيدي ختين[1]، وهما معروفان بأولاد الفقيه منصور، وهما أقـــرب من رأيت في هذه المدينة بسيرة الطلب، وما أظن أحدا منها يحسن بابا من أبواب أي علم:

[وافر]

ولكـــن الـــبلادَ إذا اقـــشعرتْ   و صوَّح[2] نبتُها رُعـــي الهـــشيمُ[3]

ولأهل هذه البلدة دراهم يتعاملون بها يكثر فيها النحاس، أربعة وعـــشرون في ربع ريال. وقد أضاف أهل المدينة الركب أربع ليل ضيافة لا بأس بها.

غريبة:

وفي باب المدينة التي نزلنا من قِبله خرق كثيرة من صوف وكتان، أكثرهـــا صحيحة لا قطع فيها، يصلح للانتفاع، وليس مثلها مما يرمى به في العادة. وتعجبنا من كثرتها مع صحتها، ولا نعلم السبب في عدم أخذ الناس لها وتركهم الانتفاع بها، وهي لو جمعت لكانت أحمالا. وسمعنا هناك أنها ثياب الموتى، وأن من مـــات ألقيت ثيابه التي عليه عند الموت هناك ولا تمس، ولا نعلم صحة ذلك، والله أعلم.

غريبة:

من غرائب هذه البلدة استخراج عيون الماء الغزير بحفر الآبار، فيحفرون بئرا نحوا من خمسين قامة، ثم يصلون إلى حجر مصفح على وجه الأرض فينقرونه، فإذا نقبوه فاض منه الماء فيضانا قويا، ويطلع كذلك بسرعة إلى فم البئر ويصير عينـــا، فإن لم يتدارك الحافر بالجذب أغرقه الماء. ومتى احتاجت العين إلى الكنس حصلت

---

(1) في ط: سيد خير.
(2) صوح: صوح البقل:تم ييسه: لسان العرب: صوح.
(3) البيت لأبي علي البصير: الوساطة، ص: 221. وهو من شواهد لسان العرب، مادة: صوح.

لمتعاطي كنسها مشقة كثيرة، وربما تركوها بلا كنس للمشقة فتندثر. وقد أخبرني من أصحابنا من عاين كنسهم للعيون بأمر غريب، وكذلك عيون أهل وادي ريغ.

ثم ارتحلنا من واركلا يوم الاثنين ونزلنا ببلدة قريبة منها على نصف مرحلة تسمى مكوسا. وهم من طاعة وادي ريغ لا من طاعة واركلا. فلما نزلنا منعوا الحجاج من الدخول واتهموهم انهم اتفقوا مع سلطان واركلا على أن يأتي أصحابه في وسط الحجاج كي يدخلوا الباب خديعة، وزعموا أنه اتفق معهم على أن يأخذ هو الأموال ويأخذ المغاربة البلد يسكنونها. وهذا من قلة عقولهم وبلههم، كيف يتوهمون أن أناسا تركوا أهلهم وأموالهم وديارهم، ابتغاء وجه الله، يرضون بسكنى هذه البلاد التي لا يسكنها إلا من ضاقت عليه البلاد؟. وبات أهل البلد يحرسون تلك الليلة وهم في أشد ما يكون من الحقد على أهل واركلا، ينتظرون قدوم العساكر من أميرهم الريغي فيزحفون إليها معتقدين أن أموالهم ودماءهم حلال، وأنهم كفار بسبب الفعلة المتقدمة. وقد سألت البعض منهم: هل يذهب أحد منكم هذا العام للحج فقال لي: من ذا الذي يذهب هذه السنة للحج ويدع الجهاد في باب داره؟ فلا تظن أن أحدا من أهل البلد يشتغل بشيء هذا العام إلا بالجهاد. فاستغربت ذلك كثيرا. وسبب توهمهم المتقدم في الحجاج أن بعض صعاليك الحجاج ممن قصده التمعش جلسوا عند سلطان واركلا وخدموا عنده وأعطاهم السلاح، فبلغهم ذلك، فظنوا أن الركب كلهم متفقون معه على ذلك. ثم ارتحلنا من هناك قاصدين وادي ريغ في أرض ذات رمال لا يهتدي فيها إلا من مارسها كثيرا.

وفي اليوم الثالث منها أصبحت علينا ريح باردة في مكان كثير الرمل، وجاءتنا من أمام حتى لا يكاد الرجل يرى من بجنبه، ودامت علينا إلى الليل ولقينا منها شدة، وهي إحدى الأيام البُهم[1].

وفي الغد منها مررنا ببلدة يقال لها أكرك، وهي أول بلد وادي ريغ. ورحنا إلى بلدة تماسن، وهي بلدة كثيرة العمارة والنخيل، وأميرها ابن عم أمراء تكرت، وهو كالمستقل في بلده، وأجزل ضيافة الحجاج. وفي مسجدهم صومعة وثيقة البناء

(1) البهم: جمع بهيم، وهو الذي لا ضوء فيه: لسان العرب: بهم.

طويلة جدا فيها نحو من مائة درجة، على بابها اسم صانعها، وهو المعلم أحمد بن محمد الفاسي، وتاريخ بنائها سنة سبع عشرة وثمانمائة.

ثم ارتحلنا منها ونزلنا تكرت، وهي قاعدة وادي ريغ ومسكن أمرائها أولاد جلاب. وكان نزولنا بها يوم السبت الرابع عشر من جمادى الثانية، وأول من لقينا بعد النزول من طلبتها سيدي محمد بن عبد الكريم التواتي[1] ولد عالم توات في زمانه سيدي عبد الكريم قاضي توات، وبلده بيمنطيط[2]. ثم خرج ولده هذا بعدما تفقه وبقي بواركلا أعواما، ثم انتقل منها إلى تكرت. وهو رجل دمث الأخلاق، طيب الأعراق، وقد شدا طرفا من الفقه والنحو، وله بعض الخبرة بعلم العروض. وقد أجزل الضيافة جهده، وخرق إجماع متفقهة البلاد سواه وسألني عن قوله عليه السلام: بئس الميت أبو أمامة لليهود والمنافقين فإنهم قالوا: لو كان محمد نبيا ما مات صاحبه[3]. وظن متفقهة البلد أنه أبو أمامة الباهلي[4]. فكتبت لهم في معنى ذلك وبينت لهم أنه أبو أمامة أسعد بن زرارة[5]، وأن أبا أمامة الباهلي إنما توفي بعد أيام النبوة بأزمان كثيرة.

ثم خرج بعده مفتي البلد مع سيدي محمد أخي الأمير، وسيدي محمد بن إبراهيم تلميذ سيدي علي الأنصاري، وسألوا عن مسائل كثيرة منها ألغاز الحريري التي يقول فيها: ما مثل قولي لكم، وفككت لهم ما سألوا عنه منها، وجاء المساء فأنشدتهم بيتا من ذلك المعنى، فقلت لهم:

[كامل]

ما مثلُ قولةِ قائلٍ يا سادتي ذهبَ النهارُ وذلكَ الضيا فات

---

(1) محمد بن عبد الكريم التواتي، له مشاركة في الفقه والنحو والعروض: التقاط الدرر، ص: 250. نشر المثاني 2: 371.
(2) في ط: تمنطيط.
(3) روى شعبة عن محمد بن عبد الرحمن أن جده أسعد بن زرارة أصابه وجع الذبح في حلقه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأبلغن أو لأبلين في أبي أمامة عذرا، فكواه بيده، فمات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ميتة سوء لليهود يقولون هلا دفع عن صاحبه، ولا أملك له ولا لنفسي من الله شيئا: سير أعلام النبلاء 1: 301، تاريخ الطبري 2: 9.
(4) أبو أمامة الباهلي، اسمه الصدى بن عجلان بن وهب، صحابي، مات سنة 86 هـ وهو بن إحدى وسبعين سنة: مشاهير علماء الأمصار 1: 50.
(5) أسعد بن زرارة النجاري، صحابي، من أوائل من أسلم من الأنصار، توفي في السنة الأولى للهجرة: شذرات الذهب 1: 9. سير أعلام النبلاء 1: 190.

فإن معنى الضيا فات وذهاب النهار متحد، وهو بيت عجيب فيه دلالة على الحال التي نحن فيها من ضيق الوقت وقرب المغرب، وفيه إشارة إلى ما يجب عليهم من ضيافتنا، إلا أنهم قوم بله لا يكادون يفقهون حديثا.

وفي الغد من وصولنا إلي تكرت بعثت إلى سيدي أحمد أخي الأمير بأبيات أستعير منه الأبي[1] واليعمري[2] وهي هذه:

[سريع]

يا سيدًا يُخجل بدرَ الدجى ... حُسنا وليث الغاب يومَ الردى

يُدعى أبا العباسِ يومَ الوغى ... وبأبي بشر بيومِ الندا

لهُ محاسِنُ الخلال التي ... إحصاؤها يُعجزُ مَن عَددا

فَمن بالأبي على مسلم ... ثم أردهُ إليكم غدا

أنظرُ فيه لفظةً أشكلتْ ... عَلي في بعضِ الذي أسنَدا

وابعثْ إلينا سيرةَ اليَعْمري ... أيضا فأنت خيرُ من أسْعدا

لا زلتَ تُحيي دارسَ العلم ... في أزمنةٍ قد قل فيها الهُدى

أبقاك ربي للهدى صاعدا ... ومُرشدا في فعله مرشِدا

ولم يزالوا مدة إقامتنا هناك يترددون إلينا ويسألون، واستحسنوا قصائدي الوتريات[3]، وأخذ مني سيدي محمد بن إبراهيم الكراسة التي جمعت في معاني لو الشرطية[4]، والكراسة التي سميتها تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية[5]. أعطاني مجموعا فيه عدة تآليف اغتبطت به كثيرا. وقرأ علي سيدي محمد

---

(1) تقدمت ترجمته، والإشارة هنا إلى شرحه على مسلم المسمى إكمال الإكمال.

(2) محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري، مؤرخ عالم، أصله من إشبيلية، ولد بالقاهرة وبها توفي سنة 734هـ، من تصانيفه: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير: لقط الفرائد، ص: 187. الأعلام 34:7.

(3) توجد نسخة منها على الميكروفلم بالخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط رقم: 194.

(4) اسم هذه الكراسة: المباحث المرضية فيما يتعلق بلو الشرطية، مخطوط الخزانة الصبيحية بسلا رقم 4/249، وأشارت الأستاذة نفيسة الذهبي إلى أنها ناقصة: إقتفاء الأثر، ص: 67.

(5) مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم: 1388د (ضمن مجموع).

بن عبد الكريم شرح منظومة أبي الفرج الاشبيلي في ألقاب الحديث[1]، وسألوني عن قتال أهل واركلا هل يحل لهم أم لا ؟، فقلت لهم: إنهم ليسوا من أهل طاعتكم ولا ولاية لكم عليهم. فقالوا: إنه يجب علينا تغيير المنكر وهذا منكر. قلت: نعم، إلا أنه من شرط تغيير المنكر ألا يؤدي إلى منكر أعظم منه، فإنكم لا تصلون إلى ذلك إلا بعد قتل مئين من الناس كثيرة إن وصلتم.

وأمراء هذه البلدة أولاد الشيخ أحمد بن جلاب، وأسلافهم من بني مرين[2]، ووالدهم هذا كان من أمراء العدل على ما يحكى عنه، وأولاده على سيرته لا يقدمون على أمر إلا بعد سؤال متفقهتهم، وهم الذين أفتوهم بجواز قتال أهل واركلا، إلا أنهم ليس عندهم من يعتمد على قوله من الفقهاء، ولو كان عندهم من يحملهم على الشريعة ويدلهم عليها لأقاموا الدين على وجهه. وعلى كل حال فهم أعدل من رأينا من الأمراء، وليس عليهم أبهة الملك، بل يخرج الأمير منهم وحده أو مع رجلين، وهو عند أهله كواحد منهم في جلوسه وكلامه، يتوصل إليه كل أحد، وأخوه سيدي أحمد يحسن طرفا من الفقه يجالس الفقهاء، وله أخلاق حسنة ونية صالحة، بل جل أهل البلد من فقهاء وغيرهم لهم نيات صالحات وأخلاق حسنة، عريون من التكبر والعجب وأشباه ذلك. ولأمير البلد حكم نافذ في أهل مملكته والأعراب الذين يردون عليه. وقد ضاع لنا جملان ليلة رحيلنا فبلغ الخبر إليه، فأخذ الذي جاء يطلب البشارة وحبسه وبعث الحرس حتى أتوا بالإبل، فجزاه الله خيرا. وأما دراهمهم فقراريط صغيرة اثنان وثلاثون منها في ربع ريالة.

ثم ارتحلنا من تكرت يوم الأربعاء الثامن عشر من جمادى الثانية، وسرنا قاصدين سوفا[3] في بلاد ذات رمال كثيرة، يضرب بها المثل في كثرة الرمل، وكان من فضل الله علينا الذي عجزت الألسن عن شكره، وحارت العقول عن كنه أمره، أن مطرنا في تكرت بفضل الله ورحمته لا بنوء الحاجوز مطرا لبدت الرمل حتى صار كالتراب، بل فاق التراب باللين والرطوبة، فلا تغمس[4] فيها الأقدام ولا

---

(1) ألف هذا الشرح يحيى بن عبد الرحمن القرافي الأصبهاني، وقد صدر عن دار البلاغ بالجزائر سنة 2002، ضبط وتعليق: محمد شايب شريف.

(2) بنو مرين: خلفوا حكم الموحدين بالمغرب، من أشهر ملوكهم السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الذي دخل مراكش سنة ثمان وستين وستمائة: الحلل الموشية، ص: 171.

(3) في ط: سف.

(4) في ط: تغيس.

تحملها الرياح، فسرنا فيه على أنعم حال، ونحمد الله ونشكره لما نشاهد[1] من كثرة الرمل وعظمته، ونتخيل وقوعنا في حبائلها لولا المطر المذكور، ومعونة فصل الشتاء فكيف بالزمن الحرور، ونتعجب ممن يستسهل فيها المرور، على ممر[2] السنين والدهور.

وقطعنا تلك الرمال في أربعة أيام، إلا أنا لا نجد السير فيها إلا في اليوم الأخير الذي وصلنا فيه إلى سوف[3]، وهي خط من النخل مستعرض في وسط الرمل قد غلب على أكثره، وفيه بلاد عديدة، وماؤها طيب غزير قريب من وجه الأرض. أخبرني أهل البلد أنهم إذا أرادوا غرس النخل بحثوا في الأرض قليلا حتى يصلوا إلى الماء، فيغرسونها بحيث تكون أصولها في الماء، ثم يردون عليها الرمل فلا تحتاج إلى السقي أبدا. ويعالجونها بعد ذلك بأبعار الإبل وغيرها، فيضعونها في أصولها ولولا ذلك لماتت. وكذلك يفعلون بأنواع الخضر والبقول وسائر ما يغرسونه. وكثيرا ما يقتنون الكلاب للصيد، فإن بلادهم ذات صيد كثير، وجل معيشتهم منه ومن التمر، وتمرهم من أطيب ثمار تلك البلاد. وأقمنا بها يوما واحدا واشترينا بها ما نحتاج إليه[4] من إبل. وسكنى أهل هذه البلاد في زرائب من جريد النخل، فإليها يأوون وبها يخزنون.

ثم ارتحلنا منها يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الثانية ونزلنا على ماء يقال له الرباح[5] على نصف مرحلة من البلد، في وسط رمال تكاد أن تغلب التي قبلها في الكثرة. وتبعنا كثير من أهل البلد يلتقطون البعر من منزل الركب للنخل على حسب ما ذكرنا أولا. ولقينا هناك أعراب من طرود[6] بإبل سمينة للبيع اشترى الناس منها حاجتهم.

ثم ارتحلنا ونزلنا بموضع يقال له العلندا، وأصابنا فيه مطر وابل، وأقمنا بسببه يوما على غير ماء لأن البلد كله رمل فلا يمسك ماء، فكان الماء سبب إقامة الناس، وهم لا يجدونه للوضوء والشرب إلا ما في القِرب معد للمراحل التي بعدها، أو ما

(1) في ط: شاهدنا.
(2) في ط: مر.
(3) في ط: سوف.
(4) ساقط من ط.
(5) في ط: الرياح.
(6) طرود: بنو طريد وبنو مطرود بطنان من بني سليم، وكذلك بنو طُرود: تاج العروس: طرد.

جمع في الأوعية المطروحة خارج الأخبية أو على أطرافها يجتمع فيها ما سال منها، وفي هذا الحال قلت:

[مخلع البسيط]

يا صاحِبي هل علمتَ شيئا ... كثرته سَبَبُ الإقامةْ
ولم نجِدْهُ وقد سئمنا ... نزولهُ غايةَ السآمةْ
والناسُ في غايةِ احتياجِ ... لهُ وقد طلبوا انعدامهْ

ثم ارتحلنا من هناك مرحلتين، وفي الثالثة وصلنا إلى ماء قريب من السبخة. وما وصلنا إلى ذلك الماء ضحى حتى عطشنا، وأقام الناس عليه يحفرون. وفي إحدى تلك المراحل سايرت بعض الأصحاب ضحى في أرض مستوية الجوانب، متقربة المطالع من المغارب، لا يكاد البصر يرى فيها أكثر من ميل من جهاتها الأربع، تكاد السماء فيها على الأرض أن تقع، فأنشدته[1]:

[مجزوء الكامل]

انظرْ بعينكَ هل ترَى ... غيرَ السما فوقَ الثرى
والأرضُ من وشْي الحيا ... لبستْ رداءً أخضرا
والعيسُ بينها كشُهْـ ... ـبِ الليل جدتْ في السرى
والناسُ يتبعونها ... مثلَ المَجرة مِن ورا

لطيفة:

شاهدت من صنع الله في ذلك اليوم خروج النبات من الأرض في تلك الليلة بذلك المطر، وظهرت على وجه الأرض خضرته[2]، ولم نعهد مثل ذلك في غير هذه، وإنما يرى النبات فيها بعد المطر بأيام. ولما تعجنا[3] من ذلك، أخبرنا[1] الأخ

---

(1) وردت الأبيات في كتاب: أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، ص: 325.
(2) في ط: خضرة.
(3) في ط: تعجبت.

الشقيق سيدي عبد الرحمن أن سيدي عبد الرحمن الثعالبي[2] ذكر في تفسيره عند قوله تعالى: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة)[3]. قال: شاهدنا ذلك في أرض نفزاوة فتحققنا صدق ذلك، ولله القدرة الباهرة.

ثم ارتحلنا من ذلك الماء وبتنا على حد السبخة[4] التي هي على حد قرى نفزاوة، وأظن أنها آخر سبخة سيدي أبو هلال التي لم ير مثلها في سباخ الأرض كلها طولا وعرضا وكثرة ملح، إلا أن هذا الطرف منها قل ملحه وغلب عليها الرمل. ودخلناها إثر سماء[5]، فقاسى الناس فيها شدة، ولم يهتدوا للطريق إلا بعد هنيئة، وسلكت فيها على صراط غير مستقيم أرق من الشعر وأحد من السيف معنى لا حسا، لا يمشي فيه إلا بعير واحد إثر بعير، ومن أعرض عنه وأشاح يمينا أو شمالا ربما تسيخ رجلاه في الأرض، وخرجنا منها ظهرا بعد مشقة عظيمة.

غريبة:

وجدنا في تلك الرمل التي هي خارج السبخة أشجارا كثيرة من الرَّتم[6] له زهر أبيض لا يشك من رآه أو شم رائحته أنه ياسمين في شكله ولونه وريحه.

ثم رحنا ذلك اليوم إلى قرية من قرى نَفْزاوة[7]، وذلك أول يوم من[8] رجب. وبلاد نفزاوة هذه قرى كثيرة تقرب من الألف، كل قرية منفردة وحدها على نشز من الأرض بنخل مجتمع بإزائها، وماؤها فيها حياض واسعة في وسط ذلك النخل.

---

(1) في ط: أخبرني.
(2) عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، فقيه مفسر، من أعيان الجزائر ووجوهها، ولد سنة 786، رحل إلى المشرق، له عدة مؤلفات، منها: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، توفي سنة 875 هـ: فهرس الفهارس 732:2، الأعلام 3: 331.
(3) الحج: 63.
(4) السبخة: أرض مالحة، أو أرض ذات ملح: لسان العرب: سبخ.
(5) أي بعد مطر.
(6) الرتم: نبات من دق الشجر: لسان العرب: رتم.
(7) نفزاوة: مدينة من أعمال إفريقية، قال البكري: وتسير من القيروان إلى نفزاوة ستة أيام نحو المغرب، وبمدينة نفزاوة عين تسمى بالبربرية تاورغي وهي عين كبيرة لا يدرك قعرها، ولمدينة نفزاوة سور صخر وطوب، ولها ستة أبواب وفيها جامع وحمام وأسواق حافلة، وهي كثيرة النخل والثمار، وبين مدينة نفزاوة وقابس ثلاثة أيام، وقد ضبطها ياقوت بكسر النون ووردت عند ابن خلدون بفتحها: معجم البلدان: نفزاوة. رحلة ابن خلدون، ص: 268.
(8) ساقط من ط.

والعجب من كون الماء فيها إنما يبرز في الغالب من الأماكن المرتفعة. وقراها شبيهة بقرى ريف مصر، إلا أن الأرض غير الأرض، وماؤها حلو، والحجاج يزعمون أصل تسمية هذه البلد بنفزاوة أنها كانت فيها ألف زاوية فقيل لها ألف زاوية، ثم تصرف في التسمية فسميت نفزاوة. وما ذكروه، و إن كان قريبا، لا يصح، لأن تسميتها بذلك قديمة من قبل الإسلام على ما في التواريخ. والأصل المذكور عربي، ولا عربية في المغرب قبل الإسلام اتفاقا.

ثم ارتحلنا منها ومررنا في طريقنا على قرى كثيرة فاقت الحصر، وبتنا بآخرها في زاوية يقال لها جمنة، وبها قبر رجل من الصالحين يقال له سيدي حامد الجمني، وعقبه إلى الآن بالقرية متمسكون بسيرة الفقراء يطعمون الطعام. ولقيت بهذه القرية رجلا اسمه سيدي محمد ابن أبي القاسم، من أصحاب الشيخ إبراهيم اللقاني[1]، وعليه سمت حسن ووقار، وله ماسة بالفقه وعنده بعض كتبه كالتتائي الكبير، وزرنا قبر صاحب الزاوية. ثم ارتحلنا من جمنة، وهي آخر قرى نفزاوة، ومررنا بأرض طيبة ذات مزارع وعشب كثير، ووجدنا غالب أهل نفزاوة يحرثون بها على البقر.

غريبة:

وقد وجدنا في تلك المزارع قوما يحرثون ببقرة واحدة و لم يعهد مثل ذلك في بلادنا. ومازلنا نتعجب منه حتى رأينا آخر يحرث ببعير، فأنسانا الأول وطال تعجبنا منه، مع أنه اشتهر من أمثال العامة في بلدنا: حراثة الجمل[2]، للشيء الذي يفسد أكثر مما يصلح. وما قضينا العجب منه حتى رأينا أعجب منه: إنسان يحرث بإنسان آخر: يمسك أحدهما المحراث ويجر الآخر. و لم نملك أنفسنا أن نزلنا على الرواحل للتفرج فيهم، وأعانهم على ذلك أن أرضهم كما ذكرنا طيبة لينة يكتفى فيها بأقل الحرث، ولا يكفي مثل ذلك من الحرث في غيرها من البلاد.

---

(1) إبراهيم بن إبراهيم بن حسن بن علي، اللقاني المالكي، نسبة إلى لقانة من قرى مصر، من شيوخ المالكية، له كتاب الجواهر، توفي عام 1040 هـ: خلاصة الأثر 6:1، التقاط الدرر، ص: 92، نشر المثاني 289:1.

(2) لا زال هذا المثل متداولا بالمغرب بصيغة مختلفة.

غريبة:

وقد خرج معنا رجل من أهل الزاوية المذكورة ممن ينتحل الفقه ومعه بعض الحمارنة قدموا هنالك يمتارون تمرا، وسألهم أمير الركب أن يدلونا الطريق إلى بلادهم فساروا معنا، فبينما أنا أسير في اليوم الثاني ضحى إذ هم قد جاؤوا على خيلهم، وبأيديهم صقور، يسألون عني في الركب حتى وجدوني، فسلموا علي بعدما نزلوا عن خيلهم. فلما ركبوا قال لي المتفقه منهم: أريد أن تأذن لي في السؤال عن مسائل فقهية، واستحسنت أدبه في الاستئذان في السؤال، واستقبحت فعله في سؤاله إياي وهو راكب وأنا ماش. فأذنت له في السؤال حياءً من رده، فأخذ يسأل عن مسائل من العبادات، فبينما أنا آخذ معه في ذلك إذ نفج[1] الركب أرنبا فتصايح الحجاج عليها يمينا وشمالا، فلما رأى ذلك أرسل عليها الصقر، وأخذ يركض في إثرها، وذهب وتركني ولم يسمع تمام الجواب عن مسائله. فتعجبت من استئذانه في السؤال وذهابه من غير استئذان قبل إتمام الجواب، فعلمت أن الرجل في الغالب أخرق وأن استئذانه أولا لم يكن عن أدب، وإنما هو شيء رآه من غيره أو سمع به فعلق بذهنه. وفي اليوم الثلث من رحيلنا من نفزاوة تركنا جبال مطماطة[2] عن يميننا.

ومررنا ضحى بقبر سيدي كناو، وهو في قرية خالية بفضاء[3] من الأرض، مدفون بإزاء مسجد حسن عتيق عليه بهاء ورونق. وأهل تلك النواحي يحترمونه كثيرا ويؤثرون عنه كرامات عظيمة، منها أن الناس يقصدونه من سائر النواحي بصدقات كثيرة من زرع وتمر وإدام ولحم، ويوضع ذلك في بيوت خارج المسجد، ومن جاع أكل منه حاجته ولا يرفع منه شيئا، ومن رفع منه شيئا عطب في الحين، واشتهر ذلك عنه وذاع على ألسنة الحجاج وغيرهم من أهل البلد. وكان في الركب كثير من الصعاليك فتسارعوا إليه أمام الركب رجاء أن يجدوا فيه شيئا من ذلك. ولم يصادفوا فيه شيئا لأن السنة كانت سنة قحط وجوع. ووجدنا عامل

---

(1) نفج: أثار؛ من نفج الأرنب إذا ثار: لسان العرب: نفج.
(2) مطماطة: موقعها بالقرب من مدينة قابس، ماؤها شروب، وبها نخل كثير: الروض المعطار، ص: 200.
(3) في ط: عالية بيضاء.

مدينة تونس مراد بي ابن حمود بي[1] قد نزل بعسكره بقابس[2] وأمر ببناء ذلك المسجد وإعادة تجديده وحفر بئر هناك، لأن الموضع لا ماء فيه، ووجدناهم قد حفروا في البئر نحو مائة ذراع وأكثرها في حجر أبيض كأنه رخام ولم يصلوا إلى الماء، وهم جادون في العمل. وفي ذلك اليوم رحلنا إلى قرب زريق، وهي بلدة فيها زاوية سيدي عبد الله بن عبد العزيز بن يحيى بن عبد الرحمن بن جابر، أحد السادات الحمارنة ومن أفاضلهم، وكان ولده قدم معنا من نفزاوة وتقدم هو إلى بلده. وهذا السيد قد أدركناه حيا سنة خمس وستين، وزرناه إذ ذاك وهو في مرض معضل طال به نحوا من خمس وعشرين سنة، في غالب أوقاته مضطجع دائم الاضطراب. وكان سبب مرضه، والله أعلم، أنه كان مولعا بعلم أسرار الحروف والأوفاق، وتعاطى ذلك كثيرا وجمع من كتبه جملة، ولم يكن ذلك منه على يد كامل عارف فأورثه ذلك ضررا في بدنه. إلا أنه، والحمد لله، معافى في عقله ودينه. وكان له أخ يتعاطى علم الحدثان واشتغل بعلم الزيراجة، ونال منها حظا كما نال أخوه حظا من علم الحروف والأوفاق، وربما يتصرف بذلك في بعض الأحيان فيظهر أثره في الوجود في قهر ظالم أو ما يشاكل ذلك. وقد أخبرني شيخنا سيدي محمد بن مساهل عن أخيه الذي له اشتغال بالزيراجة بأمور غريبة أخبره بها أيام كانت الحرب بين عسكر الجزائر وعسكر تونس، وأن الغلبة لأهل الجزائر. وأخوه المذكور اسمه في غالب ظني سيدي أبو القاسم ابن عبد العزيز، ولم ندرك حياته بل توفي قبل هذا بأزمان. وأما سيدي عبد الله بن عبد العزيز فقد توفي في غالب ظني قبل السبعين هو وجملة من أولاده في مدة قريبة. ولم يبق منهم إلا ولده سيدي محمد الصالح. وقد أخبرني عن والده أنه في مدة مرضه كلها، مع تطاوله وغلبة الوجع، كان ثابت الذهن يدرس عنده كتب الفقه، ولم يترك أوراده ولا حزبه من القراءة. وفي أوقات الصلاة يجلس حتى يصلي. وولده هذا من أهل الخير يتمسك بسيرة أسلافه، وقد تعرض لنا يوم مرورنا بإزاء قريته، وأتى لنا ولشيخ الركب بتمر وشعير، فجزاه الله خيرا. ثم مشى معنا أميالا كثيرة، وودعنا وأودعناه الدعاء.

---

(1) احتلت الدولة العثمانية إفريقية سنة 981هـ، وقد تميز رجال هذه الدولة من حكام إفريقية بلقب الباي، ومن هؤلاء مراد باشا الذي توفي سنة 1041 هـ، فخلفه ابنه حمودة باشا المتوفى سنة 1076 هـ، فتولى بعده ابنه مراد باي الذي توفي سنة 1086: شجرة النور الزكية 2:179.

(2) قابس: مدينة بإفريقية، قال الإدريسي إنها: جليلة عامرة حفت بها من نواحيها غابات جنات ملتفة وحدائق، وعليها سور منيع، ولها أسواق وعمارات: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 1:279.

ومررنا ذلك اليوم بقرى متعددة، و لم نبت إلى عرام، وهي قرية صغيرة فيها مزارات كثيرة غالبها من السادة الحمارنة، إذ بها مقابر أسلافهم سيدي يحيى وغيره من أكابرهم. وهم إلى الآن يقصدونها للدفن من الأماكن البعيدة إلا سيدي عبد العزيز المتقدم فإنه دفن بجانب زاوية بزريق. ثم ارتحلنا من قرية عرام ونزلنا قرب واد يقال له وادي السمار، ثم ارتحلنا منه ولقينا ركب أهل تونس القافلين من الحجاز، و لم يكن فيهم أحد ممن نعرفه حتى نستقصي منه الأخبار. وبالجملة أخبرونا عما استقبلنا من البلاد بخبر الخير من الخصب والرخاء والعافية، نسأل الله الكمال. ورحنا تلك الليلة إلى ماء يقال له النبش، وهي أحساء متعددة في أصل واد ولذلك تتردم كثيرا، قل ما يوجد منها مصلوحا إلا واحد، وقد لا يوجد فيتعب الحجاج في إصلاحه. ومع ذلك فماؤه ليس بذاك: تغلب عليه الحماة، فيتغير بها لونا وريحا وطعما. وقد وردناه سنة أربع وستين أول يوم من الصيف فكاد الناس أن يموتوا عطشا وهم نزول عليه لقلة الماء وخبثه، وكذلك وردناه قبل ذلك سنة تسع وخمسين ولقينا فيه مثل ذلك أو أشد. وفي هذه السنة جئناه أوائل الربيع والبرد غالب فلم يضطر الناس إليه كل الاضطرار. ثم ارتحلنا منه وسرنا يومنا إلى قرب العصر، خرج لصوص على بعض الصعاليك ممن تقدم أول الركب فسلبوهم، فبلغ الخبر إلى أمير الركب واتبعهم وحده حتى استنقذ منهم ما أخذوه، وفيه نجدة وكفاية في الأمور المهمة، فكم له من مثل هذه الفعلة الجميلة، جزاه الله خيرا، وبسبب ذلك نزلنا ذلك اليوم قبل وقت النزول بشفير واد كبير أفيح تحف به مزارع كثيرة من الجانبين، إلا أن ماءه ملح أجاج لا يساغ، ولو مع الضرورة، وقد يجمد أيام الحر فيصير صباخا[1].

وفي الغد ارتحلنا منه، وبقي لنا جمل نحره أصحابنا من الحجاج، وتأخرنا بسببه و لم نلحق بالركب إلى سواني ابن كردان، وهي آبار كثيرة غزيرة الماء في بسيط من الأرض كثير المزارع، وفيه آثار قرى خالية ومسجد و مزارة. ولا تخلوا هذه البلد غالبا من قوم يترلونها من الحمارنة أو غيرهم من بوادي تلك الناحية. وعادة الحجاج أن يأخذوا ماء يومين، فلأجل ذلك وقف الركب فيه برهة ريثما أخذ الناس حاجتهم من الماء وسقوا دوابهم واستقوا وساروا. وبتنا تلك الليلة قريبا من المجرى الذي هو في منتصف الطريق بين السواني وبرج الملح، لا يخلوا في

(1) صباخ: جمع صبخة، وهي لغة في السبخة؛ أي الأرض ذات الملح: لسان العرب: صبخ.

الغالب من ماء المطر، إلا أن الطريق لما كانت مسلوكة، لا يوجد فيه غالبا إلا بلل قليل لا يكفي القليل من الناس فضلا عن الركب.

وفي الغد ارتحلنا من هناك، فلما كان قريبا من الظهر بدا لنا البحر عن يسارنا، ودنونا منه فتسارع إليه من لم يعرفه من الحجاج. ولم تزل الطريق تقرب منه إلى أن مرت بإزائه كرمية بحجر عند برج الملح. ونزل غالب الناس هناك عن رواحلهم للوضوء ولأخذ المحتاج إليه من الملح. وفي ذلك المحل مرسى جيدة يترل بها النصارى بإذن أمير البلد يأخذون الملح من سبخة كبيرة هناك، وفيها ملح عجيب. ثم تجاوز الناس ذلك المحل قرب العصر، ولم يكن عند الناس ماء وهم طامعون أن يصلوا إلى الماء ولو بعد المغرب، فلم يسيروا إلا قليلا حتى ظهر في الإبل إجفال ونفور، ورفع كل بعير رأسه كأنه قناة تفور، فأكثرت العدو لما استقلت الخبب[1]، ولم يعلم الناس في ذلك ما السبب، فمن قائل إن سبب هذا الأمر المفجع، استيحاشها برؤية البحر المفزع، ولم تكن رأته قبل ذلك الأوان، ولا عهدته في سابق الأزمان، فارتاعت لرؤية شيء لم ترع دهرها بمثاله، إذ غالبها من صحراء المغرب الأقصى وجباله، لا تعرف إلا الهضاب والتلول، والمراتع المخصبة وأفنية الطلول. ومن قائل إن الشبع والمرح أحدث بها النشاط والفرح، ورب طرب أدى إلى هرب، وذلك لأنها وجدت الكلأ في تلك الأيام على أغراضها، واستراحت بذلك من تعبها وأمراضها، وكلا القولين أنسب، والأول أقرب، ولم يهتبل الناس بنفور ما نفر منها، ورأوا أن الرأي في الإعراض عنها، إذ لم يعهدوا ذلك منها فيما مضى، وظنوا أنها ترجع إلى حالها المرتضى، من التؤدة في المشي والسكينة، لما بها من الضعف حتى لا تكاد ترى فيها سمينة، فبينما هم على تلك الحال، وحال تلك عن نفورها ما حال، إذ جفلت إبل الركب كله أي إجفال، كأنها اتفقت على ذلك بلا إغفال، فلا يعلم لها إدبار من إقبال، ورمت ما عليها من الأحمال، ولم تلق لما ألقت من المتعة من بال، ولم تبال بقطع جديد من الحبال ولا بال، ولم يبق على ظهرها حقير من المتاع ولا ذو بال، وكان ذلك وقرص الشمس للغروب قد مال، فلا تسمع إلا صياح الحجاج عن اليمين والشمال، كأنهم رافعون أصواتهم بالإهلال، وتلفت في ذلك البضائع والحمال، ولم يسلم من

(1) الخبب: ضرب من العدْو، وقيل: هو مِثْل الرمَل؛ وقيل: هو أن ينقل الفرس أيمانه وأياسرَه جميعاً، وكذلك البعير: لسان العرب خبب.

ذلك إلا من بادر إلى إناخة إبله وعقلها، وأخذ في جمع ما سقط من الأمتعة ونقلها، وبات مكانه منفردا، وإلا صار من ماله وإبله متجردا، وكنا ممن لطف الله به ففعل مثل هذا الفعل، فلم يضع لنا بحمد الله بعير ولا حمل. وبات الناس في تلك الليلة يترددون في الطرقات، ويجمعون ما تساقط من الأمتعة في الفلوات، وتفرق الناس في النزول شذَر مذَر[1]، ولا يغني حذر من قدر، فلم يسأل جار عن جاره، ولم يبحث أحد عن محل داره، إلى أن أصبح الناس وقد عمهم الطيش، كأنما دهمهم الجيش، ولم يسلم من الضياع إلا القليل، وحار في أمرهم الدليل، فمن قائل نرحل حتى نصل الماء والعمارة، فنبعث في طلب ما بقي بعض السيارة، ومن قائل نقيم هنا ونستقصي في الطلب، ونبعث من يأتي بالماء في القرب، فكان الرأي ما رآه، واتبع الناس هداه، فركب أصحاب الخيل والنجائب[2]، وساروا في طلب ما تلف من الأمتعة والركائب، فجمع الله عليهم الإبل إلا جملين، وأما الأمتعة فضاع منها نحو من وقرين[3]، ومن جملة ما استولى عليه الضياع، بضائع لبعض الحجاج أخرجت من وسط المتاع، فاتهم في أخذ ذلك الصعاليك الذين في الركب، وظن الناس أن ذلك يظهر بالقرب، فلم يظهر ذلك إلا بعد مدة، ودخول الحجاج إلى مصر في العودة.

ثم ارتحلنا غدا وعادت الإبل إلى عادتها الأمسية، من النفور حتى كأنها ليست من الأنعام الأنسية، وكان المحل كثير العشب سيما شجر[4] البرواق[5]، فإذا مشت الإبل فيه لا تسمع إلا طاق طاق، فلحق الإبل من ذلك رعب شديد، ولحق أهلها منها عناء مديد، فاتخذ الناس لها أرسانا[6]، يقودونها بها أزمانا، إلى أن خرجت من ذلك المكان، وسكنت بعض السكون بالدخول بين المساكن والسكان، فحصلت لها بعض الدعة، بعد أن أتلفت أيضا في ذلك اليوم بعض الأمتعة. ونزلنا الزوارات الغربية قبل الظهر، ثم ارتحلنا غدا ومررنا بالزوارات الشرقية، ومر الركب خارج البلد، ودخلت أنا وبعض الأصحاب إلى البلد على رجلي، ولم ألحق الركب إلا

---

(1) شذر مدر: ذهب القوم شذر مدر: ذهبوا في كل وجه: لسان العرب: شذر.
(2) النجائب: جمع نجيب، والنجيب من الإبل: القوي الخفيف السريع: لسان العرب: نجب.
(3) وقرين: مثنى وقر؛ وهو الحمل الثقيل: لسان العرب: وقر.
(4) في ط: الشجر.
(5) البرواق: أو البروق؛ شجر ضعيف له ثمر حب أسود صغار: لسان العرب: برق.
(6) أرسان: جمع رسن؛ وهو ما كان من الأزمة على الأنف: لسان العرب: رسن.

بعد تعب و عناء[1]. وكان من لطف الله بالناس ذلك اليوم أن هبت ريح قوية جاءت من ورائنا فأذهلت الإبل عما خامر أسرارها من النفور، والناس مع ذلك لا يهدأ لهم روع بسببها. وبتنا تلك الليلة بإزاء المسجد الذي بين الزوارات وزواغة[2]، وهو مسجد صغير محكم الصنعة في أرض مرتفعة وحوله أثر بناء و مآجل[3] لماء المطر في صفاة واسعة، والمسجد كله ملبس بالجص الأبيض، وله إشراق وبريق يظهر من مكان بعيد، وبينه وبين البحر نحو من ميل. وقد أخبرنا أن بعض الصعاليك في بعض السنين آواهم الليل إليه فباتوا، فجاء مركب للنصارى إلى مقابلتهم في البحر ونزلوا لأخذ الماء أو لغير ذلك، فوجدوهم في المسجد، فأسروهم و لم يشعر بهم أحد لبعد المكان عن العمران.

ومن هذه المرحلة تقدم بعض أصحابنا إلى مدينة طرابلس لتهيئة المحتاج إليه من مسكن وغيره. وكتبت معه كتابا لشيخنا سيدي محمد بن مساهل أعلمه بقدومنا، والوقوف مع صاحبنا في مهماتنا، ومن جملته أبيات أولها[4]:

[طويل]

أسيدَنا مفتِي الوَرى ابنَ مساهلِ ومنهلَ فضلٍ فاقَ كلَ المناهلِ

عليكَ سلامُ الله ممن غدتْ لكم عليهِ أيادٍ في العُصورِ الأوائلِ

بنورِكَ يَستهدي إذا الأرضُ أظلمتْ على أهلِها بالجهلِ أهلَ السواحلِ

فكم قد أنلتَ العرفَ سائلَهُ وكم منَنْتَ بلا سؤْلٍ وجدتَ بنائلِ

في أبيات أخر لا أستحضرها.

وبعدما ارتحلنا من هذه الدار ووصلنا أوائل بلاد زواغة لقينا ركب الحجاج المغاربة من أهل مراكش ومن انضاف إليهم. وشيخهم أقدم أهل تلك الخطة في ولايتها، وأولاهم بالتقدم لحفظ حدودها ورعايتها، الشيخ إبراهيم الفران، ومعه الحاج منصور الغسال. وركبهم ليس بالقوي. وتلقفنا منهم خبر ما استقبلناه من

(1) في ط: عناء وتعب.
(2) زواغة: حدد الحميري موقعها غربي تاهرت: الروض المعطار، ص: 126.
(3) المآجل: جمع ماجل؛ وهو كل ماء في أصل جبل أو واد: لسان العرب: مجل.
(4) وردت الأبيات في: نشر المثاني2: 135.

البلد، ولقينا معهم بعض أهل بلدنا، وبعثنا معه كتبا إلى من خلفناه في بلدنا من الأهل والعشيرة والأصحاب. وسيأتي ذكرها عند تعرضنا لذلك. وكان لقاؤنا للركب المذكور في أشد ما يكون من القلق، و لم يستوعبوا لنا الأخبار التي تتشوق النفوس إليها، بل وقفوا هنيئة ريثما دفع إليهم[1]، من تيسر له، كتابا إلى أهله فتفرق الفريقان.

وسرنا ذلك اليوم وبتنا بزاوية صرمان، ثم في الغد مررنا صباحا بالزاوية الغربية، وزرنا سيدي يحيى الكمودي ودعا لنا بخير وودعناه. وبعد أن خرجنا منها لقينا ركب الجزائر القافلين من الحجاز ومعهم سيدي عبد الحفيظ ابن الولي الصالح سيدي محمد الصيد الطرابلسي[2]، خرج معهم يشيعهم إلى جربة[3] ومعه صهره من أولاد سيدي حامد القاطنين بجربة، وكان تزوج منهم امرأة وله دار هناك عندهم بجربة يأتيها الفينة بعد الفينة. وهو ممن نفع الله به العباد في تلك النواحي، وجمع الله القلوب على محبته وهابه الأمراء، وانثال عليه للتبرك الأغنياء والفقراء. ولما التقينا به جلس معنا ساعة وزرناه ودعا لنا بخير. وأمير ذلك الركب سيدي محمد ابن الولي الصالح سيدي محمد بن المسعود من بلاد سد وكال، وله رباع ببسكرة، وربما استوطنها. وكان والد الأمير المذكور من أهل الصلاح، وممن كان يتردد بالركب إلى الحج الشريف، وتأكدت بينه وبين سيدي محمد الصيد الصحبة، فلذلك نشأ الولدان على طريق والديهما، فجزى الله خيرا ولدا أنهج له والده سبيل الخير فاقتفاه وقام بالعهد في اتباع سلفه الصالح ووفاه.

وممن لقينا في ذلك الركب الحاج الأبر الشيخ إبراهيم بن جلاب الريغي أخو الأمير العادل الشيخ أحمد والد أمير بلاد ريغ في هذا العهد. وكان مجاورا بالحرمين عدة من السنين، وبيننا وبينه معرفة من قبل هذا. وهو الذي شفانا من الأخبار، وأخبرنا بموت شيخنا القشاشي[4]، رضي الله عنه، بالمدينة المنورة، وبموت الغوث

---

(1) في ط: لهم.

(2) أبو عبد الله محمد الصيد الطرابلسي، فقيه متصوف، أخذ عن عيسى بن محمد التلمساني الشهير بأبي معزة، توفي سنة 1050 هـ: التقاط الدرر، ص: 111، نشر المثاني: 378:1. صفوة من انتشر، ص: 171.

(3) جربة: جزيرة أقرب بلادها إلى قابس، طولها ستون ميلا من المغرب إلى المشرق: الروض المعطار، ص: 158.

(4) صفي الدين أحمد بن محمد القشاشي، المقدسي المدني، فقيه متصوف، له تآليف في علم الكلام والتصوف، توفي عام 1071 هـ: التقاط الدرر، ص: 148. فهرس الفهارس 2: 970.

الأعظم بمكة سيدي[1] محمد باعلوي[2]، وبموت الشيخ أبي الحسن الطبري[3] بمكة أيضا، وغير ذلك من الأخيار. ثم ودعناه وسرنا يومنا وبتنا قرب زنزور[4].

ثم ارتحلنا منه قاصدين إلى مدينة طرابلس[5]، أمنها الله، وبينها وبين هذه البلدة نحو من اثني عشر ميلا.

---

(1) في ط: الغوث الأعظم السيد محمد باعلوي بمكة.

(2) محمد با علوي الحضرمي، اليمني الشريف الحسيني، عالم عامل، ارتبط بطريقة أبي مدين الغوث الصوفية، توفي عام 1071 هـ: التقاط الدرر، ص: 150. نشر المثاني 2: 115.

(3) علي بن عبد القادر بن محمد الحسيني الطبري، عالم مؤرخ، ولد بمكة المكرمة، تصدر للإفتاء والإقراء إلى أن توفي سنة1070 هـ، له تصانيف منها: الأرج المسكي والتاريخ المكي: خلاصة الأثر 3: 161. الأعلام 4: 301.

(4) زنزور: قرية شجرها مخصب: رحلة العبدري، ص: 74.

(5) طرابلس: مدينة كبيرة أزلية على ساحل البحر، بها أسواق حافلة وحمامات كثيرة، وبينها وبين سرت عشر مراحل، وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون: الروض المعطار، ص: 389.

ذكر دخولنا لمدينة طرابلس حماها الله من الأغيار

كان دخولنا لمدينة طرابلس قرب الظهر يوم الأربعاء سابع عشر رجب الفرد، وهي مدينة مساحتها صغيرة، وخيراتها كثيرة، ونكايتها للعدو شهيرة، ومآثرها جليلة، ومعايبها قليلة، أنيقة البناء، فسيحة الفناء، عالية الأسوار، متناسبة الأدوار، واسعة طرقها، سهل طروقها، إلى ما جمع لأهلها من زكاء الأوصاف، وجميل الإنصاف، وسماحة على المعتاد زائدة، وعلى المتعافين بأنواع المبرة عائدة، لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغوا إلا سلاما، ولو لمن استحق ملاما، سيما مع الحجاج الواردين، ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين، فإنهم يبالغون في إكرامهم، ولا يألون جهدا في إفضالهم عليهم وإنعامهم، ولهذه المدينة بابان؛ باب إلى البر وباب إلى البحر، لأن البحر يحيط بكثير من جهاتها. والحصن الذي فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية باب البر بينه وبين البحر. ولأمير هذه المدينة نكاية في العدو دمرهم الله، وله مراكب قل نظيرها معدة للجهاد في البحر قلما تسافر وترجع بغير غنيمة، وقلما أسرت لهم سفينة إلا إن تكون من سفن التجارة لا من سفن الجهاد. فجزاهم الله خيرا وأعانهم على ما أولاهم من ذلك وسائر بلاد المسلمين أجمعين. وكان عادة الركب إذا دخل هذه المدينة، سيما في الذهاب، أن يقيموا بها نحوا من شهر يستعدون فيها لدخول المفازة التي قل نظيرها، وهي مفازة برقة[1]. ومن هذه المدينة يشتري الحجاج ما يحتاجون من الإبل والقِرب، ويتخذون زاد نحو من ثلاثة أشهر إلى مصر إن كان الوقت شتاء، وإن كان صيفا فنحو من شهرين. وإبل عمالة طرابلس غاية في الجودة، قل أن يوجد لها نظير، شبيهة بإبل بلدنا، بل تزيد عليها بكثرة الخدمة، فإنهم يستعملونها في سائر الأشياء حتى الحراثة والدراس، ويسقون عليها ويديرون الرحى، فتمرنت بذلك على المشاق العظيمة، مع طيب هواء البلد ونقاء مرعاها، فيقل فيها الغش وتندر أمراضها، ولذلك قيل في أمثال الحجاج: جمل طرابلسي وقربة مصرية، لأن قِرب هذه البلد رديئة الدباغ،

(1) برقة: مدينة كبيرة بين الإسكندرية وإفريقية، بينها وبين البحر ستة أميال: الروض المعطار، ص: 91.

وماؤها خبيث المساغ، ومع ذلك لا تمسك من الشراب إلا كما يمسك الماء الغرابيل، من اتكل عليها أوسعت عليه الري أول المسافة، وأوردته آخرها وارد التلف والمخافة.

وهذه المدينة قد شاهد أهلها بركة الحجاج والمجاهدين في أمر معاشهم، فربما اجتمع فيها من الركبان الذاهبين والآيبين خمسة أو ستة، ويصادف ذلك في كثير من الأحيان خروج عسكر البحر للجهاد، ومع ذلك لا يزيد فيها السعر على ما كان في كل مطعوم، بل ربما نقص في البلد مع أن البلد في كثير أحواله معروف بغلاء الأسعار بالنسبة إلى أرياف النيل وسواحل المغرب وجباله. إلا أن أهلها مكتفون بها غاية، وراضون بها إلى النهاية، وهي جديرة بذلك. وإذا اجتمع الأركاب فيها كثر الزحام على الأراحي غاية، فيلاقي الحجاج من ذلك مشقة، ولولا ما جبل عليه أهلها من السماحة وحسن الخلق لما تهيأ للحجاج اتخاذ الزاد منها لصغرها وكثرة الواردين، سيما من لم تطل إقامته كركبنا في هذه السنة، فإنا لم نقم بها إلا نحو العشرة أيام. وذلك شأن ركب الإبل الواردين على الصحراء في كل سنة، فإنهم يتأخرون ويستصحبون معهم جل ما يحتاجون من إبل وقرب، فلا يزيدون منها إلا قليلا، وإنما يحتاجون فيها إلى اتخاذ الزاد فقط.

وأما ركب الجريد، أهل البغال والحمير، فتطول إقامتهم بها في الغالب، وربما أقاموا الشهرين وأزيد لبيع الدواب وشراء ما تقدم ذكره، فكأنهم يستأنفون منها سفرا آخر[1] من غير السفر الذي كانوا فيه قبل ذلك لأنه مخالف له في كثير من أحواله، حتى كأنه لا يشاركه إلا في مطلق السفر. ولذلك تجد كثيرا ممن لم يتقدم له حج يشق عليه الخروج من طرابلس أكثر من الخروج من بلده، وكذلك من مصر بالنسبة لما قبله. نسأل الله العون والتوفيق على سلوك أحسن طريق.

وكان نزولنا يوم دخولنا طرابلس في المحل الذي كنا نترل فيه قبل ذلك في مصرية على باب المسجد المسمى جامع الحاج إبراهيم بأقصى المدينة قرب ضريح ولي الله تعالى سيدي سالم المشاط. وكان إمام هذا المسجد صاحبنا الفقيه النبيه، الأورع[2] النزيه، سيدي أحمد بن عيسى اليربوعي، وكان من أماثل هذا البلد علما وورعا وزكاء أخلاق وطيب أعراق. وكان أبوه سيدي عيسى هو قاضي المدينة

(1) ساقط من ط.
(2) في ط: الورع.

منذ أزمان كثيرة، فلما توفي أبوه تولى هو القضاء وحمدت سيرته فيه وتحلى بحلية العدل، ثم استعفى منه فأعفي، ثم أعيد ثانية، وبعُد صيته وانتشر الثناء عليه وكثر حامدوه، إلى أن توفي قبل وصولنا بأشهر قليلة، وكثر تفجع الناس عليه وأعقب الذكر الجميل فيهم. فلما سمعنا خبر موته تفجعنا لفقده، وكان لنا في تلك المدينة أحسن رفيق، وأعظم معين في النوائب شقيق، رحمة الله عليه تترا، ورضوانه دنيا وأخرى. وبعد وفاته لم يجد أهل حومته أفضل من ولده سيدي محمد بن أحمد لتولية المسجد المذكور والصلاة فيه، فقام بذلك، وهو سائر إن شاء الله على سير أبيه، والله يعينه على ما تولاه، ويرزقه القيام على شكر[1] ما أولاه. وقد تلقانا يوم قدومنا أحسن الملاقاة وقام ببعض الواجب مما كان يقوم به والده، رحمه الله، وهيأ لنا المنزل وأعان في المحتاج من اتخاذ الزاد بالميسور من طحن وتوابعه.

ولما اطمأن بنا المنزل ذهبنا لزيارة شيخنا مفتي البلد سيدي محمد بن أحمد بن مُساهل[2] رضي الله عنه، فلقينا أحسن الملاقاة وفرح بقدومنا، فجزاه الله خيرا. ووجدناه، رضي الله عنه، قد استعفى من الفتوى فأعفي، وبقي ملازما لداره ومسجده للتدريس فيه مستريحا من التكاليف، مشتغلا بمطالعة التآليف، ولا يقطع القراءة في الغالب، صباحا ومساء شتاء وصيفا، يقرأ ما تيسر من فقه ونحو وما يشاكل ذلك، ويختم بشيء من كتب الوعظ والتذكير.

وهذا الشيخ، رضي الله عنه، من أحسن ما رأينا سمتا وعقلا، وأصدقهم قولا وفعلا. له مشاركة في العلوم وحسن اطلاع على فروع المذهب. طالت ولايته للفتوى نحو الأربعين سنة وحمدت سيرته فيها، وله مع ذلك ميل قوي إلى طريق القوم. وقد أخذ الطريق عن ولي الله بلا نزاع، بين تلك البقاع، سيدي محمد الصيد رضي الله عنه. والصيد في لغة هذا القطر هو الأسد، وسمي كذلك لكثرة ردعه للظلام وقهره للجبابرة، حتى كان لا يجترئ أحد على معارضته في ما أمر به، ولا يتعرض لمن انتسب إليه. وظهرت له كرامات. وقد أخذ الطريق عن سيدي عيسى بن محمد التلمساني المشهور بأبي معزة، وهو أخذ عن الولي الكبير

(1) في ط: بشكر.
(2) محمد بن أحمد بن مساهل، علامة مشارك، تولى الفتوى بطرابلس مدة، توفي عام 1074 هـ: التقاط الدرر، ص: 158. صفوة من انتشر، ص: 171. نشر المثاني2:135.

والعلم الشهير، سيدي أبي عمرو القسطلي المراكشي[1]. ولأجل هذه النسبة لم يزل ولد الشيخ المذكور سيدي عبد الحفيظ يبالغ في تعظيم أولاد سيدي أبي عمر، بل في تعظيم كل من يمت إليهم بقرابة أو خدمة أو جوار أو غير ذلك. وإن اتفق قدوم أحد منهم عليه فلا يبقي ولا يذر في إكرامه والمثول بين يديه كأصغر الخدام وأحقرهم. ولقد حج معنا سنة ستين سيدي محمد بن أبي القاسم من أولاد سيدي أبي عمرو، وتلقاه بالبر والتعظيم وأنزله عنده وبالغ في إكرامه، وشيعه في الذهاب والإياب نحوا من سبع مراحل.

ولقد أخبرني من حضره ذات يوم وقد غسل سيدي محمد بن أبي القاسم يده صباحا ورأسه من حناء، كان بها في إناء، فأخذ سيدي عبد الحفيظ ما اجتمع من الغسالة في ذلك الإناء وشربه، نفعه الله تعالى[2] بحسن اعتقاده. ولهذا السيد اعتقاد حسن في كل من ينتسب إلى الصلاح. وقد نفعه الله بذلك فطار صيته وانتشر ذكره في البلاد أكثر من أبيه، وهابه الولاة فمن دونهم. وله، كما قيل، دنيا عريضة من كل المال، قد آتاه الله نعما وحرثا وغيرهما، يطعم منها الواردين، ويواسي المحتاجين، أعانه الله على ما به تولاه، ورزقه الشكر على ما أولاه، وتوفي الولي أبوه سيدي محمد الصيد سنة خمسين وألف. وقد أخبرني شيخنا سيدي محمد بن مساهل أنه منذ عرفه لم يترك صلاة الجمعة عنده إلا لعذر ظاهر. ولم يزل على ذلك إلى الآن منذ أزيد من أربعين سنة، يذهب كل يوم جمعة ضحى إلى محل الشيخ المذكور بالقرية المسماة بالهنشير[3]، وبينها وبين المدينة ستة أميال، فيصلي هناك الجمعة، ويدرس هناك في مسجد الشيخ إلى أن يصلي العصر ويرجع إلى المدينة، لا يترك ذلك دائما.

(1) أبو عمرو بن أحمد بن أبي القاسم القسطلي، من وجوه مراكش وأعيانها، حفظت له بعض الكرامات، توفي عام 974 هـ: نشر المثاني 1:69. دوحة الناشر، ص: 98. ممتع الأسماع، ص: 117. الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام 4:50.

(2) ساقط من ط.

(3) الهنشير: محلة من محلات سوق الجمعة بطرابلس: صفوة من انتشر، ص: 171/ هـ 3.

لطيفة:

أخبرني شيخنا هذا أن الشيخ المذكور قال له إن لأهل الله مراغة كمراغة الإبل، لا يمر بها أحد منهم إلا تمرغ بها، وإني لأرجو أن يجعلك الله مراغة لأوليائه. ولأجل دعوة هذا الشيخ لا يدخل أحد هذه المدينة ممن فيه انتساب إلى هذه الطريق المباركة إلا كان إيواؤه إلى هذا الشيخ إما بتزول عنده أو بالتردد إليه. وكان، رضي الله، عنه يقوم بحوائجهم قدر الإمكان ويواسيهم، نفعه الله بقصده الجميل. ولقد وجدناه في هذه السنة منقبضا مترويا عن أكثر الناس لأجل ما حصل له من التوجع على صهره زوج ابنته. وكان من شأنه أنه كان هو وأخوه من طلبته، وكان من أنجب طلبة الحنفية، وزوجهما الشيخ ابنتيه. فلم يزل حالهما في الرقي إلى أن تولى أكبرهما فتوى الحنفية، وكانت له المترلة الرفيعة في البلد وعند العسكر. وكان الشريف المتولي لطرابلس قبل محمد باشا المقتول سنة أربعين وألف، قد خلف ولدا صغيرا وبقي في كفالة خديمه محمد باشا الذي ولي الإمارة بعده، فلما مات وأفضت الإمارة إلى عثمان باشا مملوك الشريف المذكور رفع بضبعي[1] ولد سيده ورقاه مراقي الرياسة، فلما تمكنت قهرية الرياسة الممزوجة بحداثة السن من رأسه، منته نفسه الثورة على مملوك أبيه عثمان باشا، وظن أن المراتب الدنيوية بالاستحقاق، وأن نسبه الرفيع يحصل له به في سوق الولاية إنفاق، ولم يعلم أن الناس أعوان من واتته دولته، وهم عليه إذا خانته أعوان، وصادف ذلك ملال من الرعية لولاية هذا الأمير لكثرة ظلم أعوانه في الجباية. فمالت أنفس كثير منهم إلى مقالة الشريف، ورشح ذلك عندهم تأزره واعتضاده بولد نوير رئيس عرب الناحية الغربية من طرابلس، وكان ذا شهامة وبأس شديد. وقد أظلم الجو بينه وبين أمير البلد، فاتفقت كلمته وكلمة الشريف ومن دان بدينهم من الرعية كأهل تاجورا[2]، وساعدهم على ذلك مفتي الحنفية المذكور وطائفة قليلة من العسكر. فلما كاد أمرهم أن يتم، وتمت على سريرتهم أسارير أوجههم وإشارات أقوالهم، أوحي[3] بذلك إلى الأمير بعض بطانتهم ممن أراد بذلك اتخاذ يد عنده. فأوجس الأمير في نفسه خيفة منهم، وكان ممن لا يقعقع له بالشنان.

(1) الضبع وسط العضد: لسان العرب: ضبع.
(2) تاجورا: قد ترد تاجورة؛ قرية كبيرة عامرة، بها قصر متسع يشما على دور كثيرة، وكان ابتداء عمارتها في عام 55 هـ: رحلة التيجاني، ص: 307.
(3) في ط: أوشي.

فاحتال بالقبض عليهم خفية وأظهر التجاهل والغفلة عن أمرهم، وبادر بالخروج إلى ناحية تاجورا حيث محل ربطهم وحلهم. وأوعز إلى بطانته بعد تحصين البلد بالقبض على الشريف والمفتي ومن ساعدهم إثر خروجه. وأظهر للرعية عدم المبالاة بذلك، وقال: قد علمت أنكم برآء مما نسب إليكم يخدعهم بذلك لئلا يثوروا ثورة واحدة. واستعان على تسكين روعتهم بالشيخ عبد الحفيظ، وخضع له وتذلل. فلما رأت الرعية استكانته لجانب الشيخ اطمأنوا. و لم يزل كذلك إلى أن فرغ من أمر الشريف وأتباعه، فكر على الرعية بقتل ذوي الرأي و إغرام أتباعهم بما جعلهم عبرة لغيرهم. فلما خلا له الجو من هذه الطائفة أخذ يتجسس عن كل من مالأهم بكلمة أو إشارة. فربما أشير إليه بأن شيخنا سيدي محمد بن مساهل ممن له في ذلك إشارة، مرشحا ذلك بأن صهره مفتي الحنفية لا يقطع أمرا دونه، فتنكر له الأمير في باطنه و لم يبده للناس لوجاهة الشيخ في البلد بعلمه وورعه. فلما علم الشيخ بذلك استعفى من الفتوى فأعفي، وبقي ملازما لداره ومسجده للتدريس فيه مستراحا من التكاليف، مشتغلا بمطالعة التآليف، رضي الله عنه وأرضاه.

لطيفة:

وأخبرني شيخنا ابن مساهل عن بعض مشايخه أنه قال: إذا أُذن خلف مسافر فذلك أمان له حتى يرجع. وروى ذلك لنا[1] حديثا. وقد فعل لنا ذلك، رضي الله عنه، حين ودعنا خارج داره فرأينا بركته ولله الحمد.

غريبة:

أخبرني أن سيدي علي الخضيري ذكر في شرحه على المختصر[2] أن الزباد[3] المسمى في عرف غربنا بالغالية[1]، نجس وأن كان عرق حي لمروره بمحل البول.

---

(1) ساقط من ط.
(2) يقصد مختصر خليل.
(3) الزباد مثل السنور الصغير يجلب من نواحي الهند، وقد يأنس فيقتنى، ويحلب شيئا شبيها بالزبد... وله رائحة طيبة وهو يقع في الطيب: لسان العرب: زبد.

قال: وكان بعض الصالحين لا يتطيب به لذلك، وأظنه شيخنا اللقاني. قال شيخنا: وكنت أتوهم ذلك إلى أن بعثت بحضرة الشيخ سيدي عبد الحفيظ إلى قط من القطوط التي يستخرج منها الزباد، وكان عند بعض الأتراك، فلما أحضر أمرنا متولي استخراج الزباد منه بإخراجه بحضرتنا ففعل. فشاهدنا محل اجتماع ذلك منه خارجا عن محل البول لا يمر به أصلا، وإنما هو جليدة[2] رقيقة عن يمين المحل أو يساره يجتمع فيها ذلك العرق وتشتد عليه وتنطوي حتى يؤخذ منها. قال: فحينئذ اطمأنت نفوسنا وأيقنا بطهارته[3].

غريبة:

أخبرني شيخنا سيدي محمد بن مساهل سنة أربع وستين في الرحلة التي قبل هذه أنهم سمعوا في سنة اثنين وستين وألف صوتا هائلا في ناحية البحر كصوت المدافع الكبار من قرب الضحى إلى الليل. قال وظنناه سفنا للمسلمين تلاقت مع سفن النصارى، وكما سمعنا ذلك الصوت سمعه أهل هذا الساحل إلى مسراتة[4]، وسمعه حتى أهل فزارة والإسكندرية، وسمعه من الناحية الغربية أهل جربة وسوسة وتونس، وكل يظن أنه قريب منه. وبعد شهر أو شهرين قدمت مراكب من بر الترك وأخبروا أن ذلك الصوت لأمر هائل. وذلك أن جزيرة من جزر بر الترك خرجت في بعض نواحيها حجارة تطلع من البحر حتى إذا ارتفعت على الماء وعلت في الهواء تصدعت فيخرج منها نار ويسمع لها ذلك الصوت. فإذا خرجت النار وقعت الحجارة على الماء خفيفة كهيئة الجُفَافة[5]. ودام ذلك إلى الليل، وارتفع من ذلك الجو دخان كثير فيه رائحة الكبريت. وأعجب من ذلك أنهم قالوا إنه أصبح في ذلك البلد كل ما عندهم من الفضة نحاسا في تلك الليلة، والله أعلم بغيبه. وهذه المدينة معروفة بأهل الصدق في الأحوال من المجاذيب، وقد أدركنا بها رجلين أو ثلاثة من المجاذيب تؤثر عنهم كرامات وحكايات غريبة تدل على صدقهم في مواجدهم. وكانت فيما مضى فيها مزارات كثيرة لكثير من أكابر

---

(1) الغالية: نوع من الطيب مركب من مسك وعنبر وعود ودهن: لسان العرب: غلا.
(2) في ط: جلدة.
(3) وردت الحكاية في كتاب: صفوة من انتشر، ص: 172.
(4) مسراتة: ذكرها التيجاني في رحلته: رحلة التيجاني، ص: 317.
(5) الجُفافة: ما ينتثر من القت والحشيش وغيره: لسان العرب: جفف.

الصالحين، ولا يعرف منهم الآن إلا قليل كسيدي سالم المشاط صاحب المسجد الجامع الذي بأقصى المدينة، وقبره يزار. وسبب خفاء كثير من قبور الصالحين المدفونين فيها أن البلد تداولته أيدي المسلمين والنصارى مرارا عديدة. فقد ذكر ابن بطوطة في رحلته[1] أن النصارى استولوا عليها في أيام السلطان أبي عنان وافتداها منهم بخمس قناطير من الذهب العين، فعد ذلك من مآثره. انتهى. وقد استولى عليها النصارى أيضا في القرن العاشر.

لطيفة:

ممن لقيته بطرابلس من أفاضل أهلها سيدي شعبان بن مساهل[2] ابن عم شيخنا المذكور، وكانت له معرفة بنوادر من التاريخ وجزئيات من علم النجوم.

ومما أفادنيه من التواريخ أن الترك دخلوا تونس وأخذوا حلق الوادي من أيدي النصارى عام اثنين وثمانين وتسعمائة. قلت: وسمعت من غير واحد أن مولاي عبد الملك[3] صاحب الغزوة الكبرى كان حاضرا مع الترك في دخول تونس لما جاءهم مستصرخا على ابن أخيه محمد الشيخ وأبلى فيها بلاء حسنا[4]، وبعد ذلك أمدوه بالعساكير لما ظهر لهم من شهامته إلى أن كان من أمره مع ولد أخيه ما كان. فرضي الله عنه من ملك كان بدء أمره الجهاد وختامه الجهاد. والبدايات كما قيل مجلات النهايات، فمن طابت بدايته زكت نهايته.

(1) أنظر: رحلة ابن بطوطة 2:822.

(2) شعبان بن مساهل الطرابلسي، من أعيان طرابلس وفقهائها، ترجم له صاحب نشر المثاني نقلا عن الرحلة العياشية: نشر المثاني 2:371.

(3) عبد الملك بن أبي عبد الله محمد الشيخ السعدي، كان بسجلماسة رفقة أخيه أحمد المنصور حين بلغتهما وفاة أبيهما واستيلاء أخيهما على الملك بعده، ففرا إلى تلمسان خوفا على أنفسهما منه، ولم يزالا مقيمين بها على بلغهما خبر وفاة أخيهما عبد الله واستبداد ولده مولاي محمد بعده بالملك، فسارع عبد الملك إلى إصطنبول قاصدا السلطان العثماني، فأعاد هذا عبد الملك بجيش وعتاد وقواد، فنشبت بينه وبين المتوكل حروب استمرت أربع سنين، وانهزم المتوكل واتفق مع البرتغاليين وعاد بجيش كبير منهم، فتجددت المعارك، وهلك المتوكل غرقا في معركة وادي المخازن كما مات عبد الملك في التاريخ نفسه سنة 986: نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، ص: 120. الأعلام 4:164.

(4) نزهة الحادي، ص:123.

ومما أفادنيه من تاريخ هذا البلد أن العدو، دمره الله، استولى على هذه المدينة الاستيلاء الأخير سنة ست عشرة وتسعمائة يوم ستة عشر في محرم[1]، وافتكت منه عام ثمانية وخمسين وتسعمائة، وتاريخه نقط قولك: جاء الترك بسر. وافتكها منهم درغوت باشا وكان بجربة، ومراد باشا وكان بمسلاتة. وبقي فيها درغوت إلى أن توفي بها، وقبره الآن يزار وعليه بناء عظيم. وسبب أخذها من العدو أن مراكب للمسلمين جاءت من اصطنبول مددا للعمارة المحاصرة[2] لحلق الوادي بتونس، فمرت بسواحل طرابلس، فكلمهم أهل السواحل في إعانتهم على النصارى، فقالوا: إنا لم نؤمر بذلك من السلطان. فقال لهم الباشا مراد: أعينوني في هذا الأمر، فإن كانت عقوبة من السلطان فأنا المؤاخذ بها دونكم. فحاصروها برا وبحرا إلى أن أخذوها. فذهب معهم مراد باشا إلى السلطان وقال له: إن كانت عقوبة فأنا المؤاخذ بها دون هؤلاء الأمراء. فرضي عنه وعنهم وأكرمهم. وأما أخذ النصارى لها فذكروا لذلك قضية[3] غريبة، وهي أن أهل هذه المدينة فيما مضى كانوا أهل دنيا عريضة فيما يقال وليس فيهم غناء ولا لهم بالحرب خبرة، فبينما هم كذلك قدمت سفن للنصارى تجارا بسلع كثيرة، فنزلت بالمرسى فخرج إليهم رجل من التجار فاشترى منهم جميع ما بأيديهم من السلع ونقد لهم ثمنها، ثم استضافهم رجل آخر فصنع لهم طعاما فاخرا، فلما أخرج لهم الطعام أخذ ياقوتة ثمينة[4]، فدقها دقا ناعما وذرها على طعامهم فبهتوا من ذلك. فلما فرغوا قدم لهم دلاعا[5] فطلبوا سكينا لقطعها فلم توجد في داره سكين ولا عند جاره إلى أن خرجوا للسوق فأتوا بسكين. فلما رجعوا إلى بلدهم سألهم ملكهم عن حال البلد التي قدموا منها فقالوا: ما رأينا بلدا أكثر منها مالا وأقل سلاحا وأعجز أهلا عن مدافعة عدو فحكوا له الحكايتين. فتأهب ملكهم لدخولها في مراكب البحر فدخلها في ليلة واحدة بلا كبير مشقة واستولى عليها، ولم ينج من أهلها إلا من تسور ليلا. وانحاز المسلمون إلى تاجورا وجبال غريان ومسلاتة، وصارت المدينة للنصارى إلى أن كان من أمرها ما كان في التاريخ المذكور. قال الشيخ مرعي

(1) في ط: من المحرم.
(2) في ط: الحاصرة.
(3) في ط: قصة.
(4) ساقط من ط.
(5) الدلاع: البطيخ: عامية مغربية.

الحنبلي[1] في كتابه نزهة الناظرين عند ذكر السلطان سليم[2] ولد السلطان سليمان ما نصه: وكانت ولايته سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وفي أيامه كان فتح حلق الوادي ببلاد تونس المغرب بعد استيلاء النصارى عليها بسبب الاختلاف الواقع بين سلاطين المغرب من[3] آل حفص، فصار بعضهم يتقوى على بعض بالإفرنج، وأطمعوهم في بلاد المسلمين، فاستولوا عليها وتمكنوا منها وحصنوا الحصون وأحكموا القلاع، بحيث أيس المسلمون من فتحها وصاروا تحت حكم الإفرنج، وأخذوا مملكة تونس ووضعوا السيف في أهلها، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأولاد. فلما بلغ السلطان سليم ذلك أرسل مائتي غراب مشحونة بالأبطال والمدافع وآلة الحروب[4]، وصحبة ذلك سنان باشا وفلج علي باشا. وكانت غزوة مشهورة ووقعة معدودة من أعظم غزوات بني عثمان يحتاج تفصيلها لمؤلف. فنصر الله المسلمين بعد أن قتل منهم نحو العشرة آلاف، مع الحصار المديد، والقتل[5] الشديد.

ومن العجائب أن الإفرنج كانوا أنشأوا هناك حصنا حصينا وقلعة منيعة، أقاموا في استحكامها وإتقان بنائها ثلاثا وأربعين سنة، فافتتحها المسلمون صحبة الوزير المذكور في ثلاثة وأربعين يوما من أيام محاصرتها، وذلك في سنة إحدى وثمانين وتسعمائة. ثم خرب الوزير القلاع والحصون ولم يُبق لها رسما، ووصلت البشائر للسلطان سليم، وكان في نفسه فتح إقليم الأندلس في ثاني سنة، فلم يمهله الأجل رحمه الله.

وفي[6] يوم دخولنا لهذه المدينة لقينا أصحابنا الفاسيون القافلون من الحج، وفيهم محبنا سيدي طاهر بن رضوان الخزرجي، وأخبرني بأعظم الرزية، وأفجع البلية، موت أخينا في الله المواتي، المساعد فيما يذر وما يأتي، الحبيب الشقيق، خير

---

(1) مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي، المقدسي الحنبلي، مؤرخ أديب، ولد في طولكرم بفلسطين، وانتقل إلى القدس ثم القاهرة التي توفي بها سنة 1033هـ، له مصنفات عدة منها: نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين: خلاصة الأثر 358:4. الأعلام 203:7.
(2) السلطان سليم بن سليمان ابن سليم، ملك القسطنطينية، تولى السلطة بعد أبيه، وكانت مدة سلطنته نحو ثمان سنين، توفي سنة 982 هـ: الكواكب السائرة 157:3.
(3) في ط: و.
(4) في ط: الحرب.
(5) في ط: القتال.
(6) ساقط من ط.

خل وأزكى رفيق، العلامة اللوذعي[1]، الرحالة الألمعي، سيدي محمد المنقوشي[2] سقى الله قبره شآبيب الرحمة والرضوان، وجعله ممن يستبشر بقدومه رضوان، وذلك في شهر الله محرم الحرام فاتح سنة اثنين وسبعين وألف بمدينة القسطنطينة العظمى، مات شهيدا بالوباء بعد دخولها بثلاثة أيام. وكان، رحمه الله، قبل ذلك كثيرا ما يلهج بها ويؤمل المشي إليها، ويشتاقها اشتياق المرء بلده، فصارت بعد ذلك ملحده. وقد ذكر لي أنه لمعت بارقة من نور على قبره، ولا يستبعد ذلك من أمره، شهيد الوباء والغربة وقاصد الحج وطالب علم إلى غير ذلك من سيرته الحسنة. وقد بنى أخوه على قبره فصار مزارا، حط الله عنه بذلك آثاما وأوزارا.

ومن هناك كتبنا لأصحابنا الفاسيين، ومشايخنا المهديين. ومن جملة ما كتبت قصيدة تائية، ليست عن صوب الصواب نائية، خاطبت بها أصحابنا واستطردت بعدهم السلام على مشايخنا، كلا باسمه، محلى ببعض وسمه، وبعد إتمامها أتاني النبأ الفظيع، والخبر الوجيع، بموت أخينا المتقدم فزدت فيها نحوا من أربعين بيتا في رثائه، وستأتي بجملتها عند ذكر الكتب التي بعثت بها من طرابلس.

وممن لقيته بطرابلس مفتيها الشاب الزكي، الفقيه اللوذعي، خير خلف، عن خير سلف، سيدي محمد المكني[3]، بيته بيت علم من لدن أسلافه الكرام، وأبوه سيدي محمد المكني[4] كان من أعلم أهل ذلك الساحل، وتولى الفتوى ببلده مرارا، واشتغل بالتدريس، وله مشاركة حسنة في فنون كثيرة، توفي قريبا من سنة ست وخمسين وألف. ولم يخلف إلا ولده هذا، واشتغل بالقراءة على شيخنا سيدي محمد بن مساهل وعلى غيره. وكان له ذكاء عقل، وزيادة نبل، فمهر في فنون عديدة وفاق أقرانه. فلما عزل شيخنا بن مساهل عن الفتوى، حسبما تقدم، وليها هو فحمدت سيرته فيها وظهرت نجابته وسدد في فتواه. وولي أيضا تدريس الجامع الكبير والخطابة والإمامة به. لقيته بداره ولم تطل مجالستي له. واستعرت منه

(1) اللوذعي: الحديد الفؤاد واللسان كأنه يلذع من ذكائه: لسان العرب: لذع.
(2) محمد بن أبي الشتاء المنقوشي الفاسي، الأديب الرحالة، مات بمدينة أسطنبول: التقاط الدرر، ص: 154.
(3) محمد بن محمد المكني الطرابلسي، من بيت علم وتصوف، ولي الخطابة والتدريس والإفتاء بمدينة طرابلس، توفي عام 1099 هـ: التقاط الدرر، ص: 238. نشر المثاني 2:59.
(4) أبو عبد الله محمد المكني الطرابلسي، توفي عام 1056 هـ: التقاط الدرر، ص:122. نشر المثاني 2:35.

المطول[1] لسعد الدين فأعاره، وكانت له خزانة كتب ليس مثلها لأحد من أهـــل بلده، ثم استعرت منه بعد ذلك العضد على مختصر ابن الحاجب[2]، وكان ذلـــك قرب رحيلنا، فأعاره، وكتبت له مع الرسول بيتين وهما[3]:

[طويل]

فمُنوا به قبلَ الرحيـــلِ لنـــا كمـــا ... تطَـــولتُم مـــن قبلـــهِ بـــالمُطَولِ

فـــإنكمُ أهـــلٌ لكـــلِ فـــضيلة ... كما أنكـــمْ أهـــلٌ لكـــل تفَـــضلِ

---

(1) هو شرح سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى سنة 791 هـ لمفتاح العلوم للعلامة سراج الدين أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي المتوفى سنة 626هـ: كشف الظنون 2:1763.

(2) الإشارة هنا إلى كتاب: منتهى السول والأمل في علمي الأصل والجدل، للشيخ الإمام جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب المالكي، المتوفى سنة 646 هـ، صنفه أولا ثم اختصره، وهو المشهور بمختصر المنتهى ومختصر ابن الحاجب، وقد شرحه العلامة عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي المتوفى سنة 756 هـ: كشف الظنون 2:1853.

(3) ورد البيتان في: نشر المثاني 2:36.

ذكر ما كتبت به من (مدينة)[1] طرابلس إلى [أشياخنا و][2] إخواننا بالمغرب وما وقع على بعض تلك المكاتبات من الأجوبة لبعض أصحابنا[3]، إذ لا يخلو ذلك من فوائد وأغراض لأجلها كتبت الرحلة.

فمن ذلك قصيدة تائية كتبت بها إلى بعض إخواننا بفاس، مجددا للعهد بهم، ومذكرا لهم ما سلف لي من وصلهم وقربهم، ومثيرا لأشواقهم، وراكضا لجواد القريحة في حلبة استباقهم. واستطردت فيها ذكر مشايخنا رضي الله عنهم، محليا لهم بالنزر القليل من وصفهم الجميل، ومتضرعا إليهم في صالح الدعاء، ومظهرا لِمنتهم علي بالحقيقة لا بالادعاء، وسميتها: نفثة المصدور إلى الإخوان والصدور، ونصها بعد نثر قدمته لها طليعة، وأتبعته طلعتها الحسنة البديعة[4]:

[طويل]

أحبتَنــا أهــلَ الــصفا[5] والمَــبرةِ ... بفــاس بقيــتُم دائمــا في مــسَرةِ

ودامَ لكم سِــلما زمــان محــاربِ ... ولازلــتُم في نعمــةٍ مُــستمرةِ

تَميسونَ ما بين القُــصور كــأنكمْ ... بُدورٌ أضــاءتْ في خــلالِ المجــرةِ

يُــذكرنيكُم كــلُ رِفــقٍ رَأيتــهُ ... ولا سيما إنْ جــاء بــردُ العَــشيةِ

كذلك إنْ هَب الصبا ســحرًا فيــا ... زمانًا تَقــضى هــلْ تُمــن بعــودةِ

(1) زيادة من ط.
(2) زيادة من ط.
(3) في ط: لأصحابنا.
(4) وردت القصيدة في: نشر المثاني2: 125.
(5) في ط: النقا.

يُخيـــلُ لي وقـــتٌ قطعنـــاهُ معْكُـــمُ ... أخذناهُ من طرْفِ الزمـــانِ بخلـــسةِ
وأيامُ أنسٍ خارجَ المَصْرِ قد مـــضتْ ... لنَـــا بـــين دوْحٍ في ريـــاضٍ أنيقـــةِ
تشوقتُها فـــازدادَ قلـــبي تَحـــسرا ... فها أنا ذا ما بيْن شـــوْقٍ وحَـــسرةِ
كأني بـــصحبي وَفـــرَ اللهُ جَمعهُـــمْ ... عَـــشية يـــوم الأربعـــا في البُليْـــدَةِ
يؤمُونَ قبرَ الشيخِ مـــصْباح دهـــرهِ ... أبي جيـــدَةَ[1] في همـــةٍ وســـكينَةِ
يُديرونَ كاســـاتِ المـــزاحِ كـــأنهم ... بدُورُ الدياجي بـــين تلـــك الأجنـــةِ
فيَا ليتَ شعْري هل ترى يَذكرونني ... هنالكَ أم ينسونَ مـــن بعـــدِ فتْـــرةِ
فإنْ ذكرونِـــي عنـــدَ ذلـــك إنهـــمْ ... سيدعُونَ لي بـــالخيْرِ في كـــل زَوْرةِ
وهـــذا إذا مَـــا قَـــصْدُهمْ لِزيَـــارةٍ ... وأمـــا إذا مَـــالوا إلى القـــصية
هنالِكَ ينسى المرءُ من كان حاضـــرًا ... فكيفَ بـــشخصٍ في بـــلادٍ بعيـــدةِ
وعذرًا لهم في ذاكَ أحْرى إذا غَـــدوا ... لأكلِ طعامٍ جاءَ مـــنْ غـــيرِ قيمـــةِ
ولاشك أن القـــومَ إذ ذاك مـــالهُمْ ... شعورٌ بشيءٍ غـــيرَ تلـــك اللقَيْمَـــة
فلا يتركُوها لـــو تَلـــوتَ علـــيهم ... أحاديثَ فضْلِ الجوعِ معَ ذم بطنَـــةِ
وهَذا مِزاحٌ فاسْمَحوا العبـــدَ إنمـــا ... أرادَ يُسلي القلـــبَ في أرضِ غُربـــةِ
ولولا اعتِقادي أن ذا لا يَـــسُوؤكمْ ... ولو قلتُ فيكم مثلَ ذا ألـــفَ مـــرةِ
لأضْربْتُ صَفْحا عن مزاحِكمْ ومـــا ... كتبتُ إليكم من مِزاحِـــي بلفظَـــةِ
ولو كنتُ معكم كنتُ أعظمَ قـــائِمٍ ... لكم بحقُـــوقِ الـــود في كُـــل لحَـــةِ
فيا واصِلا للغَـــربِ بَلـــغْ سَـــلامنا ... إلـــيهم وارْخِ عَـــن عِنَـــان المَطيـــةِ

---

(1) أبو جيدة بن أحمد اليازغي، فقيه مغربي، أدرك العديد من أهل فاس وأخذ عنهم وانتفع بهم، رحل إلى المشرق وعاد بعلم غزير، وللنساء الفاسيات اعتقاد كبير فيه، وهن يتقربن إلى ضريحه بأنواع القرابين، توفي بفاس سنة نيف وستين وثلاثمائة، ودفن خارج باب بني مسافر الذي صار يدعى بعد دفنه بالقرب منه باب سيدي بوجيدة: أعلام المغرب العربي 1:302.

وودعها تَجِد السيْرَ حتى إذا أتَتْ لفاسَ وفي باب الفتُوحِ[1] أنيخَت[2]
بمخْفِية أو في العُدول[3] فسلْ تَجِد مُناي وقُل عني لِخير أحِبة
مُحبكُمُ العبدُ الفقيرُ لِربهِ أبو سَالمٍ يَدعو لكُم كل ليلَةِ
ويذكُرُكم مهما جَرى ذكركمْ بما جُبلتم عليهِ من خصالٍ جميلةِ
ويُثني على أخْلاقِكم وطباعكُمْ فَأكْرِمْ بأخلاقِ لديكم حميدَةِ
ويطلُبُ منكم أن تكُونوا له كما لكمْ كان إنْ وَفيتُم بالَمحبةِ
وقولوا جميعًا في دعائِكُم لهُ بقلبِ مُنيب صادقٍ في المودةِ
أيَا رب بَلغْ للمدينَةِ سالِمًا أبا سالِمٍ واغفِرْ لهُ كل زلةِ
ويَسرْ عليهِ حَجهُ ورجوعَهُ إلى أهلِه بعدَ الجِوار بطيبَةِ[4]
وبَارِك لهُ في كل ما قد منحتَهُ وعافِهِ في دينٍ ومالٍ وصِحةِ
وسَددهُ في أقوالِه وفِعالِهِ وحُطهُ من الأسْواءِ في كل لحظَةِ
وبلغْهُ ما يرجوهُ حالا وآجِلا بجاه نَبي سَاد كل البَريةِ
فأنتُم إذا قمتُم بذا ما أحقكُم بخالصِ ودي دونَ أهْلي وإخوتي
فإن الذي بيْني وبينكُمُ كما علمتُم لشيءٌ زائدٌ في الخصوصَةِ
وِدادٌ وحبٌ صادقٌ وأخوة مُمَكنةٌ في الله مع طُول عِشْرَةِ
وعهدٌ وثيقٌ في الدعاءِ عهدتُهُ إليكمْ وشيءٌ لا يُنالُ بفِكْرةِ
وفي كلهَا ما ليسَ يَخْفى عليكمْ منَ الحق إنْ لم تُهملوا حق صُحبةِ
ونُوبُوا صَحابي عن أخِيكم وقَبلُوا أكُف شيُوخي وانطِقوا بالتحِيةِ

---

(1) من أحياء مدينة فاس.
(2) في ط: اناخت.
(3) مخفية والعدول حيان من أحياء مدينة فاس.
(4) طيبة: المدينة المنورة.

وزِيدُوا عليها مـا يُقـرُّ عنـدهُمْ ... ودادي وإن قَصرْتُ في حق خدمـةِ

وقولُوا عُبَيدا كانَ يحضرُ عنـدكمْ ... بودٍ فـلا تَنْـسوهُ في حـالِ غَيْبـةِ

ومُنـوا عليـهِ بالـدعاءِ فإنـهُ ... لأحْوجُ ما قد كان مـنكمْ لِـدعوةِ

ولاسيما شيخِي وشـيخُ مـشايخي ... ومنقِـذي مـنْ حـيرةٍ أي حـيرَةِ

إمامي الذي يمْشي أمـامي بعلمِـهِ ... يقـودُ زِمـامي قـدوة أي قُـدوةِ

مُعلمُ جهْلي مرشدِي من ضـلالَتِي ... مُنورُ سـري[1] مـصلحٌ لـسرِيرتي

مُهذبُ أخـلاقِ الرجـالِ بهديـهِ ... مُرَقـي قلـوبِ العـارفينَ بهمـةِ

مُفيدِيَ عبدُ القادر[2] العـالِمُ الـذي ... غدا في ظلامِ الوقتِ شمْـسَ الأئمـةِ

عِمادِي وذُخري في الشدائِد كلـها ... ملاذِي إذا ما ضاقَ حَـوْلي وحيلـةِ

أُنادِي وإن[3] شطتْ بِيَ الدارُ باسمِـهِ ... فأخْلُصُ بعدَ اليأسِ من كُلِ وَحْلَـةِ

بهِ أقْتدي ما دمتُ حيـا وأهتَـدي ... على قدْرِ طـوقِي في فِعـالي ونيـةِ

فإنْ سـاعَدَ التوفِيـقُ لي في اتباعِـهِ ... هنيئًا وبُشرى قـد ظَفـرتُ ببُغيـةِ

وأُشـهِدُ رَبي والملائِـكَ والـورَى ... بـأنيَ مـن أتْباعِـهِ دونَ مِرْيـةِ

وأنـني قـد أحببتُـهُ واتخذتُـهُ ... لنيلِ الذي أرجُـوهُ خـيرَ وسـيلَةِ

وأنيَ قد قدمتُـهُ عـن جميـعِ مـنْ ... إليهِ استندتُ مـن شـيوخٍ أجِلـةِ

وأسـألُ رَبي أن يُطيـلَ بقـاءَهُ ... بأحـسنِ حـالٍ نافعـا للبريـةِ

وأولادُهُ الغُـرِ الكـرامُ محمـد[4] ... وشيخي أبي زيد[1] وكـلِ العَـشيرةِ

---

(1) في ط: سيري.
(2) يقصد شيخه عبد القادر بن علي بن الشيخ أبي المحاسن الفاسي الذي تقدمت ترجمته.
(3) في ط: إنا.
(4) محمد بن عبد القادر الفاسي، الفقيه العالم، مولده سنة 1042 ووفاته سنة 1116 هـ، له تآليف عدة منها: شرح الحصن الحصين لابن الجوزي، وشرح شواهد ابن هشام: شجرة النور الزكية 1:475. فهرس الفهرس 1:182.

خصوصًا أخي عبد العَزيز ابن عمكم ... ففي الله قد أحببتُهُ منذ مدةِ

وأولادُكم طرا جميعًا ومن لهُ ... لزاويةِ الشيخ الرضِي بعضُ نسبَةِ

وجملةُ أهلِ الحزْب(2) والمجلسِ الذي ... بهِ أشرقتْ آفاقُ تلكَ المدينةِ

فيا سادَتي لا تَحْرموا من دُعائكم ... أخاكُم أمامَ الشيخ وقتَ العشيةِ

وبعدَ دروسِ العلم مُنوا بدعوةٍ ... كذلكَ إثرَ الحزبِ في كل غَدْوةِ

وأزكى سلامٍ طيبٍ نشرُهُ على ... إمامِي وشيْخي ذي التقى والفتوةِ

محمدٍ المدعوِّ مَيَّارة(3) له ... عَلي أيادٍ لم تُكدرْ بمِنةِ

حميد السجايا وارع متواضع ... حليفُ الندى مُحيي علومَ الشريعةِ

تصانيفهُ في كل علم مَجيدةٌ ... وأخلاقُهُ أخلاقُ نفس مجيدةِ

قدِ انتشرَتْ في الأرضِ آيةُ علمهِ ... فنالَ بهاءً في زيادةِ رِفعةِ

وأولادهُ طرًا ومَن بجنابهِ ... وأحفادهُ أولي النهى والمروءَةِ

رفيعُ العمادِ الألَمعي الذي به ... تعززَ منصبُ القضا بعد ذِلةِ

مُفيدي وشيخي ذو الكمال مُحمد ... إمامُ الهدى قاضي القضاةِ ابنُ سودةِ(4)

لقد سادَ أهلَ العصرِ طرا وإنهُ ... مدى الدهرِ في أحكامِه لابنُ حُرةِ

أَغر هُمامٍ في أعَز مدينة ... وخيرُ إمامٍ قام في خيرِ خِطةِ

لهَ نطقُ سحبان(1) وجودةُ حاتم(2) ... وجرأةُ عمرو في ذكاءِ المغيرةِ

---

(1) أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي، العلامة المشارك، من مصنفاته: مفتاح الشفاء، وجارى به الشفا للقاضي عياض، وله: غاية الوطر في علم السير، توفي بفاس سنة 1096 هـ: فهرس الفهارس 735:2.

(2) الحزب: مجموع أذكار وأدعية وتوجهات وضعت للذكر: مرآة المحاسن، ص: 139.

(3) محمد بن أحمد ميارة، فقيه مشارك، له شرح على المرشد المعين، توفي سنة 1072هـ: اقتفاء الأثر، ص: 114. شجرة النور الزكية 447:1. الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين 371:2.

(4) محمد بن أبي القاسم بن سودة المري، قاضي الجماعة بفاس، له تقاييد وتقارير في فنون من العلم، مولده سنة 1003هـ، ووفاته سنة 1076 هـ: التقاط الدرر، ص: 166. شجرة النور الزكية 449:1.

وعلمُ ابن عباسٍ وزهدُ ابن أدهـــم[3] وحِلم ابن حربٍ في فــصاحة ثوبــةِ
إلى غير هذا من خــصالٍ تجمعَــتْ لـــهُ لم تكـــنْ إلا لـــنفسٍ كريمـــةِ
جزاهُ الذي اســترعاهُ بحكمــهِ بمــا يؤملـــهُ عـــن عدلـــهِ في الرعيـــةِ
وأبنـــاؤهُ أبنـــاءُ صـــدقٍ أجلـــة وأكـــبرهُم أوْلاهـــمْ بالمَزيـــةِ
عليـــهِ ســـلامٌ دائمـــا وعلـــيهمُ يدومانِ مـــا ناحـــتْ حمـامٌ بأيكـــةِ
ومن بعدهِ شيخي الذي طارَ ذكـــرهُ بأجنحَـــةِ المُـــداحِ في كـــل بلـــدةِ
مفيـــدُ العلـــومِ جـــامع لـــشتاتِها محققُهـــا مِزْوارُهـــا[4] في الحقيقـــة
رئيسُ علـــومِ العقـــلِ طـــرا كأنـــهُ تجسدَ شخصا مـــن ذكـــاءٍ وفطنـــةِ
لجمْعِ خصالِ الحمدِ قد زِيدَ في اسمـــهِ علامةُ جمـــعِ بعـــدَ حمـــدٍ لنكتـــةِ[5]
فأكرمْ بـــه مـــن عـــالمٍ أي عـــالِمِ سمَا رتبةً فـــوق الـــسما[6] أي رتبـــةِ
لهُ حالةٌ لم يرْضَ ذو العقـــلِ غيرهـــا وديـــنٌ مـــتينٌ لم يُـــدَنس بريبـــةِ
إلى رقةٍ في القلبِ من خـــوفِ ربـــهِ وإن شئتَ فانظرْ حالهُ عند خُطبـــةِ
فـــتعلمُ قطعـــا أن ذاك إشـــارةٌ منَ القلبِ قبلَ اليومِ كامِنِ خـــشيةِ
ومنْ بعدهِ الشيخُ ابن جَلال[7] الذي غدَا في سمـــاءِ المجْـــد تـــاجَ الأهلـــةِ

---

(1) سحبان بن وائل بن معن، من خطباء العرب وبلغائها: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص: 497.

(2) حاتم بن عبد الله الطائي، مضرب المثل في الجود: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص: 219.

(3) إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد، أبو إسحاق العجلي الواعظ، أخباره مشهورة في مبتدإ زهده، وطريقه مشهورة: الرسالة القشيرية، ص: 391. فوات الوفيات 1:13.

(4) مزوارها: كل شيء كان صلاحا لشيء وعصمة فهو زوار وزيار: لسان العرب: زير.

(5) يقصد الشيخ حمدون؛ أحمد بن محمد بن موسى الأبار الفاسي، الفقيه المشارك، له فتاوي وحاشية على المختصر، توفي سنة 1071 هـ: اقتفـاء الأثر، ص: 113. شجرة النور الزكية 1:447.

(6) في ط: السها.

(7) أحمد بن عبد الرحمن ابن جلال، التلمساني الأصل الفاسي الدار والمولد، عارف بالنحو والفقه، أخذ عن عمه عبد الرحمن وأبي حامد الفاسي، توفي سنة 1079هـ: التقط الدرر، ص: 174. الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين 2:357.

سُلالةُ أهلِ الفــضلِ والــدين وارثٌ　　مقــامهِمْ في كـــل علــمٍ وحكمَــةِ
فمنذُ الصبا قدْ سادَ بالعلمِ والحِجــى　　ومـــا زالَ ينمـــو في وقــارٍ وهيبَــةِ
إلى أن غدا وهْــو المــبرزُ وحــدَهُ　　فمن كل علمٍ نــال أكــبرَ حــصةِ
لهُ همةٌ من دونهــا النــسرُ خاضِــع　　فلا زال في جــاه حــصين وعــزة
وخيرُ ســلامي دائمًــا لا يــشوبهُ　　على حالــةٍ نقــصٍ وأزكــى تحيــةِ
على منْ غدا في الغربِ فردا وما لهُ　　شبيهٌ فنعمَ الحَبْــر مــن خــيرِ أمــةِ
حليفُ كتابِ اللهِ مُحيــي رسُــومهِ　　به المجدُ أضحى آهِلا بعــدَ وحــشةِ
إمَامي وشيخي بلْ وشيخُ جميعِ مــن　　لهُ خبرةٌ بالــذكرِ في كــل حــضْرةِ
وأستاذُ أهلِ الغربِ طــرا فكلــهم　　أقَــرَّ لهــذا الــشيخ بالأفــضليةِ
فعنــه وإلا عـــن تلاميــذه رووا　　فــصاروا لــهُ طــرا ذووا تبعيــةِ
وذاكَ أبو زيدٍ[1] بــن شــيخِ زمانِــهِ　　فريدُ بني القاضي[2] الهــداةِ الأجلــةِ
ولا عتْبَ في تأخيرِهِ عن جميــعِ مــن　　تقــدمَ لي في ذاك أعظـــمُ أُســـوَةِ
وحسبكَ خيرُ الرسْلِ فهْــوَ مقــدمٌ　　على كلهِم وهْــو الأخــيرُ ببعثــةِ
ومِن بعد ذا الأصحابُ والكل باسمهِ　　أشيرُ إلى بعــضِ الأسَــامي بخِفيَــةِ
أُقَــدمُ أبنــاءَ الــشيوخِ مكــررًا　　لهم بعدهم أهــلَ الــصفا والأخــوةِ
ونخبــةَ أهــلِ البيــتِ لازالَ حبــهُ　　بقلبي ومن يَنْمــى لأهــلِ الطريقــةِ
أُخي أحمدٌ من بعــدِهِ العربيــون اس　　تَووا والمحمــدون في كــل حومــةِ

(1) أبو زيد عبد الرحمن بن أبي القاسم، ابن القاضي، المكناسي، شيخ الجماعة في الإقراء بوقته، له تآليف في فن القراءات، توفي عام 1082هـ: التقاط الدرر، ص: 188. الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين 2:369.

(2) بنو القاضي: أسرة من مكناس بأرض المغرب، اشتهر كثير من أفرادها بالعلم والفقه، ومنهم: قاسم بن محمد ابن القاضي (ت 1022هـ)، و أحمد بن محمد ابن القاضي (ت 1025هـ)، ومحمد بن قام ابن القاضت (ت 1040هـ): أنظر: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين 2:369.

وليسَ لضيقِ النظمِ آثرتُ جمعكُم ... فإنكم أهلُ العقولِ الذكيةِ

موازينكُم في النقدِ كاللحظ خِفةً ... وأحلامكُم مثلَ الجبالِ الرزينةِ

ولو شِئت اسْمي قلتُ فعلَلةٌ فعْل ... فعالة فاعلانِ من أي صيغةِ

ولكنني أجملتُ قصدًا ومثلكمْ ... يبينُ لهُ التفصيلُ من كل جملةِ

ولي غرضٌ فيهِ سيعلمهُ الذي ... غَنى بالمعاني دونَ سَوْق الأدلةِ

وأهدِي سلاما طيباً نشرهُ إلى ... أخِي وخليلي في رخاءِ وشدةِ

مُؤَنسُني عبدُ السلام[1] وبعدهُ ... إلى كل من يُدلي له بأبوةِ

خصوصا أباه[2] الفاضلُ الماجدُ الذي ... أياديهِ لم تمنُن وإن هي جلّتِ

وكل الذي يُدلي له بأخوة ... صغيرًا كبيرًا كان أو بنُوةِ

ومن بعدِ هذا كل من كان ثاويا ... بمَخفيةِ أهلِ النفوس الأبيةِ

خصوصا بني الفاسِي[3] جميعا فإنهم ... عمادي وذُخري في مقامي ورحلتي

ومن بعدِ ذا أزكى رفيقِ وخيرِ من ... يقومُ بخيرِ الود في كل وجهةِ

أخي العربيُ الفاضلُ ابن محبنا ... سليمان حياهُ الإله برحمةِ

وأهدِي سلاما طابَ نشرا مُخصصا ... بهِ بعض من قدمتهُ في قصيدتي

من أصحَابنا أعْني العدولَ مكررا ... وللعبدِ في تكريرهِ بعضُ شهوةِ

أخي العربيُ وابنهُ وسميهُ ... وأترابُهُ والمنتَمي لجَزولةِ

خذوها إليكمْ وانظروها بعينِ من ... لهُ غرضٌ في كاتبِ دونَ كتبةِ

---

(1) أبو محمد عبد السلام بن العربي الفاسي، توفي سنة 1095هـ: شجرة النور الزكية 1:456.

(2) أبو حامد محمد العربي الفاسي،العالم المشارك، له مرآة المحاسن شرح دلائل الخيرات وغير ذلك، توفي سنة 1052هـ: التقاط الدرر، ص: 144. شجرة النور الزكية 1:437.

(3) عن هذه الأسرة أنظر: مرآة المحاسن، ص: 30. كما تصدى للتعريف بأعلام هذه الأسرة السلطان مولاي سليمان في كتابه: عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي ابن الجد.

فإنكمُ إن تنظروها كذاكَ لا … محالةَ تستحِلوا جميعًا بديهَتي

وكل محب صادقِ سيقولُ إن … رآها أجادَ النظمَ دون رويةٍ

على أنها ريانةٌ بدائع … مُحَكَمة معْ أنها بنتُ مُشية(1)

فإنْ لم تكن أرضتكُم لركاكَة … بها فاسْمحوا إني كتبتُ بعجلةٍ

وعذرًا ففي يومِ الرحيلِ كتبتها … ولو كان في يوم الإقامةِ أرضتِ

وفي حالةٍ ينسى الخليلُ خليلهُ … بها لهمومٍ قد ألمتْ عظيمةِ

سَأخبركم عنها إذا ما لقيتكمْ … ففيها لمنْ لم يلقها أي عبرةِ

وأما الذي مِثلي يشاهِدُها فمِن … مقاساتِها في غمرةٍ إثر غمرةِ

وليس يُجيد النثرَ فيها أخو النهى … فكيف بنظمٍ في معانٍ عويصةِ

ولكن لطفَ الله يغمرُ كل ما … لقيتُ فلولا اللطفُ مِت بغمةِ

وفي ذاك أسرارٌ وحسنُ صنائع … سيعلمها أهلُ العقولِ الزكية

وليس الذي قدمتُ في النظمِ ذكره … ثناءً على نظمي الركيكِ بجودةِ

فإن ثناءَ المرءِ يوما سفاهةٌ … على نظمِهِ إحدى الأمورِ السفيهةِ

على أنكم تدرونَ من قبلُ أنني … لذو قدرةٍ في نظمهِ أي قدرةِ

ولو كان باعِي في العلوم جميعِها … كعلمِ القريضِ كان باعي كوثبَةِ

فلا تعجَبوا من طولها فودادكُمْ … على قلمي يُملي لها دون فَتْرة

ولو أنني طاوعْتُها لتسلسلتْ … فدامتْ وما كانت إلى الآن تمتِ

ومن بعد ما أتممتُ كَتْبي إليكمُ … أتى نبأٌ عنهُ المسامعُ صُمتِ

فأذهلَ فكري عن جميعِ أمورهِ … وأيقظَ ساهي الحزنِ من أي نومَة

(1) في ط: مثبت.

وأوْقَــدَ نيرانًــا بَطِــي خُمودُهــا　　بقلــبٍ ولم تخمُــدْ بــسائلِ دمعــةِ
بأن شــقيقَ الــروحِ غايَــةَ أنــسهِ　　أخِي وسَمِي القلبِ في كــلِ طَجــةِ
مُوافِقُني في كــلِ حــالٍ ومــؤثِري　　على نفــسهِ في كــلِ خــيرٍ ولــذةِ
حبيبي خليلي لا خليــلَ ســواهُ لي　　يدانيــــهِ في أخلاقــــهِ المُــــستقيمةِ
ســـخاءٌ وصـــبرٌ جـــودةٌ وفُتـــوة　　تَوَقُّــدُ ذهنًــا في صــفاءِ الطويــةِ
وعــــزةُ نفــسٍ لا تــرومُ دنــاءةً　　وغايــةُ صــبرٍ واحتمــالٍ وعفــةِ
مُحمد المحمــودُ نجــلُ أبي الــشتا[1]　　عليهِ مــن الــرحمنِ ســابغُ رحمَــةِ
قد اختلــستْهُ عنــدما تَــم بــدرُهُ　　كمــالا وغالتْــهُ أكُــفُ المَنيــةِ
فوَاللهِ لا عزيــتُ في فقــدهِ امــرأ　　سِوايَ ومن أوْلى بذا غــير مهجَــةِ؟
لقد طــالَ مــا حذرتُــهُ ونــصحتُهُ　　وقلتُ له احذرْ من ركوبِ الــسفينةِ
ولكنهُ مـــن حبـــهِ الخـــيرَ مـــسرعا　　لنيــلِ المُــنى لم يهتبــلْ بنــصيحَةِ
فجرتْهُ قصدًا للردى غــيرَ هائِــب　　سَلاسِــلُ أقــدارٍ تقــودُ بزمــةِ
تجاوزَ أرضَ الرومِ حتى أتــتْ بــهِ　　منيتُــهُ أقــصى الــبلادِ البعيــدَةِ
فذاقَ بها كــأسَ الحِمــام وخلفــتْ　　رهينًــا بقُــسطنْطينةَ خــير طينــةِ
وكان كثيرًا مــا يكــررُ ذكرهَــا　　فصارَ بها المَلحــودَ في بطــنِ تُربــةِ
رعَى اللهُ من بالرومِ أضحى مُجــدلا　　ونشأتُهُ في الغــربِ أفــضَلُ نــشْأةِ
وليــتَ المنايَــا أخرتْــهُ بحُكمهــا　　على ما تشاءُ مــن فــداءِ رَشْــوَةِ
ولــو أنــني آليــتُ لا ذاقَ بعــدهُ　　لذيذَ الكرى جفْنــي لَبَــرَّتْ أَلِيَّــةِ
لقد طابَ حَيــا ذكــرهُ في بــلادِهِ　　كما فاحَ شرقا عَرفُــهُ بعــد ميْتــةِ

(1) الإشارة هنا إلى محمد بن أبي الشتاء المنقوشي الفاسي، الأديب الرحالة، الذي مات بمدينة أسطنبول: التقاط الدرر، ص: 154.

هَنيئا لهُ خيرَ الشهادةِ حازهـا ... على بغتةٍ بالطعنِ في أرضِ غربـةِ
بخيرِ ثُغورِ المسلمينَ رباطُـهُ ... بإثرِ ركوبِ البحْرِ في خيرِ وجهـةِ
وآثرَ عنه الناسُ فيه كرامـةً ... فصارَ مزارًا قبرُهُ في المدينَـةِ
ملائكَـةُ الرحمنِ عنـهُ نيابـةً ... يحجونَ قطعـا كلَ عـامٍ بحجـةِ
إلى اللهِ والمختارِ كان مُهاجرا ... فأدركَهُ موت على حالِ هجـرةِ
فكان بلا شَك على اللهِ أجـرُهُ ... فأكرِمْ بذا موتٍ وأكرمْ بهجـرةِ
سأبكيكَ يا خيرَ الأحبةِ ما بَكى ... مُحب حبيبًا بالدموعِ الغزيـرةِ
وأبكِي دما بعد الدموعِ وبعدها ... تسيلُ عليكم يا خَليلي مهجَـةِ
محمـدُ لا واللهِ ما كنتُ ناسيا ... لعهدكَ ما دامتْ حياتِي بجثـةِ
محمدُ من للعلمِ بعدك ناشرًا ... فوائدَه في الناسِ من دون هُجنـةِ؟
محمدُ من للجودِ بعدكَ قد عفا ... وقد كنتَ بسطَ الكف جَم العطيةِ؟
محمدُ من للعِلمِ[1] بعدكَ إن أسا ... عليكَ مسيءٌ لم تؤاخِذ بزلـةِ؟
محمدُ من للدرسِ إن باتَ أهلُـهُ ... لهم نظرٌ في صفحةٍ بعدَ صفْحةِ؟
ومن لصحيحِ النقْلِ إن ضَل أهلُـهُ ... يديرونَ في أمرٍ طويلِ الخُصومة؟
محمدُ من يَلقى الأحبةَ ضاحِكا ... سواكَ بلا عبسٍ مُنيرِ الأسـرةِ؟
محمدُ من للبحثِ يلقيه تارةً ... ويُلقي عليهِ من فنونٍ عويصَةِ؟
تجيدُ سؤالا إن سألتَ كذاك إن ... أجبتَ بعقلٍ أو نصوصٍ صحيحةِ
محمدُ ماذا انتقي من مدائِحي ... لعلياكَ؟ أنتَ البدرُ من فوق مِدحـةِ
سأهْدى لكم طيبَ الثناءِ وأصطفي ... لكم من دُعائي دعوةً إثرَ دعـوةِ

(1) في ط: للحلم.

عليك[1] سلامُ الله مني ورحْمَة من الله تَتْرى في فراديسِ جنةِ
ومغفرةٌ سحاء تَمْمي سِجالها على جدث[2] بالروم أضحى بحُفرةِ
وشفّع فيك المُصطفى وكتابُهُ ولقّاكَ أمنا بانَ في كل روعَةِ
ورقاكَ في الفردوسِ أعلى مَكانة مع العلماءِ العاملينَ الأئمَةِ
وأدعو لهُ ما دمتُ حيا ولم أكن لأنساهُ في حجي ولا إثرَ عُمرةِ
ولا عندَ قبرِ المُصطفى وصَحابهِ ولا إثْرَ ختمِ الذكرِ في كل خَتْمةِ

ومن ذلك ما كتبته إلى الأخ الصالح، والمحب الناصح، الفقيه الأديب، الوجيه الأريب، سيدي أبي عمرو عثمان بن علي[3]، ضمنته فنونا من المخاطبات، والمداعبات والمعاتبات، نظما ونثرا ووشحته بمواعظ تلين لها القلوب القاسية، وزواجر تتذكر بها العقول الناسية، وأمثال غريبة، وحكم عجيبة. أولها بعد الثناء على العلي الأعلى سبحانه، والصلاة والسلام على خير من نصح وأدى الأمانة، سيدنا محمد وصحبه وآله، وكل محب متعلق بأذياله. من العبد الفقير إلى الله تعالى، المتمسك بأذيال أهل الله حالا ومآلا، أبي سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر، أصلح الله قلبه وغفر ذنبه. إلى من ألفته وألفني، ولم يجفني منذ عرفني، الحسن الأخلاق مع لوثة[4] أعرابيته، الصافي المودة في سره وعلانيته، سيدي عثمان بن علي. ما زالت محاسنه على ألسنة مادحيه تتلى، وعلى آذانهم تملى. السلام عليك أيها الأخ ورحمة الله وبركاته، ورضوانه وتحياته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

أما بعد، فنحن، والحمد لله، في أودية نعم الله نتقلب، وللمزيد منه مع الأنفاس نتطلب، قد صيرنا الهموم كلها هما واحدا، وأعرضنا عما كان عن مقصودنا زائدا، نقطع المجاهل، ونرد المناهل، وننعطف مع منعرج اللوى حيثما

---

(1) في ط: عليكم.
(2) في ط: جمدد.
(3) عثمان بن علي اليوسي، من تلاميذ العياشي، له إجازة منه، توفي سنة هـ1084: التقاط الدرر، ص: 169.
(4) اللوثة: القوة والشدة: لسان العرب: لوث.

النوى، ونسلك بين كثبان الرمل في مثل خط النمل، ونتبع آثار الرواحل ولا نعد المراحل، وطبنا بذلك نفسا و لم نرفع لما سواه رأسا:

[طويل]

على مثلِ ذا فليبْكِ من ضاعَ عمــرُهُ ... وليسَ له فيــهِ نــصيبٌ ولا ســهمُ

وحُق عليه النوْحُ إذ ضــاعَ ســعيُهُ ... وليسَ له اسمٌ في المعالِي ولا رَسْــمُ

إذا رامهـــا صَــدته عنـــها رِياســة ... كفعلِ الذي من أجلهِ كُتِب الرسْــمُ

هذا و لم نزل في طريقنا نتذكر رجوعكم من الطريق، وعدولكم مع ذلك الفريق، فنتأسف على ذلك غاية، ونراه على تمكنكم في الرياسة أكبر[1] آية، وما كان أحوجكم إلى اللحاق بنا والسير معنا لو كتب، ولو لحقت بنا لقدناك قسرا، وسننا[2] لك التوجيهات رطبا وبُسرا، وسقناك إلى الجنة بالسلاسل، ولخضنا بك مضايق يذهب فيها الشهم الباسل، و لم نزل إذا رأينا شيئا يستملح أو يستظرف نقول كلنا: ليت فلانا كان معنا، وليت شعري ما الذي استبدل بعِثرتنا، وعوض من عشرتنا، أثلاثا أم ثلاثة ؟ أم أورثك ذلك وجاهة فبيست الوراثة، فإن كان رجوعك شفقة على من خلفت وشوقا إلى من ألفت، فبيس ما ظننت بربك، وإن كان خوفا مما تلقى أمامك فبئس ما ظننت بربك. أتتوهم أن نأكل ونشرب وتجوع وتظما؟ أو نستظل وتضحى؟ أو نركب وتمشي على رجليك؟ كلا، لو كنت معنا لجعلناك كما هو المعهود واحدا منا، بل ربما قدمناك على أنفسنا شفقة ومحبة، ولانتفعت دنيا وأخرى، وكان الفوز بهما أحرى، وما أظن أن عزمك تقوى، وإلا ما أثر فيه كلام ذلك النذل الذي كلفت بمحبته والشفقة عليه منذ أزمان. فقد جازاك ابن عمك على ما كنت توافقه عليه مما هو مخالف لرضى المولى، فساق لك الله على يديه ما يناسب ما كان ساق له على يديك. ولو كنت ممن يتأسف على ما فاته من الخير لمقته أشد المقت وجفوته[3] كل الجفا، ولكنت تنظر إليه نظر الموتور إلى ذي ثأره، والمكوي إلى موقد ناره، ولكنك عن هذا كله من الغافلين. وكأني بك تقول: لو رأيت أمورا قمت بها بعدك، ومنافع وفيت

(1) في ط: أعظم.
(2) في ط: سنا.
(3) في ط: لجفوته.

فيها[1] عهدك، لحمدت رجوعي. فأقول: كلا، فإن الثقة بالله والاعتماد عليه، لو جئت لحصل لك من الخير ما لا تكيفه، ولقيض الله لتلك المنافع من يقوم بها كن لم يرد أن يكون ذلك إلا كذلك. ومع هذا كله إن قمت بواحدة فلا بأس، وهي عمارة الخربيش، ولو بنفض الريش، وكثرة الكشيش[2]، لئَلا يفقد ما كان يعهده قبل ذلك، وعلى كل حال:

[طويل]

فحقكَ إنشادُ مَدى الـدهرِ نادمـا ... لبيتٍ صحيحٍ[3] قد روتـهُ الأوائـلُ

وما كان بيني لـو لقيتـكَ سـالما ... وبـين الغِـنى إلا ليـالٍ قلائـلُ[4]

ولو كنتَ قـد أحببْتنـا لاتبعتَنـا ... وودعْتَ لكـنْ للمحـبِ دلائِـلُ

ومما يوقد نار أشجانكم، ويثير رياح أحزانكم، ويكثر تأسفكم بـه علـى مرافقتنا، وتلهفكم على عدم موافقتنا، وتقول (يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلانا خليلا)[5]، ما أنعم الله به علينا من المشي في ركب قل ما يتيسر مثله قوة وكثرة ونجدة، خال من الأوباش، وكثرة من يغـدو في لاش، لا تكاد تسمع فيه صوت مخاصمة ولا منازعة، ولا ترى حينك فيه مراجعـة. قـد اشتمل على أهل البيوتات من الناس وذوي المروءة وأهل الحفاظ من تجار وفقهاء ورؤساء العشائر. وفي الركب نحو من عشر مؤذنين، فإذا كان الثلث الأخير مـن الليل ارتج الركب[6] بأصوات المؤذنين وقراءة القرآن. فلا شغل لنا إلا مدارسـة القرآن ومذاكرة الإخوان في علم الأديان. نختم كل ليلة ختمة من القرآن العظيم في خبائنا دون الحزب الراتب. وقد شفاني الله في هذه الطريق المباركة من جميع ما كان بي قبل ذلك من الأمراض الظاهرة والباطنة، وأعني بالباطنة الحسية، ولا نيأس من فضل الله في المعنوية، وقد أنعم الله علينا بنعم سوى ذلك لا تحصى، وأيادي لا تستقصى، فله المنة والطول، ونساله المزيد.

(1) في ط: بها.
(2) الكشيش: الصياح؛ وكشت البقرة: صاحت: لسان العرب: كشش.
(3) في ط: قديم.
(4) البيت للحطيئة: العقد الفريد 1:258.
(5) الفرقان: 27.
(6) ساقط من ط.

وقد حضرني حين الكتب أبيات، فلا بأس أن أداعبكم بها لعلمي بأنكم تحبون ذلك، ولا غنى لكم إن كتبتم أن تنتخبوا أبياتا، فأردت أن أؤسس[1] لكم ما تبنون عليه، وهي هذه:

[وافر]

خَليلـيَّ هـل تأَلَّـتِ الـدروسُ ... وعطلَـتِ المحـابرِ والطـروسُ

وهل نَادى منـادي العلـمِ بـوس ... وفَرِخَ إذ وهـتْ منـه الأسـوسُ؟

فأصـبحَ بعـد عزتـه ذلـيلا ... وبعـد نـضارة يعلـوه بـوس[2]

وهل غابـتْ سـعودُ بـني أبيـه؟ ... لـذا طلعَـتْ لِجانبـه نُحـوسُ

وهل جَمحتْ عن الميـدانِ جُـرد[3] ... عتاقٌ مـا لهـا قـرمٌ[4] يـسوسُ؟

أَجُـبنٌ قـد عـرَاهمْ أم تَـراهم ... يَخافوا النبـلَ أم غـابَ الـرئيسُ؟

ولستُ رئيـسَهُم ولكـن نفْـسي ... خلالَ مقانـب[5] الهَيْجـا تجُـوسُ

ألا فاسْـتلئِموا قومُـوا ودومُـوا ... فليس لمـثلكُمْ يُرضـى الجلـوسُ

بحقكُـمُ إذا عطلتُموهَـا ... بمـاذا يفـرحُ العبـدُ البئـيسُ؟

فـإن يـكُ هكـذا فـأبو سـعيد ... قـد أمَتْـهُ القبيلـةُ والعَـروسُ

فيقـضِي ليلَـهُ معهـا ويمـضِي ... نهـارًا معهـم بـيسَ الجلـيسُ

وعـارٌ يـا أبـا عمـروٍ فِـرار ... لِمـثلكم إذا حَمِـيَ الـوطيسُ

فـآهٍ مـنْ زمـان قـد تَقـضى ... بقلبـي لا يـزالُ لـهُ رسِـيسُ[6]

(1) في ط: أسيس.
(2) هذا البيت متقدم على سابقه في ط.
(3) الجُرد: جمع الأجرد، وهو الفرس القصير الشعر؛ وذلك من علامات العتق والكرم: لسان العرب: جرد.
(4) القرم: القرم من الرجال: السيد المعظم. لسان العرب: قرم.
(5) المقانب: المقنب من الخيل: ما بين الثلاثين والأربعين: لسان العرب: قنب.
(6) الرسيس: رس الهوى في قلبه: دخل وثبت: لسان العرب: رسس.

وهفِــيَ مـــن ربـــوعٍ دارِســـات بُعيْــد الأُنــسِ لــيس بهـا أنــيسُ

فإن عِشنا فــسوْف تطيــبُ فيهــا لنــا ولكــمْ بمـا نَرجــو نفــوسُ

نقــيمُ بهــا لأهــلِ العلــم سُــوقا تَروجُ بها[1] اليواقِــتُ والفلــوس[2]

وإن متنــا فــذلكَ وعــدُ صِــدق وعنــدَ الله يحتــسَبُ النفــيسُ

ومما أنعم الله به علي أن أعطاني من القدرة على المشي ما لم أكن أعهد من نفسي بعضه، وقد كنت تعلم حالي إن سرت إلى تزرفت[3]، فصرت اليوم أسير مرحلة كاملة، وأما نصفها أو أزيد أو أقل فكثير، ولا أشك[4] أنك لو جئت لكنت تمشي أكثر مني.

(نصيحة)[5]:

وزبدة الخبر ما قال صاحب الحِكم: "من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره"[6]. والله الله يا أخي في إصلاح نفسك، والزيادة على أمسك، وإعداد الزاد ليوم رمسك، ولا تركن إلى شيء دون الله ولا تتهمه فيما وعدك، ولا تستهن به فيما أوعدك، واتهم رأيك، واستعص سعيك. ولا يغرنك انتشار الصيت وارتفاع الجاه الدنيوي، فإن الرجل ليملأ صيته ما بين المشرق و المغرب[7] ولا يزن عند الله جناح بعوضة. ولا تمل إلى ما يجري على يديك من أمور هي في بادئ الرأي صالحات ومن الأشياء المهمات التي فيها صلاح الخلق، وهب أنها كذلك، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر[8].

(1) في ط: به.
(2) الفلوس: جمع فِلْس: عملة.
(3) في ط: ترفت. وقد جمعت تزرفت بين قبائل شتى، أنظر: اقتفاء الأثر، ص: 28، هـ: 5.
(4) في ط: شك.
(5) زيادة من ط.
(6) الحكم، ص: 124.
(7) في ط: المغرب والمشرق.
(8) إشارة إلى الحديث النبوي الشريف: إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر: صحيح البخاري 3:1114. صحيح مسلم 1:105.

وإياك والاهتمام بالرزق، والخوف من الخلق، فإنهما أصل كل وهن في الدين، وضعف في اليقين. فإن الأول يوجب الشك في المقدور، وفتور في النفس، وكل زائد في المعاش وتعب في لاش. والثاني يثبط عن كثير من الخيرات، ويحمل على قبيح المداهنات، ويستعجل به المرء هما لا ينقضي، إلى غير ذلك من المفاسد، والاعتماد على الله كاف عنهما وناف عنك معرهما، مع التبرئ من الحول والقوة. وكن أعمى وأصم عن الأمور المستقبلة، وإنما لكذلك، واجعل زمامك بيد الشرع المحمدي الواضح، فأينما قادك فانقد فإنك لا تلقى إلا الخير. ولا تظن أن أمرا أذن الشرع في فعله إيجابا يقع منه مضرة، ولا أن أمرا نهى عنه، ولو كراهة، يجلب خيرا، وما بينهما محتاج إلى بصيرة نافذة، ومن لم تكن له فالسلامة في الترك والإقلال. وهذه عجالة كتبتها وأنا متقدم أمام الركب، ولو اتسع الوقت لزدت، وفيها إن شاء الله كفاية. وعندك مما كتبناه أمثال ذلك وأفضل منه، إلا أن (هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا)[1]. والخير منتظر بأحد النظر، فقد جاء الفرح وزال الترح، وظهرت البشارات على ألسنة أهل الإشارات، وقم بالحق في نادي الصدق، ونادي في النوادي، لا بلسان قالبك ورمز حالك: يا أهل الهمم، وحمالة الذمم، إياكم والعجلة، فإنما حجلة، وتثبتوا، وعلى المنهج اثبتوا، ليقضي الله أمرا كان مفعولا، ويخمد حربا كان مشعولا. وكن ابن وقتك، وخف من مقتك، واسبل الستر واكتم السر، وهلل وكبر، ولا تدبر، فإنه لا يحب ذلك منك، ولا يرضى به عنك، وهذا كله كلام لا يفهم، وليست له حقيقة فيستفهم، فلا تتعب نفسك في فهمه، ولا تشتغل بمدحه ولا ذمه.

ولا تنسانا من صالح دعواتك في أدبار صلواتك، خصوصا أوقات الخلوات، والخروج إلى الفلوات. سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم كثيرا دائما.

ومما كتبه إلي الأخ الصالح سيدي عثمان جوابا عن هذا الكتاب هذا النظم العجيب، المفتتح بما قبله من النثر الغريب، الدال على أنه أصدق محب وأخلص حبيب، ونصه: من أحببته حقة، واتخذته ثقة، وصيرته سميري، وجعلته أميري، لم يمله قط خاطري، ولا كل عنه ناظري، إن أمر ائتمر الفؤاد، وإن زجر انزجر

---

(1) المزمل: 19.

المنقاد، أبو سالم الأمجد، سيدي عبد الله بن محمد، الذي كنت له أطوع من نعله، وأتبع من ظله، ولا غرو إذ كان لي خير نديم، وألف بيني وبينه من لـــه الحكـــم القديم، فكنا نتعاطى كؤوس خمر الوداد، ويحصل للقلوب من ذلك انتشاء خـــرج عن المعتاد واستمرت هذه الصبوة، ولم تعقبها سلوة، إلى أن رحل عني وبان مني، ثم كتب من بعيد، بعد أن هم أن لا يكتب لأبي سعيد، ولو فعل مـــا هـــم بـــه لأنشدت بسببه:

[طويل]

أبا سالمٍ أنـــتَ المُحَـــب إلى قلبـــي		وإن كنتُ دهري منْ عِتابكَ في حربِ

أتعرضُ حتى بالخيالِ لدى الكـرَى؟		وتبخلُ حتى بالسلامِ مع الركـــبِ؟

لكنه شرفني بخطابه، ونوه باسمي في كتابه، فقلت وقد قبَّلته بعدما تصفحته:

[بسيط]

نفْسي وأهلِي فدًى لخـــيرِ مكتُـــوب		جاءَ الرسولُ بهِ من عنـــدِ محبُـــوبِ

مبشرًا بضياءِ الوصْلِ بعـــد دُجـــى		هَجري وكلي لهُ هَـــش لِترحيـــبِ

يا ما أُحَيسن ذاك اللفـــظ آنَـــسَني		ومـــا أُميلحَـــهُ أَحـــدثَ تطريـــبِ

فاقَ الشقيقَ كما مُهديه عنْدي وقد		فاقَ الـــشقيقَ وذا الأذْنَ وتقْريـــبِ

نزهـــتُ طـــرْفيَ في روضِ محاســـنهِ		فجادَ شوقا بـــدمعٍ منـــهُ مـــصبُوبِ

وعـــادَ فكـــرِيَ مـــسلوبًا بفكرتـــهِ		وكانَ قبلُ صحيحا غـــيرَ مـــسْلوبِ

يحسبُني الغمْرُ[1] إن يعجمْ أخا سَـقم		كـــلا فلـــستُ بـــهِ ولا بمطبُـــوبِ

وإنما كنتُ ذا نعمـــاءِ وصـــلِ ومـــا		أَلِفتُ بؤْسَ الجفا وبُعـــد مـــصحوبِ

وخلتُ نفسيَ من أهلِ النـــهُوضِ إلى		تصْدِير ثم بدا في الوقـــتِ تـــذْنيبِ

وبعثُ البيْنَ مـــن خِلـــي فَعـــذبني		آلامُـــهُ في حَـــشاي أي تعـــذيبِ

---

(1) الغمر: صبي غَمْر: لم يجرب الأمور: لسان العرب: غمر.

أحسَستُ من جسدِي إذ ذاك بعد ضَنى | يا أيها الغمرُ مِز[1] وامْضِ لتجريبِ
يا سيدًا فارقَ الأوطانَ مُبتعدا | صَيرْتَ نازلها يُدعى بمكروب
خلفتَ عَبدا حليفَ الشجو قِرْن أسى | يا ليتَني معكم قَرعتُ ظُنبوبي[2]
أقسمتُ بالود لو كنتُ رفيقكمْ | لزالَ كَربي وذاك عين مطلُوبِ
عليكُم من سلامِ الله أطيبُهُ | يا ذا الذي وصلهُ فوْزٌ بمرغوبِ

وكتب إلي أيضا، أطال الله بقاءه، وأدام في مراقي المجد ارتقاءه، جوابا عن قصيدتي السينية بقصيدة بارعة، ولُمصارعها في نادي البلاغة صارعة، إن لم تكن أفضل منها فلم تقصر عنها، وقبلها أبيات تسحر الألباب، ونثر أخذ من الفصاحة باللباب، ونص ذلك:

[طويل]

أَمَنْ لسِواهُ النكرُ وهْو لهُ العُرْفُ | وعمدَتُنا من لا يسُوغُ له الحذْفُ
ضمِيريَ مبْنيٌّ على ضَم ودكُمْ | ويعْجزُ عن إعرابه النطقُ والوصفُ
وكان مدى الأزْمانِ عندي مُؤكدا | ولا بَدلٌ يعرُوهُ هل منكُمُ العطْفُ
إذا انصرفَتْ أسماءُ أهلِ ودادكُم | فعثمانُ في الأسماءِ ليسَ له صرفُ

السري[3] ابن السري، العبقري الفري[4]، جالب المسرات، وطالب المبرات، وسالب المضرات، وعائب المعرات، خير أنيس في الوحشة، وأفضل جليس عند الدهشة[5]، مفيد العلوم، ومبيد الهموم، سيدي أبو سالم، أبقاه الله والزمان له سالم. بعد السلام التام، المعرف بالألف واللام، يعم ذلك المقام، المعظم في الترحال والمقام، فإذا سألت عن عروس الدروس، واستخبرت عن المحابر والطروس[6]،

---

(1) مز: ماز الشيء ميزا: فصل بعضه عن بعض: لسان العرب: ميز.
(2) الظنبوب: مسمار يكون في جبة السنان، وقرع لذلك الأمر ظنبوبه: تهيأ له: لسان العرب:ظنب.
(3) السري: الشريف: لسان العرب: سرا.
(4) الفري: يقال فلان يفري الفري؛ إذا كان يأتي بالعجب في عمله: لسان العرب: فرا.
(5) في الأصل: الدهشة، والدهش ذهاب العقل من الفزع: لسان العرب: دهش.
(6) الطروس: جمع طرس؛ وهي الصحيفة: لسان العرب: طرس.

واستفهمت عن العلوم هل وهي معقلها، وعن شواردها[1] هل في القوم من يعقلها؟ فاسمع الجواب المنوط إن شاء الله بالصواب:

[وافر]

نَعـم شـعثَتْ بُعيـدَكمُ عـرُوس ... دَروسٌ والحـداذُ لهـا لبـوسُ
تبـدَّل زَينُهـا المعهـودُ شَـيْنا[2] ... وأعقـبَ تلكـمُ النعمـاءَ بـوسُ
طـوتْ ثـوبَ السـرورِ وجنبتْـا ... ودامَ لهـا التجنـبُ والعبـوسُ
فلـمْ تُـبح الوصـالَ لمبتغيهـا ... ولم يحصُل لعاشِـقها المسيسُ
أراودُهـا[3] لِتعطـفَ ثم عَـزّتْ ... فَذا البُؤسِي[4] من عطـف يـؤوسُ
وحُـق لهـا التمنـعُ في حِماهـا ... فلـيسَ بكفئِهـا نَـذلٌ خسيسُ
وكيف يـسُومها الأذنـابُ مِثلـي ... ومَألفُهـا مثـالكُمُ الـرؤوس
وعنـدَ إيـابكُم و[5] بحـوْلِ رَبي ... يكـونُ بهـا التمَتـعُ والجلـوسُ
ويذهبُ ما بهـا مـن بـؤسٍ بُعْـد ... وفي حُللِ الجمـالِ لكـم تمِيـسُ
وعـن حـرْبِ المحـابرِ إنْ تـسَلني ... فما في القومِ بعـدك مـنْ يـسوسُ
ولا مُـستلئِم منـا إليهَـا ... وقد وُضِـع الـصوارمُ والتـروسُ
فكـمْ رُمنـا رياضَـةَ خيـلِ درس ... فمـا مـن خيلِنـا إلا شُـموسُ
وكـم قُـدنا لهـا أجنـادَ فكْـر ... فما انقـادتْ لنـا وأبَـتْ نفـوسُ
وكـم ناديـتُ يـالَ أوْس ذهْـني ... فقالَ: جبنْـتَ إذ غـابَ الـرئيسُ
وأُفْـقُ العِلـم أظلـمَ إذ تـوارتْ ... لهُ مـن بَعْـد شخـصكُمُ نُفـوسُ

(1) في ط: شرادها.
(2) الشين: خلاف الزين: لسان العرب: شين.
(3) في ط: أرادوها.
(4) البؤسي: البائس والمسكين: لسان العرب: باس.
(5) ساقط من ط.

ومعقِلُ درسِـنا الّـذ قـد بنيـتُم	هوتْ منهُ العـلا ووَهـتْ أسـوسُ
وذلك حـينَ جـا الإهمـالُ مِنـا	وفي يـدهِ المعـاولُ والفـؤوسُ
وعند صباحِ وجهـكَ كُـل سَـعد	يـبينُ وتنْجلـي عنـا النحُـوسُ
وتُصلحُ ما وهـى مـن أُس عِلـم	وتنـشرُ في مجالـسهِ الطـروسُ
وتلـكَ مواسِـمُ التعلـيمِ[1] حقـا	تُـدارُ لهـا برحبتنـا كـؤوسُ
وكيفَ وأنـت في ذا القُطـرِ بحْـر	ومن فَيـضانِكم يُـروى الجلـيسُ
فمـا نيـلٌ لـذاك ومـا فُـرات	وما المعزى لطنجةَ[2] ما السويس[3]؟
فتلـك ببعْـضِها مـاءٌ أجـاج	لـشاربه الكَـزازةُ[4] والعُبـوسُ
وبحـرُ ذكائِـكَ الزخـارِ فيـه	كنـوزُ العلـم والـدر النفـيسُ
وكسْبُ يمينِ حجِـرك عـينُ علـم	وغـيرُكَ عنـدهُ منـهُ الفلـوسُ
بقيـتَ بقـاء دهـركَ لا تُبـارى	أعُمـدتنا ومـنْ هـو لِـي أنـيسُ
عليـك تحيـةٌ مـا قـال صَـب	نَعـم شـعثَتْ بُعيـدكُم عَـروسُ

ومن جملة كتاب كتبه صاحبنا الأديب، الفقيه النبيه (الأريب)[5]، سيدي أبو زيد عبد الرحمن بن الحسن، وكان معنا في رفقتنا إلى الفقيه العلامة سيدي عثمان بن علي، هذه القصيدة الطائية يلومه على التخلف عنا، ويثير أشجانه على ما فاته من رفقتنا، وهي هذه:

[طويل]

(1) في ط: التعليق.
(2) طنجة: مدينة بالمغرب قديمة على شاطئ بحر الزقاق (الأبيض المتوسط): معجم البلدان: طنجة..
(3) السويس: بئر بطريق مصر على ثلاثة اميال من مدينة القلزم، ومن أعاجيبها أن معزها مرسلة في السكك... وهي سمان فائقة السمن، ومن أمثالهم: أكل لحم التيس وشرب ماء السويس مع العقل ليس: معجم البلدان: السويس.
(4) الكزازة: اليبس والانقباض: لسان العرب: كزز.
(5) زيادة من ط.

سلامٌ على الإخوانِ والصحْبِ والرهطِ يفوحُ شـذاهُ بالعنـابرِ والقُـسْط[1]

رُزِقنـا وإيـاكم سـلامةَ دِيننـا ودُنيا من الأهْوالِ والمكرِ والـسخطِ

فإنْ تسألوا عن حالِنا بَعـد بُعْـدكم فإنا بفـضلِ اللهِ في غايَـةِ البَـسْطِ

وصـحةِ جـسمٍ واغتنـامِ قـراءة بلا كلفةٍ ما بينَ صحبي ولا شَـرْطِ

تَركنا[2] الهمومَ كلها مـن وَرائنـا فلا شغْلَ غير الرفْعِ والسوْقِ والحَط

ففي مثلِ هذا الحالِ ذو الجِد غَـابط وخِدْن[3] التوَاني دائما هو في خَـبْطِ

كـسيدِنا عُثمـان أثْـنى عنانَـهُ لملويةَ[4] الأثْلاجِ والفتـكِ والقحْـطِ

فإنْ يكُ قِدما قـد أَصـابَ فإنـه بإجماعِ أهْلِ الحـق في هـذه مخْـطِ

على أنـهُ يُـدمي البَنـانَ ندامَـة لما فاتَهُ قطعـا إذا مـا رأى خَـط

فليتك لم ترجعْ وليتَ ابـنَ عمكـم أبا مالكٍ ما كانَ في ذلـك الغَـوْطِ

فإن لقـاءَ الأُسْـد غايَتُهـا القنَـا فلا[5] نفْع مِن لُقياهُ في ذلكَ الـشوْطِ

لقد عاقَكُم عـن أي كـترٍ فحقـهُ على ما جنَى الهجْرانُ والضربُ بالـسوطِ

تـشجعتُم قبـلَ اللقـاءِ وعنـدما أتاكَ أتاكَ الجُـبن كالفـأرِ والقِـط

تألَمَ كـل الـصحْبِ لمـا أتيتـهُم وأخبرتَهم عما لقيتَ مـن الـضغْطِ

وقالوا جميعا: ليتـهُ كـان واصِـلا فَيُفجا عنهُ ما يلاقـي مـن غَـطّ[6]

أَرَدكَ قولُ الإفْكِ و الـزورِ بعـدمَا عزمتَ فهذا العزمُ خالٍ من الـربْطِ

وآثرتَ مـن بَعْـد المـودةِ قُـربَهم وما جُدْتَ حتى بالكتابـةِ في خَـط

---

(1) القسط: عود يتبخر به: لسان العرب: قسط.
(2) في ط: تركت.
(3) الخدن: الصديق: لسان العرب: خدن.
(4) ملوية: الملاوي: الثنايا الملتوية التي لا تستقيم: لسان العرب: لوي.
(5) الفاء ساقطة من ط.
(6) الغط: العصر الشديد والكبس: لسان العرب: غطط.

فكمْ عالِمٍ قد ضمهُ الركـــبُ عامنـــا فكُل يُوفي الكيلَ في العلم بالقسْ طِ
أَجَلـــهم مُبـــدي العلـــوم مُفيـــدنا أبو سالم مهما تـــسَلْ فـــضْلَهُ يُعـــطِ
خُلاصةُ أبنـــاءِ الزمـــانِ جَـــوادهم فأكْرِم بهِ من عَـــالم عامـــلٍ مُعْـــطِ
فلا زالَ ذا فضلٍ عظـــيم وفيـــضهُ عميمٌ على من جاءَ للعلم يَـــسْتعطِ
ولا زالَ طوْد العلم فخمًـــا مُفخمـــا وبحرًا مُحيطا واسعَ القعْر والـــشط
وفي الركبِ أيضا عـــالمٌ ذو نباهَـــة يجيبُكَ في كـــل العلـــومِ ولا يُـــبْطِ
وذا أحمدُ يُدعى الخطيـــبُ[1] مُـــنظم له الخيرُ من كل الفضائلِ في خَـــيْطِ
به وبشيْخي قـــد سَـــلوْت أَحِـــبتي وصرتُ وإنْ شطتْ بيَ الدارُ في رهـــطِ
إذا سُـــمطَتْ دُر المعـــالِي قـــلادَةً فنلك بالإطلاقِ واســـطةُ الـــسمطِ
ولو كنتَ معهم كنتَ تِلْوهم ومـــا أراكَ وإنْ غِبـــتَ عنـــهم بمُـــنْحط
وإنـــا لنَرْجـــو الله يجمـــعُ شملَنـــا بكم عن قريبٍ في هناءٍ وفي بَـــسْط
وإني وإنْ شَطتْ[2] بيَ الدارُ عـــنكمُ بجسمي فَرُوحي عنكمْ غيرُ مُـــشْتَط

وكتب الفقيه الأجل سيدي عثمان بن علي جوابا له عن هذه القصيدة مـــا نصه:

النفر الغيرُ المنفر، ومن السير معهم للذنوب مكفر، والتخلف عنهم من جملة الهفوات، والتربص دونهم معدود من الجفوات، إخوان الود الماكـــث الخـــالص، وأخدان العهد الغير الناكث ولا الناقص، من حازوا خـــصال الكمـــال وحلـــوا بسماء[3] المجد لفضائل شتى كحلولهم بأرض نجد، سيدي أبو سالم وإخوته، وأبـــو زيد وأسرته، أمد الله الجميع بتوفيقه بالمصطفى ورفيقه:

[طويل]

(1) أحمد الخطيب المراكشي: تقدمت ترجمته.
(2) الشطاط: البعد، وشطت الدار: بعدت: لسان العرب: شطط.
(3) في ط: سماء.

مِن الهائِمِ الحَيْرانِ من ليسَ ذا ضَبْط تحيتُهُ تَتْرى علــى ذلــك الــرهْطِ
عصابةُ أُنسِ والأُلى ســكنوا الحــشا وإنْ كان كل منهم عنــهُ ذا شَــط
تَخِــذتُهمُ قِــدْما أخــلاءُ مُهْجــتي وهُم خُلصائِي في رِضَاهم وفي سُخْطِ
ألفتُهُم دونَ الجفَــا مــذْ عرَفتــهُم وهُم في بني الدنيا عِمَادي وهم قِــسْطِ
وإني مُعَظِــمٌ عظــيمَ جنــابهم وقَــدْرهم لــدَيَّ لــيسَ بمُــنحَط
أَخُص بأضعافِ التحيــةِ مــن لــهُ بقلبيَ ودٌ كَلَّ عن وصــفِهِ قَــط[1]
ذخِــيرةُ أربــابِ المحــابرِ كلــهم أبو سالمٍ لازالَ في الخــيرِ ذا بــسْطِ
منيــلُ ذَوي عَــي وســائِلَه وإنْ يرُوموا قرِيضًا فهْوَ أيضا[2] له معْــطِ
وأهْدي ثنــاءً ســاطِعا لمقــامِ مــن بقوسِ الأسى رمَى فؤادِي فلم يُخْطِ
فقيــه نبيــهٌ لــينٌ هــيْنٌ جانِــب صبورٌ حليمٌ في المعارفِ ذو ضَــبطِ
أبــو زيــدِنا دُمــتَ بنــانُ يمينــهِ تخُط طروسَ الأصْدِقا أحسَنَ الخــط
أخالُ أبــا زيــدٍ عطوفــا قُبَيْــل ذا إلى أن رمى حشْوَ الجوانحِ بالــسوْطِ
أصبْتَ أبا زيــدٍ برمْيــك مقْتَلــي وإنْ كان ذاك الرميُ منكَ على شَحْطِ
وكيفَ ومعكم أبــو حمْــزَةَ الــذي تجيءُ القوافي إن دَعاهــا ولا تَــبْطِ
عرفناكَ يا سُــوَيْد[3] منظُومــهِ وإنْ تلفعْتَ من خَط بــذالكُمُ المَــرْط[4]
وإن الذي أهدَيْتَ يا خيرَ صــاحب لقد فاقَ في حسْنٍ لآلــئِ في سِــمْطِ
أيا منْ لــهُ أُتــيح قُــربٌ ووَصْــلةٌ وخَلوا أخا الدنا وذي النأْي في خَبْطِ
وحَقكُــمْ لــيسَ المــرادُ فِــراقُكم ولا مُنيتي في ذا التخلــفِ والــشطّ

(1) القط: القطع عرضا، ومنه قط القلم كلسان العرب: قطط–، والمقصود هنا القلم عموما.
(2) في ط: قريضًا منهُ فهْوَ له معْــطِ.
(3) سويد: تصغير الترخيم من أسويد؛ وهو تصغير أسود: لسان العرب: سود.
(4) المرط: كساء من خز أو صوف أو كتان: لسان العرب: مرط.

ولوْ أن لي الخِيارُ لاخترتُ جمعكُــمْ وسَيْرتي في البيدَاءِ مع ذلك الــرهْطِ
وألزمْتُ نفسي حَرْفكم يـــا أحبتِـــي كما الحرفُ ذو الإعجامِ يلزمُ بالنقْطِ
ولكن قـــضاءَ الله للعبـــدِ غالـــب فليس لهُ إبـــرامُ عقـــدٍ ولا شـــرطِ
عليكُم أُهَيْـــلَ الـــود طُـــرا تحيـــة من الهائِمِ الحيرانِ منْ ليسَ ذا ضبطِ

ومما كتبه أيضا الأخ الصالح سيدي عثمان مخاطبا لأخينا سيدي أبي بكـــر، متشوقا إليه لما بينهما من الألفة والمحبة أبيات مفتتحة بنثر رائق، مشتمل على معنى لائق، ونصها:

من العائق عن الرفقة، الحاصل في أعظم ربقة، المبتلي بالبعاد، وإن لم يكن له من مراد، المكابد مشاق الأسف المؤدية لولا التجلد للتلـــف، المقاســـي الروعـــة والقسوة واللوعة والسلوة، أبي عمرو عثمان، رزقه الله الأمن والأمان، إلى حبيبـــه الأنجد، سيدي أبي بكر بن محمد:

[وافر]

أبـــا بَكـــرٍ أبَـــى كـــرْبي يـــزولُ وهذا الحـــزنُ بعـــدكَ فيـــهِ طـــولُ
وعيْشِيَ من ورائِـــك غـــيرُ صَـــاف ونـــوْمي خـــائني منـــه الثقيـــلُ
ولُـــيَ حـــارَ مُـــذ راحَ المطايـــا بشخـــصِكم وبالجـــسْمِ الـــذبولُ
رحلتَ وذا رحيلكَ كـــان حِـــسا ومعنًـــى في حـــشَاي لـــهُ الـــنزولُ
ومِن عَجـــب مقامُـــك في فُـــؤادي ومَـــعْ هـــذا فعنـــكَ أنـــا سَـــؤولُ
حُبستُ وكـــان حظكـــمُ انطلاقـــا كأنـــك مالـــكٌ وأنـــا عَقيـــلُ
أبـــا بكـــرٍ أبي القـــدَرُ انتِظـــامي بـــسلكِكُمُ وحُـــق لِـــي العَويـــلُ
أبا بكـــرٍ ذهابُـــكَ عـــيْنُ حتْفِـــي ونفسُ الفـــتحِ لي منـــكَ القبـــولُ
أبـــا بكـــرٍ بعِـــادُكُمُ عَـــسِير وقـــربُكُمُ مَـــآرب لي وسُـــولُ
أبـــا بكـــرٍ لقـــاؤُكَ يـــوْمُ عِيـــد مـــتى لقيـــاكُمُ ومـــتى الوصُـــول؟

عليــكَ تحيــةٌ مــا قــالَ خِــل أبــا بكــرٍ بكــم كــرْبِي يَــزولُ

ومما كتبته لأهل دارنا ما نصه: بسم الله الرحمن الرحيم، (و)[1] صلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه (وسلم تسليما)[2]. من العبــد الفقــير إلى الله تعــالى، المتمسك بأذيال أهل الله حالا ومآلا، العبد الفقير إلى الله تعالى أبي سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي وسائر إخوته، أسبل الله عليهم كنيف[3] ستره وسابغ رحمته، إلى من خلفنا بخير في أهلينا من إخواننا وعشيرتنا، خصوصا عمنا الأكبر، وخليفة والدنا إذا غاب وإذا حضر، من يحق له علينا الإجلال والإكبار، ســيدي عبد الجبار بن أبي بكر، أعانه الله على ما فيه أقامه، وأسبل عليه كنيــف ســتره وأدامه، وأخونا الكبير ومعلمنا الأثير، سيدي عبد الكريم[4]، والأخ الأمجد سيدي أحمد، والأخ الأسعد سيدي محمد، وابن العم الهمام، سيدي عبد السلام، والأخ الشقيق، البر الرفيق، عبد الخالق، وابن العم الأرضى سيدي أحمد بن عبد الله، وابن العم المجتهد سيدي أبو القاسم وأولاده، وعمنا الأجل سيدي يوســف وســائر أولاده، سلام الله الأتم، ورضوانه الأعم، وبركاته الشاملة، ونعمه المتواصلة، يغشى كل ذلك المبارك ناديكم، ليراوحكم وسميه ووليه[5] ويغاديكم.

أما بعد، فنحن والحمد لله كثيرا، والشكر له غزيرا، على أضعاف ما عودنا ربنا من البركات، وعهدناه من الخيرات والمسرات، لم تزل ألطافه تسايرنا، وآلاؤه تسامرنا، فطيبوا أنفسا من قبلنا، فنحن في حمى رب كريم رحيم، يكون لنا حيث لا نكون، ويرعانا في كل حركة وسكون، ولا ينسانا وإن نسيناه، ولا يهملنا وإن أهملنا ما به أمر وتركناه، وما نتوقع من كرمه أعظم، وما نامله أفخم. وقد كتبنا لكم قبل هذا كتابا من بلد[6] توات فأغنى عن كتابة ما قبله من الأخبار. وأما ما بعده فقد رحلنا منها سابع جمادى الأولى ونزلنا ببلاد أوكرت بعد ثلاث، وأقمنا بها يومين، وبدلنا بها جملين، وزدنا نحوا من عشرين مثقالا، وارتحلنا منها فسرنا في

---

(1) زيادة من ط.
(2) زيادة من ط.
(3) في ط: طنف.
(4) عبد الكريم بن محمد العياشي: أكبر أبناء الشيخ محمد بن أبي بكر، استجاز له أخوه الأصغر أبو سالم، له تأليف سماه: أنوار السعادة في الصلاة على صاحب الشفاعة: الجركة الفكرية بالمغرب على عهد السعديين 2: 508.
(5) الوسمي: مطر أول الربيع. والولي: المطر في صميم الشتاء: لسان العرب: وسم.
(6) في ط: بلاد.

بلاد لا يعرف لها شبيه فتشبه، ولا يغفل فيها القلب عن الاعتبار فينبه، ذات رمال ومهامه ومعاطش ومهاب رياح. وبلغنا القليعة بعد اثني عشر مرحلة، وهي اسم على غير مسمى. ومنها قطعنا الحماد الذي تستمد منه الحمادات لطوله وعرضه وخشونته، لولا أن الله تدارك به بالكلإ لضاع الرحل، وهلك الركب والرجل، وقد ضاع لنا فيه جمل هو من أفضل إبلنا فيما نرى، ولقينا في كل ذلك من البرد شدة لم نعهد مثلها في بلادنا؛

[طويل]

بلى إنما تعفو الكلُوم وإنما يُوكل بالأدنى وإن جَل ما يمْضي[1]

ثم بلغنا مدينة واركلا بعد اثني عشر مرحلة أخرى، وصادفنا فيه قوافل الأعراب جاءت تمتار تمرا، وقدموا بغنم كثير، وسمن غزير. فاشترى الناس من ذلك فوق الحاجة وتنعموا فيه أربع ليال. ثم ارتحلنا منه تاسع جمادى الثانية، وسلكنا في أرض مرملة، وبلغنا تكرت قاعدة وادي ريغ ومحل أمرائها، وأقمنا بها أياما ثلاثة. ومن هنالك أخذت في شراء القمح لفراغ الزاد الذي قدمنا به من عندكم، فوجدناها لا بأس بها في الأسعار، فالتمر رخيص جدا فيها وفي واركلا أيضا، والزرع تسع آصع[2] بريال. ثم ارتحلنا منها وقطعنا الرمال التي تضرب بكثرتها الأمثال، وهي رمال سوى أن الله لطف بنا لطفا لا تكيفه العقول، وذلك أنا مطرنا في تكرت بفضل الله ورحمته لا بنوء الحاجوز، فتلبد الرمل حتى لا يكاد يظهر فيه موقع القدم، فقطعناها على أحسن حال ونزلنا بلاد سف بعد أربع، واشترينا منها ثلاثة من الإبل لظهور الضعف في إبلنا والثقل بالزائد في أحمالها.

وقد استفدت سفرا من نوازل البرزلي، وهو الأخير بثمن بخس. واستفدت أيضا مجموعا من تكرت اغتبطت به كثيرا، فيه ابن الشاط[3] على الفروق[4] من تأليف الفقيه راشد[1] في الحلال والحرام.

---

(1) البيت لأبي خراش الهذلي: العقد الفريد 42:3.

(2) آصع: جمع صاع، وهو مكيال لأهل المدينة يأخذ أربعة أمداد: لسان العرب: صوع.

(3) قاسم بن عبد الله بن محمد بن الشاط السبتي، فقيه مصنف، له تآليف منها: أنوار البروق في تعقب مسائل الفروق، وتحفة الرائض في علم الفرائض، توفي سنة 723 هـ: لقط الفرائد، ص: 179. شجرة النور الزكية 311:2.

(4) أنوار البروق في أنواء الفروق لشهاب الدين أحمد القرافي جمع فيه خمسمائة واربعين قاعدة من القواعد الفقهية: كشف الظنون 186:1.

وعلى كل حال فنعم الله علينا قد غمرت كل مشقة، وقصرت عن[2] كل شقة، وكلنا أصاب هذه الطريق بشُهد العافية، واستسهلنا وعرها وطولها بالأمان من كل ناحية، نسأل الله الدوام ومتابعة الإنعام. ثم وصلنا إلى نفزاوة يوم الإثنين أول يوم من رجب. ومنها سرنا إلى عرام خمسة أيام، ووجدنا الركب التونسي قد جاز أمامنا.

وأسلم سلاما تاما على ابني أختنا محمد بن محمد بن عبد الجبار[3] ومحمد بن يوسف[4] وأترابهما من أبناء إخواننا وأعمامنا. وأؤكد عليهما في عمارة المسجد وخدمة العلم فإن الله كافيهما بذلك كل مهم. وإياكما والتسويف والاغترار، والركون إلى الأغيار، فإن ذلك مما يذهب بهجة العلم ونوره، ويكسف بدوره، فإن العلم هو نور القلب، والمسجد هو روح البلد، فإن حلت فيه الحياة سرت في سائر الجسد. وأؤكد على أخينا سيدي محمد وأخينا سيدي أحمد أن ينبهاهما ويشدا من عضدهما في عمارة المساجد، ولا تنسونا من صالح دعائكم عقب التدريس.

وأؤكد على محمد أن يجعل ذلك كالواجب عليه إثر القراءة قضاء لبعض ما لنا من الحق. وأوصيك (وإياي)[5] بتقوى الله ومراقبته وإخلاص العمل[6]، يكفي القليل منها. ولا تتكلف الأوراد والنوافل، فإن وردك التعليم والتعلم والمطالعة. ولا تخل نفسك من مطالعة كتب الشاذلية وغيرهم من أئمة التصوف ولو ورقة عند النوم أو قبله، لينام الإنسان وقلبه عامر بذكر الله ومحبته. ولا تتهيب شيئا من العلوم أن تقراه أو تقرئه. وإن لم تجد من يطلب ذلك منك فاقرأ لنفسك. واجتهد في الفقه وفي الأصول والبيان ومطالعة الكتب والحواشي ولو بدون إقراء. واستمد العون من الله يمدك، واسترشده يرشدك، وشاهده في كل أحوالك، يكن معك بلطفه في حالك ومآلك. وليكن جل اعتنائك ومجاهدتك في حفظ لسانك، فإن

---

(1) راشد بن أبي راشد، فقيه مصنف، له كتاب الحلال والحرام وحاشية على المدونة، توفي بفاس سنة 675 هـ: معجم المؤلفين 4:49.
(2) ساقط من ط.
(3)أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الجبار، فقيه راوية، توفي سنة 1071 هـ: نشر المثاني 2:139.
(4) محمد بن يوسف أعياش، قاضي الزاوية العياشية، ولد عم أبي سالم، شارك أبا سالم ي شيوخه، توفي عام 1111 هـ: التقاط الدرر، ص: 280.
(5) زيادة من ط.
(6) في ط: الأعمال.

الله قد كفاك ما سواه من الجوارح. واعظم ما تستعين به على ذلك، بعد اللجإ إلى الله، استحضار عظمة الله ومراقبته، مع مطالعة محل ذلك من كتابَي الإحيـــاء [1] والقوت[2].

والله يتولاك ويرعاك، ولا يخيب مسعاك، واستعن فيما ذكرنا من القـــراءة بالأخ الصالح سيدي عثمان، إن سلم من حبائل الشيطان وغوائل السلطان. وإنا لنرجو من كرم الله أن يجعل اهتمامه بالله حتى يكفيه كل هم دونه، فإن علامـــة إعراض الله عن عبده إعراض العبد عنه. ولا تأنف من القراءة عليه إن أنف هو من القراءة عليك، فكل منكما إن شاء الله أهل لأن يقرأ على الآخر ويقرئه، ولا فرق إذا حسنت النية.

أخوكم الفقير إلى الله تعالى أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر، كان الله له، آمين.

[طويل]

على أسْرَتِي أزكَى ســلامٍ وأطيبُــهْ ... وأحلاهُ في قلــبي مــذَاقا وأعذبُــهْ

وأكمَلُ ما يرجــو الفــتى لحبيبِــهِ ... من الله في دُنيــا وأخْــرى ويطلبُــهْ

أخص به الإخوانَ كُلا ومــنْ غــدا ... مدى دهرِهِ والحُــب في الله مركبُــهْ

ومُنــوا علينــا بالــدعا فَــدُعاؤكم ... أجَــل دعـــاءٍ نرتجيــهِ وأقربُــهْ

وإنا لنــدعو الله يــصلحُ حــالكُم ... وليسَ جِزافا مــا نقــولُ ونكتبُــهُ

---

(1) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي.
(2) الإشارة هنا إلى كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي.

ذكر الرحيل[1] من مدينة طرابلس
حماها الله (بمنه وكرمه)[2]

وكان رحيلنا منها يوم السبت السادس والعشرين من رجب، وصادف ذلك خروج سفن الأمير بقصد جهاد أعداء الدين، وهي ست سفن فيها نحو من ألفي مقاتل خرجت مجتمعة، وذلك شأنهم إذا خرجوا للجهاد إرهابا للعدو. وكان يوم خروجها وخروج الحجاج يوما مشهودا. وتفاءل الناس بذلك لحصول الغنيمة، فكان[3] الأمر كذلك والحمد لله حق حمده. وفي الليلة التي خرجنا صبيحتها تمكن الحجاج الذين يبيتون في الركب ويحرسون الإبل والأمتعة من سارق دخل عليهم ليلا في خباء، وأوثقوه إلى الصباح، فجاء أصحاب الأمير فعرفوه وأخذوه، وكان مشهورا بالتلصص عندهم، معروفا بالسرقة، طالما راموا القبض عليه فلم يتمكنوا منه إلى أن أخذه الله على أيدي الحجاج. فأمر الأمير بخنقه فخنق على باب المدينة، وترك هناك معلقا فكان نكالا لغيره.

وخارج مدينة طرابلس وسائر عمالتها أكثر البلاد سرقة، وأعرابها أعلم الناس باستعمال الحيل في ذلك، مع إقدام وهجوم بالليل إن تمكنوا من ذلك. يبيت الحجاج فيها طول ليلهم في ضجيج وعجيج، وصياح ونباح، وإيقاد نار خارج المنازل، وضرب بالمكاحل[4]. ومع ذلك قل ما سلمت لهم ليلة من سرقة شيء، (والله من ورائهم محيط)[5]، والملتجي بجنابه محفوظ.

---

(1) في ط: رحيلنا.
(2) زيادة من ط.
(3) في ط: وكان.
(4) المكاحل: جمع مكحلة، وهي الوعاء (لسان العرب: كحل)، وهي هنا بمعنى البندقية (عامية مغربية)، ولعلها سميت بذلك لاحتوائها البارود.
(5) البروج: 20.

ولما خرجنا على باب المدينة منعنا البوابون من الخروج طلبا للمكس[1] زعما منهم أن معنا بعض أحمال ليست للحجاج. وقد صدقوا في زعمهم، إلا أنا أنكرنا ذلك صونا لمن التجأ إلينا من بعض من تعلق بنا من أهل البلد. ثم دخلت أنا وأمير الركب إلى باشة البلد فكلمناه في ذلك، فأحسن وأفضل في المقال، وصدق ذلك حسن الفعال، فبعث بعض خدامه إلى البواب أن لا يعترض[2] للحجاج فيما أرادوا إخراجه، وذلك دأبه مع الحجاج، جازاه الله خيرا، ألا يهتك لهم حرمة ولا يضيم لهم جانبا. وكانت العادة أن من اشتد عليه المغرم من الرعية وأراد الخروج من البلد والفرار لا يتركونه إلا إن كان مع الركب، فلا يتعرض له فيذهب مع الركب، منهم من يكون في بعض الأحيان أضعافه. فلما دخلنا على الباشة تلطف في المقال وقال لأمير الركب: إن هذا بلدكم، وأنتم لا تحبون خلاءها، فنطلب منكم أن لا تتركوا واحدا من هؤلاء الفارين يذهب معكم، فإن ذلك يشق علينا ولا نريد التعرض لهم معكم. فقال له أمير الركب: نحن لا نمنع أحدا التجأ إلى حرم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فمن منعتموه قبل إن يصل إلينا فذاك، وإلا فلا يمكننا ذلك. وخرج معنا بقصد الوداع أخونا سيدي محمد ابن محبنا سيدي أحمد بن عيسى[3] وبات معنا ليلة. وكانت عادة الأركاب المبيت بتاجورا ويضيفونهم ضيافة حسنة. ولما تأخر الركب هذه السنة عن عادته استعجلوا السير و لم يبيتوا بتاجورا، وجاوزوها بأميال إلى موضع يقال له سدرات العشار على ساحل البحر. ثم ارتحلنا منه ومررنا بموضع يقال له وادي الرمل[4]، وهو وادي مخصب من أعلاه، فيه مزارع، تخرج إليه ماشية أهل طرابلس وسواحلها أيام الربيع. وربما أخرج إليه الحجاج إبلهم مع رعاتها إن طالت إقامتهم بطرابلس. ثم مررنا في يومنا أيضا بوادي المسيد، وهو مثل الذي قبله أو أخصب منه، وماؤه غزير لا ينقطع صيفا ولا شتاء، ويكثر قي أوقات السيل لأنه يجتمع إليه ماء جبال مسلاتة من أعلاها. و لم نبت حتى تجاوزنا هذا الوادي بأميال كثيرة، ووجدت تلك البلاد مخصبة غاية. وفي تلك المرحلة تعرفنا برجل قدم معنا في الركب زعم أنه شريف، وأنه من أهل

(1) المكس: الجباية: لسان العرب: مكس.
(2) في ط: يتعرض.
(3) أحمد بن عيسى اليربوعي الطرابلسي، تولى قضاء طرابلس بعد وفاة والده، توفي عام 1047: التقاط الدرر، ص: 159. نشر المثاني 2:139.
(4) وادي الرمل: واد متسع عذب الماء لا ينقطع ماؤه في شتاء ولا في صيف، ومبدؤه من الجبل قاطعا إلى البحر: رحلة التيجاني، ص: 310.

المدينة المشرفة وأحد بوابي باب الرحمة من أبواب الحرم الشريف، وزعم أن الشريف زيد أمير الحرمين بعثه بكتاب إلى تونس لجمع أوقاف الحرمين التي بها، وعامله أمير تونس حمودا بإحسان غزير، وقدم مع ركب أهل تونس، فلما وصل طرابلس غضب عليهم زعما منه أنهم لم يقوموا بحقه، فجاء لركبنا فعظمناه غاية التعظيم لنسبه[1] ووطنه الذي انتسب إليه، وكانت فيه دعابة، فحمله الناس على ما هو عليه، ولما وصلنا إلى مصر تبين كذبه فيما زعم أنه من أهل المدينة. ثم ارتحلنا من هناك ومررنا تحت وادي ينوت، وهو واد يترل من جبال مسلاتة وعليه مزارع، إلا أن ماءه قليل يستقي منه الركب إن اضطرهم العطش إليه أيام الحر، وهو على يمين الذاهب، داخلا في أصل الجبل قليلا.

غريبة:

أخبرني الشيخ الأجل قاضي مدينة القدس محمد النفاتي[2] التونسي أيام لقائي له بالقدس الشريف أنه حج في صغره مع أخيه أبي الحسن النفاتي[3]، وكان أمير الركب، فمروا بهذا المكان في زمان القيظ، فألجأهم[4] العطش إلى بئر في وادي ينوت، فترلوا عليه قائلة، ووافتهم هناك قفول قدمت من فزان حاجتهم مثل حاجتهم، فذهب الناس إلى البئر فترحوا ما فيها من الماء، فلم يشف بعض أوامهم، ورجع الناس مغمومين، فمن قائل نرتحل[5] هذا الوقت لندرك الماء قبل حلول الهلاك، ومن قائل نؤخر إلى آخر النهار. قال لي الشيخ: فدخلت على أخي فأخبرته بذلك وقلت له: إن الناس قد أشرفوا على الهلاك، واضطرب أمرهم في الرحيل، فمرهم بالرحيل لئلا يهلكوا. قال: فاغتم لذلك واستند في خبائه كالنائم، فلما أفاق قال لي: ناد في الناس بالإقامة، وقل لهم يذهبون لسقي الماء. فقلت له: أبكَ الجنون؟ أنا أخبرك أنه لا قطرة في البئر والناس قد أشرفوا على الهلاك. فقال

---

(1) كلمة غير واضحة في ط.

(2) محمد ابن سالم النفاتي، حج مع أخيه أبي الحسن سنة 1049، وأقام هناك، تلد قضاء القدس سنة 1074، وبها توفي: شجرة النور الزكية 1:442.

(3) أبو الحسن ابن الشيخ المفتي سالم النفاتي، قاضي الجماعة بتونس، الفقيه الإمام، حج سنة 1049 وهو أمير الركب، ومات بالينبع: نشر المثاني 2:373. شجرة النور الزكية 1:442.

(4) في ط: ألجمهم.

(5) في ط: تحل.

لي: افعل ما أمرتك. فقلت له: لست بأحمق، أنادي في الناس بالإقامة على غير ماء. فلما أبيت نادى خديمه الغلام وقال له: ناد في الناس بالإقامة والذهاب لسقي الماء. فلما سمعت ذلك استحييت وتغيبت. فأقام الناس وذهبوا إلى البئر فوجدوها قد امتلأت بالماء حتى كاد أن يفيض من جُوالها[1]. فاستقى الحجاج وجميع القوافل حاجتهم والماء كما هو. قال لي الشيخ: فلما رأيت ذلك ذهبت إليه وقصصت عليه الخبر فقال لي: إني لما أغفيت عندما أخبرتني بخبر الناس رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، في النوم فقال لي: مر الناس بالإقامة، فعلمت أن الله سيجعل لهم من أمرهم فرجا. قلت: ولا يستبعد ذلك في حق وفد الله وزوار نبيه، صلى الله عليه وسلم، فإن لله بهم عناية، ولهم منه أعظم وقاية.

ولقد[2] أخبرني عن أخيه هذا بأمور من جنس هذا في سفرته تلك، وفيها توفي بقرية الينبع التي ينزلها الحاج وقبره إلى الآن ظاهر وعليه بناء خفيف[3] على تل مشرف على منزل الركب المغربي بالينبع. وكنا نزور قبل هذا ذلك المحل ولا نعلم من دفن فيه حتى أعلمني به القاضي المذكور، والله يتغمدنا وإياه برحمته ويغمرنا في الدنيا والآخرة بجزيل نعمته، آمين آمين.

ولم نزل نسير يومنا ذلك في أرض مخصبة ذات غياض وشعوب متوعرة، إلى أن بتنا تحت جبل النكازة أسفل العقبة، ووجدنا هنالك ماء طيبا غادرته السيول في سد مبني أعظم بناء، وبتنا في أنعم حال بين ماء و كلإ وحطب، لولا ما شابه من سهر الناس خوف السرقة، لكون المحل كثير الأحجار والأشجار بسفح جبل. وهناك تسوقنا أهل جبال مسلاتة بزيت كثير طيب رخيص اشترى الناس منه حاجتهم. وزيت هذا البلد من أطيب الزيوت مذاقا، سيما ضرب منه يسمونه ضرب الماء، يعصرونه بالماء، ولا أدري كيف يصنعون بذلك، لا تكاد تميز بينه وبين السمن.

ثم ارتحلنا من هناك وقطعنا الجبل، وهو منتهى الجبال في تلك البلاد، وهو آخر الجبل الذي لا نظير له في الدنيا طولا وعرضا وخصبا وقرى متصلة وعمرانا

(1) الجول: جدار البئر: لسان العرب: جول.
(2) في ط: وقد.
(3) في ط: ضعيف.

متراكبا[1] وقبائل وافرة غالبها بربر. وأوله من البحر المحيط أطراف السوس الأقصى، ثم يمتد كذلك إلى أن يمر قبلي مراكش، وهو المسمى بجبل درن[2]، ثم يمر كذلك إلى بلادنا، ثم إلى أن يقارب البحر قرب تلمسان، ثم لم يزل يساير البحر وإن كان يبعد عنه في بعض المواضع، ويسمى في كل بلد باسم، إلى أن انتهى هنا بأطراف برقة. وقال صاحب تقويم البلدان[3]: إنه يمتد من أطراف السوس الأقصى من البحر المحيط إلى أن يبقى بينه وبين الإسكندرية خمس مراحل. قلت: وكأنه جعل بلاد برقة كلها والجبل الأخضر منه، لأن أرض برقة مرتفعة على ما يجاورها من بلاد فزان ونواحيها، والبحر من الناحية الأخرى من العقبة الصغيرة، وبينها وبين الإسكندرية خمس مراحل. والظاهر ما ذكرناه أولا، وهو ما اقتصر عليه غيره. فغرب هذا الجبل في كل البلاد بلاد مخصبة ذات أنهار وعيون وأشجار، وقبلته صحراء ذات نخيل ورمال من البحر المحيط من أطراف السوس الأقصى إلى آخر برقة.

وفي هذا المحل الذي قطعناه منه آثار أبنية كثيرة في سفحه الذي يلي ساحل حامدٍ مدينة عظيمة يقال لها: مدينة لبدة[4]، قد خلت في العصور الأوائل وبقيت آثارها ورسومها، قد أكل البحر كثيرا منها، وفيها مبان عظيمة وهياكل جسيمة وأبراج خارجها مبنية بالحجر المنحوت في غاية الإتقان، قد هرم الدهر وما هرمت وتعاقبت عليها الأزمنة وما ثلمت، فترى الأبنية ماثلة متقابلة على رؤوس الجبال مد البصر، بحيث يقضي الحلس أن كل ما كان داخلها كان مدينة واحدة إلى البحر. وترى أعمدة الرخام وغيره واقفة في وسط البحر قد أحاط بها الماء بحيث يرتاب أن البحر قد أكل كثيرا منها. ومن هذه المدينة ينقل كثير من أعمدة الرخام إلى طرابلس وإلى مصر وإلى غيرهما من البلدان. ويقال إن بانيها الملك دقيوس[5]،

(1) في الأصل: عمران متراكب.
(2) درن: جبل بالمغرب مشهور، ومبدؤه من البحر المحيط في أقصى السوس، ويمر مع المشرق مستقيما حتى يصل إلى نفوسة، ويتصل بعد ذلك بجبال طرابلس ثم يرق هناك ويخفى أثره: معجم البلدان:درن.
(3) كتاب تقويم البلدان للملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الأفضل علي الأيوبي الشهير بصاحب حماة المتوفى سنة 732 هـ: كشف الظنون 468:1.
(4) لبدة: مدينة بين برقة وإفريقية، وقيل بين طرابلس وجبل نفوسة، وهو حصن من بنيان الأول بالحجر والآجر وحوله آثار عجيبة: معجم البلدان: لبد.
(5) دقيوس: أو دقيانوس الملك، صاحب أصحاب الكهف، أنظر أخباره في: الكامل 274:1.

وبعد وفاته تملكتها امرأة اسمها رومية. وبعضهم ذكر أن النمرود[1] لما بنى دمشق بقي ثلاث سنين، وبعث ولده وأمره أن يبني مدينة بالمغرب، فبنى هذه المدينة وجلب إليها الماء من وادي كعام في بناء متقن يحار الناظر فيه، وأثر البناء وممر الماء باق إلى اليوم متصل من حرف الوادي إلى أطراف المدينة، إلا أن ماء هذا الوادي الآن قليل آجن. ويزعم أهل البلد أن ماء هذا الوادي كان حلوا غزيرا أيام عمارة المدينة. وكان مما يتواتر عند أهلها أنه إذا بدت فيه الملوحة فذلك علامة خرابها. فلما بدت فيه الملوحة أخذ أهلها في الانتقال منها، والله أعلم أي ذلك كان. وقد ذكر العبدري هذه المدينة في رحلته، وذكر أنه وجدها خالية. والذي يظهر أنها خلت قبل الإسلام إذ لم يذكرها أحد ممن ذكر فتوح إفريقية، والله أعلم بغيبه.

غريبة:

أخبرني بعض أهل ذلك البلد[2] أن الملك الذي بنى هذه المدينة وقع موتان في عسكره حتى تفانوا ولم يدر ما سببه، وأمر[3] بشق بطن واحد منهم فشق عن قلبه فوجد فيه دودة، فعلم أن ذلك سبب موتهم، فأمر بصب جميع الأدوية عليها واحدا فواحدا، فلم تمت حتى أخرج زيتا كان عنده في قارورة جاء به من أرض الشام، فصب عليها قطرة من زيت فماتت، فعلم أن دواء ذلك المرض أكل الزيت، فبعث إلى الشام وجاءه غرس الزيتون، فأمر بغرسه في تلك الأوطان كلها من مسلاتة إلى سوسة وتونس وأعمالها، ومن تلك الساعة بقي الزيتون في هذه البلاد، والله أعلم.

وبعد إنزالنا بالجبل دخلنا بلدة ساحل حامد وبتنا بها، وهي بلدة كبيرة ذات نخل كثيرة ومزارع وسواني وزيتون، إلا أن نخل هذا الساحل كله رديء، تمره لا يدخر ولا ييبس إلا بعد إزالة النوى منه، فيبقى كقطع الجلد لا قوة فيه ولا حلاوة ولا طعم، لا تكاد تفرق بينه وبين لحى الشجر.

وفي هذه البلدة استهل علينا شهر شعبان ليلة الأربعاء. وزرت بهذه البلدة قبر الولي الصالح ذي الكرامات الكثيرة، والمآثر الشهيرة، سيدي مفتاح، وهو على تل

(1) النمرود ابن كنعان، أحد أشهر الملوك في تاريخ البشرية، زعموا أنه استمر في ملكه أزيد من أربعمائة سنة، وفي عهد بعث إبراهيم الخليل عليه السلام: البداية والنهاية 1:148.
(2) في ط: تلك البلاد.
(3) في ط: فأمر.

مرتفع بساحل البحر بينه وبين البلد في مكان يعلوه البهاء، ويتفجر منه السناء، تسكن النفوس إذا حلت به، وتطمئن به القلوب إذا نزلت بقربه. وختمت عند قبره سلكة كنت ابتدأتها قبل ذلك، وزرته بنية صالحة وإخلاص قوي، وطلبت من الله عند قبره مسائل رأيت أثر الإجابة في بعضها بالقرب، وإني لأرجو الله فيما بقي منها. وهذا السيد مما تؤثر عنه كرامات كثيرة، وجربت إجابة الدعاء عند قبره، فلا ينبغي لمن مر بذلك البلد أن يهمل زيارته. والذي نبهنا لزيارته وأعلمنا بمكانته شيخنا سيدي محمد بن مساهل في سنة أربع وستين، وحضنا على زيارته، فزرناه إذ ذاك، ولم ندع بعد ذلك زيارته إذا مررنا ببلده. وقد قيل بأن قبره كان مخفيا[1] فأظهره سيدي عبد السلام الأسمر، وكان قد أظهر قبورا كثيرة للأولياء بذلك الساحل، وأظهرت فرسه أيضا آخرين، وذلك أنه إذا ركب على فرسه ربما تمر بمكان فتبحث برجلها في الأرض، فيقول لهم الشيخ: احفروا فإن هنا قبر ولي فيجدونه. فظهرت بذلك مزارات كثيرة. وفقراء ذلك الساحل إلى الآن يعرفونها ويقولون هذا من الذين أظهرهم فرس الشيخ، ولا بدع في ذلك فإن الكرامة في ذلك لراكب الفرس لا للفرس، فقد بركت ناقة النبي، صلى الله عليه وسلم، في مكان مسجده، وعندما دخلت الحرم يوم الحديبية. وإذا كانت بركة النسبة للأنبياء عليهم السلام وللأولياء رضوان الله عليهم يظهر أثرها في العجماوات، فما بالك بالآدمي[2] الذي هو أشرف المخلوقات. فلا تقصروا إخواني من خدمة الصالحين وزياراتهم وملاقاتهم فإن لذلك أثرا عجيبا في تليين القلوب وتسخير النفوس، والله تبارك[3] وتعالى يجعلنا من المحبين لأهل ولايته ويحشرنا مع حزبهم وفريقهم دنيا وآخرة.

ثم ارتحلنا من ساحل حامد ومررنا بقربه بوادي تارغلات، وفيه آثار سانية فيها قنوات تحمل الماء إلى المدينة المذكورة من عين يقال لها: عين كعان، وفيها صنعة عجيبة وأبنية غريبة بحجارة منحوتة عظيمة تحار فيها العقول، منها أحجار من أربعة أذرع فأكثر منقورة في وسطها نقرا متقنا، والحجر في غاية الصلابة قريب من حجر الصوان. والحاصل أن من رأى ذلك استغرب أن تكون قدرة البشر واصلة إلى ذلك المقدار، وعلم أن دهرا أفنى أولائك الأقوام جدير بأن

(1) في ط: مختفيا.
(2) في ط: في الآدمي.
(3) ساقط من ط.

يستأصل شأفة الأنام. ثم نزلنا في ذلك اليوم بلدة زلتين، وهي مثل التي قبلها في النخيل والسواقي، إلا أنها أصغر منها فيما يظهر. وكان نزولنا خارج زاوية الولي الصالح الشهير التصريف، الغني بشهرته عن التعريف، سيدي عبد السلام الأسمر، وهو رجل من أهل المائة العاشرة، كثير الكرامات، عالي المقامات، من أجل تلامذة سيدي أحمد بن عروس نزيل تونس، والغالب عليه الجذب في أول أمره وآخره، وله تصرف قوي. ويؤثر عند أهل البلد من تصرفاته آثار كثيرة يطول استقصاؤها، وأخباره في قهر الجبابرة وفك الأسرى من أيدي الإفرنج في حياته وبعد مماته شهيرة، وهو من بلدة يقال لها الفواتر، وأمه مغربية دراوية[1]. و لم تزل هذه البلدة التي هو منها مأوى الصالحين ووكر العابدين من قديم الزمان، تواتر عند أهل البلد أنها لا تخلو من سبعة من أكابر الصالحين، قالوا وهم ظاهرون بها حتى الآن، وليس عليهم سمْت متفقرة الوقت، بل هم على هيئة العوام في ملابسهم ومساكنهم وحرفهم، إلا أنهم قائمون على منهج الشريعة. وكل من رام أهل هذه البلدة بسوء يقصمه الله، ولا يدخلها أحد فتجبر وتكبر إلا أذله الله. ويذكر عن أهلها كرامات كثيرة. وقد ذكر لي بعض الإخوان أن سيدي عبد الحفيظ قدم لزيارة أهل هذا البلد ومعه بشر كثير كما هو شأنه إذا خرج. فلما قرب من البلد نزل عن فرسه ومشى راجلا متواضعا إلى أن زار وخرج، فقيل له في ذلك فقال: لو دخلتها على الحال[2] التي كنت عليها خرجا من الركوب كهيئة المتبوع لخشيت على نفسي، أو كلام هذا معناه. وبلدة الفواتر (هذه)[3] هي[4] بإزاء زاوية سيدي عبد السلام، قريب منها بنحو فرسخ[5]، وفيها مزارات كثيرة للأحياء والأموات.

(1) نسبة إلى درعة.
(2) في ط: الحالة.
(3) زيادة من ط.
(4) ساقط من ط.
(5) في ط: من فرسخ.

لطيفة:

وممن لقيته من سكان هذه الزاوية سيدي أحمد بن محمد بومجيب[1]، وهو مجذوب سالك، والغالب عليه الجذب، وفيه خير كثير، قارب في عمره المائة، ومع ذلك فهو صحيح الذهن والبصر والبدن، وخرج إلينا إلى مترل الركب. وسبب معرفتي به سيدي محمد بن محمد الحفيان، وكان أخبرني قبل الوصول إلى بلده بكرامة وقعت له معه في بعض حجاته. وقد حج هذا السيد مرارا عديدة مع سيدي محمد الحاج صاحب بسكرة، وكان يثني عليه كثيرا. وقال لي: لو عاش ما تخلفت عن الحج، فقلت له: ألا تحج معنا ؟ فقال لي: إنه لا مال لي وأنتم لا تشاركونني في دنياكم وكان هو يشاركني في دنياه. وقد حكيت لي عن هذا السيد كرامات، وشيخه سيدي أحمد الشريف البقال بفاس من تلاميذ سيدي مسعود الدراوي[2]، لقيه لما جاء للحج ومر بهذه البلدة وقال له في رجوعه من الحج: يا بومجيب أعلمنا بك الحبيب عليه السلام.

لطيفة:

أخبرني الشيخ بومجيب أنه لما حج بقي أمام النبي، صلى الله عليه وسلم، وقال في نفسه: إني لا أذهب لزيارة حمزة ولا غيره، هذا يكفيني. قال: فأخذتني سنة فرأيته، عليه السلام، فقال لي: يا أحمد يا حبيبي، عم الرجل عوض أبيه. قال: فقمت في الحين وذهبت إلى زيارة سيدنا حمزة وحدي، وكان وقت خوف، ولقيت هناك ثلاث رجال أحدهم الخضر عليه السلام.

---

(1) أحمد بن محمد أبو مجيب، الولي الصالح نزيل زاوية عبد الكريم الأسمر، توفي عام 1064 هـ: التقاط الدرر، ص: 159. نشر المثاني 2:139.

(2) أبو سرحان مسعود بن محمد الدرواي، من أهل الأحوال والكرامات، توفي بفاس سنة 1011 هـ: مرآة المحاسن، ص: 296.نشر المثاني: 1:84، التقاط الدرر، ص: 39. ممتع الأسماع، ص:184.

لطيفة:

أخبرني أيضا، وهو عندي صدوق، قال: أخبرني الشيخ اللقاني[1] أن الـــوزغ يتغذى بعينيه، وأنه، أي اللقاني، كان ذات يوم يأكل و وزغ ينظـــر إليـــه مـــن السقف، فأمر من قتله، قال: وشقوا بطنه فوجدوا فيها من الخضرة التي كان الشيخ يأكل منها. أخبرني بهذا كله وهو عندي ثقة.

وقد عقدت معه عقد[2] أخوة في الله، وكتب لي خطه بذلك، نفعني الله وإياه بها آمين.

وممن آخيته في الله أيضا بهذه البلدة الشاب الزكي التقي النقي سيدي محمد بن أبي القاسم ابن سيدي علي الصوفي من بلاد غريان، قدم لهذه الزاوية مهاجرا لطلب[3] العلم، وجده سيدي علي تلميذ سيدي عيسى بومعزة. وهذا الشاب[4] ممن رزق السعادة في محبة القوم واتباع طريقهم، وقد أخبرني بغرائب كثيرة ممن لقـــي منهم، ودلني على بعضهم ممن في سواحل تلك البلاد. نسأل الله أن ينفعنا وإياه بهم وقد شيعني يوم سفري من هناك على رجله حافيا قريبا من ثلاثة فراسخ، شكر الله (له)[5] سعيه آمين.

ثم ارتحلنا من هناك وارتحل معنا سيدي عبد الله بن عبـــد الـــسلام متـــولي الزاوية، من حفدة الشيخ سيدي عبد السلام قاصدا للحج مع ثلاثة مـــن أولاده وأتباعه، وكان من عادتهم السماع بالطار المزنج، قل ما يتركون ذلك في كل ليلة، لا يكادون يتركوننا من صوت الدفوف نحو الأربعة، مقتفين في ذلك آثار جدهم فإنه كان يسمع بالدف، إلا أنه كان، رضي الله عنه، ذا حال صادقة لا يقتدى به في ذلك، فحققهم السنة واجتناب مواقع الظنة. وليست الأحوال مما يورث، و لا مما يصح فيها التقليد، لأنها واردات من الحق تستعمل العبد بمقتضى وقته استعمالا جبريا، فليس لغيره اتباعه في ذلك إن لم تظهر له موافقة المشروع.

---

(1) تقدمت ترجمته.
(2) ساقط من ط.
(3) في ط: في طلب.
(4) في ط: السيد.
(5) زيادة من ط.

ومما يحكى من ذلك عن الشيخ سيدي عبد السلام أنه سمع ذات يوم بالدف، فلما نقره سمعه كل من حضر يقول: الله الله، بحيث لا يمتارون في ذلك. قلت: هذا شاهد صدق في صحة سماعه وصدق حاله مع الله. ومثل هذا له أن يسمع بأي شيء أراد من دف ومزمار لانقلاب سمية الملاهي في حقه درياقا، فعادت المخالفة لمشروع بانعكاس الثمرة وفاقا. فسبحان الذي أخرج (من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين)[1]، ومن بين الزفر والزمر أحوالا سنية للمقربين.

وقد أخبرني بعض الإخوان من أهل مسراتة[2] أن شيخنا سيدي محمد بن ناصر[3] لما حج سنة سبعين حج معه بعض أهل هذه الزاوية، وكان يسمع بالدف على عادهم، فبعث إليه الشيخ فقال له: إن أردت مرافقتنا فاترك هذا السماع وإلا فاعتزلنا، فاعتل بأن ذلك من عادة أسلافهم فلم يقبل منه الشيخ ذلك، ولم يزل به حتى ترك السماع.

ولم نبت يوم رحيلنا من زلتين إلى أول بلد مسراتة، ومن الغد ارتحلنا ونزلنا بزاوية الشيخ المحقق العالم العلامة العارف بالله، الدال على الله، صاحب العلمين، ومحقق النظرين، ومحصل المذهبين، ومرتضى الفريقين، مقتدى أهل العلم الباطن ومتبوع أهل الظاهر، وينبوع الأسرار في سائر المظاهر، قطب مغربنا، وإمام أئمتنا، سيدي أبي العباس أحمد بن أحمد زروق البرنسي الفاسي[4]، حقق الله إليه نسبتنا، وخلص في محبته سريرتنا، آمين. وكان نزولنا بزاويته صبيحة يوم الجمعة، وزرنا قبر الشيخ بما اقتضاه الوقت من أدب ووقار، وذل وانكسار، وصلينا الجمعة بالمسجد الجامع، وهو الذي كان الشيخ يصلي فيه، وخطب إمام المسجد من ورقة، وليته أحسن القراءة منها، فإنه كان يتوقف حتى في آيات من القرآن العظيم. وأسفت لذلك المكان مع شرفه بجوار الشيخ وكونه واسطة البلد كيف

---

(1) النحل:66.

(2) في ط: مسلاتة.

(3) محمد بن محمد بن أحمد بن ناصر الدرعي، نسبة إلى درعة، من علماء المغرب، كانت له زاوية وأتباع، حج مرتين، له تصانيف في الفقه، توفي سنة 1085هـ: خلاصة الأثر 238:4. شجرة النور الزكية 453:2. الأعلام 63:4.

(4) أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي، أبو العباس زروق، فقيه محدث صوفي، من أهل فاس، قرأ بمصر والمدينة المنورة، تجرد وساح، توفي بتكرين من أعمال طرابلس عام 899 هـ، له عدة مصنفات في التصوف: شجرة النور الزكية 386:1، دوحة الناشر، ص: 48. الأعلام 91:1.

يسند الأمر فيه إلى غير أهله، ويوضع في غير محله، و(لله الأمر من قبل ومن بعد)[1]. وبعد الفراغ من الصلاة زرنا خلوة الشيخ، وهي أمام المسجد قريبا منه وبها توفي رضي الله عنه. و لم نزل نتردد إلى قبر الشيخ، رضي الله عنه، ذلك اليوم والـذي بعده، نفعنا الله بذلك، وأنار لنا به في دجى الخطوب المسالك.

وممن لقيته من أهل هذا البلد صاحبنا ومحبنا في الله خديم ضريح الشيخ ومتولي زاويته سيدي أبو العباس أحمد بن عبد الرحيم بن أحمد[2]، وجده هذا أحمد هو خديم الشيخ، وهو الذي بنى المسجد الذي هو اليوم مصلى ضريح الشيخ، وتولى عمارته والقيام به ثم أولاده وأحفاده بعده إلى هلم جرا. والمتولي الآن هو سيدي أبو العباس هذا وابن عمه سيدي عبد الواحد، وهو أسن منه، وكلاهما لا يخلو من بركة. وهما ملازمان للصلاة بجوار الشيخ وقراءة وظيفته مع الفقراء النازلين بجواره، والكل محترمون بحرمته ليس عليهم مثل ما على غيرهم من الوظائف الجورية لأرباب الدولة.

(لطيفة)[3]:

وقد قرأت معهما وظيفة الشيخ غير ما مرة، وأخبراني بها عن سيدي محمد بن غلبون، وكان قد أسن وقارب المائة أو تجاوزها، ومسكنه بقصر أحمد على نحو من فرسخين، ومع ذلك لا يترك صلاة الجمعة بمسجد الشيخ ويحضر الوظيفة إلى أن مات، وهو قد أدرك وأخذ عن خديم الشيخ وأخص أصحابه وتلاميذه سيدي أبي زعامة، وفيه يقول (الشيخ)[4]، رضي الله عنه، مداعبا وممازحا، ومزاح الأولياء حق: يا بو زعامة، يا عنق الحمامة، أبشر بالسلامة، بيوم[5] القيامة. فهنيئا له أعظم البشارات على لسان أصدق أهل الإشارات. وقد أخبرني بهذه الحكاية السيدان المتقدمان كلاهما، وأذنا لي في قراءة الوظيفة مدرجا فيها قوله[6]: يا مولانا يا مجيب،

(1) الروم: 4.
(2) أحمد بن عبد الرحيم بن أحمد، تولى خدمة زاوية أحمد زروق.، ذكر القادري أنه لم يقف على تاريخ وفاته: التقاط الدرر، ص: 243. نشر المثاني 2:375.
(3) زيادة من ط.
(4) زيادة من ط.
(5) في ط: في يوم.
(6) نشر المثاني 2:375.

من يرجوك ما يخيب،اقض حاجتنا قريب، يا حاضرا لا يغيب،آمين الخ، بعد قوله: يا عالم السر منا إلخ.

وأخبراني أنه لم يكن من كلام الشيخ وإنما زاده تلميذه الإمام الخروبي[1] لما مر بزاوية الشيخ قاصدا للحج واشتكوا عليه من ظلم الأعراب فأمرهم بزيادته وإدراجه في الوظيفة، واستمر الحال عليه إلى الآن. وكثير من الناس يظن أنه من كلام الشيخ، رضي الله عنه، والصحيح إن شاء الله ما ذكراه إذ لم نجد هذه الزيادة في النسخ الصحيحة المتصلة السند والرواية بالشيخ، ولم يذكره الخروبي في كتابه كفاية المريد. وأصح الطرق التي روينا فيها هذه الزيادة طريق شيخ والدنا سيدي أحمد أذفال[2]، إلا أنه قال إنما أخذها عن شيخه بركات الحطاب بالإجازة، واجتهد في تصحيحها من النسخ بعد ذلك حسبما رأيته بخطه آخر نسخة من الوظيفة، رضي الله عنه آمين.

لطيفة:

وقد أخبرني سيدي أبو العباس المذكور أن جده الأعلى سيدي أحمد الذي كان خديم الشيخ قال للشيخ في حياته: ألا نبني هنا زاوية ونتخذ لها أوقافا ؟ فقال له: يا أحمد، نحن لا تفوح رائحة مِسكنا إلا بعدما نتسوس تحت التراب. ثم بعد موته وكثرة الواردين والزائرين وانتشار صيته في مشارق الأرض ومغاربها، بنى تلميذه المذكور المسجد بإزاء قبره وسكن عنده بعد موته بعشرين سنة. وقد وجدنا عند هؤلاء الإخوان جزء من شرح الرسالة للشيخ بخط يده رضي الله عنه.

وممن لقيته هناك أيضا الأخ في الله صاحبنا الفقيه سيدي علي ابن عزازة[3]، وجده أيضا كان من أصحاب الشيخ، وليس في هذا البلد أمثل من هذا الرجل في

(1) أبو عبد الله محمد الخروبي الجزائري، عارف متفنن في علوم الفقه والحديث، له تصانيف عجيبة مثل: كفاية المريد، وشرح صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه القطب أبي محمد عبد السلام ابن مشيش، توفي سنة 963 هـ بالجزائر: دوحة الناشر، ص: 114.

(2) أحمد بن محمد أذفال السوساني الدرعي، الفقيه المتصوف، ارتحل من موطنه درعة إلى فاس، وشد الرحال إلى المشرق حاجا، توفي عام 1023 هـ: التقاط الدرر، ص: 66، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام 2:424.

(3) علي بن عزازة، قاضي الزاوية الزروقية، فقيه مالكي، لم يعين القادري تاريخ وفاته: التقاط الدرر، ص: 244. نشر المثاني 2:375.

بعض فروع الفقه. وكان قبل هذا متوليا للقضاء بهذا البلد ثم عزل. وقد آخيته في الله تعالى وأعطاني ورقة بخط الشيخ رضي الله عنه من شرح الرسالة، واشترط علي أن أثيبه عليها بدعوة على عرفات فوفيت له والحمد لله.

لطيفة:

وقد وجدت عند صاحبنا هذا ورقة فيها زمام تركة الشيخ وعـدة أولاده ونسائه ومن خلفه من بعده، وعدد متخلفه من كتبه وأمتعته. ولننقلها هنا بحروفها لما اشتملت عليه من الفوائد، منها استفادة عدد أولاد الشيخ وأين استوطنوا بعده، فإني لم أجد ذلك بعد الفحص الشديد عنه، ومنها التأسي به في قلة ما خلفه من الدنيا مع كونه ذا أولاد ونساء في بلد يشق فيها العيش، ولا يعوزه ما يخلفه لهم لو شاء لانتشار صيته وخدمة الدنيا وأهلها له، ومع ذلك لم يخلف منها إلا ما ستراه، ونصه بعد الافتتاح:

بعد أن توفي إلى عفو الله الشيخ الفقيه العالم العلامة الصالح العارف المحقـق القدوة المتبرك به أبو الفضل أحمد بن الشيخ المقدس المرحوم أبي العباس أحمد بـن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق، غفر الله له ولوالديه، انحصر إرثه في زوجته أمة الجليل ابنة أحمد المكرم أبي العباس أحمد بن الفقيه العدل أبي زكريا يحيى الغلياني المسراتي، وأولاده منها أحمد أبي الفضل وأحمد أبي الفتح وعائـشة. وزوجته فاطمة ابنة أبي عبد الله محمد الزلاعية الفاسية، وولده منها الفقيه الشاب الطالب الأسعد أبي العباس أحمد الأصغر، وابنه الشيخ الفقيه القدوة المـدرس أبي العباس أحمد الأكبر لا غيرهم في علمهم. ثم توفي أحمد أبو الفتح المذكور وانحصر إرثه في والدته أمة الجليل وشقيقه أبي الفضل وعائشة المذكورين، وأخيه لأمه أحمد بن الشيخ الفقيه الأجل الأسعد الصالح أبي علي منصور بن أحمد بن محمد البجائي لا غيرهم في علم شهوده، ثم توفيت عائشة المذكورة وانحصر إرثها في أمها أمـة الجليل المذكورة وشقيقها أبي الفضل وأخيها لأمها أحمد بـن الـشيخ منـصور المذكور. ثم توفي أبو الفضل المذكور، وانحصر إرثه في والدته أمة الجليل وأخيـه لأمه أحمد بن الشيخ منصور المذكورين، وأخويه لأبيه أحمد الأكبر وأحمد الأصغر المذكورين، لا غيرهم في علم شهودهم.

وكان من مخلف الشيخ أحمد المذكور نصف الفرس الشهباء كبيرة السن، شركة بينه وبين الحاج عبد الله بن عزازة التكيراني المسراتي بالنصف الثاني، مع برنوس أبيض، وجبة صوف بزر مختم مع ثوب بالغزل، وسبحة قفل كان أخذها الشيخ أحمد المذكور من الشيخ سيدي أحمد بن عقبة الحضرمي اليمني، نفعنا الله به، آمين. مع أربعة عشر سفرا، وكناش، فمن الكتب في الفقه من مختصر ابن عرفة[1] رحمه الله. وأسفار في الكبير مع حاشية الوانوغي[2] والمشدالي[3] على المدونة، مع سفر فيه مختصر الشيخ خليل، والشامل للشيخ بهرام[4]، رحمهما الله، مع شرح ابن عسكر[5] في الفقه للشيخ أحمد المذكور ألفه. ومن غير الفقه الديباج المذهب في التعريف برجال المذهب لابن فرحون[6]، رحمه الله، ومعه تأليف للشيخ أحمد المذكور: القواعد في علم التصوف[7]، ومعه شيء من علم الطب، مع سفر فيه قواعد للونشريسي[8]، والمذكور شيء من علم الطب، مع سفر فيه الزركشي[9] والسبكي في أصول الفقه[10]، وبلوغ المرام[11] لابن حجر، والبلالي اختصار

(1) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي، الإمام الفقيه، حج سنة 792، له مؤلفات عدة منها مختصره في الفقه، توفي سنة 803 هـ: شرف الطالب، ص: 88. شجرة النور الزكية 1:326.

(2) أبو عبد الله محمد بن أحمد الوانوغي التوزري، نزيل الحرمين الشريفين، الإمام المحقق، له طرر على المدونة، وكتب على قواعد ابن عبد السلام، مولده سنة 755 هـ، ووفاته بمكة المكرمة سنة 819هـ: لقط الفرائد، ص: 241. شجرة النور الزكية 1:350.

(3) أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم المشذالي البجائي، فقيه بجاية وخطيبها ومفتيها، ألف تكملة حاشية الوانوغي على المدونة، توفي ببجاية سنة 866 هـ: وفيات الونشريسي، ص: 259. شجرة النور الزكية 1:379.

(4) تقدمت ترجمته.

(5) عبد الرحمن بن محمد بن عسكر البغدادي، الفقيه الإمام،من تصانيفه: المعتمد، توفي سنة 732 هـ: لقط الفرائد، ص: 186. شجرة النور الزكية 1:292.

(6) إبراهيم بن علي بن فرحون المدني، قاضي المدينة المنورة، له شرح على مختصر ابن الحاجب و الديباج المذهب في أعيان المذهب وغير ذلك، توفي سنة 799هـ: وفيات الونشريسي، ص: 133. شجرة النور الزكية 1:319.

(7) قواعد الطريق في الجمع بين الشريعة والحقيقة للشيخ شهاب الدين أبى الفضل احمد بن محمد البرنسى الفاسي المالكي الشهير بالشيخ زروق المتوفى سنة 889 هـ: كشف الظنون 2:1358.

(8) أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي التلمساني الفاسي، الإمام المفتي، من مؤلفاته المعيار، وله كتاب القواعد في الفقه، توفي بفاس سنة 914 هـ: لقط الفرائد، ص:281. شجرة النور الزكية 1:397.

(9) تقدمت ترجمته.

(10) جمع الجوامع في أصول الفقه لتاج الدين عبد الوهاب بن علي بن السبكي الشافعي المتوفى سنة 771 هـ، وهو مختصر مشهور: كشف الظنون 1:595.

(11) بلوغ المرام من أدلة الأحكام لابن حجر العسقلاني (ت 852 هـ)، حقق هذا الكتاب وصدر في عدة طبعات.

الإحياء[1] مع سفر به شرح التفتازاني[2] في أصول الدين، والحِكم[3] لابن عطاء الله، و المنهل الروي[4] في علم الحديث وغيره. مع سفر من ملم[5] الحديث بخط الشيخ أحمد المذكور. وتأليف للشيخ عبد الرحمن الثعالبي مع إجازة له، وشيء من ابن حجرفي علم اللغة، رحمهم الله، وسفر فيه تفسير القرآن، وكناشه محتوى على وظائفه وغير ذلك.

وقد كان استوطن الشيخ أحمد المذكور[6] الأكبر بعد موت أبيه ببلاد المغرب، واستقر آخر ذلك بمدينة قسنطينة حرسها الله، وأرسل مراسيل للإتيان بالمخلف المذكور بخط يده، وثبت منها بالعدالة حسبما بيانه، كما (أذن)[7] بأن يوجه له ذلك مع من أمكن، وكان جميع ذلك تحت يد الشيخ منصور المذكور، وامتنع من ذلك لعدم الأمن والأمين حتى وصل الفقيه الطالب أبو العباس أحمد الأصغر المذكور في عام تاريخه لمدينة طرابلس حرسها الله تعالى. و لم يأت بموجب يقتضي له قبض ذلك لأخيه، فتوقف أصحاب الشيخ المذكور، فطلب الشاب أحمد المذكور أن يعطى ذلك في زمانه[8]، يطلب نصيبه ونصيب والدته فاطمة المذكورة، لكونه وارثها ونصيب أخيه أحمد الأكبر المذكور فوافقوه على ذلك بعد ثبوت الإذن المذكور بأن يعطي ذلك لأخيه، حضر إلى شهيديه الفقيه أحمد المذكور الأصغر نائبا عن نفسه وعن أحمد الأكبر. وأشهد أنه قبض جميع المخلف المذكور عدا نصف الفرس فإنه قبض ثمن ذلك، وهو ثمانية دنانير ذهبا مشحرة من الشيخ منصور المذكور قبضا تاما، وأبرأه بتاريخ أوائل ذي الحجة الحرام متم عام ثلاثة عشر وتسعمائة.انتهى.

---

(1) ذكر صاحب كشف الظنون أن لكتاب الإحياء للغزالي مختصرات، أحسنها وأجودها مختصر الشيخ شمس الدين محمد بن علي بن جعفر العجلوني البلالي المتوفى سنة 812، شيخ خانقاه سعيد السعداء بمصر، وهو الراجح على غيره، وهو نحو عشر حجمه: كشف الظنون 1:24.

(2) الإشارة هنا إلى شرح العقائد في أصول الدين لمسعود بن عمر التفتازاني: الدرر الكامنة 6:112.

(3) الحكم العطائية للشيخ تاج الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم، المعروف بابن عطاء الله الإسكندراني، الشاذلي المالكي المتوفى بالقاهرة سنة 709 هـ: كشف الظنون 1:657.

(4) المنهل الروي في علوم الحديث النبوي للشيخ الإمام بدر الدين محمد بن جماعة الكناني الشافعي المتوفى سنة 733 هـ: كشف الظنون 2:1884.

(5) كذا في خ، وهو غير واضح في ط.

(6) ساقط من ط.

(7) زيادة من ط.

(8) في ط: زمامه.

وصلى الله (وسلم)[1] على (سيدنا)[2] محمد وآله، (نقلت)[3] الرسم المذكور بحروفه من غير زيادة ولا نقصان مع وجود بعض التصحيف به، و لم أغير شيئا منه بل تركته كما وجدته، و لم أكتب من الرسم الأصلي بل من رسم نقل منه، والله أعلم.

وممن لقيته هناك من أهل الخير والصلاح سيدي فتح الله بخير من أحفاد سيدي عبد السلام، وهو ممن ترجى بركاته[4]، ووسمه وسم خير، قد نزل وحده بداره منقطعا عن الناس في نخيل على طرف البلد من ناحية البر.

ولقيت هناك أيضا المجذوب الصادق سيدي أبا زكية، رجل متقشف لا يؤبه له[5]، أرى أنه ممن لو أقسم على الله لأبره، وهو نازل وحده بساحل البحر بأهله، يرد عليه أهل الخير السائحون في الأرض، يدخلون البادية من هناك على قدم التوكل قاصدين الحجاز الشريف، فمنهم من يرجع بعد أعوام، ومنهم من يبقى هناك، ومنهم من لا يقف[6] له على خبر. وقد حكى من ذلك ومن أخباره معهم شيئا كثيرا.

ثم ارتحلنا من زاوية سيدي أحمد زروق بعدما تنعمنا بزيارته وقراءة ما تيسر من القرآن عند قبره والمبالغة في الدعاء، وأودعنا الله عند قبره أنفسنا وأموالنا وأدياننا فرأينا بركة ذلك. وقد شاع بين الحجاج أن من مر بقبره وأودع الله عنده نفسه وماله لا يصيبه مكروه حتى يرجع، ويفعلون ذلك إذا مروا به أو حاذوه في البحر فيجدون بركته. ولا بدع في ذلك ولا غرابة، فإن الله حفيظ لا تضيع ودائعه، والأولياء أبواب الله، فمن أودع الله شيئا عند باب من أبوابه فكيف لا يحفظه فيه (فالله خير حفظا وهو أرحم الراحمين)[7].

وكان رحيلنا من هناك يوم الأحد الخامس من شعبان، ومررنا بقصر أحمد ضحى، وهو آخر العمران هناك ولا عمارة وراءه على طريق الحاج إلى

---

(1) زيادة من ط.
(2) زيادة من ط.
(3) زيادة من ط.
(4) في ط: بركته.
(5) في ط: به.
(6) في ط: يوقف.
(7) يوسف: 64.

الإسكندرية. وزرنا خارجه على تل مرتفع بساحل البحر قبر سيدي أبي شعيفة، ووجدت عند قبره سيدي أبو تركية، بل وجدني، واغتنمت دعاءه في ذلك المكان، وذهب بي إلى مزارة هناك في مغارة بساحل البحر يتعبد فيها الصالحون، لا يكاد يطلع عليها أحد إلا من عرفها لأنها صغيرة مستقبلة البحر، يغلب على الجالس بها الحضور إذ لا يرى إلا البحر، ولا يسمع إلا تسبيحه وتمجيده لربه، (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)[1] لغفلتكم عنه. ومن امتزج تعظيم الحق وتسبيحه بلحمه ودمه وأنس بذلك سمع تسبيح كل شيء إما بحاله أو مقاله.

وقد أخبرني صاحبنا هذا أن مفتتح هذه المغارة رجل من العباد اسمه سيدي فرج، وهو الآن بالجزائر، وكانت قبل ذلك مغلقة لا علم لأحد بها، وأخبرني عن أناس آخرين مروا به هناك من الأخيار، وهم الآن بالحجاز أحدهم سيدي أبو القاسم السوسي[2] بالمدينة وسيدي علي التونسي. ثم ودعته هناك وكتبت له ورقة بخطي، تذكرة له وللإخوان في صالح الدعاء. وكنت أرى اجتماعي معه في ذلك المكان إحدى كراماته لأني فارقته بالأمس عند قبر الشيخ، ولم أقض الوطر من لقائه. ومنزله بعيد لا يمكنني الذهاب إليه، فأتى به الحق إلى ذلك المكان من غير وأي[3] ولا عادة، والله يعين العبد على قدر نيته.

وفي ذلك فارقنا آخر العمران، ودخلنا برقة ومررنا ذلك اليوم بماء يقال له العريعر، وهو حلو طيب بين السبخة والبحر، ونزلنا آخر اليوم على ماء آخر يقال له أبو كدية مقابل بلد تاورغا بينها وبين البحر. وهذه البلدة منقطعة أول برقة، وفيها نخل كثير، وتمرها أطيب من تمر غيرها من بلاد الساحل أجود منه، وإن كان على وصفه من عدم ادخاره إلا بإزالة النوى وطيبه، والله أعلم، لبعده شيئا ما عن البحر ورطوبته ودخوله قليلا إلى الصحراء حيث تكاد اليبوسة تستولي على أبدان الحيوانات فضلا عن النبات.

ثم في الغد نزلنا قرب الهايشة، وفي الذي يليه مررنا بالهايشة، وهي سبخة مستطيلة، وعلى جوانبها بناء وقصور خالية، وفيها نخيل متفرق كأنه رؤوس

---

(1) الإسراء: 44.

(2) أبو القاسم بن محمد المغربي السوسي نزيل دمشق ومفتي المالكية بها، فيه واعية حافظ، كانت وفاته سنة ثمان أو تسع وثلاثين وألف: خلاصة الأثر 145:1، الفكر السامي 329:4.

(3) الوأي: الوعد: لسان العرب: وأو.

الشياطين لا ترى أوحش منه ولا أثقل طلعة على الحاج في ذهابه، سيما المعاود لما يستشعر بعده من المهامه والمفاوز[1] والمعاطش التي يحار فيها الدليل، كما لا آنس منه ولا أبهى منه في منظر الآيب لدلالته على انقضاء المفازة وقرب العمارة. ونخيله آخر نخل يراه الذاهب وأول نخل يراه الآيب. وماء الهايشة ملح أجاج لا يكـاد يساغ، يضرب به المثل في القبح، وليس في مياه برقة أقبح منه إلا مواضع قليلة لا يعتمرها الحاج، مع أن هذا أيضا لا يستقسي[2] منه إلا من اضـطره العطـش أو كانت أيام الحر، وهو ماء راكد في مواضع كثيرة يحيط به القصب، وبعضه أشد قبحا من بعض. وبآخر الهايشة واد من الملح يجري الماء على أرض من الملح، فلا الماء يجمد ملحا ولا الملح يذوب ماء، وأظن ذلك لقوة ملوحة الماء ونداوة المحل. و لم نقطع ذلك المكان إلا بعد لأي[3] و لأي.

ثم نزلنا دور حسان، ومررنا الغد بحسان، وهو ماجل منقور في حجر يجتمع فيه المطر، فإذا فرغ المجتمع بقي محله يرشح بماء قليل يجم في قعره، يبل به الظمآن فمه. وبإزاء هذا الماجل قرى خالية لم يبق الآن إلا رسومها تسمى فيما مـضى قصور حسان[4] إضافة إلى بانيها، وكان عاملا لبني أمية لما نقض أهل إفريقية العهد في آخر خلافة بني مروان، بنى هناك قصورا وأقام فيها نحوا من ثلاث سنين حتى افتتحها بعد ذلك حسبما ذكر من أرخ فتوح إفريقية وسمي المكان باسمه إلي الآن.

ثم بتنا آخر ذلك اليوم بقرب ساقية هناك هي أول عمالة سرت[5]، ثم منه إلى الزعفران، وهي أحساء في ساحل البحر ماؤها طيب وعليه كثبان من رمل أحمـر تظهر من بعيد، ومن وراء الكثبان من ناحية البر قصور سرت، وهي ثلاث قصور تخزن فيها العرب ميرتها. وكانت فيما قبل هذه السنة خالية، ووجدناها في هـذه السنة فيها بعض العمارة ممن تركته العرب على خزائنها حافظا لها.

---

(1) في ط: المفاوز والمهامه.

(2) في ط: يستقي.

(3) اللي: الجهد والشدة: لسان العرب: لاو.

(4) نسبة إلى حسان بن النعمان الغساني الذي ولي إفريقية بعد استشهاد زهير بن قيس لبلوي سنة 76 هـ، فغزا ملكة البربر الكاهنة فهزمته فأتى قصورا في حيز برقة فنزلها وهي قصور يضمها قصر سقوفه أزاج فسميت قصور حسان: فتوح البلدان 1:231.

(5) أنظر ما جاء عن سرت في رحلة العبدري، ص: 85.

وبلاد سرت هذه من أخصب البلاد ذات مزارع كثيرة بالبعل، وعربها أهل رفاهية إلا أن الجور أجلاهم عن بلادهم وشتت شملهم، إلا أن أمرهم كاد ينتظم في هذه الأواخر على يد أميرهم سيد روحه. ثم في الغد بتنا بموضع يقال له امكيرينة وبإزاءه بئر طويل. وفي الغد مررنا بمعطن يقال له المُدَينة تصغير مدينة، على ساحل البحر، ثم بآخر يقال له (أم)[1] السلطان، ثم بتنا مقابل آخر يقال له النعيم. ووجدنا هناك حلل أعراب سرت، وأميرهم عبد القادر بن عبد الله الملقب سيد روحه لقب أبيه عبد الله. قالوا سبب تلقيبه بذلك أن أباه كان من أهل الخير ومن أهل النسبة، ونزل بأولاده ساحل حامد، وكان له عدة أولاد، فلما نشأ ولده هذا واشتغل بما لا يعنيه وظلم الناس، فمن اشتكى إلى أبيه قال في شكواه: إن سيدي عبد الله فعل بي كذا وكذا، فيقول أبوه توبيخا لولده: ليس بسيدكم وإنما هو سيد روحه، فاستمر ذلك لقبا له ثم لإخوانه وأولاده من بعده. وأخوه عبد الرحمن هو رئيسهم الآن، وكلمته نافذة وأمره مسموع في عرب سرت وسائر عرب تلك النواحي إلى الجبل الأخضر. وهم مستندون إلى الأمير عثمان في الظاهر مستبدون برأيهم في الباطن، ولهم جدار وعقار كثير بساحل حامد، وكبيرهم عبد الرحمن نازل فيه، وأبناء أخيه عبد الله متفرقون في حلل الأعراب، فأما عبد القادر فهو مع عرب سرت، وأما أبو بكر أخوه فهو بحلله على الجابية ونواحيها مع عرب تلك الناحية.

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا الأحمر ضحى، وتسوقنا أولئك الأعراب بإبل في غاية السمن وغنم أخذ الناس منها حاجتهم وقليل سمن. ثم ارتحلنا منه وحمل الناس ماء خمسة أيام إلى المنعم، وتسمى هذه المسافة كلها عند الحجاج مقطع الكبريت تغليبا، وإلا فالمسمى بذلك حقيقة موضع واحد. وفي هذه المسافة مياه كثيرة إلا أنها تقل (في)[2] بعض الأحيان، وبعضها أجاج فيحتاط الناس بأخذ الماء الطيب. ثم مررنا ذلك اليوم بماء يقال له العويجة، وبتنا بإزاء ماء آخر يقال له الشقة، وماؤها قبيح آجن ذو حمأة. ومن أمثال الحجاج: مائة دكية ولا شربة من الشكة[3].

---

(1) زيادة من ط.
(2) زيادة من ط.
(3) أثبتها العياشي بكاف معقودة.

ثم ارتحلنا منه ومررنا بمزارع لأولاد سيدي ناصر؛ فقراء مرابطون من أهل سرت يطعمون الطعام[1] من ورد عليهم، ومعهم طرف من الديانة إلا أنهم أضر بهم جور الأعراب لأنهم بين عرب سرت وعرب برقة، فقلما يسلم لهم وقت من غارة ما من هؤلاء أو من هؤلاء. غير أنهم الآن مستظلون بظلال أسمال من العافية لما ولي عبد الرحمن الجيالي الملقب سيد روحه على البلاد وقهر الأعراب وقويت شكيمته على أهل البادية، فأمنت السبل بعض الأمان، فرجع فقراء الأعراب إلى بلادهم، وعمرت البلاد بعض العمران، وتلك سنة الله في البلاد والعباد أن الولاة وإن جاروا خير من مرج الرعية يعدوا بعضهم على بعض، فيعم الخراب الحواضر والبوادي، وبهذا السبب خلت أرض برقة كلها، وهي مسافة شهرين، وكانت متصلة العمارة من الإسكندرية إلى إفريقية لا تكاد تسير فيها بريدا[2] ليس فيه أثر بناء ورسوم عمارة دائرة. وقد جاء الإسلام وغالبها عامر، ثم لم تزل عمارتها تضعف إلى أن خرج عرب هلال من مصر أواخر الرابعة وأوائل الخامسة فخربوا البلاد واستولوا على القرى فأفسدوها وخلت البلاد من يومئذ.

ثم مررنا في يومنا بسانية مقابل اليهودية جهرت[3] في هذا الوقت، وبتنا في سانية أخرى (وغدير ماء)[4]. واليهودية قرى كثيرة متقاربة فيها آثار[5] بناء خال متراكم يدل على أنها كانت عمارة كبيرة. واشتهر على ألسنة الحجاج أنها مدينة كانت ملكتها يهودية في عسكرها كذا وكذا من الخيل. قلت وفي الرسالة القشيرية عن بعض الفقراء أنه قال: دخلت مدينة اليهودية[6] بأرض المغرب وساق الحكاية إلخ. ولعل[7] تلك المدينة هي هذه؛ إذ لا نعلم بأرض المغرب مدينة تسمى اليهودية غيرها، والله أعلم بحقيقة ذلك.

---

(1) ساقط من ط.
(2) البريد فرسخان، وقيل ما بين كل منزلين بريد: لسان العرب: برد.
(3) في ط: عمرت، وجهرت: بمعنى عمرت؛ والمَجْهُورة من الآبار: المعمورة، عذْبةً كانت أو مِلحة. وجهر البئرَ يجهرها جهراً
نزحها: لسان العرب: جهر.
(4) زيادة من ط.
(5) في ط: أثر.
(6) لم يرد ذكر هذه المدينة في الطبعة التي اعتمدناها من الرسالة القشيرية.
(7) في ط: وهل.

ثم ارتحلنا غدا ومررنا بقصر العطيش وبماء يقال له الكحيلة وبتنا وراءه. ثم ارتحلنا من هناك ومررنا آخر النهار بماء يقال له أم الغرانق، إلا أنه لا يكاد يساغ فلا فرق بينه وبين ماء البحر إلا اللون والرائحة. وبتنا أمامه في سبخة مقطع الكبريت، وسمي هذا المحل مقطع الكبريت لأن في أعلى السبخة[1] معدن الكبريت في آبار كثيرة يحمل منها كالطين، ومن هناك يحمل إلى طرابلس وكذلك إلى مصر والإسكندرية، ويذهب منها مع الركب إلى مصر في كل سنة أحمال كثيرة لأن العرب الذين يحملون الكراء من مصر إلى طرابلس للحجاج، فإذا رجعوا حملوا على ما فضل من إبلهم عن الكراء كبريتا ويتقدمون أمام الركب بيوم إذا شارفوا هذا المحل، ثم يلحقون الركب في المنعم. وقد أصابتنا يوم نزولنا بهذه السبخة ريح عاصفة حمراء قوية جدا أسقطت كثيرا من الأخبية، دامت إلى الصباح، ولم نوقد نحن، ولا كثير من أهل الركب، في تلك الليلة نارا ولا طبخت عشاء من قوة الريح، وعصمنا الأخبية بالحبال فما أغنى ذلك.

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا بالمنعم، وهي أحساء بساحل البحر ماؤها طيب، عليها كثبان رمل ينزل الناس وراءها فيمرون إلى الماء من بينها، وقلما يخلو من عمارة الأعراب. وقد وجدنا على هذا الماء عربا من أهل سرت، وأميرهم بومغاث، وهم يزعمون أن لهم عادة على الحجاج يعطونها إذا مروا بهم فرسا لشيخهم، وأن ذلك عادتهم من جدهم سحيم. ولكن الله أضعفهم ودمرهم فلا يستطيعون التعرض للركب، وقد سرقوا جملا من الركب فأخذ الحجاج جملا لهم حتى أتوا به. وقد أخبرنا شيخهم بومغاث أن سبب هذه العادة التي يزعمون على الحجاج أن ركبا لأهل تونس مر بهم وضاع لهم جمل فيه قيمة ألف ريال، قال: فوجده الشيخ سحيم بعدهم وأدخله في بيت قصور سرت، ولم يحله حتى رجع الركب، فأخرجه لهم فوجدوه لم يضع منه شيء. ومن هناك التزموا له أن كلما قدم ركب من تونس جاءوه بفرس. فقلنا له: لسنا نحن من أهل تونس فلا عادة لكم علينا. وكفانا الله شرهم بضعفهم وقهر الجبالي[2] لهم، فلا يرفعون يدا ولا يجيبون ندا.

---

(1) في ط: السبخ.
(2) في ط: الجبار.

ثم ارتحلنا من هناك وتيامنا عن البحر قليلا، وبتنا ليلتين في الطريق، وفي الثالثة جئنا إلى الجابية، وفارقنا البحر من المنعم فلا تجتمع طريقنا معه إلى التميمي. وفي هذه الجابية آثار عمارة كثيرة وآبار عظيمة منقورة في الحجر، وبنيان هائل بالحجر المنحوت، وهناك رسم مسجد قديم تهدم، ووجدنا في بعض حجاراته تاريخ بنيانه منقوش سنة ثلاثمائة.

لطيفة:

قد أخبرني شيخنا سيدي محمد بن مساهل عن بعض المشايخ أن الإمام سحنونا كان مدرسا بهذا المسجد ثلاث سنين. وهذه المدينة هي مدينة برقة المذكورة في كتب الفقه، وقيل إنها مدينة بالجبل الأخضر بالجانب البحري. وقد أخبرني صاحبنا سيدي عبد الله بن غلبون أنه رآها، وأن رسومها تدل على عمارة قوية، وبها آثار سور وأبراج ورخام كثير. وقال لي: إن بها قبرا مشهورا يزار، ويزعم أعراب البلد أنه قبر نبي. فقلت له: الغالب أنه قبر صحابي، فقد نص المؤرخون على أن رويفع بن ثابت[1] بن السكن الأنصاري النجاري، من الصحابة، قد توفي[2] ببرقة وهو أمير عليها من قبل مسلمة بن مخلد. وقتل ببرقة أيضا من الصحابة زهير بن قيس البلوي[3]، ندبه عبد العزيز بن مروان إلى برقة فلقي الروم فقاتل حتى قتل. وما ذاك إلا قبر أحدهما، فإن كثيرا من العوام يطلقون اسم النبي على الصحابي، وقد شاهدنا كثيرا منهم يعتقدون[4] في أبي بكر وعمر أنهم من الأنبياء ويظن أن اسم النبي والصحابي مترادفان. فلما أخبرتُه بذلك فرح وقال لي: ليس إلا كما ذكرت.

---

(1) رويفع بن ثابت الأنصاري النجاري المدني ثم المصري، الأمير، له صحبة ورواية، حدث عنه بسر بن عبيد الله وحنش الصنعاني وزياد بن عبيد الله وأبو الخير مرثد اليزني ووفاء بن شريح وآخرون، نزل مصر واختط بها، وولي طرابلس المغرب لمعاوية في سنة ست وأربعين، فغزا إفريقية في سنة سبع ودخلها ثم انصرف، توفي ببرقة وهو أمير عليها لمسلمة بن مخلد في سنة 56 هـ: سير أعلام النبلاء 36:3.

(2) في ط: دفن.

(3) عمل عبد الملك بن مروان بعد مبايعته على استعمال أخيه عبد العزيز على مصر، فولى أفريقية زهير بن قيس البلوى، ففتح تونس، ثم انصرف إلى برقة فبلغه أن جماعة من الروم خرجوا من مراكب لهم فعاثوا فتوجهوا إليهم في جريدة خيل، فلقيهم فاستشهد ومن معه سنة 76 ه هـ، فقبره هناك وقبورهم تدعى قبور الشهداء: فتوح البلدان 231:1. البداية والنهاية 16:9.

(4) في ط: يعتقد.

ولما رجعنا من الحجاز سنة أربع وسبعين لقيته ببلده مسراتة وقال لي: إني قد ذهبت بعدك إلى المكان المذكور وتأملت القبر وعليه كتابة وإمارات ربما تدل على صحة ما ذكرت. قال لي: وذكرت كلامك لبعض الأمراء في درقة ففرح بذلك وأمر بالبناء على القبر والتنويه به، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا[1]، ونية المؤمن أبلغ من عمله، فإن صح أن هذا القبر قبر الصحابي المذكور فتلك المدينة هي مدينة برقة المشهورة لا الجابية، والأمر في ذلك قريب، فإن بين المدينتين نحوا من خمسة أيام، فكلاهما يصح أن يقال بينها وبين كل من مصر وإفريقية شهر؛ إذ بذلك يعرفها الفقهاء، إلا أن التي في الجبل أقرب إلى[2] مسمى المدينة لما بإزائها من المياه والأماكن المخصبة والمزارع الكثيرة، والغياض الملتفة من أنواع الأشجار، بخلاف الجابية فإنها في صحراء من الأرض مقفرة[3]، والله أعلم بغيبه.

ومسمى برقة على التعيين عند عرب البلد اليوم هي مسيرة ستة أيام من المنعم إلى سلوك، وفيها رسم[4] أبنية كثيرة، وإطلاق برقة على ما سواها بمجاز علاقته المجاورة، وهذا مما يقوي أن مدينة برقة هي الجابية. وبإزاء المسجد الذي بها قبر محوط عليه بالحجارة يزار، يقال لصاحبه سيدي يونس، وهو من عرب الفواخر[5]، وقد وجدنا ركب أهل تونس الذين مروا أمامنا قد أوقدوا عليه شمعا كثيرا، وبقيت منه بقية فأردنا أخذها للحاجة إليها ثم توقفت في ذلك، وبعد ذلك ظهر لي جواز أخذه، فبعثت إليه فوجدت الغير أخذه. ثم ارتحلنا من الجابية، وفي آخر ذلك اليوم تعاهد بعض الإبل داؤها القديم من النفور والجفال عند قرب المنزل، ولطف الله بالعباد.

ثم ارتحلنا من هناك ومررنا بماجل كبير فيه بقية من ماء المطر، وبتنا على قرارة[6] فيها ماء كثير غادرته الأمطار، ثم ارتحلنا منها ونزلنا على سلوك ضحى، وهو آبار متعددة كآبار الجابية في صفتها ومائها، وبإزائها أيضا رسوم بناء إلا أنها

(1) إشارة إلى قوله تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) الكهف: 30.
(2) في ط: من.
(3) في ط: مغبرة.
(4) في ط: رسوم.
(5) في ط: الفراصد.
(6) في ط: فزارة؛ والقرارة: ما قَرّ فيه الماء. والقَرارُ والقَرارةُ من الأرض: المطمئن المستقر: لسان العرب: قرر.

قليلة بالنسبة إلى الجابية، وماؤها يقل في أيام الحر، وقد مررنا عليها سنة تسع وخمسين في حمارة القيظ فلم نكد نروي منها إلا بعد عناء شديد وإقامة يوم وليلة أو ليلتين، وهذا المورد هو آخر برقة الحقيقية كما مر، وتسمى برقة الحمراء، وهو[1] بمرأى من الجبل الأخضر، ووجدنا عليه سوادا من العرب ينتظرون السوق مع الركب، وبتنا به ليلة، ومن هنالك[2] فارقنا من فارقنا من الأعراب القاصدين لمرسى ابن غازي، وهي مرسى حسنة بسفح الجبل الأخضر بينها وبين سلوك مسافة يوم، وفيها عامل وعسكر لصاحب طرابلس، وفي تلك المرسى تصب أودية السمن والعسل والشحم والودك من الجبل الأخضر الذي لا أخصب منه ولا أكثر إداما فيما رأينا من البلاد، وتحمل كل ذلك السفن إلى طرابلس وجربة وما بإزائهما من البلد، ومن هذا الجبل غالب إدامهم ولحمانهم، وقد دخلنا طرفا من هذا الجبل سنة تسع وخمسين من شدة الحر، وتسوقنا طائفة من أهله بما قضينا منه العجب من السمن والغنم والإبل، ولم نعهد مثل ذلك في بلد من البلاد ولا رأينا أرخص منه سعرا ولا أقل معرفة بالبيع والشراء من أهله، يؤخذ منهم زهاء القناطير من السمن بالثمن التافه من بز[3] أو عروض[4]، أو غير ذلك من الحوائج، ولا يعرفون للدرهم قدرا، وكانوا إذ ذاك كنعمهم غفلا، لم يدخل التجار بلادهم ولا صادرهم العمال عن أموالهم، إذ لا حكم لأحد من العمال عليهم إلا أشياء قليلة يؤدونها في بعض الأحيان لصاحب أوجلة، وأما صاحب طرابلس فلم يكن له عليهم إذ ذاك حكم، وأما الآن فهم تحت إيالته وفي أسر طاعته يؤدون الخراج ويدخل التجار من أهل طرابلس ومسراتة بلدهم لشراء الإبل والبقر والغنم والصوف والإدام، فبذلك حصل لهم بعض الخبرة بقيم الأشياء ومقاديرها، وعرفوا الدرهم والدينار، وأما قبل ذلك فكانوا كالأنعام (بل هم أضل سبيلا)[5].

(1) في ط: هي.
(2) في ط: هناك.
(3) البز: الثياب: لسان العرب: بزز.
(4) العروض: جمع عرض؛ وهو المتاع: تاج العروس: عرض.
(5) الفرقان: 44.

غريبة:

عرب هذا الجبل من أشد العرب كفرا ونفاقا[1]، لا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله، ليس عندهم من الدين إلا اسمه، لا حرفة لهم بعد تنمية مواشيهم إلا النهب والغارة، قل ما مر بهم ركب سلم من أنشاب الحرب بينهم وبينه بسبب غدرهم وفتكهم عند اشتغال الناس بالسوق معهم، وقد وقع لنا ذلك معهم مرارا، وأغرب من ذلك أنهم لا يعرفون السرقة، فيحترس الناس منهم نهارا خشية النهب والغارة، وبالليل يبيت الناس رقودا مطمئنين ولا تسرق لهم حاجة، وما ذاك، و الله أعلم، إلا لانقطاعهم عن العمران وتوحشهم، والسرقة في الغالب إنما تعهد حيث يكثر العمران ويجتمع أجناس من الناس وتعمر أسواق ويوجد بيع و شراء، وأما هؤلاء فأعداؤهم بعيدون منهم لا يقدرون منهم إلا على الغارة المرة بعد المرة، وفيما بينهم يأمن بعضهم بعضا، فألفوا ذلك.

ونوادر هذا الجبل في رخاء الإدام وغفلة أهله عن قيمته وكثرة خصبه، وبيعهم لبناهم وأخواهم وغير ذلك[2] أشهر من أن يذكر، وطول هذا الجبل نحو عشرة أيام من بحريه، وسبعة أيام من الناحية الأخرى، وأكثر شجر الناحية التي مررنا بها العرعر، حتى إنه من شدة اشتباكه والتفافه لا ينفذ الناس فيه إلا في طرق معلومة وشعاب مسلوكة، ومن خالفها توعر وانتشب في الغياض[3] بحيث لا يخلص إلا بمشقة، سيما إن كان ذا دابة. ومع كثرة غاب هذا الجبل لا يوجد فيه الأسد، والحجاج يزعمون أن سيدي أبا محمد صالح دعا عليه فأجلاه الله من هذا البلد لئلا يؤذي صعاليك الحجاج، وذلك إن صح غيض من فيض فيما لأولياء الله من الكرامات.

---

(1) إشارة إلى قوله تعالى: (الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم): التوبة:97.

(2) ساقط من ط.

(3) الغياض: جمع غيضة؛ وهي الأجَمة. والغَيْضَة: مَغيض ماء يجتمع فَيَنْبت فيه الشجر: لسان العرب: غيض.

غريبة:

ومما شاهدناه في عرب هذا الجبل من الغرائب ركوبهم على البقر وحمل الهوادج عليها، وإناختها عند الركوب والنزول مثل الإبل من غير مشقة عليها، ولا عليهم في الإناخة لاعتياد الكل لذلك، ولله في أرضه عجائب وفي طباع الحيوانات غرائب. وكذلك الغنم لا يسوقونها إنما يسير صاحبها أمامها، قلت أو كثرت، وهي تتبعه، فإذا أمهل في السير أمهلت، وإذا أسرع أسرعت، وإذا جرى جرت، ويأتي أحدهم بالكبش إلى السوق وهو يتبعه مثل الكلب المعلم.

ثم ارتحلنا من سلوك، وتنكبنا طريق الجبل لوعرها وسوء خلق أهلها وتلصصهم على الحجاج، وسلكنا طريق السروال عن يمين الجبل، وهي مسافة سبعة أيام لا ماء فيها إلا ما غادرته الأمطار في قيعان الأرض، ولكن بفضل الله ما مرت علينا مسافة يوم إلا وجدنا من الماء فوق الكفاية، ثم طلعنا إلى سفح الجبل وبتنا هناك، ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا ضحى لغرض عنَّ لبعض أمراء الركب فيه بعض الغرض، وفي قلب أكثر الناس من الإقامة مرض.

ثم ارتحلنا والجبل عن يسارنا ومررنا ضحى بماء يقال له الخطاطيف؛ غدير كبير، واستقينا منه وبتنا بموضع يقال له الخروبة، وفيه ماء. ثم ارتحلنا وجئنا إلى وادي سمالوس قبل العصر ووجدنا فيه غديرا كبيرا، وبات الناس مبسوطين ناشطين ونحن في كل ذلك لم نخل ليلة من سوق مع أعراب الجبل يقدمون منه متعرضين للركب، ثم ارتحلنا منه ومررنا ضحى بمياه كثيرة وربيع أُنُف في أودية منحدرة من الجبل نالت منه الإبل فوق الحاجة، وسرنا يومنا إلى الليل، وعند نزولنا جاءت قافلة من الأعراب تحمل تمرا كثيرا قدموا به من سيوى[1] يريدون بيعه، وصادفوا حاجة الناس إليه، وأخذ الحجاج منه كفايتهم لصوم رمضان بأرخص سعر، وذلك فضل من الله ونعمة، (والله ذو فضل عظيم)[2].

وتمر سوى من أحسن التمار لم نر من يوم خروجنا من تافلالت تمرا يشابه تمرها إلا هذا لونا وطعما، وهذا أنظف منه وأنقى لأن عادتهم أنهم لا يحملونه إلا

(1) سوى: سماها ابن مليح سيوة، وهي مدشر عظيم على ربوة مرتفعة: أنس الساري والسرب، ص: 37.
(2) آل عمران: 174.

في قفاف من العزف[1] تسع كل واحدة قريبا من نصف قنطار، ويجعلون لها معاليق تعلق بها على أقتاب الإبل، فيحمل الجمل منها (اثني)[2] عشر، أو أكثر أو أقـــل، على حسب صغرها وكبرها وقوة الإبل وضعفها، وتلك صنعة عجيبة يبقى التمر على حاله نظيفا ولا يحتاج مشتريه إلى غرائر للحملان، وليت أهل مغربنا يفعلون مثل ذلك.

ثم ارتحلنا من هناك وجئنا ظهرا لقصر المُخيلف ووجدنا فيه مياها كثيرة في مآجل، ووجدنا به جابيتين متلاصقتين مبنيتان[3] بالحجارة المرصوصة بناء متقنـــا، وكل واحدة طولها نحو المائة ذراع في مثلها وقد تعرضتا لأفواه الشعاب وجمعتا من الماء ما تبحر وكاد أن يتفجر، وأخذ الناس منه حاجتهم وتوضؤوا. وهذا القـــصر من أعظم القصور الخالية التي بقيت رسومها في تلك البلاد، وفيه أثــر مــسجد ومئذنته باقية إلى الآن، وليس فيه ماء حي، ولو احتسب أحد من الولاة بحفر بئر فيه لكان فيه أعظم الأجر لأنه في محل بعيد من الماء من كل الجهات، وقل ما يسلم الحجاج في أيام الحر من شدة تقع لهم بسبب العطش في ذلك المحل أو قريبا منه. ثم تجاوزنا ذلك المحل ولم نبت إلى المغرب، واستهل لنا في تلك الليلة، وهـــي ليلـــة الخميس، شهر رمضان المبارك، وصامه من أراد صيامه، وأفطر من خاف أوامه، وليس على كلا الفريقين ملامه.

ثم ارتحلنا غدا ونزلنا أمام الغزيات، وهي قرية خالية مشرفة على واد كبير، وفيها مآجن كبيرة. ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا قرب التميمي ضحى ولم نصل إلى مورد التميمي لأن الله أغنى عن مائه الأجاج ببحار من الغدير في أعلى الـــوادي متصلة في صخور منقورة وبرك من صنعة الجبار بالماء الحلو معمورة، وبات الناس بها وجاءهم المتسوقون من درنة بالطعام الكثير واللحم السمين، ودرنة مدينة على ساحل البحر بها مرسى، بينها وبين التميمي مسافة يوم ونصف من غربيه، وكانت خالية منذ أزمان إلى أن عمرها الأندلس قرب الأربعين والألف، ولم يزالوا بها إلى أن بطروا، فأنشبوا الحرب بينهم وبين أمير طرابلس، فأخرجهم منها صاغرين بعد وقعة قتل فيها مئون من أشرافهم، وهي الآن في طاعته، وفيها عامله المستولي عليها

(1) العزف: ليف الدوم: عامية مغربية.
(2) زيادة من ط.
(3) كذا في خ وط.

وعلى عرب الجبل الحاج محمود. ومرسى هذه المدينة عجيبة تترل بها السفن الجائية من الإسكندرية ومن طرابلس ومن بر الروم، سيما جزيرة كندية فإن بينها وبين درنة مسافة يوم في البحر لإنها[1] في مقابلتها، والمعاش في هذه المدينة متيسر كثير لجمعها بين البادية والحاضرة، وهناك بلغنا خبر الوباء بأرض مصر والإسكندرية، نسأل الله أن يكفينا شره وأن يدفع عن العباد ضره.

ثم أقمنا بعد ذلك يوما هناك أزال الناس من أدرانهم واستراحوا في أبدانهم، والله يبلغ على خير. وكنت أفطرت يوم إقامتنا ولامني بعض الإخوان على ذلك و قال: ما حملك عليه إلا الشهوة. فقلت له ما قال بعض المشايخ: إذا وافق الحق الشهوة فذلك الزبد بالشهد. و قال: إنك ممن يُقتدى به، فإذا رآك الناس أفطروا وأدى ذلك إلى هتك حرمة الشهر. فقلت: إن الله تعالى هو المحرم، و لم يجعل لهذا الشهر حرمة في السفر، وحرمة الشهر، و الحمد لله، معلومة بين المسلمين لا يزيلها إفطار مفطر ولا يزيدها صوم صائم، ومن يقتدى به هو الذي ينبغي له الإفطار، وإن لم يتضرر بالصوم، لأن كثيرا من الناس يعتقدون حرمة الإفطار أو قبحه فيحتملون من ذلك مشقة عظيمة حسبما شاهدت ذلك مرارا في كثير من الأسفار المندوبة فضلا عن المباحة، فإذا رأوا من يعتقدون فيه الخير سهل عليهم الإفطار[2] وعلموا إباحته وأولويته لمن شق عليه الصوم، واستدللت بغير هذا من الأدلة.

ثم ارتحلنا من هناك وتركنا منهل التميمي عن يسارنا إلى أن وردنا عين الغزالة ظهرا، وهي عين من الماء العذب فيه بعض ملوحة تصب في بحيرة منقطعة عن البحر يدور بها القصب من أكثر جهاتها، وليس في برقة كلها ماء يجري إلا هذا. ثم تجاوزناها بأميال فبتنا في أرض طيّبة كلها منقسمة بتخرم الحرث وآثار البناء متصل بأطرافها، وعن يمينها شعاب تنصب من الجبل وكأنها كانت مجاري السيل، ويقسمه أهل تلك الأرض على مزارعهم.

---

(1) في ط: فإنها.
(2) في ط: الفطر.

غريبة:

وفي الغد منه مررنا عن يسار الطريق ببيت منحوت في الحجر الصلد طوله عشرون ذراعا في مثلها وبداخله بيت آخر نحو نصفه، وفيه غرف صغار كأنها مخازن، وكل ذلك منقور في الحجر الصلد نقرا عجيبا مربعا كهيئة أحسن ما أنت راء من البيوت وباب مربع كأحسن الأبواب، وعند الباب حجرة واسعة منقورة في الحجر أيضا فتعجبنا من حسن صنعتها وإتقانها، وتدبرنا قوله تعالى: (وتنحتون من الجبال بيوتا)[1]، وقد ذكر العبدري هذا البيت وأجاد وصفه[2].

ثم سرنا يومنا ذلك وعدلنا عن طريق دفنة يمينا وبتنا بموضع يقال له المدور، وفيه مآجل كثيرة مملوءة بماء المطر، ثم ارتحلنا منه وبتنا مقابل دفنة، وهي منهل على ساحل البحر يمر عليه الحاج بالصيف وعند قلة الأمطار، ثم ارتحلنا من هناك ومررنا بموضع يقال له الغريض وفيه مآجن ومزارع محروثة، وطلعنا سطح العقبة وبتنا به، ثم ارتحلنا منه وسرنا في سطح العقبة وهي أرض مستوية لا علم فيها إلا آثار الأبنية القديمة وبعض آثار المزارع، ونزلنا بفم العقبة الكبرى، وفي سطح العقبة قبر يزار يقال لصاحبه سيدي عزيز، وهو من عرب سمالوس يأتيه الأعراب بإبلهم وغنمهم فيمرون بها بين كومين هنالك[3]، ويزعمون أن من مر بها هناك لا تصيبه آفة في تلك السنة، ويقتدي بهم بعض الحجاج في ذلك.

لطيفة:

أرض برقة منقسمة في عرف أهلها على أقسام، أولها من حسان إلى ما وراء الأحمر بيومين يسمى سرت، ومن هناك إلى قرب المنعم يسمى برقة البيضاء، ومن هناك إلى سلوك يسمى برقة الحمراء، ومنه إلى التميمي يسمى الجبل الأخضر، ومنه إلى العقبة الكبرى يسمى البنطان، ومن العقبة الكبرى إلى الصغرى يسمى العقاب،

(1) الشعراء: 149.
(2) رحلة العبدري، ص: 82.
(3) في ط: هناك.

ومن العقبة الصغرى إلى الإسكندرية يسمى العقبة الصغرى. وقد ذكر العبدري تقسيما غير هذا جار على اصطلاح أهل[1] زمانه[2].

ثم ارتحلنا من فم العقبة وانحدرنا منها في منحدر صعب مشرف على البحر، ثم نزلنا ذلك اليوم بماء يقال له بقبق، وهي أحساء كثيرة في رملة بيضاء في سفح كثيب من الرمل الأبيض يظهر من بُعد كأنه ثلج.

غريبة:

مررنا بهذا المحل سنة أربع وستين فوجدنا فيه سفينة للنصارى قد حرثت في ذلك المحل، وهو محل صعب على السفن يسمى جون العقبة، قلما تدخل فيه سفينة وتسلم، وبعد أن تجاوزنا ذلك المحل لحقنا نصراني من أهلها وتزيا بزي المسلمين، وكان يحسن العربية فقال: إني من إفريقية جئت في هذه السفينة التي حرثت وهي للمسلمين، وبقي معنا في الركب يحسن الناس إليه بالطعام والشراب حتى وصلنا الإسكندرية ودخل إلى سفن النصارى، ولم يتفطن له أحد أنه نصراني حتى وصل إليهم، وبقيت سفينتهم في ذلك المحل إلى أن أدركنا رسومها في هذه السنة.

ثم ارتحلنا من بقيق ونزلنا مقابلة ماء يقال له القتبل، وفي الغد نزلنا على ماء يقال له شماس، وقريب منه آخر يقال له الفوار، وهاتان المرحلتان كلتاهما فيهما آثار الأبنية المتصلة جدا حتى لا يكاد يخلو ميل واحد من البناء، والبقاء لله وحده.

ثم ارتحلنا منه ومررنا بماء آخر بقربه طيب يقال له حلق الضبع، وفوقه غدير كبير في أصل جبل صغير قل ما يخلو من ماء الغدير، وما نزلنا إلى موضع يقال له قبر العاصي فيه قبور معلمة بأحجار وخشب. ثم ارتحلنا منه ومررنا بماء يقال له العبدية، وهي بئر كبير مطوي بحجر في سفح جبل يترل إلى البسيط الذي فيه في منحذر صعب كان أحق باسم العقبة الصغيرة من المكان المسمى به، إلا أن العقبة

(1) ساقط من ط.

(2) قال العبدري: " وبرقة الآن عند الناس اسم أرض لا اسم مدينة، والمغاربة يسمون بها ما ردت عين أقيان من غربي أجدابية إلى الإسكندرية، وذلك نحو من أربعين مرحلة، وأما عرب تلك الأرض فإني رأيتهم لا يسمون بها إلا ما رد الحصوى شرقا إلى أرض برنيق غربا، وهو الغابة، وما حاذاها من الساحل ومن القبلة، ويسمون ما رد الحصوى إلى العقبة الكبيرة البطنان، ومنها إلى الإسكندرية، لا ينكرون إلا العقبتين، وذلك مسيرة عشرة أيام" أنظر: رحلة العبدري، ص: 87– 88.

لما كانت في حدب ذاهب في البر يمينا لا غنى لأحد عن المرور به اشتهر اسمها، وهذا إنما هو على شفير البحر لا يمر به إلا من سلك ساحل البحر، وبإزاء العبدية ماء آخر يقال له مطيريح مصغرا، وهو آبار متعددة قريب ماؤها في بسيط من الأرض ذي قطف كثير يشرف على ذلك البسيط حاجب شبه جبل صغير فيه بيت منحوت في الحجر شبه الذي ذكرنا في البطنان، إلا أن هذا أصغر منه، وبعده ماء آخر يقال له مطروح مكبرا، وكان فيه نزولنا ظهرا، وسقى الناس إبلهم، وكانت قبل ذلك لا تشرب لكثرة العشب الرطب، والإبل إذا وجدت الكلأ الرطب لا تشرب ولو أقامت ما عسى، وما أذكر أن إبلنا شربت الماء الحي من قبل دخولها إلى طرابلس حتى وصلنا هنا، وأغرب من هذا[1] أنا عددنا للإبل سنة خمس وستين من يوم دخولنا مصر آيبين إلى أن خرجنا لبرقة وبلغنا الجابية تسعين يوما لم تشرب ماء حتى قرب الصيف وييس العشب وصار هشيما، وكذلك هذه السنة لم نر شدة الحر والجذب في الأرض إلى هذا المكان، وأما قبل ذلك فقل ما يخلو لنا يوم من ماء مطر و كلإ فوق الحاجة. وقدمت معنا غنم كثيرة من الجبل الأخضر جلبها التجار إلى مصر فما كانت غنمهم تجوع ولا تعطش، وأنعم الله على الحجاج بمرافقتهم لا تخلو لهم ليلة من شراء لحم بأرخص ثمن سيما التي أصابها الحَفاء[2] أو كلت عن المشي لسمنها، فيشترى ذلك بثمن بخس.

وبرقة في هذه السنة قد أنعم الله على وفده فيها، دخلوها في فصل الربيع فصادفوا ماء ومرعى، وقل ما تخلو لهم ليلة من لحم وسوق، إما مع عرب يصادفونهم، وإما مع المنتجعين معهم أو التجار الذين انضافوا إليهم إذ لا يقدرون على المشي وحدهم، فهم يتحينون قدوم الحاج حتى يذهبوا في خفارته، (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون)[3].

لطيفة:

ولما اشتد الحر كانت الغنم لا تقدر على المشي قائلة فيسوقها أصحابها آخر الليل، فإذا اشتد الحر قالوا بها حتى يلحقهم الركب عند هبوب الرياح وبرد الهواء

(1) في ط: نلك.
(2) الحفاء: رقة الحافر: لسان العرب: حفي.
(3) المنافقون: 8.

فيسيرون معه إلى المترل، ولما قربنا من العمران وتخوفوا أن يذهبوا وحدهم، اكتروا جماعة من الحجاج نحو العشرة يذهبون معهم بمكاحلهم آخر الليل ويتقـــدمون، فأعطوهم شاة لكل واحد، فزعم بعض الناس أن ذلك لا يجوز، وأنه ثمن الجـــاه، وخالفته في ذلك وقلت: إنما هذا كراؤهم في تقدمهم معهم وحملهم السلاح معهم خشية أن يقتطعهم أحد قبل وصول الركب، والجاه إنما هو للركـــب لا لهـــؤلاء الجماعة المتقدمين؛ إذ لو لقيهم أحد لم ينفعهم جاه الركب وهم غائبون عنه إلا أن يقاتل عنهم من معهم من الرماة، وقد أفتى الإمام ابن عرفة في بعـــض مرابطـــي إفريقية ممن كان يذهب مع القوافل بجواز أخذ الجعالة منهم، وقال إن ذلك عوضا عما كان يعطله من منافعه أيام ذهابه معهم، وأجرة على خطاه ومشيه لا علـــى جاهه كما نص عليه غير واحد من أصحابه، فهؤلاء أحدر بالجواز من ذلك.

ثم ارتحلنا من مطروح ونزلنا دون ماء يقال له المدار، وبالغد وجدنا دونـــه غديرا في رؤوس الشعاب أخذنا منه حاجتنا و لم نمر بالمدار، ونزلنا العقبة الصغيرة آخر ذلك اليوم، وبتنا على سانية هناك[1] بعيد ماؤها لم ينتفع منها بشيء إلا مـــن وصل الحبال بالحبال واستعمل في جذبها يديه معا على التوال. وفي الغد ارتحلنـــا ونزلنا على ماء يقال له جميمة، وهي أحساء كثيرة في رملة بيضاء قريب ماؤهـــا طيب طعمه من أحسن المياه، وأقام الناس بها يوما لسقي الماء وشرب الإبل، وبات الحجاج ليلتهم وظلوا يومهم يخوضون في أمر الوباء لما تحققوه في الإســـكندرية[2] وما بإزائها وفي البحيرة ورشيد، وتحير الناس في أمره، فمن بين شديد الفزع مظهر الهلع يقول: نعطف من هنا يمينا إلى أوجلة ونقيم بها حتى يذهب الوباء، ولو فاتنا الحج، ونحج من قابل، وبئس ما رأى، ومن قوي القلب معتمد على الرب، يقول (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المومنون)[3]، فـــنحن بين إحدى الحسنيين، إما السلامة وحجة مبرورة، أو الشهادة ورحمة منشورة، لأننا مضطرون إلى الدخول بقصد الاجتياز لا بقصد الإقامة، ولا طريق لنـــا إلا مـــن هناك، والإقامة وإن قوي عليها البعض فالجل لا يقوون.

---

(1) في ط: هنالك.
(2) في ط: بالإسكندرية.
(3) التوبة:51.

ومال أكثر الناس مع صاحب هذا القول، وفي أثناء ذلك أنشأت هذه الأبيات متوسلا إلى الله بأحب ما يتوسل به إليه أن يكفينا ما يتقى من الشرور، خصوصا هذا الأمر المذكور، وتقبل الله دعاءنا، وكفانا شر ما أمامنا ووراءنا، وتلك سنته[1] فيمن التجأ إليه، و لم يجعل معوله إلا عليه، نسأل الله سبحانه وتعالى كما جعل بيننا وبين هذا الأمر أقوى جُنة، أن يكفينا كل هول دون الجنة، بجاه من توسلنا به إليه في هذه الأبيات، وإنما الأعمال بالنيات، وإني لأرجو من كرم الله تعالى، كما تقبل توسلنا وبلغنا فيما طلبنا منه سؤلنا وأظهر صدق إجابة دعوتنا في أنفسنا وأهلينا وأحبتنا، وأعطى من حضر معنا منهم ومن غاب أحسن ما أمل من المنح والرغبات، فكذلك يمن بجوده وإحسانه وعظيم امتنانه بإجابة دعوتنا وقبول رغبتنا في دفع عوارض الوقت المؤدية - لولا خفي لطفه - إلى عظيم المقت، وتبديل أنواع الشرور بأصناف السرور، ويرد كيد من كاد المسلمين في نحره، ويغرقه بسوء تدبيره في لج بحره، وينشر عافيته الدينية والدنيوية بين العباد، ويعم بالأمن والبركة كل البلاد، ويعلي منار السنة والجماعة، ويخمد نيران البدعة المشاعة، ويتولانا بما تولى به الصالحين من عباده، متوسلين إليه بمن ذكر في هذه الأبيات من أهل وداده.

وها أنا أمد يدي قائلا: يا من لا يخيب سائلا، ولا يمنع قائلا، يا من أملته راجيا، وناديته مناجيا:

[سريع]

يا حَي يا قيومُ يا ذا الجلالِ ... صَل على محمدٍ ذي الجمَالْ
سَلمْ عليهِ وارْضَ عن آلهِ ... وصحْبه أفْضلِ صحْب وآلْ
واغفِرْ لهذا العبدِ أوزارَهُ ... وزَكهِ في حالهِ والمَآلْ
وكُنْ لهُ عَوْنا على دهْرهِ ... وحُطهُ في دينِ ودُنيا ومالْ
وبَلغ المأمولَ مِن حجةٍ ... وزَوْرة بها المرامُ ينالْ
ويَسرِ الأوْبةَ للأهْلِ في ... عافيةٍ ليسَ لها من زَوالْ

(1) في ط: سدنة.

وكُـــنْ لنـــا ولهـــمُ أبـــدا ... حـــالَ إقامـــةٍ وحـــالَ ارتحـــالْ
واجمـــعْ بفـضلِ منـك مـا بيننـا ... وبينَ من نَهوى على خـيرِ حـالْ
بالمُـصْطفى والرسْـل طُـرا ومَـن ... أحبَبْتَـهُ مـن النسَاء والرجـالْ
إنـــا رجونـــاكَ لِنَيـلِ المُـنى ... ودفْعِ ما قـد يُتقـى مـن وَبـالْ
لا سِـيما هـذا الوبـاءُ الـذي ... أمَامنـــا عَجــلْ لــهُ بانتِقــالْ
وطَهـــرِ الأرضَ بفــضلكَ مِــن ... رِجزِ يُـذيقُ الخلـقَ مـن النكـالْ
فطَعْنــهُ قــد فــاقَ طعْــنَ القنــا ... والضربَ بالسيفِ وزُرْقِ النـصالْ
لكنـــهُ لمـــا لجأنـــا إلى ... ســيدنا فهْــوَ ســريعُ الــزوالْ
يــا رَب بالأسمــاءِ بالــذاتِ بالــ ... أمْــلاكِ بالرسْــلِ بأهْــلِ الكمــالْ
بكــلِ مَــا أنزلــتَ مــن كُتُــب ... بكــلِ مــا أوْدعْتــها مِــن مَقــالْ
بــاللوْحِ بــالقلمِ بــالعرْشِ بالــ ... كُرسيِّ بالــسر بحُجْــب الجــلالْ
يــا رَب بالمختــارِ خــيرِ الــورى ... محمــدٍ قِبلــةِ أهْــلِ الوصــالْ
بالـــصحْبِ والآلِ وأزواجِـــه ... بتـــابعيهمْ بحُـــسنِ الفِعـــالْ
بالعلمـــاءِ العـــاملينَ بمــن ... هذبتَ طُـرا مِـن ذميـم الخِـلالْ
مــن سَــالكٍ أو عابـدٍ زاهــد ... أو ورعٍ أو عــارفٍ ذي اتــصالْ
مثــلَ أُويــسِ القَــرْنِيْ[1] ومَــنْ ... يَمْـشي علـى منهاجِـهِ باعتـدالْ
مثــلِ الجُنَيـــدِ[2] ومــشايخهِ ... وصَحْبِهِ ومَـنْ لهـم خيْـر تـالْ
في الحمْدِ والشكْرِ وصـدقِ الرضـا ... والحِلمِ والـصبرِ وأكـلِ الحـلالْ

---

(1) أويس بن عامر المرادي القرني ذو المناقب الشهيرة، توفي في وقعة صفين: شذرات الذهب 46:1. سير أعلام النبلاء 24:4.

(2) أبو القاسم الجنيد بن محمد النهاوندي، ولد ونشأ في العراق، إمام متصوف، توفي سنة 297 هـ: الرسالة القشيرية، ص: 340. شرف الطالب، ص: 46.

كالشيخِ عبد القادرِ المُرتَضى	الجيلي[1] القُطب يومَ النِّزالْ
وكالإمامِ الشاذِلِي[2] الذي	دعا إلى الله بغيرِ اعتِلالْ
بكل أصحابِهما مَنْ مضى	منهم ومَنْ يأتِ بغيرِ انفصالْ
بالبدَوي[3] بالدسُوقي[4] بمن	في السهلِ منهم أو رؤوسِ الجبالْ
بالحاتِمي بالرِّفاعي[5] بمَن	في الشرق والغربِ عديم المثالْ
بقُطبِ ذا الوقتِ بأوتادهِ	بالغوْثِ والأبدالِ أهْلِ النوالْ
سَكنْ وأمِنْ روعةَ الناسِ منْ	هذا الوباءِ يا شَديدَ المحالْ
كمْ كربةٍ فرجْتها عنهم	وقد غدًا تفريجُها كالمُحالْ
يا ربنا حُطنا وكنْ معنا	عن اليمينِ أبدًا والشمالْ
وارحَمْ بجميعَ الخلقِ وارأفْ بهم	ولا تُذِقْ وفدَكَ أدنى الوَبالْ
وقدْ تبرأنا إلى ربنَا	منْ كل حوْلٍ عندنا واحتِيالْ
عليك يا رب اعتمادِي فلا	أرجو سِواكَ وعليك اتكالْ
فالشكرُ لله علَى فضلِهِ	والحمدُ لله على كل حالْ
ثم الصلاةُ والسلامُ على	مُحمدٍ خيرِ كلامٍ يُقالْ

---

(1) تقدمت ترجمته.
(2) أبو الحسن علي الشاذلي المغربي، الإمام المتصوف، توفي بالحجاز سنة 656 هـ: لقط الفرائد، ص: 72. مرآة المحاسن، ص: 259.
(3) الشيخ أحمد بن علي بن محمد البدوي، العارف الواصل، سكن والده المغرب فولد له صاحب الترجمة بفاس سنة 596 هـ، ونشأ بها وحفظ القرآن، وقرأ شيئا من فقه الشافعي وحج أبوه به وبأخويه سنة ست وستمائة وأقاموا بمكة، ومات أبوه سنة 627 هـ، فرحل إلى مصر وبها توفي سنة 675 هـ: شذرات الذهب 3:345.
(4) إبراهيم الدسوقي الهاشمي الشافعي القرشي، شيخ الخرقة البرهامية، صاحب الأحوال والمقامات، توفي سنة 676 هـ: شذرات الذهب 3:350.
(5) أحمد بن علي بن أحمد، أبو العباس الرفاعي المغربي الأصل، ولد في المحرم سنة خمسمائة، وتخرج بخاله الشيخ منصور الزاهد، انضم إليه خلق من الفقراء وأحسنوا فيه الاعتقاد وهم الطائفة الرفاعية ويقال لهم الأحمدية والبطائحية، توفي سنة 578 هـ: طبقات الشافعية 2:5. سير أعلام النبلاء 21:142.

فــذلك الحِـصْنُ الحـصينُ الــذي   بـــهِ عثـــارُ المـــذنبينَ تُقــالْ

مـــنْ حلــةُ قـــد احتمـــى بجِمـــى   رَب كـــريم مُـــنعم مُتعـــالْ

ثم ارتحلنا من حميمة، وفي الغد أتى الناس إلى ماء يقال له العميديين، وهـي آبار في صخر سافل البحر قد غطى الرمل كثيرا منها، وعليها حصار مبني بنـاء محكما في غاية الإتقان كهيئة أبراج الإسكندرية، إلا أنه قد انهد منه جانب، ولقينا عليه أعرابا كثيرة معهم حاكم عرب البحيرة، وأخبرونا عن الإسكندرية أن الوباء قد خف فيها، وأن البحيرة قد كثر فيها، وأن مصر بفضل الله وحلمه وستره سالمة منه. وتقوى عزم الناس على أن يتنكبوا الإسكندرية ويتركوها يسارا ويذهبون إلى مصر، وذهب إلى الإسكندرية طائفة قليلة من الناس ممن لهم بها أهل أو بضائع.

وكتبت من هناك كتاب سلام واستغاثة إلى القطب العارف بالله المجمع على ولايته واستقامته الشيخ أبي العباس المرسي[1] من جملة قصيدة توسلت فيها[2] إلى الله بجاهه أن يذهب عنا كل بؤس، ويكفينا شر الوباء، وبعثتها مع بعض أصحابنا من سكان الإسكندرية وأمرته أن يقرأها أمام وجهه الشريف، ثم يلصقها في الحـائط يمين المحراب فإن هناك أيضا قصيدة لي ملصقة كتبتها سنة أربع وستين، وسـيأتي ذكرها عند ذكرنا الدخول[3] الإسكندرية في الإياب إن شاء الله، ولنذكر هنا هذه القصيدة وهي هذه:

[طويل]

ملاذِي إذا ضاقَتْ لكُربتها نفْـسي   وغوثِي أبو العَباس سـيدُنا المُرْسـي

رئيسُ ذوي العرفانِ في كـل بَلــدة   ووارثُ علمِ الـشاذلِي بــلا لُــبسِ

محبتُـــهُ ذُخـــري لكـــل مُلمـــة   وأمْني في خوفي وفي وحْشتي أنْـسِي

فمنْ صح من أهْلِ السلوكِ انتـسابُهُ   إليهِ أيخْشَى صوْلَة الجِـن و الإنــسِ

وإني مِـــن حُـــبي لـــه مُتطفــل   عليهِ وما تابعتُ منْهجَـةُ القُدسـي

(1) أحمد بن عمر، أبو العباس المرسي، فقيه متصوف من أهل الأندلس، استقر بمصر وبها توفي سنة 686 هـ: الأعلام 1:138.
(2) في ط: بها.
(3) في ط: دخولنا.

عـــساهُ بفـــضلِ منـــه يجـــذبُني إلى هُداه ويحميني من الرجزِ والـــرجْسِ
لقد حازَ فخرا دانَ من بعـــده لـــه وناهيكَ من فضلٍ له بـــانَ للحِـــس
تفَرسَ فيه شـــيخهُ وهْـــو صـــادِق تفَرسَ بَرٌ صادقِ الظـــن والحـــدْسِ
فقالَ أبو العباس لـــو جـــاءَهُ امـــرُؤٌ يبولُ على ساقَيْهِ في غايةِ الـــنجْس(1)
لَوَصَّـــلهُ لِلـــه في لحظـــةٍ وهـــل يخافُ امرؤٌ بعد الوصولِ من النكْسِ
وقد قال فيه إنـــهُ الرجـــلُ الـــذي غدا كامِلا بينَ الأئمـــةِ في الجـــنْسِ
فأكْرِمْ بها مـــن قولـــةٍ بلغَـــتْ بـــهِ إلى رتبةٍ من دونها رتبـــةَ الـــشمسِ
لـــذاك التجـــأتُ نحـــوهُ وجعلتُـــهُ ملاذي وإنْ قصرتُ في اليوم والأمْـــسِ
ووجهتُ وجْهـــي نحـــوهُ فطريقُـــهُ شدَدْتُ عليها بالنواجد والـــضرْسِ
فيـــا ســـيدي إني نَوَيـــتُ زِيـــارة وتمريغَ وجهي في ثرى ذلك الرمْسِ
وذاكَ مُنَايَ لـــو ظفـــرتُ ببعـــضِهِ فكانَ قـــضاءُ اللهِ في ذاكَ بـــالعكسِ
ونَوَيْتُ لَما عاقني عنكَ مـــا تـــرى ثنائِيَ مرقُوما على صفحةِ الطـــرْسِ
هنيئا لمنْ قـــد زارَ قـــبرك ســـيدي وكان لأرضِ القبر بالوجهِ ذا لمْـــسِ
رضيتُ بما يَقْـــضي بـــه اللهُ مُـــذْعِنا وإن شفَّني ما نالني عنكَ من حـــبْسِ
فإني لستُ عـــن حِمـــاكَ بِخـــارج وإن كنتُ في أقصى المغاربِ ذا نحْسِ
فكيف أُراعُ بعـــد قربِـــكَ بالعـــدا منَ الناسِ طُرا أو من الجِـــن بـــالمَسِ
فأنتَ رئيسُ الأوليـــاءِ فكـــنْ لنـــا بفضلكَ من شر الوبا أعظمَ التـــرْسِ
لتشفعْ لنـــا للهِ يُـــذْهب بـــشر مـــا نخافُ من الطاعونِ يُصبحُ أو يُمسي
ويُبْلغنـــا مـــا نرتجـــي مـــن إقامَـــة بطيبةَ بعد الحج والمـــشْيِ للقـــدْسِ

(1) في ط: النحس.

ويرجعَنــــا مـــن بعــدِ ذا لبلادِنــــا بأعظمِ أجرِ دونَ نقص ولا وكْسِ[1]

بجاهِ رسولِ الله أفــضلِ مــنْ أتــى من الله بالتوحيدِ والصومِ والخَمْــسِ

عليـــــه صــــلاةُ الله ثم ســـــلامُهُ يكونانِ لي في وحشتي غايةَ الأُنْــسِ

وتغرِس وسْطَ القلبِ من حب خــالقي وحُب الرسول المصطفى أطْيَب الغَرْسِ

ثم ارتحلنا من العميديين وعدلنا عن طريق الإسكندرية يمينا في أرض طيبــة كثيرة آثار البناء جمة المرعى، وظهرت لنا عن اليسار على ساحل البحر قرية أبــو صير وصومعة مسجدها إلى الآن ماثلة في الهواء، وهي خالية، وبتنـــا في مقابلـــة الإسكندرية. ثم ارتحلنا من هناك وفارقنا من كان معنا من الأعـــراب الـــذاهبين للبحيرة ومعهم الأمير يونس الدرازي[2]، وكان ذهب مغاضبا لحاكم بلده إلى درنة ثم رجع وجاء معنا خائفا من الهنادي[3]؛ طائفة من السلالمة، ومعه كتيبـــة مـــن إخوانهم البهجة والأبراد، فلما قابلنا[4] الحوش فارقنا الدرازي ومن معه. ثم في الغد أتينا ضحى إلى وادي الرهبان ونزلنا به، وهو وادي كبير ذو رمل، وفيه فسلان[5] نخل، وماؤه كثير. ولما نزلنا واشتد الحر وكان الماء بعيدا منا فأردنا الـــذهاب إلى الماء، ثم إنا بحثنا في الرمل بإزاء خبائنا فوجدناه ثريا، ثم تابعنا البحث نحـــو ذراع فبلغنا إلى ماء حلو طيب جدا كماء النيل، فإذا الوادي كله على ذلك الوصـــف، فحفر كل واحد بباب خبائه ما أراده للشرب والوضوء، ولم يذهب إلى الموارد إلا من شاء سقي الإبل، وغالب الناس سقوها هناك. وكان نزولنا بهذا الوادي يـــوم الخميس الثاني والعشرين من رمضان. وهناك أنـــشأت أبياتـــا متوســـلا إلى الله ومستغيثا به بمن في مصر من الأولياء في دفع شر الوباء لضيق القلوب وتـــرادف الكروب من شأنه على الحجاج وعلينا معهم، إذ لا شيء أحب إلى الإنسان من نفسه، فإذا أحس بأدنى شيء يكون فيه إتلافها فلا تسأل عما يلحقه من الجـــزع والفزع، سيما مثلنا ممن استولت الغفلة على قلبه وغلب عليه حب البقـــاء، ولم

---

(1) الوكس: النقص: لسان العرب: وكس.

(2) في ط: الدراني.

(3) الهنادي: قبيلة تقيم بمصر: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة 1:196.

(4) في ط: فارقنا.

(5) الفسلان: جمع فسياة؛ وهي الصغيرة من النخل، والجمع فَسائل وفَسيل، والفُسْلان جمع الجمع: لسان العرب: فسل.

يشعر قلبه أن طلب البقاء في محل الفناء ضرب من الهوس، وما ذاك إلا من ضعف يقيننا ومحبتنا في الله، ولو أحببناه لأحببنا لقاءه، فإن الطاعون، وإن كان رجزا، فهو شهادة، وحب الشهادة من الإيمان، إلا أن الاستيناس بضوء هذا العالم وشدة ألفة الروح التي هي من العلم[1] العلوي بالبدن الذي هو من العلم[2] السفلي غلب على حب الشهادة الذي هو أثر الإيمان الضعيف. فنسأل الله أن يقوي قلوبنا ويفرج بالتسليم لقضائه كروبنا حتى لا يكربنا إلا ما فيه الإثم، ولا نفرح إلا برضوانه الذي هو غاية الغنم. اللهم طيبنا للموت واجعل فيه راحتنا يا أرحم الراحمين، وهذا مطلع القصيدة:

[بسيط]

الحمدُ لله حمْدَ من بُليَ فدعَا[3] ... والشكرُ لله شكرَ من إليهِ سعَى
ثم الصلاةُ وأفضلُ السلامِ على ... أفضلُ منْ لِزِمامِ الوافدينَ رَعى
محمدٍ المُصطفى وآلهِ وعلى ... أصحابهِ وجميعِ منْ له تبعَا
و رضيَ اللهُ عن كلِ أئمتنا ... منْ أظهروا دينَهُ وأخمدوا البدَعا
أهلِ المذاهبِ أربابِ المواهبِ أهْـ ... ـلِ النفعِ والدفعِ غوثِ المرءِ إن جزعَا
بهم توسلُنا لله[4] يَحفظنا ... من كل سُوءٍ ويُولينا الذي نَفَعا
يا سادةَ الناسِ يا أهلَ الولايةِ يا ... منْ لا يُخيَبُ منْ في برهم طَمعا
إنا لنقرعُ بابَ الله حافظِنا ... بكم وما خابَ من لِبابهِ قرعا
يا أيها الشافِعي الحَبر عبدكُمُ ... إلى حماكم مخافةَ الردى نزعَا
مثلَكَ من يمنعُ الجارَ فجاركُمُ ... من كل سوءٍ بفضلِ الله قد منعَا
لك التصرف في هذي البلاد فلا ... يخيب عبد لغيث جودك انتجعا

(1) في ط: العالم.
(2) في ط: العالم.
(3) في ط: فزعا.
(4) في الأصل: للإله.

فاحْمِ أجْرِ وأغِثْ عبدا لبابــكَ قــد   حَث الركابَ ولم يعْبأ بمــن دفعَــا

يا أهلَ مِصرَ قد اشــتقنا زيــارتكُمْ   وقد سمعنا بمــا في أرضِــكُم وقَعــا

وفــيكم مـــن رجــالِ الله طائفَــة   قد لازموا الصدقَ والتفويضَ والورعَــا

لو أقسَمُوا لأبَــر الله عــن عجَــل   قــسَمهُم وأزالَ الرجــزَ والوجعــا

ألا اشــفعُوا فلعـــل الله يرفعـــه   بفضلكم فلأنتم خــيرُ مــن شــفَعَا

يا أيها الــسيدُ الُمرســي وتلميــذهُ   العَرْشي ومن نورهُ بالثغرِ قد ســطعا

يا سادةَ الريفِ يا أهلَ البساطِ ويــا   أهلَ القرافــةِ قــد نــاديتكم جمعــا

يا سيدي البدوي والدســوقي ويــا   سيدَنا الحَنفي يا غوثَ مــن فزعــا

إنــا نــناديكُمْ في كـــل نائبَــةٍ   ومثلكم لنداءِ العبــدِ مــن سَــمعا

كم كُربة ضاقَ قلبُ المستجيرِ بهــا   فرَّجتمُوها فعــادَ الــضيقُ مُتــسعا

صلى الإلهُ على الهــادِي وعِترتــهِ   صلاةَ عبدٍ متى خافَ الكروبَ دعــا

وإنما سمي هذا الوادي وادي الرهبان لأن فيه رهبان النصارى يتعبــدون في ديور أربعة، كل طائفة في دير، ولا يدخل إليهم أحد من غير جنسهم، وليس لهم زرع ولا ضرع، وأهل الذمة من النصارى الذين بمصر يعاملونهم ويبعثون إلــيهم بالنذور والصدقات من الطعام والكسوة، ولم نصل إلى محل هؤلاء الرهبان، بــل بيننا وبينهم رؤية العين، ومن هناك تمر الطريق التي تأتي من مصر إلى أوجلة، ولما تهيأنا للرحيل جاء شيخ عرب البهجة وحذر أمير الركب من عرب هذا البلــد، وأخذ الناس حذرهم منهم، وهم عرب سوء، بل عرب السلالمة كلهم لا خــير فيهم، والسلالمة طوائف ثلاثة، الهنادي والبهجة والأفراد، وهم الذين يــسكنون أطراف البحيرة إلى الإسكندرية إلى ما بين العقيق، وهم كثيرون، وانضاف إليهم كثير من عرب برقة وطرابلس ممن يفر من جور عمال طرابلس وممن يرغــب في سعة العيش من متفقرهم كالجوائس[1] وبعض هوارة والفواخر وغير ذلــك مــن طوائفهم، وهم تارة يذعنون ويدعون طاعة السلطان وتنالهم الأحكــام فيخــف

(1) في ط: الجوابس.

ضررهم، وتارة ينقضون (وينكثون)[1]، وقد ألقى الله العداوة بينهم في هذه الأواخر فيستحيش طائفة منهم على الأخرى بالترك، وتستعين بهم حتى يكاد يجلونهم من البلاد ثم ترجع الطائفة الأخرى إلى الطاعة وتستميل وجوه الجند على الآخرين ويفعلون بهم مثل ذلك، والترك لا يبالون بما أضعفوا وأوهنوا أي الفريقين لشدة شوكتهم على الجميع، والدولة الآن في هذا الوقت مع الهنادي، ومن انضاف إليهم من المغاربة وضعف أمر البهجة والأفراد، وقد فرح الحجاج بما نال هؤلاء الأعراب من التفرقة والضعف فإنهم في سنة خمس وخمسين قد عارضوا الركب فيما بين العقبتين، وأمير الحجاج الحاج عمران، وعزموا على نهبهم، فلما علم الحجاج بذلك نزلوا وباتوا، فلما كان عند طلوع الشمس جاؤوا بخيلهم ورجلهم، وأحاطوا[2] بالركب، فصبر الحجاج صبر الكرام وقاتلوهم أشد القتال، وقتل الحجاج بعض خيل الأعراب وجرح كثير من الفريقين[3]، وكان في الركب جماعة من حجاج أهل تادلا نحو الأربعين صعلوكا، فصدقوا القتال، ولولاهم مع لطف الله كاد الركب أن ينهب على ما أخبرونا، فلما أيس العرب منهم وعلموا صبرهم على القتال انصرفوا عنهم وقالوا: ظنناكم تجارا، وهم كاذبون، ثم ارتحل الحجاج وكفاهم الله شرهم، ومن ذلك الوقت لم تقم لعرب السلالمة قائمة ببركة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وسلط الله عليهم الترك يطردونهم كل مطرد، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مرارا متعددة، وهم الآن يهابون الركب بعض الهيبة لعلمهم أن ما أصابهم إنما هو ببركة الحجاج، وقد جرت عادة الله تبارك وتعالى، وله أعظم حمد وأجل شكر في ذلك بأن لا يهمل من تعرض ركب الحجاج، وفد الله ووفد رسوله، فينزل بهم من البلاء عاجلا ما يتعرفون به بركتهم ويكفهم عن معاودة أمثال ذلك، وقد شاهدنا ذلك في قوم كثيرين من أهل برقة وإفريقية والمغرب، ولولا فضل الله على الحجاج ورحمته بهم بالانتقام ممن رامهم لتعطلت طريق الحاج منذ أزمان خصوصا حجاج المغاربة لضعفهم وقلتهم وبعد الشقة عليهم، فكم من قصر ومصر وإقليم يقطعونه بلا عسكر ولا عدة ولا عدد ولكن:

[بسيط]

---

(1) زيادة من ط.
(2) في ط: فأحاطوا.
(3) في ط: الأعراب.

وِقايةُ اللهِ أغنَتْ عن مُضاعفة من الدروعِ وعن عَالٍ من الأطُمِ[1]

نسأل الله تبارك وتعالى بجوده وإحسانه العميم وبركة نبيه الكريم أن يحمي وفد بيته بما به حمى بيته، وينصر زوار رسوله بما به نصر رسوله، وأن لا يقطع الطريق بيننا وبين تلك الأماكن المشرفة والبقاع المطهرة، فما دمنا نرى في كل سنة طائفة ممن قدم تلك المعاهد وورد من تلك الموارد، وتشرف برؤية البيت العتيق والمسجد الحرام، ووقف بالمشاعر ونسك المناسك العظام، وصلى بين قبره ومنبره، عليه السلام، وزار محله الشريف ومحل أصحابه الأعلام، فلا نشك أن مدد ذلك يسري في أدياننا وبلادنا وأبداننا وسائر متعلقاتنا. ولو انقطعت رؤيتهم، ونعوذ بالله من ذلك، لاختل النظام وانقطع الخير بين الأنام.

ولما ارتحلنا من وادي الرهبان انحدرنا مع الوادي على جانبه حتى جاوزنا مقابلة وادي اليطرون، وهو وادي فيه معدن اليطرون ومنه يحمل إلى مصر وغيرها، ثم تركنا الوادي يمينا وعدلنا شمالا وسرنا في أرض مسترملة لا كلأ فيها، وباتت الإبل تلك الليلة لم تأكل شيئا. وفي الغد ارتحلنا، وقبل الظهر تراءى لنا بعض قرى الريف، فلما قربنا منها تأخر بعض الحجاج، فلحق به فارسان فسلباه وهمّا[2] بأخذه، يظنانه[3] عبدا لسواده، فصاح وسمعه الناس وتصايحوا، فاجتمع الركب وأتبعهما الناس فلم يلحقوا بهما ورجعوا، فسرنا إلى أن نزلنا مقابلة[4] المنصورية عشاء، وظهرت لنا قرى الريف، وكان بعضها قريبا منا، فذهب سُرعانُ الناس إليها يتجسسون الأخبار عن الوباء، فأخبرهم أهل القرى بسلامة القاهرة وأحوازها منه، فبات الناس في سرور كامل ونعمة شاملة، نسأل الله أن يكمل علينا ذلك[5].

ولما كان آخر الليل بعثنا بعض إخواننا وأصحابنا فتقدموا مع من تقدم إلى القاهرة ليرتادوا لنا منزلا قرب الأزهر، لأن كثيرا من الحجاج ينزلون بطولون ليقربوا من الرملة محل سوق الدواب وما يحتاج إليه من أمور السفر، ومن كان ذا

---

(1) البيت من بردة البوصيري (ضمن مجموع مهمات المتون)، ص: 56.
(2) في ط: فسلبوه وهموا.
(3) في ط: يظنونه.
(4) في ط: مقابل.
(5) ساقط من ط.

تجارة يترل بالوكائل. ونحن لا نعدل بقرب الأزهر مكانا، ونزول الوكائل لا يليق بنا لضيق بيوتها ونحن جماعة كثيرة، إذ لا يسعنا وأتباعنا إلا مترل واسع كثير المساكن جامعا للمرافق، وكتبنا له إلى محبنا وأخينا في الله الشيخ علي الدمشيتي ليبذل مجهوده في ذلك.

ولما أصبحنا ارتحلنا وسلكنا بين القرى و لم نأخذ طريق البر لبعدها. وما كان يحمل الناس عليها في غير هذا الوقت إلا فيضان النيل، فلا يتمكن المارون من السلوك فيما بين القرى من كثرة المياه، وفي هذا الوقت وجدنا البلد يابسا لا ماء فيه، إذ لم يأت وقته، ثم مررنا بالمنصورية ثم بقرية وسيم ثم بغير ذلك من القرى، إلى أن نزلنا خارج أنبابة ضحى يوم الأحد الخامس والعشرين من رمضان الموفي خمسين يوما من يوم خروجنا من بلد سيدي أحمد زروق آخر العمران من عمالة طرابلس، و لم تكن هذه المدة كلها مشيا، بل فيها نحو الخمسة أيام إقامة، وخلص للمشي خمس وأربعون يوما من مسراتة إلى مصر، و لم يعهد قطع هذه المسافة في مثل هذه المدة إلا في النادر، وأعاننا على ذلك مع تيسير المولى جل جلاله اعتدال الهواء وطول النهار مع وجود الكلإ وشبع الإبل، وكنا نقطع هذه المسافة قبل هذه تارة في شهرين وتارة في شهرين ونصف، وربما مكثنا فيها إذا كان فصل الشتاء ثلاثة أشهر. ولما نزلنا بأنبابة تسارع الناس لشراء الفاكهة واللحم وطعام الحاضرة لبعد عهدهم بذلك.

وأنبابة هذه مدينة على ساحل النيل لها أسواق ووكائل ومساجد على هيئة ما في القاهرة، وهي بالجانب الغربي في مقابلة مدينة بولاق بالجانب الشرقي، وأقمنا بها يومنا ذلك في أرغد عيش شبعا وريا، وكيف لا ونحن على ساحل النيل الذي هو أشرف الأنهار الأربعة الخارجة من الجنة، وأثر بركته ظاهرة للعيان في مائه وترابه وقراه ومدائنه بحيث لا يوجد بلد أوسع مزارع وأكثر خصبا مع اتصال العمارة نحو الشهر من هذه، بيد أنها لها مزيد اختصاص بمضاعفة الوظائف الجورية على الرعية بحيث تملك رقابهم فضلا عن أموالهم، ولا يجدون عن ذلك محيصا، بمنعة أو فرار، حتى أن أحدهم لو أراد أن يتخلى عن السبب ويترك الزراعة والفلاحة لم يتركوه، ولو فر لاتبعوه حتى يأتون به أينما كان، حتى استفاض عند العمال الفسقة أن ثلاثة لا تقبل منهم شفاعة شافع، فيعدون منهم من يريد أن

يتخلى عن الزرعة والفلاحة، (قاتلهم الله أنى يوفكون)[1]، لا هم ينصفون ويخففون عنهم من المظالم، ولا هم يتركوهم يذهبون حيث شاؤوا يسيحون في الأرض يرزقون كما ترزق الطير بالالتقاط من نبات الأرض وخشاشها فتغدوا خماصا وتروح بطانا، اتخذوا مال الله دولا وعباد الله خولا، (والله من ورائهم محيط)[2]، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد ذكر المؤرخون أن مصر لابد أن تشتمل على طائفتين إحداهما في غاية العتو والاستكبار، والأخرى في غاية الذل والاحتقار[3]، وقد صدقوا؛ قد[4] كان بها فرعون وملأه فلم ينته دون أن قال: (أنا ربكم الأعلى)[5]، وبنو إسرائيل إذ ذاك مستضعفون في الأرض (يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم)[6]، ثم لم تزل كذلك، وإنها في زمننا بل قبله بأزمان لعلى مثل ذلك الوصف، فبشواها وصناجقها وولاتها وحكامها، بل وسائر جندها وعسكرها فيما يظهر لنا ليس فيها إلا من أعماه حب الدنيا وختم على سمعه وقلبه فلا يرحمون ضعيفا ولا يوقرون كبيرا، أينما بدت[7] لهم صبابة من الدنيا وثبوا عليها؛ إن كان صاحبها حيا تسببوا له بأدنى سبب حتى يأخذوا ماله، إما مع رقبته أو بدونها إن كان في العمر فسحة، وإن كان ميتا ورثوه دون بنيه وبناته، وأما رعيتها وفلاحتها فلا تسأل عما يلاقون من الجند من الظلم وما هم فيه من الإهانة والاحتقار تضرب ظهورهم وتؤخذ أموالهم، ولا مشتكى لهم إلا الله، ومن تجاسر منهم واشتكى ضوعف عليه العذاب الأليم.

قلت: ولعل (ذلك)[8] لأجل هذه الدقيقة يكثر فيهم الصالحون لأن نفوسهم ميتة، قد تربوا على الذل والاحتقار، وزالت الرئاسة وحبها من قلوبهم، بل لم تسكنها قط، فإذا وفق أحدهم لعمل الطاعة والتفت أدنى التفات لإصلاح حاله، لم يبق مانع بينه وبين ذلك، لأن أكبر الموانع وأعظم الآفات حب الرئاسة. ومن جال في أرياف مصر واستخبر أهلها علم صحة ما ذكرنا، ومن لم يجل فليطالع الأخبار

---

(1) التوبة:30، المنافقون: 4.
(2) البروج: 20.
(3) في ط: الاستحقار.
(4) في ط: لقد.
(5) النازعات: 24.
(6) القصص: 4.
(7) في ط: تبدو.
(8) زيادة من ط.

في الكتب المؤلفة في ذلك، كطبقات سيدي عبد الوهاب الشعراني، رضي الله عنه، وغيرها يرى مصداق ذلك. وأخبار مصر وظلم الولاة بها وغش الباعة وحيل المتسببين ومكر العاملين أعظم من أن تحصى، ولا غرض في تتبع ذلك، ومن أراده فليسأل من وردها يخبره ببعض البعض من ذلك، وأيضا جل ذلك لم نشاهده وإنما يجري على ألسنة الناس من أهلها والمجاورين بها وبعض الواردين عليها، وغالبها لا يخلو من كذب ومغالاة، فنزهنا أقلامنا أن نكتب ما لا نتحقق علمه ولا يغلب على الظن صدقه، سيما إن خلا عن فائدة دينية أو دنيوية، بل كان بمجرد ملاحة[1] أو مفاكهة.

وبالجملة فمصر أم البلاد شرقا وغربا، لا تستغرب شيئا مما يحكى عنها من خير أو شر، ومصداق ذلك ما حدثنيه بعض أصحابنا من التجار في سنة أربع وستين قال: لما دخلت[2] مصر في حدود الخمسين سكنت في بعض الوكائل، وكان من قدر الله أن اجتمعنا في محل واحد جماعة منا فلان وفلان تجار، وفلان طالب علم، وفلان ممن يميل إلى طريق[3] الفقر، وفلان وفلان من أهل المجون، ذكر كلا بأسمائهم، قال: فإذا أصبحنا تفرقنا كل واحد يغدو لحاجته، فإذا جن الليل جمعنا المترل فنتحدث بما رأينا، فيقول التاجر: ما رأينا مثل هذا البلد في التجارة فأهلها كلهم تجار، ويحكي من ذلك حكاية ما شاهد، ويقول الفقيه مثل ذلك والفقير مثل ذلك وذو المجون مثل ذلك، وما ذاك إلا لكثرة أجناس الناس فيها فمن طلب جنسا وجد منه فوق ما يظن، فيظن أن غالب أهل البلد كذلك.

وبالجملة فأهلها لهم عقول راجحة، وذكاء زائد، فمن استعملها في الخير فاق فيه غيره، ومن استعملها في غيره فكذلك، وقد ذكر ابن خلدون في كتابه: كتاب منتهى العبر[4] أن بعض ملوك المغرب سأل بعض العلماء ممن حج عن مصر فقال له: أقول لك فيها قولا وأختصر، من المعلوم أن دائرة الخيال أوسع من دائرة

---

(1) في ط: ملح.
(2) في ط: دخلنا.
(3) في ط: لطريق.
(4) قال ابن خلدون في رحلته: " وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس، الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجي بمجلس السلطان أبي عنان، منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة ست وخمسين وسأله عن القاهرة فقال: أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار: عن الذي يتخيله الإنسان فإنما يراه دون الصورة التي تخيلها اتساع الخاطر عن كل محسوس، إلا القاهرة فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها ": رحلة ابن خلدون، ص: 286.

الحس، فغالب ما يتخيله الإنسان قبل رؤيته إذا رآه وجده دون ما يتخيل، ومصر بخلاف ذلك؛ كل ما تخيلت فيها، فإذا دخلتها وجدتها أكثر من ذلك. وسئل آخر عنها فقال: كأن الناس فيها قد حشروا إلى المحشر لا ترى أحدا يسأل عن أحد، كل واحد ساع فيما يرى فيه خلاص نفسه.

وقد أخبرني شيخنا سيدي أبو مهدي عيسى الثعالبي أيام كنت أتردد معه إلى مجلس شيخنا شهاب الدين الخفاجي[1] فقال لي: من لدن دخلت هذه المدينة ما رأيت أحدا يمشي في أزقتها وأسواقها على مهل وسكينة وتؤدة، بل كل من تلقاه تراه مشمرا جادا في سيره، إن كان راكبا فراكبا، وإن كان ماشيا فماشيا فكذلك. فتأملت ما ذكر لي فوجدته صادقا، وسبب ذلك، و الله أعلم أمران، أحدهما الرغبة والحرص المستكن في القلب فيحمل الإنسان أن لا يفوته شيء من أغراضه، وهو يظن أنه لو توانى في مشيه لفاته غرض مع كثرة الأغراض وتزاحم الأشغال، والآخر كثرة الزحام في الأسواق، فكل سوق دخلته تقول هذا أكثرها زحاما، فإذا خرجت منه لآخر وجدته مثله أو أشد، وقد شاهدنا الناس في بعض الأسواق تارة يقفون هنيئة لا يقدر أحد على أن يتحرك يمينا ولا شمالا من غير أن يكون هناك حاصر لهم من أمام إلا الزحام، وربما رفع بعضهم صوته بالتكبير فيكبرون حتى يظهر فيهم[2] بعض تحرك، فيندفعون مثل السيل إذا اجتمع في مكان ضيق، فيدفع بعضه بعضا حتى ينفجر من جهة، فسبحان خالقهم ورازقهم وعالم نياتهم وضمائرهم، (يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون)[3] (لا إله إلا هو رب العرش العظيم)[4]، (رب السماوات والأرض وما بينهما)[5]، (العزيز الحكيم)[6].

وأخبار مصر وما فيها من العجائب وجميع ما يحتج إليه من أحوالها مستوفى في التواريخ فلا نطيل بكثير منه، وأحسن كتاب جامع في ذلك مع الاختصار كتاب: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للجلال السيوطي فإنه مفيد جدا،

---

(1) شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، المصري الحنفي، فقيه محدث، ولد سنة 979هـ، تولى منصب قاضي القضاة بمصر، توفي سنة 1069 هـ: خلاصة الأثر 331: 1، فهرس الفهارس 1:377.
(2) في ط: لهم.
(3) القصص: 69.
(4) النمل: 26.
(5) الشعراء: 24، الصافات: 5، ص: 66.
(6) البقرة: 129.

ومن أجاد مطالعته لم يفته من أخبارها إلا المعاينة وأشياء قليلة من العوارض المشخصات.

ولما نزلنا بأنبابة رددنا إبلنا مع بعض أصحابنا وما لا نحتاجه من الأثاث إلى قرية المنشية وبها بعض أصحابنا من الفلاحين، وقد تعرضوا لنا بالمنصورية، وتلك عادة الفلاحين عند قدوم الركب يتعرضونه ويتخذون الأصحاب ليودعوا عندهم الإبل ويتركوها عندهم أمد الإقامة طلوعا ورجوعا، وهم كما قيل: الحرص على الأمانة دليل[1] الخيانة، فلا ترى أعجب من تلطفهم ولين خطابهم عند نصب شبكة الخداع للمغتر من الحجاج، فيحلفون بالإيمان المغلظة على أداء الأمانة وبذل المجهود في النصيحة حتى يركن إلى قولهم، ولو من جربهم مرارا، ثم عند المفاصلة قلما ينفصل معهم أحد بطيب نفس، و من أمثال الحجاج: المال المودع بعْ وانتفع، فالعاقل من باع ما فضل عنه من إبله أو ضاع، ومتى احتاج اشترى. ولكن رزق يسوقه الله للفلاحين من قديم الزمان لا مطمع لأحد في قطعه، ففي كل مرة نقول: متى رجعنا لا نودع عند أحد، فإذا عدنا استنزلونا بخلب بارق[2] من وعدهم الكاذب حتى نقع في حبائلهم ونتورط في مخالبهم التي يعسر الخروج منها بدين سالم وعرض مصون.

وعندما رجع الفلاحون بالإبل رجع معهم إلى قرى الريف غالب من خاف الوباء من الحجاج، فإنا لما نزلنا أنبابة خرج للقائنا من سبقنا في البحر من أصحابنا المغاربة، وأخبرونا أن الوباء في محال قليلة بمصر، إلا أنه قليل، ومات منه جماعة من أهل مراكش القادمين في البحر، فلأجل ذلك رجع إلى الريف من تخوفه ونحن اعتمدنا على الله وقلنا: (حسبنا الله ونعم الوكيل)[3]، وما خاف ذو جد إذا هو حسبلا

ثم في الغد من يوم نزولنا بأنبابة، وهو السادس والعشرون من رمضان قطعنا النيل إلى مصر، ووجدنا النيل في غاية ما يكون من النقصان، قد انحسر الماء عن بقاع كثيرة في وسطه، فكأنه واد من أودية المغرب الكبار. ولما نزلنا بمرسى بولاق جمعنا أمتعتنا واكترينا لحملانها إلى الأزهر ثلاثة من الإبل.

---

(1) في ط: بدل.
(2) في ط: به رق.
(3) آل عمران: 173.

عجيبة:

ومما يتعجب منه ما يحمله الجمالون بمصر على إبلهم، فمن ذلك أنا قطعنا معنا بما كانت تحمله إبلنا تسعة عشر أو عشرون، فحملوا كل ذلك على ثلاثة، وقد سخر الله تعالى الإبل لهم ونزع الرحمة من قلوبهم عليها، يحملون عليها القناطير المقنطرة من الأمتعة وأحمال الحطب والتبن وغير ذلك حتى لا يظهر من الجمل إلا رأسه، ثم يدخلونها السفينة كذلك وينيخونها فيها بأحمالها على ظهورها، ثم يخرجونها منها كذلك وقد ألفت إبلهم ذلك، وأما إبلنا فلا يدخل منها جمل إلى المركب إلا بعد عناء شديد ووثاق وثيق وضرب عنيف وإدارة الرجال بها بعضهم يحملها، وبعضهم يضربها. ولقينا هناك صاحبنا الشيخ علي الدمشيتي، فجزاه الله خيرا على صدق محبته وخلوص مودته.

لطيفة وعظيمة:

والشيء بالشيء يذكر، ذكر الشعراني في طبقاته، عن بعض الصالحين ممن يسكن في بعض قرى مصر، أنه كثرت إذاية أهل القرية التي هو بها له، فعزم على الخروج منها، فاكترى جمالا لحمل أمتعته، فأتي بجمل فجعل يلقي عليه كل ما كان من الأمتعة، فلما أكثر عليه قال له الشيخ: إنك قد ثقلت على هذا الجمل. فقال له صبي هناك: يا عم، إن الجمل يحمل أكثر من هذا، فتفكر في نفسه و قال: هذا خطاب من الحق لي، فإذا كان الجمل، وهو من الحيوانات العجم لا يعقل ولا يرجو ثوابا، يحمل أكثر من هذا، فكيف لا أتحمل أنا أكثر من هذا من إذاية الخلق، فحط أمتعته ورجع، فسمع منشدا:

[بسيط]

إن الجِمالَ التي بالحملِ قد عُرِفت   تأبى العياءَ ولو مُست من القتَبِ

ذكر دخولنا إلى القاهرة[1] (حفظها الله وأمَّنها)[2]

ثم دخلنا إلى[3] القاهرة ضحى، ولم نجد داراً للكراء بقرب الأزهر مع شدة رغبتنا في ذلك، فطرحنا أمتعتنا بوكالة قايت باي بباب الأزهر الغربي، وجعلنا نتطلب داراً للسكنى، فما وجدناها إلا آخر النهار بمحل يقال له البردبكية، وجدنا هناك داراً واسعة فيها عدة مساكن، إلا أنها بعيدة عن الأزهر بنحو من أربعمائة خطوة قريبة من مشهد الحسين، رضي الله عنه، واكتريناها بثلاثة وسبعين نصفاً، ونقلنا إليها أمتعتنا.

ووجدنا الوباء بالقاهرة كما بلغنا، إلا أنه خفيف[4]، يُصَلَّى في الجامع الأزهر كل يوم على نحو من عشرة، ومن علم حال مصر وما يموت فيها أيام سلامتها من هذا العارض يرى هذا، مع وجود الوباء، كلا شيء، وقد حكى لي بعض الأصحاب أن الوباء وقع بمصر مرة فكثر الموت حتى كان يدفن في اليوم الواحد أربعون[5] ألفاً، فهمَّ الباشا وأتباعه بالخروج من مصر والفرار لما شاهد من كثرة الموت، فلما فشا خبر إرادته الخروج طلع إليه رجل مسن من أهل التجربة والرأي فقال له: بلغني أنك تريد الخروج، فما الذي يخرجك؟. فقال[6]: هذا الموت الذريع الذي وقع في الناس. فقال له: وأي موت هنا، ابعث إلى شيوخ الحومات بمصر يعدوا لك كم من حومة بمصر، فبعث إليهم، فعدوا الحومات فوجدوها أربعين ألفاً، فقال له ذلك الشيخ: ألم أقل لك أي موت هناك، إنما هذا ميت من كل حومة، فهو إما عبد أو صبي أو امرأة. فلما سمع الباشا ذلك خَفَّ عليه الأمر فجلس.

---

(1) في خ: مصر.
(2) زيادة من ط.
(3) ساقط من ط.
(4) في ط: ضعيف.
(5) في خ: أربعين.
(6) في ط: قال.

وممن لقيته من مشايخنا في ذلك اليوم الشيخ عبد الجواد الطريني[1]، ووجدناه قد أسنَّ، وهو مع ذلك ملازم لباب خلوته في الجامع كما هو شأنه رضي الله عنه. ولقيت أيضاً في ذلك اليوم شيخنا الهمام علم الأعلام، وشيخ مشايخ الإسلام، أبا إسحاق إبراهيم الميموني[2]، وقد أثَّر الهرم فيما عدا عقله، وأخذت السن من قواه ما ظهر أثره في قوله وفعله، ومع ذلك قد متع بسمعه وبصره وبنضارة الوجه على كبره، دخلت عليه بعد العصر فوجدته يُصَحِّح مع بعض الطلبة تأليفاً له في مباحث تتعلَّق بقوله تعالى: (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم)[3]، الآية، مع آية[4] أخرى أتى فيه بالعجب العجاب، وهَشَّ رضي الله عنه للقائنا وبش وطش[5] مزن ترحيبه بماء المحبة ورش، وبالغ في التحفي والسؤال عن الأحوال، وأقسم أن لو كان في مترله سعة لما نزلتم إلا عندي إلى أوان الارتحال، وعزم علينا أن نفطر عنده تلك الليلة مع جماعة من الإخوان، ففعلنا وبتنا تلك الليلة بالجامع الأزهر لأنها ليلة سبع وعشرين، وفي الحقيقة كل الليالي بذلك المسجد كليلة القدر لأنه معمور بالذكر والتلاوة والتعليم آناء الليل وأطراف النهار لا تنقطع منه العبادة ليلاً ولا نهاراً، صيفاً وشتاء، فهو عديم النظير في مساجد الدنيا بأجمعها، حاشا المساجد الثلاثة لما لها عند الله من أعظم المزايا وأرفعها، وإن خص هو بهذه الفضيلة، فغير مستنكر وجود مزية في المفضول ليست في الفاضل، إذ الفضل بوجود التفضيل لا بوجود الفضيلة، ولو سلم ذلك، ففي الفاضل من الفضائل ما يكون فضيلة المفضول الذي اختص بها بالنسبة إليها كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، فبتحقيق هذه القاعدة تنحل إشكالات كثيرة في التفضيل بين الأشخاص والأزمنة والأمكنة وغير ذلك.

ثم في الغد من يوم دخولنا حضرت بعد صلاة الصبح بمجلس الشيخ المحقق العلامة المدقق الشيخ عبد السلام ابن شيخ الإسلام أبي المداد إبراهيم اللقاني[6]

---

(1) عبد الجواد بن إبراهيم الطريني، فقيه مشارك، كان ملازما للتدريس حسن التقرير، توفي عام 107 3 هـ: التقاط الدرر، ص: 156. نشر المثاني 2:133. شجرة النور الزكية1:44.

(2) إبراهيم بن محمد بن عيسى برهان الدين الميموني، فقيه محدث، من مؤلفاته:"تهنئة الإسلام ببناء بيت الله الحرام"، توفي سنة 1079 هـ: خلاصة الأثر 1:46.التقاط الدرر، ص: 181. صفوة من انتشر، ص:259.

(3) هود: 117.

(4) في ط: آيات.

(5) طش: طشت السماء رشت: لسان العرب: طشش.

(6) عبد السلام بن إبراهيم بن إبراهيم اللقاني المصري، شيخ المالكية في عصره، توفي عام 1078 هـ:التقاط الدرر، ص: 172. صفوة من انتشر، ص: 281. الأعلام 3:355.

يقرئ شرح النقاية[1] للجلال السيوطي. والشيخ عبد السلام هو وارث علوم أبيه والفذ من أصحابه الذي ليس له شبيه، إلا أنه غلب عليه حب الانفراد والنفور من العباد، فمن قائل: إن ذلك منه تنسك وزهادة، ومن قائل: بطالة وملالة، والصحيح، إن شاء الله، الأول، فلا يدرس إلا في الشهور[2] الثلاثة، رجب وتاليِيْه، وغالبِ تدريسه فيها الحديث وما أشبهه. ومما استفدته منه أن المؤمن، ولو كان عاصياً، إنما يحضر خروج روحه ملكان أبيضان منيران هينان لينان، وأنهما يحولان بينه وبين الأسودين، وإن كان فاسقاً. واستفدت منه أن الوباء، أعاذنا الله منه، يحدث في الجسم سمية منها يكون موت صاحبه، ولو برئ في ذلك الوقت فإن موته متى كان، ولو بعد مائة سنة، إنما يكون بتلك السمية الباقية في البدن، وهذا عندي مما ينظر فيه، إن ورد عَمَّن يجب التسليم له فيسلم، وإلا فالإنسان قد يموت مقتولاً أو بشرب سم أقوى أثراً من ذلك الأول، أو بغرق أو حرق أو هدم، وبعيد أن يكون سبب موت أحد هؤلاء السمية الباقية في البدن من وباء متقدم دون هذا السبب الظاهر الذي قرن الأثر المضاف إليه بالموت عادة وحساً وشرعاً، إذ يقال: قتل فلان فلاناً فيقتص منه، اللهم أن يرد ذلك مرفوعاً فيتبع لأن العقل لا يحيله، أو يكون ذلك خاصّاً بالأمراض الحادثة في البدن من تغيّر أمزجة وتعفين أخلاط، وأن سبب ذلك السمية الباقية[3] فهذا أقرب من العموم.

وزرنا في يومنا ذلك شيخ القراء بالقاهرة ورئيس أهل التجويد بلا مدافعة، الشيخ سلطان[4]، ودعا لنا، وكانت في خلقه، رضي الله، عنه شدة، لا يترك أحداً يُقَبّل يده غالباً، وإن ألح أحد في طلب الدعاء انتهره، ويمضي ويتركه، ولا يتحمل للطلبة الذين يقرؤون عليه أدنى غلط يقع منهم، بل يبالغ في التقريع والتوبيخ، بل ربما زاد إلى الشتم، والناس يحتملون ذلك منه لتحقيقه وانفراده بذلك، مع تقشفه وورعه وصبره علي ملازمة وظائف العبادة جل نهاره، فأوقاته مُقَسَّمة بين صلاة وتلاوة وتدريس وفتيا، والحدة تعتري خيار هذه الأمة ومن أخلاق المؤمنين، إلا أن

---

(1) النقاية مختصر في أربعة عشر علما مع زبدة مسائلها لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة 911 هـ، ثم شرحه وسماه إتمام الدراية، فرغ من تأليفه ثالث ربيع الأول سنة 873 هـ: كشف الظنون 2: 1970.

(2) في ط: الأشهر.

(3) ساقط من ط.

(4) الشيخ سلطان بن سلامة المزاحي المصري، رئيس أهل التجويد والإقراء بالقاهرة، توفي عام 1075 هـ: التقاط الدرر، ص: 164. صفوة من انتشر، ص: 257.

الشيخ رضي الله عنه أفرط فيها إلى غاية لا يحتملها له إلا من علم حقيقة حاله، وكان معه أيضاً زيادة تعظيم ومحبة للعلماء. والمغاربة، لما في أخلاقهم من الشكاسة، لا يكادون يصبرون على القراءة عليه، فأكثر الملازمين له أهل بلده لما جبلوا عليه من سعة الخلق وتحمل الأذى والصبر الذي لا يوازيهم فيه أهل قطر من الأقطار، فمن أضاف منهم كف الأذى، وما أقله، إلى هذا الخُلُق الذي جبلوا عليه من حمل الأذى، استكمل جماع الخلق الحسن، (وربك يخلق ما يشاء ويختار)[1]، وله في كل خلق وخلق حكمة يعلمها، وهو الذي قسم الأخلاق كما قسم الأرزاق، (فتبارك الله أحسن الخالقين)[2].

ثم حضرت بعد العصر من ذلك اليوم درس الشيخ موسى القليبي المالكي[3]، وكان يقرئ الجامع الصغير للجلال السيوطي بباب رواق الحنفية، ومن جملة ما قرأ[4] في حديث: أيما عبد أبق من سيده فمات،[5] إلى قوله: ولو مات شهيداً. أن العبد إذا أبق فمات في قتال الكفار كان شهيداً من جهة قتله، وعاصياً من جهة إباقته. ثم قال بمنزلة من شرب خمراً فشرق فمات فإنه شهيد لغصته، عاص بشرب الخمر هـ كلامه. وهذا الأخير عندي غير مقبول لأن الشهادة رتبة شريفة، وهي من الرخص التي ترخص الله بها لعباده المؤمنين، فأكرمهم بها زيادة في ثوابهم على ما حملوا أنفسهم من المشقة المتلفة لأنفسهم في مرضاته، والعاصي بفعله لا يترخص له ولا سعي له في مرضاة ربه حتى يرضيه بالشهادة. نعم، إذا كانت المعصية بغير ما وقع به القتل كالآبق، أو من زنا أو شرق في سفره، فهذا قد يقال فيه شهيد من جهة، عاصٍ من جهة، لأن الجهة منفكة، فجهة قتله غير جهة عصيانه. وأما إذا كان سبب القتل في نفسه معصية كشرب خمر فيغص بها، أو تمكين امرأة من زنا بها فتموت منه، فبعيد أن تحصل لها رتبة الشهادة، أليس الغريق والحريق وذو الهدم والمبطون وغير هؤلاء كلهم قد ورد أنهم شهداء، فلو أن أحدهم رمي بنفسه في البحر عمداً فغرق، أو في النار فاحترق، أو تناول سُمّاً أو داء معلوماً فمات لا

(1) القصص: 68.
(2) المومنون: 14.
(3) أبو عمران موسى القليوبي المصري، الإمام الفقيه العلامة، تصدر للإقراء والإفتاء، ذكر ابن مخلوف أنه لم يقف على تاريخ وفاته، ويبدو جليا أنه أخذ الترجمة نقلا عن العياشي: شجرة النور الزكية 1:441.
(4) في ط: قرر.
(5) جاء في صحيح ابن خزيمة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ثم إذا أبق العبد لم يقبل له صلاة حتى يرجع إلى مواليه: صحيح ابن خزيمة 2:69.

يقال فيه شهيدٌ اتفاقاً، وكذلك هذا تناول معصية كانت سبب حتفه، أنَّى له الشهادة، اللهم إلا أن يكون المحترق مثلاً ممن قام لنار يريد إطفاءها ولا يعلم أنها تحرقه، فغلب حتى احترق، أو أراد إنقاذ غريق وهو يظن من نفسه القدرة على ذلك، فغلب وغرق، أو غير ذلك من الوجوه التي يكون فيها أصل الفعل الذي وقع به القتل مباحاً، فهذا شهيد بلا كلام. وشارب الخمر، وإن لم يقصد به إتلاف نفسه فهو معصية واحدة، وما ترتَّب عليه من القتل معصية أخرى سببها معصية، وإن لم يكن القتل مقصوداً فإنَّ المعصية لا يتوقف كونها معصية على القصد إليها ونية أنها معصية، فإن الطاعة هي التي تتوقف على النية دون المعصية، فيؤاخذ بها عاجلاً ويعاقب آجلاً، نواها أم لا، ألا ترى أن من تعَمّد ضرب إنسان ولم يرد قتله ولا قصده فمات منه فإنه آثم آجلا، ويقتص منه عاجلا لأن السبب الذي نشأت عنه المعصية معصية كشرب الخمر في مسألتنا، فهو معصية ونشأت عنه معصية أخرى وهي قتل نفسه، إلا أنها ليست مقصودة له فلا ينفعه عدم القصد ولا يدرأ عنه الإثم. ولو سَلَّمنا أن إثم القتل مندفع عنه لكونه غير مقصود له فمن أين له الشهادة التي هي أشرف مقام خص به الله من جاهد في سبيله، ثم من صبر لضُرٍّ أنزله به مولاه حتى لقي ربه وهو راض عنه. نعم إن لم يمت هذا المغصوص بأثر الغص، وطالت حياته حتى تاب من فعله توبة صادقة، ثم تاب بإثرها من تلك المعصية، لا يبعد أن يقال هو شهيد بغصته، ولو قيل إنه مرتمك[1] في المعصية بعد توبته لبقاء أثر ما تسبب فيه، كما قال إمام الحرمين[2] في الخارج من المغصوب تائبا لما بعد ذلك. والصحيح صحة توبة هذا المغصوص إن لم يمت بإثرها كتوبة الخارج من المغصوب على الصحيح.

وإنما أطلت الكلام في هذه المسألة لأن بعض الإخوان عارضني في هذا الرد فأبديتُ ما عندي من الأدلة لينظر فيها ذوو الألباب، ولا أدّعي أنها سالمة من مناقضة أو معارضة، إلا أنها عندي أرجح مما يعارضها وأثبت مما يناقضها، والعلم عند الله تعالى.

---

(1) في ط: المرتبك. والمرتمك والرامك: المقيم لا يبرح: لسان العرب: رمك.

(2) أبو المعالي عبد الملك بن أبي يعقوب يوسف الجويني، إمام الحرمين، فقيه محدث، جاور بالحرمين مدة، وتوفي سنة 478 هـ: شذرات الذهب 2:358. شرف الطالب، ص: 58.

فلما كان يوم[1] تسعة وعشرين من الشهر ختم المشايخ دروسهم، فختم الشيخ عبد السلام اللقاني بعد صلاة الصبح، وعادتهم في الختم أن يحضر يوم الختم أنجب تلامذة المدرس وكبراء إخوانه، فإذا فرغ المدرس قرأ القارئ آيات من القرآن بقراءة مطربة، ومنهم من يقرؤها بالقراءات السبع، وبعد فراغه ينشد منشد بصوت رخيم قصيدة من إنشاء بعض التلامذة فيها مدح النبي، صلى الله عليه وسلم، والترضي عن مؤلف الكتاب المقروء، والدعاء للشيخ الذي يدرسه، ثم يقوم آخر ويثني على الله وعلى رسوله بثناء بليغ ثم على آل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه وتابعيهم بإحسان، ثم يرضي[2] عن المشايخ أرباب المذاهب، كل ذلك بنثر بديع ولفظ فصيح، ثم يقرأ الفاتحة ويهدي[3] ثوابها إلى حضرة النبي، صلى الله عليه وسلم، وإلى كل من ذكر بعده، ويبالغ في الثناء عليهم إلى أن يصل إلى الشيخ المدرس فيدعو له وللحاضرين بأبلغ دعاء بقلب حاضر وصوت خاشع، ويؤمّن الحاضرون على دعائه، ثم يختم. وبعد هذا يقومُ أهلُ المجلس كلهم ويصافحون الشيخ ويدعون له ويدعو لهم، ثم بعد صلاة العصر ختم الشيخ موسى القليبي المالكي وفعل أصحابه كفعل أصحاب الشيخ عبد السلام[4] من القراءة والإنشاد والدعاء، تقبّل الله منهم. ويحضر عند الختم جمع عظيم من الناس وأهل الفضل والمجاذيب، ويغلب على الظن إجابة دعواتهم ونيل رغباتهم لتوفر دعاويهم وتظافر هممهم، ثم بعد العشاء الأخيرة ختم ولد شيخنا المرحوم بكرم الله تعالى الشيخ عبد القادر بن جلال الدين المحلي[5]، وكان أبوه رضي الله عنه يقرئ التفسير في الأشهر الثلاثة قراءة حسنة جامعة لأنواع الفوائد مشتملة على تقرير فنون من العلم، وقد حضرتُ قراءته مرة فيما مضى فسمعت أمراً عجيباً وطرازاً من التقرير غريباً، ثم تُوفي إلى رحمة الله في هذا الشهر المبارك قبل قدومنا بأيام قليلة، وجلس ولده هذا في موضعه لإتمام درس أبيه، وكان هو المتولي لوظائف أبيه من بعده خطابة وتدريسا، وقد حضر عليه بمجلسه يوم الختم غالب علماء الأزهر، وتكلم

---

(1) في ط: في يوم.
(2) في ط: يترضى.
(3) في ط: يهتدي.
(4) يقصد الشيخ عبد السلام اللقاني.
(5) يقصد الشيخ عبد الباقي بن عبد الباقي بن عبد القادر المحلي الحنبلي الدمشقي، الشهير بابن فقيه فصة، الإمام المحدث، ولد سنة 1005 هـ، وتوفي سنة 1071 هـ: خلاصة الأثر2:283. فهرس الفهارس 1:450-451.

بكلام لا بأس به على ما أخبرني به بعض أصحابنا، ولم أحضر تلك الليلة لبعد منزلنا من المسجد مع ما لحقني من الكسل بسبب الصوم وقبح هواء البلد.

لطيفة:

تظافرت أقوال المنجمين و[1] المعدلين بالقاهرة في تلك الأيام بأن الهلال يُرى ليلة ثلاثين، فيكون الشهر تسعاً وعشرين، وقالوا: إن قوسه إحدى عشرة، أو اثنتي عشرة درجة، ومعلوم أنه إن كان كذلك يظهر إن لم يستره غيم، وانتشر ذلك في الناس واعتقدوه حتى قيل إن الباشا طلب من قاضي العسكر الحنفي أن يحكم بذلك فأبى، جزاه الله خيراً، وقال: لا أحكم حتى يُرى الهلال، فلما كان قبل المغرب طلع قاضي الشافعية، وهو المعد لذلك، مع عدوله إلى رأس المئذنة، وكان الصحو التام، فارتقبوا حتى انتشر الظلام، فلم يروا شيئاً، فأوقدوا المصابيح في المئذنة كما هو عادتهم في ليالي الشهر كلها، فعلم الناس أن الغد من رمضان، فكَذَّب الله أقوال المنجمين المتخرصين على الغيب، (والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب)[2]. وصام الناس يوم الثلاثين.

وفي ذلك اليوم لقيت برواق المغاربة قاضي المالكية الشيخ عمر فكرون[3]، وهو رجل مسن أصله من سوسة، طالت إقامته بمصر، وله خبرة تامة بفروع المذهب، وله شرح على المختصر الفقهي في أربعة مجلدات، إلا أنه ليس بذلك على ما أخبرني به الثقة ممن رآه، وهو رجل يحب الفخر والثناء عليه وعلى مؤلفاته، وسرنا معه بسيره في ذلك، جبراً لخاطره لَمَّا رأينا من حسن إقباله علينا وانبساطه معنا، وأنشدنا أبياتاً كثيرة مما دار بين الشيخ المقري رحمه الله وأهل عصره من أهل مصر، وأطرفنا[4] بحكايات وأخبار غريبة، وهو على كبر سنه ممتع وسامع في محاوراته ومسمع، وهو مع طول توليته القضاء في هذه المدينة على سيرة إخوانه من

---

(1) في ط: من.
(2) الرعد: 41.
(3) عمر فكرون، التونسي، قاضي المالكية بالقاهرة، له شرح على المختصر للشيخ خليل في أربع مجلدات، لم تذكر المصادر تاريخ وفاته: التقاط الدرر، ص: 244.
(4) في ط: وأطربنا.

القضاة في هذه الديار، وحالهم لا يخفى، بل هو من أسهلهم وأقربهم إلى الصواب على ما يُحكى، وإلى الله المشتكى.

وقد خرجنا آخر يوم من رمضان عشاء لزيارة القرافة الصغرى، وكان يومنا كثير الحر، فزرنا قبر الشيخ خليل[1]، رضي الله عنه، وقبر شيخه الشيخ عبد الله المنوفي[2]، وهما في مكان واحد بقربهما تربة الأئمة اللقانيين، وزرنا قبر ابن عمنا سيدي محمد بن عبد الجبار، رحمه الله، وكان تُوفي بمصر سنة خمس وستين وألف، ولم نهتد لقبره إلا بعد تأمل شديد، ثم زرنا غالب من كان بتربة المجاورين من الصالحين، وسُمِّي هذا المكان تربة المجاورين لأنه قريب من الجامع الأزهر، وبه يدفن غالب أهله والمجاورين له، بل الأماكن القريبة من الجامع كلها تُسَمَّى حارة المجاورين؛ إذ لا يسكنها في الغالب إلا العلماء والغرباء والفقراء، وقل أن تجد بإزائه دار مُتجر أو أحد أرباب الدولة لضيق المحل، وهم يريدون السعة والقرب من القلعة التي هي محل الباشا وأكابر دولته.

وبعد الفراغ من زيارة تربة المجاورين زرنا قبر السلطان المرحوم الملك المعظم المهاب العدل المعدود من الأولياء الأتقياء، كما ذكر غير واحد من الأئمة، السلطان قايت باي[3] رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا ببركاته، وعلى قبره بناء عظيم وبإزائه مسجد متقن ومحلات لسكنى الفقراء ولقيم القبر، وهو لا يخلو من عمارة.

لطيفة:

عند رأس القبر حجر مبني عليه بناء حسن فيه أثر قدمين شاع عند الناس أنهما قدما النبي، صلى الله عليه وسلم، وهناك حجر آخر فيه أثر قدم يقال إنها قدم الخليل، والناس يزورونها ويذكرون أنها من الذخائر التي ظفر بها السلطان قايت باي أيام سلطنته، فجعلت عند قبره رجاء بركتها، ولا يبعد ذلك، فقد كان ملكاً عظيماً عدلاً موقراً مهاباً مُحَبَّباً إلى الخلق، ذا سيرة حسنة في الرعية واجتهاد في

(1) ضياء الدين خليل بن إسحاق الجندي، فقيه مالكي صاحب المختصر المشهور، كانت وفاته في حدود 776 هـ: وفيات الونشريسي، ص: 127. شجرة النور الزكية: 1:321.

(2) الشيخ عبد الله المنوفي، فقيه مالكي، توفي سنة 749 هـ: النجوم الزاهرة 10:230.

(3) أبو النصر سيف الدين الظاهري، الأشرف قايت باي، (815- 901 هـ)، من ملوك الجراكسة بمصر، تلقب بالملك الأشرف، شهدت مدة حكمه عددا من المعارك والحروب: الأعلام 5:188.

عبادة ربه، إلا أنّا لم نر من نص على أنه ظفر بشيء من هذه الآثار من المؤرخين، بل قد ذكر جماعة من حفاظ المحدثين أنّ ما استفاض واشتهر خصوصاً على ألسنة الشعراء والمدّاح من أن رجل النبي، صلى الله عليه وسلم، غاصت في الحجر لا أصل له، و لم يذكر أحد أن أثر الخليل، عليه السلام، موجود في غير حجر المقام.

قلت: وبالمدينة المُشَرَّفة ومكة والقدس آثار يقال إنها آثار بعض أعضاء النبي، صلى الله عليه وسلم، من قدم ومرفق وأصابع، والله أعلم بصحة ذلك، ولكن لم يزل الناس منذ أعصار يتبركون بها من العلماء والصلحاء[1]، ويقتفي الآخر منهم الأول، فلأجل ذلك لما دخلنا إلى مزار السلطان المذكور صب القيم على الأثرين شيئاً من ماء الورد، فغمسنا فيه أيدينا ومسحنا به على أوجهنا ورؤوسنا وأبداننا رجاء البركة بحسن النية وجميل الاعتقاد لأن المنسوب إليه ذلك عظيم، ورائحة النسبة مع حسن النية كافٍ في ظهور الأثر وحصول المرام. و لم يزل الناس يتعرفون البركة وإجابة الدعاء في الأماكن المنسوبة إلى الأنبياء والأولياء والعلماء، ولو لم تصح النسبة، فما بالك بما نُسب إلى سيد الوجود، فالكل في الحقيقة إليه منسوب، إذ هو أصل الموجودات وسر المشهودات، فأي محل كان مظهراً لبعض كمالاته بالفعل والقول، أو بمجرد النسبة مع أصل النسبة الحقيقية عَمَّته البركة وغشيته الرحمة، يدرك ذلك بالذوق أربابه، ويتعرفه بالبصيرة النورانية أصحابه، والله المسؤول أن يمدنا بمدده الساري في أسرار محققي أتباعه، وينظمنا في زمرة حزبه وأشياعه، صلى الله وسلم عليه وعلى آله الطيبين والطاهرين.

و لم نستكمل مرادنا في الزيارة ذلك اليوم لشدة الحر وضعفنا بالصوم مع كثرة الزحام بالمقابر، فإن عادة النساء بمصر أن يخرجن ليلة العيد ويومه إلى المقابر ويبقين هنالك برهة من الزمان، وتلك عادة مذمومة في سائر الأيام، فما بالك بيوم العيد فإنه يومٍ أكلٍ وشرب وفرح وسرور، وزيارة القبور تذكر الآخرة، وتُثير في القلب حزناً فتنافيا، ولذلك قال بعض الأئمة: إن الأولى ترك زيارة القبور أيام العيد إلا أن يكون بنية المواصلة وإدخال السرور على أهل المقابر من المسلمين خصوصا أقاربه.

(1) في ط: الصالحين.

ولما كان يوم العيد، وهو يوم السبت، بَكَّر الناس للصلاة وهم يـــصلون في المساجد ويبكرون بالصلاة يصلونها عند الإشراق أول ما تحل النافلـــة، وصـــلينا بالجامع الأزهر، وخطب الخطيب خطبة حسنة جلها في أحكام زكـــاة الفطـــر، واستوعب فروعها على مذهبهم، ومن جملة ما ذكر فيها أنها لا تلزم إلا من لـــه فضل على منزل ومركب وخادم ولباس يليق به، وأنها تقسم للأصناف الثمانية إن وجدوا.

ولما فرغ الناس من الصلاة وتوابعها جعلوا يتزاورون، ووقف المشايخ لزيارة الناس، فجئنا إلى الشيخ عبد السلام فزرناه ودعا لنا، ثم إلى الشيخ سلطان كذلك، ولقينا غالب أصحابنا من طلبة الأزهر هنالك في المسجد، ثم دخلنا لزيارة شيخنا الشيخ إبراهيم الميموني، رضي الله عنه، ومنزله قرب الجامع، وقدم لنا طعاماً حسناً، وكُنَّا جماعة، وهذا خلاف المعتاد من أهل مصر، وإنما يتكارمون بينهم بـــشراب البن الذي يسمونه القهوة، ونحن لا نعرفها، وليست عندنا بطعـــام ولا دواء ولا شهوة، والكلام فيها من حيث الحكم بالإباحة وعدمها طويل عريض معلوم شهير نظماً ونثراً، وأكثر العلماء مائلون فيها إلى الإباحة، وترشح قولهم بفعـــل أكثـــر الصوفية، مع تورعهم في المطاعم والمشارب، زاعمين أنها تعين علـــى الـــسهر في العبادة، ويستعين بها الطلبة كثيراً في المطالعة الليلية، ولا شك أنها تزيل ما يحصل في الرأس من تدويخ بسبب السهر أو خلو المعدة صباحاً، فإذا شربها الإنسان وجد في أعضائه نشاطاً، وأحس بخفة في رأسه، وهذا في الغالب لمن اعتادهـــا، وهـــي مُخَفِّفة اتفاقاً وهاضمة، وصحح بعض العلماء أنها تحرم على من طبعه الـــسوداء، وتكره لمن طبعه الصفراء، وهي نافعة لصاحب الـــبلغم وغيرهـــا مـــن أنـــواع المطعومات، كذلك يحرم تناول ما يضر منها على من علم أنه يضره، ولا يكـــون ذلك موجباً للحكم بتحريمها. والحاصل أن الشاربين لها فريقان: فريق يشربونها في أماكن مُعَدَّة لذلك مزخرفة قلما تخلو من لهو وحضور من لا يحل حضوره مـــن الجواري والمرد، فهؤلاء الحامل لهم على شربها اتباع الأهواء والتلذذ بما قارنها من الأمور المذمومة، فلا يبعد أن يقال إنها في حق هؤلاء محرمة، لا لذاتها، بل لما قارنها. وفريق يشربونها في مساكنهم أو حوانيتهم، أو يشترونها في السوق ويـــشربونها[1]، ويشربونها من غير جلوس مع الفريق الأول، فهؤلاء الحامل لهم عليها الفهم لهـــا،

(1) في ط: يشربونها في السوق.

حتى إنهم ربما يتضررون ضرراً خفيفاً بتركها كما يتضرر مَـنْ أَلِـفَ الحجامـة بتركها، ومَنْ أَلِفَ شرب العسل المسهل بتركه وغير ذلك من الأمور التي يعتادها الناس، ويحملهم عليها أيضاً تحصيل المنافع المتقدمة من الاستعانة على السهر ومن إزالة التدويخ صباحاً، وغالب ما يستعملونها مع طعام خفيف من كعك أو كسر خبز، فيكفيهم ذلك إلى وقت الغذاء، هذا كله مع خفة المئونة؛ إذ بفلس واحـد يشرب من ذلك ما يكفيه، مع تيسرها في أي وقت أرادها، ولا يحتاج فيهـا إلى أكبر مئونة ولا مقارنة إدام أو ملح أو إبزار أو خضر أو غير ذلك مما يحتاج إليـه غالب الأطعمة، ويزاد على ذلك، وهو أكبر منافعها عندهم أنها تقوم مقام القِرَى للضيف، بحيث لا يستحي أحد في تقديمها للباشا فمن دونه، ويقوم ذلك عندهم مقام ما يتكلفه المرء عندنا من أطعمة كثيرة تبلغ قيمتها في بعض الأحيان دينـارا فأكثر، ودرهم واحد يقوم مقام دينار لا يكرهه أحد، بل لو قدم إليه أي طعام لم تكن معه فإنه لم يقدم شيئا، وإن قدمت هي كفت.

لطيفة:

أخبرني شيخنا الملا إبراهيم بن حسن الكوراني[1] أن شيخنا الإمـام صـفي الدين القُشاشي[2] كان يقول: مما أنعم الله به على أهل الحجاز هذا الـبن لأنهـم ضعفاء فقراء في الغالب، والناس يقدمون عليهم من الآفاق، والإنسان لا بد له من طعام يقدمه لمن دخل عليه، ولا قدرة لهم على تكلف ذلك لكل أحـد يـدخل عليهم، وهذه القهوة خفيفة المؤنة، والناس راضون بها غنيهم وفقيرهم، ورئيسهم ومرؤوسهم، فكانت صيانة لوجوه الفقراء عند ورود أحد عليهم، فلا يبعـد أن تكون مستحبة عند أهل الحجاز لأن اتخاذ الإنسان ما يصون به عرضه مطلـوب شرعا. قال ذلك في معرض المزاح وقد سئل عن حكمها.

قلت: وكلام هذا الشيخ، مع جلالة قدره، وجمعه بين العلم الظاهر والباطن وكلام غيره من أئمة الطريق مما يتقوى به قول من قال بإباحتها، لأن المـسألة إذا

(1) أبو إسحاق إبراهيم بن حسن الكوراني الكردي، فقيه متصوف، جاور بالمدينة المنورة وبها توفي عام 1101 هـ، له مؤلفات كثيرة أثارت جدلا واسعا بين العلماء والفقهاء: التقاط الدرر، ص: 255. إتحاف الأخلاء، ص: 121-122.
(2) تقدمت ترجمته.

كانت ذات قولين، وكان الصوفية مع إحدى الطائفتين، ترجح قولهم لا محالة لما رزقوا من صدق الإلهام ونفوذ البصيرة مع تأييد الله لهم عند اشتباه المأمور، فيميلون مع الحق أين ما مال لرفضهم دواعي الهوى، نص على ذلك غير واحد من الأئمة، وقد شاع وذاع عند كثير من الناس ذكر غير واحد ممن تكلم عليها أن أول من أحدثها وأخرجها من أرض اليمن الشيخ الولي الصالح المتفق على ولايته سيدي علي بن عمر الشاذلي اليمني، وأمر أصحابه بشربها ليستعينوا بذلك على السهر في العبادة، ثم لم يزل أمرها يفشو شيئاً فشيئاً، ومن بلد إلى بلد، إلى أن آل إلى ما آل بحيث عمت البلاد المشرقية وكثيراً من المغربية، فيحمل منها في كل سنة من بلد اليمن إلى كل أفق من الآفاق، شرقاً وغرباً، آلافاً من الأحمال، فتدفع فيها أموال قلما تدفع في غيرها من التجارة، فيبلغ الحمل منها في مكة إذا رخص فوق العشرين ريالة، وبمصر إلى الخمسين، وفي البلاد الشاسعة، كإفريقية وبلاد الروم من القسطنطينية وغيرها فوق[1] المئين.

لطيفة:

لكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة، رأيت بمكة كلاماً للإمام ابن حجر الهيثمي المكي[2] في إباحة القهوة بالغ فيه بالثناء عليها وذكر محاسنها، وكان من جملة ما ساقه مساق الاستدلال على أنها مباحة، وأنها من شراب الصالحين ومعينة على العبادة، أن كثيراً من السلاطين والولاة والحكام قد بالغوا في إرادة قطعها والنداء عليها في الأسواق أن لا تشرب، وإراقتها والزجر عنها بأنواع الزجر، ومع ذلك لم تزد إلا شهرة وشيوعاً في البلاد، فدل ذلك على أنها من شراب الصالحين، وأنها قد شمل نظر مخرجها ومبدعها فلا يقدر أحد على قطعها، أو كلاماً هذا معناه لطول العهد به.

قلت: وهذا الاستدلال ساقط، فإن الدخان الذي شاع في الآفاق أكثر العلماء على تحريمه، وهو الصحيح إن شاء الله، لما اشتمل عليه من المفاسد، ولا

---

(1) في ط: من.
(2) أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي المصري، فقيه محدث، ولد سنة 899 هـ، له مصنفات عدة منها الفتح المبين في شرح الأربعين، توفي سنة 974 هـ: خلاصة الأثر 2:166. فهرس الفهارس 1:337.

منفعة فيه أصلاً، واتفق عليه أرباب القلوب شرقاً وغرباً على التنفير منه وكراهته، ولم يزل الأمراء مجتهدين في قطعه، ومع ذلك فلا يزداد إلا شهرة، بل الخمر المحرم بالكتاب والسنة والإجماع قد اشتهر في كثير من الأمصار وعمت البلوى به غالب الأقطار، فالاستدلال بالشيوع وعدم قطع الولاة والحكام على الإباحة لا يخفى ضعفه وبطلانه على من له أدنى معرفة وتمييز بين صحيح الأدلة وباطلها، فكيف بذلك الإمام، اللهم إلا أن يقال لما لم يقتصر في الاستدلال عليه وضم غيره إليه، فكأنه لم يعتمده دليلا، بل ذكره مقويا للأدلة ومستأنسا به، وهو الظاهر من كلامه، ومع ذلك فلا يخفى ضعفه، فإن ادعى على الهوى، سيما في الأواخر، غالب مع ميل النفوس إلى المطلوب وضعف داعية الردع من الطالب. ومن أحسن ما رأيته من الأسئلة والأجوبة في شأن القهوة نظما ما اشتملت عليه هذه الوجادة، فأقول: وجدت بخط شيخنا الإمام أبي مهدي عيسى بن محمد الثعالبي بمكة المشرفة ما نصه: كتب العلامة رضي الدين محمد بن إبراهيم الحلبي الحنفي المعروف بابن الحنبلي[1] للشيخ علي بن محمد بن عراق[2] سئل عن القهوة:

[رمل]

أيها السامِي لكلتا الذروتَيْنْ بجوارِ المُصطفى والمروتَيْن[3]

والعلِي القدْرِ علِماً وكذا عملاً فوق عُلو النيرين[4]

مَنْ لهُ في الزهدِ باعٌ ويد وهُو في بذْلِ الندا رحبُ اليدينْ

أفْتني في قهوةٍ قد ظُلمتْ حيثما شِيبَ تعاطيها بشَيْن

مِن تَلَّة[5] هالنا مهيعُهُ واقتراف لأقاويلَ ومَيْنْ

ومراعاةِ أمورٍ شهدَتْ فعلَها في الخانِ كلتا المُقلتينْ

(1) رضي الدين محمد بن إبراهيم بن يوسف المعروف بابن الحنبلي الحلبي، فقيه مؤرخ، توفي بحلب سنة 971هـ: كشف الظنون 1:292. الأعلام 5:302.

(2) الشيخ أبي الحسن علي بن محمد بن عراق الكناني المتوفى سنة 963هـ، فقيه مؤلف، له كتاب: تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة: الكواكب السائرة 2:197. كشف الظنون 4:494.

(3) وردت القصيدة في كتاب: الكواكب السائرة 2:198- 199.

(4) النيران: الشمس والقمر.

(5) التله: الحيرة: لسان العرب: تله.

وحكـــى شُـــرابها أهـــلُ الطـــلا   فالتـــداني بـــين تَـــيْن الفِـــرقتينْ

أَودِعو ذا الطرْسِ ما يرجـــو الفـــتى   أودعوا فاليأسُ إحـــدى الـــراحتيْنْ

فأجابه الإمام ابن عراق[1]:

[رمل]

أيهـــا الـــسامِي سُـــمو الفَرقـــدينْ   وإمـــامُ العلـــمِ مُفـــتي الفـــرقتينْ

يا رَضيَّ الـــدينِ يـــا بحْـــر النـــدا   من رجـــاكُم راحَ مَملـــوء اليـــدينْ

جاءَنِي مـــنكمْ نِظـــامٌ قـــد حكـــى   في نصوح اللفظ مـــسبوك اللجـــين

قلـــتَ فيـــهِ إن ذي القهـــوةِ قـــد   خلَطوهـــــا بتُلـــــة وبمَـــــيْنْ

وبمطعـــــومِ حـــــرامٍ وغِـــــنى   وبـــرقْصٍ وبـــصفْقِ الـــراحتَينْ

وطلبـــتَ الحكـــمَ فيهـــا بعـــدما   قـــــد رأيـــــتُم رأي عـــــيْنْ

وجـــــوابي أنهـــــا حِـــــل ولا   يقتـــضي مـــا قلـــتُم تحـــريمَ عَـــينْ

وعلى ذي الأمـــرِ إنكـــارُ الـــذي   شـــانَها حـــتى تُـــصَفى دون رَيْـــنْ

وإذا لم يـــــــــستطِعهُ دون أن   يمنعَ الأصـــلَ ففِعـــلٌ منـــه زيْـــنْ

والتـــداني مـــن حِماهـــا وهْـــيَ في   وصفِها المـــذكُورِ شَـــيْن أي شَـــينْ

والـــصفا في شُـــربها مـــعْ فئـــة   أخلصُوا التقوى وشَـــدوا المِئـــزرينْ

ثم نـــاجَوْا ربهـــم جُـــنْح الـــدجا   بخـــشوعِ ودمـــوعِ المُقلـــتينْ

فابتـــداءُ الأمـــرِ فيهـــا هكـــذا   قـــد حكـــاهُ عـــن وَليٍّ دون مَـــينْ

ذا جـــوابي واعتقـــادِي أنـــهُ   في اعتـــدالٍ كاعتـــدالِ الكَفـــتينْ

هـــ.

(1) وردت القصيدة في كتاب: الكواكب السائرة199:2.

قلت: والإمام ابن عراق مشهور فضله وعمله وورعه، وهو صدر في علماء الحرمين علماً وعملاً، وجوابه في المسألة هو الحق إن شاء الله، وإلى مثل ذلك تميل أجوبة كثير من الأئمة في جميع الأمصار التي هي فيها، وربما رأينا من يبالغ في التنفير عنها من الأئمة المتعمقين في الورع تركا لما لا بأس به، حذراً مما به إلباس كما هو شأنهم في غيرها من المباحات التي هي من الفضول.

ومما كتبته يوم عيد الفطر لشيخنا الإمام أبي إسحاق إبراهيم الميموني مهنئا بيوم العيد:

[طويل]

سلامٌ عليكُم أيها الأوحدُ الصدرُ ... ومن شَرُفتْ قدرًا بتشريفهِ مصرُ
ومن[1] أشرقَتْ شرْقا وغربًا علومُهُ ... فكانَ له في نشرِهَا الصيتُ والأجرُ
ومَنْ إنْ يُقَسْ أهلُ العلومِ به غَدوا ... كنَجْم السُّهى في جنْبه وهُو البدرُ
يدُل على هذا ذَكاءٌ وفِطنَة ... وعِلْمٌ وحِلمٌ والمهابةُ والصبْرُ
إلى غيرِ هذا من خصَالٍ حميدَةٍ ... سِواها وما قَدمْتُ منها هُو النزْرُ
فأكرِمْ بإبراهِيمَ أفضَلِ منْ علا ... لأعْلى مقام قد أحاطَ بهِ الفخرُ
إمامِي أبي إسْحاق خيرِ مشايخي ... علا قدرُهُ في عصرِهِ من لهُ القدْرُ
أيا شيْخَ الإسلامِ الذي عزَّ مثلُهُ ... علوْتَ مقامًا شامِخا دونَهُ النسرُ
هنيئا لكَ العيدُ السعيدُ ومثلكمْ ... تُهَنى بهِ الأعيادُ والعامُ والشهرُ
فلا زِلتَ ذا أمرٍ يسُركَ دائما ... ويعلو مُحياك المَهابةَ والبِشْرُ
وأبقاكَ ربي كعْبةً لعبادِهِ ... يطوفُ بها مَن مَسّهُ الجَهْلُ والفقرُ
وعافاكَ في أهْلٍ وجسْمٍ وكلِّ من ... يلوذُ بكم من شَرِ ما يجْلبُ الدهرُ

---

(1) في ط: قد.

فلما دخلت عليه ناولتها له فأعطاها لولده فقرأها عليه، فأحسن الثناء ودعا بدعاء كثير وجزى بخير، وتعاطاها أولاده وتلامذته فاستحسنوها وتلقوها بالقبول، وما ذاك إلا لما جبلوا عليه من حسن الأخلاق وطيب الأعـــراق، وإلا فليـــست هنالك وليس قائلها بأهل لبعض ذلك.

ومما كتبته في ذلك اليوم إلى الشيخ العلامة الفقيه الفهامة الـــشيخ موســـى القليبي المالكي رضي الله عنه:

[وافر]

أســـــيدَنا أبـــــا عمْـــــران أني	يُحبـــك بالـــسماع القلـــبُ مِـــني
وكنـــــتُ أود رُؤيـــتكم وأدعـــو	إلَهـــي أن يُقـــر بـــذاك عَـــيْني
وحينَ أتيـــتُ مِـــصْركَ زادَ شَـــوْقي	لـــرؤيتكُم وزالَ الـــصبرُ عـــني
وكيفَ الصبْرُ بعـــد حلـــولِ أرْض	بكُم شرُفت ونالـــتْ كـــل حُـــسْنِ
فَجئتـــكَ طالِبـــا في يـــوْمِ عِيـــد	نوالـــكَ بـــل أُســـلمُ بـــل أُهـــني
ولـــستُ بطالِـــب دُنيـــا فمـــا لي	وللـــدنْيا الـــتي تُـــرْدي وتُـــضني
ولكـــنْ طالـــبٌ ذوْقًـــا وســـرا	وعِلمـــا صـــالِحًا يُغـــني ويقْـــني
ومثلُك مـــن أنـــالَ المُرْتجـــى مـــن	أتَى يسْعى وصـــدَّق حـــسْنَ ظَـــن
وصَـــدَّقني بنَيْـــلِ القـــصْدِ نُـــور	بوجهِكَ إذا خرجْتَ ضَحْوك سِـــن
فـــلا زلـــتُمْ مؤمـــلَ كُـــل راج	وللـــهْفانِ دُمْـــتَ مَحَـــل أمْـــنِ

فذهبت بالقصيدة إليه مع أمير ركبنا سيدي محمد، وكان له به معرفة ومحبّة أكيدة، فتلقانا ببشر وانشراح صدر ووجه كأنه شقة البدر، وبـــالغ في التـــأنيس والإكرام والبر والاحترام، وهو، رضي الله عنه، من أئمة المالكية المشهورين بحسن السيرة وطيب السريرة، شهير صيته بين علماء الأزهر وأرباب الدولة، وهو مـــن أجل تلامذة أبي الحسن الأجهوري[1] المتصدرين للإقراء والإفتاء في حياته، ولـــه

(1) أبو الحسن علي بن حسين بن عمر الأجهوري المصري، شيخ المالكية بالقاهرة، ولد عام 975 هـ، وتوفي عام 1066 هـ: خلاصة الأثر 3:157.التقاط الدرر، ص: 138.

خبرة تامَّة بفروع المذهب ومشاركة حسنة في غيرها من العلوم، أطلعني على مؤلف له في الشمائل والسير لا بأس به، وانفرد بالاختصاص بالكشف عن علم الأوفاق وأسرار الأسماء والحروف بحيث لا يشارك في ذلك، وله أخذ وسلوك في طريق القوم على منهج صاحب كتاب الجواهر[1]، وقد تلقن وأخذ طريق الأسماء الخلوتية عن الشيخ محمد بن علي الشبراملسي[2]، عن الشيخ أحمد الخامي[3]، عن الشيخ صبغة الله[4]، عن وجيه الدين العلوي[5]، عن الشيخ محمد الغوث صاحب كتاب الجواهر. وأسماء الخلوة أربعة عشر مذكورة في غير هذا المحل.

غريبة:

في يد الشيخ أمر جراحات كادت أن تتلف بها يده، فلما سألناه أو سألنا غيره من أصحابه عن سبب ذلك، فأخبرنا أن شيخنا أبا الحسن الأجهوري جاءه بعض طلبة المغاربة يستفتيه في طلاق وقع بينه وبين زوجته، فرام أن يترَخَّص له في ارتجاعها، فأبى الشيخ، رضي الله عنه، من ذلك، فاحتقدها عليه المغربي وأسَرَّها خيفة سوء في نفسه، فلما كان ذات يوم جاء مشتملاً على خنجر والشيخ في المجلس يدرس، فلم يشعر به حتى ضرب الشيخ بخنجره، فترامى عليه من حَضَرَ من الطلبة يقونه بأنفسهم، فجرح جُمْلَةً منهم، ووقى الله الشيخ من كيده، وجرح في رأسه جرحاً كان السبب في ذهاب عينيه، رضي الله عنه، وكان الشيخ موسى من جملة من جرح، فقُبِض على ذلك المغربي وضُرِبَ ضرباً شديداً، فأراد الولاة قتله

(1) يقصد كتاب: الجواهر الخمس للشيخ أبي المؤيد محمد بن خطير الدين، ألفه بكجرات سنة 956، ورتب على جواهر؛ الأول في العبادة، الثاني في الزهد، الثالث في الدعوة، الرابع في الأذكار، الخامس في عمل المحققين من أهل الطريقة: كشف الظنون 1:614.

(2) أبو الحسن علي بن علي أبو الضياء الشبراملسي المصري، فقيه شافعي، توفي عام 1086 هـ: خلاصة الأثر 3:174. التقاط الدرر، ص: 199. صفوة من انتشر، ص: 262.

(3) أحمد بن علي بن عبد القدوس الشناوي المدني، الملقب بالخامي، نزيل المدينة المنورة، عارف متصوف، توفي سنة 1028 هـ: نشر المثاني 1:130.

(4) السيد صبغة الله بن روح الله بن جمال الله البروجي، الشريف الحسيني النقشبندي نزيل المدينة المنورة، متصوف عارف، ارتحل إلى الحجاز وحج في سنة خمس وألف، توفي سنة 1015 هـ: خلاصة الأثر 2:243- 244.

(5) وجيه الدين العلوي: من علماء الهند، له كتب أكثرها حواشي، منها حواشيه على "تفسير البيضاوي" و"المختصر"، ولد في بلاد كجرات بالهند، وبها تعلم وأقام ومات سنة 998هـ: الأعلام 8:110.

فمنعهم الشيخ من قتله، ثم قتله الله بعد مدة بأثر ما حصل له من الضرب في المجلس.

وبعد ذلك ما كان الشيخ يترك أحداً من المغاربة يدخل عليه إلا كان معه أحد من أصحابه ممن يعرفه، ولم يزل شياطين الإنس والجن يضمرون العداوة والسوء لأهل العلم، وينصر الله أولياءه عليهم بمقتضى صادق وعده، (وكان حَقّاً علينا نصر المؤمنين)[1]، وينجيهم من كيدهم، ويحميهم من شرهم بحماية (ثم نُنجي رسلنا الذين آمنوا كذلك حقاً علينا نُنجي المؤمنين)[2].

ثم لمزاحمة الأشغال وضيق الوقت، مع بعد منزل الشيخ لكونه شمالي باب الناصر لم أتفَرَّغ للقاء الشيخ موسى إلا مرتين أو ثلاثة، فلم آخذ عنه شيئاً، (وكان أمر الله قدراً مَقْدُوراً)[3]، وقد أخذت طرفاً من إحدى رسائله في علم الأوفاق عن بعض أصحابه.

ومما كتبته أيضاً يوم عيد الفطر لقاضي المالكية الشيخ عمر فكرون الذي تقدم ذكره هذه الأبيات:

[طويل]

عليكَ سلامٌ طَيبُ النشْرِ مِن شَخص يُحبك يا شيخَ الشيُوخِ أبا حَفْصِ

لئِن حازَ قومٌ بالقياسِ فضَائِلا لقد حُزْتَها يا سيدي أنتَ بالنص

بك الأزْهَرُ المعمورُ قد راقَ حسنُهُ وحازَ كمالا جابرا خللَ النقْصِ

فَعِلمُ بنيهِ خاتَمٌ في يَمينِكُم وعلمُكَ فيه النقْشُ في وسَطِ الفَص

وعُذرًا لكم فيمَا كَتبتُ مِن الذي يُعَد كمَالا قد جَمعتَ ومنْ يَحْص

لقدْ زادَني حُبا لكم ومَودة مُجالسة في حُسنِها عاذِلي أغْصِ

أدرتَ علينا قهْوةً أدبية تكادُ لها الأروَاحُ تعلنُ بالرقْصِ

(1) الروم: 47.
(2) يونس: 103.
(3) الأحزاب: 38.

وأعليْتَ ذِكري بعدما كانَ خـــامِلا وأغْليتَ قَدري بعدما كانَ ذا رخْصِ

نُهنيكَ[1] بالعيدِ الذي أنـــتَ عِيـــدهُ فلا زِلتَ فيهِ للكمَـــالاتِ ذا قَـــنْصِ

بقِيتَ لأهْلِ الغرْبِ كَهْفــا ومَلجئـــا ودُمتَ على جَمْعِ الفضائلِ ذا حِرصِ

وهذه الأبيات من السهل الممتنع والسحر الحلال الـــذي يـــستلب عقـــل المستمع، لسلاستها وحسن مساقها وتناسب اتساقها، وقد غرت عليهـــا منـــه، فأغرب علي بعضها فنقلته إلى محل هو أولى بها من هذا كما ستقف عليه في ترجمة شيخنا أبي حفص العلمي[2] المقدسي، ولا عتب على المرء فيما يفعله في شعره من تبديل وتغيير، أو نقل من محل إلى محل ممن لم يجد لبنات صدره كفؤاً، فلا حـــرج عليه في فسخ نكاحهن وتزويجهن من أكفاء كرام ينلن عنده غاية المرام.

لطيفة:

قد كان بالقاهرة شاب من أصحاب شيخنا أبي الحسن الشبراملسي يلقب بالزين، مشهور بحسن التصرف في العلوم الأدبية وجودة قريحـــة في التخـــيلات الشعرية، ولم يُقيَّض لنا الاجتماع به لضيق الوقت، وتفاوضتُ مع بعض أصحابنا المغاربة ممن أقام بمصر برهة في شأنه، وكان له به معرفة، وذكر لي أن له في فـــن المُعَمَّى يد بيضاء وذكاء يحرق الرمضاء، وقال لي: إن شئت فاكتب إليه شيئاً بهذا الغرض حتى يجيبك فتعلم حاله وتختبر مقدار تنبهه وجودة قريحته، فكتبت له معمى في اسم رضوان، اقتصرتُ فيه على أنواع من العمل التحصيلي، وهو هذا[3]:

[بسيط]

يا منْ يَعْمـــي علَـــي في مقاصِـــدهِ باسْمِ الحبيبِ وما التصريحُ منْ غـــرَضِ

فَعنفوانُ الهوى لا عُنفَ فيـــهِ علـــى مُتَـــيم بَعـــد فَقْـــد أولِ المـــرضِ

نارٌ بقلبِي وضـــوءٌ لا انتـــهاءَ لـــهُ فيهِ وإن زالَ رانَ القلبُ من عَـــرض

(1) في ط: أهنيك.
(2) في ط: القلعي.
(3) وردت الأبيات في الثغر الباسم، ص: 346.

وكتبت له أيضاً[1] في اسم زين:

[بسيط]

يا مَنْ لـهُ بـصَرٌ في أي مـا فَـن ... وليسَ يُـصَرُ إلا ضـاحِكَ الـسن

إن زمَانـا بـهِ مـا زال ذكـركُم ... فيـهِ وحقكُم يُمْـنٌ بـلا مَـن

فبعثتُ إليه بهذا المُعَمَّى والذي قبله مع صاحبنا المذكور، فلم يرجع إلي من عنده بشيء حتى أزِفَ الرحيل، فكل أمري إذ ذاك بينه وبين مشتهاه قد حيل، ولا أدري هل وصل إليه المُعَمَّى فتعامى، أو لم يصل إليه، ولو وصل لما تحامى.

و لم أزل أتردد مدة إقامتي بالقاهرة وإناخة الرحل[2] بمعاهـدها البـاهرة إلى شيخنا إبراهيم الميموني، وطلبته في القراءة، فاعتل بضيق الوقت وضعف البدن من أثر الصوم وشدة الحر، وقبلت عذره في ذلك، وحضرت يوماً قراءته مع بعـض طلبة الأتراك في تفسير البيضاوي[3]، وقرأ قراءة حسنة. وشيخنا هذا ممـن انفـرد بتحقيق فني المعاني والبيان في هذه الديار، بل وفي غيرها على ما شهد به الاختبار وصَدّقته الأخبار، مستحضراً لقواعد الفن وأصوله، مُحَقّقاً لفروعه وفصوله، قلما يورد بحثاً من الأبحاث المتعلقة بذلك إلا وقال: أصل هذا البحث لفلان، وقد ألف في المسألة فلان، وقد عارضه فلان، والتحقيق مع فلان. منصوراً ذلك بـالبراهين الساطعة والأدلة القاطعة، أخبرني في سنة أربع وستين، وقد جرى ذكر هذا الفن بين يديه فقلت له: هل يشتغل في هذه الديار أحد الآن بقراءة شراح المفتـاح[4] فقال وشد بلحيته: ما أشاب هذه اللحية إلا التوفيق بين شرحي السيد[5] والسعد[6] على المفتاح، وكان ذلك بحيث القلوب من الأكدار صافية، وبـرود الاشـتغال ضافية، وأما الآن فقصارى همة من يتعاطى هذا الفن مختصر السعد وما يشاكله من

---

(1) ساقط من ط.
(2) في ط: الرحل.
(3) الإشارة هنا إلى كتاب: أنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير، للقاضي الإمام ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي الشافعي المتوفى سنة 692 هـ: كشف الظنون 1:186.
(4) يقصد مفتاح العلوم لسراج الدين أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي المتوفى سنة 626 هـ: كشف الظنون 2:1762.
(5) يقصد شرح السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني المتوفى سنة 816 هـ على مفتاح العلوم: كشف الظنون 2:1763.
(6) هو شرح سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى سنة 791 هـ لمفتاح العلوم للعلامة سراج الدين أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي المتوفى سنة 626 هـ: كشف الظنون 2:1763.

المختصرات. فقلت له: وأي كتاب ترى لطالب تحصيل هذا الفن الاشتغال بـه؟ فقال لي: لا أشك أن دُرر هذا الفن كانت منتشرة في تآليف الأقدمين فقَصّرت عن تناولها أيدي المنتحلين، فلما جاء صاحب المفتاح جمع من تلك الدرر كل يتيمة علت قدراً وغلت قيمة، وأضاف إليها مما ارتضاه شيئاً كثيراً، ولم يغفل من المحتاج إليه إلا شيئاً يسيراً، فتنافس من بعده في شرح كتابه وحل مقفلات عباراته، فاختلفت أنظارهم، وتباينت مذاهبهم، ثم اختصره القزويني[1]، وأوضح مختصره بالإيضاح، فكثر شارحوه، فلما جاء الملا سعد الدين، قَدَّس الله سره ورفع في الملأ الأعلى قدره، ضرب تلك التآليف كلها بعضها ببعض، واستخرج من زبدها بعد التمحيص خالص المحض، فأودع ذلك في كتابه المطول، فهو نتيجة آراء المتقدمين، وزبدة أنظار فحول المتأخرين، فالمبرز في هذا الفن اليوم من يحقق أبحاثه ويدقق النظر في أنظاره، وقد أكثر الناس من الحواشي عليه والحواشي على الحواشي، والشرح الأطول للملا عصام الدين جامع لغالب النكث التي تضمنتها تلك الحواشي مع زيادة تحقيق وتبيين وتدقيق، فهذا زبدة معنى كلامه، رضي الله عنه، وهو مما يدلك على أنه صيرفي نقود هذا الفن وإمام أهل هذه الصنعة بالتحقيق لا بالظن، فكيف لا وهو المرجوع إليه في بيان مشكلاته وحل مغلقاته.

ومما يدل على ما ذكرنا من انفراد شيخنا بتحقيق هذا العلم أني كنت رأيت قبل هذا بأرض المغرب عند أخينا الفقيه النبيه سيدي عبد الله محمد المنقوشي، جدد الله عليه ملابس غفرانه، وأحله دار رضوانه، مجموعاً بخط مشرقي كان في الأصل ملكاً للشيخ ياسين الحمصي[2] مشتملاً على أسئلة وأجوبة في فنون شَتَّى، ومن جملتها سؤال مكتوب في أوله: سؤال من الشيخ الإمام العالم المحقق أبي العباس شهاب الدين أحمد الغنيمي[3]، رضي الله عنه، للشيخ العلامة الدراكة المحقق أبي إسحاق إبراهيم الميموني، ثم ساق الجواب إلى آخره معزوّاً للمسؤول المذكور، مشتملاً على تحقيق وتدقيق، فكنت أتوقف أنا وصاحبنا المذكور في كون المجيب

---

(1) جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني الشافعي المتوفى سنة 739 هـ؛ له تلخيص المفتاح: كشف الظنون 2:1764.

(2) ياسين بن زين الدين بن أبي بكر الحمصي الشافعي، نزيل مصر، له مشاركة في الفقه والأدب واللغة، ألف عددا من الحواشي، توفي سنة 1061 هـ: خلاصة الأثر 4:491.

(3) أحمد بن محمد بن علي، شهاب الدين الغنيمي، فقيه حنفي من أهل مصر، له عدة شروح وحواش على الأصول، توفي سنة 1044هـ: خلاصة الأثر 1:312. صفوة من انتشر، ص: 161. الأعلام 1:237.

المسؤول هو شيخنا هذا لما علم من جلالة الشيخ الغنيمي وقوة عارضته في العلوم، سيما المعقولية مع تقدم زمانه، بحيث يكون شيخنا في عدد تلامذته، و لم يزل في نفسي من ذلك شيء إلى أن لقيت الشيخ أمتع الله ببقائه، وجرى في المجلس ذكر ما شابه ذلك، فسألته عن السؤال والجواب، فقال لي إنَّ ذلك صحيح. فقال: إن الشيخ الغنيمي رضي الله عنه كان يجلني كثيراً، وكان مع تبحره في العلوم وجودة قريحته في الفهوم، إذا وقع في محل تدريسه بحث أو إشكال مما ينحو منحى هذه العلوم، كتب إليَّ بذلك فأجيبه بما عندي، فيستحسن ذلك، وهذا شاهد صدق فيما نسبناه لشيخنا من التحقيق، إذ كل ما يُنسب إلى التحقيق في غالب العلوم اليوم بمصر يتبجح بكونه من تلامذة الشيخ الغنيمي، وشيخنا إليه يرجع الغنيمي في حل المشكلات.

وقد حكى لي شيخنا حكايات كثيرة من أخبار الشيخ الغنيمي وذهابه إلى الروم ورجوعه، وما وقع له من المحن، وذكر أنه اختلط في آخر عمره، رضي الله تعالى عن جميعهم وأرضاهم وعنا بهم وأتحفنا برضاهم، آمين.

ولما كادت أيام الإقامة أن تنقضي وركب الحجاز أن يمضي، ابتدأ شيخنا الميموني قراءة مختصر السعد، وكانت قراءته بصحن داره يحضره أكابر الطلبة، والقارئ بين يديه ولده، فلازمت مجلسه تلك الأيام القليلة، فحضرت عنده الخطبة بكمالها، و لم يفتني منها حرف، قرأها في ثلاثة مجالس قراءة حسنة أكثر فيها من الفوائد العجيبة والنقول الغريبة.

لطيفة:

حكى لنا في مجلس تدريسه أن الشيخ العلامة سعد الدين لما ألَّف كتابه المطول، وكان كما ذكر في الخطبة على حال ضيق من معيشته وقلة ذات اليد، مع شدة الاحتياج إلى ما يقيم به أوده، ذهب بالكتاب إلى الأمير المذكور رجاء أن يحصل من جانبه ما يستعين به على دهره، وكان عند الأمير خوجة له خبرة بهذا العلم، وهو من خواص الأمير، فخشي العلامة سعد الدين إن قَدَّم الكتاب للأمير مع حضور الخوجة أن يصرف وجه الأمير عنه ويطعن في كتابه لما علم مما يكون بين أرباب الصنعة الواحدة، فجعل يرتقب غيبة الخوجة بسفر أو مرض أو موت،

إلى أن حصل للخوجة عارض مرض[1]، اغتنم العلامة ذلك ودخل على الأمير وأحضر الكتاب بين يديه، ففرح الأمير به وقال: أرسلوا إلى الخوجة ليحضر الآن حتى ينظر في هذا الكتاب، فسقط في يد العلامة لما كان يخشى من جانبه من الطعن عليه والإزراء بكتابه، فلما جاء ونظر الكتاب طار به فرحاً، وبالغ في الثناء عليه وعلى مؤلفه، وقام وقبَّل يد الشيخ وقال للأمير: لو لم يكن في سلطنتك من المفاخر والمناقب إلا قدوم هذا الشيخ لحضرتك وكون هذا الكتاب برسمك لكفاك، وقد كنت هممت أن أطلب منكم الإجازة في الذهاب إلى هذا الشيخ والأخذ عنه، ومن سعادة دولتكم أشخصه الله إلينا. قال: فجاءت المنن من حيث تخشى المحن، وبالغ الأمير في تعظيمه والإنعام عليه.

قلت: وقد حصلت للإمام سعد الدين آخراً حظوة عظيمة ورياسة كبيرة عند أمراء العجم بأصبهان وخراسان وسائر بلاد عراق العجم، فصارت عتبته ملتأم أكابر علماء تلك الديار، وشُدَّت إليه الرحال، وصارت له دنيا عريضة بعد أن كانت حاله أولاً على الضد من ذلك، وتلك سنة الله تعالى في حملة العلم الشريف، وإن ضيق عليهم أولاً فمآل أمرهم، سيما إن خلصت منهم النيات فيما حملوا وعملوا بما علموا، إلى التعظيم والتوقير وحسن الحال في الحال والمآل.

لطيفة:

ومما سمعته منه أيضاً في مجلس تدريسه أنَّ العلامة ناصر الدين البيضاوي، قدس الله سره، لما ألَّف تفسيره المشهور وأكمله، ذهب به إلى السلطان ببغداد، فمَرَّ في طريقه بقرية فيها بعض مشايخ الصوفية فنزل عنده وأضافه، وجلس فتحدث معه إلى أن قال له: أين قصدك؟ قال: إلى بغداد. قال: وما تريد منها؟ قال: إني صنفت تفسيراً أبذلت المجهود في تنقيحه وتهذيبه، ولي بنات قد أدركن، فاحتجت إلى تجهيزهن ولا مال لي، فأردت أن أذهب إلى الملك عسى أن يحل لي من عنده ما أستعين به في جهازهن. فقال له ذلك الشيخ: بم فسرت قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين)؟ [2] قال: فسرناه بأنا لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا

---

(1) في ط: من مرض.
(2) الفاتحة: 5.

بك. فقال له: فكيف تستعين بغيره؟ فأثّر كلامه في قلب العلامة وتنبَّه ورجع من حيث جاء، و لم يذهب إلى بغداد، فمن أجل ذلك وضع الله القبول على كتابه، فأقبل عليه العلماء من كل جهة يأخذونه عنه، وحصل له نفع كبير.

لطيفة:

سألت شيخنا الميموني متى انقطعت الخلافة العباسية من مصر، إذ لم أر من ذكر ذلك، مع البحث عنه في مظانه، فقال لي: لما دخل بنو عثمان مصرا أمر السلطان سليم بقتل من فيها من الخلفاء وأرباب الطوائف؛ كالمشايخ الرفاعية والبدوية، لأنّ الغوري لما خرج لقتاله أخرج معه الخليفة والعلماء والصلحاء يستنصر بهم عليه، فلما دخل قتل كثيراً منهم حتى المجاذيب. قلت: وقد ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني أن السلطان سليماً لما دخل مصراً قتل كثيراً ممن فيها من المجاذيب وأرباب الأحوال، وذكر عن بعض أهل الأحوال أنه كان يخبر بذلك قبل وقوعه، (وكان أمر الله قدرا مقدورا)[1] (قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير)[2].

ولله في ذلك سر لطيف يعلمه أهل البصائر، زائد على امتنانه على أوليائه بمرتبة الشهادة ونيل السعادة، وقد خلف هؤلاء المشايخ بعد قتلهم من هو في مثل حالهم ومقامهم وثابت على أقدامهم، فلم تنقطع، والحمد لله، الوراثة المحمدية ولا الخلافة الباطنية بموت من مات، وليس لما تبني يد الله هادم، فقد ذكر سيدي عبد الوهاب الشعراني في كتابه لواقح الأنوار ممن بقي بمصر بعد قتل أولئك جماعة كثيرة تقر بهم عين كل مؤمن بطريقهم، متبع لفريقهم من صحابة ومجاذيب أصحاب أحوال وتصريف عظيم، و(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)[3].

---

(1) الأحزاب: 38.
(2) المائدة: 17.
(3) الجمعة: 4.

لطيفة:

لما سقط جانب من البيت الحرام في سنة تسع وثلاثين واحتيج إلى تجديد بنائه، كتب إلى مصر استفتاء في أمور كثيرة تتعلق بالبيت العتيق وإنقاضه وتجديد ما سقط منه وبنائه من أصله ومن يتولى بناءه وبأي مال يُبنى، وهل يبادر إلى ذلك أو ينتظر إذن السلطان، إلى غير ذلك من أمور كثيرة تتعلّق بالمسجد الحرام، فتصدى شيخنا الميموني للجواب عن ذلك، فألّف كتابه تهنئة الإسلام ببناء بيت الله الحرام[1]، فاستوعب فيه الكلام على تلك المسائل، وأضاف إليها أمثال أمثالها من الفوائد المتعلقة بذلك من النكت التاريخية والتحقيقات الفقهية، فجاء كتاباً حافلاً بجانب كبير من العلوم شاملا، ناولنيه، رضي الله عنه، وأجازنيه ووهبني طرفاً كبيراً منه نحو النصف، وقال لي: لو تعددت النسخ بيدي لوهبتك نسخة كاملة، وقد كتبت له على ظهر نسخته تقريضا حسنا من جملته هذه الأبيات[2]:

[بسيط]

لله روضَـةُ علـمٍ أنبتَـتْ حِكَمـا وطيّبَتْ بـشذاهَا البيْـتَ والحرَمَـا
نَزِهْ جفونكَ فيهـا واقتطِـفْ ثَمَـرا من دوْحِها وانتشِقْ زهرًا بها ابتسمَا
قد جمَعَتْ موجبات المدحِ إذ جَمعتْ ما كانَ من دررٍ في غيرها انقسمَا
نظمْتَ في سِلكها ما كـان مُنْتشـرا في غيرِها من للآلي العلْـمِ فانتَظمَـا
جلتْ محاسِنُها عـن أن تُعـد ولـو أفنَيْتَ في عَدها القِرطـاس والقلمَـا
لله دَر إمَـامٍ حـاكَ حُلتَهـا شادَ بها من بناءِ الدين مـا انهـدما
جزاهُ رَب الـورى خـيرًا وصَـيرهُ بحرمةِ الله طـولَ الـدهْرِ مُحترَمـا

قال لي، رضي الله عنه، لما فرغت من تأليفي وأكملته في سنة أربعين، قلت: اللهم إني أتقرب إليك بحرمة بيتك الحرام بهذا الكتاب، فاجعل مما تثيبني به[3] عليه

(1) قال العياشي: وهو كتاب بديع حافل جمع فيه كل ما له تعالى بالبيت الحرام مما تتشوف النفوس إلى السؤال عنه، وبناء على أسلوب عجيب، ألفه في البناء الأخير سنة 1039هـ، وملكني طرفا منه: (اقتفاء الأثر، ص: 125)، ومن هذا الطرف توجد نسخة على الميكروفلم بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: 117.
(2) وردت القصيدة في كتاب: أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، ص: 329.
(3) ساقط من ط.

وتعجله لي في الدنيا أن تيسر لي حج بيتك الحرام في هذه السنة، قال: وليس لي في ذلك الوقت مال أحج به، وأنا ذو عيال، فلما قرب وقت الحج بينما أنا ذات يوم إذ بعث إلي الأمير رضوان أمير الركب فقال: أريد من فضلك أن تحج معنا هـذه السنة وعلي سائر ما تحتاج إليه من المئونة في سفرك أنت وأولادك. فعلمت أن الله تقبل دعائي، فتجهزت للسفر بأولادي ونسائي وكل من معي، فهيأ لي الأمير كل ما يحتاج إليه في السفر من الإبل والمحاف وغير ذلك، بحيث بلغت النفقة من عنده في حجتي نحو ألفي قرش. قال: وحج في تلك السنة الشيخ المحقق أبـو الأمـداد إبراهيم اللقاني المالكي، رضي الله عنه، وكان يحبني كثيراً، فلما قدمنا مكة جـاء العلماء إليه يُهرعون للسلام عليه والتماس بركته، فكان إذا سُئل عن شـيء ممـا يتعَلَّق بالبيت أو الحرم يقول لهم: سلوا مولانا هذا، ويشير إلي، ويقول: إن له في ذلك تأليفاً عجيباً.

قال: فلما وصلنا إلى المدينة المشرفة دخلت المسجد النبوي يـوم الجمعـة فوجدت الزحام، فجعلت ألتفت يميناً وشمالاً هل أرى موضعاً أجلس فيه، وكان الشيخ اللقاني، رضي الله عنه، سبقني إلى المسجد، فلما رآني أشار إلي فجئت إليه، ففسح لي بينه وبين ولده الشيخ عبد السلام، وأجلسني بإزائه، فلما اطمـأن بنـا المجلس سألته الدعاء لي ولأولادي أن يسلمنا الله ويبلغنا إلى بلدنا، فقال لي: أمـا أنت فترجع سالماً وأولادك، وأما أنا فأموت. فقلت له: يا سيدي هـذه حـضرة الرسالة ادع الله أن يبلغك إلى أهلك. فقال: لهذا خرجت. قال لي: وكنت أرى ذلك كرامة له ومكاشفة منه رضي الله عنه. ولما اشتد به المرض في الدرب، وكان لا يستطيع الركوب، جاؤوه بمحفة ليركب فيها، فلما رآها تذكر ما كان يقول له بعض أهل الجذب بمصر، وكان يقف عنده في مجلس تدريسه ويقول له: يا إبراهيم إذا حججت وركبت في محفة فإنك تموت، فارتاع عند رؤيتها لذلك، ولم يمكنه إلا الركوب للمشقة التي لحقته، وكان مرضه يبس الطبيعة. قال: ولما مات في الليل انقض من السماء كوكب عظيم أفزع الناس فكبروا، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا قائلاً يقول: مات الشيخ اللقاني رضي الله عنه آمين.

لطيفة:

لما جئت لوداع الشيخ الميموني عشية يوم الأربعاء كتب بعض أقاربه[1]: (لا إله إلا الله في رق، وكتب بإزائه: محمد رسول الله، وفصل ما بينهما بمقص حتى بقي منه شيء قليل، فأمرني أن آخذ إحدى القطعتين، وأخذ الشيخ الأخرى، وقطعناها ما بيننا نصفين، وقال لي: تحفظ على القطعة التي عندك، وأنا على التي عندي، فإن اسم الله واسم حبيبه إذا تفرقا لا بد أن يجتمعا بفضل الله تعالى. قلت: وكان هذا تلميح من قوله تعالى في الحديث القدسي: لا أذكر إلا ذكرت معي[2]. فإذا اجتمعت البطاقتان اجتمع من هما عنده، وهو المقصود.

وقد صدق الله العظيم تعالى في ذلك في واقعتنا، فرجعنا من الحجاز بعد مجاورة سنة، ووجدنا الشيخ، والحمد لله، سالماً في نفسه، ولم أجد قريبه الذي كتب ذلك، وكان فعل ذلك حرصاً على حياة الشيخ ورجاء أن يعيش حتى نرجع من الحجاز؛ لما كان يتخوف من هجوم الحِمام لكبر سنه، مع كثرة الأمراض الوبائية إذ ذاك بمصر، ولم يتخَوَّف ذلك على نفسه، وفي مثل ذلك قيل:

[متقارب]

وقبلكَ داوى الطبيبُ المريضَ فعاشَ المريضُ وماتَ الطبيبُ[3]

وممن لقيته بمصر، شيخ الإسلام، وعلامة الأعلام، وإمام المحققين ورئيس النظار المدققين، حائز قصب السبق في الفنون كلها، المتضلع في فرعي الفنون وأصلها، الشيخ أبو الحسن علي الشبراملسي الضرير، ذهبت لزيارته فوجدته في المسجد المسمى بمسجد المغاربة بإزاء داره، يقرأ عليه هناك كتاب المواهب اللدنية للإمام القسطلاني، وحضر مجلسه أعيان تلامذته، وقرأ قراءة حسنة، وقرر تقريرات عجيبة في حديث: أول ما خلق الله نور محمد، صلى الله عليه وسلم، إلخ الحديث، وقَرَّر وجه انقسام ذلك النور وكيفيته، مع أن الحقيقة الواحدة لا تنقسم، وليست

---

(1) وقع هنا اضطراب في الطبعة الحجرية للرحلة العياشية، فقد ورد بعد هنا مقتطفات من الخلعيات لأبي الحسين الخلعي التي سترد في الجزء الثاني من الرحلة، قبل أن يعود النص إلى مساره الطبيعي.

(2) جاء في مجمع الزوائد: "عن أبي سعيد، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: أتاني جبريل فقال: إن ربي وربك يقول: كيف رفعت ذكرك. قال: الله أعلم، قال: إذا ذكرت ذكرت معي: مجمع الزوائد 8:254.

(3) نسب البيت في العقد الفريد لأبي العتاهية: العقد الفريد 3:140.

الحقيقة المحمدية إلا قِسْمَاً من تلك الأقسام، والباقي إن كان منها فقد انقسمت، وإن كان غيرها فما معنى الانقسام.

وحاصل جوابه أن معنى الانقسام زيادة نور على ذلك النور المحمدي، فيؤخذ ذلك الزائد، ثم يزاد عليه نور آخر، ثم كذلك إلى آخر الانقسام.

قلت: وهذا جواب مقنع بحسب الظاهر، والتحقيق، والله أعلم، وراء ذلك، وذلك إنما يدركه على الحقيقة من عرف معنى قوله تعالى: (الله نور السماوات والأرض)[1]، ومعنى قوله، صلى الله عليه وسلم، لما قيل له: هل رأيت ربك[2]؟. فقال: نور أنى أراه، كما في بعض الروايات بفتح همزة أنى، ونونه كلمة استفهام، أو نوراني بياء النسب آخره، كما في بعضها. وتحقيق ذلك على ما ينبغي ليس مما يدرك ببضاعة العقول، ولا مما تتسلق عليه الأوهام والأفهام، وإنما يدرك بكشف إلهي وإشراق حصة من أشعة ذلك النور في قلب العبد، فيدرك نور الله بنوره، فيكون الحق في الحقيقة هو إدراك المدرك لنوره بنوره، ونسبة الإدراك حينئذ إلى العبد مجاز. وأقرب تقرير يعطي القرب من فهم معنى الحديث أن يقال: لما كان النور المحمدي هو أول الأنوار الحادثة التي تجلى بها النور القديم الأزلي، وهو أول التعينات لوجود المطلق الحقاني، وهو مدد لكل نور كائن أو يكون، فلما أشرق النور الأول في حقيقته فتنورت، بحيث صار هو نورا كما دل قوله، عليه السلام، في دعاء الأنوار: واجعلني نورا[3]، أشرق نوره المحمدي على حقائق الموجودات شيئاً فشيئاً؛ فهي تستمد منه على قدر تنورها بحسب كثرة الوسائط وقلتها وعدمها، وكلما أشرق نوره وفاض على نوع من الحقائق ظهر النور في مظهر الانقسام، فقد كان النور الحادث أولاً شيئاً واحداً، ثم أشرق في حقيقة أخرى، فاستنارت بنوره تنوراً كاملاً، بحسب ما تقتضيه حقيقتها، فحصل في الوجود

---

(1) النور: 35.

(2) جاء في صحيح مسلم: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، وحدثني حجاج بن الشاعر، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا همام، كلاهما عن قتادة عن عبد الله بن شقيق، قال: ثم قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لسألته. فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟. قال: كنت أسأله هل رأيت ربك. قال: أبو ذر: قد سألت فقال: رأيت نورا: صحيح مسلم 1:161.

(3) إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم: اللهم اجعل لي في قلبي نورا، وفي لساني نورا، وفي سمعي نورا، وفي بصري نورا، ومن فوقي نورا، ومن تحتي نورا، وعن يميني نورا، وعن شمالي نورا، ومن بين يدي نورا، ومن خلفي نورا، واجعل في نفسي نورا، وأعظم لي نورا: صحيح مسلم 1:528. مسند أحمد 1:284.

الحادث نوران: مفيض ومفاض، وفي نفس الأمر ليس هناك إلا نور واحد أشرق في قابل الاستنارة فتنور، فتعددت المظاهر والظاهر واحد.

ثم كذلك كلما أشرق في محل ظهر بصورة الانقسام، وقد يشرق نور المفاض عليه أيضا بحسب قوته على قوابل أخر، فتتنور بنوره، فيحصل انقسام آخر بحسب المظاهر، وكلها راجعة إلى النور الأول الحادث إما بواسطة أو بدونها.

وهذا غاية ما يمكن أن تصل إليه العبارة في هذا التقرير، ومثلي في قصور باعه وعدم تضلعه من العلوم الإلهية، إن زاد في التقرير خشي على إيمانه، ولولا تأييد الحق، جل وعلا، ما كنا نقوى على أقل من هذا، و(الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله)[1].

وأقرب مثال يضرب لذلك لذلك؛ إذ بالمثال تتضح الأشياء بعض الوضوح، نور المصباح الذي ليس في البيت الكبير إلا هو، فتصبَح منه مصابيح كثيرة، ويصبح بعضها من بعض، فليس هناك في الحقيقة إلا نور المصباح الأول وقد انقسم إلى مصابيح كثيرة، وهو في نفسه باقٍ على ما هو عليه لم ينقص منه شيء.

وأقرب من هذا المثال إلى التحقيق وأبعد عن الأفهام، نور الشمس المشرق في الأهلة والكواكب، على القول بأن الكل مستنير بنوره، وليس لها نور من ذواتها، فقد يقال بحسب النظر الأولي: نور الشمس منقسم في هذه الأجرام العلوية، وفي الحقيقة ليس هناك إلا نورها، وهو قائم بها لم ينقص منه شيء، ولم يزايلها منه شيء، ولكنه أشرق في أجرام أخر قابلة للاستنارة، فاستنارت.

وأقرب من هذا للفهم ما يحصل في الأجرام السفلية من إشراق أشعة نور الشمس على الماء وقوارير الزجاج، فيستنير ما يقابلها من الجدرات بحيث يلمح فيها نور كنور الشمس مشرق بإشراقه، ولم ينفصل شيء من نور الشمس على محله على ذلك المحل. ومن كشف الله حجاب الغفلة عن قلبه، وأشرقت الأنوار المحمدية على قلبه بصدق اتباعه له، صافية بصفاء إيمانه بالله ورسوله من شبه الباطل، أدرك الأمر إدراكا آخر لا يحتمل شكًّا ولا وهماً.

(1) الأعراف: 43.

نسأل الله تعالى أن ينور بنور العلم الإلهي بصائرنا، ويحجب عن ظلمات الجهل سرائرنا، ويغفر لنا ما اجترأنا عليه من الخوض فيما لسنا له بأهل، بل نحن عن أهله بمعزل، و لم نطف قط بساحته فضلاً عن المترل، ونسأله أن لا يؤاخذنا بما تقتضيه العبارة من تقصير في حق ذلك الجناب فاشي عن القصور في مقام العرفان ونزول منازل الأحباب.

ولقد أجاد كل الإجادة صاحب منارات السائرين إلى الله[1] لما قرر معنى كون النورِ المحمدي أصل الموجودات، ولأجله خلقت مع مجيئه آخراً، وضرب لذلك مثلاً قريباً من للأفهام ببزر الشجرة مع الشجرة والثمرة، فجعل النور المحمدي لذي هو الأصل، كالبزر والعالم كله شجرة، واللطيفة المودعة في ذلك النور سارية في ميع أجزاء الشجرة من أوراق وغصون وأزهار فبه قامت، ولولاه ما وجدت، ثم الحقيقة المحمدية الموجودة بصورتها آخرا بمترلة الثمرة هي عين اللطيفة البزرية السرية في عوالم الشجرة على أن ظهرت آخرا على أكمل وجه مع عوارضها المشخصة، فهي ثمر الوجود بأسره، ولولاه ما غرست الشجرة، ولأجلها كان غراسها، وعي أصلها.

وقد جعل صاحب الكتاب المذكور هذا المثال أصلاً بنى عليه فصول كتابه كلها، وهو حسن جداً مفيد في بابه، إلا أن فهمه يعسر على غير أهله.

وقد أطلت الكلام في هذه المسألة لكونها من غرر الفوائد، لم نر من وفاها حقها، فنسأل الله تعالى أن يتجاوز عن قصورنا وتقصيرنا، ويجعل إلى جنة رضوانه على أكمل حال غاية مصيرنا.

وكلام شيخنا الشبراملسي في هذه المسألة هو الذي فتح لنا الباب في هذه المسألة، وببركته فتح لنا ما فتح من فهم هذه المسألة. وشيخنا هذا من أفراد علماء القاهرة علماً وعملاً وزهداً وورعاً، وتلامذته من أنجب طلبة الجامع الأزهر، وعليه المعول في كشف معضلات العلوم العقلية والنقلية، وليس بمصر من يعادل الشيخ سلطان في فن القراءات إلا هو، بل كان شيخنا أبو بكر السجتاني يفضله عليه في

---

(1) الإشارة هنا إلى كتاب: منارات السائرين ومقامات الطائرين، للشيخ نجم الدين أبي بكر محمد أبي بكر عبد الله بن محمد بن الشاهانوري الرازي: كشف الظنون 2:1823.

القراءات ويقول: هو أتم منه تحقيقاً وأكثر تدقيقاً، إلا أن الشيخ سلطان أشهر منه في الناس، وأما أهل التحقيق فيميلون إلى الشيخ علي أكثر.

وقد كان شيخنا أبو بكر يقرأ عليه إلى أن خرج من مصر، مع أنه كان من أترابه ورفقائه في القراءة على شيخ الإقراء بمصر، الشيخ عبد الرحمن اليمني، رضي الله عنهم.

لطيفة:

أخبرني شيخنا أبو بكر السجتاني أنه كان ملازماً كثيراً للشيخ علي الشبراملسي، لما بينهما من الأُلفة والمحبَّة. قال لي: وما سمعته قط اغتاب إنسان صغيراً أو كبيراً، جليلاً أو حقيراً، حتى المشتهرين بالظلم من الولاة، إن جاء أحد يشتكيهم لا يزيد على الدعاء لهم بالهداية، وهذه منقبة شريفة لا تكاد توجد في زماننا إلا شذوذاً، وهي مما يدل على كمال الشيخ في طريق العرفان، ودوام مراقبته لله في أقواله وأفعاله، ونور الولاية ظاهر على وجهه، وسيمياء العارفين بادية عليه، حشرنا الله في زمرته.

وممن لقيته من فقهاء الأزهر المعمور شيخنا عبد الجواد الطريني، وهو رجل مسن أدرك أكابر العلماء بالأزهر، وله سند عال ومشاركة في كثير من العلوم، وقد أطلعني الله على جملة من رسائله في مسائل كثيرة غالبها يتعلق بمعاني بعض الأحاديث، وقد أجاد في كثير منها، وقد كتبت له على بعضها تقريضا حسنا، وقد توفي، رحمه الله، زمان جوارنا بالحجاز سنة ثلاث وسبعين وألف.

وممن لقيته بمصر الشيخ علي الصوفي[1] الساكن بسطح الجامع الأزهر، وهو رجل منفرد في بيت لم يتزوج قط، وله مخالطة بالفقهاء وبعض استحضار في الفقه، وهو ممن تُرجى بركته، وكان يتمنَّى الحج مع كبر سنه، ويبحث عن علم السيميا وأسرار الأسماء كذلك، وله نيَّة صالحة في ذلك، وسألني عن شيء من ذلك، فقلت له: يا شيخ، إن طريق مشايخنا معشر الشاذلية عدم استعمال الأسماء والأذكار، طلباً لفائدتها العاجلة، بل ولا الآجلة في الغالب، وإن كان حاصله في ضمن ذلك،

---

(1) علي الصوفي المصري: صاحب أحوال ومقامات: نشر المثاني 2:379.

والكفاية بالله أولى من التعلق بالآثار، والحج لم يُفرض عليك لضعفك وقلة ذات يدك، ومن أصول القوم أن لا يتكلف الإنسان ما كلفَه. وأقر بصواب ما ذكرت له، و لم ترجع نفسه عن مآربه، ثم مَنَّ الله عليه بالحج في هذه السنة بأن حرك له قلب بعض الولاة، فأخذه معه رجاء بركته، وقام وتكفل بكل مؤنه، والله يعامل العبد على قدر نيته، وينفع أولياءه ولو على يد أعدائه، والفضل ما شهدت به الأعداء.

غريبة:

أخبرني هذا الشيخ أن بعض من ينتحل علم الأسماء أخبره أنه كان يستعمل دعوة آية الكرسي ويشتغل بها على طريق أهل ذلك الفن، فجاءه روحاني وقال: آتيك كل يوم بألف شريفي ذهباً بشرط أن تنفقها كلها ولا يبقى عندك درهم واحد. فقال له: لا أقدر على هذا، فإنه أمر لا يكاد يخفى، وأخاف على نفسي إن ظهر ذلك علي من أرباب الدولة، فلو كنت تأتيني كل يوم بشريفي واحد أو اثنين أو عشرة، ففيها الكفاية. فقال لي: لا بد من الألف على الشرط المذكور، وإلا فلا. و لم يزل يراجعه في الاقتصار على الكفاية حتى أبى عليه، فيئس منه وترك قراءة الدعوة.

قلت: وهذا من أعظم دليل على حمق الراغب في الدنيا، فإن الله قد تكفل له بالكفاية على وجه يرضاه له على قدر حاله، ويعلم فيه صلاحه إن رضي (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن يترل بقدر ما يشاء)، فلو أعطي ما فوق اللائق بحاله لم يستطع، ألا ترى أن هذا لما رُد إلى حال لا تليق إلا بالملوك ومن يحاكيهم لم يقدر على ذلك، لأنه فوق طوره، ولو استغنى بالحال الذي أقامه الله فيها، فإنه أعلم بشؤونه، لاستراح. ولكنه أراد أن يدبر لنفسه حالاً ظَنَّ أنه أولى به، وهو على خلاف مراد الله به، فنبهه الله بما أراه على أن ما كان يظنه من أن كثرة المال هو اللائق حاله، وكسر في الرأي وغلط في التدبير، لعجزه عن القيام به. وهذا رجل ملطوف به، ولولا لطف الله به لقبل ذلك، فيكون فيه حتفه قريباً، ولكنه نظر بما آتاه الله من نور العقل والحكمة، فعلم أن ذلك لا يتم له، لأنه على خلاف مقتضى الحكمة الإلهية.

وممن لقيت، وقد ذهبت لزيارته، الخليفة من أولاد سيدي محمد بن عنـــان، وهو من بقية أهل الخير، ولهم ولاية جامع المقسم، وبه يجتمع أتبـــاعهم للـــذكر وقراءة وظائفهم، وهم من الطوائف المشهورة بمصر، وجدهم سيدي محمد ابـــن عنان[1] من أكابر الصالحين الجامعين بين العلم والعمل، عرف به ســيدي عبـــد الوهاب الشعراني في الطبقات، وبالَغ في الثناء عليه، وذكر من أحواله وكراماتـــه شيئاً كثيراً، و لم يزل الخير في أتباعه إلى اليوم. ولهذا الخليفة ولد صالح مقتف آثار أسلافه الكرام، لقيته بجامع المقسم، وأنس ودعا وأتى بطعام، وله معرفة بطريـــق القوم وأخبار الصالحين، وذكر لنا من بركات ذلك المسجد، وأنـــه مـــن بنـــاء الصحابة، وأنه ليس بمصر أصح قبلة منه ومن جامع عمرو بن العاص، رضـــي الله عنه.

قال: وقد نَصَّ بعض الأئمة على أنه لا يجوز للمصلي الاجتهاد في القبلة إذا كان بأحد هذين المسجدين. قلت: و لم أرَ في شيء من التواريخ أن جامع المقسم من بناء الصحابة، ويبعد ذلك، بكون هذا المسجد في طرف القاهرة من ناحيـــة باب الناصر، والقاهرة معلوم أنها من بناء العبيديين، ليست من بناء الصحابة. اللهم إلا أن يكون مما بنته الصحابة خارج البلد. وعلى كل حال فهذا المسجد معروف البركة، مشهور الذكر بمصر، يؤثر أنه لا يلازم أحد الصلاة فيه مدة إلا ويجتمـــع بولي من أولياء الله، ينفعه الله به. و لم يزل أهل الخير يقصدون هذا المسجد للصلاة فيه والدعاء والاعتكاف، وقد ذكره سيدي عبد الوهاب في كثير من تآليفه، رضي الله عنه.

وبإزاء المسجد قريباً منه مسجد لسيدي أحمد الزاهد[2]، رضي الله عنه، ذكر سيدي عبد الوهاب، رضي الله عنه، في الطبقات، أن سيدي احمد الزاهد قال: من صلى في مسجدي هذا ركعتين أخذت بيده يوم القيامة[3]. ولأجل هذه المنفعـــة العظيمة قصدت هذا المسجد العظيم إلى أن صليت فيه ركعتين بهذه النية.

---

(1) الشيخ سيدي محمد عنان، من الزهاد العباد، توفي سنة 922 هـ: لواقح الأنوار في طبقات الأخيار، ص: 445 – 450.

(2) الشيخ احمد بن سليمان الزاهد، عالم عامل، مات سنة نيف وعشرين وثمانمائة، ودفن بمسجد: لواقح الأنوار في طبقات الأخيار، ص: 395 – 398.

(3) أنظر: لواقح الأنوار في طبقات الأخيار، ص: 396.

وممن لقيته يوم خروجنا الشيخ عثمان النحراوي الحنفي، وهو اليوم الخليفة من أصحاب الشيخ الشنّاوي، رضي الله عنه، ولم يتيسر لقاؤه إلا في ذلك اليوم، فدعا لي وودّعني، وهو ممن له خبرة بأصول القوم، سيما طريق صاحب الجواهر الخمس، فإنه ممن يرجع إليه فيها بتلك الديار، رضي الله عنه.

ولما بلغ شهر شوال نحو النصف، خرج المحمل الخروج الأول، وذلك يوم يُؤتى بكسوة الكعبة المشرّفة من دار الصنعة، فتضرب سحابة على باب القلعة، فيحضر السناجق كلهم والولاة والأمراء والحكام والقاضي، كل واحد مع أتباعه، ولكل واحد مجلس معلوم في السحابة المضروبة، ومجلس الباشا في الوسط وعن يمين مجلس القاضي، وكلما أتى واحد من الأمراء وأرباب الدولة جلس في مجلسه المعهود له، وقربهم من الباشا بحسب قربهم في مناصبهم، فإذا تكاملوا وأخذوا مجالسهم، وصُفّت الخيل عن يمينهم صَفّاً، كل طائفة مع جنسها، إلى أن تحيط بالميدان الذي هو أمام مجلس الباشا، وهو ميدان كبير يسع الآلاف من الخيل، وآخر من يخرج الباشا، فتخرج أمامه طائفة من عسكره، بعضهم إثر بعض على ترتيب معلوم وقانون مضبوط. وآخر من يخرج معه طائفة الشاوشية على أرجلهم، عليهم جلود النمر، وعلى رؤوسهم طراطير طويلة من اللمط، لها ذيول معكوفة بين أكتافهم، وعلى جباههم صفائح من الفضة مستطيلة مع الطراطير إلى فوق مموهة بالذهب، تلمع لمعاناً، فإذا خرج هؤلاء خرج الباشا بإثرهم راكباً، فإذا وصل إلى السحابة قام الكل له واضعين أيديهم على صدورهم حتى يجلس، وكذلك يفعل من تقدَّم للجلوس من الأمراء مع من يأتي بعده، فإذا جلس الباشا جيء بالجمل الذي يحمل المحمل وعليه المحمل، وهو قبة من خشب رائقة الصنعة بخرط متقن وشبابيك مُلَوَّنة بأنواع الأصباغ، وعليها كسوة من رفيع الديباج المخوص بالذهب، ورقبة الجمل ورأسه وسائر أعضائه محلاة بجواهر منظمة أبلغ نظم، وعليه رسن محلى بمثل ذلك. والجمل في غاية ما يكون من السمن وعظم الجثة وحسن الخلقة، مخضب جلده كله بالحناء، يقوده رجل، وعن يمينه وشماله آخر، ويتبعه جمل آخر على مثل صفته، ثم يؤتى بالكسوة المشرفة ملفوفة قطعاً قطعاً، كل قطعة منها على أعواد شبه السلاليم معدة لذلك، يحملها رجال على رؤوسهم والناس يتمسحون بها ويتبركون.

ويُؤتى بكسوة باب الكعبة منشورة على الأعواد، وتُسَمَّى البرقـع، كلـها مخوصة بالذهب، حتى لا يكاد يظهر فيها خيط واحد، بصنعة فائقة وكتابة رائقة، ثم يُمر بكل ذلك بين يدي الباشا والأمراء، ويقومون لها إذا مَرَّت بهم تعظيماً، ثم يخلع على الذين صنعوها بمحضر ذلك الجمع، ثم يذهب بها كذلك حملتها ويمرون بها وسط السوق والناس يتمسحون بها حتى يبلغوها إلى المشهد الحسيني، تنشر في صحن المسجد وتخاط هناك.

ولما تفرق الجمع من ذلك الميدان الذي أمام القلعة، خرجت من هناك مـع بعض أصحابنا لزيارة بعض المشاهد بالقاهرة، فكان مما زرناه المـشهد العظـيم المحتوي على جماعة من أهل البيت رجالا ونساء، أشرفهم السيدة نفيسة الطاهرة، وإليها ينسب المشهد وبها يعرف، وعليها بناء عظيم، وبإزائه مسجد كان الإمـام الشافعي يصلي به التراويح في رمضان، رضي الله عن جميعهم. وبيوت تسكن قلما تخلو من زائر وراغب إلى الله في كشف كربه. وقبرها معروف بإجابة الدعاء، فهو ترباق لنيل كل مراد، كقبر ابن عمها موسى الكاظم ببغداد، وهي السيدة نفيسة بنت الأمير حسن بن زيد بن علي بن الحسين، دخلت مصر مع زوجها إسحاق ن جعفر الصادق، وكان الإمام الشافعي يصلي بها التراويح في رمضان، رضي الله عن جميعهم.

وزرنا أيضاً قبر الإمام الذي لا ينبغي لأحد دخل مصر أن يهمل زيارته، إذ هو صاحب التصريف التام بمصر، رئيس الأئمة وشيخ مشايخ الأمة، محمد بـن إدريس الشافعي، رضي الله عنه، وعليه بناء عظيمٍ ومسجدٍ وخانقاه، وقوم مـن الفقراء يسكنون هناك، وقيم المشهد لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً، وهو من المـشاهد الكريمة والمآثر العظيمة، له أوقاف كثيرة، ويتخذ عند قبره في كل ليلة سبت مولد يجتمع فيه ناس كثيرون يضيق بهم المسجد وأفنيته، ما بين فقراء وأمراء ورجـال ونساء، يبيتون طول الليل بين ذكر بجماعة وقراءة قرآن وصلاة، لا يفتـرون إلى طلوع الفجر، وذلك دأبهم أبداً في كل ليلة سبت. ولا يخلو ذلك المجمع من جماعة من الصالحين، فقد ذكر سيدي عبد الوهاب الشعراني أن جماعة مـن الأوليـاء يحضرون كل يوم لزيارة الإمام الشافعي، رضي الله عنه، وهـو حقيـق بـذلك وجدير، فإنه بالمحل الذي لا يدرك عليما وعملا وحالا وفتوة وحـسن أخـلاق وزكاء أعراق ونصرة للدين وحماية له، باذلاً في ذلك نفسه وماله وجاهه، فقـد

اتفق العلماء على أنه ليس في أصحاب إمام الأئمة مالك، رضي الله عنه، أثبت ولا أعلم ولا أفقه من الإمام الشافعي، كما اتفقوا على أن ليس في مشايخ الشافعي أجمع للخصال المذكورة من الإمام مالك بن أنس، رضي الله عن جميعهم. وما علم من تعظيم كل واحد منهما للآخر وثنائه عليه، يدل على أنهما عالِمَا الأمة وناصِرَا السنة، وشيخا المشرقين والمغربين، وقمرا سماء الكتاب والسنّة المنيرين، فالعلماء في كل قطر من بعدهما عيال عليهما، فهما فرسا رهان، وقطبا فلكي الإتقان، وإن انفرد الإمام مالك، رضي الله عنه، بفضيلة السبق ورتبة الأستاذية وسكنى المدينة، دار الهجرة والسنة إلى أن مات، فللإمام الشافعي أيضاً مزايا كثيرة ومآثر شهيرة، استحق بها أن يشتهر ويذكر، ويحمد في دين الله ويشكر.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا محبتهما وتعظيمهما ومحبة سائر الأئمة المجتهدين والعلماء المهتدين، خصوصاً شريكاهما في تقرير المذاهب وحيازة التشريف اسم الأئمة بالغلبة، وذلك من أعظم المواهب، الإمام الأعظم أبا حنيفة، وناصر السنة أحمد بن حنبل، فكلهم على هدى من ربهم، ومهتد حقاً من اهتدى بهم، فرضي الله عنهم وعن سائر العلماء أجمعين، وجعلنا لمناهجهم السديدة من خيار المتبعين.

وقد زرنا أيضاً قبر الإمامين الشامخين الهمامين الحاملين لراية مذهب الإمام مالك، السالكين في ذلك أحسن المسالك، راوية المذهب عبد الرحمن بن القاسم[1]، وحاميه وناصره أشهب[2]، رضي الله عنهما، وقبراهما متجاوران، وبإزائهما قبور كثيرة لمشايخ الأمة، رضي الله عنهم.

وزرنا أيضاً شيخ المشتهرين بحب الله وأمير المؤمنين في الشوق إلى الحضرة القدسية، لسان المحبين، أبا حفص عمر بن الفارض، رضي الله عنه، وعليه بناء ومسجد عليه أثر المهابة ورقة الصبابة.

وزرنا أيضاً قبور السادات بني الوفا، مناهل الصفا، ومشايخ العارفين.

(1) عبد الرحمن بن القاسم العتقي، فقيه حافظ، صحب الإمام مالك عشرين سنة وتفقه به، توفي بمصر سنة 191 هـ: شجرة النور الزكية 1:88.

(2) أبو عمر أشهب بن عبد العزيز المصري، فقيه مالكي، توفي بمصر سنة 204 هت: شجرة النور الزكية 1:89.

وزرنا أيضاً الإمام تاج الدين ابن عطـاء الله، والإمـام شـرف الـدين الأبوصيري، وغيرهما من المشايخ. وطلعنا إلى قبر الشيخ أبي عبد الله المغـاوري، وهو على حرف الجبل، مشرف على القرافة كلها، فاستقبلنا من هنالك من بها من المشايخ، وقرأنا الفاتحة لساكنها، وتوجهنا إليهم، ونسأل الله أن ينفعنا بمحبتهم.

وفضل القرافة وما اشتملت عليه من المزارات أشهر من أن يذكر وأظهر من أن يشهر، وقد ورد غب الآثار أنها بقعة من الجنة، ولذلك أمر عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بجعلها مقبرة للمسلمين، قائلاً: لا أعلم تربـة الجنـة إلا مقـابر المسلمين، فرضي الله عنه، ما أصدق فراسته وأجلّ إمامته.

وقد زرنا في ذلك اليوم المسجد المنسوب للأمير العدل أحمد بن طولـون[1]، وهو من أقدم مساجد القاهرة، وله بركة، وقد قيل إن موسى، عليه السلام، ناجى ربه في ذلك المكان، وكان يعرف بجبل يشكر، وقد ذكر ابن خلكان وغـيره أن النبي، صلى الله عليه وسلم، هو الذي عيّن له في النوم المكان الذي بنى فيه قبلته[2]. وهو على شكل المسجد الحرام، وفي وسط صحنه قبة فيها ماء للوضوء والشرب على شكل البيت كما زعموا، إلا أنّ هذا المسجد أصغر من المسجد الحرام بكثير، وبخارج المسجد زيادة كثيرة، كان حجاج المغاربة يترلون فيها بإبلهم وأخبيتـهم أيام الإقامة، وكان في ذلك رفق بالضعيف الذي لا يقدر على كراء المنـازل، ثم منعوا منها في هذه السنين الأخيرة بعد الستين، وفي حسن المحاضرة أن هذه الزيادة كانت أولا في المسجد[3].

ومن يوم خروج المحمل شَمَّر الناس عن ساق الجد في التجهيز للسفر باتخاذ الزاد وشراء الإبل وكرائها، وأزيحت العلل، وكان الناس قبل ذلك في سعة مـن أمرهم. وقد الجمالون من الصعيد والأرياف، وكثر طالبو الكـراء، واختلفـت رغبات الناس، فمن قائل على الكراء، ومن قائل على الطلوع بإبله، فمـن أراد

---

(1) أحمد بن طولون: صاحب الديار المصرية والشامية والثغور، كان المعتز بالله قد ولاه مصر ثم استولى على دمشق والشام أجمع وأنطاكية، بنى الجامع المنسوب إليه الذي بين القاهرة ومصر في سنة تسع وخمسين ومائتين، وهذه الزيادة حكاها الفرغاني في تاريخه، وذكر القضاعي في كتاب الخطط أنه شرع في عمارته سنة أربع وستين ومائتين وفرغ منه في سنة ست وستين ومائتين، توفي سنة 270 هـ: وفيات الأعيان 1:173. شذرات الذهب 1: 157.

(2) أنظر: الانتصار لواسطة عقد الأمصار 1:133.

(3) حسن المحاضرة 2:199.

راحة بدنه وتعب قلبه والخصومة آناء الليل وأطراف النهار اكترى، ومن أراد سلامة قلبه ودينه والمخاطرة بماله اشترى إبله.

ثم يأتي عرب الدرب للكراء على حمل الفول من مصر على المويلح، فيشتري من عندهم كل من يطلع بإبله على ما يحتاجٍ من العلف إلى المويلح، إذ لا تقدر الإبلِ على حمل زادها وحمل زاد أربابها ذهاباً وإياباً. ومن أراد المخاطرة فلا يكتري شيئاً، ويشتري في كل بندرٍ ما يحتاج إليه، إلا أنه ربما يقل في بعضِ الأحيان، فيُشترى في بعض المحال غالياً. وغالب الأوقات يكون الأمر متقارباً في الشراء والكراء، وربما كان الشراء أرخص من الكراء، ولا يكتري أحد عند عرب الدرب للفول حتى يأتي شيخهم إلى أمير الركب، ويتقاطع معه في الكراء، ويعطون له حملاء هناك بمصر لئلا يغدروا، ومع ذلك ربما غدروا في بعض السنين، فيغلى الفول في بعض البنادر.

فإذا كان اليوم الحادي والعشرون من شوال خرج المحمل الشريف من القاهرة، وهذا اليوم هو يوم خروج المحمل الكبير الذي هو من أيام الزينة، ويجتمع له الناس من أطراف البلد، ويؤتى بكسوة البيت من موضع خياطتها، وتجعل في المحال التي تحمل فيها، ويجتمع الأمراء والصناجق والجند جميعاً على الهيأة المتقدمة في الخروج الأول، إلا أن هذا أتم احتفالاً وأكثر جمعاً، فإذا تكامل جمع الأمراء على الوجه المتقدم، وصفت الخيل والرماة، وخرج الباشا، جيء بجميع ما يحتاج غليه أمير الحج من إبل وقرب ومطابخ وخيل ورماة وغير ذلك من الأسباب التي تخرج من بيت المال، فيحضر جميع ذلك في الميدان، كل طائفة لها أمير مقدم عليها، حتى الطباخين والفراشين والسقائين، ثم يؤتى بالمحمل الشريف على جمله المذكور أولاً، يقوده سائسه حتى يناول رسن الجمل للباشا، فيأخذه بيده ويناوله لأمير الحجاج بمحضر القاضي والأمراء ومعاينتهم، ثم يناوله أمير الحج لسائسه، فيذهب به. وذلك كله كالشهادة على الباشا بأنه مكن للأمير المحمل وكل ما يحتاج إليه أمير الحج، من ذهابه إلى إيابه، وعلى أمير الحج بأنه تسلم ذلك، ويشهد على ذلك القاضي والأمراء، ويُكتب بذلك إلى السلطان.

فإذا مَرَّ المحمل بين يدي الباشا وذهب، جيء بالإبل يمر بها بين يديه بما عليها من القِرب والمطابيخ والآلات، كل طائفة بمقدمها، فإذا مرت الإبل كلها جيء بالمدافع، وهي خمسة تجرها البغال. ثم جاء الرماة الرجالة من ورائها فيمرون، ثم

تأتي الخيل فتمر، فإذا مر جميع ذلك بين يدي الباشا جاء أرباب الوظائف، كل طائفة مع مشايخ الصوفية بشيخهم ولوائهم، رافعين أصواتهم بالذكر، كالقادرية والرفاعية والبدوية والدسوقية، حتى السعاة يأتون بشيخهم. فيمرون بين يدي الباشا ويعطيهم ما تيَسَّر، فإذا لم يبق أحد ممن يمر بين يديه خلع الباشا على أمير الحج خلعة، وعلى كل أمرائه الذاهبين معه، كالكيخيا والدويدار وغيرهما، ثم يودعه وينصرف.

ثم يمر بالمحمل وسائر الإبل والعسكر وسط المدينة والناس مشرفون من الديار والمساجد التي تلي الشوارع، ويتعَطَّل غالب الأسواق في ذلك اليوم.

غريبة:

أخبرنا أنَّ بعض تلك الديار المشرفة على الشوارع قد تُكرى من أول السنة، ولا يسكنها مكتريها، ولا ينزلها إلا في ذلك اليوم قصد التفرُّج، وفيما سوى ذلك من الأيام تبقى معطلة أو يسكنها غيره.

وبالجملة، فهذا اليوم عندهم من أعظم أيام السنة، ولا ثاني له إلا يوم كسر النيل عند وفائه، ويقرب منه أيضاً يوم قدوم الحاج، فهذه الأيام الثلاثة هي التي يحتفل لها عندهم غاية الاحتفال ويهتبل أتم الاهتبال.

فإذا خرج المحمل من الميدان الذي على باب القلعة إلى فضاء الرملة، بقي الكثير من الخيل هناك للتعب، ولا يذهب معه إلا المعينون للسفر معه. والرملة فضاء واسع خارج قلعة الجبل، وفيه تباع الإبل والخيل وسائر الدواب، وبه يوجد غالب ما يحتاجه الحاج من الأثاث والأمتعة، وتنصب فيه أيام الموسم أراحي متعددة لتدشيش الفول، يديرها الرجال بأيديهم مع كبرها، وقد أعطوا قوة على ذلك؛ يطحن الرجلان أرادب متعددة في يوم واحد، فتكون بالرملة هبر من الفول المدشش، كل هبر تزيد على المائة إردب، ومن هناك يكيل غالب الحجاج فولهم، ويعمرونه هناك في غرائرهم ويمكنونه للجمالين فيذهبون به، فلا يراه صاحبه إلى مكان المشترط معهم، وهو المويلح في الغالب.

وفي الرملة كثير من حلق المعجبين يلعبون هناك في سائر الأيام، كأنواع المشعوذين وأصحاب القرود ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات، كالدب والحمير والتيوس والكلاب.

وبالجملة فأهل مصر لهم ذكاء زائد وحيل غريبة، قد سخرت لهم أنواع الحيوانات، فقليل من أصناف الحيوانات ما لا يوجد عندهم مسخرا مذللا، فسبحان الذي خلق لابن آدم ما في الأرض جميعا، (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)(1).

وبطرف الرملة مسجد السلطان حسن، وهو مسجد حسن لا ثاني له في مصر ولا في غيرها من البلاد في فخامة البناء ونباهته وارتفاعه، وإحكامه واتساع حناياه وطول أعمدته الرخامية وسعة أبوابه، كأنه جبال منحوتة، تصفق الرياح في أيام الصيف بأبوابه، كما تفعل في شواهق الجبال، وفي أحد أبوابه سارية رخامية لطيفة يقال إنها من إيوان كسرى، وفيها نقوش عجيبة يقال إن على صورتها وضعت أبواب المسجد. قال المقريزي: لا يعرف ببلد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكي هذه المدرسة في كبر قالبها وحسن هندامها وضخامة شكلها. قال: وذرع إيوانها الكبير خمسة وستون ذراعا في مثلها، ويقال إنه أكبر من إيوان كسرى بخمسة أذرع. وقد وجدنا ركنا منه قد انهدم، فكنه طرف جبل قد سقط، فملأ ما تساقط من الشوارع والرحاب التي بإزائه، ووجدناهم يجدون في ترميمه، وقد أخبرنا أنهم أعطوا ستين كيساً من الريال على جمع أنقاضه ورفعها من الشوارع والرحاب لتعاد للبناء ثانياً، فإذا كان هذا أجرة جمع النقض فما بالك بأجرة البناء.

ولما رجعنا من الحجاز بعد سنة ونصف، وجدناهم قد فرغوا من ترميم ذلك الجانب المهدوم، وبالوا في إتقان صنعته ورفع بنائه ليناسب البناء الأول، فكان كما قيل:

[بسيط]

يا بارقا [من] بأعلى الرقمتين بدا لقد حكيتَ ولكن فاتك الشنب(2)

(1) الإسراء: 70.
(2) الشَّنَبُ: ماء ورقة يجر على الثغر؛ وقيل: رقة وبرد وعذوبة في الأسنان: لسان العرب: شنب.

فرحم الله أفاضل الملوك الذين درجوا، والذين من الخلف على منــهاجهم نهجوا، لقد خلدوا من المآثر الدينية ما أوجب خلود الثناء عليهم ووصول الدعاء ممن بعدهم إليهم. ولم يزل أهل المشرق إلى الآن لهم فضل اعتناء ببناء المــساجد والخانقات، ويبالغون في تعظيمها، يتأنقون في ذلك ويبادرون على إصلاح ما وهى منها. وأما أهل مغربنا فلا تكاد ترى في مدائنهم مسجدا عظيما قد أحدث، بــل ولا مهدما قد جدد، أو واهيا قد اصلح، بل لو سقط شيء من اكبر مــساجدهم فاحسن أحوالهم فيه إن كان مبنيا برخام أن يعاد بآجر وجص، وإن كان مجصَّصاً أن يعاد بطين، بحيث تجد المسجد كأن مرقعة فقير هندي من كل لون رقعة، وإلى الله المشتكى.

وما أرى ما حل بمغربنا من الوهن إلا بسبب أمثال هذا من عــدم تعظــيم شعائر الله، ولو في الأمور الظاهرة، فضلا عن الباطنة، وقد قيل: إذا أراد الله خلاء بلد بدأ ببيته ثم يتبعه ما سواه، وإذا أراد عمارته فكذلك.

ثم يُسار بالمحمل على هيئته وتعبئته حتى يترل ذلك اليوم بالعادلية خارج باب القصر، فيقم هناك إلى اليوم الثالث والعشرين[1]، فيرحلون من هنالك إلى البركة، ويخرج أمير الحج وجميع عسكره، ويخرج مع الركب من المشيعين ومن العساكر والأمراء أضعافهم، فتنصب الأسواق هناك ويخرج غالب الباعة والمتسببين، بحيث يوجد هناك ما يحتاج إلى السفر بأرخص من سعر مصر، ويقيمون هناك إلى آخر اليوم السابع والعشرين[2].

وأما ركب المغاربة فلا يخرج منهم إلا من قصده الذهاب مع المصري مؤثراً مشي الليل على مشي النهار، مستسهلا مشقة السهر بالليل على حر النهار، سيما في أيام الصيف. وإنما يؤثر ذلك غالبا صنفان من الناس: أهل القوة الــذين لهــم شقادف ومحامل وهوادج ينامون فيها بالليل على ظهور الإبل ويصبحون بالنــهار كأنهم مقيمون، ولا شك أن هذا أولى لهم من السير نهاراً إذا وطنوا أنفسهم على بذل الدينار والدرهم للجمال والعكام[3] والسقاء والطباخ وقائد الإبل وغيرهــم.

(1) في الأصل: العشرون، والصواب ما أثبتناه.
(2) في الأصل: العشرون، والصواب ما أثبتناه.
(3) العكام: عكَمَ المتاع يَعكِمُه عَكْماً: شدَّه بثوب، والعِكامُ: ما عُكِمَ به، وهو الحَبْلُ الذي يُعكَمُ عليه: لسان العرب: عكم.

والنصف الآخر الفقراء الذين لا إبل لهم ولا أمتعة، فيسترفقون عند المصري بالماء المسبل في أوقات من الليل وعند الرحيل نهاراً، مع ما ينالهم من أهل الثروة من التصدق وبفضل الأطعمة. إلا أنهم يكابدون مشقة عظيمة في المشي والسهر ليلاً، وفي النهار يشتغلون بالسعي على ما يقوتهم، فلا يكادون ينامون إلا قليلاً. وأما المتسوقة والباعة والجمالون من فلاحي مصر فلهم قوة وفرط صبر على مكابدة أعظم من ذلك، فبالليل يسيرون وبالنهار يعملون في البيع والشراء والسقي والطبخ وعلف الإبل وإصلاح أقتابها ومداواة جراحاتها، فلا يكادون ينامون حتى القليل.

وقد أخبرنا أن بعض من اعتاد السفر في درب الحجاز من الجمالين أنه لم ينم من يوم خرج من مصر إلى أن رجع إلى مصر مائة يوم، وهذا كالمحال عادة، فإن صح فهو من اغرب الغرائب، ولعله كان لا يضطجع للنوم على هيأة القاصد لذلك، بل يغفي إغفاءة تارة على ظهر بعير، وتارة في وقت انتظار حاجة أو فراغ من أكل أو ما يضاهي ذلك، فإن كان مثل هذا فلا يستبعد.

ذكر خروجنا من مصر إلى درب الحجاز
وما في أخبار الدرب من حقيقة ومجاز

كان ارتحالنا من مصر بكرة يوم الخميس السابع والعشرين من شوال، اغتناماً لشمول بركة الدعاء النبوي: اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم الخميس[1]. وفي ذلك اليوم خرج معظم المغاربة، وخرج أميرهم، وكان خروج أصحابنا بالإبل على القرافة الصغرى، وتأخرت أنا لبعض أغراض، فخرجت على باب الناصر. والطريق كلها من مصر إلى البركة كأنها سوق واحد من كثرة الذاهب والجائي، وكثرة الباعة لأنواع الطعام على الطرقات. ونزلنا قبل الظهر بالبركة التي هي محل نزول الركب المصري في فسيح من الأرض على شط بركة واسعة مد البصر، يتموج فيها ماء النيل العذب الفرات، تنصب فيها الأسواق الحافلة بشط البركة والقهاوي المزخرفة والفساطيط المونقة، ويخرج غالب أهل مصر لوداع الحاج والتفرج هناك والتنزه في بساتين ومقاصر على شاطئ النيل المنصب إلى تلك البركة، وفي جانبها الغربي قرى متعددة في أحدها مسجد لسيدي إبراهيم المتبولي[2]، حسبما ذكره الشيخ الشعراني في الطبقات، فذهبنا لزيارة ذلك المسجد، وعند نزولنا أخذ المصري في الارتحال، وتلك عادته في الرحيل في اليوم السابع والعشرين، ورجع المشيعون له من هنالك، وأكثر المتسوقين في ذلك اليوم، ولم يبت عندهم إلا القليل، وبات هنالك من عُيِّن لحراسة الركب من الجند، لأن العادة من يوم خروج الركب المصري إلى العادلية ثم إلى البركة، يعين للخروج طوائف من العسكر يتزلون في نواحي الطريق من مصرٍ إلى البركة لئلا ينتهب أحد أو يغار عليه، لاتصال المارة من مصر إلى القاهرة، ليلاً ونهاراً. ولا ترجع العساكر من هناك حتى ترتحل الأركاب كلها، ولم يخرج آخر المصري من الدار إلى قرب المغرب.

---

(1) المعجم الكبير 286:10.
(2) لواقح الأنوار في طبقات الأخيار، ص: 403.

وبات الركب المغربي هناك يتملون من رؤية النيل وشرب مائه، ويتمتعون بشميم عواره[1]، وطيب غذائه وقد مزجوا حلاوة مائه، يتمتعون بمرارة ماله، من شدائد الدرب يتوقعون. وبات الناس يثيرون الرواحل وينيخونها، ويشدون عليها أقتابها ويرخونها، ويرتبون الأمتعة في الغرائر، وقد شقت منهم خوف هجوم الرحيل المرائر، وحملوا ما قدروا عليه من زلال ماء النيل، ولثقل الأحمال والشفقة على الجمال لم نحمل منه إلا القليل، وتلك الليلة عند الحجاج أخرى الليالي المشهورة، وبالقصر وعدم انشراح الصدر مذكورة، كان الدرب أمامهم عَدوّاً لا يرحم وبحر لا يقتحم، يترقبون مزاولته عند الصباح، ومبادرته بالكفاح، وإنه لكذلك، لولا ألطاف الله الخفية فيما هنالك.

ولما كان أمر الناس في هذه السنة متفقا، وأميرهم إلى كثير من الخيرات مستبقا، نادى مناديه عشاء ألا يرحل أحد حتى يصلي الفجر، ويضرب الطبل فيزول الحجر. وبعد صلاة الصبح من يوم الجمعة أخذ الناس في الارتحال وأثيرت الرحال، واستقبل بها مطلع الشمس ووجهة الصلوات الخمس، فودع الناس أصحابهم، وفارقوا أحبابهم، فودعنا هنالك صاحبنا وأخانا في الله الشيخ علي الدمشيتي، وهو رجل من أهل الخير، لم نر بمصر أصدق منه لهجة ولا أهدى محجة، ولا أوفى ذمة، فهو في الخلق الحسن وحده أمة، وكان ثقة أميناً خيّراً دَيّناً فاضلاً سخياً وَرِعاً تقياً، يبيع الكتب بالأزهر وتلك معيشته، وتكفل لنا بالدعاء أيام غيبتنا، وقد رأينا بركة دعائه في مسيرنا.

ثم سرنا ذلك اليوم في أطيب هواء لا حر ولا قر، لا مخافة ولا سآمة، قد جعله الله علينا برداً وسلاماً. وقد تأخرنا بجماعتنا ضحى فظهرت لنا بالبيداء خيل قليلة هموا أن يقتطعونا دون الركب، فلما رأيناهم تهيأنا لمقاتلتهم، فرأوا الجد منا فتجنبونا، وكفانا الله شرهم. ثم نزلنا الدار الحمراء عند العصر، ووجدنا آخر المصري في المنزل، وكنا أيام إقامتنا بمصر، بل ومن قبل ذلك، قد أهَمَّنا أمر الحر في الدرب، كثيراً ما استقبلنا فيه حارة القيظ وأوان اشتد الحر، مع صعوبة المسالك وكثرة المهالك، وجد السير وكثرة الشر، فجعلنا لا نلتقي أحداً ممن نتوَسَّم فيه الخير إلا استودعناه الدعاء أن ييسر الله علينا، فوجدنا، ولله الحمد والشكر، بركة دعائهم، فلم نر في طريقنا، بفضل الله، ما يسوؤنا.

(1) العوار: شجرة خضراء: لسان العرب: عور.

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا عجرود عند المغرب، وماؤه يضرب به المثـــل في القبح، واشتهر بذلك مع وجود ما يضاهيه كثيراً في مياه الدرب، إلا أنه كان أول ماء يرده الحاج قبل أن يألف مشاق الطريق، مع اعتياد الناس قبل ذلك لماء النيل، ووجود فضلة منه، لا يكادون يسيغون منه جرعة إلا وهمت من بطوهم بالرجعة، وفي هذا المورد حصنان متقاربان مبنيان بأوثق بناء، يترك الناس فيها ما اســـتثقلوه من الأزودة والأمتعة إلى الرجوع، وكثيراً ما تعطب المتين من الإبـــل في هـــاتين المرحلتين، لجد السير وثقل الأحمال، إذ لم يخفف منها شيء والإبل قد ألفت الراحة بمصر ويغلب عليها السمن، وكثير من الناس لا يشفقون عليها، فيحملونها فـــوق طاقتها، ولا يرخون عليها في المشي لما يتوقعون من خوف اللصوص علـــى مـــن تأخر، فكل واحد يريد أن يتقدم، وقد لطف الله بنا لكوننا في جماعة لا بأس بها، نتأخر في الغالب على الركب، فنسير بإبلنا على مهل، وينضم إلينا من ضعف من الناس أو تأخر لغرض، فكان لنا في ذلك وللناس خير كثير، فلم يبق لنا في الدرب كله جمل.

وفي أحد الحصنين اللذين هناك بئر كبيرة يسنى دائماً بالبقر، ويخرج الماء من البندر إلى برك ثلاثة خارجه، اثنتان صغيرتان، والثالثة كبيرة، وصورها هكذا:

كبيرة	صغيرة
	صغيرة

وعمق كل واحدة نحو العشرة أذرع، ودور الكبيرة نحو الثلاثين ذراعـــاً في نصفها، وكنا خشينا ألا نجد في البرك ماء، لأن الركب المصري يشربه في الغالب، فلا يدع فيها شيئاً، فوجدنا الماء بفضل الله فاضلاً، أخذ الناس حاجتهم منه بـــلا كلفة، و لم يكثر الناس السقي منه لعزمهم على ورود ماء النابعة والمـــشي علـــى طريقها.

وفي الحصنين المذكورين عسر لا يفارقهما أبداً، وكذلك غيره من البنادر، في كل سنة يأتي قوم فيذهب الذين كانوا فيه، ولهم جراية من بيت المال على ذلك،

ولولا لطف الله بالعباد بوجود هذه البنادر في الطريق، لما قدر أحد على سلوكها، مع كثرة مخاوفها وقلة مرافقها، ولكن الله سلم، (إنه عليم بذات الصدور)[1].

تتميم:

قد ظفرت بمصر برسالة للشيخ محمد البكري، وأظنه شيخنا محمد بن الشيخ زين العابدين، ذكر فيها منازل الحج ودياره، ذهاباً وإياباً، وحقق قدر ما في كل مرحلة من الساعات والدرج والدقائق، وصعوبتها وسهولتها، بنثر بليغ وعبارات رائقة، وذكر في كل منزلة شعراً يتعلق بأحوالها، فأردت أن أقتطف منها ما يكون في أذن هذه الرحلة شنفا، إذ كلامي بالنسبة إلى كلامه لا يعد معه صنفا، ولما كانت المنازل التي ذكرها قد لا تتفق مع منازلنا، ومراحله تزيد أو تنقص عن بعض مراحلنا، لم أذكر في كل مرحلة ما يناسبها من كلامه، فأخرت ذلك إلى آخر مرحلتين، أو ثلاثة أو أزيد، فاخترت لإدراج كلامه المراحل التي فيها البنادر، لأنها في الغالب متفقة، فإذا جاء ذكر بندر من البنادر ذكرت من كلامه ما يتعلق بالمراحل التي قبله، ليكون ذلك أسهل لمطالعته وأبقى لرونق كلامه من التقطيع وكثير التوزيع، فلنذكر الآن من كلامه ما يتعلق بالمراحل التي قبل عجرود، فأقول: قال الشيخ البكري، رضي الله عنه فأول المنازل البركة[2] المباركة، التي توحدت في مشارق أنوارها ومشارع شوارع أقطارها عن المشاركة، وقصرت عن أوصاف محاسنها ذوي اللسن، وجمعت بين الماء والخضرة وقدوم الوجه الحسن، فهي مخضرة الأكناف، بديعة الأوصاف، قد صدحت أطيارها، ونفحت بالنسائم أزهارها، وبها الخيام منصوبة ومرفوعة، والخيرات لا مقطوعة ولا ممنوعة، مع وقوف شاراتها على الأقدام، يستمد بضوئها في الليل من له على القدوم إقدام، كأنه في جنح الليل نجم الثريا إذا اقترنت بالنثرة، أو الإكليل إذا قارن الزهرة، وبها سوق تساق إليها بدائع البضائع التي يحتاج لها المسافر في كل الوقائع، ما قصد نحوه قاصد، إلا وعاد منه

(1) الملك: 13.

(2) البركة: موضع على بركة من برك النيل، وفيه محل اجتماع الركبان: أنس الساري والسارب، ص: 69.

موصولا بالصلة والعائد، وكان هذا النعيم المقيم مسامرنا في الذهاب والإياب، إلى أن رجعنا إلى بركة الحج ثانياً ولقينا الأحباب[1]:

قال الشاعر:

[مجزوء الرجز]

ببركَـــــةِ الحـــــج تـــــرَى نخـــلا زهَـــا لكـــن عجـــبْ[2]
زبرجَـــــدا يحكـــــي ومـــــا ثمـــــارهُ إلا ذهـــــبْ
فيهـــــا نـــــسيمٌ رائـــــق بلطفـــهِ يـــشفي الوصـــبْ
والطـــــيرُ فـــــوقَ بابهـــــا يـــشدُو بـــأنواعِ الطـــربْ
فيـــــا لهـــــا مـــــن برْكـــــة تبلـــــغ القلـــــبَ الأربْ
عوذْتُهـــــا مـــــن طـــــارق وغاســـــق إذا وقـــــبْ

وبعدما كملت الركائب، واجتمع بعد التفريق نجائد النجائب، وانقضى مقام المقيل، ونودي في ذلك المكان الرحب بالرحيل، وحمل المحمل الشريف، وفـــارق المربع والظل الوريف، وسار الركب سير السيل، وتسابقت العيس لجهات الخـــير كأنها الخيل، حتى وصل إلى قرب البويب المعروف بالتصغير، وفي الحقيقة هو باب الدرب ومفتاح السير، فاجتمع شمل الركاب في ذلك المكان، ورجع المودع في خبر كان، فاستراح الناس والبهائم، واستيقظ بسهر الليل كل نائم، ثم أطعمت الجمال العلائق، وقطع الحجاج من تلك المحطة العلائق. ومدة السير إلى تلك المرحلة ثلاث ساعات مكملة، ثم نادي منادي الرحيل، فسار الركب إلى أن أصبح مقاربا للبئر الطويل، وهو المكان المعروف بالمصانع، ومطلب راحة الناس في الإقامـــة لـــولا الموانع، وبه تقطير الجمال وضبطها في سير الركوب واحتياج لمشي من تعبـــه إلى الراحة والركوب، فيا له من يوم تقطر فيه الدموع، ويطول فيه الوقوف والوقوع، وتشرب فيه الفقراء كاسات الردى لشدة ما يحصل لها من جور الجنود واعتـــداء

---

(1) عادت هنا ط للمسار الطبيعي لنص الرحلة العياشية.

(2) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى التي ينقل صاحبها فقرة كاملة من الرحلة العياشية: الترجمانة الكبرى 217 – 230.

الاعتداء، فما من فقير إلا ويحتاج إلى غني يشفعه، وإلى عادل من ظلامته ينصفه، قال الشاعر[1]:

[المديد]

قد أتينا إلى محل المصانعْ فاصنع الخير فيه إن كنت صانعْ

وانفع الناس في كثير جميل عل تلقى خيرا كثيرا ونافعْ

واعلم أن عدة درج المسير إلى هذه المترلة ست ساعات على التحرير. ثم قام دليل الركب للمسير وأمر الناس من تقطيع أزمة الجمال بالتقطير، فسرنا طول ليلنا إلى الإسفار، واسترحنا بالوصول إلى عجرود عن مشقة الأسفار، فوصلنا إلى بندر عجرود، وماؤه ملح أجاج غير مورود، فأتانا أهل بندر السويس وعطفوا علينا انعطاف الأغصان في الميل والميس، وأهدوا إلينا الأحطاب للمشاعل، والأغنام للمآكل. وعدة درج هذه المرحلة المبهجة سبعة وثمانون درجة. هـ كلام الشيخ البكري رضي الله عنه.

فلنرجع إلى ذكر مراحلنا وحيث انتهى سيرنا فأقول، والله المستعان وعليه في جميع الأمور التكلان، إنه خير معين، آمين، آمين، آمين: ثم ارتحلنا من عجرود[2] قاصدين للنابعة، وعدلنا عن طريق الحاج التي فيها المصانع يميناً، والمصانع سواري مبنية في سبخة لا يظهر فيها أثر الطريق، فجعلوا تلك الأعلام المبنية ليستدل بها على الطريق، وجعلوا في رؤوس الأبنية حجراً مستطيلاً خارجاً إلى ناحية الطريق ليستدل به الماشي ليلاً، وربما علّقوا على بعض الأعلام مصابيح بليل، وبين كل علم وعلم نحو من فرسخ أو أقل، حتى انتهوا بها إلى رأس وادي الرمل. وعلى هذا الطريق يسلك الحاج المصري دائماً، وكذا المغربي، إلا في أوان الحر وخوف العطش فيعدلون إلى النابعة عن[3] طريق المصانع حتى يظهر لنا البحر، وتقرب منا مدينة السويس جدا، حتى يكاد الإنسان أن يتبيَّن من هو بخارجها، وهي مدينة صغيرة ذات أسواق ومساجد ووكالات مستطيلة على شاطئ البحر المالح الذي يأتي من الهند، وهناك يقف بين جبال شامخة. وبينه وبين البحر الرومي نحو من

(1) أنظر: الترجمانة الكبرى ص: 218.
(2) عجرود: منها يحمل ركب الحجيج الماء: أنس الساري والسارب، ص: 70.
(3) في ط: على.

مرحلتين، وفي هذه المدينة ترسى السفن التي تأتي من جدة ومكة واليمن وفيها السلع التي لا تحصى والبضائع التي لا تستقصى، ومن هناك تحمل إلى مصر في البر. فلما تجاوزنا وُجَاه[1] المدينة وخلفناها وراء ظهورنا، والبحر عن يميننا، نزلنا بعد الظهر بالنابعة؛ وهي واد كبير ذو رمل فيه أحساء كثيرة تزيد على المائة، بل أين ما حفرت مقدار وقفة أو أقل وجدت ماء حلواً بارداً في غاية الحلاوة كأنه ماء النيل، فلربما يتوهم أنه أحسن منه. وسقى الناس منه إبلهم وأخذوا من الماء حاجتهم، ووجدنا الأعراب الشعارة الذين يحملون الفول مع المصري قد نزلوا هناك، وتلك طريقهم دائماً، ومعهم جملة من الخيل الدرب[2]، وكانت هذه المسافة قبل ذلك يتدرك بها أقوام من العرب، ثم إنهم نافقوا[3] وذهبوا إلى ناحية غزة، وتتدرك بها آخرون، فخاف الناس في هذه السنة منهم، فكفى الله شرهم.

ثم ارتحلنا من النابعة وسلكنا بين جبال في أودية من الرمل، وكان الهواء باردا والماء عذبا والناس ماشون على مهل منبسطون في غاية البسط، وكنت أقول لأصحابنا ممازحا: من عد هذا اليوم من أيام الدرب فقد ظلمه لأنه خالف الدرب في سائر أوصافه، فإن طريق الدرب معروفة بالماء القبيح والحر والخوف، وهذا اليوم بخلاف ذلك. و لم نبت تلك الليلة حتى توسطنا وادي الخروب[4] حيث تلتقي طريق النابعة وطريق المصانع، وسمي الوادي بشجرة من الخروب كبيرة في أصل الوادي.

ثم ارتحلنا من هناك وسرنا في الوادي مدة، ومررنا بالعقبة المشرفة على التيه، وهي عقبة فيها بعض صعوبة إلا أنها قد سويت وبنيت بناء متقنا حتى صارت طريقا لاحبا[5]، ونزلنا منها إلى أرض التيه بعد طلوع الشمس، وهي أرض مقفرة موحشة طويلة عريضة معطشة قد امتدت فيها الطرق امتداد السطور في الطروس، لم يلحقها على قدم العهد دروس.

وهذا المحل من المحال التي تعظم فيها المشقة أيام الحر، وقد تتلف فيها أنفس كثيرة بالعطش، وقد وقع لنا مثل ذلك في سنة تسع وخمسين؛ ارتحل الناس من

(1) الوجاه: هو وجاهك، أي حذاءك من تلقاء وجهك: لسان العرب: وجه.
(2) الخيل الدرب: التي ألفت الركوب والسير؛ أي عودت المشي في الدروب: لسان العرب: درب.
(3) نافقوا: أنفق الرجل إنفاقا إذا وجد نفاقا لمتاعه: لسان العرب: نفق.
(4) سماه ابن مليح واد الخروبة: أنس الساري والسارب، ص: 70.
(5) اللاحب: الطريق الواضح: لسان العرب: لحب.

عجرود ظهراً، و لم يمروا على النابعة، فبتنا ليلتين بلا ماء إلا ماء عجرود الذي لا يتجرعه الظمآن ولا يكاد يسيغه، فلم نصل إلى أرض التيه حتى اشتد الحر في اليوم الثالث وقَلَّ الماء، ومات بعض الإبل، وجعل الناس يعصرون ما في بطون الإبل من الفرث ويشربونه، وفي ذلك قلت:

[متقارب]

ولَمْ أنْسَ بالتِّيهِ يوْماً بهِ تفانَا الحجيجُ صَدى وولُوها

وإن يستغيثوا يُغاثوا بماءِ عجرود كالْمُهْلِ[1] يشوي الوجُوها

وأما في هذه السنة فلم يلقَ الناس فيه أذى لوجود الماء العذب. ودخلناه على أول النهار و لم نبت حتى قاربنا بندر النخيل، وفي الغد أتينا النخيل صباحاً ووجدنا الركب المصري قد بات به، وصادفنا هناك سوقاً كبيرة فيها كثير من أنواع الفواكه الشامية أتى بها أهل غزة؛ مثل التفاح واللوز وغير ذلك، وهناك بندر حصين فيه بئر ماؤه عذبة كبيرة لا تنزح[2] أبداً، يُسقى منها بالبقر إلى برك خارج الحصن، وهي ثلاثة مثل البِرَك التي في عجرود، إلا أن هذه أعظم منها، وقد وجدنا الماء فيها فاضلاً عن الركبِ المصري، وأخذ الناس منه حاجتهم، وكان أمره قد أهمنا قبل ذلك لأنه من المواضع التي يصعب[3] فيه الماء؛ إذ ليس فيه[4] إلا بئر واحدة، فإذا شرب المصري ما في البرك وقعت الزحمة على البئر، فلا يصل الناس إلى الري إلا بعد حرج شديد ومشقّة فادحة. فلما جُنَّ الليل ورحل المصري كله خرج أصحابنا المغاربة وعسكروا خارج ركبهم إرهاباً للعرب لأنهم قد استقلونا فظهرت لهم في الركب قوة نار وكثرة رحال، وكنا قبل ذلك ربما يظهر بعض السراق بالليل، فمن ذلك اليوم لم نر سارقا بالليل ولا محاربا بالنهار بفضل الله، وأسكن الله قلوبهم الرعب.

ومما منَّ الله به على ركبنا في هذه السنة أن قلَّ فيه الفلاحون الذين يكثرون اللغط والزحمة في الركب، وقد كانوا في غالب السنين يكرون في الركب المغربي

(1) المُهل: النحاس المذاب: (لسان العرب: مهل)، والإشارة هنا إلى قوله تعالى: (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بيس الشراب وساءت مرتفقا):الكهف:29.
(2) لا تنزح: لا تنفد: لسان العرب: نزح.
(3) في ط: يضعف.
(4) في ط: فيها.

فراراً من جور عساكر المصري عليهم، فيكثر صخبهم وخصوماتهم، فلا يكاد ينضبط للركب المغربي أمر من كثرتهم فيه؛ إذ يرحلون في غير إبان الرحيل، ويتبع الآخر منهم الأول من غير تأن، سيما في محل الضيق والخوف، ولا يبالون بما أتلفوا من أنفسهم وأموالهم خشية التأخر والمزاحمة على القرب من أول الركب لغلبة الجبن والخوف، إذ لا يعرفون في بلادهم قتالا ولا مدافعة عن الأنفس والأموال، لكونهم رعايا إن شتموا مروا وإن ضربوا فروا. وكلما نقص الله من جهدهم وجرأتهم وبسط أيديهم زائد في ألسنتهم حيث لا يخافون، فيبالغون في الشتم والسب حتى لا يكاد سامعهم يملك نفسه، فإذا رأوا من هم بضرب خضعوا وقالوا: عافية يا مغربي عافية، ويقولون: المغاربة مجانين لا يعرفون إلا الضرب، وكان الضرب عندهم أبعد بعيد يصدر من شخص عاقل، ولعمري إنه لكذلك في حق كل مسلم لمسلم، ولكن الغريزة الغضبية، سيما من لم تذلله الأحكام، ولم تكسر من سورته شدة الأيام، لا يملكها إلا الأقوياء، وهي لا تنتهي دون أبلغ عقوبة تمكنها، نسأل الله أن يكفينا شرها ويسخر لنا أمرها، إنه سميع مجيب.

ومما أعان على جمع كلمة الركب المغربي في هذه السنة أيضاً ذهاب كثير من أهل الدثور من المغاربة مع المصري تفاديا[1] من شدة الحر بالنهار، ولم يبق في الركب المغربي إلا أهل المروءات من الناس وأهل الخير وذو الحفاظ، وتعمر الركب بالآذان والصلوات ورفع الأصوات بالذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وألف الله بين قلوب أهله، فلا يرحلون بليل وينزلون قبل الليل، واتفقت كلمتُهم، وقد كانت الأركاب قبل ذلك، لقلة الاتفاق، يقولون: شيخها جمل، يعنون برغاء الجمل، يرتحلون لا بإذن الشيخ، فأول من يسمع رغاء بعير يظن أن الناس يرتحلون فيقوم إلى بعيره، فإذا رآه الذي بجنبه قام، ثم كذلك، حتى يرتحل الركب من غير إذن شيخ ولا مشورته، وربما يرتحلون وسط الليل فيتمكّن اللصوص من الإيقاع بمن تأخر أو انفرد عن الركب، ويحصل من ذلك ضرر عظيم، ولا يكون ذلك إلا من كثرة الأخلاط وغلبة الأجانب على المغاربة، فإذا انفردوا كهذه السنة كان أمرهم جميعاً، فمن رأى ركبهم وهو نازل، يظن أنه

(1) في ط: اتقاء.

قليل، وعند الرحيل تظهر كثرته وقوته، سيما إن حصل فزع وبـــادر النـــاس إلى السلاح وتهيؤوا للكفاح، سرَّت الخائف رؤيتهم، وأبهجته نجدتهم[1]:

[طويل]

ثِقالٌ إذا لاقوا خِفــافٌ إذا دُعُــوا   قليلٌ إذا عُدُّوا كــثيرٌ إذا شـــدُّوا[2]

تتمة فيما ذكره الشيخ البكري في رحلته من عجرود إلى النخيل:

ثم سرنا إلى النواظر ورأس الوادي المُنصرَف[3]، وهو وادي بكثـــرة الرمـــال والكثبان قد عرف، ليس به ماء ولا مرعى، وإنما عيون الناس لمضيق أرجائه ترعى، قال الشاعر[4]:

[رمل]

نـــزلَ الركْـــبُ بـــوادِ المُنـــصَرَفْ   وعلى لقيـــاهُ كـــم مَـــال صُـــرِفْ
نحمـــدُ الله الـــذي جئْنـــا لـــهُ   وجميـــعُ الهـــم عنـــا مُنـــصَرِفْ

ثم سرنا إلى واد القباب[5]، وهو واد فسيح الرحاب، تهيم به قلوب الأحباب، ويتذكر به عهد زينب والرباب، لاسيما اجتماع الأصحاب في مـــواطن البعـــد والاغتراب، قال الشاعر[6]:

[رمل]

شـــاقنَا وادِي القبـــابِ المُرْتقـــى   في اسمـــهِ وهْـــوَ فـــسيحٌ في الرُّبَـــا
فوصـــلْناهُ وقـــد قلنـــا عَـــسى   بعـــدهُ نـــأتِي إلى وادي قُبَـــا

---

(1) في ط: رؤيتهم.
(2) البيت لأبي الطيب المتنبي: شرح ديوان المتنبي، ص: 98، و فيه: كثير إذا اشتدوا قليل إذا عدوا.
(3) المنصرف: موضع بين مكة وبدر، بينهما أربعة بُرد: معجم البلدان: المنصرف.
(4) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 218.
(5) القباب: موضع بنجد على طريق حاج البصرة: معجم البلدان: القباب.
(6) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 219.

وميقات المسير إليه عشر ساعات على التمام. وبعد إقامتنا بــه إلى وســط النهار تهيأنا للقيام، ثم نادى المنادي بالرحيل، فــسرنا إلى رأس وادي تيــه بــني إسرائيل[1]، وهو وادي واسع الفضا، يعتبر فيه بأحوال من مضى، ليس فيه ماء ترده الأنام، ولا ظل سوى ما ظلل بني إسرائيل من الغمام[2]، قال الشاعر[3]:

[بسيط]

لا تَسْلكنَّ بــوادي التيْــهِ مُنفــردا ... بلا دليلٍ ترَى وقْــعَ الــردى فيــهِ

فما سمِعتُ كلامًــا مــن أخ مِقَــة ... في الناس إلا وقالَ:احذَرْ من التيْــهِ

ومدَّة المسير إليه عشر ساعات حَرَّرها أهل الميقات، ثم سرنا إلى قلعة نخــل المحمية وتعَجّبنا من كثرة الفواكه الشامية؛ من سفرجل ورمــان وعنــب علــى اختلاف ألوان، والخيرات الكثيرة، وما يحتاج إليــه الحجــاج مــن الــذخيرة، والفساقي[4] المملوءة بالماء البارد المعَدَّة للغادي والوارد، قال الشاعر[5]:

[وافر]

إلى نخــلِ الحُــصَيَنَةِ سِــرْ حَمِيــدا ... ترَى فيهــا المُنَــى والخيْــرَ بَــاقِي

ولا تَــشْكُ الظمــاءَ لِفقْــرِ مَــاء ... فــسَاقِيها مُقــيمٌ بالفَــساقِي

ومدة المسير إليه ست ساعات مُحَرَّرة وخمس من الدرج مقدرة، انتهى كلام الشيخ البكري.

فلنرجع إلى ما شرطناه من تعداد المراحل على سيرنا فنقول، والله المستعان وهو خير معين، فإياه نعبد وإياه نستعين: ثم ارتحلنا من النخيــل، ونزلنــا بــبر[6] الصعاليك، ويُسَمَّى بئر البارود، وهو بئر كبيرة طويلة مطوية بحجر وبناء متقن في

---

(1) تيه بني إسرائيل: هو الموضع الذي ضل فيه موسى بن عمران عليه السلام وقومه، وهي أرض بين أيلة ومصر وبحر القلزم وجبال السراة من أرض الشام، ويقال: إنها أربعون فرسخا في مثلها، والغالب على أرض التيه الرمال، وفيها مواضع صلبة وبها نخيل وعيون مفترشة قليلة: معجم البلدان: التيه.

(2) إشارة إلى قوله تعالى:(وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون): البقرة: 56.

(3) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 219.

(4) الفساقي: جمع فسقية، وهي النافورة.

(5) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 219.

(6) في ط: بر.

أصل وادي، وبجانب البئر أثر بناء وبِركتين، إلا أنه لا عمارة عليه، وماؤه بارد إلا أنه قبيح لا يكاد الشارب يسيغه، وسقى منها بعض الفلاحين الإبل.

وماتت في الركب تلك الليلة امرأة موسرة من أهل تونس، وكانت لها مَحَفَّة رفيعة تُحمل فيها، فلما ماتت أوسعوا في حفر قبرها ودفنوها بمحفتها، وذلك غلو وبدعة وتضييع مال فإن المحفة لها مال وقيمة. وحضر أمير ركب تونس وكبراؤهم، ولم ينكر ذلك أحد منهم.

ثم ارتحلنا منه ونزلنا بأول سطح العقبة وقد مررنا ظُهْراً بموضع يقال له عرقوب البغلة، وهي عقبة فيها بعض صعوبة إلا أنها قد سويت وبنيت واتخذ على جانب الطريق مسجد صغير غير مسقف، وذلك من عمل الأمير رضوان المتولي لإمارة الحاج أزماناً طويلة قريبة من ثلاثين، وتُوفي سنة ست وستين أو قريب منها، وكانت له آثار حسنة في طريق الحجاز؛ من قَطْع الأشجار وإزالة الأحجار من الطرقات وحفر بعض الآبار وتجديد بعض البِرَك، فجزاه الله خيراً، فلقد كانت له هِمَّة عالية في تخليد المآثر، فكم بالغ في الثناء عليه كل لسان، وأعلن بالدعاء له كل إنسان:

[رجز]

وإنما المرءُ حديثٌ حسَن ... فكُنْ حَدِيثاً حسَنًا لِمَنْ وعَى[1]

وبتنا في سطح العقبة، وكانت ليلة باردة تزَمَّلنا في ثيابنا فلم تغنِ شيئاً كأنَّا بتنا في بعض جبال المغرب، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، فإنَّ الموضع وإن كان في بعد بلاد الشام، وهي باردة، فالفصل فصل حر لا طمع للمسافر فيه في أقل من ذلك من البرد، وقد عاتبنا من لم يجرب الطريق من أصحابنا وقالوا: كنتم تخوفونا بالحر حتى تركنا ثيابنا بمصر. فقلنا لهم: ستردون فتعلمون، وإن تظلمتم فلا تظلمون.

ثم ارتحلنا من السطح وأخذنا في نزول العقبة بعد طلوع الشمس، وهي عقبة كؤود، صعبة الهبوط والصعود، ولم لا وهي عقبة أيلة المشهورة، إلا أن الطريق بها منحوتة قد سويت في أكثر الأماكن الصعبة وبنيت صافاتها ببناء متقن. ولما كان

(1) البيت لابن دريد: العقد الفريد 1: 194.

المحل معروفاً بتلصص الأعراب وحرابتهم تهيأ الناس وأخذوا حذرهم وأخرجوا أسلحتهم خوفاً من عدوانهم، فإن الغالب أنهم لا بد أن يتعرضوا للركب في هذا الموضع لصعوبته، وتقَدَّمت طائفة من الحجاج بمدافعهم أمام الركب وتأخرت طائفة، (وكفى الله المومنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً)[1]. و لم نرَ بها سارقاً ولا غائراً، ونزلناها على مهل، وبعد أن نزلنا من المنحدر الصعب جعلت الطريق تلتوي في شعاب كأنها أزقة يكثر فيها المخاوف والمتالف، فيُرى البحر من بعيد فيُظن قريباً.

ولما وصلنا إلى البحر تأخَّرنا لدفن بعض الأشراف مات بعد النزول من العقبة مطعوناً، وخَشي أقاربه من جور الولاة إن أوصلوه إلى البندر، فدفن هناك رحمة الله علينا وعليه، ووصلنا إلى البندر عند الظهر، وفيه حصن حصين في قرية على شاطئ البحر في سفح جبل، وبها آبار كثيرة، وفيها نخيل وسوق كبير يحضره أهل غزة وتأتيه الأعراب بالإبل والغنم والسمن والعسل والعلف للدواب، ووجدنا الفول فيها رخيصاً أرخص مما اكتري عليه من مصر، وبتنا بها، وبات المصري هناك، وأوقد بالليل نيراناً كثيرة وضرب المدافع ورمى المحارق في الهواء، ولها منظر عجيب وأسلوب غريب كأنَّها شهب النجوم يرمى بها من الأرض إلى السماء، فتراها في الجو طالعة حتى ترى من هام[2] شوامخ الجبال دونها، ثم تنعطف راجعة كأنها ثعبان، ثم يُسمع لها صوت وتخرج منها شرارات من النار، فإذا انقطعت تلك أتبعها بأخرى، وخروجهن فيما نرى من نار زرقاً كأنها نار الكبريت تشتعل اشتعالاً قوياً فتطلع منها تلك الشهب، ولا نعلم صنعة ذلك، وهي من الغرائب، والرمي بها وبالمدافع عادة المصري في كل منزل أقام فيه إذا أراد الرحيل.

ثم ارتحل في الغد وأقمنا بعده، و لم نرَ في مبيتنا وإقامتنا ما يسوؤنا من سارق ولا غيره، وقد سألنا هناك وبحثنا عن أثر القرية التي كانت حاضرة البحر[3] هل بقي من رسومها شيء، فقد ذكر المفسرون أنها أيلة[4]، فلم نجد من يشفي لنا خبرها، وقد ذكر لنا بعض الناس أن بأعلى الوادي أثر بناء كثير يشبه أن يكون

---

(1) الأحزاب: 25.
(2) في ط: أعالي هام.
(3) يشير إلى قوله تعالى: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تاتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تاتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾: الأعراف: 196.
(4) أيلة: مدينة بين الفسطاط ومكة على شاطئ بحر القلزم: معجم البلدان: أيلة.

مدينة، ولعلها هي، وقد أخبرنا كثير من متسوقة الأعراب الذين هنالـــك أن وراء الجبل الكبير المشرف على القرية بلدة فيها نخل وماء، إلا أنها خالية، ويمكـــن أن تكون هي فإنها قريبة من البحر، والعلم عند الله.

تتمة في ذكر كلام الشيخ البكري من النخيل إلى العقبة.

قال: ثم سرنا من النخيل إلى وادي القريض المشهور، وهو وادي ينبت بـــه الشوك عوضاً عن الزهور، فكم آذى بشوكه أقدام، وعطل من له علـــى المـــشي إقدام، ولا سيما الفيحاء، لاتساع أرضه وزيادة في فضائه، في طوله وعرضه، قال الشاعر:

[سريع]

في وادي فيحـــاءِ[1] كـــمْ سَـــائِر مـــن غيْـــرِ نعْـــلٍ ثابـــتِ الكعـــبِ

قد صارَ كالإعْجـــامِ مـــن شَـــوكِهِ يرقُصُ من قرص[2] علـــى الكعْـــبِ

وسيرنا اثني عشر ساعة كاملة محررة في الميقات متواصلة. ثم سار الركب إلى بئر العلائي في التجريد، وهي محطة بئرها معطلة وليس بها قصر مشيد[3]، وبقربهـــا حدرة منحدرة وأشجار أثل منتشرة، وبجانبها فِسقيتان ليس بهما منفعة، فما ورد عليها حيوان ظمآن إلا وقام عند رؤيتها بالأربعة. قال الشاعر[4]:

[رمل]

إلى بئْـــرِ العلائـــي قـــد أتَيْنـــا وفزْنـــا بالنجَـــاح وبالنمَـــاءِ

شـــكرْنا للـــدليلِ وقـــد دعانـــا إلى شـــيءٍ يُوَصِّـــلُ للعـــلاءِ

ومدة المسير إليه اثنا عشر ساعة بالتحرير، وبعدها الجد إلى سطح العقبة في المسير، وهو سطح واسع الأكناف متسع الجوانب والأطراف، لا يوصل إليـــه إلا

(1) زيادة من ط.
(2) في ط: رقص.
(3) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد﴾: الحج: 45.
(4) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 220.

بالاستطاعة، لأن مدة المسير اثنا عشر ساعة. ثم سرنا إلى العقبة (وما أدراك ما العقبة)[1]، فكم بها من حذرات ومضيق وجبال في شكل الحمرة والبياض، وهي عقلة في الطريق، وصعود وانهباط، وعلو وانحطاط.

قال الشاعر[2]:

[رمل]

عقَباتٌ يسْلكُ الناسُ بها … بقلُوبٍ لم تزلْ مرْتعِبَهْ

قد قطَعْناها بوقْتٍ هَيِّنٍ … لم نرَى فيها أمُورا متعِبَهْ

نحمدُ الله الذي خَلصَنا … وأرَحْنا مِن عِقابِ العقَبَهْ

فقطعنا تلك الحذرة الكبرى، ثم سرنا إلى وادي بشاطئ البحر، وأحطت به خبراً. وبجانب البحرِ مغائر ماؤها عذب فرات، وآبار تُسقى منها الناس بسائر الجهات، ورأينا نخلاً زاهية وقلعة حصينة عالية، فأقمنا بتلك المنزلة ثلاثة أيام ونحن في زيادة إنعام وذبح أنعام، وقد وردت الفواكه من غزة وأعمالها، فنصبت للبيع ورخصت الأسعار، ورفعت البواقي على أحمالها. وبقلعتها يوضع البضائع ودائع إلى الإياب، ومدة المسير تسع ساعات في الحساب، انتهى ما ذكره الشيخ البكري.

ولنرجع إلى ذكر المراحل على حسب سيرنا فأقول: ثم ارتحلنا من العقبة وسرنا في مسلك ضيق بين البحر والجبل لا يمر فيه إلا جمل إثر جمل كأنه متن الصراط، إلا أنه غير مستقيم، وقلما يخلو هذا المحل من لصوص يتعَرّضون للركب، فتشتد إذايتهم وتعظم نكايتهم، ولكن ذلك في الرجوع أكثر، و لم نرَ في يومنا هذا بأساً. ونزلنا بموضع يقال له ظهر الحمار على بسيط من الأرض أحرش مرتفع يطلع إليه من مسلكين لا يخلوان من صعوبة، وتحته على ساحل البحر أحساء كثيرة في وسط حدائق نخل، وماء ذلك المحل كله طيب، وقد يُسَمَّى ذلك المحل في زماننا هذا حفائر النخل، وقلما يخلو من عمارة بعض ضعفة الأعراب، سيما في وقت جذاذ[3] النخل، ويكون فيها في ذلك الوقت رطب جيد.

---

(1) البلد: 12.
(2) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 220.
(3) جذاذ: جذذ: قطع: لسان العرب: جذذ.

ثم ارتحلنا منه وخلفنا البحر يمينا، وسرنا يومنا في صعود إلى نحو العصر، فوصلنا إلى موضع يقال له شرفات بني عطية. وبنو عطية هم عرب هذه البلاد كلها في هذا الوقت، ويقال لهذا المكان أيضاً عش الغراب.

غريبة:

تزعم العرب أن الإبل تنفر في هذا المكان، ويقولون إنها تسمع صوت صقب[1] ناقة صالح وأنّه في ذلك الجبل، وأنّ هناك الصخرة التي دخل فيها لما عقرت أمه، فالإبل إذا وصلت إلى ذلك المحل تسمع صوت العشار فتنفر، ولا أدري من أين لهم ذلك، وهو بعيد إذ ليست هذه ديار ثمود الذين عقروا الناقة، وهم قوم صالح عليه السلام. ثم انحدرنا من الشرفات إلى محل النزول، ويُسَمَّى أبو العظام[2]، وبه ينزل المصري، ونزلنا به وتسوقنا بعض نساء العرب بلبن وغيره، وأخبرونا أن من وراء الجبل الذي على يسارنا ماء جار وأرض مخَصَّبة، وربما عطش الركب في ذلك المحل فيأتيهم العرب بماء يبيعونه.

ثم ارتحلنا من هناك وسرنا يومنا في هبوط منحدرين مع الوادي لا نفارقه إلى أن نزلنا في المكان المُسَمَّى بمغائر شعيب، عليه السلام، عند العصر، وأدركنا هناك أواخر المصري كما هو شأننا في كل دار، وهي أحساء كثيرة في مضيق بين جبلين فيها نخيل وماؤها طيّب جداً حلو خفيف نافع، وتسوقنا بها أعراب مدين بأحمال كثيرة من العنب الجيد الأسود، وهو في غاية الحلاوة، وجاؤوا برمان كثير، واشترى الناس العنب أولاً بدرهمين، ثم صار بعد ذلك رطل ونصف بدرهم، ووقعت بين الأعراب فتنة عند نزولنا مهارجة، فقتل واحد وارتث[3] آخر.

وبين الموضع الذي نزلنا به ومدين[4] مسيرة نصف يوم، وهي بلدة على ساحل البحر كثيرة الفواكه والمياه الغزيرة، وسكانها أعراب أهل بادية، وكانت

---

(1) الصقب: ولد الناقة: لسان العرب: صقب.
(2) سماه ابن مليح أم العظام: أنس الساري والسارب، ص: 71.
(3) ارتث: الرثية: انحلال الركب والمفاصل: لسان العرب: رثث.
(4) مدين: تقع على بحر القلزم، وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب، ومدين اسم القبيلة، وهي في الإقليم الثالث، طولها إحدى وستون درجة وثلث، وعرضها تسع وعشرون درجة، وهي مدينة قوم شعيب: معجم البلدان: مدين.

قبل ذلك مدينة، وأخبرونا أن أثر البناء باق فيها إلى الآن، وعلى يسار مترلنا خارج المضيق مغارة يقال إنَّ فيها كان شعيب عليه السلام يأوي بغنمه، وبإزائها بئر كبيرة معطلة، وبجانبها بركة، ويقال إن هناك كانت البئر التي سقى منها موسى عليه السلام غنم شعيب عليه السلام، وفي ذلك الوادي دوم طويل كأنه نخل، وعريش كثير في الوادي، وهو محل مخافة قل ما يخلو من لصوص أعراب.

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا بعيون القصب[1]، وهو ماء جار في مضيق بين جبلين في محل كثير القصب والديس، وفي أعلى الوادي نخل[2] وأرض صالحة للحرث قلَّ ما يخلو ذلك المحل من أعراب نزول به، فيكثر الخوف ويعظم ضررهم، سيما عند نزول الليل، فطلع أمير الركب ومعه الرماة حتى حاذوا على الوادي، بقوا هناك حتى استسقى الناس كلهم وأخذوا حاجتهم من الماء، وروت الإبل فرجعوا بعد العشاء. وعلى شفير الوادي عند مترل الركب مسجد مبني بالحجارة المنحوتة ومنبر بإزائه. ثم ارتحلنا منه ونزلنا إلى ساحل البحر، و لم نزل نسايره إلى بندر المويلح[3]، ونزلناه بعد العصر، وماؤه كثير، وفيه آبار كثيرة وبساتين حسنة ونخل، وهناك حصن كبير فيه عسكر وأمير، ويخزن فيه الميرة والفول كثيراً، وعلى بابه سوق كبير يوجد فيها غالب المحتاج، وفيه مقاثي كثيرة من دلاع وبطيخ وغير ذلك، وبه مرسى حسنة تترل بها السفن القادمة من سويس والقادمة من جدة ومن القصير[4]، وكان الهواء، يوم نزولنا فيه ويوم إقامتنا، بحرياً بارداً، وبالجملة من يوم خروجنا من مصر إلى المويلح لم نرَ حراً شديداً ولا مشقة فادحة ولا خوفاً موحشاً ولا عطشاً مؤلماً، لم نزل نتعرَّف من الله الخير والبركة وغاية الرفق واللطف في أنفسنا وأموالنا ودوابنا، نسأل الله أن يكمل علينا بالخير.

[متقارب]

كما أحْسنَ اللهُ فيما مضَى كذلكَ يُحْسِن فيما بَقي[5]

---

(1) عيون القصب: مورد فيه روضة قائمة، ذكروا أنها لسيدي سلامة، يقصدها الزوار: أنس الساري والسارب، ص: 71. رحلة العبدري، ص: 161.
(2) في ط: محل.
(3) المويلح: قصبة على شاطئ البحر: أنس الساري والسارب، ص: 71.
(4) القصير: مرسى المراكب، وهو أقرب موضع في بحر القلزم إلى قوص: معجم البلدان: القصير.
(5) البيت للإمام علي بن أبي طالب: ديوان الإمام علي، ص: 135.

غريبة:

ذكر المنجمون أن الشمس إذا كان رجوعها الصيفي في أول الليل أو ما يقرب منه يكون العام بارداً، وإذا كان في آخر الليل أو أول النهار يكون حاراًّ. وذكر لي بعض الإخوان بمصر أن المقومين ذكروا أن هذا العام معتدل حسن، ونحن لا نعتمد في ذلك إلا على فضل الله وبركة رسوله وهم الصالحين من عباده المؤمنين ودعاء إخواننا الحاضرين والغائبين، والله تبارك وتعالى يُلَطِّف[1] بنا ويصلح أحوالنا بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وكان نزولنا بالمويلح يوم الجمعة الثالث عشر من شوال، وهو الموفى عشرين ومن يُثنّيه من الشهور العجمية، والله يجعل العاقبة خيراً.

وعلى شاطئ البحر قرب مترل الركب،على مرقب، قبر سيدي محمد والد الشيخ عبد الكريم الفكون القسمطيني[2] وعليه بناء، وقد زرناه وتبَرَّكنا به. وأقمنا هناك يومين أحدهما مع المصري والآخر بعد ارتحاله، وهناك أخذ الناس فولهم الذي اكتروا على حمله عرب بني عطية من مصر، ولم يضع لأحد منه شيء[3]، فخزن الناس منه هناك ما يحتاجونه في الإياب إلى العقبة، وأكروا على الباقي إلى ينبع، والذين يكرون من هناك في الغالب عرب بلي، وبلادهم من هناك إلى قرب الينبع حيث بلاد جهينة.

وممن منَّ الله علينا بلقائه هناك رجل من الصالحين من أهل الجذب اسمه الشيخ محمد العبدلي، وأصله من ريف مصر، دَلّنا عليه صاحبنا الشيخ أحمد المجذوب المصري، وأخبرنا أنّ لهذا الشيخ في هذا المكان أزيَد من عشرين سنة، فذهب معنا إلى زيارته فوجدناه على سور الحصن وهو يجمع تراباً بكلتا يديه فكَلّمناه، ودعا لنا دعاء كثيراً وقال لنا: حركوا معي في هذا التراب، فمن حرك حصلت له بركة، فامتثلنا أمره. وهو رجل قد طعن في السن ليس عليه إلا قميص،

---

(1) في ط: يرفق.

(2) عبد الكريم بن محمد الفكون القسنطيني، أو القسمطيني، أديب من أعيان المالكية، كان يلي إمارة ركب الجزائر في الحج، من كتبه: "شرح نظم المكودي"، و "حوادث فقراء الوقت"، و "رسالة في تحريم الدخان"، توفي عام 1073 هـ: اقتفاء الأثر، ص: 163- 164. نشر المثاني 2:130 صفوة من انتشر، ص: 251..الأعلام 4:56.

(3) في ط: شيء منه.

وهو محلوق الرأس، كلما اجتمع عليه ناس فَرَّ منهم، وربما هرول في هروبه من الناس، ثم عاودت إليه آخر اليوم وزرته أيضاً وأقمنا بالمويلح يومين.

تتمة: قال الشيخ البكري، رضي الله عنه، في ذكر المراحل التي من العقبة إلى المويلح: ثم سرنا إلى مرحلة يقال لها ظهر الحمار، وهي محطة عالية كثيرة الأوعار يصعد إليها من عقبتين، واليمنى أوسع من اليسرى في المسلكين، قال الشاعر[1]:

[كامل]

صَعدُوا على ظَهْرِ الحِمَـار لعلَّهمْ أن يَبلغُوا بصعودِهِمْ كُلَّ الأمَلْ

تعِبَ الجِمارُ منَ الطريقِ وطولِهَا ومديدِها واجْتثَّ من بعْدِ الرمَلْ

حتى الجِمالُ بهِ شلَتْ[2]: يا هلْ ترَى تقبلْ بهِ عُذْرَ الحمارِ أو الجمَلْ

ومدة المسير إليها ثمانية من الساعات محررة عند أهل الميقات. ثم سرنا إلى ما بين الجرفين، وهو مكان كأن الجبال قد قسمت به شطرين، يحترز منه أن يقذف بالحجاج في أيام السيل إلى البحر الملح الأجاج، قال الشاعر ملغزاً فيه[3]:

[وافر]

وخمسةُ أحْرُفٍ في اللفظِ تُقْرا فإنْ صحفْتَها صَحتْ بحَرْفَيْنْ

وإنْ أسْقطْتَ خُمْسَاها[4] فيَبْقَى ثلاثةُ أحْرُفٍ مِنْ أصْلِ أَلْفَيْنْ

ومنها إلى الشرفة، وهي بطول السير متصفة، تتعب فيها الجمال ولو رحلت بلا رحال، لما فيها من الأوهاد والطلوعات الشداد، وخلف جبالها قبيلة بني عطية المعروفين بالسرقة والأذية، قال الشاعر[5]:

[مجزوء الوافر]

إذا ما جئْتَ للشرْفَهْ ترَى العربَانَ مُخْتلِفَهْ

---

(1) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 221.
(2) في ط: ثلت.
(3) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 221.
(4) كذا في خ ط.
(5) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 221.

وأمـــا العِــــيسُ فاجْعَلــــها بجـــنْسِ الحفْـــظِ مُنْتَـــصِبَةْ
فـــإنْ مُنعَـــتْ بحَارِســـها وإلا فهْــــيَ مُنْـــصرِفَةْ

ومدة المسير خمس عشرة ساعة من غير ريب، وبعده المغار المعروف بمغار شعيب، وهو غار تتبَرَّك به الناس وترى فيه الحظ والإيناس، وبه المـاء العـذب والتحليل، وشجر المقل والأثل والظل الظليل، قال الشاعر[1]:

[خفيف]

قـد وَصَـلنا إلى مَغـارِ شُـعَيْبْ فرأينـا الميـاهَ كالأنْهـارْ
فاسْـتَقيْنا مـن مائِـهِ واشْـتفيْنَا وظفرْنـا بغايَـةِ الأوطَـارْ
وذكَرْنـا بغـارِهِ غـارَ ثَـورْ مـنْ حـوَى للـصديقِ والمُختـارْ
خيْـر مـنْ أنْـزلَ الإلـهُ عليْـهْ (ثَانيَ اثنَـيْنِ إذْ هُمـا في الغَـارْ)[2]

ومدة المسير ثمان عشرة ساعة مُحَرَّرة عند أهل الصناعة، ثم منها إلى عيـون القصب، إذا نظر إليها العاجز أذهبت عنه الوصب، لأن خضرها نضرة والأشجار بها منتظمة ومنتشرة، قال الشاعر[3]:

[رمل]

قـد وَصـلنا لعُيـونِ القـصَب واسْتراحَ القلـبُ بعـدَ النـصَب
وعيونُ المـاءِ فيهـا قـد جـرَتْ كـسُيولِ الغيـثِ بـين القَـصب
فجلـسْنا في صـفاءِ حولَهـا وظفرْنـا عنـدهَا بـالأرَب
وتـشَوَّقْنا لـشادٍ مُطْـرِب يَـتغنى بعُيـونِ القـصَب

(1) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 222.
(2) تضمين لقوله تعالى: (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم): التوبة: 40.
(3) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 222.

ورأينا مجاوراً لتلك العيون نسوة من العرب يوصفن بحسن العيون، ويتعاجبن بضفائر الشعور، فيمنعن من عقل الحب الشعور، كأنهن الأقمار، وكأنما نبتت في وجناتهن الأزهار، فكان قطْع المفاوز والأوعار كالمنتزهات في الرياض والأزهـــار، قال الشاعر في بدوية اسمها ساكتة[1]:

[طويل]

برُوحــــيَ أفْـــدي ظبيـــةً بَدويـــة لها وِجْنـــة فيهـــا الأزاهِـــرُ نَابتـــةْ

إذا رُمْتُ منها أن تُكلمـــني غـــدَتْ تُكلمُـــني ألحاظُهـــا وهْـــيَ ســـاكِتةْ

ومدة المسير إليها أربع عشرة ساعة وثلاثة من الدرج، يتعب في سيرها من ركب ومن درج. ثم ارتحلنا منها إلى بندر المويلح المشهور، ورأينا بساحله المراكب من السويس والطور[2]، فيا له من بندر فاق البنادر، يأتي إليه الوارد والصادر، وبه جملة من الكروم التي تذهب برؤيتها الهموم، وبمخازن القلعة تودع الودائـــع، وإلى سوقها تساق نفائس البضائع من ثمار تجلبها العرب، وزلابية[3] عجينها كاللجين، فإذا قُليت أشبهت الذهب.

وبهذا البندر رجل من أرباب الأحوال حاز رتبتي الجلال و الجمال، صاحي مجذوب، تميل إليه مهجة[4] القلوب، وله أسرار ظاهرة ومكاشفات باهرة، يعتقده الناس، ويحصل لهم به الإيناس، ولا يعرف الدرهم ولا الدينار، ولا يقبل إلا القوت عند الاضطرار، لباسه جُبَّة من صوف، ورأسه في غالب الأوقات مكـــشوف، إن نطق تكلم على الخواطر، وإن صمت نطقت عليه ألسنة الناس بالثنـــاء العـــاطر، ويكسوه المارة العدد فيقبلها ويعطيها لمن وجد، لأن من رآها عليه يطلبها فيدفعها إليه، وهذا شأن الكرام الذين قطعوا علائق الدنيا على الدوام، فأقمنا بهذا البنـــدر ثلاثة أيام، وبعدها طوينا المضارب والخيام، ومدة المسير ثلاث عشرة ساعة وخمس من الدرج في علم الصناعة، انتهى كلام الشيخ البكري، رضي الله عنه، فلنرجـــع إلى ذكر المنازل بحسب سيرنا في هذه السنة فأقول:

(1) ورد البيتان في المصدر السابق.
(2) طور سيناء: اسم جبل بمصر يقع قرب أيلة: معجم البلدان: طور سينا.
(3) في ط: زلافية.
(4) ساقط من ط

ارتحلنا من المويلح يوم الاثنين ومررنا بالموضع المسمى بدار أم السلطان، و لم نترل فيه وتجاوزناه، وسلكنا في المضيق المُسَمَّى بشق العجوز[1]، ونزلنا على شاطئ البحر قريباً من مترل الركب المصري، ووجدنا هناك شرذمة من الأعراب يبيعون العلف، وعن يسار مترلنا جبال سلمى وكفافة[2].

ثم ارتحلنا من هناك يوم العنصرة[3]، ومررنا صباحا بقبر سيدي مرزوق الكفافي[4] على ساحل البحر، عليه أعواد قد عُلِّم بها عليه، والناس يتبرَّكون به. ونزلنا ذلك اليوم ببندر الأزلم[5] عند العصر، وبه ثلاثة آبار كبيرة محكمة البناء وماؤها غزير إلا أنه زعاف يصلح للإبل ولضرورة الناس من غسل وأشبهه، ولا يسيغه إلا المضطرون، وعلى يسار البندر بعيداً عن الآبار حساء محفور في أرض ليس بمطوي، ماؤه أحسن من ماء الآبار إلا أنه قليل ولا يعرفه الكثير من الناس، وهذا البندر قليل الجدوى لقبح مائه وقربه من المويلح ومن الوجه[6]، وهما أتم منه منفعة فليس فيه كبير فائدة، وقد انهد ما في داخله من البيوت وتثلم بعض صوره، والخلاء أقرب إليه من العمارة:

[طويل]

إذا لم يكُن فيكُن ظِلٌّ ولا جَنى فأبعدكُن اللهُ مِن شجرَات[7]

ثم ارتحلنا من الأزلم[8]، ومررنا بين جبلين، وسرنا في مضايق وعقاب صغار إلى أن وصلنا المكان المسمى اصطبل عنتر عند العرب، وفيه ثلاثة آبار محكمة البناء بحجر منحوت، وماؤها حلو إلى الغاية إلا أنه ضنين أنزحته الدلاء بسرعة، وبات الناس ليلتهم يتربضونه تربضا ولأيا بعد لأي ما كفاهم للشرب، و لم ترد منه الإبل.

---

(1) شق العجوز: موضع صحرا: أنس الساري والسارب، ص: 71.
(2) كفافة: جبل على يسار الطريق كما حدده العبدري. رحلة العبدري، ص: 161.
(3) العنصرة: هو اليوم الرابع والعشرون من حزيران، وفيه ولد زكرياء بن يحيى عليهما السلام.
(4) ذكره ابن مليح في رحلته: أنس الساري والسارب، ص: 71.
(5) سماه ابن مليح بئر الأزلم: أنس الساري والسارب، ص: 71.
(6) الوجه: قصبة بين جبال خارجة عنها الآبار: أنس الساري والسارب، ص: 72.. رحلة العبدري، ص: 161.
(7) البيت لابن صارة الشنتريني الأندلسي: لمح السحر من روح الشعر، ص: 166.
(8) في ط: الأزلام.

ثم ارتحلنا منه ومررنا بوادي الأراك، وهو واد واسع يأتي من ناحية الشمال والبحر عن يمينه قريبا منه، وفيه كثير من شجر الأراك الأخضر الناعم، ثم تجاوزنا منه إلى مضايق بين فدافد[1] من أجبل ذات حدور وصعود، فجئنا عشاء[2] لبندر الوجه عند الاصفرار وفيه حصن حصين في جرف واد كبير يخرج من بين جبلين والناس يتهيبون النزول في أصل الوادي إذا كان وقت السيول فيرتفعون عن جنبي الوادي. وفي الوادي عدة آبار بعضها حسن بمهملتين[3]، وبعضها بمعجمتين، والتي فوق البندر أحسن من التي تحته. وداخل البندر بئر تسقي بالبقر وتصب في ثلاث برك خارج البندر لصق حائطه، إحداهما من بناء الأمير رضوان في آخر أيامه، والثنتان من بناء مملوكه الأمير غيطاس عام تولى إمارة الحاج بعد مولاه، والبرك الثلاث ملاصقة لسور البلد وصورتها:

	رضوان	

أوسطها للأمير رضوان، وهي الكبرى. وفي أعلى الوادي بين الجبلين ماء يسمى الزعفران، وماؤه طيب إلا أنه قليل، فإذا كثر الزحام على الآبار طلع إليه أهل الجرأة من الناس، وربما هجمت عليهم العرب هناك فيقع بينهم قتال، إلا أن الموضع قريب من البندر فيغاثون.

واستقى الناس ما احتاجوا إليه من الماء، وأوردوا إبلهم وبالغوا في حمل الماء لأنهم استقبلوا المياه القبيحة والمسافة العويصة التي ليس في الدرب أصعب منها؛ لتوالي المياه القبيحة فيها وبعد العمارة وشدة الحرب لقربها من بلاد الحجاز، بل غالبها منه، وسوء أخلاق عربها. وخزن الناس في بندر الوجه ما يحتاجون في الإياب من طعام وعلف، وكذلك يفعلون في كل بندر مروا به من مصر في الغالب، وآكد المواضع للخزن هذا لأن الركب في الإياب قد يسبق الملاقي التي من مصر إلى هذا المحل فيغلى فيه الفول والطعام غاية حتى تعجز عنه الأثمان في بعض

(1) الفدافد: جمع فدفد، وهي الفلاة التي لا شيء فيها: لسان العرب: فدد.
(2) ساقط من ط.
(3) يقصد أن بعضها حسن وبعضها خشن.

الأوقات، ولأجل اشتغال الناس بالخزن وكراء الحوامل[1] لطرح الأمتعة تأخر رحيل الناس من هذا البندر إلى أن متع النهار[2]. وفي هذا البندر طائفة من العسكر كغيره من البنادر ولهم أمير، وهو آخر البنادر التي في طريق الدرب وليس بعده عمارة إلى الينبع الذي هو أول عمارة ببلاد الحجاز على طريقنا.

تتمة:

قال الشيخ البكري، رضي الله، عنه في ذكر المراحل من المويلح إلى الوجه ما نصه: ثم سرنا من المويلح إلى دار السلطان التي هي لعرب البادية أوطان، ونزلنا بوادي سلمى وكفافة، وحصل مزيد الأمن بعد المخافة، وخلف جبلها الغربي البحر الأصيل، وبجانبه القصطل البري منتظم كالنخيل، وحفائر مائها عذب بارد يشرب منه الغادي والوارد، قال الشاعر[3]:

[خفيف]

إن وادِي سلمَى بَهِيٌّ بَهِيج — حيثُ فيهِ قبرُ الوَلِيِّ المُسَمى

صَاحبِ السرِّ والمعارِفِ مَرزُو — قِ الكفافِي طابَ روحًا وجسْمَا

وإذا جئْتَ قبرَهُ فتأدبْ — وتوَسلْ بجاهِهِ ثم سلْ مَا

فأقمنا بتلك المرحلة الإقامة المعتادة، وحصل لنا ببركة الشيخ مرزوق في الرزق الزيادة، ومدة المسير كاف تمام، وعددها معروف من غير إيهام.

ثم سرنا إلى بندر الأزلم، ولا يرغب فيه من بحقيقته يعلم، فماؤه ملح أجاج، ما شربه إنسان إلا احتاج إلى العلاج، فأقمنا به من غير إقبال، ورحلنا منه بعد الزوال، ومدة المسير إليها ست عشرة محررة، وخمس من الدرج مقدرة.

---

(1) في ط: المواصل.
(2) متع النهار: ارتفع وبلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال: لسان العرب: متع.
(3) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 223.

ثم سرنا إلى مرحلة تسمى اصطبل عنتر، وقد اختفى بها العربان للأذى وتستر، والمسير إليها بين جبال صاعدة، وحدرات وأوعار متقاربة ومتباعدة، وبها آبار عذبة، يود كل ظمآن شربة، قال الشاعر(1):

[مجزوء الكامل]

إنْ جئتَ للإصطَبلِ لا ... تَغفلْ بهِ عندَ النزُولْ

واحْذَرْ مِن العَربِ الذي ... بجبالهِ أبدا تَصولْ

واعلَمْ – فَديتُكَ – أنه ... صعبٌ ولكني أقُولْ

قد سُمِيَ الإصطبلُ مِن ... عرَبٍ به شبه الخيولْ

ومدة المسير إليها ثلاث عشرة ساعة في العدد صحيحة الضبط والسند. ثم سرنا منه إلى وادي الأراك، وهو واد ليس لانفراد محاسنه اشتراك، وبعده دخلنا بين جبال وأوعار، ومضيق وأحجار، وحدرات طوال وصعودات وتلال، حتى نزلنا ببندر الوجه المبارك، وصار حصنه متقارباً متدارك، فرأينا به الآبار الخالية، وحفائر الماء العذب بقربه غير خالية، فأقمنا به إلى قبيل العصر، وقد زال من الناس الحصر، قال الشاعر:

[رمل]

قد دخلنا بنْدرَ الوجهِ الذي ... فيه قوتُ(2) كل عام يختزنْ

وشرِبْنا من مياهٍ عذبَتْ ... شُربُها يَجلو عنِ القلبِ الحزَنْ

نحمدُ اللهَ الذي أسْعفنَا ... ورأينا ذلكَ الوجهَ الحسَنْ

ومدة المسير إليها سبع عشرة وثلثي ساعة بالإجماع، حَرَّرها أهل العلم والاطلاع، انتهى كلام الإمام البكري رضي الله عنه.

---

(1) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 223.
(2) في ط: قدر قوت.

رجوع وانعطاف:

ثم ارتحلنا من الوجه بعدما وقع اختلاف بين مشايخ الركب في الرحيل والقيلولة، فتبع الآخر منهم الأول، وارتحل الناس جميعا. ولما تجاوزنا البندر وغاب عن أعيننا، ظهر بعض الحرامية لآخر الركب ورموهم بمكحلة، فتصايح الناس، فدفع الله كيدهم و لم نرَ أحداً منهم قبل ذلك. ثم بتنا تلك الليلة دون الأكره، وفي الغد مررنا بالأكره ظهراً، وهو واد كبير تأتيه السيول من بلاد بعيدة، يذكر أن سيل المدينة المشرفة يصل إليه، وماؤه قبيح جداً إلا أن يكون عقب سيل فيحسن، وفيه آبار كثيرة وأشجار ملتفة، والآبار المحفورة في ذلك اليوم أجود من القديمة، فأخذ الناس من مائه ما اضطروا إليه وسقوا إبلهم، وتجاوزوه بنحو فرسخين فباتوا.

وفي الغد مررنا بالموضع المسمى بئر الدركين[1] ظهراً، وهو منزل الحاج المصري، وإنما سُمِّي بذلك لأنه بين درك أعراب مصر وأعراب الحجاز، فإنَّ ما بعده من عمل الحجاز وفي درك أعرابه. و لم نبت ذلك اليوم إلا بقرب العقبة السوداء[2]، وتلك المرحلة والتي قبلها يشتد فيها الحر، وهي أرض سهلة مطمئنة ليس فيها جبال إلا ما يتراءى عن شمال المار بها، والبحر يتراءى عن يمينه، وفيها غياض من شجر الطلح، وهي من أنواع الكلأ الذي ترعاه الإبل كثيراً، إلا أن الناس لا يتركون الإبل للرعي فإن المحل مخوف تغير فيه أعراب بلي[3] وجهينة[4] وغيرهما.

ثم ارتحلنا ونزلنا من العقبة السوداء عند طلوع الشمس، وهي عقبة صغيرة في أرض سوداء ذات أحجار وأشجار، ويقال إنها أول أرض الحجاز، ولا يبعد ذلك فإن من هنالك تخالف الأرض ما قبلها وتباين الجبال ما سواها، ويشتد شبهها بجبال الحجاز السود، ويتقَوَّى الحر وتسترمل الأرض. فسرنا محاذين للبحر إلى أن نزلنا الحوراء ضحى، وقال الناس فيها وتفرقوا بين تلك الأشجار على ساحل البحر، ومياهها حفائر على ساحل البحر يحيط بها ديس كثير، وفيه ملوحة قليلة، والقريب العهد بالحفر أجود من غيره، وكلما طال في القِرَب خبث، والإكثار منها

---

(1) سماه ابن مليح: بين الدركين: أنس الساري والسارب، ص: 72.
(2) العقبة السوداء: تقع برأس الوادي: أنس الساري والسارب، ص: 72.
(3) بلي: قبيلة من قضاعة، والنسب غليهم بلوي: أسماء القبائل وأنسابها، ص: 52.
(4) جهينة: اسم قبيلة: أسماء القبائل وأنسابها، ص: 75.

يورث إسهالاً مفرطاً كماء الأكره والأزلم وعجرود، فلما وردت الإبل وأخذ الناس حاجتهم من الماء ارتحلوا ظهراً وطلعنا مع واديها الكثير الأشجار من أراك وغيره إلى أن ارتفعنا، فعدلنا يميناً إلى الوادي المسمى على ألسنة الحجاج وادي العقيق، ولا مناسبة بين الاسم والمُسَمَّى، بل تسميته بوادي العقوق أنسب لشدة جرأة أعرابه على السرقة، فهم من أجرإ الناس على ذلك، ومن أمثال الحجاج: لا رجال إلا رجال الحوراء، ولا جمال إلا جمال الدوراء، ويعنون بالدوراء الرجعة، يعني لا يعد صابراً من الجمال إلا من صبر في حال الرجوع من الحجاز، إذ هو آخر السفر ومحل قلة العلف.

ولم نبت تلك الليلة إلى أن توسطنا الوادي، ثم ارتحلنا منه أول يوم من يُلْيز وجئنا إلى وادي النبط[1] وقت الظهر، وفيه آبار أربعة محكمة البناء بالحجر المنحوت، وماؤها عذب حلو غزير في الغالب، وغزارة مياه أودية الدرب إنما تكون بحسب كثرة المطر وقلته، فإذا حمل الوادي، ولو مرة في السنة، غزر ماء سائر السنة، وقد نزل الناس بهذا الوادي إلى أن سقوا واستقوا، فارتحلوا بعد العصر وتراءت لهم حرامية فوق الجبل وتصايح الناس واجتمعوا ففروا أمامهم.

ثم سرنا هنيئة ونزلنا قريباً منه بنحو فرسخ، ثم ارتحلنا غداً وسلكنا في وادي النار[2]، وهبّت علينا ريح غربية كانت أول النهار باردة ووسطه وآخره سموماً لقي الناس منها شدة، ولم يروا أشد منه قبله، ولا يرونه إن شاء الله بعده. وألجأ الحر الناس إلى القيلولة قهرا من غير اتفاق منهم على ذلك، فكل من وجد صخرة أو شجرة التجأ إليها، وأناخوا الإبل ولم يحطوا عنها الأحمال، فكانت القيلولة أشد عليهم من السير، فلما استراحوا قليلاً وأبى الحر أن يخف ارتحل الناس وساروا في سموم وحر شديد لا يزيد مع العشي إلا شدة، وجئنا إلى الخضيرة[3] محل نزول المصري عند غروب الشمس، وتجاوزناه وسرنا إلى العشاء، وقطعنا ثلاثا من الوعرات السبع المسماة على ألسنة الحجاج بسبع وعرات[4].

---

(1) سماه ابن مليح ماء النبط: أنس الساري والسارب، ص: 72.
(2) ذكره ابن مليح في رحلته: أنس الساري والسارب، ص: 72.
(3) الخضيرة:: يقصد قرية خضرة؛ وهي من أعمال المدينة: كتاب أسماء جبال تهامة، ص: 19. معجم البلدان: خضرة.
(4) سبع وعرات: تقع بين جبال برأس وادي النار لا ماء بها: أنس الساري والسارب، ص: 72.

ثم بتنا والحر لا يزيد إلا شدة فأشفق الناس من ذلك لقلة الماء. وهذا الوادي قد طابق الاسم فيه المُسَمَّى، قلما تخلو سنة من شدة تقع للحجاج فيه بحر أو عطش أو محاربين، وهو واد كبير ضيق بين جبلين لا سعة فيه من النبط إلى الخضيرة، فإذا متع النهار واشتد الحر حجبت الجبال عنه الهواء البحري فينعكس غربياً أو شرقياً صاعداً من الوادي أو منهبطاً، فيصير سموماً محرقاً ولا ماء هناك من النبط إلى الينبوع، فربما أتلف الناسَ فيه عطشٌ مهلك، وربما أحدث ذلك سمية من الأبدان بقبح الهواء مع حرارته، فتموت المئون بل الآلاف من الخلق في أسرع مدة، ويأخذ الرجل الماء فلا يضعه من يده حتى يموت، ووقوع ذلك كثير، إنما هو في الإياب وفي الركب المصري أكثر، وقد حضرنا لطف الله الذي لا يكيف، وغمرتنا مواهبه التي لا تحصى، فلم نر في هذه السنة بأسا مع شدة هذا الحر وإفراطه فلم يمت أحد. ثم ارتحلنا من هناك قبيل الفجر، وقطعنا ما بقي من الوعرات فنظر الله إلى وفده نظر رحمة، فانقلب الهواء بحرياً، وخرجنا إلى متسع من الأرض جالت في أرجائه أرواح معتدلة، فانطفت جمرة الحر بعض انطفاء، ولولا ذلك لهلك الناس؛ فقد قل ماؤهم وتأخر بعض الإبل من شدة العطش، فخرج عليهم اللصوص بعدما قربنا الينبوع، فتصايح الناس ورجعوا إليهم، فلما أعجلوهم نحروا الجمل وفروا إلى الجبل، وقصدهم في ذلك أن يبقى لهم لحم الإبل لعلمهم أن الناس لا يأخذونه. وجئنا إلى بلد الينبوع[1] ظهراً واستبشر الناس بقدومها لأنها أول بلاد الحجاز العامرة، وفيها قرى كثيرة ومزارع ونخيل وعيون جارية، وفيها عامل لأمير مكة السلطان زيد.

وقد أخبر بعض من طلع مع وادي الينبوع أن عمرانه متصل نحو ثلاثة أيام، والقرية التي ينزل[2] بها الركب هي آخر القرى التي من ناحية البحر وليس بعدها إلا ينبوع البحر الذي هو المرسى، وغالب أهل القرى يأتون إلى هذه القرية التي ينزل بها الحاج للتسوق، وتعمر هناك سوق كبيرة يوجد فيها غالب المحتاج وتجلب إليها البضائع والسلع ذوات الأثمان، ويجلب إليها من الثمار والفواكه والحبوب والفول شيء كثير. وكان نزولنا بها في أول وقت جذاذ النخل، وأكلنا بها رطباً جيداً وبتنا بها ليلتين ريثما أصلح الناس من بعض شأنهم وأخذوا من العرب

(1) الينبوع: وصفه ابن مليح بكثرة النخيل والعمارة والأسواق: أنس الساري والسارب، ص: 72.
(2) ساقط من ط.

أكريتهم التي بعثوها من المويلح، وكان الكراء منه إلى هنا بسبعة قروش ونصف، ومن مصر إلى المويلح سبعة قروش وثلث. وأدركنا المصري هناك وبتنا معه ليلة ثم ارتحل وبتنا وراءه ليلة أخرى، وهناك وجدنا أخبار مكة والمدينة وسائر بلاد الحجاز وتعرفنا خبر رخصها وغلائها، وخصبها ويبسها، ومن هناك تجلب الميرة إلى المدينة؛ فإن السفن الجالبة للطعام من مصر ما كان منها إلى المدينة يرسي بينبع البحر، وما كان منها لمكة يتجاوز إلى جدة، فإذا وصل الطعام إلى الينبوع حمل منه إلى المدينة، تحمله أعراب تلك الناحية من بني سالم وجهينة ويتدركون بالطريق من هناك إلى المدينة، وقد خزن الناس هنا أيضا من الفول والزاد ما يحتاجونه في الإياب. وأكبر جبال تلك البلاد جبل رضوى، وهو المشرف على بلاد الينبوع، وليس هو الجبل الصغير الذي بجانب الينبوع، بل هو الجبل الكبير المشرف عليه، وإلى هذا البلد كانت غزوة العشيرة من غزواته، صلى الله عليه وسلم، ومسجد القرية الآن هو مسجد العشيرة المعدود في المساجد التي صلى فيها صلى الله عليه وسلم. قال السيد السمهودي ما نصه: ومسجد العشيرة[1] معروف ببطن ينبع[2]، وهو مسجد القرية التي ينزلها الحاج المصري.[3] ولابن زبالة[4] أن النبي، صلى الله عليه وسلم، صلى في مسجد ينبوع بعين بُولا[5].

قلت: وعنده أيضا عين جارية لكنها لا تعرف بهذا الاسم، هـ.

وقد دخلنا هذا المسجد وتوضأنا من هذه العين، وكان نزولنا تحت القرية، وجعلنا خباءنا تحت المزارة التي على التل المرتفع، وقد تقدم أنها لأبي الحسن النفاتي. وفي الينبع[6] أيضاً قبر الحسن المثلث فوق القرية ولم نصل إليه لبعده، وزرناه من بعيد. وفي هذا البلد موطن طائفة من الأشراف، ومنهم شرفاء بلدنا القاطنين بسجلماسة.

(1) في ط: العسيرة.
(2) في ط: الينبوع.
(3) وفاء الوفا 3:457.
(4) ابن زبالة: إخباري نسابة، له من الكتب: كتاب أخبار المدينة: الفهرست 1:158.
(5) وفاء الوفا 3:458.
(6) في ط: الينبوع.

تتمة:

قال الشيخ البكري، رضي الله عنه، في ذكر المراحل من الوجه إلى الينبع[1] ما نصه: ثم سرنا من الوجه إلى مفرش النعام، ثم إلى حدرات وآكام وأماكن يرى منها البحر الأجاج، وشدة تلاطمه بالأمواج، ثم إلى حدرات كبيرة المقدار كثيرة الصخور والأوعار، ونزلنا في مرحلة يقال لها بركة أكره، وهي أرض بها حفائر ماء تكره ماؤها من المذاق، من تقيد بشربه حصل له الإطلاق، فهي مرحلة لا ترتاح بها النفوس ولا يضحك بها العبوس، قال الشاعر[2]:

[سريع]

يا مَنْ أتى أكْرَه في سَيْرِهِ أبْشِرْ بنَيلِ القصْدِ والمِنةْ

لا تكرهِ المكروهَ في أكْرَهْ فبالمكارِهِ حُفتِ الجَنةْ

ومدة المسير إليها تسع ساعات بتمامها، وثلث ساعة ثابتة في أحكامها. ثم سرنا منها إلى مرحلة يقال لها الحنك، ولها من بين القرى اسم مشترك، بين فضاء واسع المجال ومراعي أعشاب للجمال، إلا أنها خالية من الماء للوارد، والإقامة بها إنما هي على طريقة السير المعتاد، ومدة المسير إليها أربع عشرة ساعة من الزمان حررها أهل الإتقان. ثم سرنا منها إلى العقبة السوداء المشتهرة، وقطعنا مفاوزها ونزلنا بالحوراء النضرة، وهي مرحلة رملها غزير ومحاطبها كثير، وبها شجر الأراك الأخضر، والماء من حفائر رملها يتفجر، قال الشاعر[3]:

[كامل]

جئنا إلى الحَوْراء وهْيَ محَطة فيها الأراكُ نزاهةٌ للرائي

ناديْتُ خِلي[4] قِفْ بها متأملا وانظُرْ لرملِ مُغمَرٍ بالمَاءِ

واغْنم زمانًا مُقبلا بسُعودهِ فيهِ اجتماعُ الشملِ بالحوْراءِ

(1) في ط: الينبوع.
(2) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 225.
(3) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 225.
(4) في ط: خلا.

ومدة المسير إليها في جمل الأعداد، حررها أهل الإرشاد. ثم سرنا منـــها إلى مفازة نبط، وهي حد عربان جهينة في الشيل والخط، وبطرقها مضايق وحدرات وجبال راسيات شامخات وشجر أثل كالنخيل وحفائر ماء عذب يشفي العليـــل، قال الشاعر[1]:

[متقارب]

وفي أكـــــرهِ والـــــتي بعـــــدهَا   مــــرارَة مــــاءِ تزيـــدُ القـــسَاوةْ

فجئنَـــا إلى نـــبْط نـــشكُو الظمَـــا   فأنْعـــشَنا ماؤُهـــا والطـــلاوَةْ

ولمـــا صَـــبرنا علـــى غيْرهـــا   فأعْقَبنـــا صـــبرُنا بـــالحَلاوةْ

ومدة المسير إليها عدد كان، وهي عشرون ساعة من غير اختلاف. ثم سرنا منها إلى هراهير[2] الراعي، وهي مكان تحمد فيه المساعي، وهي جبال سود فـــوق الجبال، وتُسَمَّى أيضاً بالأباطح كما يقال، ثم إلى وادي يُسَمَّى وادي النار، وهـــو واد بين جبال وعر وغبار. ثم نزلنا بالخضراء، وقيل الخضيرة بالتصغير، وهي مـــن أعمال بندر ينبوع في المسير، قال الشاعر[3]:

[كامل]

أنظُرْ إلى الخضْراءِ واغْـــنَمْ بـــسْطهَا   تلقَـــى رُباهـــا نُزهـــةً للرائِـــي

فلرب حشاش شـــكى مـــن همـــه   قـــد زالَ عنـــهُ الهـــمَّ بالخـــضْراءِ

ومدة وصـــولنا إليهـــا في المـــسير   [اثنا عـــشر ســـاعة بالتقـــصير][4]

ثم ارتحلنا منها واستقبلنا ذلك الوعر، ورأينا أول الوعرات قد ظهر، وهـــي سبع وعرات كبيرة أصعبها الأولى والأخيرة، بين كل وعرة فضاء، وبعده عقلة في الطريق، ويليها شق جبل هائل ومضيق. ثم أنخنا الركاب ببندر ينبوع، وهـــو أول بلاد الحجاز في الذهاب وآخرها في الرجوع، به حدائق ونخيل وعيون بين زروع تسيح وتسيل، وكان به سور منيع وجامع مفرد وسيع، وبيوت فسحة الرحاب،

(1) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 226.
(2) في ط: طراطير.
(3) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 226.
(4) بياض في خ وط، والزيادة من الترجمانة الكبرى.

فآل أمرها إلى الخراب، وبه الآن سوق للحجاج يأخذون منـــه الـــذخيرة عنـــد الاحتياج، وبه أفران وحيتان كبار، وعشش[1] تسقى فيها القهوة من أيدي الجوار، قال الشاعر[2]:

[رمل]

حَبـــذا بَنْـــدرُ ينبُـــوعِ ومـــا ... في رُبـــاهُ مـــن رِيـــاضٍ وعُيـــونْ

وسُـــقاة مـــن مِـــلاحٍ نُهَّـــد ... يَصْرَعَنَّ الصب مْـــن نبْـــلِ العيُـــونْ

فارتَحِلْ عنهن واذهَـــبْ وانتـــصِحْ ... فإذا[3] خَالفـــتَ أذْهبْـــتَ العيُـــونْ

وجميع تلك الأسواق خارجة عن المساكن، ويعم نفعها الساكن والظاعن، فنصبنا بهذا البندر الخيام، وأقمنا به ثلاثة أيام، ومدة السير إليها سبع عشرة ساعة في العدد محررة في ميقاتها صحيحة السند، انتهى كلام الشيخ البكري رحمه الله.

رجوع وانعطاف:

ثم ارتحلنا من ينبوع، وسرنا يومنا في رمال ليست بالقوية وأشجار قليلة إلى أن نزلنا بموضع يُسَمَّى السقائف، ويقال له دار الوقدة[4]، يقدون فيهـــا الـــشمع الكثير، يستصحبه الناس معهم من مصر لذلك ويبيعونه في الركب، ويجعلونه على أقتاب الجمال بالليل، فترى الركب كله كأنه من أعظـــم المـــساجد المـــسْرجة مصابيحها في أحد المواسم، وشاع عندهم أنَّ الصحابة في غزوة بدر أوقدوا هنـــا نيراناً كثيرة فنحن نتشبَّه بهم. وتلك غفلة منهم وخطأ من وجهين: أحـــدهما أن وقوع الأمر بإيقاد النيران إنما كان في غزوة الفتح بمرّ الظهران[5] كما هو معروف في كتب السير، وأما بدر فلم يقل فيها أحد ذلك. وثانيها: لو سلم أن ذلك وقع

---

(1) عشش: العشة من الشجر: المفترقة الأغصان التي لا تواري ما وراءها (لسان العرب: عشش)، و المراد بها هنا المكان المتخذ من أغصان الشجر كمسكن.
(2) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 226.
(3) في خ وط: فإن، والصواب ما أثبتناه.
(4) وقف عليها ابن مليح في رحلته: أنس الساري والسارب، ص: 72.
(5) الظهران واد قرب مكة وعنده قرية يقال لها مر تضاف إلى هذا الوادي، فيقال: مر الظهران، وبمر الظهران عيون كثيرة ونخيل: معجم البلدان: الظهران.

فيها فقد كان لإرهاب العدو وإظهار قوة المسلمين وكثرة عددهم، فحيث لا عدوّ فلا معنى له.

ولا شكَّ أن الفرح بنصر الله أولياءه على أعدائه والاستبشار بالأماكن التي أعزّ الله فيها الإسلام أمر مطلوب مستحسن، ما لم يؤد ذلك إلى محظور، مثل اعتقاد أن الوقود سنّة متبعة، بل ربما ظن بعضهم أنها من أفعال الحج، فلتعظم بغير ذلك من فرح وسرور وصدقة وعبادة وإعلان بشكر. وقد جاءني كثير ممن لا شمع عنده يستفتون ويقولون: لا شمع عندنا فهل يلزمنا شراؤه ممن هو عنده؟ ظانّين أن ذلك من مناسك حجهم وشعائره، وكم مثلها من بدعة محدثة يرى الناس أنها من أعظم القربات، نسأل الله أن يميتنا على سنة النبي المستقيمة التي[1] (لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً)[2].

ثم ارتحلنا من دار الوقدة ومررنا بعد طلوع الشمس تحت جبل الرمل الكبير المشرف على بدر، بينه وبين الجبل الأخضر[3] الأيمن. وكنت ممن تَجَشَّم الطلوع إلى أعلى الجبل رجاء سماع ما يؤثر أنه يسمع هناك من صوت الطبل، ولم أسمع شيئاً، وقد زعم كثير من الحجاج أنهم سمعوه.

لطيفة:

وقد ذكر الإمام ابن مرزوق[4] في شرحه على البردة[5] ما نصه: ومن الآيات ببدر الباقية ما كنت أسمعه من غير واحد من الحجاج أنهم إذا اجتازوا بذلك الموضع يسمعون كهيئة طبل ملوك الوقت، ويرون أن ذلك لنصر أهل الإيمان. قال: وربما أنكرت ذلك، وربما تأولته بأن الموضع لعلّه صلب فيستجيب فيه حوافر

---

(1) ساقط من ط.

(2) طه: 107.

(3) في ط: الآخر.

(4) محمد بن محمد بن أحمد، ابن مرزوق التلمساني، فقيه حافظ، حج سنة 861 هـ، ولقي في رحلته عددا من الأعلام منهم ابن حجر، توفي سنة 901 هـ: لقط الفرائد، ص: 275. شجرة النور الزكية 387:1. فهرس الفهارس 525:1.

(5) الإشارة هنا إلى قصيدة البردة الموسومة بالكواكب الدرية في مدح خير البرية للشيخ شرف الدين أبى عبد الله محمد بن سعيد الدولاصى ثم البوصيرى المتوفى سنة 694 هـ، وهى 262 بيتا، عليها عدة شروح منها شرح أبي عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق التلمساني الذي سماه: الاستيعاب لما فيها من البيان والإعراب، وله شرح آخر سماه: إظهار صدق المودة في شرح قصيدة البردة: كشف الظنون 1331:2.

الدواب. وكان يقال لي: إنه دهس رمل غير صلب، وغالب ما يسير هناك الإبل، وأخفافها لا تصوِّت في الأرض الصلبة، فكيف بالرمال؟ قال: ثم لما منَّ الله تعالى بالوصول إلى ذلك الموضع المشرف نزلت عن الراحلة أمشي، وبيدي عود طويل من شجر السعدان، المسَمَّى بأم غيلان، وقد نسيت ذلك الخبر الذي كنت أسمع، فما راعني وأنا أسير في الهاجرة إلاّ واحد من عبيد الأعراب الجمالين يقول: تسمعون الطبل! فأخذتني، لما سمعت كلامه، قشعريرة بيّنة، وتذكرت ما كنت أخبرت به، وكان في الجو بعض ريح فسمعت صوت الطبل وأنا داهش مما أصابني من الفرح أو الهيبة أو ما الله أعلم به، فشككت وقلت: لعلّ الريح سكنت في هذا الذي في يدي وحدث مثل الصوت، وأنا حريص على طلب التحقيق بهذه الآية العظيمة، فألقيت العود من يدي وجلست إلى الأرض، أو وثبت قائماً، أو فعلت جميع ذلك، فسمعت صوت الطبل سماعاً محققاً، أو صوتاً لا أشك أنه صوت طبل وذلك من ناحية ﴿...﴾[1] ونحن سائرون إلى مكة المشرفة، ثم نزلنا ببدر فظللت أسمع ذلك الصوت يومي أجمع، المرّة بعد المرّة، قال: ولقد أخبرت أن ذلك الصوت لا يسمعه جميع الناس. انتهى.

وقال الإمام المرجاني رحمه الله تعالى: وضربت طبلخانة النصر ببدر فهي تضرب إلى يوم القيامة، نقله عنه السيد السمهودي في تاريخه الكبير والصغير[2].

قلت: وقد كثر كلام الناس في هذه المسألة، وإذا ذكر من يوثق به كابن مرزوق وغيره أنهم سمعوه فالصحيح أن بعض الناس يسمعه دون بعض.

وقد مررت ببدر سبع مرات وأنا في كلها ألقي البال لذلك فلم أسمع شيئاً أتحققه، وفي هذه المرّة سمعنا بعد ما قربنا من البندر صوت طبل محقق، فإذا هو طبل بعض أمراء الركب كان متأخراً وراءنا، وتحققنا ذلك بجلوسنا حتى مرّ بنا، وكثير من الناس ممن لم يتحقق ذلك زعم أنها الطبلخانة المذكورة. وقد سألت عن هذه المسألة محقق زمانه شيخنا سيدي أبا بكر السجتاني[3]، رضي الله عنه، فقال لي:

---

(1) بياض في خ وط مقدار كلمة.

(2) يقصد خلاصة الوفا ووفاء الوفا للسمهودي.

(3) أبو بكر بن يوسف السجتاني، أو السكتاني، عالم فقيه رحالة، رحل إلى المشرق ثلاث مرات، جاور بمصر والحجاز، وسافر إلى القدس، صحبه العياشي في رجوعه إلى المغرب، توفي سنة 1063 هـ: اقتفاء الأثر، ص: 115.

كنت حريصاً على تحقيق ذلك، وقد مررت ببدر نحواً من سبع وعشرين مرة فلم أسمع شيئاً أتحققه، والعلم عند الله.

قلت: وهذه المسألة مثل ما شاع على ألسنة الحجاج أنهم يرون الأنوار مشرقة من يوم قربهم من ينبع[1] ويقولون: إن وادي النار اسمه وادي النور لأجل رؤيتها منه، فحرف الناس التسمية. وقد ألقيت البال لذلك فكلما قالوا: إنهم رأوا الأنوار نظرنا فإذا هو بروق تخفق في بلاد بعيده، وتحققنا ذلك بظهوره مرّات كثيرة في غير ناحية المدينة، وتارة في ناحيتها، ويتصل خفقانه حتى يقرب إلينا فنتحقق أنه برق، أو تظهر إمارات أخر تحقق ذلك، مثل رؤية غيم متراكم وصوت[2] رعد.

وأرض الحجاز معروفة بكثرة البرق، وكثير من الحجاج يصمّمون على أنها أنوار ولو ظهرت الإمارات، ولو كان من غير ناحية المدينة. وقد سألت أيضاً شيخنا أبا بكر السجتاني، رضي الله عنه، عن هذا فقال لي: كنت أتأمل ذلك كثيراً فلم أرَ شيئاً مما يزعمه الحجاج إلا البرق، نعم قال لنا رضي الله عنه: الذي لا يُمترى فيه إنه نور النبي، صلى الله عليه وسلم، حقيقة، وإن كانت جميع الأنوار من نوره، ما عاينّاه مراراً ونحن مجاورون بالمدينة المشرفة، في الحرم الشريف، فإنا نجلس أحياناً نهاراً حتى يستفيض من ناحية الحجرة ما يخالف ضوء النهار، فيغشى الحرم الشريف كله فيراه الناس. قلت: ولعلَّ هذا الذي ذكر شيخنا، رضي الله عنه، خاص أيضاً به وبأمثاله ممن تنوّرت بصائرهم فاستنارت بنورها[3] أبصارهم، فيشاهدون الأنوار المعنوية محسوسة، وإلا فكثير من الناس لا يشاهدون ذلك (والله يختصُّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم)[4].

وفي آخر المضيق الذي بين الرمل والجبل عريش إلى الآن، يزعم الناس أنّه موضع العريش الذي بُني للنبي، صلى الله عليه وسلم، يوم بدر، وأن ذلك موضع الوقعة[5] وليس به.

(1) في ط: ينبوع.
(2) في ط: أصوات.
(3) في ط: بها.
(4) البقرة: 104.
(5) في ط: الواقعة.

ونزلنا بدراً ضحى، بعدما حمى النهار، وهي قرية حسنة ذات نخيل وماء عذب، فيه بركة كبيرة تكفي الأركاب كلها ومادّها من عين هناك، وعلى ذلك البلد أنوار تلوح، ورياح النصر تغدو وتروح، وينشرح فيه الصدر والقلب، ويتجلى فيه بصفة الجمال لكل مسلم الربّ، سبحانه وتعالى، ومعالم النبوة لا تخفى، ومواطن أقدام الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه لا تعفى.

وقد ظهرت على أهل هذا البلد بركة الرسول معلنين بذلك، فأسعارها -في الغالب- أرخص من غيرها، مع صغرها وانقطاعها عن البلاد، وأهلها محفوظون، آمنون مطمئنون، مع سوء أخلاق عرب صبح المجاورين لهم.

وكان نزولنا خارج البلد بينه وبين الجبل، بالقرب من مقابر الشهداء، وقد زرناهم في محلهم، وعليهم جدار قصير محيط بقبورهم. وبالقرب منهم قبور السادات الأشراف الرّدينيّة من أهل اليمن، نزل أسلافهم بهذا البلد، ولهم أتباع في طريق القوم ومجلس ذكر، وكبيرهم اليوم السيد الغيث وقد زرته ودعا لي.

وزرنا المسجد المُسَمَّى بمسجد الغمامة، وهو موضع العريش يوم الوقعة ببدر، كما نصّ عليه غير واحد.

وانشرحت صدورنا بالمشي في أزقّة القرية وبين بساتينها المشرقة النضرة كأنما نخلها، من شدة خضرته ونعومته وإشراقه عراجين الثمار المصفرّة والمحمرّة بينها أغصان شجرة طوبى، ولم نألُ جهداً ما سرنا في أرجائها وجلنا في أقطارها عسى أن تطأ أقدامنا في موطئ قدم أحد أصحاب الرسول، ولو تحققنا موضع قدم واحد منهم لكان لثمه بالوجه غاية المنى والسول.

وقد بتنا ببدر تلك الليلة، وكانت العادة أن الركب الشاميّ يترل علينا هناك بالليل فلم يترل وتأخر.

وقد خزن الناس ببدر أيضاً ما يحتاج إليه من طعام وعلف مما يحتاج إليه من بدر إلى المدينة المشرفة وإلى الينبع[1] في الإياب، وكان خزيننا نحن عند رجل اسمه الشيخ حسن بن عليان، والغالب عليه أنه من أهل الخير.

(1) في ط: الينبوع.

تتمة:

قال الشيخ البكري في ذكر المراحل من ينبع إلى بدر ما نصه: ثم سرنا من ينبع إلى دهناء[1] في فضاء ورمال وآكام وجبال حتى وصلنا إلى الأبرقين، وهي كناية عن جبلين مفترقين أحدهما رمل صاعد، والآخر من وعر وجلامد، وبينهما ترن الطبول الحربية لنصرة خير البرية، فيسمعها من كان أهلا للسماع، ويحجب أهل الزيغ والابتداع. ثم دخلنا قرية بدر وحنين التي حماها الله من كل شيْن، وبها جسر طويل وعيون تجري بين حدائق ونخيل، وبها مسجد العريش، وقيل مسجد الغمام وموضع حوض المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومحل النصرة لجيوش الإسلام على أهل الأنصاب والأزلام، وهي الغزوة العظيمة المقدار التي بها شاهت وجوه الكفار، فيا لها من غزوة ما تلت فيها الملائك وضاقت بها على أعداء الدين المسالك، وأخزى الله أهل الشرك والغواية، واستشهد من المسلمين من سبقت له العناية، وخرج فيها أصحاب رسول الله، صلى الله عليه، وسلم للجهاد، وقتل أبو جهل رأس أهل العناد، فبلغت الشهداء من السعادة أوفى نصيب، وقلبت أعداء الله في القليب، ووجدوا ما وعدهم ربهم من العذاب الأليم، (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)[2]، قال الشاعر[3]:

[بسيط]

يا أهْلَ بدْرٍ لقد طابَتْ مآثرُكُمْ	وقد علا قدرُكُمْ في أرْفَعِ الدرَجِ
فزتُمْ بغُفْرانِ أوزارٍ وحُسْنِ ثنا	على المدَى نشرُهُ من أطيَبِ الأرَجِ
يكفيكمُ في علاكُمْ قولُ مادحِكمْ	هم أهلُ بدرٍ فلا يخشَوْنَ من حرَجِ

فيا لها من ليلة بتنا بها وقد أشرق بدرها وسما قدرها، أذهبت عن العيون الهجوع لاشتغالها برؤية القناديل والشموع، وأما الشموع فقد ملأت الأرجاء بالنور، ومحت بضوئها ظلم الديجور، وقد دقت طبول الأفراح، وزالت عن القلوب

(1) الدهناء: رمال في طريق اليمامة إلى مكة لا يعرف طولها، وأما عرضها فثلاث ليال، وهي على أربعة أميال من هجر: معجم ما استعجم 2:559.. رحلة العبدري، ص: 163.
(2) البقرة: 211، النور:44.
(3) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 227.

الأتراح، وأحضر السكر الماد[1]، وأذيب في الماء للوارد، وملئ به البواطي والحلل، وسقي به جميع الطوائف وأهل العمل، فشرب كل منهم أوفى نصيب، فكانت ليلة من صفائها أقصر من جلسة الخطيب، وقضينا الأوطار من مشاهدها المبتهجة. ومدة المسير إليها ثمان ساعات واثني عشر درجة، انتهى كلام الشيخ البكري رضي الله عنه.

رجوع وانعطاف:

ثم ارتحلنا من بدر[2]، وهبّت علينا ريح باردة استمرت ذلك اليوم وغداً، وتجاوزنا السبيل الأول الذي بالزوة[3] ظهراً. ثم مررنا على سبيل محسن عشاء وبتنا.

وفي الغد مررنا ضحى بقرية تسمى مستيرة[4]، وفيها بئر كبيرة مطوية بالحجر المنحوت، إلا أن الرمل قد غلب عليها، وحولها عمارة قليلة، وبها قبر يزار، عليه بناء اسم صاحبه الشيخ يحيى، قالوا إنه شريف من أهل اليمن، وفي الروضة قيّم يأخذ صدقات ذلك الشيخ. وسرنا يومنا، ونزلنا برابغ[5] بعد المغرب وبتنا، ووجدنا به بركة كبيرة قد بنيت هناك مملوءة ماء، أعانت الناس في سقي الإبل وفيما يحتاجون إليه في إحرامهم من غسل ثياب واغتسال. وهي قرية فيها نخل وآبار كثيرة، في وادٍ يأتي إليه السيل من بعيد، وتزرع فيه مقاتي كثيرة، ودخن وذرة، وهو من أخصب أودية الحجاز.

ثم اشتغل الناس بغسل الثياب والاغتسال للإحرام وشراء النعال، توجد هناك معدّة للمحرمين إلا أنها غالية، ولم يتيسّر الرحيل إلا بعد الزوال. فرحلنا وخرجنا عن القرية، وبرزنا إلى البرية، وصلينا الظهر جماعة، ثم ركعتي الإحرام، ثم أحرمنا

---

(1) الماد: الناعم اللين: لسان العرب: ماد.

(2) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء، بينه وبين الجار وهو ساحل البحر ليلة، وبها كانت بها الوقعة المشهورة في رمضان سنة اثنتين للهجرة: معجم البلدان: بدر.

(3) الزوة: يقصد البَزْواء، البزواء، وهو موضع في طريق مكة قريب من الجحفة: معجم البلدان: البزواء.رحلة العبدري، ص: 164.

(4) مستيرة: لعلها ستارة، وهي قرية من نواحي مكة: كتاب أسماء جبال تهامة، ص: 13. معجم البلدان: الخوار.

(5) رابغ: واد يقطعه الحاج بين البزواء والجحفة دون عزور: معجم البلدان: رابغ.

ملبّين بالحج مفرداً، محافظين على استحضار النية، والمتابعة على التلبية والنيـــة إلى ذلك المحل أقرب للمقصود، وتابعنا السير ملبين صارخين بها فرحين مستبـــشرين آمنين مطمئنين[1]، وجاوزنا الرمال التي يتيه فيها الركب في بعض الأحيـــان بـــين العشاءين، فلما خرجنا إلى الأرض الصلبة أنخنا وبتنا إلى الصباح، ثم ارتحلنا وأخذنا بطن هرشى[2] التي يقول فيها الشاعر:

[طويل]

خُذوا بَطْنَ هَرْشى أو قَفاها فإنّما كِلا جانبَيْ هرْشى لهن طريقُ[3]

ومررنا بقديد، وهي قرية غالب أبنيتها حيشان، وفيها فول وفواكه تُبـــاع، ولا ماء بها إلا ما يُستقى من بعيد، وسألنا عن موضع مناة الذي بالمشلل حـــذو قديد[4] هل يعرفه أحد فلم نجد أحداً يعرفه، والحمد لله الذي هدم رسوم الطواغيت حتى لا يبقى أحد يعرف حتى أمكنتها، وقد أدركتنا القيلولة بجانب قديد فقِلنـــا هناك إلى أن زالت الشمس فارتحلنا ومررنا بأرض ذات مزارع كثيرة ومقاثي، إلا أن زراعتها إنما هي إذا جاء السيل، وأكثر المقاثي في بلاد الحجاز إنما تُزرع علـــى ماء المطر في الأماكن التي يستنفع بها الماء، وقد أخبرنا أن كثيراً منها ينبت في البرية من غير استنبات، وبها دُلّاع جيد رخيص، ويسمونه بلغتهم حبحب[5]، ولا يكاد ينقطع شتاء ولا صيفاً إلا في السنة الجذبة.

ثم صلينا العصر بالموضع المُسَمَّى بعقبة السكر[6]، وأكثر الناس، خـــصوصاً المصارية، يجلبون السكر من مصر بالقصد ليشربوه هناك ويؤثرون في ذلك أثراً لا أصل له، يزعمون أن رمل ذلك المحل قد انقلب للصحابة سكراً فشربوه، وهـــي عقبة في جبل صغير فيها رمل يُتعب الإبل، وقد سوي البناء في جانبها والتقطـــت أحجارها وبُني مسجد صغير بأحد جانبيها، وبينها وبين خليص[7] نحو من ثلاثـــة

---

(1) إشارة إلى قوله الله عز وجل من قائل: (فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون): آل عمران: 170.
(2) هرشى: هضبة لا تنبت شيئا:: كتاب أسماء جبال تهامة، ص: 23.
(3) ورد البيت بلا نسبة في الروض المعطار، ص: 592.
(4) قديد: اسم موضع قرب مكة: معجم البلدان: قديد.
(5) الحبحب: البطيخ.
(6) عقبة السكر: موضع بعد خليص: أنس الساري والسارب، ص: 76.
(7) خليص: حصن بين مكة والمدينة: معجم البلدان: خليص.

أميال، فبلغنا إلى خليص عند المغرب ونزلنا به، وفيه عين ماء تجري وأبنية وقهاوي وسوق، وقد سيق الماء في قنوات محكمات من العين يفجر عنها في مواضع للسقي والوضوء إلى أن خرج الماء إلى بركة عظيمة تحت القرية لم أرَ أحلـى منـها ولا أعظم، يغرق فيها من لا يحسن العوم، ويخرج الماء من البركة إلى مزارع قريبة من البلد. وبات الناس بجانب هذه البركة في أرغد عيش بسبب الماء الحلـو الغزيـر، وسقوا واستقوا، وتوضأوا بلا كلفة في ذلك ولا مشقة.

ثم ارتحلنا غداً بعد الفجر ومررنا في غيظة كبيرة ذات أشجار ملتفة من أثل[1] وغيره، وفي خلالها فدادين يزرع فيها المقاتي والدُّخْن[2] وغير ذلك، وسرنا حـتى مررنا بالثنية التي يهبط منها إلى عُسْفان[3]، والطريق فيها مبنية ملتقطة أحجارهـا كعقبة السكر، إلا أن هذه أطول منها وأسهل، وبأحد جانبيها مـسجد، فلمـا خرجنا من العقبة وصلنا إلى قرية عسفان قريباً من الظهر، وفيها سـوق وآبـار متعددة من جملتها البئر التي يُذكر أن النبي، صلى الله عليه وسلم، تفـل فيهـا[4]، وماؤها حلو غاية، فشربنا منه تبركاً بآثاره صلى الله عليه وسلم، ولم نترل بقرية عسفان بل صلينا الظهر في مسجدها وسرنا ومررنا بالأرض المسماة برقة[5]، وهي أرض طيبة فيها مزارع ومقاثي، وصلينا بها العصر، ثم مررنا بالسبيل الذي بآخرها وصلينا بها المغرب، وسرنا إلى أن ذهب هزيع من الليل، ونزلنا قبل الوصـول إلى وادي العميان، وسمي بذلك لكون الفقراء يتعرضون فيه للركبان طلبا للصدقة.

ثم ارتحلنا منه صبحا وجئنا مر الظهران ضحى، وهـو المـسمى بـوادي الشريف[6]، وهو واد كبير فيه قرى متعددة ذات نخيل وبساتين وعيـون تجـري، وأعظمها القرية التي يترل بها الحاج، وفيها سوق وعين كبيرة وبـساتين مونقـة، وجدنا الثمار بها مزهوة، فالقلوب بالنظر إلى نضارتها من الأحزان مجلوة، مع مـا

---

(1) الأثل: شجر يشبه الطرفاء، إلا أنه أعظم منه: لسان العرب: أثل.
(2) الدخن: حب الجاورس: لسان العرب: دخن.
(3) عسفان: قرية جامعة بها منبر ونخيل ومزارع على ستة وثلاثين ميلا من مكة، وهي حد تهامة: معجم البلدان: عسفان.
(4) ساقط من ط.
(5) بُرقة: موضع بالمدينة من الأموال التي كانت صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض نفقاته على أهله منها، وقيل إن ذلك من أموال بني النضير: معجم البلدان: برقة.
(6) كذا سماه ابن مليح: أنس الساري والسارب، ص: 76.

غمرها من السرور بقرب الديار ومشاهدة الآثار، فوقفنا هناك هنيئة ريثما روت الإبل وتغذى الناس وحصل الإيناس.

تتمة:

قال الشيخ البكري، رضي الله عنه، في عد المراحل من بدر إلى هنا ما نصه: ثم سرنا من بدر إلى قاع البزوة، وتُسَمَّى طرف النجحان، ثم إلى عالج وجبل القرود ومكان يسمى ودان، ثم نزلنا بسبيل محسن المشهور، وتنزهنا في خضرة وسرحه المعطور، قال الشاعر[1]:

[خفيف]

قدْ شكَا لي بعضُ المحِبينَ يومًا ... ظمأ الماءِ قلتُ: ذا غيْر ممكِنْ

كيفَ تشكُو الظمَا وتجزَعُ منهُ ... وبهذَا السبيلِ أحْسنَ مُحسِنْ؟

ومدة المسير إليه ثمان عشرة من الساعات، وعشرون درجة محررة بالميقات، ثم سرنا منها إلى بستان القاضي ونسينا بقرب الديار تعب السير الماضي، ثم نزلنا برابغ محل الميقات، وتجرَّدنا عن لبس المخيط بصدق النيات، وأحرمنا بالعمرة والحج عملاً بقوله: الحج والعمرة والثج[2]. وأهللنا بالتلبية لعلام الغيوب، وسألنا الله تعالى غفران الذنوب، ورأينا حفائر ماء تنبع، ومزارع بطيخ يتنوع، ومسجدا قديم الأثر، ويسمى بالجُحْفة[3] كما ورد في الخبر، وهو محل إحرام المصطفى زاده الله شرفا، قال الشاعر[4]:

[طويل]

تجردتُ لما أن وصلتُ لرابغ ... ولبيتُ للموْلى كما حَصلَ الندَا

---

(1) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 228.

(2) ورد الحديث برواية: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفضل الحج العج والثج، فأما العج فالتلبية، وأما الثج فنحر البدن، رواه أبو يعلى:مجمع الزوائد3: 224.

(3) الجُحفة: كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل، وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يمروا على المدينة، فإن مروا بالمدينة فميقاتهم ذو الحليفة، وكان اسمها مهيعة، وإنما سميت الجحفة لأن السيل اجتحفها وحمل أهلها في بعض الأعوام: معجم البلدان: الجحفة.

(4) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 228.

وقلتُ إلهي عنـــدكَ الفـــوزُ بـــالغِنَى   وإني فَقـــيرٌ قـــد أتيـــتُ مُجَـــردا

ومدة المسير إليها ست عشرة تمام، وعشر[1] من الدرج ثابتة الأحكـــام. ثم سرنا إلى الجرينات، ونزلنا بطارف قديد الذي لا يحل في حرمه للمحرم المـــصيد، وأرجاؤه واسعة المجال كثيرة الوعر والرمال، إلا أنها تُبَشِّر بقرب الـــبلاد، وهـــي مواطن الأمجاد، قال الشاعر[2]:

[خفيف]

قـــد نزلنَـــا بطَـــارفٍ لقَديـــدِ   ودخلنَـــا حِمـــاكَ نرجُـــو الحِمايَـــةْ

فتَفـــضلْ علـــى عُبَيـــد وفُـــود   منكَ يرجُو دفْـــعَ العنَـــا بالعِنايَـــةْ

ومدة المسير إليها سبع عشرة من الساعات، مُحَرَّرة بالميقات. ثم ســـرنا إلى عقبة السويق، وهي عقبة عالية الرمال في الطريق، ثم منها إلى خليص الشهيرة، وبها فِسقية من الماء كبيرة يخرج منها إلى الرمية[3]، ويختزن فيها من اللصوص أصحاب النفوس الخسيسة. ثم خرجنا[4] من مدرج عثمان إلى قرية عسفان وبها البئر التي تفل فيها سيد البشر، وهي بئر من شرب من مائها زال عنه الضرر، قال الشاعر[5]:

[رمل]

إن عَـــسْفانَ تـــسَامَتْ رِفْعـــة   وعلَتْ قَدْرًا علـــى كُـــل القُـــرَى

وبهـــا بِئـــرُ الـــنبيِّ المُـــصطفَى   خيْر مـــن صَـــلى وصـــامَ وقـــرَا

فإذا جئـــتَ لهـــا فكـــنْ مُحْـــسنا   فعسَى تُحسبُ مـــن أهـــلِ القِـــرى

ومدة المسير إليها زاي في العدد معلومة في المدد.

ثم سرنا إلى جبل غار العميان الذي يجتمع فيه الفقراء بقـــصد الإحـــسان، ونزلنا بالوادي وهو نهاية سير البوادي، وهو واد خصيب يُرى فيه طالب التراهـــة

---

(1) في ط: عشرون.
(2) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 228.
(3) في ط: الرية.
(4) زيادة من ط.
(5) وردت الأبيات في المصدر السابق، ص: 228.

أوفى[1] نصيب، أغصانه زاهية وقطوفه دانية، وأطياره ناطقة، وجداوله دافقة، ومزارعه تنبت من كل زوج بهيج، ويفوح من أزهارها كل عرف أريج، وهي زائدة الابتهاج، وعلى كل حديقة سياج، فلو رآه مصري من الناس نسي الروضة والمقياس، وبه عشش تسكنها عرب النوادي، وبأرضه ينبت شجر الكادي، قال الشاعر[2]:

[سريع]

يا حَبذا وادٍ فسيحِ الفضَا	أريجُهُ قد عطَّرَ النادِي
كَمْ فيهِ من فَاغِيةٍ[3] قد زَكَتْ	وفيهِ زهْرِ الفُلّ والكَادِي
وكم ثِمار وزُروع بهِ	والماءُ فيهِ يُنْعشُ الصَّادِي
قلتُ لِخِلي حينَ شاهدتهُ	ولاحَ لي نورُ السَّنا بَادِي
هل دارُ ليلى قد تدانَتْ لنا	فقالَ لي أنك بالوادِي

ووصوله خمس عشرة ساعة في المسير، وخمس من الدرج بالتحرير. ثم سرنا إلى سبيل الجوخى[4] المعروف، ورأينا جنان مَكّة دانية القطوف، ثم مررنا بمساجد ميمونة بالعمرة، إنما هي مساجد عائشة لأنها أحرمت من هناك بالعمرة، وأما قبر ميمونة فقبل ذلك بأميال، وقد اقترن بسماء سُموها كوكب الثريا بالزهرة، ولاحت لنا أعلى الديار ومشاهد المساعد والآثار، ووصلنا ثنية كداء[5] وبعدها المُعلى[6] التي بها مشاهد أهل الهدى. وكنا عند خروجنا من عدم الوصول خائفين

---

(1) في ط: أوفر.
(2) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 230.
(3) الفاغية: ورد كل ما كان من الشجر له ريح طيبة: لسان العرب: فغغ.
(4) سبيل الجوخى: ذكر ابن مليح أن نوائل للقهوة تقام بهذا الموضع أيام الحج: أنس الساري والسارب، ص: 76.
(5) كداء: تقع بأعلى مكة عند المحصب دار النبي صلى الله عليه وسلم من ذي طوى إليها. وكدى بضم الكاف وتنوين الدال بأسفل مكة عند ذي طوى بقرب شعب الشافعين، ومنها دار النبي صلى الله عليه وسلم إلى المحصب، فكأنه ضرب دائرة في دخوله وخروجه ؛ بات بذي طوى ثم نهض إلى أعلى مكة فدخل منها وفي خروجه خرج من أسفل مكة ثم رجع إلى المحصب. وأما كدي مصغرا فإنما هو لمن خرج من مكة إلى اليمن: معجم البلدان: كداء.
(6) المعلى: من مقابر المسلمين بالبقيع: الجواهر الثمينة 2:514.

حتى تلقتنا هواتف البشائر بقوله: (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين)[1]، فدخلنا من باب السلام، وشاهدنا البيت والمقام، وطفنا طواف القدوم، وذهبت عنا الهموم، وجئنا إلى محل الصفا، وسعينا في طلب الوفا، ولما تَمَّ سعينا بالطواف وحفتنا من عناية الله الألطاف، أقمنا بمكة بالإحرام إلى سابع ذي الحجة الحرام.

رجوع وانعطاف:

ولما قضينا الوطر من الوادي، وبدت لنا[2] من أعلام القرب الهوادي، أراد بعض الناس من شدة القيلولة، وقوي شوق الآخرين فشدوا الحمولة، وكنا ممن قوي عزمه على المسير، ورأى أن مقاساة الحر في جنب ما يطلبه يسير، فسرنا يومنا ونسمات الوصال تهب علينا، وبشائر التلاقي تترادف إلينا، ومررنا بسَرِف[3] وبه قبر أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها تُوفيت بهذا الوادي، وكان من غريب الاتفاق أن بنى بها صلى الله عليه وسلم وكان تزوجها بمكة وهو محرم في عمرة القضية، وبنى بها بسَرِف في رجوعه، وعلى قبرها بناء ومسجد قد تهدمت جوانبه، فزرناها من خارج البِناء معظمين لحرمتها، راجين حسن بركتها.

ثم تجاوزنا وجئنا إلى التنعيم ظهراً حيث المسجد المنسوب لعائشة رضي الله عنها بني بالمكان الذي أحرمت منه بالعمرة مع أخيها عبد الرحمن[4] بأمر النبي، صلى الله عليه وسلم، في حجة الوداع، ومن ذلك المكان يحرم الناس بالعمرة في المواسم وغيرها، وهو أدنى الحل حتى صار يطلق على المكان اسم العمرة تسمية للشيء باسم ما يقع فيه كأحد التأويلات في قوله تعالى: (لهدمت صوامع وبيع وصلوات)[5]؛ أي أماكن صلوات، أو سميت الأماكن بالصلوات تسمية للشيء باسم ما يقع فيه.

---

(1) الفتح: 27.
(2) ساقط من ط.
(3) سَرِف: على ستة أميال من مكة من طريق مر، وقيل سبعة وتسعة واثنا عشر، وليس بجامع اليوم، وهناك أعرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بميمونة مرجعه من مكة حين قضى نسكه، وهناك ماتت ميمونة سنة ثمان وثلاثين: معجم ما استعجم 3:735.
(4) عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق: من الزهاد الشجعان، شهد مع قريش بدرا وأحدا مشركا، وأسلم في هدنة الحديبية، وله المشاهد الجميلة في نصر الإسلام، توفي سنة ثلاث وخمسين: شذرات الذهب 1:59. شرف الطالب، ص: 21.
(5) الحج: 38.

ثم تجاوزنا إلى المكان المُسَمَّى بالزاهر، ويسمى جنان مكة، وبه آبار وأشجار وحضرات، وبه قبر يذكر أنه قبر الصحابي الإمام المشهور عبد الله بن عمر[1]، رضي الله عنهما، فقد صَحَّ أنه مات بمكة بعد الحج، فقيل إنه دفن خارجها بوصية منه كراهية أن يدفن في البلد الذي هاجر منه، فمن قائل إنه بهذا الوادي، ومن قائل إنه بالوادي الذي بطرف المحصب[2]، وهو الذي شهره كثير من الناس، إلا أنه ليس هناك قبر يُنسب إليه، وقد زرناه في هذا المكان بحسن النية، وأكثر الناس اغتسل بهذا المكان لدخول مكة اقتداء بمن قال إن هذا هو ذو طُوى[3] الذي بات به صلى الله عليه وسلم واغتسل فيه، واستحب أكثر العلماء الاغتسال فيه، والتحقيق ما عليه كثير من المؤرخين أنّ ذا طوى أمام هذا وليس بينه وبين مكة واد آخر، وهو الوادي الذي وراء قعيقعان[4]، وبأسفله الموضع المسمى بالشبيكة[5] حيث الثنية السفلى التي يخرج منها الحاج بأعلى هذا الوادي هو ذو طوى وأسفله هو الشبيكة.

---

(1) أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب، الفقيه الزاهد، كان من زهاد الصحابة وأكثرهم أتباعا للسنن، توفي سنة 74 هـ، عُمر ستا وثمانين سنة أفتى في ستين منها، ولما مات أمرهم أن يدفنوه ليلا ولا يعلموا الحجاج لئلا يصلي عليه، ودفن في ذات أذاخر، يعني فوق القرية التي يقال لها العابدة، وبعضهم يزعم أنه في الجبل الذي فوق البستان على يمين الخارج من مكة إلى المحصب: شذرات الذهب 1:841. شرف الطالب، ص: 22.

(2) المحصب: موضع فيما بين مكة ومنى وهو إلى منى أقرب: معجم البلدان: المحصب.

(3) ذو طُوى: موضع عند مكة: معجم البلدان: طوى.

(4) قعيقعان: قرية فيها مياه وزروع:: كتاب أسماء جبال تهامة، ص: 29.

(5) الشبيكة: بين مكة والزاهر على طريق التنعيم، ومنزل من منازل حاج البصرة بينه وبين وجرة أميال: معجم البلدان: الشبيكة.

ولم نغتسل نحن بالزاهر فقد أخذنا ماءنا في القِرَب إلى أن جئنا ذا طوى وأنخنا الرواحل حتى اغتسلنا غسلاً خفيفاً كما هو سنة المحرم، وصلينا العصر هناك، وسرنا عامدين مكة المشرفة ودخلنا من باب المعلى، وهو التنية العليا التي دخل منها صلى الله عليه وسلم المسماة بكدا، بالفتح، وقد بالغ الولاة في حفر هذه التنية وتنقيتها من الأحجار حتى صارت كأحد الأزقة، ومع ذلك ففيها صعوبة، ومنها يشرف على مقبرة مكة المُسَمَّاة بالحجون[1]، وهي إحدى المقابر التي تضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض كما ورد في الأحاديث[2].

---

(1) الحجون: مقبرة أهل مكة تجاه دار أبي موسى الأشعري: معجم ما استعجم 427:1.
(2) تفسير القرطبي 265:12.

ذكر دخولنا مكة المشرفة زادها الله تشريفاً وتعظيماً

دخلنا مكة عشية يوم السبت خامس يوم من ذي الحجة وأول يوم من السمائم كفانا الله شر حرها، ودخل الركب المصري قبلنا في اليوم الرابع، ودخل الركب الشامي في السادس وبعضه في السابع، وكانوا لقوا من الحرامية شدة في الطريق حتى كادوا أن يتعوقوا، ودفعوا للأعراب مالاً كثيراً نحواً من مائة ألف بعدما انتهب من ركبهم كثير وقتل أناس. ثم دخل ركب العراق يوم الثامن بعدما رحل الناس إلى منى، ولما نزلنا من التنية أنخنا الركاب بالحَجُون[1] وسط المقبرة للضرورة، وحططنا الرحال بين القبور إذ لم نجد مكاناً سوى ذلك، والأركاب قد ملأت خيامهم السهل والوعر، ولم يسلم إلا أماكن القبور المبنية أو المحوط بها، والله يغفر لنا ما اقتحمنا من ذلك، واستأنسنا بقول من أجاز ذلك من الأئمة مطلقاً، وبقول من أجازه في القبور الداثرة مع الضرورة الملجئة لذلك.

وبعدما حططنا الرحال وجمعنا الأثقال، حان وقت الاصفرار وقوي الشوق لقُرْب المزار، فقال البعض: لو تأخرنا حتى تغيب الشمس وتحل النوافل فلا يقع بين الطواف وركعتيه أمر فاصل، فعصى داعي الشوق منا أوامره، ولم يعبأ بما أبدى لهم من حجة ظاهرة، فقلت لهم: إن الخطب سهل في ذلك، فلم تضق فيه المسالك؛ فإنا لا نفرغ من الطواف حتى تحل النافلة، فلا يقع الفصل إلا بصلاة المغرب الفاضلة، والفصل بمثل ذلك مغتفر، فما هو إلا كمن دعا بعد الطواف واستغفر، مع أنا لو صليناهما قبل المغرب لم يكن فيه كراهة، ولم نأت أمراً تطلب عنه النزاهة لفرضية طواف القدوم، والركعتان تابعتان له كما هو المعلوم. فذهبنا نؤم البيت الحرام، واثقين بنيل كل مرام، وجئنا إلى المسجد وقد حان الغروب وكادت تطير من الفرح القلوب، فدخلنا فرحين مستبشرين من باب السلام، وشاهدنا البيت العتيق الذي تزيح أنواره كل ظلام، وقد تولت[2] أستاره وأشرقت

---

(1) الحَجُون: موضع بمكة عند المحصب، هو الجبل المشرف بحذاء المسجد الذي يلي شعب الحرارين إلى ما بين الحوضين اللذين في حائط عوف: معجم ما استعجم 1:426.

(2) في ط: تدلت.

أنواره، وقد شمر البرقع عن أسافله، حتى لا يكاد الطائف يناله بأنامله، يفعلون ذلك به من أول ما تقدم الوفود، ولا يطلقون الأستار حتى تعود[1]، وقد قلت في هذا المعنى وأبديت فيه تشبيها غريب المبنى[2]:

[كامل]

فكأنــــهُ لمـــا بـــدَا مُتـــشَمرا ... والطـــائِفونَ بـــهِ جميعـــا أحْـــدقُوا

ملكٌ همـــامٌ نـــاهِضٌ للقـــاءِ مـــنْ ... قـــد زارهُ ولـــهُ إليـــهِ تـــشوُّقُ

فتبـــادرَ الغلمـــانُ رفْـــعَ ذُيولِـــهِ ... حـــتى إذا رجعُـــوا جميعـــا أطْلقُـــوا

ومن رأى أكابر الملوك عند قيامهم، وتشمير الغلمان لفاضل الذيول عن يمينهم وشمالهم، علم غرابة هذا التشبيه وحسن موقعه، وأنه واقع في موضعه، وعلم ما بينه وبين من شَبَّهه بهند وليلى، وأنه لم يجد وصفاً ولم يُحسن قولاً. فلما وقعت عليه أبصارنا، وافتضح ما أكنت من الشوق إليه أسرارنا، اقشعَرَّت جلودنا من هيبته، وذهلت العقول من عظمته، فلم نزد على أن بَسْملنا وسلمنا وهللنا، فقصدنا باب بني شيبة للدخول منه، ولم نحد يميناً ولا شمالاً عنه، وتيمَّمنا الحجر الأسود فقبلناه، وطفنا طواف القدوم وأتممناه، ولم نبال بما نالنا في تقبيل الحجر من الازدحام، والمورد العذب كثير الزحام.

وبعد الطواف وقفنا بالملتزم، وشربنا من ماء زمزم، ودعونا الله تعالى، فحانت صلاة المغرب وقدمناها على ركعتي الطواف تحرياً للخروج عن وقت النهي مع قلة الفصل، فلما فرغنا من الصلاة صَلَّينا ركعتي الطواف وقَبَّلنا الحجر الأسود وخرجنا لقضاء شعيرة السعي من باب الصفا، وبدأنا بما بدأ الله به، تبارك وتعالى، فوقفنا على الصفا، ثم أتينا المروة في زحام كثير في السعي لأنه من أسواق البلد العظيمة فيتضَرَّر الساعي بذلك كثيراً، ولو قيض الله الأمراء لمنع الناس من التسوق فيه أيام الموسم لكان في ذلك نفع كثير. وما كدنا نفرغ من السعي إلى قرب العشاء، فدخلنا المسجد وصلينا العشاء، ثم رجعنا إلى منزلنا بالحجون ملبين،

(1) جاء في رحلة ابن بطوطة في هذا الشأن: وفي اليوم السابع والعشرين من شهر ذي القعدة تشمر أستار الكعبة زادها الله تعظيما إلى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الأربع، صونا لها من الأيدي أن تنتهبها، ويسمون ذلك إحرام الكعبة، وهو يوم مشهود بالحرم الشريف، ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضي الوقفة بعرفة: رحلة ابن بطوطة 1:186.

(2) وردت الأبيات في كتاب: أبو سالم العياشي الأديب المتصوف، ص: 507.

وبتنا به حتى طلع الفجر، وتوضأنا وجئنا لصلاة الصبح بالمسجد الحرام، فطفنا وصلينا وبقينا بالمسجد حتى حلت النافلة، وطفنا واكترينا منزلاً بقرب باب إبراهيم أحد أبواب الحرم الشريف من عند صاحبنا الشيخ محمد القرامسي باثني عشر ريالاً، ونقلنا إليه أكثر حوائجنا وما نحتاجه لخزنه حتى نرجع من عرفة. ولقينا في ذلك اليوم شيخنا العلامة الماهر الفهامة أبا مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجعفري المقرئ المجاور بحرم الله وحرم رسوله، فوجدته في غاية الضعف من مرض كان به قبل ذلك شفاه الله وعافاه.

وبتنا في المنزل الذي اكتريناه ليلتين لقربه من المسجد اغتناما للطواف بالليل فإن الطواف بالنهار كالمتعذر من شدة الحر، مع ما لا بد منه من الأشغال، وتركنا الخباء والإبل ﴿تلك الليالي﴾[1] بمنزلنا بالحجون، يبيت فيه بعض أصحابنا، ولقوا من أذى السراق بالليل شدة؛ فإنهم يهجمون على الناس هجوماً ويعظم أذاهم في أيام الموسم لقلة الحكم بتهاون الحكام وإرخاء العنان لهم في ذلك، وقد قيل إنهم يأخذون منهم جُعْلاً[2] على ذلك في أيام الموسم، فإذا أتي إليهم بسارق أدخلوه الحبس على أعين الناس، فإذا جن الليل أخرجوه. وأما في غير الموسم ففي تلك البلاد الحكم التام الذي لا يوجد في بلد من البلاد، ويعتلون في أيام الموسم باختلاط الناس من جميع الآفاق، وتعدد الحكام؛ إذ لكل ركب حاكم، ويقولون لو أطلقنا اليد في الحكومة على كل سارق ربما وقعنا في بعض خدام أمراء الأركاب فيؤدي ذلك إلى الهرج في أيام الموسم، وتلك حجة ضعيفة.

فلما كان اليوم الثامن خرجنا من مكة ضحى وجئنا إلى محل الإبل والأخبية بالحجون، ونزلنا هناك حتى زالت الشمس، وارتحلنا لأنَّه السنة، وجئنا لمنى وقت صلاة الظهر، ومررنا بمسجد العقبة ودخلناه، وصلينا ودعونا الله تعالى، وكان نزولنا بمنى فوق مسجد الخيف بسفح ثبير، وصلينا الظهر في مسجد الخيف جماعة وجلسنا فيه ننتظر صلاة العصر، فلما أذَّن المؤذنون وأقيمت الصلاة أحرمنا مع الإمام، وكنت عند إرادة الإحرام أختلج في خاطري أن الإمام لعله حنفي يصلي بالإتمام، ولا أدري بماذا أحرم، قلت: أحرمت بما أحرم به الإمام من قصر أو إتمام،

(1) ما بين قوسي ساقط من ط.
(2) الجعل: الأجر على الشيء: لسان العرب: جعل.

وكان الإمام كما ظننا حنفياً وأتم الصلاة، فلما فرغنا أمرت بالإعادة كل من صلى معه من أصحابنا ونوى التقصير، فأعادوا.

وبتنا تلك الليلة بمنى ولم يبت بها إلا المغاربة وقليل من غيرهم، وكثير من الناس ذهبوا إلى عرفات، وذلك دأبهم منذ أزمان، فقد قال الحطاب[1]: وهذه السنة، أعني المبيت بمنى هذه الليلة قد أُميتت منذ أزمان. وقد ذكر ذلك كثير من المرتحلين، كابن رُشيد[2] والعبدري[3] ومن بعدهما، وذكروا أن الخوف يمنع من المبيت هناك بعد ذهاب الأركاب.

وقد مَنَّ الله على المغاربة بإحياء هذه السنة في كثير من السنين ولم يفتنا في حجة من الحجات، ولله الحمد، فلما رأى بعض المغاربة كثرة من ذهب إلى عرفات من الناس أخذوا يرتحلون وقالوا: لعل هذه الليلة هي ليلة عرفة، ولعدم علمهم بأن ذلك دأبهم كل سنة ظنوا أن الذاهبين إنما ذهبوا إلى عرفة في ذلك اليوم لبلوغ الخبر إليهم بسبقية رؤية الهلال، فقالوا الأحوط أن نذهب إلى عرفة لنحصل به الوقوف إن كانت هذه ليلته. فقلت لهم: إن وقوفكم بها الليلة على الشك لا يجزئ، لأنكم لم تقفوا بنيّة أنها عرفة، فهو كمن صام يوم الشك احتياطاً، فلا يجزئه، ولسنا بمأمورين باتباع الشك في مثل هذا، سيما الشك الذي لا مستند له مثل هذا، وإنما هو تجويز عقلي، فقد جاء الناس من أقطار الأرض مسير تسعة أيام من كل جهة ولم يخبر أحد برؤيته، فمنهم من أقام معنا ومنهم من ذهب، ومن رأى مثل رأينا بات هناك حتى أصبح.

وارتحلنا عند طلوع الشمس ومررنا بالمشعر الحرام واستقينا منه ما نحتاج من الماء للغسل والشرب، وسرنا حتى نزلنا بنمرة[4]. وكان خروجنا من بين المأزمين[5]، وكُنَّا فيما قبل ذلك من السنين ربما مررنا بالطريق اليُمنى من وراء الجبل حتى نأتي

(1) محمد بن عبد الرحمن الحطاب الأنصاري، من فقهاء المالكية، له شرح على مختصر خليل، توفي سنة 953 هـ: لقط الفرائد، ص: 299.

(2) ملء العيبة، ص: 87.

(3) رحلة العبدري، ص: 195.

(4) نمرة: ناحية بعرفة نزل بها النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل نمرة: الجبل الذي عليه أنصاب الحرم عن يمينك إذا خرجت من المأزمين تريد الموقف حيث ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: معجم البلدان: نمرة. معجم ما استعجم 4:1334.

(5) المأزمان: موضع بمكة بين المشعر الحرام وعرفة، وهو شعب بين جبلين يفضي آخره إلى بطن عرنة: معجم البلدان: المأزمان.

نمرة، وتلك الطريق أسهل وأوسع وأبعد عن الزحمة، إلا أنَّ فيها طولاً، ولشدة الحر في هذه السنة آثرنا هذه لقصرها، وقد قال بعض العلماء إن النبي، صلى الله عليه وسلم، في ذهابه مر على تلك، وفي إيابه مر على هذه، ولا أستحضر الآن من ذكره.

ثم ضربنا الخيام للقيلولة خارج نمرة، وتلك السُّنة، فلما زالت الشمس اغتسلنا للوقوف[1] وصلينا الظهر والعصر جمعا بعد خطبة بديهية[2] ارتجلتها مقتصرا فيها على ذكر المحتاج إليه مما استقبلنا من المناسك غير متكلف للسجع، قصد إقامة تلك الشعيرة لأنا لم نصل مع الإمام في المسجد للزحام والحر الكثير.

ثم ارتحلنا وذلك يوم الأربعاء، وذهبنا إلى عرفات ووقفنا شامي القبة التي على الجبل من ورائها مستندين للجبل الصغير الذي فوقه. وبعد ما أُخذنا في الاستغفار والدعاء ونحن واقفون على إبلنا، واشتد الحر، ثم مَنَّ الله بسحابة صبت على الواقفين سجلا من ماء كسرت سَورة الحر وابتلَّت منها الأرض والثياب، وانطفت جمرة الحر وأعقبها نسيم بارد بقية اليوم، ولم نزل واقفين في محلنا حتى جاء الخطيب وذهبنا إلى محل الخطبة لاستماعها، فلم نتمَكّن من سماع حرف منها لكثرة الأصوات واختلاطها، وازدحام الخلائق على اختلاف لغاتها وتباين مطالبها، فطلعنا إلى جبل الرحمة[3] حيث القبة المنسوبة لآدم عليه السلام، ووقفنا فيه ساعة، ثم جئنا إلى الصخور التي قيل إنها موقفه عليه السلام وليس به، فوقفنا بها ساعة، ولم نزل كذلك ننتقل من موضع إلى موضع رجاء بركة الواقفين حتى غابت الشمس ونفرت المحامل والأمراء بعساكرهم، ونفر غالب الناس معهم، وتأخَّرنا بعدهم هنيئة لأخذ الجزء الواجب من الليل في ذلك المكان إيثاراً للسنة، وإلا فالنافرون عند الغروب لا يخرجون من الحل حتى يتحقق دخول الليل، ومن لا يبالي من الجمالين كثير منهم نفروا قبل الغروب، واستقينا الماء من عرفات للشرب والوضوء بمزدلفة، إذ لا ماء في محل المبيت منها. ثم نفرنا في أخريات الناس ولم نَرَ

---

(1) ساقط من ط.
(2) في ط: بديعية.
(3) قال ابن بطوطة: بين منى وعرفة خمسة أميال، وكذلك بين منى ومكة أيضا خمسة أميال، ولعرفة ثلاثة أسماء وهي: عرفة وجمع والمشعر الحرام، وعرفات بسيط من الأرض فسيح أفيح تحدق به جبال كثيرة، وفي آخر بسيط عرفات جبل الرحمة وفيه الموقف وفيما حوله والعلمان قبله بنحو ميل وهما الحد ما بين الحل والحرم: رحلة ابن بطوطة 1:187.

بفضل الله زحاماً ولا ضيقاً حتى خرجنا من بين المأزمين بعد مغيب الشفق، وعدلنا يمينا واستندنا للجبل ونزلنا وجمعنا الصلاتين وبتنا والتقطنا الجمار، فلما غاب القمر أخذ السراق يرموننا بالأحجار من الجبل لقربنا منه[1]، وكان ظنهم أنهم يخرجوننا من الرحال بذلك فيصادفوا فرصة، فكفانا الله شرهم، وبتنا بمترلنا حتى طلع الفجر وتوضأنا وصلينا وارتحلنا غير مغلسين؛ لأنَّ ضوء الفجر لم يستبن لنا حتى انبهر جداً وارتفع لأننا تحت الجبل، وجئنا إلى المشعر الحرام وقد كادت الشمس أن تصفر فوقفنا به قليلاً داعين ومكبّرين.

ثم سرنا فأنخنا بالماء الذي عنده للسقي، لأن الماء بمنى لا يوجد، وهناك تركت الرحل وتقدمت مع بعض الإخوان راجلا إلى مكة عسى أن ندرك البيت مفتوحاً، وسرنا حتى جئنا وادي النار وأسرعنا به، وهو أول ما تحاذي البركة الخربة التي على يسارك إن مررت بطريق الأركاب وأنت ذاهب إلى منى حتى تأخذ في الطلوع إلى منى وترتفع بك الأرض، وبهذا عرفه أعلم أهل عصره بالمناسك، خليل المكي[2]، حسبما نقله عنه البلوي[3] في رحلته إذ سأله عن حده.

ولم نسرع فيه في ذهابنا، وإن قال به بعض العلماء لأنه لم يتمكن لنا ذلك ونحن راكبون، ولم يتيَسّر الترول فمضينا كذلك على الطريق الكبير التي تشق منى حتى أتينا جمرة العقبة ورميناها بسبع حصيات من أسفلها، وملنا إلى الحلاقين الذين هناك وحلقنا، وكان أهمني أمر الحلق لأن الحلاقين في ذلك اليوم خصوصاً أول الوقت، يكثر الزحام عليهم فلا يستوعبون الرأس بالحلق ولا يحسنونه، ويكتفي منهم أكثر الناس بذلك، فإذا حلقوا ناحية من الرأس وبعضها قالوا: يكفيك هذا فقد أحللت طلباً للتفرغ لآخر استكثاراً في الأجرة، فيصدقهم كثير من الناس في الاكتفاء بذلك، وقد مَنَّ الله علينا برجل من أهل مصر عليه سيما الخير، فحلق لنا كما ينبغي ودفعنا له أجرته. ثم ذهبنا كذلك ونحن نخاف أن لا ندرك البيت مفتوحاً، ولا شيء أهم عندي من ذلك حتى دخلنا المسجد الحرام فوجدنا البيت مفتوحاً فقصدناه وقدمنا دخوله على الطواف خشية أن يفوت فلا يمكن تداركه،

---

(1) في ط: منها.

(2) خليل المكي المالكي، إمام المالكية بمكة المكرمة، توفي سنة 760هـ: الوفيات 2:222.

(3) ذكر البلوي في رحلته لقاءه بأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر المكي المالكي المشتهر بخليل، وأكد استفادته "في مناسك حجه تفقها ومعاينة بين يديه"، ولم ترد إشارة العياشي في رحلة البلوي: تاج المفرق 1:313.

فيسَّر الله دخوله بلا كلفة ولا مشقة ولا سوء أدب، و لم ندفع أجـــرة في ذلـــك لأحد، فوجدنا به بعض زحام وصلينا إلى جوانبه الأربع، وغلبنا الحر من شدة الحر فيه لكثرة ازدحام الناس، ودعونا الله تبارك وتعالى فيه بما أطلق ألسنتنا به من خير الدنيا والآخرة، ودعونا لإخواننا ومن خلفناه في الرحال وكفانا مئونتها حتى فزنا بهذه البُغية.

ثم هبطنا و لم تطل مدة فتحه بعد هبوطنا وإنما يفتحونه في هذا اليوم لتعليـــق الكسوة الجديدة وإزالة العتيقة وليس بيوم دخول عام، وإنما يدخل القيم وأمـــير الحاج المصري وأتباعهما المعنيين في ذلك، ولا ينصب سلم للدخول وإنما يـــدخل من تكلف الصعود بمعين أو بخفّة أعضاء، وعلى الباب أحد خُدَّام الأمير يمنع الناس من الدخول، إلا أن الناس يكاثرونه، فإن منع من جانب دخلوا من جانب آخر، وربما يتعامى عن البعض، ويحصل لكثير من الناس في ذلك المكان سوء أدب مـــن ضرب وشتم بالألفاظ يتره المكان منها، فالأولى عدم الدخول إلا لمن تيسر له ذلك عفوا صفوا من غير إيلام، وقد منَّ الله العظيم بدخوله بعد ذلك مرات متعددة بلا كلفة ولا مشقة، ولله الحمد حمدا كثيرا. ثم بعد الخروج شربنا من ماء زمزم، و لم نسع لأنا سعينا إثر طواف القدوم كما هو السنة.

لطيفة:

وكثير من العوام يظن أنه يلزمه سعي آخر إثر الإفاضة، وبعض المتفقهة أفتى من لم ينو فرضية طواف القدوم بإعادة السعي اقتداء بظاهر قول المختصر: ونوى فرضيته، وإلا فدم[1]. والتحقيق أن شروط السعي وقوعه إثر طواف، أي طواف، وكونه فرضا إنما هو واجب يجبر بالدم ولا يلزم منه بطلان السعي، ومعنى الفرضية كونه يتوقّف عليه صحة السعي لا كونه فرضاً في نفسه، وهذا القدر يعلمه كـــل من له أدنى معرفة بالمناسك، وإذا كان كذلك فلا إعادة على من سعى إثر طواف القدوم، ولو لم يستحضر نية فرضيته إذا كان عالماً بذلك، فإن نية الإحرام كافية في الحج لأنه عبادة واحدة، ولا يشترط فيه إفراد نية لكل جزء منـــه، كالـــصلاة وتمييز الفرائض من غيرها أمر مختلف في كونه شرطاً في صحة الصلاة أم لا، والحج

---

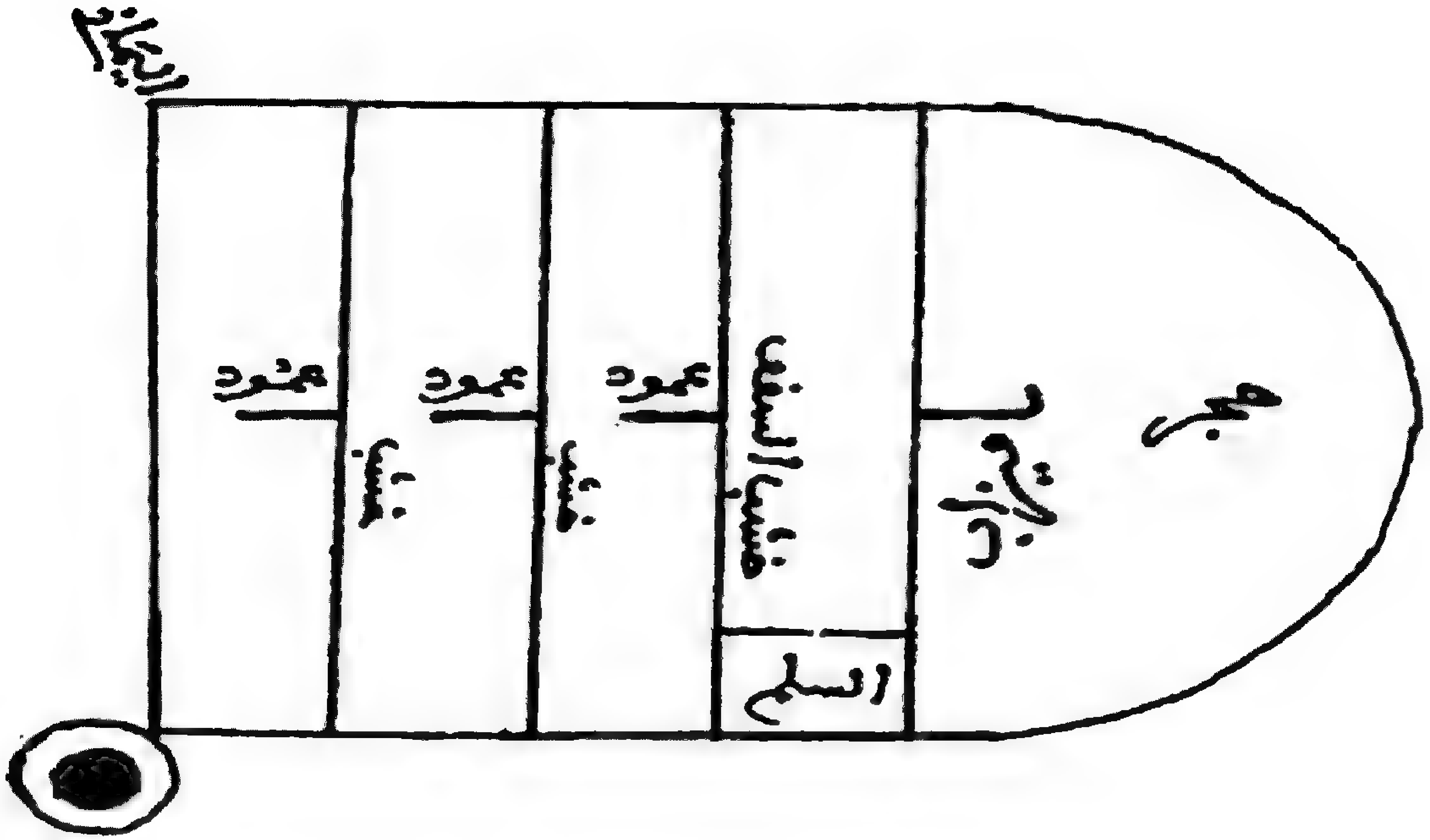
(1) مختصر خليل، ص: 81.

أوسع من الصلاة، ولا إعادة عليه أيضا لو جهل فرضية طواف القدوم، لأن الشرط كما تقدم هو وقوعه إثر طواف، وهذا واقع إثر طواف، فإن كان عالما بالتلازم بينهما فلا دم أيضا إذ ذلك القدر هو المعبر عنه بالفرضية، وإلا فدم. هذا ما حققه بعض المشايخ وأدلة ذلك يطول سردها، وكثير من المتفقهة لا يحقق المسألة هذا التحقيق ويشغب على الناس بإلزامهم الإعادة ويقول: لا بد من إفراد نية لطواف القدوم إنه فرض وإلا بطل السعي، والعجب كيف يجعلون نية الفريضة شرطا في صحة السعي ولا يجعلونه شرطاً في صحة الطواف ذي النية، فتكون نية الفرض في ركن شرطا لركن آخر لا له، والشرط إذا لم يؤثر عدمه في محله كيف يؤثر في محل آخر، فشد يدك على ما ذكرنا من التحقيق، ولا تلتفت إلى من طريقه التقيد بظواهر ألفاظ المختصر، والله تعالى أعلم.

ولما فرغنا من الطواف وتوابعه ملنا إلى ظل المسجد وجلسنا للاستراحة، وقد تعبنا غاية في مجيئنا لأنا أسرعنا المشي والوقت وقت حر.

لطيفة:

صفة البيت العتيق، زاده الله شرفاً: من داخله بيت مُربَّع، ونقص من الركن الذي عن يمين الداخل مقدار السلم نحو ثلاثة أذرع، يصعد منه إلى السطح، وأرضه مفروشة بالمرمر الملون المجزَّع، مكسو الحيطان والسقف بكسوة على هيئة الكسوة الخارجة في الصنعة والكتابة، مخالفة لها في اللون، فإن الخارجة سوداء كلها والداخلة بياض في حمرة، وفيه مصابيح كبيرة معلقة، بعضها من الذهب وبعضها من البلار الأبيض الصافي المكتوب بلون أزوردي، وله ثلاثة أعمدة من خشب مصطفة في وسطه ما بين اليمين والشمال، وكل عمود منها قد سمرت عليه ألواح من عود من أسفله مقدار وقفة، وهذه صورته:



والخشب المسقف به الذي عليه اللوح ذاهب من ناحية الباب إلى الجهة المقابلة له، أحدهما رأسه على رأس السلم، وهو أقربها لجدار البيت، وليس بينه وبينه إلا مقدار ما يصلى فيه، والثاني بينه وبين الباب، والثالث عند الباب. وقد أمعنت النظر فيه، وإن كان ذلك سوء أدب يغتفر ذلك لمن لم يكن قصده التفرج وأراد الوقوف على حقيقة الأمور[1]، والله يغفر ويتقبل.

ثم رجعنا إلى منى ونحن على أشد ما يكون من العياء والتعب، وجلسنا مراراً في الطريق وتوضأنا، من البركة التي بين مكة ومنى، وجئنا لمسجد العقبة وجلسنا فيه ساعة وصلينا فيه الظهر، وقد اختلف في صلاته، صلى الله عليه وسلم، الظهر يوم النحر؛ فقيل بمكة وقيل بمنى، وهو قول الأكثر. وهذا المسجد هو المكان الذي بايع فيه الأنصار، رضي الله عنهم، بيعة العقبة[2]، فهو من المساجد المنسوبة إلى

(1) في ط: الأمر.
(2) بيعة العقبة: ذكر صاحب الكامل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على القبائل كما كان يفعله، فبينما هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام... فأجابوه وصدقوه، وقالوا له: إن بين قومنا شرا وعسى الله أن

النبي، صلى الله عليه وسلم، المتبرك بها، وهو معدود من الأماكن التي يستجاب فيها الدعاء، وهو في الشعب تحت جمرة العقبة بيسير على يسارك وأنت ذاهب من مكة إلى منى.

ثم جئنا إلى منازلنا بمنى، وكان نزولنا وراء المسجد قرب الغار الذي نزلت به سورة المرسلات على النبي، صلى الله عليه وسلم، وخبره مذكور في الصحيح، وقد بني على بابه محوط شبه مسجد صغير والناس يقصدونه للصلاة فيه والدعاء، وهو في أصل جبل ثبير[1] بينه وبين مسجد الخيف رمية بحجر، وكان نزولنا في هذا المحل إيثارا لقرب هذا المكان وقرب المسجد مع كونه أنظف وأوسع وأقرب للجبل الذي يشرف منه على منى كلها، وهو أستر وأمكن للإنسان في حاجته والناس يتحامون القرب من الجبل تقية من أذى السراق، فيستجير بعضهم ببعض، ويفرون إلى الدخول في غمار الناس ولا يبالون بما نالهم في ذلك من وطء الأقدام وتقطيع الحبال وتعفّن الأرجاء وانتشار الروائح الكريهة، ونحن استسهلنا أمر السرقة في جنب هذه المضار، وكان منزلنا أنظف المنازل وأحسنها وأبعدها عن الأذى وأبهجها، وقد ذبح في منى، في ذلك اليوم والذي بعده، من الغنم والبقر[2] ما أحسب الغني والفقير، وكفى الوارد والمستوطن، وامتلأت الطرقات وأفنية المنازل باللحم والجلد والساقط والأكارع، فلا ترى أحداً يأخذها، بل بقي كثير من الغنم غير مسلوخ إلى أن ارتحل الناس من هناك لم يمسه الناس، فمن الفقراء من يأخذ نحواً من عشرة من الغنم فيبيعون لحومها بأرخص ثمن وييبسون ما قدروا عليه؛ ضيافة الله الملك الحق الذي لا يقدر أحد على كفاية خلقه، فقد ورد من آفاق الأرض أصناف من الخلق لا تحصى، أغنياء وفقراء، فأكل الكل من ضيافة مالكهم وتزودوا ما قدروا، وفضل ما أعجز الطير والوحش والهوام، فوجدت به عدة كثيرة من الغنم قد يبست جلودها على لحومها وعظامها لم تمس إلى أن صارت مثل الخشب من يبسها، والمرجو بل المحقق من كرم الملك الوهّاب ذي الطَّوْل، كما عم وفده بالضيافة المحسوسة التي صيرت الفقير كالغني في أيام الضيافة، كذلك أو

يجمعهم بك، فإن اجتمعوا عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عنه، وكانوا سبعة نفر من الخزرج، فلما قدموا المدينة ذكروا لهم النبي ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا فلقوه بالعقبة وهي العقبة الأولى فبايعوه: الكامل 1:610.

(1) ثبير: من أعظم جبال مكة بينها وبين عرفة، سمي ثبيرا برجل من هذيل مات في ذلك الجبل فعرف الجبل به: معجم البلدان: ثبير.

(2) في ط: البقر والغنم.

أعظم منه ضيافته المعنوية بالمغفرة وقبول الدعاء، وأجزل المثوبة لعباده فوق ما يخطر بالبال وما ينال بقياس ومثال، فما أسعدنا به من رب كريم منعم متفضل وهاب جواد محسن متطول، لا إله إلا هو ملك الملوك ورب الأرباب، ولا يهلك على الله إلا هالك، نسأله سبحانه أن يعمنا بفضله وكرمه، ويتحفنا برضوانه، ويعاملنا بإحسانه، آمين.

وبتنا بمنى تلك الليلة في نعمة كاملة ورحمة من الله شاملة، ثم في الغد عمرت الأسواق وكثر الإنفاق وخرجت البضائع ذوات الأثمان وصنوف التجارات، وتزاحم الناس على الشراء رجاء بركة ذلك المكان، وأكثر التجار يقولون: إن من اشترى شيئاً من منى وجعله في تجارته وجد بركته وظهرت له ثمرته، ولا يبعد ذلك فإنه موسم شريف ومحل بركة يأتيه الناس من كل فج عميق (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام)[1] وقد عمهم الله فيه من أمر دنياهم وأخراهم[2] بغاية الإنعام.

ولما زالت الشمس خرجنا لرمي الجمار مبتدئين بالأولى التي تلي مسجد الخيف، ثم بالوسطى، ثم ذات العقبة، واشتد الحر ولم نطل في الوقوف إثر الأوليين القدر المذكور، فوقفنا طاقتنا مجتهدين في الدعاء، وبعد الفراغ من الرمي جئت لمنزل أولاد شيخنا تاج الدين[3] فوجدت عندهم شيخنا سيدي عيسى الثعالبي، وجلست عندهم برهة حتى صليت العصر وأحضروا طعاما جيدا، وأخذنا منه حاجتنا.

ولأهل مكة، خصوصا الأكابر من أهل الوظائف؛ كالعلماء والأمراء والتجار وأكابر البلد، منازل بمنى يترلونها أيام الموسم متقنة البناء، غالبها مشرف على السوق، فيها غرف عالية ومطابخ ومرافق، و ربما نزلوها في بعض الأحيان في فصل الربيع، فصل التفرج. ومترل شيخنا تاج الدين المالكي هذا من أحسن المنازل، له مصطبة مونقة بجانب الطريق لها شبابيك، بينما نحن بها جالسون إذ مر

(1) الحج: 28.
(2) ساقط من ط.
(3) تاج الدين بن أحمد بن إبراهيم المكي، قاضي مكة، خطيب أديب عالم، له عدد من الرسائل في العقائد، توفي سنة 1066: خلاصة الأثر 1:470. شجرة النور الزكية 1:439.

أمير مكة الشريف زيد[1] في موكبه، وله شارة حسنة، معه طائفة من الأشراف والجند ذاهبا لرمي الجمار، قد ظلل على رأسه بمظلة كبيرة من حرير كأنها قبة خباء يحملها فارس بجانبه، يسايره وهو في ظلها والناس يحيونه عن اليمين والشمال، فالعوام يقولون في تحيتهم: نصرك الله يا زيد، والخواص يقولون: السلام عليكم، وهو يرد على كل من حياه من وضيع وشريف ولا يهمل أحدا ويشير برأسه إلى كل من حياه، وذلك لشدة تواضعه، رضي الله عنه، وهو رجل أسمر اللون أبيض اللحية سمح الوجه، ضرب من الرجال إلى النحافة أميل، وأثنى من حضر المجلس عليه كثيرا في سيرته وعقيدته، وأثنى عليه شيخنا أبو مهدي.

وهذا الأمير من أحسن أمراء عصره سياسة وحسن تدبير، ولم تزل الإمارة في أسلافه منذ أعصار متطاولة، وأسلافه هم المشهورون بآل أبي نمي، وهو بطن من أبي حسن، وإخوانهم بنو حسين لهم إمرة المدينة وولاية الحجاز الآن بأطرافه من أطراف اليمن إلى أقصى نجد مما يلي البصرة، ثم إلى خيبر[2] مما يلي ناحية الشام، ثم إلى الينبع كلها للأمير زيد بن محسن وأسلافه، وليس لبني حسين في ولاية المدينة في هذا الزمان إلا الاسم فقط وبعض تصرف من تحت يد الأمير زيد.

وكان هذا الأمير فيما مضى على معتقد أهل بيته كاعتقاد الزيدية، ثم باينهم ورجع إلى معتقد أهل السنة وتمذهب بمذهب الإمام أبي حنيفة، رضي الله عنه، وحسن اعتقاده في علماء السنة، وبالغ في تعظيمهم وكف أهل بيته عن كثير مما كانوا ينالون من أهل السنة، ومنعهم من إظهار معتقداتهم، وقد بلغنا أنهم اجتمعوا ذات يوم ولاموه على رجوعه عن مذهبهم فقال لهم: ألا يكفيكم مني أني لم أجبركم ولم آمركم على الرجوع عما أنتم عليه؟ إنما هو دين لا يسع المرء فيه إلا اعتقاد ما هو الحق واتباع ما رأيت وتبين لكم ما تبين لي، فينبغي أن ترجعوا إلى الحق والهدى، وإن لم تروه فـ: (لكم دينكم ولي دين)[3]، فمن ذلك اليوم أيسوا منه. وقد استفاض على الألسنة أنه من الأولياء لما يرون من إجابة دعوته وكثرة

(1) الشريف زيد: زيد بن محسن بن حسين بن حسن بن أبي نمي، أمير مكة، ولد فيها سنة 1014، ووليها سنة 1041 هـ، وحسنت سيرته، حدثت في أيامه فتن تمكن من إخمادها، واستمر في إمارته إلى أن توفي بمكة سنة 1077 هـ: خلاصة الأثر 2:176.تاريخ أمراء المدينة المنورة ص: 345. الأعلام 3:60-61.

(2) خيبر: بينها وبين المدينة ثمانية برد: معجم ما استعجم 2:523. معجم البلدان: خيبر.
(3) الكافرون: 6.

عبادته وشدة تواضعه، وإن كان في تصرفات عماله لا تخلو من جور في الأموال كما شأن ولاة العصر، وقد أخبرني من أثق به أنّه كان ذات يوم دعا بعض عماله ليذهب إلى خليص في أيام الموسم فيجلس فيها مع طائفة من عسكره ردعاً للصوص وتأميناً للسبل كما هو شأنه في سائر الطرقات أيام الموسم، فاعتذر العامل بأنه مريض، ولا مرض به، فألح عليه في ذلك فقال: إني مريض لا أقدر، فقال له: إن كنت صادقا فشفاك الله، وإن كنت كاذبا فأماتك الله، قالوا: وكان ذلك صبحا فلم يأت الظهر حتى مات ذلك العامل. وأمثال هذا من إجابة دعواته كثير حتى كانت أعراب الحجاز تقول: نخاف من دعوة زيد أكثر مما نخاف من سيفه.

ومن محاسنه أنه لم يقتل قط أحداً من أهل بيته مع كثرتهم وكثرة خروجهم عليه وسعيهم بالفساد في ملكه، ولكن كل من أحس منه ذلك يقول له لا تسعك بلادي، فيخرجه من مكة، فلا يزال يحارب مع الأعراب ويسعى في إفساد المملكة حتى يذهب ما بيده من الأموال فيرجع إليه صاغرا حتى أيسوا من القيام عليه، فأذعنوا له، وكثير من العوام يقولون إنه قطب لأنه مكث في ولاية مكة أكثر من ثلاثين سنة. قالوا: ولا يمكث ثلاثين سنة في ملك مكة إلا القطب، ولا أدري من أين لهم ذلك، والغالب أن الله تعالى لا يمكن من حرمه الأمين وبلد نبيه المكين هذه المدة المتطاولة، مع حسن دفاعه عنه وكفاية أعدائه، إلا من عنده مكانة وله به عناية، مع ما من الله به من حسن الاعتقاد والإكثار من العبادة والطواف بالليل في غمار الناس حيث لا يعرف، وكثير من الناس ربما وسموه بالبخل. وقد أخبرني شيخنا أبو مهدي أنه على خلاف ذلك وأنه يعتمد بصدقاته ومعروفه الأخفياء من العلماء والأتقياء ممن ليست له وظيفة معلومة، ويبعث لهم وإلى الفقراء من معروفه بليل، بحيث لا يشعر بذلك إلا خواص أصحابه. وأما أهل المناصب والوظائف فلا ينالهم من معروفه إلا القليل فيسمونه لذلك بالبخل.

ومن محاسنه تورعه عن سفك الدماء مع شدة بسالته بحيث تضرب به الأمثال في الشجاعة في حروبه، وأكثر ما يعاقب بالمال، إلا في حد من الحدود، وكثير ما يقع من عماله ما يخالف الشرع في الجباية ويبالغون في ظلم الرعية، ولم ير في أحواله ما يغمص عليه إلا هذا. وأما ثناء الناس عليه فأكثر من هذا كله، وأهل الحجاز يرون أنهم تحت جناح العافية وفي ظل الأمان ما دام حيا، ويفدونه بآبائهم وأمهاتهم، نسأل الله تبارك وتعالى أن يطيل بقاءه، ويشيد في الدارين بناءه،

ويديم عزه لحماية حرمه الأمين بجاه النبي المكين، صلى الله عليه وسلم وعلى آلــه وصحبه أجمعين آمين.

ولما كانت الليلة الثانية من ليالي منى بالغ أهل مصر والشام في إيقاد المصابيح واتخاذ المصانع منها وصور الأشجار والأخبية، وأكثروا الرمي بالمدافع والبنــادق والمحارق المرتفعة في الجو، وفعل مثل ذلك السلطان زيد، وفي ذلك نزهة للأبصار وتسلية للأفكار، ومجال للاتعاظ والأذكار، والقبول والإنكار، منزل جمع أصناف العباد، وحشر إليه عمار البلاد، فهو أجمل الأندية، ومبانيه أحسن الأبنية، تشرق بالنهار فصوصه المونقة[1] وبالليل مصابيحه المشرقة، ومما يناسب ذكره هنا ما قلته ونحن في هذا المكان بمنى سنة أربع وستين وألف[2]:

[بسيط]

لنا عليكَ بمحْضِ الفضْلِ حق قِــرى ... لألْزَمَنَّــك أو تقــضِيَ لي حَقِــي

مُنَّ وجُــدْ مالِــكَ المُلــكِ بمغفِــرَة ... لا تَذرُ الرتْبَ في صُحْفي ولا تُبقِــي

غرسْتَ في قلبيَ الإيمانَ من صِــغَري ... يا ذا التفَضُّلِ مــا غرســتَهُ فاسْــقِ

فابْسُطْ عليَّ منَ الأرزاقِ أكثرُ مــن ... ما قد سألتكَهُ يــا باسِــطَ الــرزْقِ

غرقتُ في بحْرِ جهلِي ورجوتُ نَــدا ... عفْوكَ يُنْقذني مــن لُجــة الغَــرقِ

مددْتُ نحوكَ كفَّ الفقرِ مُنّ علــى ... ضَعفي بصِدْقِ الغِنى عن سائرِ الخلقِ

فاعْتِقْ من النارِ والأغيَــارِ أجْمَعهــا ... رقي فإنــكَ قــد أمــرتَ بــالعِتْقِ

أمدَّني منك بالــسر الخفِــيِّ وكــنْ ... لي مَوئلا سيدي في الجَمْعِ والفــرْقِ

وكنْ مُجيبا دعائِي أنتَ أكرمُ مَــن ... مُدَّتْ إليهِ يدٌ في الغــربِ والــشرْقِ

بجَاهِ أحمــدَ خــيرِ الخلــقِ قاطبَــة ... عليهِ أزكَى صــلاة الملــكِ الحَــق

وقد طلعنا إلى فوق منزلنا بسفح الجبل نشرف منه على منازل الحاج كلها، وبقينا هناك في ليلة مقمرة مطربة مزهرة كأنها نهار مشمس قد شابه زهر الربــا،

---

(1) في ط: فساطيطه.
(2) وردت القصيدة في الثغر الباسم، ص: 212.

نتمتع برؤية تلك العجائب ونستمطر رحمة الله من كل جانب، وصلينا هنالك[1] المغرب والعشاء، ولم نترل من ذلك المحل حتى ذهب هزيع[2] من الليل، وبتنا تلك الليلة في أرغد عيش بارد وأصفى سرور وارد، لولا تشويش السراق علينا برمي الأحجار بعد مغيب القمر، وذلك في جنب ما حصل لنا من النعيم ليس ضرر. وبالجملة فليالي منى غرر في أوجه الزمان، ومواسم فرح وسرور لأهل الإيمان، ومناهل رحمة ومغفرة من الله ورضوان، ومحال بركة وعافية وأمان يتجلى فيها الحق لوحده بصفة الجمال جزاء لرضاهم، قبل ذلك يتجلى الجلال، فهناك يستصغر المرء ما قاسى في طريقه من الشدائد في جنب ما حصل له من النعيم والفوائد، وفي وصف هذه الليالي وما قبلها قلت من جملة أبيات في قصيدة لي مدحية أولها[3]:

[مجزوء الكامل]

لا شَيءَ أذْهَبُ للجُرم ... مِنْ أن تُنيخَ لدى الحَرمْ

حيث القبابُ البِيضُ تلْـ ... ـمَعُ مِثْلَ نارٍ في عَلَمْ

بينَ المُحصَّبِ والحَجُو ... نِ فذاكَ دِرْياقُ[4] السقمْ

ومنها:

وهناكَ يُمكِنُك التَّرد ... د للحرم المحترمْ

فاقْصِدْهُ مِن باب السلا ... م وأمَّ ركناً مُستلَمْ

قبِّلْ وطُفْ واركَعْ وسِرْ ... للسَّعْي بعْدَ المُلتَزَمْ

قِفْ بالصَّفا وبِمَروة ... والسَّعْيَ بينهما انْحَتمْ

وارْجِعْ لزمْزمَ تَطْفِ ما ... وسْطَ الجوانِحِ من ضَرَمْ

واشْرفْ عليكَ التاجَ مُرْ ... تفَقاً وفوقَ البدْرِ نَمْ

---

(1) في ط: هناك.
(2) في ط: هجيع.
(3) وردت القصيدة في: الثغر الباسم، ص: 234.
(4) الدرياق: الترياق: لسان العرب: درق.

كُــــل المُنَـــــى بِمِنًـــــى إذا ... مـــــا جِئتَهـــــا تَكفِـــي الـــنقَمْ

أكـــــرِمْ بـــــهِ مـــــنْ مَنْـــزِل ... فإليــــــهِ تَجتمــــــعُ الأمَـــــمْ

فيــــهِ تـــــشابَهتِ الـــــسَّما ... والأرضُ في دَاجــــي الظُّلَـــــمْ

هــــــذا بأنجُمِــــــهِ أضَــــــا ... ءَ وذاكَ بالـــــشَّمْع اضْــــطرَمْ

يـــــومٌ بـــــأعْلى مـــــسْجِد ... للخَيــــفِ مــــن أزْكـــى الــــنِّعَمْ

وليلـــــةٌ في ذلــــكَ الـــسْـ ... ـــــسَفْحِ المُعظــــمِ تُغْتــــنمْ

يـــا طِيـــبَ عـــرْفٍ فـــاحَ مـــن ... عرفـــــاتَ يجـــــذِبُني أمَـــــمْ

أكْـــــرِمْ بـــــهِ مـــــن موقِـــــف ... هُـــــو للخلائِـــــقِ مُـــــزدحمْ

ومنها:

حـــسْبي بـــأن أضْـــحى بـــهِ ... لا أبْتغِـــــي ظِـــــلٌ الخِـــــيَمْ

جبـــــلٌ عَـــــلا فكأنـــــهُ ... في أنْـــفِ موقفـــهِ شَـــممْ

طُـــوبى لمنـــصرفينَ منْـــــ ... ـــــهُ بحُـــسْنِ ظَـــن مُلتـــزِمْ

نفَـــرُوا لِجَمْـــعِ في جُمـــو ... عٍ كالـــسحَابِ إذا انـــسجَمْ

بـــاتُوا بـــهِ يُحْيُونـــهُ ... حـــتى إذا الليـــلُ انـــصَرمْ

ولِمـــشْعَر حَـــرَم غَـــدوا ... يمْـــشُونَ والـــصبحُ ابتَـــسمْ

وقفُـــوا بـــهِ حـــتى بـــدَا ... للـــشمْسِ ضـــوءٌ في علَـــمْ

نفـــرُوا تقـــودهُمُ الـــسعا ... دَةُ مثـــل ســـيْلٍ إن هجَـــمْ

ســـالتْ بأعنـــاقِ المَطِـــيْ ... يِ ذُرى الأبـــاطح والأكَـــمْ

مَـــلأوا البـــسيطةَ بالقبـــا ... بِ كـــأنهُنْ بـــيضُ الـــنعمْ

بيـــضًا وخـــضرًا بـــين حُمْـــ ... ـــرِ مثـــلَ عقـــدٍ مُنـــتظمْ

بُـشرى لِمَـنْ يَرْمِـي الجِمـا ... رَ مُكـبرا وأراقَ دمْ

نِعْـم الـذخيرة فعلـهُ ... يـومَ تـزِلُّ بـهِ القـدمْ

يـا حُـسن عَـيشٍ نـاعم ... يُـؤذي القلـوبَ إذا انـصرمْ

واجعَـلْ بمكـةَ آخـرَ الـ ... ـعهْدِ المكـانَ المـستَلمْ

وارحَـلْ بعـزمٍ نحـوَ طيـ ... ـبةَ فـالموفقُ مَـن عَـزَمْ

ثم شرعت بعد هذا في ذكر المدينة ثم مدحه صلى الله عليه وسلم وكلها منسجة تركنا ذكرها بتمامها لطولها.

فلما أصبحنا في اليوم الثالث أخذ الناس في الرحيل متعجلين، ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى﴾[1]، وكثير من الناس رمى في ذلك اليوم والذي قبله قبل الزوال، جهلاً منهم، ولم يرتحل الأمراء حتى زالت الشمس وذهبت المحامل السلطانية وتعجل الناس كلهم، وتلك عادتهم، ولم يبق إلا ركب أهل العراق، وكلمنا أصحابنا المغاربة فأبوا الاستعجال لشراء القماش بمكة ظنا منهم أن بتأخير يوم يفوت غرضهم، ولم يشعروا أنَّ ما فاتهم من ثواب هذه الليلة وإحياء هذه السنة أعظم مما يدركون من الغرض العاجل، مع أنه لا يفوتهم ولو تأخروا، ولم يسعفنا في ذلك إلا أمير ركبنا سيدي محمد بن محمد الحفيان بنفسه وتعجل أصحابه، وصاحبنا الفقيه الأجل القاضي سيدي أحمد الخطيب المراكشي، وأناس[2] قليلون ممن رغب في الخير نحو من ثلاثة أخبية، واجتمعنا في موضع واحد وبتنا، ولما رجعنا ذلك اليوم من رمي الجمار صَلَّيت العصر بالمسجد، ولقيت بالقبة التي في وسط المسجد سليمان بن الشيخ عبد العزيز الحبيشي من مدينة الأحساء بالموصل، وتكلمنا معه فوجدته له مشاركة حسنة في كثير من العلوم، وحصلت بيني وبينه ألفة، ولم يزل يتعاهدني في أيام الإقامة بمكة، وأهدى لي من ثمار بلدهم، وهو أجود التمر، وقد عقدت معه عقد أخوة في الله، وكتب لي بذلك خطه، نسأل الله أن ينفعنا بها. ثم بتنا تلك الليلة ولم نر ما يسوؤنا من سارق أو غيره، والله يختم بخير. وهذا المسجد، أعني مسجد الخيف، يُسَمَّى مسجد علي،

(1) البقرة: 201.
(2) في ط: أنس.

قيل إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أول من بناه، وهو موضع منزل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في حجة الوداع، وطول هذا المسجد من المحراب إلى الباب الذي يقابله أربعمائة قدم، وعرضه ثلاثمائة وأربعون، وبوسط المسجد قبة مثمنة كل ثمن منها أربعة وعشرون قدماً من خارجه، ورأيت في بعض التواريخ أن في محل هذه القبة كان فسطاطه عليه السلام. وصحن هذا المسجد كبير إذ المسقف من مقدمه نحو أربعة من الصفوف، ومن سائر الجوانب غير مسقف، وقد رأيت قبل هذا في إحدى سواري هذا المسجد مكتوباً ما أظن أن صورته هذا:

[خفيف]

أيها الغائبونَ بالله جُودوا　　لِغَريبٍ بدعْوةٍ إن قَدمتُمْ

كان منْ قبْلُ ها هنا مثلَ ما قد　　كنتُمْ حاضِرًا كما قدْ حضرتُمْ

وتحته مكتوب ما نصه:

[خفيف]

قدْ حضرنا بذا المكانِ وغبْتُمْ　　وشهدْنا بهِ كما قد شهدْتمْ

وذكرناكُمْ بكلِ جَميلٍ　　فاذكرونا بمثلهِ إن حضرتُمْ

ووجدت في سارية أخرى بيتا مفردا وهو:

[رمل]

إن في الجنةِ نهْرًا من لبَنْ　　لعَليٍّ وحُسيْنٍ وحَسَنْ

وقد صدق قائله إلا أنه تُشَمُّ منه رائحة التشيّع، وأن هذا النهر خاص بهم، رضي الله عنهم، وبمن والاهم دون غيرهم من الصحابة وصالحي الأمة رضي الله عن جميعهم، وجعلنا ممن أحسن من تابعيهم آمين.

ولما زالت الشمس من اليوم الرابع ارتحلنا من مِنى ورمينا الجمار بلا زحمة؛ إذ لم يبق بمنى إلا نحن وركب أهل العراق. ثم سرنا حتى نزلنا المحصب ولم يحصب أحد سوانا، بل كثير من الناس لا يعرفونه وتعجبوا من نزولنا هناك، وصلينا بالمحصب الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وبعده أخذنا في الرحيل فأصابنا مطر

وابل و لم يمكنا المرور وسط مكة للزحمة والظلمة، فعدلنا ذات اليمين إلى كـداء، ومررنا وراء الجبل حتى نزلنا أسفل ذي طوى بالمحل المسمى بالشبيكة ليلة الاثنين، وهناك يترل الركب المغربي، وبتنا هنالك ثم تركنا هناك خباءنا وإبلنا وبعض أصحابنا، ودخلنا إلى مكة ونزلنا بالمكان الذي اكتريناه قرب باب إبراهيم، وأقمنا يومين. ثم ذهبنا للعمرة وأحرمنا لها من التنعيم لتعذر الجعرانة[1] من شدة الحر وقلة الرفيق، وأتينا لها ليلا وفرغنا من سعيها عند طلوع الشمس. فلما كان يوم الأربعاء اجتمعت بالشيخ جمال الدين الهندي[2] بالمدرسة الداودية، جمعني به شيخنا وصاحبنا الشيخ علي باحاج اليمني[3] بعدما سألته عمن هو اليوم في الحرمين أفضل هذه الطائفة النقشبندية، فدلني على الشيخ جمال الدين وعلى رجل آخر من أصحاب الشيخ تاج الدين، إلا أن الشيخ جمال الدين أكثر منه عبادة وزهادة وإقبالا على الطريق، وكنت كثير التشوف إلى لقيا أحد من هذه الطائفة لما كنت أرى من محاسن أصحابها وجدهم واجتهادهم في الكتب المؤلفة في طريقهم. فلما اجتمعت بالشيخ جمال الدين أخذت عنه طريق السادات النقشبندية ببيته، وذلك ظهر يوم الأربعاء المذكور، وشيخنا هذا من أعبد أهل زمانه، مقبل على شأنه، مراقب للحق في سره وعلنه[4]، منقطع بالحرمين الشريفين لعبادة ربه، لا مال ولا أهل إلا أصحابه المشتغلون بالطريق على يديه، ولهم سيما وبهجة لا تخفى على ذي بصيرة، وطريقهم طريق جد واجتهاد، قريب فتحها، كثير خيرها، بعيدة عن الرياء والسمعة، إلا أنها تحتاج كغيرها من الطرق إلى مرشد عارف ناصح، وسنذكر بعد هذا نبذة من اصطلاح أهلها لغرابتها بمغربنا.

وفي يوم الأربعاء المذكور ذهبت إلى شيخنا زين العابدين الطبري[5] فوجدته بداره وسلمت عليه، ورحب بي كثيراً وعزيته في أخيه شيخنا أبي الحسن[6]،

---

(1) الجعرانة: الموضع الذي احرم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف بعد فتح مكة، وهو موضع مشهور على بريد من مكة: الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، ص: 168.

(2) جمال الدين النقشبندي، عالم متصوف، توفي بالمدينة المنورة سنة 1076 هـ: التقاط الدرر، ص: 167. نشر المثاني 2:151.

(3) علي بن أحمد اليمني الشافعي، باحاج، عالم رواية، جاور بمكة لطلب العلم أعواما: اقتفاء الأثر، ص: 140.

(4) في ط: إعلانه.

(5) زين العابدين بن عبد القادر الطبري الحسني المكي الشافعي، إمام المقام الإبراهيمي، كانت وفاته بمكة سنة 1078 هـ: خلاصة الأثر 2:195. التقاط الدرر، ص: 172.

(6) الإشارة هنا إلى أبي الحسن علي الطبري الذي تقدمت ترجمته.

وواعدني يوم السبت لتلقين الذكر ولباس الخرقة، واعتذر بكثرة[1] الأشغال بولايته الفتوى مضافة إلى إمامة المقام، مع شغل البال بأيام الموسم، فلما كان يوم السبت لقيته بالمسجد الحرام بإزاء باب السلام، ولقنني وأجاز لي الخرق الثلاث: القادرية[2] والسهروردية[3] والكبروية[4]، وقد كان أجازنيها أيضا قبل ذلك، وضاق الوقت عن[5] كتب أسانيدها، ولنا بحمد الله أسانيد تتصل بها من طرق أخرى.

وفي ليلة الخميس دخلت المسجد الحرام بنية الاعتكاف، وبت به تلك الليلة ولم[6] يتيَسّر لي أداء حق الاعتكاف من كثرة الطواف والذكر والتلاوة، لأن الصوم أضعفني، وفي ذلك اليوم حدثت لنا نية المجاورة بالحرمين الشريفين، فأشغل ذلك البال، وسبب ذلك أني كنت كثيرا ما أتمنى ذلك وأهذي به في سفري، وأرغب إلى الإخوان في الموافقة، وكانت موافقتهم عندي أبعد من كل بعيد، إلا أني أذكر ذلك وأكثر منه ذكر من أحب شيئاً واشتغل قلبه به، وإن أيس منه، وكان أخي سيدي عبد الرحمن هو السبب في سفرنا هذا العام قد عزم على ذلك من بلادنا وكتمه ولم يظهره لنا، فلما كنا بمكة أعلن أمره وخدع أخاه سيدي أبا بكر بن محمد حتى أدخله الحجر، فلما صليا فيه وأخذ في الدعاء، وضع المصحف في حجره و قال: أقسمت عليك بكتاب الله في بيت الله إلا ما تركتني أجاور في هذه السنة ووافقتني، فلم يمكنه إذ ذاك إلا مساعفته مع تحمل المشَقَّة الفادحة في ذلك، تعظيماً ورعاية لحق ما أقسم به عليه، فلما تبَيَّن أمره وجدت السبيل إلى إظهار ما كنت أقوله، وسَرَّني ما فعل، (فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم)[7]، فقلت للأخ سيدي أبي[8] بكر: إنه لا يمكن ترك أخينا وحده ولا بد من أحد يجلس معه، إما أنا

(1) زيادة من ط.
(2) نسبة إلى عبد القادر الجيلاني الذي تقدمت ترجمته.
(3) نسبة إلى السهروردي، شهاب الدين يحيى بن حبش، العلامة الفيلسوف، ناظر فقهاء حلب فلم يجاره أحد فطلبه الظاهر وعقد له مجلسا فبان فضله، فقربه الظاهر واختص به، فشنعوا وعملوا محاضر بكفره وبعثوها إلى السلطان، وخوفوه أن يفسد اعتقاد ولده، فكتب إلى ولده بخط الفاضل يأمره بقتله، فلما لم يبق إلا قتله اختار لنفسه أن يمات جوعا ففعل ذلك في أواخر سنة 586 بقلعة حلب وعاش ستا وثلاثين سنة: سير أعلام النبلاء 21: 207. البداية والنهاية 13: 5.
(4) نسبة إلى نجم الدين الكبرى، أحمد بن عمر الخيوقي البغدادي المتوفى سنة 618 هـ: هدية العارفين 1: 90.
(5) في ط: على.
(6) في ط: لم.
(7) يوسف: 77.
(8) في ط: أبا.

أو أنت، وقد علمت أنه لا يمكنه الجلوس لكثرة التعلقات، فاقتضى الحال أن أجلس معه، وشق ذلك كثيرا على إخواننا وجميع أهل رفقتنا لألم المفارقة وقلة ذات اليد، وأنا في خلال ذلك ذاهل من الفرح وألم الفرقة، (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان)[1]، وأقول: إن يك هذا من عند الله يمضه.

واعتقدت أن الخير الكثير فيما اختار الله من ذلك؛ لكثرة استخارتي واستغاثتي ودعائي من قبل ذلك، وحملنا إخواننا الذين معنا من ذلك مشقة عظيمة، بل وكذلك الغائبون، نسأل الله أن يتقبَّل منهم ذلك، ويثقل به ميزان صالح أعمالنا وأعمالهم، وهم شركاء في الأجر وأعوان على الخير، والله تبارك وتعالى، لسعة جوده وكرمه وكثرة مواهبه وحُبِّه للتفضل كما لا يقبل العمل المشترك فيتركه لشريكه استغناء عنه وإظهاراً لصفة العزة والجلال، كذلك لا يقسم بين الشركاء فيما تعاونوا عليه من البر والتقوى والسعي في مرضاته، بل يعطي كل واحد أجره كاملاً موفوراً، ويزيدهم من فضله[2]، إنه كان (بالمؤمنين رحيماً)[3]؛ إظهاراً لصفة الرحمة والفضل والكمال، فله الحمد على ما أولى، والشكر على ما به تولى، فهو الملك الذي لا أحد يدانيه في عظيم نواله، أو يشاكله في إتقان أفعاله، فسبحانه من رب ما أكرمه، وإله ما أعظمه، بيده الخير وهو على كل شيء قدير[4].

وقد أصابتني حُمَّى في بعض تلك الأيام فاحتجمت فعافاني الله منها. وكانت تلك الأيام التي أقمناها بمكة أيام حر واختناق الهواء، وكان ذلك والشمس في برج السنبلة، وأشد ما يكون الحر بالحجاز في السنبلة والميزان، ونسأل الله أن يثقل بما قاسينا منه الميزان.

وفي يوم الجمعة لقيتُ شيخنا الشيخ عيسى الثعالبي بمنزله بباب حزورة وتلقيت منه الذكر على طريق السادات النقشبندية، رضي الله عنهم، وألبسني الخِرَق الثمانية التي ضَمَّنها الشيخ أحمد بن أبي الفتوح[5] رضي الله عنه كتابه

---

(1) الرحمن: 17 – 18.

(2) إشارة إلى قوله تعالى:(ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور): فاطر: 30.

(3) الأحزاب: 43.

(4) إشارة إلى قوله تعالى: (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير): آل عمران: 26.

(5) أبو الفتوح أحمد بن عبد الله بن أبي الفتوح الطاوسي الحنفي الصوفي، له كتاب: جمع الفرق لرفع الخرق، وهي ثمانية خرق: فهرس الفهارس 2:914.

المُسَمَّى: جمع الفرق لرفع الخرق، وهي ثمانية، وهو لبسها من شيخنا صفي الدين القُشاشي المدني، رضي الله عنه، وقد قيدت في مسوداتي عقب الإلباس ما نصه: لبست الخرق الثمانية التي اشتمل عليها كتاب[1] أحمد بن أبي الفتوح من يد شيخنا مسند العصر و علامة الدهر، سيدي أبي مهدي عيسى بن محمد الجعفري الثعالبي رضي الله عنه بمنزله بباب حزورة أحد أبواب المسجد الحرام، وأجازني بها عن الشيخ الأجل قطب وقته شيخنا أحمد بن محمد المدني القشاشي، عن الشيخ الكامل العارف أبي العباس أحمد بن علي الشناوي[2]، عن السيد غضنفر بن جعفر الحسيني، عن الخطيب الكازروني جد هبة الله بن عطاء الحسيني الحسني، عن جده أحمد بن أبي الفتوح فيما له. قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله تعالى أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي كان الله له آمين.

ثم كتب الشيخ بخط يده بأمر هذا ما نصه: الحمد لله، صح ذلك وكتبه العبد الفقير عيسى بن محمد الجعفري المالكي وفقه الله. قلت: والخرق الثمانية لها وسائط ثمانية متصلة بالنبي عليه السلام؛ الواسطة الأولى: أبو العباس الخضر عليه السلام. الثانية: نبي الله إلياس عليه السلام. الثالثة: أبو بكر الصديق رضي الله عنه. الرابعة: أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. الخامسة: باب مدينة العلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه. السادسة: ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنه. السابعة: سيد أهل الصفة أبو الدرداء[3] رضي الله عنه. الثامنة: قطب العارفين أبي البيان تباء بن محمد بن محفوظ القرشي رضي الله عنه ألبسه النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة عياناً، ولكل واحد من هذه الوسائط طرق متعدّدة بسط أسانيدها إلى أربابها ثم إلى الوسائط الثمانية، ثم إلى الواسطة العظمى سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم. وأما طريق ساداتنا النقشبندية فقد رواها شيخنا الثعالبي عن الشيخ محمد المعصوم العمري الهندي، وقد كتب للشيخ عيسى إجازة مشتملة على إسنادها فلنكتبها بجملتها ونصها: باسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي خلق آدم على صورته وكرمه بخلافته، وأجرى تلك السنة بين

---

(1) في ط: كتب.

(2) أحمد بن علي بن عبد القدوس الشناوي المصري، عارف متصوف، له عدة مصنفات في التصوف، كانت ولادته سنة 975 هـ بمصر، وتوفي بالمدينة المنورة سنة 1028 هـ: خلاصة الأثر 1:245.

(3) أبو الدرداء الخزرجي، الزاهد الحكيم، أسلم بعد بدر، وولى قضاء دمشق لمعاوية في خلافة عثمان، توفي سنة 32 هـ: شذرات الذهب 1:39.

أنبيائه وأوليائه، وقدم إحسانه على منته، وأخر شكره على نعمته، و(هـو الأول والآخر والظاهر والباطن)[1]، ولا مؤخر لما قدم، ولا مقدم لما أخر، ولا معلن لما أبطن، ولا مخفي لما أظهر، وسمت همم أوليائه عن الركون إلى الأكوان عارا، وتعلقت جنابهم بالله تعالى بارا، فدارت عليهم بكرة وعشية كؤوس المحبَّة من كوثر محبوبهم دارا، كلما جنَّ عليهم الليل جعل قلوبهم من شوق لقاء الخليل نارا، وتفيض أعينهم من الدمع مدرارا ليلا ونهارا، ويشتغلون بذكره سرا وجهارا، ويتمتعون بمناجاة المحبوب إعلانا وإسرارا، ويطوفون حول سرادقات الوحدة أفكارا، لا يزال منهم في كل زمان من يعرف في وجهه نضارة العرفان، وهو عطشان وحيران، له في فضاء العشق والوله طيران، غاية مطلوبه لقاء الرحمن، ونهاية مقصوده رضاء المنان، فيظهر في أقطار الأرض آثاره، ويظهر في الآفاق أنواره. لسانه ناطق بالحق، وهو داع إلى رب الخلق ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويقربهم ويحييهم، إن الله الغفور، والصلاة والسلام على من هو خير خلقه وأحبابه، وخاتم أنبيائه وأصفيائه، وهو رسول الرحمة وصاحب الشريعة الغراء والطريقة الزهراء والحنيفية البيضاء، وعلى خلفائه الأربعة وأصحابه الكرام البررة.

أما بعد: فإن الدعوة إلى الله العلام من أوثق دعائم الإسلام، وأكرم مناهج العمل والإحسان، على ما ورد في الخبر عنه عليه الصلاة والسلام: والذي نفس محمد بيده إن أحب عباد الله الذين يحببون الله إلى عباده ويُحَبِّبون عباد الله إلى الله، ويمشون في الأرض بالموعظة والنصيحة[2]. كما قال تعالى: (قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني)[3]، وأتباعه إنما يكون برعاية أقواله وأفعاله وأحواله. ثم إنَّ أخانا العالم الشيخ عيسى بن محمد المالكي دخل بتوسُّط العبد المفتقر إلى رحمة الله الملك القيوم، محمد المعصوم العمري[4] غفر الله تعالى ذنوبه وستر عيوبه، في سلك إرادة الشيوخ النقشبندية الذين هم أحقاء للاقتداء، وأخذوا الوسيلة لما أنهم أدرجوا النهاية في البداية، والتزموا متابعة السنة، وجنبوا عن ارتكاب البدعة، كثر الله سوادهم، ودمر سبحانه حسادهم، وكان شيخه والده

---

(1) الحديد: 3.

(2) ورد الحديث برواية: إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحببون الله ويحببون الله إلى الناس، والذين يراعون الشمس والقمر والنجوم والأظلة لذكر الله: السنن الكبرى للبيهقي 1:379.

(3) يوسف: 108.

(4) الشيخ محمد المعصوم، متصوف عارف، ولد سنة 1007 هـ، وتوفي سنة 1099 هـ، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 114.

القطب الرباني والمجد للألف الثاني، قدوة الأولياء والمحققين، ووارث علوم الأنبياء والمرسلين، الشيخ أحمد ابن الشيخ عبد الأحد قدس الله تعالى سرهما، وشيخه ومعلم طريقه مريد الدين الرضي الشيخ محمد الباقي وشيخه مولانا خواجكي الأمكنكي[1]، وشيخه مولانا محمد درويش[2]، وشيخه مولانا محمد الزاهد[3] وشيخه قدوة الأحرار عبيد الله، وشيخه مولانا يعقوب الخرجي، وشيخه قبلة هذه الطريقة وإمامها بهاء الحق والدين المشتهر بنقشبند[4]، وشيخه ومعلم طريقته وآدابه الأمير كلال[5]، وشيخه مولانا محمد بابا[6] السماسي[7]، وشيخه علي الراميتني المشتهر بعزيزان[8]، وشيخه محمود أنجيرا الفغنوي[9]، وشيخه مولانا عارف الرويو كري[10]، وشيخه رئيس هذه الطريقة عبد الخالق الغجدواني[11]، وقد ربى بالروحانية هذا الرئيس الشيخ النقشبندي وشيخه الإمام الرباني الشيخ أبو يعقوب يوسف الهمداني، وشيخه شيخ الطريقة أبو علي الفارمدي[12] الطوسي، وشيخه

---

(1) الشيخ محمد خواجكي الأمكنكي، الشيخ العارف، توفي سنة 1014 هـ، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 106.

(2) الشيخ الدرويش محمد، من أئمة القوم وفضلائهم، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 103.

(3) الشيخ محمد القاضي الزاهد، من أئمة الصوفية، له كتاب: سلسلة العارفين وتذكرة الصادقين، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 101.

(4) الشيخ محمد بهاء الدين نقشبند، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 74 – 86.

(5) الشيخ سيد أمير كلال، ولد في قرية سوخار، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 71.

(6) في خ وط باباد السماسلي، والتصويب من تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية.

(7) الشيخ محمد باباد السماسي، الشيخ العارف، ولد في سماس، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 70.

(8) الشيخ علي الراميتني، من شيوخ الطريقة النقشبندية، توفي سنة خمس عشر أو إحدى وعشرين وسبعمائة: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 67.

(9) محمود الأنجير فغنوي، المرشد العارف، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 66.

(10) الشيخ عارف الريو كري، ولد في قرية ريو كر، أخذ عن حضرة العزيزان: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 65.

(11) الإمام عبد الخالق الغجدواني، عارف عالم، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص:56 – 65.

(12) الإمام الكبير شيخ الصوفية أبو علي الفضل بن محمد الفارمدي الخراساني، الواعظ، ولد سنة 407هـ، وسمع في رجوليته من أبي عبدالله بن باكويه وأبي منصور عبد القاهر البغدادي المتكلم وأبي حسان المزكي وطائفة، روى عنه عبد الغافر بن إسماعيل وعبد الله بن علي الخركوشي وأبو الخير جامع السقا وآخرون. قال عبد الغافر: هو شيخ الشيوخ في عصره المنفرد بطريقته في التذكير التي لم يسبق إليها في عبارته وتهذيبه وحسن أدائه ومليح استعارته ودقيق إشارته ورقة ألفاظه ووقع كلامه في القلوب،

قطب الزمان الشيخ أبو الحسن الخرقاني[1]، وشيخه ومربيه روحانية الإمام الأجل جعفر الصادق، وشيخه وجده من قبل الإمام قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وهو من كبار التابعين ومن فقهائهم السبعة المشتهر فيما بين التـــابعين، وشـــيخه سلمان الفارسي الذي شرَّفه الرسول عليه الصلاة والسلام بتشريف: سلمان منـــا أهل البيت[2]. وشيخه مع درك فضيلة صحبة خير البشر عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات أمير المؤمنين أبو بكر الصديق، وشيخه وإمامه أفضل الأنبياء وقـــدوة الرسل محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبارك، (أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله)[3] هـــ. ثم تقييد عقب هذا بخط الشيخ محمد المعصوم ما نصه: بعد حمد الله والصلاة فقد أجزنا له، دامت بركاته، أن يبلغ عنا طريقـــة هؤلاء الأكابر إلى الطلاب بطريق السفارة وأداء الأمانة، ووصيناه سلمه الله تعالى أن يراعي حقوق الشرع من الأصل والفرع ممتثلاً لأوامر الله تعالى ومجتنباً نواهيه سبحانه، متابعاً سنن رسوله، صلى الله عليه وسلم وعلى آلـــه، متأدّبـــاً بـــآداب الصوفية حق الآداب، وأن يشتغل بالله تعالى اشتغالاً باطنياً معرضاً عن غـــير الله تعالى كما قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم: (واذكر اسم ربك وتبتل إليـــه تبتيلا)[4] زاهداً في الدنيا راغباً في العُقبى (والسلام على من اتبع الهدى)[5].

صحب القشيري وأخذ في الاجتهاد البالغ، وكان ملحوظا من الإمام بعين العناية موفرا عليه منه طريقة الهداية ثم عاد إلى طوس وصاهر أبا القاسم كركان وكان له قبول عظيم في الوعظ، وكان نظام الملك يتغالى فيه وكان ينفق على الصوفية أكثر ما يفتح عليه به، توفي سنة 477 هـــ: سير أعلام النبلاء 565:18. التحبير في المعجم الكبير 2: 21.

(1) أبو الحسن علي بن أحمد الخرقاني البسطامي من قرية خرقان بالتحريك، قال السمعاني: هو شيخ العصر له الكرامات والأحوال، توفي يوم عاشوراء سنة 425 هـــ: سير أعلام النبلاء: 17: 421. تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشبندية، ص: 55.

(1) أبو عثمان المغربي، الإمام القدوة شيخ الصوفية أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي القيرواني نزيل نيسابور، سافر وحج وجاور مدة ولقي مشايخ مصر والشام، وكان لا يظهر أيام الحج. قال الحاكم: خرجت من مكة متحسرا على رؤيته، ثم خرج منها لمحنة وقدم نيسابور فاعتزل الناس أولا، ثم كان يحضر الجامع. وقال السلمي: كان أوحد المشايخ في طريقته لم نر مثله في علو الحال وصون الوقت امتحن بسبب زور نسب إليه حتى ضرب وشهر على جمل ففارق الحرم، توفي سنة 373 هـــ: سير أعلام النبلاء: 320:16

(2) مجمع الزوائد 6: 130.

(3) التوبة: 53، الفتح: 28، الصف: 9.

(4) المزمل: 8.

(5) طه: 47.

ثم بعد أن نقلت هذا من خط الإمام كتبت عقبه ما نصه: الحمد لله، يقول الفقير إلى الله تعالى أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العَيَّاشي، أخذت طريق السادات النقشبندية وتلقنت الذكر على طريقه من شيخنا العلامة المتقن الفَهَّامة، سيدي أبي مهدي عيسى بن محمد الجعفري المالكي بالسند المذكور قبل هذا، وذلك بعد صلاة يوم[1] الجمعة الثامن عشر من ذي الحجة خاتم عام اثنين وسبعين وألف، وذلك بمنزله بباب حزورة، أحد أبواب المسجد الحرام عَمَّره الله بذكره آمين. ثم كتب شيخنا بعقبه ما نصه: الحمد لله، صح ذلك، وكتبه العبد الفقير عيسى بن محمد الجعفري وفَّقه الله.

وأما سند شيخنا جمال الدين الهندي بهذه الطريقة العلية فهو عن شيخه الإمام العارف الهمام السيد آدم الحسيني المجاور بالمدينة المشرفة، وبها تُوفي وقبره الآن مشهور يزار بجانب قبة أمير المؤمنين عثمان بن، عفان رضي الله عنه، وهو أخذ الطريق عن الشيخ أحمد بن الشيخ عبد الأحد، قَدَّس الله أسرارهم آمين، بالسند المتقدم. وأخذت هذه الطريقة العلية عن قدوة المحققين، ورئيس علماء المتقين، الشيخ بدر الدين الهندي وذلك بالحرم النبوي قرب باب الوفود من أبواب الروضة المشرفة، وهو أخذها عن الشيخ محمد المعصوم بسنده المتقَدِّم.

قلت: مما ينبغي أن يتنبه له في السند المتقَدِّم ما ذكره الشيخ أبو الحسن الكاشفي في كتاب الرشحات[2] بعد أن ساق السند المتقدم إلى أبي علي الفارمي، قال: وهو من الشيخ أبي القاسم الكركاني[3]، وانتساب الشيخ أبي القاسم في علم الباطن إلى جانبين أحدهما إلى الشيخ أبي الحسن الخرقاني، وهو عن أبي يزيد، وولادته بعد وفاته بزمان، فتربيته من روحانيته، وكذلك تربية أبي يزيد من روحانية الإمام جعفر فإنه قد ثبت بالنقل الصحيح أن ولادة أبي يزيد بعد وفاة الإمام جعفر رضي الله عنه. قال الشيخ أبو طالب المكي: إنَّ للإمام جعفر نسبتين، نسبة من والده عن أسلافه الأكرمين، والنسبة الثانية للإمام جعفر من جده لأمه

(1) ساقط من ط.

(2) رشحات عين الحياة، وهو فارسي في مناقب مشايخ النقشبندية ورسوم طريقهم ضمنا لحسين بن علي الواعظ الكاشفي البيهقي، المشتهر بالصفي المتوفى سنة 903 هـ: كشف الظنون 1:903.

(3) الشيخ أبو القاسم عبد الله بن علي بن عبد الله الطوسي الطابراني الكركاني، كان شيخ الصوفية والمشار إليه بالأحوال والمجاهدة، سمع حمزة بن عبد العزيز المهلبي وعبد الله بن يوسف الأصبهاني وأبا بكر الحيري، وبمكة من محمد بن أبي سعيد الإسفراييني، توفي في ربيع الأول سنة 469 هـ: سير أعلام النبلاء: 405:18.

قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم، وله نسبة الباطن من سلمان الفارسي، قال: ثم النسبة الثانية للشيخ لأبي القاسم الكركاني إلى الشيخ أبي عثمان المغربي[1]، عن أبي علي الروذباري، عن الجنيد، عن السري عن معروف. ولمعروف نسبتان أحدهما، وهي لداوود الطائي، وهي معروفة، والأخرى لعلي بن موسى الرضي عن أسلافه، انتهى باختصار.

وما ذكر من أخذ الفارمذي عن الكركاني هو الذي ذكره غير واحد. وظاهر كلام الشيخ تاج الدين بن عثمان أنه أخذ عن الخرقاني والكركاني معاً، إلا أن انتهاءه على يد الكركاني، فعلى هذا فأبو علي الفارمذي أخذ عنهما معاً. وأبو القاسم الكركاني له طريقان أحدهما عن الخرقاني عن روحانية أبي يزيد عن روحانية جعفر، وهو الذي في الإجازة المتقدمة وعليه اقتصر صاحبها، وإنما اقتصر عليها، والله أعلم، لأنّ تربية الأرواح المقدسة أبلغ لأنها في مواطن القرب الحقيقي والقرب العياني، ولا تحصل إلا لأكابر أهل السلوك الذين صفت أسرارهم وأشرقت أنوارهم، (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء)[2]. وأما أهل الحجب الكثيفة الظلمانية فليس لهم إلا تربية الأحياء الذين يسايرونها في مدارج أطوارهم ويعالجونهم بمراهم أنوارهم، ويمدونهم على خدر صفاء أسرارهم وإزالة أستارهم. الطريق الأخرى لأبي القاسم عن أبي عثمان المغربي لا انقطاع فيها، وهي أنسب لما عند علماء الظاهر في أسانيدهم إذ هو المعروف المحقق، وأما التقاء الأرواح فأمر غيبي مرجعه إلى الكشف الحقيقي، ولا علم به إلا لصاحبه، فإذا تحقق طريق أبي علي الفارمذي تحقق سند حجة الإسلام الغزالي في طريق القوم أيضاً، إذ الموجود بأيدي الناس والمنصوص عليه عند كثير من أهل الطريق أن شيخه هو أبو المعالي إمام الحرمين، وهذا لا خفاء فيه، إلا أنه لما أخذ عنه العلوم الظاهرة فهو من أجل تلامذته، ولم يشتهر أبو المعالي بسلوك طريق القوم كون الغزالي إنما دخل في طريق القوم وأخذ في تزكية النفس وسلوك مناهج

---

(1) أبو عثمان المغربي، الإمام القدوة شيخ الصوفية أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي القيرواني نزيل نيسابور، سافر وحج وجاور مدة ولقي مشايخ مصر والشام، وكان لا يظهر أيام الحج. قال الحاكم خرجت من مكة متحسرا على رؤيته، ثم خرج منها لمحنة وقدم نيسابور فاعتزل الناس أولا ثم كان يحضر الجامع. وقال السلمي كان أوحد المشايخ في طريقته لم نر مثله في علو الحال وصون الوقت امتحن بسبب زور نسب إليه حتى ضرب وشهر على جمل ففارق الحرم، توفي سنة 373 هـ: سير أعلام النبلاء: 16:320.

(2) النور: 35.

أهل الطريق بعد موت شيخه أبي المعالي بأزمان حسبما صرح به هو بنفسه في كتابه: المنقذ من الضلال[1]، وصرح به غير واحد ممن عُرِف به.

وإذا كان كذلك فشيخه في طريق القوم هو الإمام أبو علي الفارمذي كما ذكر الأسنوي في طبقاته[2] أنه لما اعتزل الناس وترك الاشتغال بالعلوم الظاهرة اتصل بالشيخ أبي علي الفارمذي وصار يحضر مجالسه، وذكر ذلك أيضا سيدي عبد الوهاب الشعراني. وقد ذكر الغزالي في الإحياء الشيخ أبا علي الفارمذي وصَرَّح بالسماع منه، وسماعه هو من أبي القاسم الكركاني في حكاية ذكرها في كتاب الرجاء والخوف، قال ما نصه: "سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي، رحمه الله، يصف لي وجوب حسن أدب المريد لشيخه، وأن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله، ولا في لسانه مجادلة عليه. فقال: حكيت لشيخي أبي القاسم الكركاني مناما لي فقلت: رأيت أنك قلت لي كذا. فقلت: لَمَ ذاك؟ قال[3]: فهجرني شهراً و لم يكلمني. و قال: لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في المنام، وهو، كما قال، إذا قل ما يرى الإنسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه"[4]. فهذا صريح في أخذ أبي حامد عن أبي علي، وفي أخذ أبي حامد عن أبي القاسم رضي الله عنهم.

وممن صرح بأخذ أبي علي الفارمذي عن الكركاني صاحب منارات السائرين[5] إذ قال: إن أبا علي الفارمذي جاء إلى أبي القاسم القشيري ليأخذ عنه، فدله على أبي القاسم الكركاني لعلمه أنه أتم منه حالا وأقوى على تربيته. وقد طال ما بحثت عن طريق الإمام حجة الإسلام وسنده في طريق القوم لما لاح لي ما ذكرت أولا فيما اشتهر من أن شيخه في الطريق إمام الحرمين، ثم رأيت شيخ مشايخنا سيدي العربي الفاسي في كتابه مرآة المحاسن[6] بعدما ذكر ما في الطريق المذكورة من الانقطاع أشار إلى نحو مما ذكرنا، فتحققت حينئذ أن لحجة الإسلام في طريق القوم شيخاً غير إمام الحرمين إلى أن حصلت، وما ذكرنا عن الأسنوي

---

(1) المنقذ من الضلال، ص: 68.
(2) أنظر: طبقات الشافعية 2: 271.
(3) زيادة من ط.
(4) إحياء علوم الدين 4: 155.
(5) منارات السائرين ومقامات الطائرين للشيخ نجم الدين أبي بكر محمد أبي بكر عبد الله بن محمد بن الشاهانوري الرازي: كشف الظنون2: 1823.
(6) أنظر: مرآة المحاسن، ص: 265.

والشعراني من أخذه عن الكركاني فتطلبت إسناد الكركاني وعمن أخذ فلم أجده حتى حصلت على طريق ساداتنا النقشبندية وشرح أحوال مشايخها فظفرت بذلك مستوفى، فاتصلت الطرق بحمد الله اتصالاً ينشرح به الصدر ويطمئن له القلب من غير عارض مخدش فيه ولله الحمد وله المنة على ما ألهم والشكر على ما علم.

لطيفة:

ولما كانت طريق ساداتنا النقشبندية -مع نفاستها وظهور محاسنها ولطيف أسلوبها وجريانها مع الكتاب والسنة -قَلَّمَا توجد في أرض المغرب، بل لا يعرفها أهله حتى بالاسم لبعد مشايخها، فلم تصل تآليفهم إليه، ولا دخل هذه البلاد أحد من أهلها فيما نعلم، مع اكتفاء أهل المغرب منها وعن غيرها من الطرق بالطريق التي بان رشدها واتضح أمرها وأمنت غائلتها، واستقامت أصولها، وجرت مع ظواهر الكتاب والسنة فصولها، طريق القطب الجامع، وشمس المحافل والمجامع، الإمام أبي الحسن الشاذلي[1] وأتباعه أئمة الهدى والحق وأصحاب الإخلاص والصدق، رضي الله تعالى عن فريقهم، وجعلنا من سالكي طريقهم، ولعمري، وما عمري علي بهيِّن، ما طريق ساداتنا النقشبندية منها ببعيد، وما أصولها إلا كأصولها عند كل موفق سعيد.

[طويل]

فإن لا يكنها أو تكنه فإنه ... أخوها غذته أمه بلبانها[2]

ومن تأمل رشحات النقشبندية وحكم الشاذلية لم يجد بينهما اختلافا إلا في بعض الاصطلاحات الراجعة إلى الأعمال الظاهرة، وأما الأعمال القلبية والمنازلات العرفانية فلا فرق أصلاً.

رأيت أن أذكر في هذه اللطيفة بعض أصول طريقهم وكيفية سلوكهم مع الاختصار ليستفيد ذلك من طلبه، وقد اقتطعت من كلام الشيخ تاج الدين بن

(1) أبو الحسن الشاذلي: علي بن عبد الله الحسني، من أقطاب التصوف، توفي في طريقه إلى الحج سنة 656 هـ: شرف الطالب، ص: 72. شجرة النور الزكية 1:267.
(2) البيت لأبي الأسود الدؤلي: الديوان، ص: 162.

عثمان ومن كلام الكاشفي ما يكون فيه إشارة إلى المقصود وعوناً على المـراد، فأقول: قال الشيخ تاج الدين في بعض رسائله ما نصه: فصل في طريق الوصول إلى الله تعالى على طريقة السادة النقشبندية إما بمحض الصحبة، أو بالذكر أو بالمراقبة، وطريق ذكر هذه السلسلة أن تذكر الكلمة الطيبة، أعني: لا إلــه إلا الله محمــد رسول الله بحبس النفس، وتراعي العدد الوِتر، وإذا جاوز العدد إحدى وعــشرين مرة ولم يظهر للذكر أثر فهذا دليل على عدم قبوله، فليشرع في ابتداء الذكر من أصله، وأثر الذكر هو أنك في زمان النفي تنفي عنك وجود البشرية، وفي زمـــان الإثبات يظهر فيك أثر من آثار تصرفات الجذبات الإلهية، والأثر متفاوت بحسب الاستعدادات. ثم قال بعد كلام: وكيفية الذكر أن تجعل اللسان ملتصقا بـــسقف الفم وتلصق الشفة بالشفة والأسنان وبالأسنان وتحبس النفس وتشرع في كلمة لا مبتدئا بها من السرة، وتصعد بها إلى جانب الدماغ، فإذا وصلت إلى الدماغ ملت بإله إلى جانب اليمين، وبإلا الله إلى جانب اليسار، ورميت بهـــا علـــى القلـــب الصنوبري بقوة بحيث يظهر أثرها وحرارتها في سائر البدن، وتميل بمحمد رســـول الله من جانب اليسار إلى جانب اليمين، أي تأتي بها بينهما وتقول بعد ذلك أيضاً: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، يعني وهذا الذكر مع توجه القلب على وجه يظهر أثره في القلب ويؤثر منه، ويكون ذلك كله بحيث لا يظهر على ظاهره ولا يشعر به من كان بقربه، وفي حبس نفسه يذكر مرة أو ثلاثا مراعيا للوتر. وقـــال حضرة الخوجة نقشبند، قدس سره، في معنى الكلمة الطيبة: إن لا إله إلا الله معناه نفي الإلهة الطبيعية، وإلا الله إثبات المعبود بالحق، ومحمد رسول الله معناه أنـــك أدخلت نفسك في مقام فاتبعوني، وبعض أكابر هذه السلسلة قال في معنى الكلمة الطيبة: إن المبتدئ يتصور في لا إله لا معبود، والمتوسط يلاحـــظ لا مقـــصود، والمنتهي لا موجود إلا الله تكون ملاحظة لا موجود إلا الله كفراً. وقيل معناه لا متصرف في الملك والملكوت إلا الله، وينبغي الاجتهاد في مداومة الذكر لا تتركه في حال ولا في وقت ولا في قيامك ولا قعودك ولا في حريتك ولا في نومك، وإن حصل لك في الذكر أو في مجالسة الشيخ كيفية فافرضها كالخط المستقيم، فـــإن تخَيَّل هذا المعنى وشغل الخيال بأمر واحد فمد الجمعية. وقال بعض الأكـــابر: إذا تغيرت شعرة من بدنك بواسطة الحال وتأثرت ينبغي لك أن تتبع تلك الشعرة حتى يحصل التعطل، كما قال بعض الأكابر: الشغل هو عدم الشغل، وعدم الشغل هو الشغل. وقال المولى سعد الدين الكاشفي: إن الشيخ عبد الكريم الـــيمني ســـألني

وقال: ما الذكر؟ فقلت له: لا إله إلا الله. فقال: ما هذا ذكر، هذه عبارة. فقلت له: أفِدْ أنت. فقال: الذكر أن تعلم أنك لا تقدر على وجدانه. وقال سيد الطائفة الجُنيد: التصوف هو أن تجلس ساعة متعطّلاً عن ملاحظة شيء. وقال شيخ الإسلام: في ملاحظة ذلك يحصل الوجدان بغير تفتيش، والرؤية بغير نظر. ومقصود الطائفة العلية الصوفية مشاهدة الحق كأنك تراه، وملكة الحضور يسمونها مشاهدة الحق، ويكون بالقلب، وأما الرؤية فتكون بعيني الرأس، والفرق بين الرؤية والمشاهدة أنك في الرؤية لا تقدر أن تبعدها عن نفسك وفي المشاهدة أنت بالخيار.

الطريق الثانية للسادة النقشبندية في سبب الوصول وحصول المعرفة، وهي أسهل الطرق وأقربها التوجه والمراقبة، وهو أن ذلك المعنى المقدس الذي بغير كيف ولا مثال المفهوم من الاسم المبارك، أعني الله، بغير واسطة، عبارة عربية أو عبرانية أو فارسية أو غيرها، تلاحظه وتحفظه في خيالك وتتوجه بجميع قواك ومداركك إلى القلب الصنوبري وتداوم على هذا الأمر وتتكلف في ملازمته حتى تذهب الكلفة من البين، و يصير هذا الأمر ملكة لك. وقال بعض الأكابر النقشبندية: إن المعنى المقصود إن عسر عليك فتخيله، فصورة نور بسيط محيط بجميع الموجودات العلمية والعينية، واجعله في مقابل البصيرة، ومع حفظ ذلك توجه إلى القلب الصنوبري بجميع القوى والمدارك إلى أن تقوى البصيرة وتذهب الصورة ويترتب على ذلك ظهور المعنى المقصود.

وقال حضرة الخوجة عبيد الله أحرار[1]: إن المراقبة من المفاعلة، فلا بُدَّ من التراقب من الجانبين، فعلى هذا لا بد للمراقب أن يكون مراقبا لاطلاعه على اطلاع الحق سبحانه على جميع أحواله ويداوم على ذلك، ويكون مراقبا لاطلاعه على موجده بلا فتور وتشتت خاطر. والطريق الآخر أن يكون مراقباً لقلبه الصنوبري ولا يترك الخواطر تحل فيه حتى تتيسر له الربطة بقلبه الحقيقي من غير ملاحظة معنى المفاعلة، وطريق المراقبة أعلى من طريق النفي والإثبات، وأقرب للجذبة الإلهية من غيرها، ومن طريق المراقبة يمكن الوصول إلى الوزارة والتصرف في الملك والملكوت، ويمكن بها الإشراف على الخواطر والنظر إلى الغير بنظر الموهبة

---

(1) عبيد الله الأحرار: ولد في شاش سنة 806 هـ، وتوفي سنة 895 هـ: أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 92 وما بعدها.

وتنوير باطنه، ومن ملكة المراقبة يحصل دوام الجمعية ودوام قبول القلوب، وهـذا المعنى يسمى جمعا وقبولاً.

الطريق الثالثة: الطريق الرابطة بالشيخ الذي وصل إلى مقام المشاهدة وتحقق التجليات الذاتية، فإن رؤيته بمقتضاهم الذين إذا رأوا ذكر الله تفيد فائدة الذكر، وصحبته بموجب، هُم جلساء الله تنتج صحبة المذكور، وإذا تيسرت صحبة مثل هذا العزيز ورأيت أثره في نفسك فينبغي أن تحفظ ذلك الأثر الذي تشاهده فيك بقدر الإمكان، وإن حصل لك في ذلك المعنى فتور راجع مصاحبته حتى يرجع لك ببركة ذلك الأثر، وهكذا تفعل مرة بعد أخرى حتى تصير تلك الكيفية ملكة لك، وإن لم يظهر من صحبة ذلك العزيز أثر ولكن حصلت به محبة وانجذاب فينبغي أن تحفظ صورته في الخيال وتتوجه للقلب الصنوبري حتى تحصل الغيبة والفناء عن النفس، وإن وقفت عن الترقي فينبغي أن تجعل صورة الشيخ على كتفك الأيمن في خيالك وتعتبر من كتفك إلى قلبك أمرا ممتدا وتأتي صورة الشيخ على ذلك الأمر الممتد وتجعله في قلبك فإنه يرجى لك بذلك حصول الغيبة والفناء، انتهى كلام الشيخ تاج الدين.

ولما كان رأس هذه الطائفة العلية، وإمام هذه الطريقة السنية، هو الشيخ عبد الخالق الغجدواني، رضي الله عنه، ثم من بعده الشيخ بهاء الدين نقشبندي، وبه اشتهرت وإليه انتسبت، رأيت أن أذكر هنا بعض أحوال الشيخ عبد الخالق وبعض وصاياه مع اثني عشرة كلمة المأثورة عنه وعليها مبنى طريق السادات النقشبندية رضي الله عنهم، وقد ذكر هذه الكلمات أهل هذه الطريقة في رسائلهم وبالغوا في شرحها وإيضاح معانيها، فلنقتصر على ما ذكر أبو الحسن الواعظ الشهير بالصفي الكاشفي في كتاب رشحات عين الحياة عند ذكر ترجمة الشيخ عبد الخالق الغجدواني، ولنسق كلامه بتمامه لما اشتمل عليه من الفوائد فأقول: قال رضي الله عنه ما نصه: الخوجة عبد الخالق الغجدواني، قدس الله سره، هو الخليفة الرابع من الخلفاء الأربعة للخوجة يوسف الهمداني[1] قدس الله سره، وهو رأس هذه الطبقة الشريفة ومنبع طريق الخوجكان قدس الله أسرارهم، مولده ومدفنه موضع الغجدوان من ديار بخارى على ستة فراسخ منه، والده عبد الجميل، وكان معروفا

(1) يوسف الهمداني: إمام عارف، ولد في همدان سنة 440 هـ، وتوفي سنة 535 هـ: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص:54.

بعبد الجميل إمام، وكان من أولاد سيدنا ومولانا الإمام مالك رضي الله عنه، وكان عالما بعلوم الظاهر والباطن، وكان ساكنا موضع ملاطية الروم، وأمه كانت من أولاد ملوك الروم، ونقل أن عبد الجميل إمام صحب الخضر عليه السلام، وكان بشره الخضر بقرب وجود الخوجة عبد الخالق وسماه عبد الخالق، وعبد الجميل إمام بسبب الحوادث خرج من ديار الروم مع التعلقات إلى ما وراء النهر، وجاء لبلاد بُخارى وسكن في قرية الفجرواني واشتغل في بخارى بتحصيل علوم الظاهر عند الشيخ صدر الدين، وهو كان من كبار علماء الزمان، وكان ذات يوم يقرأ في تفسير القرآن، فلما وصل هذه الآية (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين)[1] سأل من الأستاذ كيف حقيقة الذكر الخفي وما طريقه لو يذكر بالجهر أو بتحرك الأعضاء يطلع عليه الناس، ولو يذكر بالقلب فالشيطان يطلع عليه بموجب الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم. فقال الأستاذ: هذا علم لدني، وإن أراد الله يلقيك أحداً من الأولياء يلقنك الذكر الخفي فبعد هذا كان الخوجة عبد الخالق منتظراً لهذا النفس الشريف حتى جاء الخضر عليه السلام فلقنه الوقوف العددي. وذكر في كتاب فصل الخطاب[2] أن طريق الخوجة عبد الخالق حجة على جميع الفرق ومقبول لهم لأنه كان على الدوام على طريق الصدق والوفاء وتباعة الشرع وسنة المصطفى ومجانبة البدع ومخالفة الهوى، وكان يخفي طريقه على الأغيار ويداوم على الذكر الذي وصل إليه من الخضر عليه السلام، والخضر عليه السلام كان قال له: أنت ولدي. وكان طريق تعليم الذكر له من الخضر عليه السلام هكذا أنه كان أمر الخضر عليه السلام للخوجة عبد الخالق أن يدخل في الغدير ويغطس ويذكر في القلب لا إله إلا الله محمد رسول الله، ففعل كما أمر، وداوم عليه وحصل له القبول ببركة الدوام، وفتح له أبواب الفتوح، ثم جاء الخوجة يوسف الهمداني إلى بخارى فصحبه ما دام في بخارى، و بعد حصول الصحبة فهم الخوجة عبد الخالق أن الشيخ يوسف أيضاً ذكر الباطن، فالخوجة خضر عليه السلام شيخ تعليم الذكر له، والخوجة يوسف شيخ الصحبة. أما الشيخ يوسف وأصحابه فكانوا يذكرون بالخفي والجهر أيضاً، وأما أمر الشيخ للخوجة عبد الخالق بذكر الجهر لأنه كان مأموراً من الخضر عليه السلام بالخفى، بل قال:

---

(1) الأعراف: 55.

(2) كتاب فصل الخطاب في المحاضرات، للحافظ الزاهد محمد بن محمد الحافظي من أولاد عبيد الله النقشبندى البخاري المعروف بخواجه النقشبندى: كشف الظنون 2: 1260.

كن كما أمر الخضر عليه السلام. وذكر في بعض تحريرات الخوجة عبد الخالق أنه قال حين كنت بين اثنين وعشرين كان وَصَّى الخضر عليه السلام للخوجة يوسف الهمداني بتربيتي، فما فارقت خدمته وملازمته حتى كان في بخارى، وكنت مستفيضاً منه على ساعة ولمحة، فبعدما رجع الشيخ يوسف إلى خراسان اشتغل الخوجة بالرياضة والمجاهدة، وكان يخفي أحواله من الناس، وحصل الولاية حتى كان يصلي الصلاة عند الكعبة المشرفة ويرجع في الوقت، وفي بلاد الشام اجتمع عنده المريدون والتلامذة وبنى بها الخانقات[1]، وأقام فيها بدعوة الطالبين الصادقين إلى الحق. وله رسالة في آداب الطريقة[2]، كتبها لولده الشريف الشيخ أولياء الكبير، وفيه فوائد كثيرة وعوائد جليلة لا بد منها للمريدين الصادقين سأكتبها تيمنا وتبركا.

رشحة[3]:

يا بني، أوصيك بتحصيل العلم والآداب وتقوى الله، وكن تابعاً لآثار السلف الصالح، وكن ملازماً للسنة والجماعة، واقرأ الفقه والحديث والتفسير، واجتنب عن الصوفية الجاهلين، وصل الصلوات الخمس بالجماعة بشرط أن لا تكون إماماً ولا مؤذناً، ولا تطلب الشهرة، ففي الشهرة آفات، كن كأحد من الناس ولا تتقيد بمنصب ولو كان محموداً؛ كالقضاء والفتوى، ولا تكن كفيل أحد ولا وصيه، ولا تصحب الملوك وأبناءهم والمرد والنساء والمبتدعة والعوام، ولا تبن الخانقات فيه، ولا تسمع النغمة إلا قليلاً، لأنَّ من كثرة السماع يتوَلَّد النفاق ويموت القلب، ولا تنكر على أصحاب السماع لأن أصحابه كثيرون، وقلل الكلام والطعام والمنام، وفِرَّ من الناس كما تفر من الأسد، والتزم الخلوة، وكل الحلال، واجتنب الشبهات، ولا تنكح إلا بالضرورة فعسى أن يغلب عليك طلب الدنيا، وفي طلب الدنيا يذهب دينك وإيمانك، ولا تضحك كثيراً لأن كثرة الضحك تميت القلب، ولا تنظر إلى أحد بالتحقير، ولا تزين ظاهرك، لأن تزين الظاهر من علامة إفلاس

(1) الخانقات: جمع الخانقاه، وهو رباط الصوفية معرب مولد، استعمله المتأخرون: المساجد في الإسلام، ص: 89.

(2) وردت الرسالة في كتاب: تهذيب المواهب السرمدية، ص: 57 وما بعدها.

(3) تهذيب المواهب السرمدية، ص: 57.

الباطن، ولا تجادل مع الخلق ولا تسل من أحد، ولا تأخذ لأحد بخدمة، واخـــدم المشايخ بالمال والجاه والبدن، ولا تنكر على أفعالهم لأنه لا ينجى منكـــرهم، ولا تغتر بالدنيا وأهلها، وينبغي أن يكون قلبك محزوناً ومغموماً، وبـــدنك مريـــضاً، وعينك باكية، وعملك خالصا، ودعاؤك بتضرع، ولباسك خلقاً، ورفيقك الفقير، وبضاعتك الفقه، وبيتك المسجد، ومؤنسك الحق تعالى.

رشحة:

ومن كلماته القدسية هذه الكلمات الثمانية عليها بناء طريقة الخوجكـــان قدس الله أسرارهم وهي هذه: هوش دردم، نظر بر قدم، سفر در وطن، خلوة در انجمن، يا د كرد، باز كشت، نكاه داشت، وسواها حسبان وغرور.

ولا يخفى عليك أن من مصطلحاتهم ثلاث كلمات أخرى: وقوف زماني، وقوف عددي، وقوف قلبي، كلها إحدى عشرة كلمة. ولما كان الخوجة عبـــد الخالق رأس هذه الطريقة لا بد أن أبين اصطلاحه بين الإجمال والتفـــصيل، (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل)[1].

رشحة:

هوش دردم[2]: يعني لا تكن غافلا في خروج[3] النفس، بل أخرج النفس مع الحضور. و قال: مولانا سعد الدين الكاشغري: ينبغي للطالب أن يكون حاضرا من انتقال نفس إلى نفس مع الله، ولا يكون غافلاً وساهياً. وقال سيدنا ومولانا [عبيد الله أحرار][4]: أهم المهمات في هذه الطريق حفظ النفس، وقـــال: مـــن لم يحفظ النفس يقال له فلان فقد نفسه. وقال الخوجة بهاء الدين نقشبند قدس سره:

---

(1) الأحزاب: 4.

(2) جاء في كتاب تهذيب المواهب السرمدية: هوش بمعنى العقل، ودر بمعنى الظرفية، ودم بمعنى النفس: تهذيب المواهب السرمدية، ص: 60.

(3) في ط: خرج.

(4) ما بين معقوفتين زيادة من تهذيب المواهب السرمدية.

إن معنى هذه الطريقة على النفس ينبغي لك أن تحفظ النفس وقت الدخول والخروج، بل أن تحفظ ما بين النفسين.

[بسيط]

يا واقِفاً عند شَطِّ البحرِ مُنجبِسا البحرُ متسعٌ والشر في الطرفِ
لا تنظرَنَّ إلى موجِ الحوادثِ بل مع الخضم مُد الأنفاسَ فالتففِ

وقال مولانا عبد الرحمن الجامي[1] في أواخر شرح الرباعيات: قال الشيخ أبو الجناب نجم الدين الكُبرى في رسالة فواتح الجمال[2]: إن الذكر جار في نفوس الحيوانات بأنفاسهم الضروريات، لأنه وقت خروج النفس ودخوله يخرج حرف الهاء بلا مضدها، وهو إشارة إلى غيب الهوية، والهاء الذي في لفظ الله هو هذا الهاء، والألف واللام للتعريف، واللام الثاني للمبالغة، فينبغي لك أن تكون حاضراً بهذا الذكر بأن يكون هوية الحق سبحانه ملحوظا لك في وقت التلفظ بهذا الحرف حتى تصير ملكك، وإذا صار ملكك لا يزول أبدا، وإن ترد زواله.

شعر:

[بسيط]

غيبُ الهوية في هاء التنفس فا أنفاسُ تأسيسها بالهاء فاعرفها
قفْ فيهِ حال الرجاءِ اليأس ذا عَجب يا عارفَ الحق ما كنتَ مُنتبها[3]

ولا يخفى عليك أن غيب الهوية التي ذكره سيدي ومولاي عبد الرحمن الجامي اصطلاح أهل التحقيق عبارة عن حقيقة الذات ولا تعين فيه، يعني بشرط الإطلاق الحقيقي الذي لا تقييد فيه بوجه من الوجوه، بل بقيد الإطلاق أيضاً، وفي هذه المرتبة لا يتعلق به علم، وإدراك، وبهذه الحيثية هو مجهول مطلق.

---

(1) عبد الرحمن بن أحمد الجامي، عارف متصوف، ولد بجام من قصبات خراسان، واشتغل بالعلوم العقلية والشرعية فأتقنها ثم صحب مشايخ الصوفية وتلقن الذكر من الشيخ سعد الدين كاشغري، توفي سنة 698: شذرات الذهب 4:360.
(2) أشار إليها صاحب كشف الظنون بقوله: فواتح الجمال رسالة فارسية للشيخ أبى الجناب أحمد بن عمر الخيوقى المعروف بنجم الدين الكبرى المتوفى سنة 618 هـ: كشف الظنون 2:1292.
(3) البيت مكسور، وكذا ورد في خ و ط.

رشحة:

نظر بر قدم[1]: يعني ينفي أن يكون نظر السالك في وقف، كالماشي على ظهر قدميه حتى لا يقع نظره عن اليمين والشمال، ولا يحصل له التفرقة وتشتيت الطبع، ويحتمل أن يكون فيه إشارة إلى سرعة سير السالك في قطع مسافة الوجود الموهوم، يعني كلما ينتهي نظر السالك يضع قدمه عليه كما قال محمد الرويم: أدب المسافر أن لا يجاوز همه قدمه[2]، إشارة إلى أن أهل هذا السير والسلوك، كما قال مولانا عبد الرحمن الجامي في مدح الخوجة بهاء الدين نقشبند[3]:

لم يخْلُ عن نفسٍ دونَ الحضورِ ولم تسبقْ نواظرهُ الأقدامَ في السفرِ

وذا لسرعة سير فيه قد ركزت فما تخلف رجلاهُ عن النظرِ

رشحة:

سفر در وطن[4]: وهو أن يسلك السالك في الطبع البشري، يعني ينتقل من الصفات البشرية إلى الملكية، ومن الذميمة إلى الحميدة. قال مولانا سعد الدين قدس الله سره: إن الخبيث، وإن توجه إلى لطيف، لا يزول منه خبائثه حتى ينتقل من صفاته الخبيثة. ثم اعلم أن أحوال المشايخ في سفر الظاهر مختلفة، فبعضهم اختاروا السفر في البداية وأقاموا في النهاية، وبعضهم أقاموا في البداية وسافروا في النهاية، وبعضهم سافروا في البداية والنهاية، وما أقاموا أبدا، ولكلهم نية صحيحة الأعمال بالنيات كما شرح حالهم في ترجمة العوارف[5] بالتفصيل، لكن طريق الخوجكان يختاروا السفر حتى يحصلوا المرشد، فإن وجدوا المشرد في بلدهم لا

(1) جاء في كتاب تهذيب المواهب السرمدية: بر بمعنى على، والمعنى المراد انه ينبغي للسالك أن يكون نظره إلى قدميه عند المشي: تهذيب المواهب السرمدية، ص: 59.
(2) طبقات الصوفية 1:148.
(3) ورد البيتان في: تهذيب المواهب السرمدية، ص: 60.
(4) أي السفر في الوطن: تهذيب المواهب السرمدية، ص: 61.
(5) عوارف المعارف في التصوف، للشيخ شهاب الدين أبى حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردى المتوفى سنة 632 هـ: كشف الظنون 2:1177.

يسافرون ويختارون خدمته وملازمته حتى يحصل الحضور والشهود بطريق الدوام، يعني لا يزول حضوره في وقت الاشتغال بالتدريس والاشتغال بالدنيا، ثم يصير سفره وحضره على السوية. وقال سيدنا ومولانا: إن السفر لا يورث للمبتدئ إلا التفرقة، فينبغي للطالب إذا وجد الشيخ أن يكون ملازما لخدمته ولا يفارق صحبته إلا بعد التمكين، وإذا حصل له التمكين يكون سفره وحضره على النية الصحيحة.

شعر[1]:

[بسيط]

ما أحسنَ الضحكَ الجاري بغير فَـم   ورؤيةٌ غابَ عنها هيكـلُ البـصَر

كن قاطنًا ظـاهرًا والـسر مرتحِـلُ   فالسيرُ من دونِ رِجلٍ أحسنُ السفَرِ

وقال مولانا عبد الرحمن الجامي قدس سره في أشعة اللمعات في شرح هذا البيت صورته:

اته سفر دوراست كان يزيراي صورت ارتوراست

معناه: إن المرآة المصقلة يظهر فيها صور الأشياء المقابلة بـلا احتيـاج إلى الحركة لأنَّ صفاءها ذاتي، فما يقابلها ينطبع فيها، وهكذا قلب الإنسان إذا أزالت منه تعلقات الأكوان وإرادات الطبع البشري يظهر له الصفاء والصقالة يستغني عن السير والسلوك.

رشحة:

خلوة در انجمن: سئل الخوجة بهاء الدين نقشبند قدس سره: ما بناء طريقتكم؟ قال: الظاهر مع الخلق، والباطن مع الحق.

[طويل]

بقلبكَ كن بالحب منطبعـا وكـنْ   بظاهركَ المشهود في زي أجْنَبـي[1]

(1) ورد البيتان في: تهذيب المواهب السرمدية، ص: 61.

وهذا طريقٌ نادِرٌ عندَ أهلِهِ   على أنهم فازوا بأعذبِ مشْرَبِ

كما قال تعالى: (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)[2]. وقال: نسبة الباطن في هذا الطريق وقع بوجه أنه يحصل الجمعية في الملا، وصورة التفرقة أكثر مما في الخلوة. وقال الجمعية في الصحبة والسهرة في الخلوة، وفي الشهرة الألفة، والخير في الجمعية، والجمعية في الصحبة بشرط أن تكونوا قانتين بينكم.

وقال الخوجة: ولها كبير الخلوة أن يكون اشتغالك واستغراقك في الذكر بحيث أن لو تدخل في السوق لا تسمع أصوات أهل السوق لاستيلاء الذكر. وقال سيدنا ومولانا: لو يذكر أحد بالجد والاهتمام يصل في خمسة أو ستة أيام إلى أن يسمع جميع الأصوات والحكايات ذكر الله، ويسمع أيضا كلام نفسه ذكر الله.

رشحة:

ياد كرد: عبارة عن ذكر اللسان أو القلب. قال مولانا سعد الدين الكاشغري إن طريق تعليم الذكر أن يذكر في قلبه أولاً: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وينبغي للمريد أن يحضر قلبه على مقابلة قلب الشيخ ويغمض عينه، ويطبق الفم والنفس مع السن، ويلصق اللسان بعرش الفم، ويحبس النفس ويذكر بالقلب لا باللسان بالتعظيم والقوة وبموافقة الشيخ، وفي ذكر الحبس يراعي عدد الوتر يذر مرة أو ثلاث مرات حتى يظهر أثر حلاوة الذكر في القلب. وقال سيدنا ومولانا: الذكر طرد الغفلة، فإن حصل لك في صحبة الشيخ حصل خلاصة الذكر وزبدته، وإن لم يحصل في الصحبة فاذكر الله بالطريق المذكور، ولكن لا يضيق نفسك فوق الطاقة، وينبغي أن تكون متوجهاً في أثناء الذكر إلى القلب الصنوبري الشكل حتى لا تجيء الخواطر من الدنيا والآخرة، وكن ذاكرا بهذه الطريق أن يبتدئ بكلمة لا من تحت السرة وترفعه إلى الدماغ، وبكلمة إله من الدماغ إلى الكتف الأيمن، وتضرب إلا الله مع الحركة على القلب الصنوبري الشكل حتى تصل حرارته إلى الأعضاء كلها، وبالنفي تنفي وجود المحدثات وتطالعها فانيا، وبالإثبات تثبت

---

(1) ورد البيتان في: تهذيب المواهب السرمدية، ص: 62.
(2) النور: 36.

وجود الحق بنظر البقاء والمقصودية، فاذكر هذا الطريق مع ملاحظة المعنى المذكور، ولا تفارق الذكر وقتا من الأوقات حتى يثبت التوحيد ويستقر الذكر في القلب.

رشحة:

باز كشت[1]: هو عبارة عن رجوع السالك بعد الكلمة الطيبة بقوله في القلب الإلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، لأن بهذه الكلمات تنتفي الخواطر كلها من الخير والشر، فيكون الذكر خالصا لوجه الله، وإن كان مبتدئا، ولا يجد الصدق في قلبه، ولا يترك هذه الكلمات ويقول تقليداً للمرشد لأن المقلد يصير محققاً، وآثار الصدق يظهر بالتدريج. وقال مولانا علاء الدين الذي كان من أصحاب مولانا سعد الكاشفي: وكان شيخي علمني الذكر وأمرني بهذه الكلمات، وكنت لا أجد في نفسي صدقاً على وفق هذه الكلمات، وكنت منفعلاً، وذات يوم كنت في هذا أتفكر ورحت عند الشيخ، فقال الشيخ: تروح عند الشيخ بهاء الدين عمر، فرحنا عند الشيخ وجلسنا. فقال الشيخ بهاء الدين: إنه قال الشيخ بهاء الدولة. إن لم يجد الطالب إخلاصاً في الباطن ينبغي أن يذكر هذه الكلمات مع الذكر حتى يظهر الصدق في باطنه ببركة هذا الذكر، فلما خرجنا من عند الشيخ قال شيخي: إنه رجل من أهل الجذبة لا يعرف طريق الإرشاد لأنه ما كان وقت إظهار هذا المعنى لأني قبل السماع كنت منفعلاً ومحترقاً، وبعدما سمعته زال مني الاحتراق والاضطراب والقلق.

رشحة:

نكاه داشت[2]: وهو عبارة عن مراقبة الخواطر في أثناء الذكر. قال مولانا سعد الدين الكاشفي: ينبغي للذاكر أن يحفظ الخواطر ساعة أو ساعتين كلما تيسر لا يخطر غير الله في خاطره. قال مولانا قاسم الذي هو من كبار أصحاب الشيخ

---

(1) باز بمعنى الرجوع، وكشت... المراد بها عندهم أنه ينبغي أن يرجع في النفي والإثبات: تهذيب المواهب السرمدية، ص: 63.

(2) نكاه بمعنى الحفظ، وداشت... يريدون بها أن يحفظ السالك قلبه على ملاحظة النفي والإثبات: تهذيب المواهب السرمدية، ص: 63.

مولانا وسيدنا أنا أحفظ الخواطر من طلوع الفجر إلى الضحى على وجه لا يكون للقوة المتخيلة أثر. قال أهل التحقيق وأرباب البقاء بعد الفناء: إن زوال[1] المتخيلة أمر عظيم ولو كان ساعة. ولبعض الكمل: يتفق هذا أحياناً.

رشحة:

ياد داشت: وهو من حضور القلب مع الله تعالى على سبيل الدوام مع الذوق والوجدان، وقال بعضهم: هو حضور بلا غيب، وعند المحققين: المشاهدة التي هي عبارة عن استيلاء شهود الذات بتوسط الحب الذاتي كناية عنه.

قال سيدنا ومولانا في شرح الكلمات الأربعة: ياد كرد، يعني ذكرك مع التكلف، وباز كشت: يعني رجوع السالك إلى الحق، سبحانه وتعالى، بعد ذكر لا إله إلا الله محمد رسول الله، فهذه الكلمات: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، ونكاه داشت: يعني محافظة هذا الرجوع بلا تلفظ اللسان. ياد داشت: يعني رسوخه فيه.

رشحة:

وقوف زماني، قال الخوجة بهاء الدين نقشبند قدس سره: هو عبارة عن أن تكون واقفاً على أحوال نفسك إن كان موافقاً للشريعة مرضياً لله فاشكره وإلا فاستغفره. وقال مولانا يعقوب الجرخي[2] قدس سره: أمرني شيخي في حالة القبض بالاستغفار وفي حالة البسط بالشكر. وقال: رعاية هذين الحالين عبارة عن الوقوف الزماني. وقال الخوجة بهاء الدين نقشبند قس سره: مبنى طريق السالك في الوقوف الزماني على الساعة حتى يكون السالك واقفا على نفسه أنه يخرج بالحضور وبالغفلة، والوقوف الزماني عند الصوفية عبارة عن محاسبة الأحوال. وقال الخوجة بهاء الدين: المحاسبة أن تحسب كل ساعة أنها مضت بالغفلة أو بالحضور، ثم

---

(1) في ط: زوال.

(2) الشيخ يعقوب الجرخي، متصوف عارف، ولد في جرخ، ثم رحل إلى هراة ومصر، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 90.

تفهم وتحسب أن كل الأوقات والأفعال كانت، وترجع إلى الابتداء وتعمل بطريق المبتدي.

رشحة:

وقوف عددي، هو عبارة عن رعاية العدد في القلب لاجتماع الخواطر المتفرقة، وينبغي للطالب أن يراعي العدد الوتر يذكر مرة أو ثلاث مرات أو خمس مرات على هذا القياس إلى إحدى وعشرين مرة. قال الخوجة علاء الدين العطار قدس سره: ينبغي أن يذكر السالك مع الحضور والشهود، ولو كان مرة واحدة، والتكثير ليس بشرط، وإن جاوز العدد في ذكر القلب عن إحدى وعشرين مرة ولم يظهر له الأثر، والنتيجة فهو دليل على بطلان العمل، واثر الذكر أن ينتفي وجود البشرية في ذكر كلمة النفي وفي الإثبات يظهر أثر من تصرفات الجذبات الإلهية. وقال الخوجة نقشبند قدس سره: الوقوف العددي أول الدرجات من درجات العلم الذي يحتمل أن يكون معناه بنسبة المبتدئ مطالعة هذه الآثار وتصرفات الجذبات الإلهية كما قيل، فإنه حال موصل إلى مرتبة القرب ويكشف له فيها العلم اللدني، وبنسبة أهل النهاية أن يقف السالك على سريان الواحد الحقيقي في الأشياء كما هو واقف على سريان الواحد العددي في جميع الأعداد الحسابية

[طويل]

تعدد هذا الكونُ والكثرةُ التي ... تلوحُ خيالٌ كالسرابِ مَحلها
وما ثَم إلا واحدٌ جلَّ ذكرهُ ... لنا يتجلى في المظاهرِ كلها

وقال بعض الأكابر:

[بسيط]

من واحد العد كل العد منتشي ... نراهُ قد قدمَ التفصيلَ والجُمَلا
وإن يكنْ ليسَ منها فهْوَ مُنشؤها ... هذا بإجماعِ أهْلِ الكشفِ والعُقَلاَ

ولا يخفى عليك أن العلم اللدني علم يفهمه أرباب القرب بالتعليم الإلهي لا بالدلائل العقلية والشواهد النقلية، كما يدل عليه الكلام القديم في حق الخضر عليه السلام: (وعلمناه من لدنا علماً)(1)، والفرق بين علم اليقين والعلم اللدني أن علم اليقين عبارة عن إدراك نور ذات الله وصفاته، والعلم اللدني عبارة عن إدراك المعاني وفهم الكلمات من الحق سبحانه بطريق الإلهام.

رشحة:

وقوف قلبي: وهو محمول على معنيين، أحدهما أن يكون الذاكر حاضراً واقفاً بالحق سبحانه. قال سيدنا ومولانا: الوقوف القلبي عبارة عن الحضور والشهود لجناب قدسه على وجه لا يكون له إرادة والتفات إلى غير الله تعالى. وقال في محل آخر: إن هذا الحضور شرط ملازم في الذكر، وهذا الحضور يسمى الشهود والوصول والوجود والوقوف القلبي، وثانيهما أن يكون الذاكر في أثناء الذكر متوجها للقلب الصنوبري الشكل، وهو في الجانب الأيسر محاذيا للثدي الأيسر، فلا يفارقه يذهل على الذكر ومفهومه. وقال الخوجة نقشبند قدس سره: إن حبس النفس ورعاية العدد ليسا بشرط في الذكر لكن الوقوف القلبي بكلا المعنيين شرط فيه.

[بسيط]

لبيضَةِ القلبِ كن كالطيرِ مُحتضنا فهْي التي تلدُ الأحوالَ أجمعَهَا

فلما قرب أجله أمر بإرشاد الناقصين أربعة نفر كلهم كانوا في مرتبة الإرشاد والهداية على الترتيب، كما سأذكرهم إن شاء الله تعالى. انتهى ما أردنا اقتطافه من كلام السادات النقشبندية، وفيه كفاية في التشويق إلى سلوك طريقهم لمن وجد مرشدا أو صحبة، والموالاة لهم فلها نفع عظيم والله بكل شيء عليم، واغتفرت ما في هذا الكلام من الطول لأجل ما اشتمل عليه من الفوائد التي لا توجد في غيره، وقصدي إن شاء الله من كتابة هذه الرحلة أن تكون في ديوان علم لا كتاب سمر وفكاهة، وإن وجد الأمران فيها معاً فذلك أدعى لنشاط الناظر فيها، سيما إن

(1) الكهف: 64.

كان صاحب تلوين، وأما صاحب التمكين فلكل شيء عنده موقع ونفع لا يوجد في غيره، والله المسؤول أن يلهمنا رشدنا ويخلص لوجهه فيما نأتي ونذر قصدنا، فهو حسبنا ونعم الوكيل، وبالإجابة لدعاء سائله كفيل، ولم يتسع الوقت مدة إقامتنا بمكة مع شدة الحر لاستيعاب الأماكن الفاضلة التي تزار بمكة شرفها الله، وأذكر بعضها، إن شاء الله، عند ذكرنا المجاورة بمكة.

ولم نزر في هذه المدة إلا الدار التي ولد فيها النبي، صلى الله عليه وسلم، وقد اتخذت الآن مسجداً ومزاراً عظيماً يجتمع إليه الوفود من كل جانب أيام المولد النبوي.

قلت: وقد علم من كتب السير ما وقع من الاختلاف في مولده صلى الله عليه وسلم هل هو بمكة أو بالأبواء، وعلى أنه بمكة فقيل بالشعب، وقيل بالمحصّب إلى غير ذلك من الأقوال.

ولا أدري من أين أخذ الناس تعيين هذا المحل بالخصوص، اللهم إلا أن يثبت أن تلك دار والده أو جده، صلّى الله عليه وسلّم، فيترجح القول بأنه في مكّة في قضية عادية، وهي أنّ ولادة الإنسان في الغالب في مترل والده. وإن أريد بالشعب شعب أبي طالب الذي انحاز إليه مع بني هاشم وبني المطلب في قضية الصحيفة، فلا يبعد ذلك لأن هذه الدار قريبة من الشعب من أسفله.

والعجب أنهم عينوا محلاً من الدار مقدار مضجع، وقالوا له: موضع ولادته صَلّى الله عليه وسلم! ويبعد عندي كل البعد تعيين ذلك من طريق صحيح أو ضعيف، لما تقدم من الخلاف في كونه في مكة أو غيرها، وعلى القول بأنه فيها ففي أيّ شعابها؟ وعلى القول بتعيين هذا الشعب ففي أي الدور؟ وعلى القول بتعيين الدار فيبعد كل البعد تعيين الموضع من الدار، بعد مرور الأزمان والأعصار، وانقطاع الآثار.

والولادة وقعت في زمن الجاهلية، وليس هناك من يعتني بحفظ الأمكنة، سيّما مع عدم تعلق غرض لهم بذلك، وبعد مجيء الإسلام فقد علم من حال الصحابة وتابعيهم ضعف اعتنائهم بالتقيد بالأماكن التي لم يتعلّق بها عمل شرعي، لصرفهم اعتناءهم، رضي الله عنهم، لما هو أهم، من حفظ الشريعة، والذبِّ عنها بالسنان واللسان، وكان ذلك هو السبب في خفاء كثير من الآثار الواقعة في الإسلام، من

مساجده عليه السلام، ومواضع غزواته، ومدفن كثير من أصحابه، مع وقوع ذلك في المشاهد الجليلة، فما بالك بما وقع في الجاهلية، لا سيّما ما لا يكاد يحضره أحد إلا من وقع له، كمولد علي ومولد عمر، ومولد فاطمة -رضي الله عنهم جميعهم-، فهذه أماكن مشهورة عند أهل مكة، فيقولون: هذا مولد فلان، هذا مولد فلان، وفي ذلك من البعد أبعد من تعيين مولده صلى الله عليه وسلم، لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده صلى الله عليه وسلم فقد يتنبَّه بعض الناس لذلك بسبب ما ظهر من الآيات، وإن كانوا أهل جاهلية. وأما مولده فمن ولد في ذلك العصر فتكاد العادة أن، تقطع بعدم معرفته، إلا أن يرد خبر عن صاحب الواقعة بتنبهه أو أحد من أهل بيته.

وحاصل الأمر أنَّ هذه أماكن اشتهرت بين الناس فتزار بحسن النية رعاية لتعظيم قدر من أُضيفت إليه، فيستحضر الزائر في قلبه عظمة من نُسبت إليه الأمكنة، وعصمة تلك النسبة، ولا يشغل قلبه بصحة النسبة وضعفها لوجودها في الخارج ولو عدمت في نفس الأمر، فرعاية تعظيم الموجودة على الألسنة له أثر كبير في الجلب والدفع، نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا ممن يعظم حرماته وشعائره تعظيماً يوافق أوامره.

ومما زرناه أيضاً مولد فاطمة، رضي الله عنها، في دار خديجة رضي الله عنها والتعيين أميل إلى صحة هذا المكان أكثر من غيره. وزرنا أيضاً مولد علي رضي الله عنه، وزرنا أيضاً دار أبي بكر، رضي الله عنه، وغالب هذه الأمكنة اتخذت مساجد ومزارات، وبقرب دار أبي بكر، رضي الله عنه حجر في جدار فيه كأثر المرفق يقال إنّ مرفق النبي صلى الله عليه وسلم غاصت فيه لما استند إليه والناس يتمسحون به ويتبركون، وقد تمسحنا به وتبركنا بالنية المتقدمة، والله ينفعنا بذلك. وكثير من هذه الآثار الشريفة والمشاهد المنيفة قد تطاولت عليها الأعصار ووجد التنصيص على اشتهاره في القرون الماضية من كثير من المؤرخين والمرتحلين، مع العلم بعدم اشتهارها في القرن الأول والثاني وما بقربهما، فتزار بالنية المتقدمة وبنية بركة من دخلها وتبرَّك بها من المسلمين من لدن تلك الأعصار إلى الآن، وقد علم اختلاف الأئمة في القديم والحديث في تتبع هذه الآثار والمشاهد التي لم يرد بها خبر صحيح بمكة والمدينة والقدس، وميل أكثرهم، سيما المالكية أئمتنا إلى عدم التقيُّد بذلك لما علم من شدة حرصهم على الاتباع. فقد ورد أن عبد الله بن عمر، رضي الله

عنهما، ارتحل إلى المسجد الأقصى فلما دخله لم يزد على أن صَلَّى فيه ركعتين ودعا ورجع من يومه، و لم يقف إلى الصخرة ولا إلى غيرها من الآثار والمشاهد الكائنة هناك مع كثرتها، إذ لم يصح في الحديث إلا إتيانه للصلاة به، فاقتصر على ما صَحَّ عنده، و لم يعرج على غيره، والكل إن شاء الله مصيب، وتحقيق الكلام في هذه المسألة يطول، وفيما ذكرنا إشارة إجمالية تُغني المتأمِّل عن التفصيل، وربما نلم ببعض المباحث المتعلقة بذلك عند ذكرنا إن شاء الله مشاهد المدينة مشاهد بيت المقدس إن ساعد القدر.

ذكر الخروج من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة
زادهما الله شرفا

ولما كان يوم الأحد الموفى عشرين من ذي الحجة أخذ المغاربة في الرحيل من مكة بعدما قضوا[1] أوطارهم واشتروا تجارتهم، وهم أول الأركاب الواردة من الآفاق خروجاً من مكة، فلا يخرج قبلهم إلا بعض قفول أهل المدينة المشرفة، فطفنا طواف الوداع ضحى، وودعنا مشايخنا وأصحابنا، وخرجنا إلى منزل الحاج، وهو الشبيكة.

لطيفة:

لما عزمت على المجاورة بالحرمين واطمأن القلب لها، لم أجد عند الوداع والخروج من مكة من الاشتياق والتألم لمفارقة البيت والاجتهاد في الدعاء ما كنت أعهد في نفسي في غير هذه المرة عند الخروج ولشاهده من غيري، لعلمي بأني مقيم في البلد وناو الرجوع إليها من المدينة، فلم أجد ما يجد غيري من الراجعين إلى بلادهم فقلت في نفسي: لعل ما يجده المودع الراجع إلى بلاده بسرعة من ألم الفراق والتعطش إلى المشاعر العظيمة واجتهاده في الدعاء، مع الإقبال على التضرع بكليته، يوازي عند الله أعمال المجاور والمقيم بمكة طول السنة، إذ لا يحصل لهم في الغالب ذلك، وقليل عمل مقرون بتلك الأحوال السنية التي تحصل للمودع يعدل عند الله كثير عمل من ذلك، ولا يبعد أن يكون الأمر كذلك. ثم ارتحلنا من الشبيكة، وهي الثنيَّة السفلى التي بأسفل مكة، ومنها خرج صلى الله عليه وسلم.

---

(1) في ط: أفاضوا.

لطيفة:

قال ابن رشيد في رحلته: "وذكر بعض أئمتنا أنَّ الخروج إلى عرفات من الثنية السفلى أيضاً"[1]، فرُوي عن الحافظ أبي محمد علي بن أحمد الأندلسي[2] قال: "كَدَاء الممدودة هي بأعلى مكة عند المُحصب، حلّق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من ذي طوى إليها، أي صعد إليها. وكُدىً بالضم والتنوين، بأسفل مكة عند ذي طوى بقريب من شعب الشافعين عند قُعيقعان، حلّق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من ذي طوى إليها؛ أي صعد إليها، وكُدىً، بالضم والتنوين، بأسفل مكة عند ذي طوى بقريب من شِعب الشافعيين عند قعيقعان، حلّق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، منها إلى المحصّب، فكأنه، صلى الله عليه وسلم، ضرب دائرة في دخوله وخروجه، بات، صلى الله عليه وسلم، بذي طوى، ثم نهض إلى أعلى مكة فدخل منها، وفي خروجه إلى أسفل مكة ثم رجع إلى المحصب"[3]. قال أبو محمد الأندلسي الظاهري: أخبرنا بذلك أحمد بن محمد العذري[4] عن كل من لقي بمكة من أهل المعرفة بمواضعها من أهل العلم بالأحاديث في ذلك[5].

قال ابن رشيد: وإنما سلك النبي، صلى الله عليه وسلم، هذا الطريق ملحقاً شبه دائرة لأنه لا يحصل التيامن في الترول والدخول إلى مكة والخروج منها إلا كذلك، فتأمله، والله أعلم[6]. انتهى كلام ابن رشيد رحمه الله حسبما نقلته من نسخة عليها خطه وإجازته لتلميذه؛ صاحبه عبد المهيمن الحضرمي[7] رحمه الله تعالى، رأيت هذه النسخة بمكة المشرفة عدة أسفار، وذكر في آخرها أنه

(1) ملء العيبة، ص: 82.
(2) أبو محمد علي ابن أحمد بن سعيد ابن حزم الإمام،الأندلسي القرطبي، الفقيه الحافظ المتكلم الأديب، الوزير الظاهري صاحب التصانيف، ولد بقرطبة سنة 384 هـ، وتوفي سنة456 هـ: سير أعلام النبلاء 184:18. وفيات الأعيان 325:3.
(3) ملء العيبة، ص: 82 – 83.
(4) أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذري الأندلسي، الإمام الحافظ المحدث، ولد سنة 393، وحج به أبواه وهو حدث، فقدموا مكة في سنة408 هـ، فجاوروا ثمانية أعوام،صنف دلائل النبوة وكتاب المسالك والممالك وغير ذلك، مات سنة 478 هـ: سير أعلام النبلاء 567:18.
(5) مل العيبة، ص: 83.
(6) نفسه.
(7) عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن محمد الحضرمي أبو محمد، مولده بسبتة عام ستة وسبعين وستمائة، ولي الكتابة والإنشاء للسلطان المريني أبي الحسن، وتوفي بتونس ثاني عشر شوال عام 709هـ في الطاعون: نفح الطيب 465:5. الأعلام 41:4.

استخرجها من مسوَّداته بعد عشرين سنة من رجوعه بسؤال عبد المهيمن المذكور منه ذلك. قال: بعدما كنت أغفلت ذلك وأعرضت عنه لقلة من يرغب فيه. فإذا كان الناس في زمانه لا يرغبون في جمع فوائد المرتحلين، سيما مثله في ضبطه وإتقانه وكثرة جمعه، فما بالك في زماننا هذا الذي عم فيه الفساد وغلب على بضاعة العلماء، ولا يسمع من فوائد الرحلة إلا ما كان أسمارا، وصارت حُلة الأدب فيه أطمارا، فالمشتغل بجمع ذلك مثلي، أو من هو على شكلي، ليس في الرأي ذا إصابة، إن لم يجعل ذلك عوضا عن البطالة.

قلت: وما نقله ابن رشيد عن ابن حزم الظاهري من خروجه عليه السلام إلى عرفات من كدى، لم أرَ من ذكره من أهل السير والحديث، مع شدة تتبعهم لأفعاله، صلى الله عليه وسلم، في حجته لما جمعت من معالم الشريعة وقواعدها، وحضور جمع من المسلمين لم يجتمع مثله قط في حياته، صلى الله عليه وسلم، ومثل هذا لا يكاد يخفى من أفعاله في ذلك الجمع العظيم، فقد حُفظ من أفعاله، صلى الله عليه وسلم، في تلك الحجة الخفي والجلي، حتى مبَاله، عليه السلام، في الشعب قبل الوصول إلى مزدلفة، فكيف يخفى هذا على أئمة الحديث والسير، بيد أن الحافظ أبا محمد بن حزم مقر في بجمع الغرائب على سعة اطلاعه ووفور علمه وكثرة حفظه الذي لا ينكره له موافق ولا مخالف، فقد ذكر بعض الأئمة أن أبا محمد بن حزم ساق حجة الوداع في كتابه الذي أفرده لحجة الوداع مساقا لا يمكن أن يسوقها كذلك حتى بعض من حضرها لكثرة ما جمع، ومبالغته في التتبع للطرق وجمع الروايات وترجيحها، وهو أهل لذلك.

والمذكور عند سائر المحدِّثين أنه، صلى الله عليه وسلم، لم يزل نازلاً بالأبطح[1] من يوم دخول مكة إلى أن ارتحل ذاهبا إلى منى يوم التروية، ويبعد أن يرتحل من الأبطح وينحدر إلى مكة، ثم يخرج من كدى ثم يصعد إلى كداء، فينزل منها إلى الأبطح، فيذهب إلى منى من غير حاجة أكيدة لما في ذلك من المشقة الفادحة الحاصلة من تحليقه بأمكنة متعددة حتى يعود إلى المكان الذي ارتحل، ومثل هذا ليس من الأفعال الجِبلية، ولو فعله، صلى الله عليه وسلم، لكان فيه أقوى دليل على مشروعيته وتأكيد العمل به، ولسأله أصحابه عن السر في ذلك لمخالفته للعادة مخالفة قوية، ولو كان ذلك لنقل نقلاً مستفيضاً وصار من أفعاله المطلوبة،

(1) الأبطح والبطحاء: المحصب: ملء العيية، ص: 82.

وليس هذا مثل إدارته ناقته في محل لخفة الإدارة، وقد تكون لغرض اقتضاه الحال مثل قصد العدول إلى ناحية، أو إرادة تكليم أحد، فدارت الناقة لأجـــل ذلـــك، وذلك كثير ما يقع للإبل، ومع ذلك فقد نقل، فليتأمل ما ذكرنا، والله تعالى أعلم.

وكان ارتحالنا من الشبيكة قبل الظهر، ومرضَ أخونا سيدي عبد الـــرحمن، وكان ابتداء مرضه بمكة، وتعب في الطريق من شدة الحر، ونزلنا من الظهر المسمى بوادي الشريف بعد العصر بقليل، ووجدنا أكثر الناس قد سبقونا إلى المترل، وبقي طوائف من الناس بمكة يأتون أرسالا إلى نصف الليل، وبتنا هناك. وفي الغد ارتحل الناس بعد طلوع الشمس وسرنا يومنا على الطريق المعهودة، و لم نقِل حتى نزلنـــا بعسفان بعد المغرب. ثم ارتحلنا وجئنا إلى خليص قبل الظهر في حر كثير مات منه أناس ومرض آخرون، وقيَّل الناس فيه، ثم بدا لهم في المبيت لدفن من مـــات، وفي آخر ذلك اليوم جاء إلينا مشايخ الركب وكبراؤه بالرحيل لئلا نجاور، وبالغوا في الحث والاعتذار، ورددناهم بأمر محتمل، وهم لا يشكون أنا قبلنا كلامهم، وكاد أخونا سيدي عبد الرحمن الذي كان سببا في المجاورة أن يميل إلى قولهم لما حصل له من المرض وما رأى من إلحاحهم علينا وإقسامهم، فلم أر رأيه في ذلك وهممـــت على المجاورة لأني خرجت من مكة غير مودع وداع مفارق، ولو ذهبت كذلك إلى المغرب لبقيت حسرة في قلبي ما شاء الله، ولكن الله بفضله وجوده أتم نعمته علينا وأسبغ آلاءه المترادفة إلينا من غير حول منا ولا قوة، فله الحمد والشكر، وهو رب العالمين.

ثم ارتحلنا من خليص ومررنا بقديد في الضحى الأعلى، و لم يقِل الناس ذلك اليوم لأنّ الهواء فيه بعض رطوبة، ومررنا بالسبيل الذي هناك قبل العصر، وفيه ماء قليل وحوله ناس من الأعراب يبيعون العلف والحبحب والرطب، يأتون بكل ذلك من القرية التي بإزاءه، وبينه وبينها عدة أميال على يمين القادم من مكة، و لم نبت ذلك اليوم حتى قاربنا الرمل الذي دون الجحفة، ثم ارتحلنا منه غداً وجئنا إلى رابغ عندما اشتد الضحى ونزل الناس به قائلين، ثم بدا لهم في المبيت خوفاً من العطش بالبزوة إن باتوا بعد ليلتين، فلما صلينا الظهر برز الناس إلى جانب الوادي الغربي وكانوا في النهار متفرقين في القهاوي والأجنة، ونزل بعـــضهم أعلـــى الـــوادي وبعضهم أسفله، واجتمعوا عند المبيت إلى محل يمكنهم منه التبكير.

ثم ارتحلنا من رابغ، وبالغ الناس في حمل الماء خوفا من العطش لكون البزوة معروفة في أيام الشتاء، فضلاً عن أيام الحر بذاك، وقد أخبرنا شيخنا سيدي محمد بن مساهل الطرابلسي أنه لما حج في سنة سبع وستين خرجت عليهم ريح في هذا المحل أهلكت كثيرا من الناس، وكان ذلك في أيام البرد، ولأجل ما يقع في هذا المحل من العطش اتخذ فيه سبيلان للماء يجلب إليهما من نحو مرحلة، أحدهما يسمى سبيل مُحسن، إضافة لبانيه ومحبسه الأمير محسن[1] والد زيد بن محسن أمير مكة، وهو الذي يلي مسيترة، والآخر لولده زيد، وهو الذي يلي بدرا، وقد قسما المسافة ما بين بدر ومسيترة إثلاثا في التقدير، إلا أهما قل ما يوجد فيهما ماء ليسارة ما يحمل إليهما من الماء لبعد الشقة.

ومررنا بمستيرة ظهراً، و لم يقل الناس لكون الهواء فيه بعض البرودة، وساروا يومهم ذلك حتى العشاء ونزلوا قرب سبيل محسن. ثم ارتحلنا من هناك ومررنا بالسبيل الآخر ظهرا، وما قيل الناس أيضا، وجئنا لبدر قبل غروب الشمس بقليل ونزلنا على طرف البركة التي هناك، و لم يتيسر للناس إخراج خزينهم في تلك الليلة، فلما أصبحوا أخذ الناس في رفع أزودهم المدخرة هناك، ووجدوا ببدر رطبا كثيرا بأرخص قيمة وأخذوا منه ما اشتهوا، ولَمَّا لم يرتحل الركب صبحاً ظنوا أنهم لا يرحلون إلى آخر النهار، ويبرد الهواء، وبينما هم في اشتغالهم قبل الظهر بقليل في أشد ما يكون من الحر إذ ضرب شيخ أهل تونس طبله وارتحل الناس بلا مشورة، واشتد الحر عليهم ما بين تلك الجبال، و لم يصلوا إلى الصفراء[2] حتى وقع الموت في الإبل والناس، فمات ناس وإبل كثيرة من شدة الحر، وكان من لطف الله بنا أنا لما اشتد الحر عدلنا إلى قهاوي على يسار الطريق وأنخنا إبلنا خارجها، ودخلناها وجلسنا فيها ساعة حتى استرحنا واستراحت الإبل، وتوضأنا وصلينا الظهر والعصر، ثم سرنا آخر الناس كلهم فلم يضع لنا جمل ولا رجل في ذلك اليوم، وبتنا بعدما جزنا الصفراء بساعة عند مفترق الطرق التي تذهب إلى الينبع والتي تذهب إلى جديدة[3]، ثم ارتحلنا منه وجئنا الجديدة وقت الغداء، واشتد الحر، ونزل الناس بها لخزن أموالهم وأحمالهم وما يفضل من زاد وعلف إلى أن يرجعوا من

(1) محسن بن الحسين بن الحسن، أمير الحجاز بين سنوات 1019 و1037هـ، ولد سنة 984 وتوفي سنة 1038هـ: خلاصة الأثر 309:3. تاريخ أمراء المدينة المنورة، ص: 341.
(2) الصفراء: قرية كثيرة النخل والمزارع: كتاب أسماء جبال تهامة، ص: 13.
(3) جديدة: قرية قرب المدينة: أنس الساري والسارب، ص: 91.

المدينة، وتلك عادة الركب المغربي والمصري، بل غالب المصري يبعثون أحمالهم وأثقالهم من بدر إلى الينبع مع الأعراب والفلاحين الذين لا غرضٍ لهم في الزيارة، إذ لا قصد لهم إلا في الكراء، وليس في بلاد الحجاز مكانا أشد حراً من هذه الخيوف فيما علمنا. ووجدنا هناك بركة عظيمة بجديدة بناها أمير الحاج الشامي ذات ماء غزير قد صنعت وراءنا، وما كنا رأيناها قبل ذلك، أعانت الناس في سقي الإبل وملء القرب، ولولا هي لأفناهم وإبلهم العطش؛ لأن ماء القرية التي يترل بها الحاج وجدناه قد غار، ورجع الناس إلى البركة فسقوا واستقوا وعزموا على الرحيل، ثم بدا لهم المبيت لكثرة الموتى والمرضى، ترى الرجل يمشي في حوائجه فتغيب عنه ساعة ثم يقال لك: قد مات، وذلك، والله أعلم، من شدة الحر وكثرة شرب الماء، مع التعب المفرط، فتنفرط قلوبهم، والله يعافينا. وفي هذه القرية مسجد جامع ببناء متقن تجري العين من تحته من بناء الأمير رضوان، رحمه الله[1]، وكم له في طريق الحج من مآثر ومعالم تدل على علو همته.

ثم ارتحلنا من جديدة وجئنا وقت الغذاء للنازية[2]، ووجدنا بأولها سبيلا فيه ماء، وجئنا لمسجد الغزالة[3]، وهو من المساجد التي صلى فيها النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو المُسَمَّى عند المؤرخين بمسجد عرف الطيبة، وأناخ الناس فيه حتى أفطروا، ثم سرنا صاعدين مع الوادي حتى أتينا بئر الروحاء قبل الظهر وأنخنا فيه ساعة واستقينا منه ماء قليلاً لأنّ بئره طويل وماؤه ضنين، وهو حلو وحوله بركة عظيمة قد تعَطَّلت، وبقربها مسجد وثيق البناء صحيح، ولو قيض الله لذلك الموضع من يعمره لكانت فيه إعانة للحجاج، (ولكن الله يفعل ما يريد)[4]. وقد ذكر السيد السمهودي قريباً من البئر مسجداً من مساجده، صلى الله عليه وسلم[5]، ولا أدري هل هو المبني الآن أو غيره، وقد تأملت فيما قرب من البئر فلم أرَ أثر مسجد غير هذا. ثم سرنا منه واشتد الحر وجعلت الإبل تدخل في الشجر

(1) الأمير رضوان بن عبد الله الغفاري، أمير الحاج المصري، قال المحبي: وله الآثار الحسنة في طريق الحاج المصري والحرمين وكان حسن السيرة، مكث نيفا وعشرين سنة أميرا على الحاج، كانت وفاته سنة 1066 هـ: خلاصة الأثر 2:165.

(2) النازية: عين ماء: كتاب أسماء جبال تهامة، ص: 34.

(3) يقع مسجد الغزالة ــ كما حدده السمهودي ــ في آخر وادي الروحاء مع طرف الجبل على يسارك وأنت ذاهب إلى مكة: وفاء الوفا 3:433.

(4) البقرة: 253.

(5) وفاء الوفا 3:432.

وتطلب الظل وتمتنع من المشي، ولو ضربت، فيسير الناس ساعة ثم يقفون، ومات أناس آخرون، و لم نترل حتى قربنا من شرف الروحاء، وهو المكان المسمى الآن بقبور الشهداء قبل العشاء بقليل. ولما قرب الفجر مَرَّت بنا قافلة أهل المدينة التي جاءت من مكة وهم يسيرون ليلاً.

ثم ارتحلنا بعد طلوع الفجر وجئنا لقبور الشهداء عند طلوع الشمس، وقد ذكر بعض الناس أنَّ قبور الشهداء الذين يسمى بهم المكان قوم قتلوا هناك ظلما[1]. وقد ذكر أيضاً السمهودي مسجداً من مساجده عليه السلام بشرف الروحاء[2]، وهناك مكان محوط عليه بحجارة شبه مسجد يزوره الناس، وأظنه هو. وفي شرف الروحاء آثار آبار معطلة وبنيان داثر، وقد كانت في القديم هناك قرية و لم يبق الآن بها شيء من ذلك، وقد وجدنا هناك سيلا آخر مبنيا تجدد وراءنا فيه بعض ماء، وحوله ناس من الأعراب يبيعون الماء والعلف، وأخبرنا أن وراء الجبل بلدا خال فيه آبار وبعض نخيل، وأظنه السقيا، فإنها قريب من شرف الروحاء.

فلما جاوزنا شرف الروحاء وجدنا قافلة المدينة التي مرت بنا ليلاً نزلت أمامنا وتجاوزناهم حتى جئنا الموضع المسمى بالعريش، فأناخ الناس حتى أفطروا وساروا في يوم حار عازمين على دخول المدينة المشرفة في ذلك اليوم، و لم يعبأ الناس ولا إبلهم بما لقوا من شدة الحر في ذلك اليوم لشدة الفرح الذي استولى على المرح، وإذا عمرت القلوب بالمسرات ذهلت الأجسام عما تلاقي من المضرات، وإذا تنغمت بروح القرب الأرواح، لم تبال بما حصل من المشقة الأشباح، وأي مسرة أعظم من الدنو من دار الرسول؟ وأي لذة أهنا وأمرا من تنشق نسيمها الذي هو غاية المنى والسول، فلعمري لقد انتعشت الجسوم بعدما ذبلت، وطلعت شموس الأفراح بعدما أفلت، وانبسطت أنوارها من القلوب إلى الوجوه فأشرقت، وسرى إجلالها وإكبارها من الأفئدة إلى الرؤوس، وأطرقت وظهر آثار النشاط والمرح في الركائب، فأسرعت وخفت من دون حاد ولا سائق وأوضحت، وكان ما يلفحها من سموم الرمضاء نسيم السحر، وكان عرفها السائل مع الأعناق بليل المطر، لا تلوي إلى سمرة خضراء، ولا تألوا ما أسرعت في

(1) أنظر: وفاء الوفا 3:429.

(2) شرف الروحاء، يقع على ميلين من السيالة قبلها، ويسمى مسجد الشرف، وبين السيالة والروحاء أحد عشر ميلا: وفاء الوفا 3:428.

مومات غبراء، وعندما شاهدت من صنيعها الغريب، ترنمت فوق الأكوار وأنشدت[1]:

[طويل]

خَليليَّ ما للعيسِ في سيْرها تعدُو ... ومن قبلُ أعيَتْ من يسوقُ ومن يحدُو
أظُن لها علمًا يَقينا بأنها ... لقبْرِ رسولِ الله قد أصبحَتْ تعدو
لذلكَ لم تجزَعْ لِحَر أصابها ... كما جزعَتْ بالأمْسِ إذ مسها الجهْدُ
فلا تعجبُوا من علمِها باقترابها ... وليسَ لها بالدارِ من قبلِ ذا عهدُ
ففضلُ رسولِ الله في الكونِ ظاهِر ... أقرتْ به العجماءُ والحجَرُ الصلدُ
وأنوارُ أرضٍ جُلها قد تلألأتْ ... أحسَّتْ بها الأبصارُ والعظْمُ والجِلدُ
دنَتْ فدنَتْ أعلامُها فبَدا لنا ... من الشوقِ في الأحشاءِ ما لم يكُن يبدوُ
عليها منَ الرحمنِ أزكى تَحية ... تدومُ دوامًا ما لآخرهِ حَدُّ
تكادُ من الأشواقِ أرواحُنا لها ... تطيرُ ولم تجزَعْ وأنى لها كدُّ
ولولا الذي قد عاقَها من جُسومنا ... لطارَتْ ولكن الجسومَ لها قيْدُ
وكنا نظُن القربَ يذهِبُ بعضَ ما ... بها فإذا بالقرْبِ زادَ لها الوجْدُ
ولِمْ لا وءانُ الوصْلِ محكم ذكرها ... غدا ناسِخا ما كان يقرؤهُ البُعدُ
أتاحَ لنا الرحمنُ فيها إقامَة ... بخيرٍ إلى أن يحويَ الجسد اللحدُ
بجاهِ حبيبِ الله أفضلُ من بهِ ... توسلَ من لم يُغنهِ الجَد والجِدُّ
عليه صلاةُ الله ما دامَ وصلةُ ... يزيدُ له شوْقي إذا ذُكِرت نجدُ

ومما قلته في ذلك اليوم أيضاً ونحن سائرون وبأجنحة الشوق طائرون، والناس بين قائل: لا نبيت الليلة إلا إلى المدينة، وقائل: بل نبيت وغدا ندخلها

(1) وردت القصيدة في: الثغر الباسم، ص: 82.

سكينة، وهواي مع القائل الأول، وأعرضت عن الثاني وما تأول، فأنشدت مرتجلا، وكنت من المبيت دونها وجلا[1]:

[طويل]

هنيئا لقلبي هذه دارُ سَيدي دَنتْ فدنتْ كل المسرةِ من يدِ

وقد كنتُ أقصى الغربِ أطلبُ وقفة من الله قبلَ الموتِ في خيرِ مشْهدِ

وأرجُو وصَالا مذْ سنينَ كثيرَة فها أنذا أرجوهُ في اليومِ أو غدِ

جديرٌ بمن قد نالَ ما نلتُ أن ترى له جلسةٌ من فوقِ هامَةِ فرقَدِ

لأعلامِ دارِ المُصطفى هذه التي نشاهِدُها من ربوةٍ فوقَ فرْقدِ

كأن ثَراها مِسكُ دارينَ[2] والحصى فرائِدُ دُر في قِلادةِ عَسجدِ

إذا عاينَتْ أعلامَ طيبةَ مُقلتي ترنَّح جسمي كاهتزازِ المُهندِ

ولم تزل ذلك اليوم في أرغد عيش، وإن كان لأجل الشوق غير خال من الطيش، لا تسمع الآذان إلا الحبيبة مسكن الحبيب، ولا تشاهد الأعين إلا مشاهد تحن إليها بنسب قريب، والزوار في كل واد يهرعون، وإلى الارتقاب فوق كل مرقب يسرعون، ليشاهدوا بعض تلك القباب، فتمتع العين قبل تمتع الجسم بالدخول من الباب، وأول مكان ترى منه قبابها وأسوارها، وتشاهد منه بالبصر والبصيرة أنوارها، الجبل المسمى بمفرّح، إذ لا يبقى بعد الصعود إليه هم مبرح، فتسارع الناس عند الدنو منه صعوده، وتباشروا برؤية منزل الرسول وشهوده، فلم يتخلف عن الصعود إليه إلا من لا قدرة له عليه، وفي ذلك قلت هذه الأبيات ذاكراً لبعض المعالم التي هي للقرب من أصدق الآيات:

[كامل]

يا صاحِبي نلتَ المُنى فاستبْشِر ودنوتَ من دارِ الرسُولِ الأطهَر

---

(1) وردت القصيدة في: الثغر الباسم، ص: 82.

(2) دارين: قريب في بلاد فارس على شاطئ البحر، وهي مرفأ سفن الهند بأنواع الطيب، فيقال مسك دارين وطيب دارين: معجم ما استعجم 2:538.

وبدتْ معالِمُ طيبــةٍ لــكَ فاســتمعْ أوصافَها من صــادقٍ لــك مُخبِــرِ
هـــذا مُفـــرّحُ كاسِـــهِ وكأنـــهُ ياقوتـــةٌ رُشّـــتْ بـــذائبِ عَنْـــبرِ
وأمامَـــهُ البيـــداءُ يـــسطعُ نورُهـــا لبصائِرِ الزُّوارِ هـــل مـــن مُبـــصِرِ
وعلى يمينكَ قد بـــدا عِـــيرٌ يُـــرى بالقربِ كـــالثورِ العقِـــيرِ الأعْفـــرِ
وأنِـــخْ ركابَـــكَ بـــالُمعرسِ إنـــهُ لمبـــــارَكٌ وبمائــــهِ فتطَهّـــــرِ
واحْدُ الركابَ مع العقيـــقِ مُنعمـــا عينيـــكَ في ذاكَ المكـــانِ النيِّـــرِ
يـــا حَبـــذا أحُـــدٌ نـــراهُ يحبنـــا ونحُبُّـــه[1] جبـــلٌ جميـــلُ المنظـــرِ
فكأنما هُـــو حُلـــةٌ مـــن عـــسجَدٍ صـــبِغتْ جوانبُـــها بمِـــسكٍ أذْفَـــرِ
وإذا أتيـــــتَ لحـــــرَّةٍ غَربيـــــةٍ وعلـــوتَ غاربَهـــا عُلـــو مُـــشمرِ
ودنا النقا وبَـــدا المُـــصلى فـــاغتبطْ بالقُربِ من أصْلِ المفـــاخرِ وافخَـــرِ
واتركْ قباءً عـــن يمينـــكَ واجعلـــنْ سِلعًا قُويتك في الجنـــابِ الأيْـــسرِ
واصمدْ تُجاهك يعترِضْـــك مُهنيـــا بَطحـــانُ دُورِ مَناخـــةٍ والعَنـــصرِ
مـــا بعـــدَ ذا إلا الـــدخولُ لِطيبـــةٍ بِـــسَكينةٍ تمـــشي بـــدونِ تكبُّـــرِ
يهديكَ للحرَمِ الأمينِ شـــذاهُ مـــن بابِ الـــسلامْ أدخلـــهُ دون تَـــصبُّرِ
وعن الصلاةِ علـــى الـــنبيِّ مُـــسَلما مهمـــا قربـــتَ لـــدارهِ لا تَفتـــرِ
واعلمْ بأنـــكَ إن وقفـــتَ مُـــصليا ما بـــينَ روضـــةِ سَـــيدي والمنبَـــرِ
في روضـــةٍ مـــن جنـــةٍ مُتقلبـــا هـــيَ أرضُـــها في طـــاهِرٍ ومُطهـــرِ
تغشاكَ من رحمـــاتِ ربـــك نَفحـــةٌ تحظى بهـــا دُنيـــا ويـــومَ المَحـــشرِ

---

(1) إشارة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد: هذا جبل يحبنا ونحبه، على باب من أبواب الجنة: المعجم الأوسط 6:315.

فلأنـــتَ بينــهما يقينـــا واقِـــف ما بـــين جنـــةِ عدنـــهِ والكـــوثَرِ

فـــإذا وقفـــتَ أمـــامَ وجـــهِ نبيـــهِ حيـــاكَ بالرضـــوانِ منـــه الأكبَـــرِ

فهناك تستجلى البصيرةُ إن صــفتْ أصلُ الجمالِ بـــدا بـــأعظمِ مظهَـــرِ

فتـــرى العـــوالِمَ كلـــها بجمَالهـــا وجلالِها حضرتْ بأقـــدسِ محْـــضَرِ

أصلُ الوجودِ ومنبعُ الجـــودِ الـــذي عـــمَّ المظـــاهِرَ في جميـــعِ الأعـــصُرِ

نـــورُ الإلـــهِ بـــه اســـتنارَ عبـــادةُ دُنيا وأُخـــرى ذي المُحيـــا الأزهَـــرِ

محمودُ كل الخلـــق أحْمـــد حامِـــد ومحمـــد بمقـــامِ حَمْـــدٍ أشـــهَرِ

صـــلى عليـــه الله خـــيرَ صـــلاتهِ والآل والأصحَاب أكـــرَم معـــشَرِ

ولما تجاوزنا جبل مفرح غلوة[1] أو غلوتين، وصلنا إلى منتهى أبعد الحرمين، وهو حرم الشجر الذي هو بريد في بريد، وحده طرف البيداء التي بها الهموم تبيد، وقطعناها بفرح وسرور ونشاط وحبور، وجئنا وقت العصر إلى ذي الحليفة[2] وقد نسي كل إلف من شدة السرور أليفه، وهي البطحة المباركة المكينـــة وميقـــات ساداتنا أهل المدينة، وفيها المُعَرس[3] الذي أمر النبي، صـــلى الله عليـــه وســـلم، بالتعريس فيه، فنحن في ذلك نقتفيه، فأنخنا بها حتى تطهرنا وصلينا الظهرين جماعة، وذلك في أقل من ساعة، وآثرنا الركاب نحثها حثا، وتيممنا المدينة و لم نطق دونها لبثا، وأغنانا التمتع بمسارح العقيق عن مساءلة الخل والرفيق، فوصلنا الحرة الغربية عند المغرب، وكان مرأى ومسموع لنا مطرب، و لم نترل مع ركـــب أصـــحابنا المغاربة إيثارا للدنو من الحرم والمقاربة، فعدلنا بعدما تجاوزنا بُطحان ذات اليمين، ودرنا مع سور المدينة الأمين إلى أن أتينا باب البقيع، وحللنا في حمى أهلها المنيع،

(1) الغلوة: قدر رمية بسهم: لسان العرب: غلا.

(2) ذو الحليفة :تصغير حلفة، وهي ماءة بين بني جشم بن بكر بن هوازن وبين بني خفاجة العقيليين رهط توبة، بينه وبين المدينة ستة أميال وقيل سبعة، كان منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج من المدينة لحج أو عمرة، فكان ينزل تحت شجرة في موضع المسجد الذي بذي الحليفة اليوم، فإذا قدم راجعا هبط بطن الوادي، فإذا ظهر من بطن الوادي أناخ بالبطحاء التي على شفير الدار الشرقية، فعرس حتى يصبح فيصلي الصبح: معجم ما استعجم 1:464.

(3) المعرس: مسجد ذي الحليفة على ستة أميال من المدينة، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرس فيه ثم يرحل لغزاة أو غيرها: معجم البلدان: المعرس.

ودخلنا منه بعد العشاء، وأذهلنا الالتذاذ بذلك عن طلب العشاء، ونزلنا بربـــاط سيدنا إسماعيل بن جعفر الصادق[1] مستجيرين بحماه من كل سارق وطـــارق إلا طارقا يطرق بخير، أو زائر يهني بانتهاء السير، فألقت عصاها واستقر بها النـــوى، كما قر عيناً بالإياب المسافر، وقد تيممنا بالنزول بجوار هذا السيد الجليل والإمام الأصيل، عظيم من عظماء أهل بيت الرسول، كريم يبلغ بجواره المنى والسول.

(1) إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، أبو الحسن، كان من وجوه بنى هاشم وافاضلهم، وتوفى ببغداد سنة210 هـ: تاريخ بغداد: 6: 260.

ذكر دخولنا[1] المدينة المشرفة
على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

كان دخولنا للمدينة المشرفة ليلة الخميس الثانية من محرم فاتح عام ثلاثة وسبعين وألف، وبتنا تلك الليلة بالرباط المذكور، فمنا من زار ومنا من تأخر إلى الصباح، لأن الحرم الشريف بعد صلاة العشاء يغلق ولا يكون له إلا قرب الفجر انفتاح. وكنت فيمن أخَّر الزيارة لشغل البال، وضيق الوقت ومزاحمة الأشغال. فلما كان قبل الفجر بقليل اغتسلت وذهبت إلى المسجد الأثيل، وصليت في روضة الجنة، وعظمت علي من الله المنَّة، وزرت أكرم نبي وأفضل رسول، وسلمت عليه وعلى صاحبيه الفائزين من قربه بأعظم مأمول، وصليت الصبح بذلك الحرم، وكرعت في مناهل الفضل والكرم. ثم رجعنا إلى محلنا ومحط رحلنا، وأخذنا في أهبة المجاورة، وانقطعت بيننا وبين أصحابنا في ذلك المحاورة، وما كان شيء أهم إلي ولا أشد علي من إقسامهم علي بالنبي، صلى الله عليه وسلم، بين يديه على ترك المجاورة لديه، وكنت أتخَوَّف منهم ذلك قبل الوصول، ونهيت من توهم ذلك منهم أشد النهي مخافة التورط في سوء أدب يعسر الانفكاك منه بعد الحصول، فسلم الله من ذلك ووقانا شر ما هنالك، وأذعنوا للتفرقة بعدما علموا مني الخبر، وما يغني الحمد لولا مساعدة الجَد.

وأقمنا يوم الخميس ويوم الجمعة، وفي ليلة السبت نزل الركب المصري ليلاً وأقام أصحابنا المغاربة معه في المدينة يوم السبت، وبلغ الله أمنيتهم في إقامة ثلاثة أيام صحيحة بالمدينة وأربع ليال، فقرت أعينهم بذلك، وكانوا تخوفوا إزعاج المصري إياهم عن الإقامة، كما هو شأنه في غالب السنين، فلا يقيمون إلا يوماً واحداً. وفي هذه السنة أشغلهم عن ذلك ما وقع بينهم من الاختلاف، فقد جاءت كتب من مصر بعزل الأمير إبراهيم وتولية أبي الشوارب مكانه، وأبى الأمير

---

(1) ساقط من ط.

المعزول أن ينقاد لحكم العزل حتى كادت أن تكون فتنة، (ولكن الله سلم)[1]، فاستسلم للأمر الوارد، وسلم المحمل الأمير عبدان، وكان حج معه وأقام هو بالمدينة إلى أن توفي بها بعد شهر أو أزيد، ورجع أولاده وخدامه ومن كان معه إلى مصر، وكانوا يرون أنه مات مسموما ودفن بالبقيع، فتمت نعمة الله عليه ببركة حسن طويته، وكانوا أرادوا إهانته بالعزل، فكان له سبب الفوز بأكرم الـترل، فأهله الله للموت بالمدينة، وتلك منقبة عند الله مكينة.

ولما كان صبيحة يوم الأحد تميأ الركب المغربي للخروج، وخرج أصحابنا ضحى وودعناهم بالمسجد أمام الوجه النبوي، ولم نزد معهم، ورأيت أن ذلك هو اللائق في الوقت، وأن التوديع أمام وجه النبي، صلى الله عليه وسلم، أدعى لحصول المراد لنا ولهم، ولرؤيته، صلى الله عليه وسلم، ما يلاقي الكل منا من فراق الآخر، كل ذلك طلباً لحصول مرضاة الله ورسوله، فعسى نفحة من نفحات جوده التي في ضمنها خير الدنيا والآخرة تمب علينا وعليهم. وقلت عند وداعهم بعد قضاء الحق الواجب من السلام عليه صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، إن هؤلاء إخواننا نسبا ودينا، وقد علم الله ما بيننا وبينهم من الألفة والمودة، وما حملنا على فراقهم طلب دنيا ولا جاه، بل حب مجاورتك، ولا طافت أنفسهم بتخلفنا عنهم أيضا إلا لإجلال قدرك، فهم في كفالتك يا رسول الله حتى يصلوا إلى أهليهم سالمين غانمين، كما أن في جوارك دنيا وآخرة حتى نلقاك على الحوض مطمئنين آمنين. وقد كَمَّل الله رغبتنا فيهم وفينا، فبلغوا على أحسن حال، وأقمنا على أجمل المراد حتى أقر الله أعين الكل بعد ذلك بالاجتماع في أوكاننا، فنسأل الله أن يتم لنا البقية بالسلامة والعافية ديناً ودنيا، ويمُنُّ علينا بالعود إلى تلك البقاع الشريفة والموت بها على الملة الحنيفة.

ولما خرج أصحابنا وودَّعناهم وأيسوا منا كما أيسناهم، جَدَّدنا النيات وأخلصنا لله قدر الطاقة الطويات، واطمأنت القلوب، وانزاحت بفضل الله الأحزان والكروب، ورجعنا إلى الزيارة بقلوب من سوى ما هي بسببه فارغة، وترادفت علينا أنعم من الله سابغة. وفي صبيحة يوم الاثنين خرجنا لزيارة أهل البقيع، رضوان الله عليهم، وتتبعنا الأماكن المشهورة هناك. وكُنَّا في الأيام التي أقمنا قبل ذلك إنما نزورهم جملة لاشتغالنا بأسباب الانفصال والاتصال، فلما

(1) الأنفال: 43.

اطمأنت بنا الدار، وبلغنا الأوطار، أتيت الديار من أبوابها، وقصدنا المسببات من جهة أسبابها، فخرج معنا الناسك الزاهد أقدم المجاورين في تلك الديار هجرة وأكثرهم لما فيها من المشاهد خبرة الشيخ محمد الفزاري المالكي وأوقفنا على المشاهد كلها، وأرانا جليها وخفيها، ودعونا الله عند كل مشهد بما نرجو قبوله لنا لإخواننا ولأحبابنا الذين خلفناهم في بلادنا، ولمشايخنا وذرياتنا، نسأل الله أن يعود ببركة[1] ذلك علينا وعليهم في دنيانا وآخرتنا. وقد استوفى السيد السمهودي في تاريخ المدينة ذكر المشاهد الظاهرة بالبقيع أحسن استيفاء[2]، فليراجعه من أراد تحقيق ذلك، ولنذكر نحن بعض المشاهد ممن زرناه، وإلا فمقبرة المدينة لا مقبرة على وجه الأرض أشرف منها بالإجماع، فهي خارجة من الخلاف الذي في تفضيل المدينة على مكة؛ إذ لا تعلم مقبرة على وجه الأرض مثلها دفن فيها من سادات هذه الأمة وأفاضلها من الصحابة، خصوصا الخلفاء وأزواج النبي، صلى الله عليه وسلم، وأولاده وأكابر أهل بيته وسادات التابعين وتابعيهم بإحسان، فهم أول زمرة تحشر مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيهم خلفاؤه وأعمامه وعماته وبناته وولده إبراهيم وأزواجه وأكابر أهل بيته والجم الغفير من أصحابه وأنصاره وأولادهم وأتباعهم، فلا يشك مسلم أن ليس في أمة النبي، صلى الله عليه وسلم، أفضل من الزمرة التي تبعث من المدينة. وقد روي عن الإمام مالك، رضي الله عنه، أنه قال: دفن بالمدينة أكثر من عشرة آلاف من الصحابة[3]، وبها شهداء أحد، وليس في غزواته، صلى الله عليه وسلم، أكثر من هذه الغزوة شهيداً، بها شهداء الخندق[4]، وبها شهداء الحرة[5]، وليس فيمن استشهد في الفتن بعد النبي،

(1) في ط: بركة.
(2) أنظر: وفاء الوفا 3:307.
(3) وفاء الوفا 3:300.
(4) كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس، وكان سببها فيما قيل أن نفرا من اليهود حزبوا الأحزاب على رسول الله، فخرجوا حتى قدموا على قريش بمكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله، كما دعوا إلى حربه غطفان من قيس غيلان، فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن، فلما سمع بهم رسول الله وبما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة، وكان الذي أشار على رسول الله بالخندق سلمان رضي الله عنه: تاريخ الطبري 2:90. شذرات الذهب 1:11.
(5) كانت وقعة الحرة سنة 63 هـ، وذلك أن أهل المدينة خرجوا على يزيد، فجهز لهم مسلمة بن عقبة، فخرجوا له بظاهر المدينة بحرة واقم، فقتل من أولاد المهاجرين والأنصار ثلاثمائة وستة أنفس، وعددا من الصحابة رضوان الله عليهم، وذلك لثلاث بقين من ذي الحجة، وهجر المسجد النبوي فلم يصل فيه جماعة أياما، ولم تمتد حياة يزيد بعد ذلك ولا أميره مسلم بن عقبة: شذرات الذهب 1:69.

صلى الله عليه وسلم، أكرم منهم شهادة، وكم فيها من مآثر ومشاهد يعلم بعضها بالنظر في تآليف من ألف في فضلها.

ذكر المشاهد التي تُزار بمدينته عليه السلام

فأول ما يلقاك من المشاهد إذا خرجت على باب المدينة المسمى بباب البقيع قبة فيها صفية بنت عبد المطلب(1) على يسارك وأنت ذاهب في الزقاق الذي في وسط البقيع إلى ناحية المشرق، وإن ملت إلى اليمين مع سور المدينة فهناك مسجد صغير قيل إن فيه موقف النبي، صلى الله عليه وسلم، حين خرج يستغفر لأهل البقيع، وقيل: هو زاوية دار عقيل بن أبي طالب(2) التي دُفِن فيها، وفيها دفن كثير من أهل البيت. روى خالد بن [عرفطة] قال: كنت أدعو ليلة إلى زاوية دار عقيل، فمَرَّ بي جعفر بن محمد فقال لي: أعن أثر وقفت هنا؟ فقلت: لا. قال: هذا موقف نبي الله بالليل إذ خرج يستغفر لأهل البقيع، قال المراغي: وقد أخبرني غير واحد أن الدعاء هناك مستجاب(3).

فإذا مررت كذلك تحت سور المدينة يميناً إلى أن توازي قريباً من زاوية سور المدينة الذي فيه مشهد السيد إسماعيل فهناك عن يسارك القبة الكبيرة الماثلة في الهواء وفيها مشهد العباس ومشهد الحسن بن علي، ومشهد أمه، رضي الله عنهم، على المشهور، ومشهد زين العابدين(4) ومحمد الباقر، وجعفر الصادق، وكثير من أهل البيت. وبين هذا المشهد وزاوية دار عقيل مشاهد متعدِّدة إلى جهة المشرق، منها مشهد أمهات المؤمنين، يُروى أنَّ فيه أمهات المؤمنين كلهن عدا خديجة

---

(1) صفية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشمية أم الزبير عمة النبي صلى الله عليه وسلم. تزوجها الحارث بن حرب بن أمية أخو أبي سفيان فولدت له ثم خلف عليها العوام بن خويلد بن أسد بن العزي فولدت له الزبير بن العوام والسائب عبد الكعبة ثم لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم أسلمت صفية لما أسلم حمزة شقيقها وليس في إسلامها اختلاف بخلاف إخوتها وهاجرت إلى المدينة مع ولدها،وعاشت صفية إلى خلافة عمر فماتت ودفنت بالبقيع ولها ثلاث وسبعون سنة :رواة الآثار 99:1.الإصابة 743:7.

(2) عقيل بن أبي طالب الهاشمي، هو أكبر إخوته وآخرهم موتا وهو جد عبد الله بن محمد بن عقيل المحدث، شهد بدرا مشركا وأخرج إليها مكرها فأسر ولم يكن له مال ففداه عمه العباس، خرج عقيل مهاجرا في أول سنة ثمان وشهد مؤتة، توفي في زمن معاوية: سير أعلام النبلاء 218:1.

(3) وفاء الوفا 267:3.

(4) زين العابدين: على بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي، ولد سنة ثمان وثلاثين بالكوفة، وتوفي سنة 94 هـ: شذرات الذهب 104:1. سير أعلام النبلاء 386:4.

وميمونة، وهو في قبلة المشهد المنسوب لعقيل. ومنها المشهد المنسوب لعقيل وفيه قبر ابن عمه أبي سفيان بن الحرث. رُوِي أن عقيل بن أبي طالب رأى أبا سفيان بن الحرث يجول بين المقابر فقال: يا ابن عَمي، ما لي أراك هنا؟ قال: أطلب موضع قبر، فأدخله داره، وأمر بقبر فحفر في قاعتها، فقعد عليه أبو سفيان ساعة ثم انصرف، فلم يلبث إلا يومين حتى تُوفي ودُفِن فيه.

ومنها مشهد يقال إن فيه بنات النبي، صلى الله عليه وسلم، ما عدا فاطمة، رضي الله عنهن، وهو قريب من مشهد عقيل، ولا شك أن من مات من أهل بيت النبي، صلى الله عليه وسلم، في حياته يدفنه قرب قبر عثمان بن مظعون[1] لما ورد في الأحاديث الصحيحة أن النبي، صلى الله عليه، وسلم لما مات عثمان بن مظعون وضع عند رأسه حجراً[2] وقال: أعلم به قبر أخي وأدفن إليه من مات من أهلي[3]. وهذا المشهد قريب من ذلك.

ومنها مشهد سيدنا إبراهيم بن النبي، صلى الله عليه وسلم، فيه قبره وقبر عثمان بن مظعون، فقد جاء في الحديث أن أول من دفنه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالبقيع عثمان بن مظعون، فلما توفي ابنه إبراهيم قالوا: يا رسول الله أين نحفر له؟ قال: عند فرطنا عثمان بن مظعون[4]. وفي الحديث ما يدل على أن بنات النبي، صلى الله عليه وسلم، هناك، فقد روى الطبراني عن ابن عباس لما ماتت رُقيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: الحقي بسلفنا عثمان بن مظعون[5]، والثابت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحضر موت ابنته رقية لغيبته في بدر، وأنه حضر ابنته أم كلثوم وزينب. قال السيد السمهودي[6]: وأصل المروي في الطبراني وارد في أحدهما. ثم قال: والظاهر أهُن جميعا عند عثمان بن مظعون لقوله، عليه السلام، لما وضع الحجر عند رأس عثمان بن مظعون: أعلم به قبر أخي وأدفن إليه من مات من أهلي[7]، رواه ابن ماجة والحاكم.

(1) عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب الجمحي، من الصحابة، وأول من مات بالمدينة من المهاجرين: السنن الكبرى 412:3.
(2) المعجم الأوسط 169:4.
(3) سنن البيهقي الكبرى 412 :3.
(4) وفاء الوفا 270:3.
(5) المعجم الأوسط 41:6.
(6) وفاء الوفا 273:3.
(7) سنن البيهقي الكبرى 412:3.

وفي ذلك المشهد أيضا قبر فاطمة بنت أسد[1] أم علي، رضي الله عنه، كما حققه السيد واستدل لذلك بأحاديث ثم قال: وهذا [كله][2] صريح في مخالفة ما عليه الناس اليوم في المشهد المنسوب إليه[3]. قلت: والمشهد المنسوب إليها اليوم في فم زقاق أقصى البقيع من شرقيه، بل ليس من البقيع على ما حقق[4]. وفي هـذا المشهد أيضا قبر عبد الرحمن بن عوف، رضي الله، عنه فقد روي عن حميد بن عبد الرحمن قال: أرسلت عائشة إلى عبد الرحمن ابن عوف حين نزل به الموت أن هلم إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإلى أخويك. فقال: ما كنت مضيقا عليك بيتك، إني كنت عاهدت ابن مظعون أينا مات دفن إلى جنب صاحبه[5]. وفي هذا المشهد أيضا سعد بن وقاص، رضي الله عنه، روي عن ابن دهقان قال: دعـاني سعد بن أبي وقاص فخرجت معه إلى البقيع وخرج بأوتاد حتى إذا جاء موضـع زاوية دار عقيل الشرقية الشامية أمرني فحفرت حتى إذا بلغت باطن الأرض ضرب فيها الأوتاد ثم قال: إن هلكت، فدلهم على هذا الموضع يدفنوني فيه، فلما هلك قلت ذلك لولده، فخرجنا حتى دللتهم على ذلك الموضع فوجدوا الأوتاد فحفروا له هناك. وفي هذا المشهد أيضاً قبر عبد الله بن مسعود، فقد روى ابن سـعد في طبقاته أن ابن مسعود قال: ادفنوني عند قبر عثمان بن مظعون[6]. وفي المشهد أيضاً قبر خنيس بن حذافة السهمي[7] زوج حفصة قبل النبي، صلى الله عليه وسلم، فقد روي أنه دفن عند عثمان بن مظعون، وفيه أيضاً قبر أسعد بن زرارة رضـي الله عنه. قال السيد السمهودي بعد ذكره لما تقدم مبسوطاً بأدلته: فينبغي السلام على هؤلاء كلهم عند زيارة مشهد سيدنا إبراهيم ومعه فاطمة بنت رسول الله، صلى

---

(1) فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي وهي أول هاشمية ولدت هاشميا وهاجرت إلى النبي عليه السلام، وماتت وشهدها النبي صلى الله عليه وسلم: فضائل الصحابة 2:555. سير أعلام النبلاء 2:118.

(2) زيادة من وفاء الوفا.

(3) وفاء الوفا 3:274.

(4) قال صاحب كتاب التحفة اللطيفة: مشهد فاطمة ابنة أسد أم علي وجعفر وعقيل وهو شامي مشهد عثمان من جهة الشرق هكذا يذكر، والأقرب أنها عند عثمان بن مظعون، وأن الذي بهذا المشهد قبر سعد بن معاذ الأشهلي: التحفة اللطيفة 1:42.

(5) وفاء الوفا 3:278.

(6) طبقات ابن سعد 3:159. والعياشي ينقل هنا من تاريخ السمهودي: وفاء الوفا 3:278.

(7) خنيس بن حذافة السهمي، كان ممن شهد بدرا، زوج حفصة قبل النبي صلى الله عليه وسلم: تاريخ الطبري 2:213.

الله عليه وسلم، على القول بأنها بالبقيع، وهو الأرجح[1] انتهى. قلت: وقد تقدم أنها في قبة العباس مع ابنها الحسن وذريته، وهو الأولى إن شاء الله تعالى.

ومنها مشهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان بموضع يسمى حُش كوكب[2] في أقصى البقيع من ناحية المشرق، عليه قبة عظيمة هائلة قد جدد بناؤها في هذه السنين القريبة العهد، رضي الله عنه، وفي قبلته خارجه محوط من خشب مخروط فيه قبر شيخ مشايخنا (السيد)[3] آدم الحسيني النقشبندي رضي الله عنه. ومنها مشهد ينسب لحليمة السعدية مرضعة النبي[4]، صلى الله عليه وسلم، شامي[5] مشهد عثمان إلى جانب الطريق عليه قبة لطيفة، وفي خارجه من قبلته دكة محوط عليها بأحجار فيها قبر شيخنا صفي الدين القُشاشي، رضي الله عنه، وهو الذي اتخذ هذه الدكة لدفن أصحابه، وكان أصحابه قبل ذلك يدفنون خارج قبة إبراهيم بن النبي، صلى الله عليه وسلم، وهناك قبور كثيرة من مشايخهم أصحاب سلسلة الغوث، رضي الله عنه، منهم الشيخ الشناوي، وشيخه السيد صبغة الله الحسيني، وكثير من أصحابهم. ولما رأى الشيخ، رضي الله عنه، في ذلك المكان من الضيق المؤدي إلى الدفن على الأموات قبل ذهاب أجسادهم اتخذ هذه الدكة في آخر البقيع، وكان فيها[6] مدفنه، رضي الله عنه. ومنها مشهد الإمام مالك بن أنس، رضي الله عنه، إذا خرجت من باب البقيع كان مواجها لك على يمين زقاق البقيع الذي يشق وسطه، وإلى جنبه قبة يقال إنها لنافع مولى ابن عمر، وقيل لنافع القارئ[7]، وقيل لبعض ولد عمر بن الخطاب رضي الله عن جميعهم. ومنها المشهد المنسوب لفاطمة بنت أسد بأقصى البقيع، وقد سبق عدم ارتضاء السيد لذلك.

---

(1) وفاء الوفا 3:280.

(2) حش كوكب: موضع بالمدينة دفن فيه عثمان رضي الله عنه، والحش البستان، وكوكب الذي أضيف إليه رجل من الأنصار، وقيل من اليمن، وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه قد اشترى حش كوكب ووسع به البقيع، فكان أول من دفن فيه: معجم ما استعجم 1:450.

(3) زيادة من ط.

(4) في ط: مرضعته.

(5) في ط: في.

(6) في ط: فيه.

(7) نافع بن أبي نعيم القارئ، مؤدب مالك بن أنس، توفي سنة 169: شرف الطالب، ص: 34.

قال عند ذكره لهذا المشهد: والظاهر أنه مشهد سعد بن معاذ الأنصاري[1]، رضي الله عنه آمين.

ومن المشاهد التي هي قريبة من البقيع، إلا أنها ليست فيه، مشهد سيدنا إسماعيل بن جعفر الصادق الذي كان نزولنا فيه حسبما ذكرناه أولا، وهو كبير يقابل مشهد العباس في المغرب، وهو ركن سور المدينة هناك، وبني قبل السور فصار بابه من داخل المدينة، والمشهد الذي بجانب المشهد لزين العابدين، وعرصة المشهد داره، والبئر الذي بين الباب الأول والمشهد بئره، وقد ذكر أنه يتداوى بها. قلت: وهناك بئر أخرى في الرحبة الواسعة التي هي خارج المشهد يقال إنها هي التي يستشفى بمائها.

غريبة:

لما قدم ركب أهل العراق[2] وكان غالبهم روافض، بل كلهم كانوا يكثرون زيارة مشهد السيد إسماعيل، رضي الله عنه، كغيره[3] من مشاهد أهل البيت، وكانوا يأتون إليه أفواجا قلما ينقطع زائره منهم أيام إقامتهم بالمدينة، وقد تقدم أن نزولنا كان في الرواق الذي في باب المشهد، فبينما نحن ذات يوم جالسون إذ جاءت طائفة منهم فيهم بعض من يشار إليه منهم، فزاروا وسلموا، وكان من جملة سلامهم أن قالوا: السلام عليك يا سيدنا إسماعيل، وبالغوا في تعظيمه إلى أن قالوا: نشهد أنك على دين أخيك موسى، يعنون موسى الكاظم[4]، رضي الله عنه، ونشهد أنك غير مخالف له، متبع لطريقه. في هذيان كثير، وسبب ذلك، والله أعلم، أن الرافضة قبحهم الله منهم طائفة تقدم إسماعيل على أخيه، ويقولون إنه هو الإمام بعد أبيه، وأنه أحد الأئمة الإثنا عشر المعدودين عندهم، يعتقدون فيهم

---

(1) سعد بن معاذ الأنصاري، من كبار الصحابة، توفي في السنة الخامسة للهجرة: شذرات الذهب 11:1. سير أعلام النبلاء 280:1.

(2) قال محمد كبريت الحسيني: وفي غضون (شهر محرم) يكون قدوم الركب العراقي، فينزل في مراحه، وهو شمال العُريض من شرقي المدينة، ويكون له سوق هنالك، وتعمر به هاتيك المسالك: الجواهر الثمينة 549:2.

(3) في ط: عن غيره.

(4) أبو الحسن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، من كبار الأئمة والفقهاء، ولد سنة 128 هـ، وهو أحد الأئمة الإثني عشر المعصومين على اعتقاد الإمامية، حبسه هارون الرشيد في دولته ومات في حبسه سنة 183هـ: شذرات الذهب 304:1.

العصمة، وهذه الطائفة تُسَمَّى الإسماعيلية، وكثير منهم بأرض اليمن الآن لهم مذاهب ينتحلونها، وآراء في العقائد يعتقدونها، ومن سوى هؤلاء من الروافض يعتقدون الإمامة لأخيه موسى الكاظم، رضي الله عنه، ويعتقدون أن أخاه لا ينازعه في ذلك، ويرون أن الإسماعيلية كاذبون عليه مفترون في ادعائهم الإمامة له، ولأجل ذلك ينزهون إسماعيل عن مخالفة أخيه، رضي الله عنهما، ومن علم أحوال هؤلاء الأئمة من أهل البيت وأسلافهم وأولادهم رضي الله عنهم، وعلم ما كانوا عليه من تعظيم السنة ووفور العلم، وتعظيم أصحاب جدهم، صلى الله عليه وسلم، علم براءة ساحتهم من كذب هؤلاء الأرجاس وافترائهم عليهم أحاديث (ما أنزل الله بها من سلطان)[1] ولا جاء بها في سنة نبيه من بيان.

ولما خرجت الطائفة المذكورة من المشهد وجاؤوا إلى البئر الخارجة وقفوا عليها وترحموا ودعوا وقال لهم كبيرهم: إن هذه البئر هي التي دخل فيها الإمام جعفر الصادق، رضي الله عنه، فغاب عن أعين الناس إلى الآن، وهم يظنون أنه قد مات، أو كلام هذا معناه. وقضينا العجب من حمقهم وقبح اعتقادهم في الذي آل بهم إلى تنزيههم عن الموت، وذلك معتقد الروافض بأجمعهم في الإمام الثاني عشر من أئمتهم، وهو محمد بن حسن العسكري[2]، رضي الله عنه، يعتقدون أنه إلى الآن حي، وأنه هو المهدي الذي يخرج في آخر الزمان الموعود به في الحديث الصحيح أنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا[3]. قلت: والعجب كل العجب من متابعة بعض أهل التصوف في ذلك لهم حسب ما نقله سيدي عبد الوهاب الشعراني عن بعض مشايخه وأنه اجتمع به وأخبره بمقدار عمره، وأنه جاوز السبعمائة سنة إذ ذاك، بل في كلام بعضهم ما يشير إلى أن الشيخ محي الدين[4] يقول بذلك، ولولا الإطالة لنقلت كلامهم في ذلك، والعلم عند الله.

فإن صَحَّ عن هؤلاء الأئمة أنهم قالوا ذلك فنحن ممن يعتقدهم ويجزم بصدقهم فيما يقولون لأنهم خيار الأمة، إلا أنا نكل العلم إلى الله تعالى في فهم ما

---

(1) يوسف: 40.
(2) الإمام محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي الذي تلقبه الرافضة بالخلف وبالحجة وبالمهدي وبالمنتظر وبصاحب الزمان، وهو خاتمة الإثنى عشر إماما عندهم، ويلقبونه أيضا بالمنتظر، كان عمره لما عدم تسع سنين، وكان ذلك سنة 265 هـ: شذرات الذهب 1:150.
(3) المعجم الكبير 10:133.
(4) يقصد الشيخ محي الدين بن عربي الحاتمي الأندلسي.

ورد عنهم في ذلك، إذ ليس في الشريعة قاطع يدل على كذب الروافض في هذه المسألة بخصوصها، وإن كانوا كاذبين في غيرها، وموافقة بعض أئمتنا الصوفية لهم في ذلك من جهة الكشف لا يقدح في كمال منصبهم لعدم القاطع في كذبهم، ولا يدل أيضا على صدق الروافض فيما سوى ذلك، فيما تبين كذبهم فيه وافتراؤهم، فإن موافقة المحق للمبطل في جزئية لا دليل على بطلانها لا يدل على صدق المبطل فيما سوى ذلك ولا على كذب الصادق فيما سوى ذلك. وقد وافق كثير من الأئمة المحققين أهل الكشف الصادق وآراء الفلاسفة في جزئيات مما ادعوه لم يقم الدليل على بطلانها كما وافق في كثير منها أيضا جم غفير من المحققين من علماء الظاهر أهل الكلام، فلا يشكل عليك ما تجده في كلام أئمة الطريق، رضي الله عنهم، موافقا للفلاسفة تارة، وللروافض تارة، فذلك لا يقع في كلامهم، غالبا، إلا فيما لم يقم دليل على بطلان قولهم فيه، وإن فرض فيما سوى ذلك، وما أبعده من جلالة منصبهم، فهو مؤول قطعا، فشد يدك على ما قررنا، وهذه فائدة ساق الله تقريرها في هذا المحل و لم تخطر قبل ذلك لنا ببال.

ومنها مشهد على يسارك وأنت مار في زقاق البقيع يقال إنه لأبي سعيد الخدري[1]، رضي الله عنه، وقد ذكر السيد السمهودي المشاهد التي ذكرنا كلها إلا هذا المشهد والمشهد المنسوب لحليمة[2]، فلم يذكرهما ولا أدري هل حدث بناؤهما بعده أو لم يتضح له صحة نسبتهما لمن ذكر، مع أنّ السيد[3] قد ذكر أبا سعيد فيمن دفن بالبقيع فروى عن عبد الرحمن بن أبي سعيد قال: قال لي أبي: يا بني إني قد كبرت وذهب أصحابي وحان موتي، فخذ بيدي، فأخذت بيده حتى جاء إلى البقيع، فجئت أقصى البقيع مكاناً لا يُدفن فيه، فقال يا بني، إذا هلكت فاحفر لي ها هنا. فإذا ثبت أن قبره في أقصى البقيع فلا يبعد أن يكون هذا قبره. وأما قبر حليمة فلم أرَ أحداً ذكر أنها دفنت بالبقيع، والله أعلم. وعلى كل حال فيزار كل مشهد له نسبة إلى منتسب إلى الله أو إلى رسوله، ولو لم تصح نسبة المشهد إليه فإن لمجرد النسبة أثرا في حصول البركة كما قررنا قبل هذا.

---

(1) أبو سعيد الخدري: سعد بن مالك، من أعيان الصحابة وفقهائهم، شهد الخندق وبيعة الرضوان وغيرهما، توفي سنة 74هـ الإصابة 3:78.: شذرات الذهب 1:81.
(2) حليمة بنت أبي ذؤيب، مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، توفيت قبل فتح مكة: الكامل 1:356.
(3) وفاء الوفا 3:307.

تتميم:

قد بَقي من المشاهد التي ذكر السيد[1] أنها تزار بالمدينة ثلاثة ليست في البقيع[2]، أحدها مشهد مالك بن سنان والد أبي سعيد، وهو من شهداء أُحد، رضي الله عنهم، ومشهده غربي المدينة بلصق السور من داخله، وعليه قبة قديمة البناء ومحله من سوق المدينة القديم. روي عن أبي سعيد، رضي الله عنه، أنه قال: أمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من نقل من شهداء أحد إلى المدينة أن يدفنوا حيث أدركوا، فأدرك أبو مالك بن سنان عند أصحاب العباء؛ أي الذين يبيعون العباء في طرف الحناطين، ولابن زبالة: فوافوه بالسوق فدفن عند مسجد أصحاب العباء، وهنالك كانت أحجار الزيت[3]. ثانيها مشهد النفس الزكية، وهو محمد بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، وهو أخو السيد إدريس أول أهل البيت قدوما إلى المغرب، وعامة شرفاء المغرب من نسله إلا شرفاء سجلماسة فإنهم من نسل النفس الزكية. استوطن أسلافهم الينبع فقدم جدهم منه إلى المغرب في السابعة، والله أعلم. ومشهده بناء في جوف مسجد كبير شرقي سلع، وفي قبلة المسجد منهل من عين الأزرق، وهذا هو المستفيض بين أهل المدينة. قال السيد[4]: "ذكر سبط ابن الجوزي أن كثيرا من الناس كان قد بايعه، فخرج بعد حبسه لأبيه وأقاربه، فجهز إليه المنصور عمه عيسى بن موسى في أربعة آلاف، وذكر قتله عند أحجار الزيت، أي عند مشهد مالك بن سنان، وأن جسده دُفِن بالبقيع، وكان معه ذو الفقار؛ سيف علي، ثم انتقل إلى الرشيد، فعلى هذا فقبره بالبقيع، والمستفيض ما تقدم، والله أعلم.

وثالثها: مشهد سيد الشهداء حمزة، رضي الله عنه، وهو بأُحد، وسيأتي ذكره عند ذكرنا لزيارته. فهذه المشاهد المعروفة بالمدينة، فينبغي لزائرها أن يزورها ويُسَلِّم على أصحابها ويتوسل بهم إلى الله في بلوغ مآربه.

ولما كان يوم الثلاثاء سابع الشهر ارتحل الركب المصري من المدينة بعد إقامة ثلاثة أيام بها، وكان الحرم الشريف في أيام إقامتهم لا تكاد تسمع فيه صوت قارئ

(1) أنظر: وفاء الوفا 3:335.
(2) وفاء الوفا 3:307.
(3) وفاء الوفا 3:335.
(4) وفاء الوفا 3:310.

ولا مؤذن لكثرة اللغط والصخب ورفع الأصوات وازدحام الناس في المسجد، لا ينقطع ذلك ليلاً ولا نهاراً، لأنَّ أبواب الحرم الشريف لا تغلق ماداموا هناك، ويُكثِرون بالليل إيقاد الشموع في المسجد ويجتمع إليهم صبيان أهل المدينة يقرؤون لهم موالد وقصائد في مدح النبي، صلى الله عليه وسلم، وهم محدقون بهم، ويسمون ذلك مولد النبي، صلى الله عليه وسلم، يستعدون له من بلادهم بالشمع والحلواء، ويدفعون للصبيان أجرة على ذلك، ويقع على أرض الحرم من الشمع المذاب شيء كثير لأجل ذلك، فيلتقطونه ويجمعونه ويرجعون به إلى بلادهم تَبَرُّكاً به، فتجد منهم في المسجد بالليل جماعات كثيرة على هذا النمط، فيكثر لذلك الصياح في المسجد واللغط الذي لا ينبغي، لا سيما مع ما ينضاف إلى ذلك من ولاول النساء وبكاء الأطفال واختلاط النساء بالرجال. وبالجملة فعوام المصريين من أبعد الغوغاء عن إصابة الصواب لولا أن مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لا تكدره الدلاء لكانوا جديرين بالمقت بسبب ما يحصل منهم من سوء الأدب وسيئ الأقذار في الحرم الشريف.

أعجوبة:

حكى لي بعض المجاورين أنه وُجد في بعض المواسم رجل مع امرأة في الحرم الشريف، فحُمِلا إلى الحاكم، فشهدتَ البينة أنها زوجته، وقيل له: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: إنه لا ولد لنا، فرجوت أن تحمل المرأة ببركة هذا الحرم، فعذر بجهله، ولم يُعَاقب.

وكانت عادة المصريين ليلة رحيلهم من المدينة أن يجتمع أمراؤهم وكبراء أهل المدينة والأغوات في صحن المسجد ليلاً ويوقد شمع كثير على حُسك[1] كبار من فضة وُشيت بذهب، وتحضر[2] جماعة من المنشدين وينشدون قصائد في مدحه، صلى الله عليه وسلم، وينثر عليهم من اللوز والسكر والأزهار وأنواع الحلاوي، ويدار عليهم بالأشربة اللذيذة إلى أن يمضي هزيع من الليل، وهذه عادة أمرائهم

(1) حسك: مفردها: حسكة؛ شمعدان: عامية مغربية.
(2) في ط: يحضر.

وأمراء الشاميين في ليلة الرحيل. و لم يفعل المصريون شيئا من ذلك في هذه السنة لما وقع من الاختلاف والعزل بين أمرائهم كما تقدم شرح ذلك.

وبعد رحيلهم من المدينة بثلاثة أيام نزل الركب الشامي ليلة السبت، ولقوا من الحر في الطريق شدة عظيمة كالذي وقع للمصري قبلهم أو أشد، فماتت منهم جملة كثيرة في الطريق، وجملة بعدما وصلوا إلى المدينة. وأقاموا بالمدينة المشرفة عشرة أيام وتمتعوا بمشاهدة تلك البقاع، ونصبت الأسواق، واتسعت الأرزاق، وقسمت الصدقات، وكثرت الارتفاقات. وبالجملة فلا ينتفع أهل المدينة بركب انتفاعهم بأهل الشام فإنهم يقدمون بتجارات كثيرة وطعام وزيت وأشربة يبيعونها في المدينة عند قدومهم ويدخرون ما بقي إلى الإياب فيبيعون كل ذلك بالمدينة.

ولأهل المدينة عند قدومهم عادة مذمومة، وهي أنه لا تبقى مخدرة من النساء شريفة كانت أو وضيعة إلا خرجت تباشر البيع والشراء بنفسها، ولهن على الرجال في ذلك الوقت إتاوة يؤدونها لهن يبتعن بها ما أحببن من اللائق بهن، من طيب أو شبهه، وربما لا تقنع إحداهن من زوجها إلا بالخمسين ديناراً فما فوقها، فقد حُكي أن امرأة بعض المدرسين بها أعرفه طلبت منه في ذلك اليوم ما تخرج به إلى السوق على العادة، فدفع لها عشرة دنانير ذهباً، فاستقلتها وذهبت من شدة الغيظ فرمت بها في المرحاض وأتلفتها عليه وقالت له: أمثلي يخرج إلى السوق بهذا المقدار، فلم يملك من أمره إلى أن ذهب وتسلف خمسين ديناراً فدفعها لها، وهذه حسرة عظيمة وذل للرجال الذين جعلهم الله قوامين على النساء، فلا ينبغي لذي همة أن يرضى بذلك، بيد أن نساءهم يبالغون في الستر الظاهر بحيث لا يبدو من المرأة ولا مغرز إبرة، حتى من أطرافها، يلبسن الخفاف السود، ويتبرقعن ويسدلن من أزورهن ما يكون نهاية في الستر، إلا أنهن يكثرن من الطيب عند الخروج فيوجد عرف الطيب منهن من مسافة فيكون ما سترنه ظاهراً أبدينه باطناً، وبهذا فسر بعض العلماء قوله، صلى الله عليه وسلم: رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة، لأن الحكم في الآخرة إنما هو للحقائق، ومن هذه صفته من النساء، وإن اكتست في الظاهر فهي في الحقيقة عارية، لأنّ حقيقة التعري إبداء ما حقه أن يخفى، كما أن التستر إخفاء ما لا ينبغي أن يظهر، ولا خفاء أن عطر المرأة من أعظم زينتها وألذ ما يُشتهى منها، وقد أُمرت بإخفاء ما هذا سبيله من أوصافها، فإذا ظهر منها ذلك فهي في الحقيقة عارية وإن اكتست، فإنّ من العورات ما لا

تواريه الكسوة ولا يُواريه إلا تركه رأساً أو الخلوة؛ ككلام المرأة، فالصحيح أنـــه عورة، وكذلك عطرها، فلا يواريه إلا تركه، ولذلك جاز لها الطيب المؤنث، وهو ما ظهر لونه وخفي ريحه، لأن اللون تستره الثياب، بخلاف الريح فلا يـــستره إلا الترك رأساً، أو عدم الخروج، فليتأمل.

وقد مَنَّ الله على الحجاج الشاميين بطول إقامتهم في المدينة وإدراك فضيلة الصلوات الكثيرة في المسجد النبوي، واستقصاء زيارة الآثار الشريفة لمن شاء منهم الذهاب إلى المساجد المنسوبة إليه عليه السلام والآبار التي شرب منها وتوضـــأ، وتلك منقبة عظيمة، خصوصا الصلوات في المسجد النبوي، فقد روى الإمام أحمد والطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات، عن أنس بن مالك: من صلى في مسجدي أربعين صلاة، زاد الطبراني: لا تفوته صلاة، كتب له براءة من النار وبراءة مـــن العذاب، وبرئ من النفاق[1]. ولفظ الصلاة وإن كان شاملا للفرائض والنوافـــل، (فالظاهر من الحديث خصوص ذلك بالفرائض، بدليل زيادة الطبراني، لأن الفوات فيها أظهر، ولا يبعد إلحاق النوافل)[2] المؤقتة بأوقات معلومة بها، كالوتر وركعتي الفجر، وإن ألحقت بها الرواتب أيضا، والضحى والتهجد، خصوصا عند مـــن لا يرى التحديد بينهما، كمالك، رضي الله عنه، اتسع الفضل ورُجي حصول ذلـــك الفضل لمن أقام يوما واحدا وحافظ على تلك الصلوات في المـــسجد النبـــوي؛ كحُجاج المغرب فإنهم في بعض السنين قد لا يقيمون إلا يوما واحدا، فليتنبه لهذه الدقيقة وليحافظ عليها من قصر إقامته بالمدينة ليحصل له هذا الفضل العظيم الذي فيه سعادة الدنيا والآخرة.

ثم خرج الركب الشامي من المدينة على وجل عظيم من العرب الذين يمرون بهم في طريقهم، وكانوا قد أوقعوا بالركب وقعة شنيعة في ذهابهم قرب تبـــوك، وأخذوا مئين من إبل الركب وأموالا لا تحصى، وقتلوا أقواما، وسبب ذلك أنـــه كانت لهم إتاوة على الركب في كل سنة يأخذونها من أميرهم، كما هو شـــأن أرباب الدرك في كل طريق يعطونها من بيت المال، وفي هذه السنة عزل الأمـــير الذي كان يأتي بالركب كل سنة، واستبدل به غيره ممن لا يعرف حال الطريـــق وأعرابها، فلما جاءته شيوخ العرب أرباب الدرك لأخذ ما كان لهم عادة من عند

---

(1) المعجم الأوسط 5: 525. مسند أحمد 3:155.
(2) ما بين قوسين زيادة من ط.

السلطنة، منعهم من ذلك وأغلظ لهم في القول، وظن أن قوة عسكره تحميه منهم، ولم يعلم أن من قبله من الأمراء ما تحملوا لهم ذلك إلا لعجزهم عن مقاومتهم، فراجعوه في ذلك وناشدوه، فصمم على الامتناع، فلما أيسوا منه شنوا الغارة على الركب، فدافعهم قليلا، فانهزم، فنهبوا من الركب شيئاً كثيراً، فلما رجع لم يخرج من المدينة حتى بعث نجيبا إلى الشام ليأتيه المدد، وواعدهم موضعا معروفا في الطريق، ومع ذلك التزم للأعراب أزيد مما هو عادتهم، فسلم الله تعالى الركب بسبب ذلك.

ولما خرجت الأركاب من المدينة وصفا الجو منهم وهمدت الأسواق واتسع المسجد على أهله وزال الزحام من الطرقات والمزارات، تفرغنا لزيارة المشاهد والتطواف على الآثار المباركة ولقاء المشايخ.

ذكر المساجد التي تزار بالمدينة لنسبتها إليه صلى الله عليه وسلم:

فمنها مسجد قباء[1]، وهو المسجد الذي أُسِّس على التقوى في أصح الأقوال، وقيل هو مسجده، صلى الله عليه وسلم، كما ورد في حديث، وجمع بأنه يطلق على كل منهما، خرجنا لزيارته يوم السبت الحادي عشر من محرم، واخترنا زيارته في هذا اليوم لما ورد في الصحيح أنّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان يأتي مسجد قباء كل سبت راكباً وماشياً[2]، وكان عبد الله يفعله، يعني ابن عمر. وورد في فضل هذا المسجد آثار كثيرة منها ما رُوِي عن عمر، رضي الله عنه، أنه قال: لو كان مسجدنا هذا بطرف من الأطراف لضربنا إليه أكباد الإبل[3]. وعن زيد بن أسلم، رضي الله عنه، أنه قال: الحمد لله الذي قرب منا مسجد قباء، ولو كان بأفق من الآفاق لضربنا إليه أكباد الإبل. وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لأن أصلي في مسجد قباء ركعتين أحب إلي من أن آتي بيت المقدس مرتين،

(1) مسجد قُباء: يقع على ميلين من المدينة المنورة: الجواهر الثمينة 1:379.
(2) صحيح البخاري 1:399.
(3) الطبقات الكبرى 1:245.

لو يعلمون ما في قباء لضربوا إليه أكباد الإبل[1]. وعنه عليه السلام: الصلاة في مسجد قباء كعمرة[2]. إلى غيرها من الأحاديث والأخبار.

وكان خروجنا إليه بكرة بعد صلاة الحنفي، ووصلنا إليه عند طلوع الشمس، ووقفنا قريبا منه قليلا ريثما حلت النافلة، فدخلنا وصلينا في مصلاه عليه السلام، وهو إلى حرف الأسطوان الذي في الصف الموالي لمحراب المسجد عن يمين المصلي فيه، وهناك أماكن أخر ذكر أنه عليه السلام صلى فيها، منها في رحبته، ومنها في زاويته الشرقية من الصف الأول. وقد ذكر السيد السمهودي ذلك كله وبينه أحسن بيان[3]. وخارج المسجد من قبلته موضع يسمونه مسجد علي. قال السيد: لعله مسجد دار سعد ابن خيثمة فقد ورد أنه عليه السلام اضطجع فيها وتوضأ من المُهراس التي فيها[4]. قال: وفي قبلته أيضا دار كلثوم بن الهدم[5] الذي نزل عليه، صلى الله عليه وسلم، لما قدم قباء[6]. قلت: ولعلها موضعه، مسجد صغير آخر لم نجد من يسميه لنا، وقريبا من مسجد قباء كناسة كبيرة من شرقيه يقال إنها مسجد الضرار.

ولما خرجنا من المسجد دخلنا الحديقة التي فيها بئر أريس، وشربنا من مائها، وسيأتي ذكرها في الآبار. وقد زرنا، والحمد لله، مسجد قباء وصلينا فيه مراراً متعددة نحو العشر. وفي خارج المسجد من ناحيته الغربية رباط كبير مليح مبني بالحجارة المنحوتة، فيه بيوت كثيرة يسكنها الغرباء، وله أوقاف، ومقدمهم القيم بأمر الرباط صاحبنا الشيخ صالح بن أحمد اليمني رضي الله عنه.

ومنها مسجد الجمعة[7]، وهو في طريق قباء على نحو ميل أو أقل من مسجد قباء، عن يمين الذاهب من المدينة إليها على الطريق التي تمر بين النخل، ومن مَرَّ على طريق الحرة الغربية فهو عن يساره، فقد رُوي أنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم،

---

(1) فتح الباري 3:69.
(2) المعجم الكبير 1:210.
(3) أنظر: وفاء الوفا 3:158.
(4) وفاء الوفا 3:159.
(5) كلثوم بن الهدم: ابن امرىء القيس بن الحارث الأنصاري، شيخ الأنصار ومن نزل عليه النبي صلى الله عليه وسلم أول ما قدم المدينة بقباء وكان قد شاخ،توفي قبل بدر: سير أعلام النبلاء 1:242.
(6) وفاء الوفا 3:159.
(7) مسجد الجمعة هو الذي صلى به النبي أول جمعة بالمدينة وهو في بني سالم ببطن الوادي على يمين السالك إلى مسجد قباء، ويقال له مسجد الوادي ومسجد عاتكة: التحفة اللطيفة 1:39.

لما خرج من قباء في هجرته أدركته الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن الوادي، وهو أول جمعة صلاها عليه السلام بالمدينة[1]. وهذا المسجد اليوم في منخفض من الأرض قد أحاطت به حدائق النخل من أكثر جهاته، وفي شماله أطم خراب قيل إنه محل عتبان بن مالك[2]، رضي الله عنه، وفيه أثر مسجد صغير غير مسقف يقال إنه المكان الذي صلى به النبي، صلى الله عليه وسلم، من بيته. ومسجد الجمعة في مستبطن الوادي الذي يحول بينه وبين قومه إذا سال. ومنازل قومه في غربي الوادي على طريق الحرة.

ومنها مسجد الفضيخ[3]، وهو مسجد صغير شرقي مسجد قباء على شفير الوادي على نشز من الأرض مرضوح بحجارة سود[4]، فقد روي عن جابر بن عبد ال،له رضي الله عنه، قال: حاصر النبي، صلى الله عليه وسلم، بني النضير، فضرب قبته قريباً من مسجد الفضيخ، وكان يصلي في موضع مسجد الفضيخ ست ليال، [فلما حُرِّمت الخمر خرج الخبر إلى أبي أيوب ونفر من الأنصار، وهم يشربون فيه فضيخاً، فحلوا وكاء السقاء فهرقوه فيه، فبذلك سُمِّي مسجد الفضيخ][5]. وقيل غير ذلك، ويعرف الآن بمسجد الشمس. قال السيد: ولا أعلم سبب هذه التسمية[6].

ومنها مسجد بني قريظة قرب حرتهم الشرقية على باب حديقة هناك، وعنده خراب أبيات شمالي الحديقة من دور بني قريظة وأطم الزبير بن باطيا القرضي داخل في المسجد، ففي الصحيح أنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، بَعَثَ إلى سعد بن معاذ لَمَّا نزل بنو قريظة على حكمه، فلما كان قريباً من المسجد قال، عليه السلام، للأنصار: قوموا إلى سيدكم[7]. وليس المراد مسجد المدينة، لأنه عليه السلام لم

---

(1) وفاء الوفا 3:167.
(2) عتبان بن مالك بن عمرو ممن شهد بدرا وجاءه النبي إلى بيته فصلى فيه توفى بالمدينة في ولاية يزيد بن معاوية: مشاهير علماء الأمصار 1:22.
(3) يقع مسجد الفضيخ شرقي مسجد قباء على شفير الوادي، ويعرف بمسجد الشمس: التحفة اللطيفة 1:41.
(4) ينقل العياشي هنا عن السمهودي، أنظر: وفاء الوفا 3:169.
(5) في خ وط: وسمي مسجد الفضيخ لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بفضيخ، وهو فيه، فشربه، والتصويب من وفاء الوفا 3:169.
(6) وفاء الوفا 3:171.
(7) صحيح مسلم 3:1388.

يكن بها، بل مسجد بني قريظة كما أشار إليه الحافظ ابن حجر قال: وأخطأ من زعم أن لفظ المسجد غلط.

وهذا المسجد كبير عليه حضيرة من حجارة، قريب من القامة، وفي زاويته الغربية الشمالية دكة كبيرة هي موضع منار المسجد قبل انهدامه، فقد روي أن النبي، صلى الله عليه وسلم، صلى في بيت امرأة من الحضر، وأن المكان الذي صلى فيه هو موضع هذا المنار. ومنها مسجد مشربة أم إبراهيم عليه السلام[1]، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام صلى في مشربة أم إبراهيم، وسميت بذلك لأن مارية ولدت إبراهيم ابن النبي، صلّى الله عليه وسلم، فيها، وكان النبي، صلى الله عليه وسلم، أسكنها هناك، وهي من أموال مخيريق التي هي من صدقاته، صلى الله عليه وسلم، وهذا المسجد شمالي مسجد بني قريظة قريب من الحرة الشرقية.

ومنها مسجد بني ظفر من الأوس شرقي البقيع بطرف الحرة الشرقية، ويعرف اليوم بمسجد البغلة[2]، فقد روي أن النبي، صلى الله عليه وسلم، صلى في مسجد بني ظفر، وأنه أتى بني ظفر في مسجدهم فجلس على الصخرة التي في المسجد ومعه عبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وناس من أصحابه، وأمر النبي، عليه السلام، قارئاً فقرأ حتى أتى على هذه الآية: (فكيف إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيد)[3]، الآية. فبكى، الحديث.

وعند هذا المسجد آثار في الحرة من جهة القبلة يقال إنها أثر حافر بغلته صلى الله عليه وسلم[4]. وهناك أيضاً أثر على حجر كأنه أثر مرفق يذكر أن النبي، صلى الله عليه وسلم، اتكأ عليه ووضع مرفقه الشريف عليه[5]، وعلى حجر آخر أصابع والناس يتبركون بها.

قلت: وقد مَنَّ الله بزيارة هذه المساجد المتقَدِّمة كلها في يوم واحد، خرجنا من المدينة صباحاً ومررنا بمسجد الجمعة ومسجد عتبان بن مالك، وجئنا إلى

---

(1) مشربة أم إبراهيم: أكمة بين النخيل حوط عليها بلبن، والمشربة البستان، قيل: كان بستانا لمارية القبطية، وفيه ولدت إبراهيم بن الرسول عليه السلام، وقد أقيم عليه مسجد: الجواهر الثمينة 2:436.
(2) مسجد بني ظفر شرقي البقيع ويعرف بالبغلة لما قيل إنه كان في جهة القبلة أثر حافر بغلته: التحفة اللطيفة 1:40.
(3) النساء :41.
(4) الجواهر الثمينة 2:533.
(5) نفسه.

مسجد قباء[1] ثم خرجنا إلى مسجد الشمس ثم إلى مسجد بـــني قريظـــة، ثم إلى مشربة أم إبراهيم، ثم إلى مسجد البغلة، و لم نرجع إلى المدينة إلا قرب العـــصر. وكنا مع جماعة من إخواننا المجاورين يدلونا على الطريق إلى هذه الأماكن، ومررنا يومنا ذلك بجملة من الآبار، كبئر بُصة، وبئر أريس، وبئر غرس، وسيأتي ذكر هذه الآبار عند ذكرنا للآبار المنسوبة له صلى الله عليه وسلم.

ومنها مسجد الإجابة[2]، وهو لبني معاوية بن مالك من الأوس، وهو شمالي البقيع، قريب منه على يسار السالك إلى العريض، بإزائه تلول هي آثار قرية بـــني معاوية. ففي صحيح مسلم من حديث عامر بن سعد عن أبيه أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أقبل ذات يوم من العالية حتى مر بمسجد بني معاوية، دخل فركع ركعتين، وصلينا معه، ودعا ربه طويلاً ثم انصرف إلينا فقال: سألت ربي ثلاثـــا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة؛ سألته أن لا يهلك أُمَّتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يُهْلك أُمَّتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها[3].

وعن سعد ابن أبي وقاص أنه كان مع النبي، صَلَّى الله عليه وســـلم، فمـــر بمسجد بني معاوية فدخل فركع فيه ركعتين، ثم قام فناجى ربه، ثم انصرف. وعن محمد بن طلحة بلغني أن النبي، صلى الله عليه وسلم، صلى في مسجد بني معاوية على يمين المحراب نحواً من ذراعين. قال السيد: فليتحر ذلك مع الدعاء قائمـــاً[4]. قلت: وقد زرنا هذا المسجد والحمد لله مراراً، وصليت فيه ودعوت الله بما أرجو إجابته لنفسي ولإخواني وأشياخي والمسلمين.

ومنها: مسجد الفتح[5] والمساجد التي في قبلته، وتعرف اليوم كلها بمساجد الفتح، والأول المرتفع على قطعة من حبل سلع في المغرب، يصعد إليـــه بـــأدراج شمالية وشرقية، وهو المراد بمسجد الفتح عند الإطلاق، ويقال له أيـــضاً مـــسجد

---

(1) مسجد قباء: وهو على ثلاثة أميال من المدينة، وصح أنه كان يزوره كل سبت راكبا وماشيا ويصلي فيه ركعتين، وفي حظيرة بصحنه محل مبرك الناقة، وفي قبلته دار سعد بن خيثمة عند الباب المسدود، ودار كلثوم بن الهدم، وهي إحدى الدور قبلته، وبئر أريس تجاهه: التحفة اللطيفة 1: 41.
(2) مسجد الإجابة: وهو مسجد بني معاوية بن مالك بن عوف من الأوس، شمالي البقيع على يسار السالك للعريض، وسمي بذلك لدعائه فيه بثلاث دعوات فأجيب في اثنتين: التحفة اللطيفة 1: 38.
(3) صحيح مسلم 4: 2216.
(4) وفاء الوفا 3: 177.
(5) مسجد الفتح الذي دعا النبي فيه يوم الخندق على الأحزاب وصلى فيه فاستجيب له وحوله مساجد تعرف بذلك وبغيره كأبي بكر وعلي وسلمان: التحفة اللطيفة 1: 41.

الأحزاب، والمسجد والأعلى. وفي مسند أحمد رجاله ثقات، عن جابر بن عبد الله أن النبي، صلى الله عليه وسلم، دعا في مسجد الفتح ثلاثاً: يوم الاثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين، فعرف البشر في وجهه. قال جابر: فلم يترل في أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الإجابة[1]. وروي أنه عليه السلام مر بمسجد الفتح التي على الجبل وقد حضرت صلاة العصر، فرمى فيه فصلى فيه صلاة العصر. وروى أنه عليه السلام دعا في مسجد الفتح يوم الأحزاب حتى ذهب الظهر وذهب العصر وذهب المغرب، ولم يصل بينهن، ثم صلاهن جميعا بعد المغرب. قال أبو غسان: وسمعت غير واحد ممن يوثق به يذكر أن الموضع الذي دعا عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من الجبل هو اليوم إلى الأسطوانة الوسطى الشارعة في رحبة المسجد[2]. قال السيد[3]: ومحل ذلك اليوم ما يقابل محراب المسجد من الرحبة لتوسطه، فإنه كان على ثلاث أساطين بين المشرق والمغرب، فمسقفه رواق واحد كما هو اليوم، لكن غيرت أساطينه، وذكر الدعاء الذي ينبغي أن يدعى به في ذلك الموضع. قال: وتسمية هذا المسجد بمسجد الفتح لأن الاستجابة وقعت به وجاء حذيفة بخبر رجوع الأحزاب ليلا به، فأصبح رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والمسلمون قد فتح الله، عز وجل، لهم ونصرهم وأقر أعينهم. وأما المساجد التي في قبلته فقد روي عن معاذ بن سعد أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، صلى في مسجد الفتح الذي على الجبل وفي المساجد التي حوله. قال السيد[4]: وهو ظاهر في أنها ثلاثة غيره، فأحدها الذي يلي المسجد الأعلى يعرف بمسجد سلمان الفارسي[5]، وثانيها يلي قبلة هذا المسجد يعرف بمسجد علي بن أبي طالب[6]، رضي الله عنه، وثالثها في قبلة الثاني على طرف جبل سلع جانحا لجهة المشرق، ويعرف بمسجد أبي بكر[7]، وهو أصغرها في باب المعروف منها بعلي ماجل، يترل

(1) مسند أحمد 3:322.
(2) وفاء الوفا 3:183.
(3) أنظر: وفاء الوفا 3:183.
(4) وفاء الوفا 3:189.
(5) يقع مسجد سلمان الفارسي في قبلة مسجد الفتح: التحفة اللطيفة 1:40.
(6) يقع مسجد علي في قبلة مسجد الفتح جدده ضغيم المنصوري سنة ست وسبعين وثمانمائة: التحفة الطيفة 1:40.
(7) يقع مسجد أبي بكر الصديق بوسط حديقة العريضية المتصلة بقبة العين الزرقاء شمالي المصلى: التحفة اللاطيفة 1:39.

إليه بدرج، وأهل المدينة يخرجون إلى هذه المساجد لقصد التفرُّج في أيام كثيرة، ولهم يوم معلوم في السنة يخرجون إليها بالأخبية والأطعمة الكثيرة فيبيتون بها في لهو وطرب، وهو يوم النصف من شعبان، وقد خرجنا مرة لزيارة المساجد فوجدنا الأعلى منها مملوءاً نساء و لم نتمكن من الدخول إليه، وهن يطبخن فيه أنواع الأطعمة، ونساء المدينة لهن عوائد مذمومة في الخروج إلى التتره والتفرُّج في البساتين والأماكن المنفسحة، ويُسَمُّون ذلك القائلة، فيقولون: نقيل اليوم في الموضع الفلاني. وخروج الرجال لذلك أكثر، فتكلف المرأة زوجها في ذلك من نفقة ما لا قدرة له عليه. ومن الأماكن التي هي في عداد المساجد ويتعين التبرك بها والصلاة فيه: كهف سلع، وهي لبني حرام، فقد جاء أن النبي، صلى الله عليه وسلم، جلس به وكان يبيت به ليالي الخندق. وقال السيد[1]: والظاهر أنه المراد بما في الأوسط والصغير للطبراني من أن معاذ بن جبل خرج يطلب النبي، صلى الله عليه وسلم، فدل عليه في جبل ثوابٍ، فخرج حتى رقي جبل ثواب، فبصرته في الكهف الذي اتخذ الناس إليه طريقاً إلى مسجد الفتح، فإذا هو ساجد. قال: فهبط من رأس الجبل وهو ساجد، فلم يرفع حتى أسأت به الظن، فظننته قبضت روحه، فقال: جاءني جبريل بهذا الموضع فقال إن الله تعالى يقرؤك السلام ويقول لك: ما تحب أن أصنع بأمتك؟ قلت: الله أعلم. فذهب ثم جاء إلي فقال: إنه يقول: لا أسوؤك في أمتك. فسجدت بأفضل ما نتقرب به إلى الله؛ السجود[2].

قال السيد: جبل ثواب لم أقف له على ذكر[3]، لكن وصفه الكهف بما ذكر ظاهر في إرادة الكهف المذكور بسِلع على يمين المتوجه من المدينة إلى مساجد الفتح من الطريق القبلية بقرب شِعب بني حرام، فإن عن يمينه هناك مجرى وسائلة تسيل من سلع إلى بطحان، فإذا دخلها صعد يسيراً في المشرق كان الكهف عن يمينه وأعلى منه في المشرق وكهف آخر لكنه صغير جداً، فالأول هو المراد، وإذا توجه من هذه السائلة طالب مساجد الفتح كان شعب بني حرام على يمينه، وهو شعب متسع به آثار مساكنهم وأثر مسجدهم الكبير الذي زاد عمر بن عبد العزيز في بنائه واختلف في صلاته، صلى الله عليه وسلم، بهذا المسجد بناء على أن تحولهم

---

(1) وفاء الوفا 192:3.
(2) المعجم الأوسط 49:9. المعجم الصغير 40:2.
(3) وفاء الوفا 192:3.

عن هذا الشعب كان في زمنه عليه السلام بإذنه. وروي أنه إنما كان في زمن عمر، رضي الله عنه، انتهى.

قلت: وأثر المسجد اليوم باق بأسفل الوادي، إلا أنه لا بناء عليه، وإنما عليه حظير صغير، وهو لا يعرفه كثير من الناس ولا يؤبه به، وكذلك الغار المذكور لا يعرفه كثير من الناس ولا يقصد للزيارة، وقد زرته والحمد لله، وسبب معرفتي به أنا لما سمعنا معجم الطبراني الصغير على شيخنا الثعالبي بالروضة النبوية ما بين القبر والمنبر، فعند سماعي هذا الحديث أخبرنا بمكان الغار ودلنا عليه وأخبرنا أنه حرب إجابة الدعاء في ذلك المحل، فقصدته مع صاحبنا سيدي يعيش الدراوي، وكان من المجاورين، وأتيناه من فوق جبل سلع حتى انحدرنا إليه من شرقيه. وأما مسجد بني حرام[1] فزرتُه مراراً، إلا أني أولا كنت لا أعرف نسبته إليهم، وإنما أصلي فيه إذا مررت به لزيارة مساجد الفتح.

ومنها مسجد القبلتين[2]، وهو لبني سلمة، وسمي مسجد القبلتين لأن القبلة حولت فيه. قال السيد[3]: والأرجح أن تحويل القبلة كان بمسجد القبلتين، والنبي، صلى الله عليه وسلم، يصلي به. وليحيى عن محمد بن الأخنس قال: زار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أم بشر بن البراء من بني سلمة في بني سلمة، فصنعت له طعاما قال: فحانت الظهر فصلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بأصحابه في مسجد القبلتين الظهر، فلما أن صلى ركعتين، أمر أن يوجه إلى الكعبة فاستدار، صلى الله عليه وسلم، إلى الكعبة واستقبل الميزاب، فهي القبلة التي قال الله: (فلنولّينّك قبلة ترضاها)[4]، فسُمِّي ذلك المسجد مسجد القبلتين.

قلت: وهذا المسجد غربي بطحان وسلع، قريب من العقيق في مكان مرتفع، والطريق إليه في آكام سود من الحرة وشعاب، ولم أزره إلا مرة واحدة، وصليت ما كتب، وعليه بناء وثيق ليس بقربه شيء من العمارة، وقريب منه حديقة فيها بئر ماء وأرض تزرع.

(1) مسجد بني حرام: يقع بسفح جبل سلع عن يمين سالك مساجد الفتح: التحفة اللطيفة 1: 39.
(2) سمي مسجد القبلتين لتحويل القبلة به في أثناء الظهر وهو بالعوالي: التحفة اللطيفة 1: 41.
(3) وفاء الوفا 3: 196.
(4) البقرة: 144.

ومنها مسجد السقيا الآتي ذكرها في الآبار، وليست السقيا التي بينها وبين المدينة مرحلة، بل محل آخر بالحرة الغربية، وهذا المسجد على يسار الذاهب إلى المدينة من العقيق في الحرة الغربية على طريق الحاج عندما يقرب من المساكن ويشرف على المدينة، فقد روي أن النبي، صلى الله عليه وسلم، عرض جيش بدر بالسقيا، وصلى في مسجدها ودعا هنالك لأهل المدينة أن يبارك لهم في مدهم وصاعهم، وأن يأتيهم بالرزق من هاهنا وهاهنا. قال السيد[1]: وقد تطلبت المسجد بهذا المحل فرأيت رضما[2] على روبية هناك، فأرسلت له بعض العمال ليحفر عن أساسه فظهر تربيعه وبقية محرابه ومن جدرانه أزيد من نصف ذراع في دوره مبيضة بالفضة فبقي على أساسه الأول.

قلت: وهو اليوم مبني ببناء وثيق يأوي إليه الغرباء في بعض الأحيان، خصوصاً أيام الموسم فإن الركب المصري ربما وصلوا بالنزول في بعض السنين إلى تلك الناحية.

ومنها مسجد ذباب[3]، ويعرف اليوم بمسجد الراية، وهو على جبل صغير قريب من سلع من شرقيه قريب من ثنية الوداع على يسار الداخل إلى المدينة من طريق الشام، فقد روي أنه عليه السلام صلى على ذباب، وعن أبي سعيد الخدري: ضرب النبي، عليه الصلاة والسلام، قبته على ذباب؛ يعني في غزوة الخندق، والأرجح أن الخندق كان من ناحية ذباب. قال السيد[4]: وقد رأيت لذباب ذكرا في أماكن كثيرة كلها متفقة على وصفه بأنه الجبيل المذكور بحيث لا تردد عندي فيه. قال[5]: ولعل اشتهاره بمسجد الراية لقول الواقدي في وصف اصطفافهم على الخندق: وكان يزيد بن هرمز في موضع ذباب يحمل راية الموالي، وصفهم كراديس[6] بعضها خلف بعض إلى رأس الثنية؛ يعني ثنية الوداع.

---

(1) وفاء الوفا 3:200.
(2) الرضم: حجارة أو صخور بعضها على بعض: لسان العرب: رضم.
(3) مسجد ذباب أو ذو باب، سمي باسم الجبل الذي عليه مسجد الراية: التحفة اللطيفة 1:39.
(4) وفاء الوفا 3:203.
(5) نفسه.
(6) كراديس: جمع كُرْدُوس؛ وهي الخيل العظيمة، وقيل: القطعة من الخيل العظيمة: لسان العرب: كردس.

ذكر جبل أُحد وما به أو بطريقه من المساجد النبوية

وذكر مشهد سيد الشهداء حمزة ومن معه من الشهداء

جرت عادة أهل المدينة، شرفها الله، بزيارة قبر سيدنا حمزة، رضي الله عنه، كل يوم خميس، وربما باتوا هناك ليلة الخميس في أغلب الأحوال. وقد خرجنا لزيارته والحمد لله، مراراً متعددة مع أصحابنا المجاورين، وكنا نخرج بعد صلاة الصبح مع الحنفي، وكان يسفر[1] في صلاته ولا نرجع إلا بعد الضحى عند اشتداد الحر، ومن أسرع المشي يرجع في أقل من ذلك، ولا أعلم لاختيارهم الزيارة في يوم الخميس سببا، إلا أن يكون ما ورد من أن الأموات يعلمون بزائرهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده. فلما كان يوم الجمعة يضيق المشي فيه بسبب الاشتغال بمقدمات الصلاة وزيارة البقيع، ويوم السبت لزيارة قباء، لم يبق إلا يوم الخميس. وزيارة أحد والشهداء به من السنن المأثورة، ففي صحيح البخاري أن النبي عليه الصلاة والسلام صلى على قتلى أحد بعد ثمان سنين[2] كالمودع للأحياء والأموات. وفي حديث أبي داوود: خرجنا مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، نريد قبور الشهداء، حتى إذا أشرفنا على حرة واقم[3]، فإذا تدلينا منها فإذا قبور الشهداء. فقلنا: يا رسول الله أقبور إخواننا هذه؟ قال: قبور أصحابنا. فلما جئنا قبور الشهداء قال: هذه قبور إخواننا[4]. وروي أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان يأتي قبور الشهداء بأحد على رأس كل حول فيقول: سلام عليكم بما صبرتم[5] (فنعم عقبى الدار)[6]. وكان إذا واجه الشعب قال: سلام عليكم بما صبرتم (فنعم أجر العاملين)[7]. ورُوي أن فاطمة، رضي الله عنها، كانت تزور قبر عمها حمزة، رضي الله عنه، ترمه وتصلحه، وقد علمته بحجر. وروى الحاكم عن علي أن فاطمة كانت تزور عمها حمزة كل جمعة فتصلي وتبكي عنده [8]. وروى البيهقي أن النبي، صلى الله عليه وسلم، زار قبور الشهداء بأحد فقال: اللهم إن

---

(1) يسفر في صلاته: أي ينتظر حتى الإسفار، وهو أن يصبح الفجر لا يشك فيه: لسان العرب: سفر.
(2) صحيح البخاري 1:451.
(3) حرة واقم: اقم أطم من آطام المدينة تنسب إليه الحرة وفيها سقاية مونسة: معجم ما استعجم 2:436.
(4) سنن أبي داوود 2:218.
(5) مصنف عبد الرزاق: 3:573.
(6) الرعد: 24.
(7) الزمر: 74.
(8) وفاء الوفا 3:322.

عبدك ونبيك يشهد أن هؤلاء شهداء، وأنه من زارهم وسلم عليهم إلى يوم القيامة ردوا عليه[1].

والمشهور أن الذين أكرموا بالشهادة يوم أحد سبعون رجلاً أفضلهم وسيدهم حمزة بن عبد المطلب. ورُوي أن مصعب بن عمير دفن معه في قبر واحد[2]، وأن عبد الله بن جحش معهما. قال السيد[3]: والصحيح أنه ليس معه أحد في قبره، وأن مصعبا وعبد الله دفنا بقربه، فيسلم على الثلاثة في مشهد حمزة. والمشهد عليه قبة عالية متقنة، وبابه مصفح بالحديد، وحوله بناء متسع فيه بئر وفيه أخلية للوضوء متصلة بالسطح. قال السيد[4]: والقبر الذي عند رجلي سيدنا حمزة والذي بالصحن ليسا من قبور الشهداء.

وفي خارج المشهد بئر أخرى كبيرة، وبإزائها صفة مسجد وتحته ماجل ماء يهبط إليه بدرج، وباب المشهد في سائر الأيام مقفل لا يفتح إلا يوم الخميس، يأتي القيم من المدينة بالقصد لذلك، ولأهل المدينة موسم كبير في شهر رجب يحتفلون فيه لزيارة حمزة والشهداء، رضي الله عنهم، يأتي الناس إليه من أقطار الحجاز من مكة واليمن والطائف والينبع، فيحشر هنالك خلائق لا يحصون يقاربون ما يجتمع في موسم الحج. ويخرج أهل المدينة بأولادهم ونسائهم ويخرجون معهم المضارب الحسان والخيم الكبار، ويخرج أمراء المدينة وعسكرها، وتنتصب الأسواق العظيمة هنالك يخرجون من أوائل رجب، ويتلاحق الناس كل على قدر حاله، فيتكامل خروجهم في اليوم الثاني عشر، وهو اليوم المشهود عندهم ويوم الزينة، فلا يبقى بالمدينة إلا أهل الأعذار ومن شاكلهم، ويحصل هنالك في تلك الليلة من أنواع اللهو والطرب واللعب أشياء، والرمي بالمدافع والمحاريق، ويبيت الناس طول ليلتهم ويومهم في القراءة والزيارة حول القبر، ويوقد هنالك من الشمع شيء كثير. وأصحاب شيخنا القشاشي هم المتولون لوظيفة القراءة حول القبر لا تنقطع القراءة الليل بأجمعه والنهار بتمامه، وكبيرهم شيخنا الملا إبراهيم، رضي الله عنهم، لا يفارقهم في ذلك المحل. وكيفية القراءة أن تجتمع جماعتهم كلهم فيبدأ أحدهم فيقرأ

(1) تفسير القرطبي 160:14.
(2) التحفة اللطيفة 43:1.
(3) وفاء الوفا 334:3.
(4) وفاء الوفا 309:3.

جزء ويستمع الباقون، فإذا فرغ من حزبه أخذ الذي يليه في القراءة والآخرون يستمعون، ثم كذلك سائر الليل والنهار.

لطيفة:

حكي لي أن بعض الفقهاء بالمدينة كان ينكر على أهل المدينة خروجهم إلى أحد في رجب ويقول لهم: إن ذلك من البدع المذمومة لما يحصل في ذلك من أنواع اللهو والسرف في المطاعم وغيرها والتكلف في النفقات والخروج من المدينة بالأهل والأولاد والخيم الشبيه بشد الرحال، بل هو مع ما في ذلك من التشبيه بمواسم الحج في الهيئة واعتقاد القربة واعتياد يوم في السنة، إلى غير ذلك من الأمور التي لا توافق ظاهر الشرع. وكان ذلك الفقيه لا يخرج معهم إذا خرجوا، ويشدد النكير عليهم في ذلك، فبينما هو ذات يوم من الأيام التي تهيأ الناس فيها للخروج جالس في الروضة أو قريباً منها، إذ غلبته عيناه، فرأى النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو يدخل ويخرج من الحجرة ويقوم ويقعد كفعل متهيئ لسفر وأثاث السفر معدة بين يديه، فقال له: يا رسول الله، ما هذا الذي أرى؟ أتريد الانتقال عنا والخروج من المدينة؟ قال: لا إنما نريد الخروج لزيارة عمنا حمزة مع أهل المدينة، أو كلاماً هذا معناه، فانتبه الفقيه من نومه وتهيأ للخروج مع الناس فعجبوا من ذلك وسألوه. فأخبرهم بذلك. ولا بدع فإن للنبي، صلى الله عليه وسلم، تعلقا معنويا وموافقة روحانية لأمته في سائر شؤونهم وتقلباتهم فيهتم بما يهتمون، ويفرح بما يفرحون به، ويسوؤه ما ساءهم، فما بالك بأهل مدينته الطيبة المطيبة، وكل ذلك رحمة منه لهم ورأفة بهم وحنانا، ولا يمنعه من ذلك كون بعض شؤونهم قد يلابسها ويخالطها خلاف المسموع، فقد كان، صلى الله عليه، وسلم في حياته معهم على هذا الحال وفيهم المسيء والمحسن، والطائع والعاصي، بل المؤمن والمنافق، فيعلم جاهلهم ويرشد ضالهم، ويرفق بالشرس[1] الأخلاق منهم حتى ينقادوا، ولم تحمله إساءتهم ولا عصيان بعضهم، بل نفاقه على مفارقتهم والتخلي عنهم، إذ لو تخلى عنهم لعوجل المسيء بالهلاك، وخذل المطيع في طاعته، ولم يبال الله بهم باله، فكذلك حاله أيضا، صلى الله عليه وسلم، مع أمته بعد موته، وقد قال: حياتي خير

(1) في ط: الشرر.

لكم، ومماتي خير لكم[1]. الحديث. فهو معهم، صلى الله عليه وسلم، في كل أطوارهم وتقلباتهم بمدده الرباني وسره الحقاني، فيستغفر لمسيئهم، ويشهد لمحسنهم، وتستوهب من الله الزيادة لا يخفى عليه شيء من أحواله ولا يغفل عنهم طرفة عين في كل شؤونهم، فلا تستبعد حضوره، صلى الله عليه وسلم، بروحانيته في محافل المسلمين ومواسمهم ومحال اجتماعاتهم، على أي حال كانوا، فلو فارقتهم روحانيته الشريفة طرفة عين لضلوا عن سواء الطريق وهوت بهم الضلالة في مكان سحيق، فسبحان من مَنّ به علي عباده، وجعله برزخاً بينه وبين أهل وداده، فما أرأفه بنا من إله إذ جعله رسولاً إلينا ورحمة علينا، نسأله سبحانه أن لا يخلينا من مدده طرفة عين آمين. وتفهم من هذا ما يحصل من الاجتماع لعظيم في محال بعض الصالحين واشتماله على بعض المناكر، ومع ذلك يحضره الأولياء وأرباب القلوب من الصالحين، فيشاهدون حصول مدده لكل زائر، وسريان سره في سر كل حاضر، وذلك كمولد سيدي أحمد البدوي[2] بمصر، ومولد الإمام الشافعي وعند سيدي أبي مدين، وسيدي أبي يعزى[3]، وسيدي أبي العباس السبتي[4] بأرض المغرب، وعند مولاي عبد السلام بن مشيش[5] يوم المولد النبوي وغير ذلك من الأماكن الشهيرة المنسوبة لكثير من الأولياء شرقا وغربا فقد ذكر سيدي عبد الوهاب الشعراني في كثير من تآليفه عن جماعة من أهل الكشف، رضي الله عنهم أنهم، يشاهدون النبي، صلى الله عليه وسلم، في مولد سيدي أحمد البدوي، رضي الله عنه، وأنه يحضره كل سنة مع اشتماله على أمور كثيرة لا تنبغي[6].

لطيفة أخرى:

أخبرني شيخنا أبو مهدي عيسى الثعالبي عن بعض مشايخه أنّ سيدي عبد الوهاب الشعراني، رضي الله عنه، عزم مرة على التخلف عن مولد سيدي أحمد

---

(1) كشف الخفاء 1:442.
(2) تقدمت ترجمته.
(3) أبو يعزى يلنور بن عبد الله، المتصوف العارف، نسبت إليه عدة كرامات وخوارق، توفي سنة 561هـ: شرف الطالب، ص: 63. أعلام المغرب العربي 2:211.
(4) أبو العباس أحمد السبتي، الفقيه المصنف، ولد بسبتة سنة 524هـ،و توفي بمراكش سنة 601 هـ: شرف الطالب، ص: 68. شجرة النور الزكية 1:264.
(5) تقدمت ترجمته.
(6) أنظر: الطبقات الكبرى، ص: 263.

البدوي، وأن لا يذهب إليه لما يقع هنالك من المناكر، فلما عزم على ذلك وقرب الوقت رأى في المنام سيدي عبد العالي خديم الشيخ سيدي أحمد وخليفته من بعده، فقال له مباسطاً: يا عبد الوهاب، لا تنقطع عن زيارتنا ونحن نطعمك ملوخية، والملوخية عند أهل مصر والريف من أشهى الأطعمة التي لا كبير مؤنة فيها، فلما استيقظ عَزَمَ على المشي وذهب، فكان من الأمر الغريب الدال على صدق الرؤيا أنه ليلة وصوله لمكان الشيخ اتفق أنه لم يطبخ أحد تلك الليلة في الزاوية كلها ولا في القرى التي حولها إلا الملوخية، فكانت طعامه وطعام أهل تلك الناحية كلها في تلك الليلة[1]. والحكايات الدالة على أمثال هذا كثيرة من انتصار أولياء الله لمن أذى من حضر محالهم أو انتهك حرمتهم، ولو كان من أوذي ممن يستحق ذلك في بادي الرأي، ومع هذا كله فلا يتخذ هذا ذريعة إلى الاستهانة بإقامة الحدود على من وجبت عليه في تلك المحال وإلى التغافل عن إزالة المناكر الواقعة هنالك لمن قدر عليها وإلى التعامي عن ذلك، بل التنبه لذلك والاشتغال به لمن له عليه قدرة من أفضل القربات لمن حسنت نيته، ولا يمنع من ذلك ما يقع لبعض من تعاطى ذلك من الأمور التي هي كرامة لذلك الولي، فإن ذلك في الغالب لا يقع إلا لمن لم تكن له نية صالحة في النهي عن المنكر وقصد بذلك إظهار نفسه أو تنقيص ذلك الولي، فإن فَرَض وقوعه لحسن النية فهو مما يزيده عند الله قربة ويقيم حرمة عبده المنسوب إليه المكان، ولله في ذلك أسرار خفية لا تخفى على أهل القلوب الصافية، وإلى مثل هذا التقرير كان يجنح شيخنا علامة الوقت سيدي عبد القادر بن علي الفاسي، رضي الله عنه، فيمن يأوي إلى قبول الصالحين من الجناة، وقد يكون على أحدهم حد من الحدود لا ينبغي إهماله، وإن خرج من المحل كان في ذلك هضم لحرمة الولي واستهانة بقدره عند العامة، فليخلص من ابتلى بذلك علمه لله، وليصدق الله في أمره فإن الله جاعل له من ذلك مخرجاً.

رجوع وانعطاف إلى ما كنا بصدده:

فقد طال بنا الكلام في هذه المسألة، ومع ذلك فهي من غرر المسائل التي قَلَّ أن توجد في كتاب، فنقول: من الأماكن التي ينبغي زيارتها في أحد قبور الشهداء،

(1) أنظر: الطبقات الكبرى ص: 262.

سوى قبر حمزة ومن معه، وأماكنهم ليست معلومة العين على التحقيق، لكنـــها معلومة الجهة. فأمَّا مصعب بن عمير وعبد الله بن جحش فيسلم عليهما في مشهد حمزة كما تقَدَّم، وأما سهل بن قيس من بني سلمة فقبره دبر قبر حمزة شاميا بينه وبين الجبل. وأما عمرو بن الجموح[1] وعبد الله بن عمرو بن حرام[2]، ففي الموطإ أنهما في قبر واحد مما يلي السيل[3]. قال الواقدي: مع عمرو بن الجموح في القـــبر خارجة بن زيد وسعد ابن الربيع والنعمان بن مالك وعبد ابن الحسحاس. قال أبو غسان: وقبرهم مما يلي المغرب من قبر حمزة نحو خمسمائة ذراع. قال السيد[4]: وقد تأملته فوجدت ذلك بالربوة التي غربي المسيل الذي هناك، ومجرى العين بقربهم من القبلة. وقد روي أن أبا أيمن مولى عمرو بن الجموح معهم أيضا، وكذا خلاد بن عمرو بن الجموح، فيسلم على هؤلاء الثمانية هناك.

قال: وأما بقية الشهداء فلا تعرف قبورهم، والذي يظهر أنها بقرب الموضع المذكور وقرب قبر حمزة، رضي الله عن جميعهم، وأسماؤهم مذكورة عنـــد أهـــل السير. وفضل جبل أحد على الجملة معلوم مشهور، فقد قال، عليه الســـلام،إنه يحبنا ونحبه[5]، وكان يأتيه وقال: إنه على باب من أبواب الجنة، وترابه يُسْتشفى به. قال الزركشي: ينبغي أن يستثنى من منع نقل تراب الحرم تربة حمزة، رضـــي الله عنه، أي المأخوذة من المسيل الذي به مصرعه لإطباق الخلف والسلف على نقلها للتداوي من الصداع[6]. قال السيد[7]: وتربة صعيب أولى بـــذلك. وللطـــبراني أن رسول الله قال لأحد: هذا جبل يحبنا ونحبه، على باب من أبواب الجنة، وهذا عير جبل يبغضنا ونبغضه على باب من أبواب النار[8].

---

(1) عمرو بن الجموح: استشهد في وقعة أحد، قال مالك: كفن هو وعبد الله بن عمرو بن حرام في كفن واحد: سير أعلام النبلاء 1:254.
(2) عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري، شهد بدرا واستشهد بأحد: معجم الصحابة 1:36. سير أعلام النبلاء 1:324.
(3) الموطأ 2:470.
(4) وفاء الوفا 3:335.
(5) صحيح البخاري 3:1059.
(6) الجواهر الثمينة 2:497.
(7) وفاء الوفا 3:233.
(8) المعجم الأوسط 6:315.

وعَيْر[1] جبل كبير على يسار ذي الحليفة وأنت خارج من المدينة، وهو يقابل أُحُد إلى ناحية مكة من المدينة، وأُحُد إلى ناحية الشام. قلت: وحدثني من أثق به عن بعض مشايخه أنه كان يقول في وجه محبته، صلى الله عليه وسلم، لأحد وبغضه لعير أن أحدا من ناحية الشام، وهي مساكن اليهود، وهو أعدى عدو له، وأحد حائل بينه وبينهم، ولا أحب إليك ممن يحول بينك وبين عدوك، وإن عيرا من ناحية مكة، وهي وطنه، صلى الله عليه وسلم، ومسقط رأسه ومحل البيت الحرام، وهو أحب البلاد إليه عليه السلام كما دل عليه حديث إنك لأحب بلاد الله إلي، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت، ولما حال عير بينه وبين محبوبه أبغضه، إذ لا أبغض ممن يحول بين المرء وبين ما أحبه.

قلت: وفي هذا التوجيه نظر لاشتراك الجبلين في الحيلولة بينه وبين أعدائه، فقد سوى الله بين اليهود والذين أشركوا في عداوة المؤمنين فقال تعالى: (لتجدن أشد الناس عداوة)[2] الآية. وقد علم أن مضرة المشركين لأهل المدينة أقوى من مضرة اليهود مع الاشتراك في العداوة لضعف اليهود وقتلهم وذلتهم[3]، وأكبر ضررهم كيدهم بالقول، بخلاف المشركين فقد غزوا المدينة مراراً عديدة. قال السيد: وسمي أحد لتوحده وانقطاعه عن جبال أخرى هناك، أو لما وقع من أهله من نصر التوحيد[4]. ولا اسم أحسن من اسم مشتق من الأحدية بخلاف عير الذي هو اسم الحمار المذموم أخلاقاً. والحب في أحد من الجانبين حقيقة كما صححه النووي وغيره. ولذا كان من جبال الجنة إذ المرء مع من أحب، ولا مانع من وضع الحب فيه كما وقع التسبيح من الجبال. وقد خاطبه، صلى الله عليه وسلم، مخاطبة من يعقل فقال لما اضطرب: أسكن أحد[5]. ولا ينكر وصف الجماد بحب الأنبياء كما حنت الأسطوانة لمفارقته، صلى الله عليه وسلم، حتى سمع القوم حنينها. ومما ينبغي لزائر أحد أن يأكل شيئا من نباته، فقد رُوي عن زينب بنت نبيط، وكانت تحت أنس بن مالك أنها كانت ترسل ولائدها فتقول: اذهبن إلى أحد فأتينني من نباته فإن لم تجدن إلا عضاها فأتينني به فإن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله،

---

(1) عير: جبل جنوب المدينة يقع في مقابلة أحد، وبينهما المدينة:: كتاب أسماء جبال تهامة، ص: 33. الجواهر الثمينة 2:492.
(2) المائدة: 82.
(3) في ط: ذلهم.
(4) وفاء الوفا 3:317.
(5) شرح الزرقاني 4:280.

صلى الله عليه وسلم، يقول: هذا جبل يحبنا ونحبه[1]. قالت زينب: فكلوا من نباته ولو من عضاهه[2].

قال: فكانت تعطينا منه قليلا قليلا فنمضغه. هـ. قلت: وقد أكلنا من نباته بعدما توقفنا في ذلك لكون جوانبه القريبة داخلة في حريم الشجر فلا يقطع نباتها، ولأجل التبرك قلدنا في ذلك من يبيحه من العلماء، وهو مذهب الحنفية.

لطيفة:

قد وضع البحث بين الطائفة المالكية ونحن بالمدينة عما يقطع من نبات الحرم المنتفع به للأكل كالخُبيز[3] وغيره، فإنه يؤتى به ويُباع في الأسواق، فهل يحل للمالكي ومن لا يرى جواز ذلك شراؤه وأكله؟ فكنت أميل إلى الجواز إذا كان القاطع لذلك والبائع له ممن يرى جواز ذلك في مذهبه لأنه فعل ما يسوغ له شرعا لأنا نقول بإصابة كل مجتهد، وإن كنا نرى أن غيره أصوب، والممنوع عندنا إنما هو قطعه، فلو وجد الإنسان شيئاً منه مقطوعاً بنفسه من غير أن يكون له سبب في قطعه جاز له الانتفاع به، وهذا بعد القطع ووصوله إلى الأسواق بوجه سائغ لمتناول ذلك صار في حقنا كالمقطوع بلا سبب لنا في قطعه، ولا يقاس النبات على صيد المحرم الذي هو ميتة لظهور الفرق بين الصيد والنبات. والإجماع على حرمة صيد المحرم والخلاف في نبات حرم المدينة، ولو فتح باب الامتناع من الشراء منهم لأدَّى ذلك إلى فساد كبير وحرج في المعاملات بالامتناع عن ذبائحهم والشراء منهم والبيع لهم لوقوع الخلاف بين الأئمة في فروع كثيرة من الذبائح والصيد وأبواب الربا، فيمنع البعض ما يجيزه غيره، فلو كنا لا نشتري إلا ممن يتقي الربا على مذهبنا ويشترط في الصيد والذبيحة واللقطة ما نشترطه لأدى ذلك إلى ضيق وحرج وتضليل بعض الأمة لبعض، وهو بعيد من نظر الشارع، فلما صح لنا الاقتداء به في الصلاة صح لنا أيضا في غيرها مما يقع فيه الارتباط بين الفعلين فإن البيع حقيقة متوقف حصولها على وجود فعل فاعلين من بائع ومشتر، فلا يشترط في صحة البيع إلا كون فعل كل واحد منهما موافقا للمشروع في مذهبه ومعتقده،

---

(1) صحيح البخاري 1059:3.
(2) عضاهه: العضاه من الشجر: كل شجر له شوك: لسان العرب: عضه.
(3) الخبيز: نبات معروف: لسان العرب: خبز.

وكذلك صلاة المأموم متوقفة صحتها على وجود فعل فاعلين هما المأموم والإمام، فإذا فعل كل منهما ما تصح به الصلاة في مذهب إمامه صحت الصلاة ولا يلزم كون الإمام فاعلا لما تصح به الصلاة في مذهب المأموم على المذهب المشهور. وتحقيق هذه المسألة سنذكره، إن شاء ال،له في الرسالة التي عزمنا على جمعها في مسألة اقتداء المالكي بحنفي يصلي في الحجر، وسميناها: رفع الحجر عن الاقتداء بإمام الحجر.

وبعد أن كتبت هذا رأيت في نوازل البرزلي ما يدل على اجتناب مثل ذلك من الورع، وتشتد فيه[1] الكراهة عند بعد المأخذ، ونص ما ذكر: وقد سئل اللخمي[2] عن تناول ما اختلف فيه الفقهاء؛ كشافعي رأى مالكياً غَصَبَ طعاما فنقله، أو عقد عقداً فاسداً في عين وخلطها وقال: ملكت ذلك على مذهبي، فهل ملكه ملكاً صحيحاً لا شبهة عليه فيه أم لا؟ وهل يجوز للشافعي أن يعامله بالشراء منه والأكل له أم لا. فأجاب: لا ينبغي لمن قَلَّد الشافعي أن يفعل ذلك، وهذا مما يتأكد فيه الورع، وإن قلد مالكيا في هذا وأمثاله فلا بأس به، وإن كان شافعياً فقلد المالكي في هذا. ولعل هذا مما تشتد فيه الكراهة لبعد المأخذ فيه، البرزلي، فظاهره أن العزيمة في هذا أرجح من الرخصة إلا أن يقول إن هذا مما تعارض فيه الحظر والإباحة، فالورع تركه هـ.

قلت: فقد ظهر من قوله لا ينبغي، ومن قوله: مما يتأكد فيه الورع أن ذلك سائغ لا ممنوع، وهذا كله إذا لم نقل بجواز التقليد للمذاهب المخالفة مع القول بصحتها، وأما ما قلنا به، وهو قول جم غفير من المحققين منهم عز الدين بن عبد السلام فقد ارتفع الإشكال واتضح المقال.

ومن فضائل أُحُد ما رُوي عن جابر، رضي الله عنه، مرفوعاً، أن موسى وهارون عليهما السلام أقبلا حاجين فمرا بالمدينة فخافا من يهود، فخرجا مستخفين فترلا أحدا، فغشي هارون الموت فقام موسى فحفر له ولحده ثم قال: يا أخي أنت تموت. فقام هارون فدخل في لحده فقبض فحَثا عليه موسى التراب. قال

---

(1) في ط: به.

(2) أبو الحسن علي بن محمد اللخمي القيرواني، فقيه حافظ، له تعليق على المدونة سماه التبصرة، توفي سنة 478 هـ بسفاقس: شرف الطالب، ص: 58. شجرة النور الزكية 1:173.

السيد: وهناك شِعب يعرف بشعب هارون يزعمون أنه بأعلاه، وهو بعيد جداً[1].
وبأعلى الجبل بناء اتخذه بعض الفقراء قريباً. قلت: وقد شاهدت هذا البناء يوم طلوعنا إلى الجبل في الرجبية، وهو صورة مسجد قريب منه موضع معد لماء المطر، وهو في قبة الجبل في مكان عالٍ مشرف على المدينة المشرفة وما حولها من البقاع، فيه نزهة للناظرين خصوصاً وقت طلوعنا إليه في فصل الربيع، وبعض الناس يُسَمُّون تلك القُبَّة قُبَّة هارون. وقد أخبرني بعض الناس أن بانيها رجل كان يتعبد هناك واسمه هارون فسميت به، ولم تزل إلى الآن يتعهدها الناس للعبادة والخلوة، وما أولاها بذلك فقد وجدت بقلبي عند الوقوف بها والصلاة هناك ما لا مزيد عليه من الحلاوة والتلذذ بالعبادة، وكيف لا ومستقبل القبلة فيها يكون الحرم[2] النبوي بين يديه والقبة الشريفة بين عينيه وبقاع المدينة المشرفة كلها تلقاءه ومكة تجاهه، حتى إنه ليخيل إليه أنه مشرف على الحرمين الشريفين وما بينهما وما فيهما من الأماكن المشرفة. وعلى كل حال لم أر مكانا ينشرح فيه الصدر ويصفو القلب من الأكدار وتتجلى فيه عظمة الربوبية وجلالة النبوءة كهذا المكان. ويقرب منه في ذلك جبل حرا وجبل ثور بمكة كما سيأتي عند ذكرنا لهما.

وكان طلوعنا لجبل أحد يوم الأربعاء الثاني عشر من رجب، وكان ذلك عند إبلال من مرض، فحصل لنا من التعب ما لم نَرَ مثله قبله ولا بعده، ولكن بعد طلوعنا إليه ووصولنا إلى المحل المذكور لم نحس بشيء من ذلك لاستلذاذنا لذلك المنظر البهي والمحل السمي. وفي أصل الجبل غار يزعمون أنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، اختفى فيه، ولا يصح ذلك، ففي مسند أحمد عن ابن عباس رضي الله عنه: وجال المسلمون جولة نحو الجبل ولم يبلغوا حيث يقول الناس الغار، إنما كان تحت المهراس[3] هـ. وفي أعلى الشعب عند مضيقه من حيث يشرع في الصعود للجبل الموضع المُسَمَّى بالمهراس، وهي مواضع منقورة في الجبل بين صخور عظيمة يجتمع فيها المطر قَلَّ ما تخلو منه، وقد وجدنا بها مياهاً كثيرة وجلسنا هنالك برهة في ظل بارد وماء مسكوب وشربنا من مائه[4] وتوضأنا، ومنه غسل جرحه، صلى الله عليه

(1) وفاء الوفا 3:319.
(2) في ط: بالحرم.
(3) مسند أحمد 1:287.
(4) ساقط من ط.

وسلم، يوم أحد كما في الصحيح[1]. وقد أخذت من نبات ذلك الجبل المبارك وأزهاره ضغنا أكلنا بعضه وأصحبنا بعضه معنا إلى بلادنا. وتحت المُهراس بقليل موضع يقال إنه موضع الصخرة التي نهض، صلى الله عليه وسلم، ليعلوها، وجلس طلحة تحته رضي الله عنه. وقال ابن هشام في السيرة: بلغني (عن عكرمة)[2] عن ابن عباس أن رسول الله[3]، صلى الله عليه وسلم، لم يبلغ الدرجة المبينة في الشعب[4]؛ أي فليست هي الصخرة المذكورة.

ومن المساجد التي تزار بأحد المسجد اللاصق بأحد على يمينك وأنت ذاهب في الشعب للمهراس، وهو صغير منهدم. قال السيد[5]: والناس يسمونه مسجد الفسح ويقولون: إن فيه نزلت (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا)[6] الآية. ويقال إن النبي، صلى الله عليه وسلم، صلى فيه الظهر والعصر يوم أحد بعد انقضاء القتال. وعن رافع بن خديج أن النبي، صلى الله عليه وسلم، صلى في المسجد الذي بأحد في شعب الخدار على يمينك لازق بالجبل. قلت: وبين هذا المسجد وبين مشهد حمزة في البيداء التي هناك مسجد صغير مبني بالحجارة المنحوتة مرتفع عن الأرض أقل من قامة يصعد إليه بدرج غير مسقف ولا مرتفع الحيطان يقال له مسجد الثنية، واحدة ثنايا الإنسان، يقال إن فيه كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم. وحوله كان نزولنا بخبائنا لما خرجنا مع أهل المدينة المشرفة في الرجبية وبتنا هنالك في أرغد عيش وألذه، فيا لها من ليلة لو بيعت بجميع العمر لكان البائع مغبونا، بل ولو وزنت بليال الشباب لرجحت به، ولو كان الموزون بها درا ثمينا. وهذا المسجد لم يذكره السيد السمهودي رضي الله عنه.

ومن المساجد التي تزار بأحد مسجد ركن جبل عينين الشرقي على قطعته من الجبل، وهذا الجبل في قبلة مشهد سيدنا حمزة، رضي الله عنه، وهو الجبل الذي كان عليه الرماة يوم أحد. وموضع المسجد هو المكان الذي طعن فيه حمزة، رضي الله عنه. وقد رُوي عن جابر، رضي الله عنه، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، صلى

(1) صحيح البخاري 1063:3.
(2) زيادة من ط.
(3) في الرحلة: النبي.
(4) السيرة النبوية 35:4.
(5) وفاء الوفا 204:3.
(6) المجادلة: 11.

الظهر يوم أحد على عينين الطرف الذي بأحد عند القنطرة[1]. قال السيد: يعني بالقنطرة قنطرة العين التي كانت هناك قديماً[2].

ومن المساجد بأحد أيضاً مسجد الوادي على شفيره شامي جبل عينين قريب من المسجد قبله يقال إنه مصرع حمزة، رضي الله عنه، وأنه مشى بطعنته من الموضع الأول إلى هذا فصرع. وقد رُوي أن حمزة، رضي الله عنه، لما قتل أقام في موضعه تحت جبل الرماة ثم أمر به النبي، صلى الله عليه وسلم، فحمل من بطن الوادي، ويسمى هذا المسجد أيضاً بمصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[3]. قال السيد[4]: وتسميته بالمصلى إما لكونه موضع مصلى الصبح على ما جاء في غزوة أحد أنه، صلى الله عليه وسلم، صلى بأصحابه الصبح بموضع القنطرة وعليهم السلاح، يعني قبل القتال، وإما لما ورد من صلاته، صلى الله عليه وسلم، على حمزة.

ومن المساجد أيضاً مسجد طريق السافلة[5]، وهي الطريق اليمنى الشرقية إلى مشهد حمزة، رضي الله عنه، يقال إنه مسجد أبي در الغفاري رضي الله عنه. وروى البيهقي في شعب الإيمان عن عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، أنه كان برحبة المسجد فرأى النبي، صلى الله عليه وسلم، خارجا من الباب الذي يلي المقبرة فخرج على إثره فدخل حائطاً من الأسواق فتوضأ ثم صلى ركعتين فسجد سجدة أطال فيها، وأن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال له[6]: إن جبريل، عليه السلام، بشرني أنه من صلى علي صلى الله عليه، ومن سلم علي سلم الله عليه[7]. وفي بعض طرفه ذكر السجود فقط وقال: فسجدت لله شكراً. قال السيد[8] بعد نقله لما تقدم: والأسواق قريبة من محل هذا المسجد فلعله مسجد السجدة المذكورة.

(1) أنظر: الطبقات الكبرى 2:39.
(2) وفاء الوفا 3:206.
(3) المصلى: في الأصل اسم لموضع الصلاة، ثم صار بالغلبة علما على مصلى العيد: الجواهر الثمينة 2:335.
(4) وفاء الوفا 3:130.
(5) يقع مسجد السافلة في شرقي الطريق إلى مسجد السيد حمزة، ويقال إنه مسجد أبي ذر الغفاري: الجواهر الثمينة 2:501.
(6) ساقط من ط.
(7) شعب الإيمان 2:211.
(8) أنظر: وفاء الوفا 3:421.

قلت: وفي الطريق إلى أحد أيضاً عند آخر النخل مسجد صغير محوط عليه بأحجار يقال إن النبي، صلى الله عليه وسلم، جلس فيه للاستراحة بعد الرجوع من أحد، و لم يذكره السيد رحمه الله.

ومن المساجد التي ينبغي زيارتها والصلاة فيها مساجد مصلى الأعياد التي صلى النبي، صلى الله عليه وسلم، العيد فيها، وقد ورد أنه صلى العيد في أماكن متعددة، والمشهور منها الآن ثلاثة كلها غربي المدينة خارج باب المصري بين الموضع المعروف بالمناخة، وبطحان أحدها[1] يسمى مسجد مصلى العيد[2]، والآخر ينسب لعلي، رضي الله عنه، والآخر لأبي بكر رضي الله عنه. قال السيد[3]: ولعل سبب نسبتهما إليهما كونهما صليا فيه العيد؛ أبو بكر في خلافته، وعلي لما حُصر عثمان، رضي الله عنه، وإلا فيبعد أن يصليا في غير مصلى النبي صلى الله عليه وسلم. وروي عن أنس أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خرج إلى المصلى يستسقي فبدأ بالخطبة ثم صلى وقال: هذا مجمعنا ومستمطرنا ومرعانا لعيدنا ولفطرنا وأضحانا. فلا يبني فيه لبنة على لبنة ولا خيمة، وقد حمل بعضهم قوله عليه السلام: ما بين بيتي ومصلاي روضة من رياض الجنة[4]، على مصلى العيد فتتسع الروضة وفضل الله أوسع. وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، كان النبي، صلى الله عليه وسلم، إذا قدم من سفر فمر بالمصلى استقبل القبلة ووقف يدعو.

وحق هذا المسجد أن يقدم ذكره أول المساجد ولكن اقتضى الحال تأخيره إلى هنا. وهذا آخر القول في المساجد المعلومة العين بالمدينة وأطرافها، وقد زرناها كلها والحمد لله، خصوصاً ما كان منها بطريق أحد أو بطريق قباء، فقد تعدد مجيئنا إلى المحلين مرارت كثيرة، فنمر على ما كان بالطريق منها، وقد تبعت السيد رحمه الله في ذكر ما ورد من فضائلها وتعيين أماكنها وأساميها القديمة، وهو القدوة في ذلك وكلامه المعول، وهو جدير بأن يقتدى به في ذلك، فقد جمع من ذلك وحرر ما لم يحرره غيره رضي الله عنه.

---

(1) في ط: أحد.
(2) يقع مسجد مصلى العيد غربي المدينة: التحفة اللطيفة 1: 41.
(3) وفاء الوفا 1313
(4) المعجم الكبير: 1: 147.

ذكر الآبار التي ورد أن النبي، صلى الله عليه وسلم، تفل فيها أو شرب أو توضأ فاكتسبت بذلك فضلا على غيرها[1] فصارت مقصودة بالزيارة والاستشفاء بمائها

ولم نذكر منها إلا ما زرناه وشربنا من مائه، وهي سبعة أولها: بئر أَرِيس، كجليس، نسبة إلى رجل من اليهود اسمه أريس، وهو الفلاح بلغة أهل الشام[2]. وفي الصحيح خبر خروج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأن أبا موسى الأشعري خرج في أثره حتى دخل بئر أريس وتوسط فيها وكشف عن ساقيه، وأن أبا بكر جاء ثم عمر ففعلا مثل ذلك، ثم جاء عثمان وبشر الجميع بالجنة، الحديث بطوله[3]. وفي الصحيح أيضاً أن خاتم النبي، صلى الله عليه وسلم، كان في يد أبي بكر ثم في يد عمر ثم في يد عثمان حتى سقط منه في بئر أريس فلم يوجد[4]. وأما ما اشتهر على الألسنة أن النبي، صلى الله عليه وسلم، تفل فيها، فقد قال العراقي[5] في تخريج أحاديث الإحياء: لم أقف له على أصل. قال السيد: ومن الغريب قول العز بن جماعة في منسكه: قد صح أن النبي، صلى الله عليه وسلم، تفل فيها[6]، وهذه البئر في حديقة غربي مسجد قباء قريب منه[7]، وماؤها غزير يسقي منه إلى بركة في الحديقة. وفي هذه الحديقة أنواع من الفواكه والأشجار، وبها عنب كثير قلما يدخل أحد للزيارة في وقت العنب إلا ويشتريه ويأكله فيه حتى ظن بعض العوام أن ذلك من القربات. وأهل المدينة يقصدون هذه الحديقة للقائلة[8] فيها والتفرج، وقد جعل لمائها نفقا من[9] أسفلها على وجه الماء حتى يصل ماؤها بالبئر التي يقال لها العين الزرقاء، وهي في حديقة أخرى قريبة من بئر أريس، وهي بئر

---

(1) ساقط من ط.
(2) وفاء الوفا 3:339.
(3) صحيح مسلم 4: 1868.
(4) صحيح البخاري 2202:2
(5) العراقي: عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحيم المعروف بالعراقي، الحافظ الكبير، ولد سنة 725 بمصر،رحل إلى بيت المقدس ومكة والشام فأخذ عن شيوخ هذه الجهات، وتصدى للتصنيف والتدريس، ومن جملة مصنفاته: تخريج أحاديث الإحياء، والألفية في علم الحديث وشرحها، توفي سنة 806 هـ: البدر الطالع 354:1.
(6) وفاء الوفا 346:3.
(7) ساقط من ط.
(8) يقصد القيلولة؛ وهي الاستراحة نصف النهار: لسان العرب: قيل.
(9) في ط: مت.

كبيرة قد أمدت بمياه آبار متعددة، منها بئر أريس، فصارت متبحرة يشخب[1] فيها ميزابان عظيمان من مياه غيرها من الآبار، فاتخذت لها أسراب تحت الأرض إلى أن خرجت إلى بطحان ثم إلى غربي المدينة فقسمت جداول، فأدخل منها إلى المدينة ما احتيج إليه فأظهرت داخل المدينة في مناهل مُتَعَدِّدَة، وبني لها بناء متقن يهبط إليها في نحو ثلاثين درجة محكمة البناء متقنة الوصف واسعة الممشى منها يستقي[2] أهل المدينة كلهم لشربهم، والذي رأيت منها ثلاثة مواضع أحدها شرقي المسجد بينه وبين باب البقيع في المكان المسمى الآن بالحرة، والآخر خارج باب السلام في الناحية الغربية عند سوق المدينة بالبلاط، والآخر شامي المسجد بعيدا منه إلى ناحية باب الشامي. وأما خارج المدينة فأخرجت في محال متعددة أيضاً، ثم لم تزل تقرب من وجه الأرض قليلاً كلما انحدرت في أرض المدينة إلى أن خرجت على وجه الأرض قريباً من الغابة شرقي مسجد رومة، بينه وبين أحد وعليها هنالك مزارع، وقد رأيت جدولاً منها قريباً من مسجد الراية في طرف ذباب يهبط إليه في نحو ثلاث درج، وهذه العين المباركة من أغزر العيون وأحلاها ماء، والذي بها جل انتفاع أهل المدينة. ومنها كل السبيلات الموقوفة بالمدينة، ومنها تملأ الدوارق[3] التي توضع في الحرم الشريف للشرب، وهي لا تكاد تحصى كثرة، فما أعظم بركتها وأوسع نفعها، ولقد شاهدت من يستشفى بمائها فيشفى، وقد حملنا بعض مائها للاستشفاء، ولله در القائل[4]:

[طويل]

لئن قيل في زرق العيون شآمة ... فعنديَ أن اليُمنَ في عَينها الزَّرقاء

وتسميتها بالعين الزرقاء من لحن العامة، وصوابه عين الأزرق، لأن مروان الذي أجراها لمعاوية كان أزرق العينين فلُقِّب بالأزرق[5]، وكان إجراؤه لهذه العين بأمر معاوية لما ولاه المدينة، وكان لمعاوية، رضي الله عنه، اهتمام بذلك، فأجرى بالمدينة وما حولها عيونا كثيرة قد دثرت كلها و لم يبق إلا هذه العين المباركة، وقد اعتنى بشأنها من قبل السلطنة، فلها أوقاف معلومة وجرايات تأتي من عند

(1) يشخب: يسيل: لسان العرب: شخب.
(2) في ط: يستقى.
(3) الدوارق: مقدار لما يشرب ويكتال به: لسان العرب: درق.
(4) ورد البيت بلا نسبة في: الجواهر الثمينة 1:302.
(5) الجواهر الثمينة 1:302.

السلطان، ولها أمير معلوم وله خدام يتفقد أحوالها على ممر الأزمنة ويصلح ما وهى منها، ولولا ذلك لدثرت كغيرها من العيون.

قال الواقدي: وكانت بالمدينة على زمن معاوية صوافي كثيرة، وكان يجد بالمدينة وأعراضها مائة ألف وسق وخمسين ألف وسق، ويحصد مائة ألف وسق حنطة هـ. فهذا الذي كان يجد معاوية وحده، فما بالك بما كان لغيره من الرعايا ووجوه الناس، فقد كان للصحابة، رضي الله عنهم، وأبنائهم في ذلك الزمان ضياع وقرى ومزارع كثيرة بالمدينة وما حولها، وما أظن هذا العدد الذي كان يستغل معاوية بالمدينة فقد يستغل في زماننا هذا من أرض الحجاز كلها، مع سعة أقطارها، ما عدا نجد فإن بها زراعات كثيرة، وبهذا تعلم نسبة زماننا هذا إلى الأزمنة الماضية في سعة الأرزاق وكثرة الخلق، مع أن اهتمامهم في ذلك الوقت بالدين كان أكثر من اهتمامهم بالدنيا، فأنت ترى كيف انبساطها عليهم، وأما الآن فالاهتمام كله بالدنيا، و لم يبق من الاهتمام بالدين إلا ما نسبته إلى الاهتمام بالدنيا نسبة الفلك الأعظم إلى الجزء الذي لا يتجزأ، وهذا أعظم دليل على قرب انقراض الدنيا واستبدال عمرانها بالخراب وأنهارها بالسراب، فإن عمرانها إنما هو بأسباب الدنيا والدين[1]، وأنت ترى ما آل إليه أمرهما معاً، فنسأل الله تعالى الخروج من الدنيا بلا محنة ولا بدعة آمين[2].

غريبة[3]:

قلت: قال السيد: ومن الغرائب ما ذكره الميورقي[4] في فضل الطائف عن شيخ الخدام بدر الشهابي أنه بلغه أن ميضأة وقعت في عين الأزرق بالطائف فخرجت بعين الأزرق بالمدينة[5]، هـ.

(1) في ط: البنين.
(2) ساقط من ط.
(3) ساقط من ط.
(4) أحمد بن علي العبدري الميورقي، له كتاب: بهجة المهج في بعض فضائل الطائف ووج، توفي بالطائف سنة 678: وفاء الوفا 3:401.
(5) وفاء الوفا 3:401.

ولعل هذه الحكاية وأمثالها هي السبب في اعتقاد كثير من جَهَلَة الحجاج أن العين الزرقاء أصلها من مكة، وأنها هي التي جاءت إلى مكة من ناحية عرفة من جبال وراءه، ويقولون إنه لما هاجر النبي، صلى الله عليه وسلم، من مكة تبعته، فهي التي ظهرت بمر الظهران ثم بخليص ثم ببدر ثم بالخيوف كلها إلى أن وصلت المدينة، ويصممون على ذلك حتى إني رأيت بعض من هو معدود من الفقهاء يعتقد ذلك فقلت له كما قال الإمام أبو بكر بن العربي، رضي الله عنه، في مسألة الصلاة على النجاشي حيث قال بعضهم: رفع له حتى رآه النبي، صلى الله عليه وسلم، والآية[1] الظاهرة على يديه غنية عن انتحال ما لا أصل له، وبطلان كون هذا العين من مكة أوضح من أن يذكر فإن لم يكن في زمنه، صلى الله عليه وسلم، بعرفة ولا بمكة ولا بالمدينة (عين)[2] تذكر على هذا النعت ولا ما يقرب منه، وإنما أجريت هذه العيون بعد ذلك بأزمان.

الثانية: بئر البُصة[3]، بضم الموحدة وتخفيف الصاد المهملة، ما هو الدائر على ألسنة أهل البلد. وقال المجد صاحب القاموس: إنه بالتشديد، كأنه من بص الماء بصا، رشح[4]. قال: وإن روي بالتخفيف فمن وبص يبص وبصا وبصة كوعد يعد وعدا وعدة إذا بلغ، أو من وبص لي من المال أي أعطاني. فقد روي عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: كان رسول الله،صلى الله عليه وسلم، يأتي الشهداء وأبناءهم ويتعاهد عيالهم فقال: فجاءني يوما فقال: هل عندك من سدر أغسل به رأسي فإن اليوم الجمعة. قلت: نعم. فأخرجت له سدراً خرجت معه إلى البُصة، فغسل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، رأسه وصب غسالة رأسه وصراقة شعره في البصة.

وهذه البئر قريبة من البقيع على طريق قباء في حديقة نخل على طرف بطحان، وماؤها أخضر، وهناك بئر أخرى صغيرة، قال المطري[5]: والناس يختلفون فيهما أيتهما بئر البصة، والصغرى هي التي تلي أطم مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري. ورجح السيد أنها الصغرى حاكيا عن غيره في الأطم المذكور أنه الذي

---

(1) في ط: الآيات.
(2) زيادة من ط.
(3) البصة: تقع بالقرب من البقيع على يسار الطريق السالكة إلى قباء: الجواهر الثمينة 1:277.
(4) القاموس: فصل الباء.
(5) في ط: المطرزي.

يقال لبئره البصة. قال: والكبرى لا تنسب للأطم لبعدها منه. وقد ابتني بقرب الصغرى مسجد واتخذ لها درج يترل فيها إليها، وقد شربنا من مائها مرارا وتوضأنا واغتسلنا والمنة لله وحده.

الثالثة: بئر بُضاعة[1]، بضم الموحدة على المشهور، وحكى كسرها وفتح الضاء المهملة[2] وأهملها بعضهم، وبالعين المهملة ثم هاء، غربي بئرها إلى جهة الشمال، فعن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قيل لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، إنه يستقى لك من بئر بُضاعة، وهي يطرح فيها ما يكره من النتن، قال: الماء لا ينجسه شيء[3]. وفي رواية: إلا ما غلب على ريحه وطعمه ولونه. وعن سهل بن سعد: بصق النبي، صلى الله عليه وسلم، في بئر بضاعة وسقيته بيدي منها. وعن سهل أيضاً: بئر بضاعة قد بصق النبي، صلى الله عليه وسلم، فيها[4]، فهي يتنشر بها ويتيمن. قال المجد[5]: في الخبر أن النبي، صلى الله عليه وسلم، أتى بئر بضاعة فتوضأ من الدلو وردها إلى البئر وبصق فيها، وكان إذا مرض المريض في أيامه يقول: اغسلوني من بئر بضاعة فيغسل فكأنما نشط من عقال. وقالت أسماء بنت أبي بكر: كنا نغسل المرضى من بئر بضاعة ثلاثة أيام فيتعافون. قلت: وقد كنت أيام مرض بالمدينة أبعث إلى مائها فأغتسل به فأجد الراحة، والبئر في حديقة كبيرة ذات نخل أقرب أبواب المدينة إليها باب الشامي عن يمين الخارج منه قليلاً، وحولها مسجد وبركة ماء.

الرابعة: بئر حاء[6]، بفتح الموحدة وكسرها، وفتح الراء وضمها، وبالمد فيهما وبفتحهما والقصر[7] فيعلى من البراح، وهي الأرض المنكشفة، وقيل: بئر أضيف إلى حاء من حروف الهجاء، وهو اسم رجل وامرأة ومكان، وخبرهما في الصحيح، وأنها كانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يدخلها

(1) بئر بُضاعة: تقع شمال المدينة، وعندها مسجد: الجواهر الثمينة 1:275. المغانم المطابة، ص: 31.
(2) في ط: المعجمة.
(3) السنن الكبرى 1:257.
(4) المعجم الكبير 6:122.
(5) المغانم المطابة في معالم طابة30، وفيها: البضة.
(6) بئر حاء: تقع وسط حديقة قرب البقيع، طولها عشرون ذراعا، وعرضها ثلاثة أذرع: الجواهر الثمينة 1:280. المغانم المطابة، ص: 36.
(7) في ط: وقصر.

ويشرب من ماء فيها طيب، وهي اليوم في حديقة صغيرة قريب[1] من سور المدينة شماليه بينهما الطريق، وأقرب أبواب المدينة إليها باب البقيع، وهي بينه وبين باب الشامي. قال السيد: والظاهر أن بعضها اليوم داخل السور[2]، وقد دخلتها والحمد لله مرارا، واستصحبنا شيئاً من زرع تلك الحديقة المسقي بمائها.

الخامسة: بئر رُومة[3]: بضم الراء وبالهمز ودونه، وفي الحديث: نعم القليب قليب المزني، فاشتراها عثمان فتصدق بها. وورد أيضاً: نعم الحفيرة حفيرة مزني، يعني رومة. وعنه صلى الله عليه وسلم: من يشتري رومة فله مثلها في الجنة[4]، وكان الناس لا يشربون منها إلا بالثمن[5]، فاشتراها عثمان فجعلها لله، وكانت لرجل من غفار أو مزينة، أو ليهودي اسمه رومة، فنسبت إليه، وهي بئر جاهلية، رُوي أنه استقى منها لتبع لما نزل بقناة، وهي بأسفل العقيق قرب مجتمع الأسيال، ولم أزر هذه البئر إلا مرة واحدة لبعدها، والطريق إليها على مساجد الفتح، ثم يعدل يساراً إلى ناحية مسجد القبلتين، ثم يمر تحته أسفل منه قاصداً العقيق، فهي هناك، وبقربها مزارع. ولما خرجنا لزيارتها، وكان ذلك عقب مطر، فوجدنا العقيق قد سال سيلاً عظيماً فحال طرف منه بيننا وبينها، فخضناه حتى وصلنا. ومعظم سيل الوادي من غربيه.

السادسة: بئر غَرس[6]، بضم فسكون. وقال المجد: بفتح وسكون، وضبطه بعضهم بالتحريك كشجر، وهي بئر شرقي قباء على نص ميل من مسجدها إلى جهة الشمال، وقد ورد أن رباحا غلاما للنبي، صلى الله عليه وسلم، كان يستقي من بئر غرس مرة ومن بئر السقيا مرة. ولابن حبان في الثقة[7] عن أنس أنه قال:

---

(1) ساقط من ط.

(2) وفاء الوفا 3:370.

(3) بئر رومة: تقع غربي المدينة، وهي في براح واسع من الأرض: الجواهر الثمينة 1:274. المغانم المطابة، ص: 40.

(4) نص الحديث كما ورد في صحيح ابن خزيمة 4: 121:حدثنا إبراهيم بن محمد فلهنا حدثنا يحيى بن أبي الحجاج حدثنا الجريري بتمامه حدثني القشيري قال ثم شهدت الدار يوم أصيب عثمان وأشرف علينا فقال يا أيها الناس من أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها بئر مستعذب إلا رومة فقال من يشتري رومة فيجعل دلوه فيها كدلاء المسلمين بخير له منها في الجنة قالوا اللهم نعم قال فاشتريتها من خالص مالي وأنت تمنعوني أن أفطر عليها حتى أفطر على ماء البحر.

(5) في ط: بثمن.

(6) بئر غرس: بينها وبين مسجد قباء من جهة المشرق نحو نصف ميل: الجواهر الثمينة 2:272.

(7) يقصد كتاب الثقات للحافظ أبي حاتم محمد ابن حبان المتوفى سنة 354 هـ: معجم المؤلفين 9:173.

إيتوني بماء من بئر غرس فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب منها ويتوضأ. ولابن ماجة بسند جيد عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أنا مت فاغسلوني بسبع قِرَب من بئر غرس[1]. وكانت بقباء، وكان يشرب منها. وفي رواية: لم تحلل أوكيتهن، وكانت البئر لسعد بن خيثمة. وروي أنه عليه وسلم توضأ منها وأهرق بقية وضوئه فيها. وروي أيضا أنه قال: رأيت الليلة أني أصبحت على بئر من الجنة فأصبح على بئر غرس فتوضأ منها وبزق فيها، وأهدي له عسل فصبه فيها. وقد جعل لها درج يترل إليها منها وحولها حديقة وبجانبها مسجد، وقد زرتها مرة والحمد لله.

السابعة: بئر اليسيرة[2]، من اليُسر ضد العسر، وتعرف الآن ببئر العِهن، بكسر فسكون، وهو لغة الصوف الملون، وهي معروفة بالعوالي مليحة جدا منقورة في الجبل وعندها سدرة. فقد روي أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، جاء بني أمية بن زيد فتوقف على بئر لهم فقال: ما اسمها؟ فقالوا: عسيرة. فقال: لا، ولكن اسمها اليسيرة، وبصق فيها وبرك فيها. وروى ابن سعد في طبقاته[3] عن عمر بن أبي سلمة أن النبي، صلى الله عليه وسلم، سماها اليسيرة، وأن أباه أبا سلمة غسل بعد موته بين قرنيها، وقد زرتها والحمد لله وشربت من مائها، وهي في عوالي المدينة قريب من مسجد بني قريظة[4]، وعلى بابها حديقة كبيرة حسنة ملك لبعض المغاربة. فهذه الآبار السبعة هي المشهورة اليوم عند أهل المدينة، وقد نظمها الزين المراغي فيما أنشد عنه السيد في بيتين وهما[5]:

[طويل]

إذا رُمتَ آبارَ النبيِّ بطِيبة ... فعدتُها سَبعٌ مقالا بلا وهْنِ

أريسٌ وغرسٌ رومة وبُضاعة ... كذا بُصة قلْ بيرُ حاءِ مع العِهْنِ

قلت: وبقي بئران آخران يتبرك بهما، أحدهما بئر السقيا، فقد ورد أنه، عليه السلام، كان يستعذب له الماء من بئر السقيا، والسقيا هذه في آخر مترلة النقا على

(1) سنن ابن ماجة 1:471.
(2) بئر اليسيرة: بئر بالعالية منقورة في الجبل، وتعرف ببئر العهن: الجواهر الثمينة 2:280.
(3) الطبقات الكبرى 3:241.
(4) يقع مسجد بني قريظة شرقي مسجد الشمس بعيد عنه بالقرب من الحرة الشرقية: التحفة اللطيفة 1:41.
(5) وفاء الوفا 3:396.

يسار السالك إلى بئر علي، وهي بالحرة الغربية، وحولها بركة عظيمة لورود الحاج أيام نزولهم هناك. والثاني بئر زمزم، وهي قريبة من السقيا على يمين الطريق حتى زعم بعضهم أنها بئر السقيا، وهي بئر مليحة في حديقة نخل حولها بركة وبناء، وسميت زمزم تشبيها لها بزمزم في التبرك بها ونقل مائها للآفاق، وقد زرتها والحمد لله، وكانت إذ ذاك ملكا لبعض أصحابنا المغاربة المجاورين، فأطعمنا من تمر حديقتها وسقانا من مائها. وقد عد السيد، رحمه الله، آبارا متعددة سوى هذه ثم قال: فمن ذكر أنها سبعة فقط قصور منه[1]. وقد اقتصرت أنا على ما شاهدت منها وشربت من مائه.

ومن المواضع التي يتبرك بها بالمدينة تربة صعيب، فقد روي أن النبي، صلى الله عليه وسلم، أتى بني الحارث فإذا هم روبى. فقال: مالكم يا بني الحارث روبى؟ قالوا: أصابتنا يا رسول الله هذه الحمى. قال: فأين أنتم عن صعيب. قالوا: يا رسول الله ما نصنع به؟ قال: تأخذون من ترابه فتجعلونه في ماء فيتفل عليه أحدكم ويقول: باسم الله تراب أرضنا بريق بعضنا شفاء لمريضنا بإذن ربنا. ففعلوا فتركتهم الحمى[2]. قال طاهر بن يحيى العلوي عقب روايته ذلك عن أبيه: صعيب وادي بطحان دون الماجشونية، وفيه حفرة مما يأخذ الناس منه، وهو اليوم إذا وبى إنسان أخذ منه. قال ابن النجار: وقد رأيت أنا هذه الحفرة والناس يأخذون منها وذكروا أنهم قد جربوه فوجدوه صحيحاً. قال: وأخذت منه أيضاً. قال السيد بعد ذكر ما تقدم: وهذه الحفرة موجودة يأثرها الخلف عن السلف وينقلون ترابها للتداوي. وذكر المجد[3] أن جماعة من العلماء ذكروا أنهم جربوه للحمى فوجدوه صحيحا. قال: وأنا سقيته غلاما لي مريضا من نحو سنة تواظبه الحمى فانقطعت عنه من يومه. وذكر هو كالمطرزي، أن ترابه يجعل في الماء ويغتسل به من الحمى. قال السيد: فينبغي أن يفعل أولا ما ورد ثم يجمع بين الشرب والغسل.

قلت: وقد وصلت أنا إلى موضع هذه الحفرة وأخذنا من ترابها واستصحبناه معنا لبلادنا بقصد التداوي، وقد نص غير واحد على جواز نقله للتداوي كماء زمزم للتبرك، ولم يزل عمل الناس على ذلك قديما وحديثا. وقد ذكر الاستشفاء

---

(1) وفاء الوفا 3:395.
(2) معجم ما استعجم 3:834.
(3) يقصد الفيروزآبادي محمد بن يعقوب المتوفى سنة 887، صاحب المغانم المطابة.

أيضاً من الحمى بتراب مشهد حمزة وقد استشفيت أنا أيام مرضي بالمدينة بتربة صعيب فحصلت بركتها ولله الحمد.

ذكر بعض أودية المدينة التي تسيل إذا كثرت الأمطار فيخرج أهل المدينة للتنزه بها

فمنها وادي العقيق[1]، وهو أيضاً من المواضع المباركة التي ينبغي زيارتها ففي الصحيح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: بوادي العقيق أتاني الليلة آت فقال: صل في هذا الوادي المبارك[2]. وروي أيضا مرفوعا: العقيق وادي مبارك[3]. وروي أن عمر، رضي الله، عنه كان إذا انتهى إليه إن وادي العقيق قد سال قال: اذهبوا بنا إلى هذا الوادي المبارك وإلى الماء الذي لو جاءنا جاء من حيث جاء لتمسحنا به. وقال فيه عليه السلام: هذا الوادي يحبنا ونحبه.

والعقيق وادي كبير غربي المدينة وراء الحرة الغربية يأتي سيله من أماكن بعيدة وربما دام شهرا فأكثر، وأسفله مما يلي الجرف هو المسمى بالعرصة إلى غربي رومة، وما فوق ذلك إلى البقيع يسمى العقيق. والمشتهر في زماننا بالعقيق من غربي رومة إلى ذي الحليفة، وفي العقيق بين عروة التي أكثر الشعراء من ذكرها في تشبيبهم، وفيها يقول السري بن عبد الرحمن الأنصاري[4]:

[خفيف]

كَفنُوني إن متُّ في دِرعِ أرْوى ... واستقُوا لي من بئرِ عُروةَ ماءِ
سخْنةٌ في الشتاءِ باردةٌ في الصيـ ... ـفِ سراجٌ في الليلةِ الظلماءِ

---

(1) وادي العقيق: يقع على ثلاثة أميال من المدينة، وقيل على ميلين منها: الجواهر الثمينة 1:349.
(2) صحيح البخاري 2:556.
(3) صحيح البخاري 2:556.
(4) ورد البيتان في: الجواهر الثمينة 1:353.

وعروة المنسوبة إليه البئر عروة بن الزبير، رضي الله، عنه فإنه هو الذي حفرها وبنى هنالك قصره بالعقيق، وهو منقسم إلى أصغر وأكبر. قال عياض[1]: البقيع صدر العقيق، وهما عقيقان أدناهما عقيق المدينة، وهو أصغر وأكبر، فالأصغر فيه بئر رومة، والأكبر فيه بئر عروة. والعقيق الآخر على مقربة منه، وهو من بلاد مزينة، وسمي عقيقا لأن سيله عق في الحرة، أي شق وقطع. وقيل سمي بذلك لحمرة موضعه. وقد روي أن عمر، رضي الله، عنه لما أقطع الناس العقيق وقف في موضع بئر عروة بن الزبير التي عليها سقايته وهو يقطع الناس فقال: أين المستقطعون فنعم موضع الحفيرة، فاستقطعه ذلك حوات بن جبير الأنصاري ما قطعه تلك الناحية فاشترى عروة موضع قصره وبياره بعد، وقد صدقت فراسة عمر، رضي الله عنه، في هذه البئر كما هو شأنه في كل ما يتفرس فيه. فهذه البئر من أغزر الآبار ماء وأحلاها، ولذلك أكثر الشعراء من ذكرها في أشعارهم، وفيها يقول بعضهم من جملة قصيدة[2]:

[طويل]

ألا ليتَ شِعْري هلْ إلى الرملِ عَودة   وهل لي بتلك البانتين لمام

وهل نَهلةٌ من بئرِ عُروة عذبَة   أداوي بها قلبا براه أوام

وسيل العقيق عند أهل المدينة من أعظم المتنزهات من سالف الدهر، ولشعرائهم الأقدمين فيه أشعار كثيرة مذكورة في كتب الأدباء. وقد حضرت بالمدينة سيلة ثلاث مرات فخرج الناس على طبقاتهم ونصبت الخيام والمضارب بحافتيه، وطبخت الأطعمة الكثيرة مع سرور ولهو وطرب، وأقاموا به يوما أو يومين، وقد سال مرة سيلا عظيما منع الرفاق والواردين من مكة للرحبية عن الوصول إليها إلا بعد مدة، وقد حضرتني أبيات ونحن على شاطئه مع جملة من أصحابنا أولها[3]:

[بسيط]

جرى العقيقُ ودمعِي كالعقيقِ جرى   فلا تسلْ سائِلِي عما هناكَ جَرى

---

(1) أنظر: وفاء الوفا 4:11.
(2) البيتان للشيخ عبد السلام بن يوسف: الجواهر الثمينة 1:352.
(3) وردت الأبيات في كتاب: أبو سالم المتصوف الأديب، ص: 320.

الوجدُ أورَى زنادا في الحشا فـصَلَى بهِ الفؤادُ فـسالَ الـدمعُ مبتـدرًا
أذْكرني جريُهُ جـريَ الـسوابقِ في بين الكتائـب في المَيـدانِ مُعتجِـرا
وظلّـه والنـسيم في جوانبـه[1] أكْربَني فسرَى الأحزان حين سَـرى
أذكرني زمنـا عنـد الـذين بهـم أفاخر الشهب في وسط الدجا سحرا
قومي وأهلي ومن ألبـست بينـهم شرخ الشباب نظيفا طيبـا عطـرا
قد استبدلت منهم نفس المشوق سوى طيب مجاورة المختار مـن حـضرا
أكرم بذا بـدلا قـد فـاز آخـذه لو أنه في الـشراء أدفـع العمـرا

(ومن جملتها هذه)[2]:

[مجتث]

ســـالَ العقيـــقُ ودمعِـــي ســـال كمثـــلِ العقيـــقِ
وســـيلُهُ كـــالرحيقِ وأدمُعِـــي كـــالحريقِ
فـــلا تلُـــمْ يـــا عـــذُولِي ولتَـــسْعدَنْ يـــا رفيـــقِ

في أبيات.

ومنها وادي بُطْحان[3]، وهو الوادي المتوسط بيوت المدينة، ودور الأنـصار غالبها على حافتيه شرقا وغربا، وهو يمر من شرقي قباء، ثم يمر كذلك إلى أن يمر غربي سور المدينة إلى طريق المصلى حتى يخرج إلى غربي سِلع وقـرب مـساجد الفتح، ثم يمر كذلك إلى أن يلتقي مع العقيق بالغابة حيث مجتمع الأسيال، فقـد روى البزار عن عائشة مرفوعا: بطحان على ترعة من ترع الجنة[4]. وقد سال مراراً ونحن بالمدينة، فخرج الناس للتفرج فيه.

---

(1) في خ وط بجوانبه، والصواب ما أثبتناه.
(2) زيادة من ط، ويقصد الأبيات التي استحضرها.
(3) بطحان: وادي في وسط المدينة: وفاء الوفا 2:133.
(4) التاريخ الكبير 2:51.

وعلى حافتيه منازل كثيرة لأهل المدينة قد جعلت لهم بشبابيك ومجالس إلى ناحية الوادي، وعليه قنطرة كبيرة قرب المصلى، وقل ما يخلو أعلاه من ماء يسيل به بخلاء يقوى إذا كثرت الأمطار، ويقل إذا قلت.

ومنها وادي قناة، وهو أعظم أودية المدينة سيلا، فإن سيله يأتي من الأماكن البعيدة فيروى أن تُبع نزله فلما شخص منه قال: هذه قناة الأرض، فسمي به[1]. ويسمى أيضا بالشظاة، وفي القاموس[2] أنه عند المدينة يسمى قناة.

ومن أعلى منها عند سد نار الحرة يسمى بالشظاة. وقال المدائني: قناة وادي يأتي من الطائف ويصب في الأرحضية وقرارة الكدر[3]، ثم يأتي بئر مَعُونة[4] ثم يمر علي طرف القدوم[5] في أصول قبور الشهداء بأحد، ثم ينتهي إلى مجتمع السيول بزُغابة[6]. وقال ابن زبالة: سيل قناة إذا استجمعت يأتي من الطائف، وهو أحد فحول أودية العرب، فيأتي من المشرق وحتى يصل السد الذي أحدثته نار الحرة، وانقطع هذا الوادي بسببه ثم انخرق سنة تسعين وستمائة فجرى الوادي سنة على ما بين الجبلين، وسنة أخرى دون ذلك، ثم انخرق بعد السبعمائة، فجرى سنة أو أزيد، ثم انخرق سنة أربع وثلاثين وسبعمائة بعد تواتر الأمطار، فحفر واديا آخر غير مجراه الذي هو على مشهد سيدنا حمزة قبليه وقبلي جبل عينين. وبقي المشهد وعينين في وسط السيل نحو أربعة أشهر لا يقدر أحد على الوصول إليهما إلا بمشقة، وكان أهل المدينة يقفون على التل الذي خارج باب البقيع فيشاهدونه، ولو زاد مقدارٍ ذراع في الارتفاع وصل إلى المدينة ثم استقر في الوادي بين القبلي والشمالي قريباً من سنة.

قلت: وقد سال ونحن بالمدينة سيلاً عظيماً بقي مدة يجري، إلا أني لم يتفق لي الخروج إليه لبعده مع عائق المرض، إلا أنا لما خرجنا لزيارة سيدنا حمزة في

---

(1) معجم ما استعجم 1:377.
(2) القاموس: فصل الهمزة.
(3) قرارة الكدر: تقع بناحية معدن بني سليم قريب من الأرحضية وراء سد معونة، وبين المعدن وبين المدينة ثمانية برد: الطبقات الكبرى 2:31.
(4) بئر معونة: ماء لبني عامر بن صعصعة: معجم ما استعجم 4:1245.
(5) القدوم: اسم بلد بالحجاز قرب المدينة: معجم البلدان: القدوم.
(6) زغابة: زعابة؛ زعم ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما فرغ من حفر الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزعابة، وفي بعض النسخ زغابة، وكلا الاسمين مجهول: معجم ما استعجم 2:698.

الرجبية أدركنا فيه بقية ماء. وهذا الوادي هو الذي ورد في الصحيح في استسقائه عليه السلام أنه سال شهرا، وأهل المدينة يخرجون إلى موضع أعلاه من ناحية المشرق وراء الحرة فيقيمون فيه الأسبوع أو أكثر. وقد ذكر السيد، رحمه الله، من جملة أودية المدينة وادي رانونا ووادي مذينب، ووادي مهزور[1]. وهذه الأودية ترجع كلها إلى بُطحان أو إلى قناة، بل إلى بطحان على ما يظهر من كلام السيد.

قال الزبير بن بكار[2]: ثم يلتقي العقيق ورانونا واد آخر وذي صلب وذي ريش وبطحان ومعجب ومهزور وقناة بزغابة وسيول العوالي هذه يلتقي بعضها بعضا قبل أن يلتقي العقيق، ثم يجتمع فتلقى العقيق بزغابة عند أرض سعد بن أبي وقاص وذلك أعلى وادي لضم، سمي به لانضمام السيول واجتماعها به. قال الزبير: ثم تمضي هذه السيول. فذكر الأماكن التي يمر بها من بلاد العرب إلى أن يصب في البحر عند جبل يقال له أراك. وقال المطري: إن مصبه في البحر من ناحية أكره في طريق مصر. قلت: وهو الوادي المسمى اليوم بالأكره بينه وبين الوجه مرحلة.

---

(1) وفاء الوفا 3:168.

(2) الزبير بن بكار: أبو عبد الله الزبير بن أبي بكر بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام، من أهل المدينة، إخباري نسابة،تولى قضاء مكة مدة، توفي سنة 256 هـ: شذرات الذهب 1:133. الفهرست 1:160.

ذكر مواضع نزولنا بالمدينة وإقامتنا بها وتنقلاتنا لأحوال لنا إلى يوم خروجنا منها إلى مكة (نفعنا الله بحق سكنها)[1]

كانت مدة إقامتنا بالمدينة المشرفة سبعة أشهر ونصف لأنا دخلناها كما تقدم في الليلة الثانية من محرم، وكان خروجنا منها إلى مكة في السابع عشر من شعبان، وكنا نسكن أولا في محل نزولنا بجوار مشهد السيد إسماعيل، كما تقدم، وكان أفسح الأمكنة وأوسعها وأبعدها عن زحام الناس، به أخلية للوضوء وبئران كما تقدم، وكان قيِّم المشهد أحد أصحابنا المغاربة المجاورين، وهو الذي أنزلنا به، وكان يتولى إصباحه وكنسه وإغلاق أبوابه، ويقبض ما يؤتى به من الصدقة إليه، ولاه ذلك مفتي المالكية بالمدينة صاحبنا الخطيب أحمد وأخوه الخطيب عبد الرحمن، لأنّ ولاية المشهد لهما، فإذا اجتمع من الصدقات ما له بال دفع لهما حصة منه، وانتفع بالباقي كما هو شأن سائر المشاهد بالمدينة، بل وبغيرها صارت أماكن جباية يولى عليها من قبل القاضي. وكنا مدة نزولنا به في أرغد عيش وألذه لا يزاحمنا فيه غيرنا لولا بعدنا من المسجد، فكنا إذا خرجنا لصلاة الظهر في أيام الحر تكاد الرمضاء تحرقنا، إنما تتقى ببقايا الظلال ومبادي الفيء تحت الجدران، ومع ذلك يلفحنا الحر لفحا فلا نصل إلى المسجد إلا بعد مشقة، ولكنا نحتسب في ذلك خطانا ونغتفر ذلك لما اغتبطنا به من السعة وجوار أهل البقيع، فنمر كل يوم مرارا على باب البقيع ونسلم على أهله وندعو، ومن طلع منا على سطح المشهد أشرف على البقيع كله وما والاه من الأجبنة وحدائق النخل، ويكون جبل أحد الذي هو من جبال الجنة قبالة وجهه، وما كان ينغص علينا فيه إلا كثرة النخاولة إلى ذلك المحل، وهم الروافض الساكنون خارج المدينة في العوالي[2] وغيرها من الجهات، فإن جل من يسكن هناك ويتولى العمل في البساتين والفلاحة فيها روافض، ويسميهم أهل المدينة النخاولة، ولا أدري معنى هذا الاسم.

---

(1) زيادة من ط.

(2) العوالي: جمع العالي ضد السافل، وهو ضيعة بينها وبين المدينة أربعة أميال وقيل ثلاثة: معجم البلدان: العوالي.

ولهم عادة في كلٍ يوم خميس غالبا يأتون إلى المشهد من أول النهار ويطبخون هنالك طعاما كثيرا، ويجتمعون رجالا ونساء بأولادهم، وفي الغالب يأتون لختان أولادهم، فإن من له ولد يريد ختانه لا يختتنونه إلا في ذلك اليوم في ذلك المكان، وربما جاؤوا لغير ختان بل لمجرد الزيارة وإطعام الطعام، ولا يحضر معهم غيرهم، وغالب ما يطبخون هناك الأرز والهريسة باللحم. وصفة طبخ الهريسة أن يجعل اللحم في المطبخ ويجعل معه القمح ويطبخ حتى يفارق اللحم العظم، فتزال العظام ويبالغ في طبخ اللحم مع القمح حتى يطيب القمح ويترلع[1]، فيأخذون عصيا شبه المغارف عراض الرؤوس فيلوكون ذلك به حتى يختلط اللحم مع القمح ويصير مثل العجين، فيأخذونه في الأواني ويصبون عليه السمن، وهي عند أهل الحجاز من أشهى الأطعمة، وهي قوية إذا شبع منها الإنسان قد لا يشتهي الطعام يوما وليلة.

و لم نزل ساكنين في المشهد المذكور إلى أواسط ربيع الأول، ومرضت فيه بالحمى الصفراوية، ومرض الجل من أصحابنا، وضعفنا عن الوصول إلى المسجد من المرض، وكان ابتداء مرضي ليلة المولد الشريف، وكان الناس يسمون ذلك المحل الذي سكنا فيه، مع كونه أفسح المحال، بثقل السكنى وكثرة الأمراض، ولذلك شاهد فإن هذا المحل قريب من ذنب مشعظ الذي قال فيه، صلى الله عليه وسلم[2]: اللهم حبب إلينا المدينة وانقل وباها إلى مهيعه وما بقي منها فاجعله تحت ذنب مشعط. وقال أيضا: إن كان الوباء في شيء من المدينة فهو في ظل مشعط. قال السيد[3]: ومشعط بالشين المعجمة كمرفق، أطم لبني جديمة كان في غربي مسجدهم قرب البقيع. وقال في موضع آخر: كان غربي مسجد أبي، ومسجد أبي قريب من مشهد العباس، فهذا المحل أقرب الأماكن بالمدينة إليه. وكنا نزولا هنالك بخمسة من أصحابنا فمرض الكل و لم يصح إلا واحد، فخرجنا منه واكترينا رباطا

---

(1) ينزلع: من تزل إذا تشقق: لسان العرب: زلع.
(2) نص الدعاء كما ورد في مسند أحمد (309:5): حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا عثمان بن عمر أنا بن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبي قتادة أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، توضأ ثم صلى بأرض سعد بأصل الحرة ثم بيوت السقيا ثم قال: اللهم إن إبراهيم خليلك وعبدك ونبيك دعاك لأهل مكة وأنا محمد عبدك ونبيك ورسولك أدعوك لأهل المدينة مثل ما دعاك به إبراهيم لأهل مكة ندعوك أن تبارك لهم في صاعهم ومدهم وثمارهم، اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة واجعل ما بها من وباء نجم اللهم إني قد حرمت ما بين لابتيها كما حرمت على لسان إبراهيم الحرم.
(3) وفاء الوفا 211:3.

آخر قبلي العين التي في شرقي المسجد، وبقينا فيه نحو الخمسة عشر يوما، واشتد علي المرض فيه، ولم يوافقنا أيضا لضيقه وبعده عن المسجد أيضا، إلا أنه دون الأول في البعد، فخرجنا منه إلى الرباط المنسوب لقطب الأولياء مولاي عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه، وهو قريب من المسجد جدا ليس بين بابه وبين باب المسجد المسمى بباب النساء إلا نحو ثلاث خطوات، واغتبطنا بسكناه من قرب المسجد، وسكنا في البيت الذي عن يمين الداخل، وكان بيد شيخنا أبي مهدي عيسى الثعالبي، فلما انتقل إلى مكة تركه بيد بعض أصحابه فكلمه أحد أكابر خدام الحجرة الشريفة، فدفع لنا مفتاحه، وكان في وسط البيت قبر أخبرت أنه لبعض الأعجام ممن تولى عمارة ذلك الرباط، وزادنا غبطة في سكنى ذلك الرباط مجاورة شيخنا جمال الدين الهندي النقشبندي فإن سكناه فيه في البيت الذي على[1] يسار الداخل، وكنت أدخل إليه وأجلس معه للمراقبة حتى منعت بشدة المرض، وبقينا في ذلك الرباط نحوا من شهر، فثقل علينا من مجاورة القبر الذي في البيت وعدم محل فيه للطبخ، وإنما كنا نطبخ في مكان آخر بعيد فشق ذلك علينا، فانتقلنا منه إلى رباط النخلة المجاور لرباط النساء، وهو تحت السليمانية، فوافقنا في السكنى، واكترينا فيه محلا واسعا ذا منافع ومرافق وأمكنة للخلاء وبئر للوضوء وماء للشرب يأتينا عفوا بلا ثمن من أحباس على ماء لذلك المحل، فانبسطنا واستوطنا واغتبطنا بتيسر المرافق مع قرب المسجد، وإن كان دون رباط الشيخ عبد القادر في القرب، ولم يزل سكنانا في ذلك المحل إلى أن خرجنا لمكة.

لطيفة:

كان في رباط الشيخ عبد القادر بئر حلو على خلاف المعتاد من آبار المدينة فإنها مالحة، فبينما أنا ذات يوم أتحدث مع نقيب الرباط حتى جرى ذكر ذلك فقال لي: إنما حدثت فيه الحلاوة منذ أعوام قريبة وكانت كغيرها من الآبار فأصبحت ذات ليلة وهي حلوة، ولا يعلمون السبب في ذلك، فقلت له: لعل مجرى العين قد انخرق إليها. فقال لي: ليس بالقرب منها مجرى للعين، والله أعلم بحقيقة ذلك.

---

(1) في ط: عن.

ذكر ما[1] أقرأته بالمدينة المشرفة أيام إقامتنا بها

ولما كان أول شهر صفر ألجأني أصحابنا المالكية بالمدينة المنورة أن أقرأ لهم مختصر الشيخ خليل في فقه مالك، فتعللت لهم بقلة الممارسة له وشغل البال وعدم ما يستعين به الإنسان من الشروح والحواشي، فلم يجد تعليلي لديهم، بل زادهم إغراء، فابتدأنا قراءته في مؤخر المسجد بالجانب الغرب منه، وكانت قراءتنا من بعد صلاة العصر إلى قرب المغرب، فقرأنا لهم قراءة لا بأس بها زعموا أنهم لم يروا مثلها منذ أزمان، ولا بدع في ذلك فإن البلد شاغر من محققي العلوم سيما فقه مالك، فلم نر هناك من يحقق أدنى مسائله، وقد صوح نبت العلوم بها فرعى الهشيم[2]؛

[مجزوء الرجز]

أعظم بجهل فتية أعلم من فيهم أنا.

وقرأنا فيه إلى فصل الأذان في أزيد من شهر، فجاء الله تبارك وتعالى بما نرجو به المغفرة ورفع الدرجات من المرض، فطال بي المرض ومنعني من الوصول إلى المسجد في غالب الأوقات، بل آل بي إلى أن عجزت عن الخروج للجمعة فضلا عن غيرها من الصلوات. وفي أثناء المرض كانت تنقلاتنا في المحال المذكورة، وقام بشؤوننا أصحابنا المغاربة فيما نحتاج إليه من أدوية وشراء الأطعمة، فجزاهم الله عنا أفضل المجازات، خصوصا صاحبنا الشيخ عبد المؤمن التنجري[3] فقد قام معنا أتم القيام، ولا نسب بيننا وبينه ولا سبب إلا ما جبله الله عليه من محاسن الأخلاق وكرم الأعراق، وإلا فأي مناسبة بين أقصى المغرب وأقصى السودان، فكافاه الله عنا أحسن المكافأة، وما قدرت على شهود الصلوات كلها في المسجد

(1) في ط: من.
(2) إشارة إلى بيت أبي علي البصير: (الوساطة: 221).
ولكن البلاد إذا اقشعرت وصوح نبتها رعي الهشيم
(3) في ط: التحري.

إلا في أواخر جمادى الثانية. ولما استهل شهر ربيع الأول طلب مني أصحابنا أيضا قراءة الشمائل[1]، فشرعنا فيها بعد صلاة الصبح بباب النساء، وعاق المرض عن ختمها إلى جمادى الثانية، واستعرت من شيخنا الشيخ ياسين شرح المناوي على الشمائل للنظر فيه أيام القراءة، فأعاره وهو من أحسن ما رأيت من الشروح، عليها يباحث ابن حجر الهيثمي كثيرا ويحل مشكلات الملا عصام وينتصر له أحيانا فيما رده عليه ابن حجر.

ومما استفدته من هذا الشرح نقلا عن الملا عصام في حديث رؤيا النبي، صلى الله عليه وسلم، في النوم، وأن الشيطان لا يتمثل به ما نصه: قال الشيخ محي الدين في شرح السنة[2] بعد كلام يتعلق برؤية الله تعالى: ولا يتمثل الشيطان بنبي من الأنبياء ولا بملك من الملائكة ولا بالشمس والقمر والنجوم المضيئة والسحاب الذي فيه الغيث.

لطيفة:

كنت رأيت في النوم عند ابتدائنا لقراءة الشمائل أن صاحبنا الشيخ المسن عبد الكريم التمام أتاني بسبحة من جواهر ويواقيت ثمينة فجعل يظهر لي محاسنها، واغتبطت بها كثيرا، فلما كان الغد، بعد فراغنا من الدرس، ابتدأ الشيخ عبد الكريم المذكور الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، التي جرت العادة بختم المشايخ بها الدروس في البلاد المشرقية كلها، مصرا وشاما وحجازا، وهي: اللهم صل أفضل صلاة على أشرف مخلوقاتك، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، عدد معلوماتك ومداد كلماتك، كلما ذكرك وذكره الذاكرون، وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون. يكررونها ثلاثا في آخر كل درس، خصوصا الدروس الحديثية. ولم نزل نقرؤها عند الفراغ من القراءة إلى ختم الكتاب، فتأولتها الرؤيا التي رأيت، ولعمري إنها لرؤيا صادقة، فإذا لم تكن الصلاة على النبي، صلى الله عليه

(1) الشمائل النبوية والخصائل المصطفوية: لأبي عيسى محمد بن سورة الإمام الترمذي المتوفى سنة 279 هـ، شرحها الشيخ عبد الرؤوف المناوى: كشف الظنون 2:1059.
(2) شرح السنة للإمام محي السنة حسين بن مسعود البغوي المتوفى سنة 516هـ: كشف الظنون 2:1040.

وسلم، في العبادات بمترلة الجواهر واليواقيت في الأموال، فلا شـيء غيرهـا في العبادات أحق بهذا الوصف.

لطيفة أخرى مثلها :

أخبرني صاحبنا الشيخ محمد الفزاري، وكان أوحد زمانه نـسكا وعبـادة وملازمة للحرم الشريف، وهو الذي ألح كثيرا في قراءتنا للمختصر أنـه رأى في منامه عند ابتدائنا لقراءة المختصر[1] أن ساقية كبيرة كثيرة الماء صافية أخرجت من البحر واغتبط الناس بها للشرب والسقي، فجرت قليلا ثم وقفت و لم تزد، فتأولتها قراءتنا للمختصر، والبحر هو صلى الله عليه وسلم، فمنه المدد لكل معلم خـير ومرشد إليه من أمته، والوقوف ما حصل لنا من المرض المكفر إن شاء الله لذنوبنا.

لطيفة:

من يوم قدومنا للمدينة كل من تكلمنا معه من أصحابنا المجاورين يقول لنا: استعدوا لحمى المدينة فلا بد لكم منها فإنها تحفة النبي، صلى الله عليـه وسـلم، وكرامته لجيرانه لتمحيص ذنوبهم، وكان بعض أصحابنا يتمغص من ذلك ويشق عليه سماعه منهم فيقول: نحن نرجو أن تكون كرامة النبي، صلى الله عليه وسلم، لنا بغير ذلك، فكان أولنا وقوعا في المرض وآخرنا وأطولنا إقامة فيه، والله يغفر له ويكفر به زلـله.

قلت: ولا بعد ولا نكر في تسمية الحمى بتحفته، صلى الله عليه وسـلم، فلذلك أصل في السنة، فقد ورد في بعض الأحاديث أن الحمى اسـتأذنت علـى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: اذهبي إلى الأنصار فإن لهم علينا يدا. وكما قال عليه السلام. وروى الإمام أحمد وغيره برجال الصحيح عن جـابر: اسـتأذنت الحمى على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: من هذه؟فقالت: أم ملـدم. فأمر بها إلى أهل قباء، فلقوا ما لا يعلمه إلا الله، فأتوه فشكوا ذلك إليه، فقال: ما شئتم؟ إن شئتم دعوت الله ليكشفها عنكم، وإن شئتم تكون لكم طهورا. قالوا:

---

(1) مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي.

أو تفعل؟ قال: نعم. قالوا: فدعها[1]. وفي رواية: وإن شئتم تركتموها وأسقطت بقية ذنوبكم هـ.

ولا تحفة ولا كرامة لزائريه أعظم مما يطهرهم من الآثام، وهل فارقوا الأهل والأولاد، وقطعوا الأوعار والأنجاد، وامتطوا ظهور النجائب، وعلوا بأرجلها ناصية السباسب، إليه، صلى الله عليه وسلم، إلا لتحط عنهم أوزارهم وتغسل أدرانهم، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جازى به نبيا عن قومه. وقد حقق العارف بن أبي جمرة، رضي الله عنه أن المغفرة أعلى ما يناله العبد من الله قائلا: إن الرحمة وإن نال منها الإنسان ما عسى يمكن أن تبقى معها بقية ذنب يؤاخذ به، بخلاف المغفرة، ولذلك امتن الله بها على نبيه صلى الله عليه وسلم. ومما أقرأته بالمدينة أيضا مقدمات الشيخ السنوسي[2] ونقاية السيوطي[3]، كلفني بعض أصحابنا المحبين من أهل السودان قراءتها، وما كنت قرأتها قبل ولا أقرأتها، إلا أنها لما كانت مبادئ علوم قد قرأنا فيها ما تيسر، وحصلنا منها النصيب الذي قدر حسدنا على قراءتها إلا فنين منها لم أقرأهما و لم أقرئهما، وهما فن التشريح والطب، فقد امتنعت من إقرائهما حين الوصول إليهما، فألح علي فيهما وقال: إني لم أقنع بما فهمت من كلام المصنف. فقلت: إن الله تعالى يقول: (ولا تقف ما ليس لك به علم)[4]، وأنا لا علم لي بهذين العلمين، و لم يتقدم لي فيهما قراءة على شيخ، وما يظهر من العبارة لا يكفي في تفسير العلم، إذ لكل علم اصطلاحات لا يعلمها إلا أربابه، وأنا أكره إن تعاطيت ذلك الكذب، خصوصا في حرم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وحول قبره، وبمرأى منه ومسمع، فلا يبالي ما أعفاني من ذلك. وأقرأت أيضا القرطبية في فقه مالك، وأقرأت أيضا نحو ربع الألفية[5] وبعض مختصر العصامي في الاستعارة، كل ذلك في محل جلوسنا تحت الأسطوانة التي عن يسار

(1) مسند أحمد 3:316.

(2) محمد بن يوسف السنوسي، عالم تلمسان، فقيه مشارك، له العقائد الخمس، وهي: المقدمة، والصغرى، وصغرى الصغرى، والوسطى، والكبرى، توفي سنة 895 هـ: لوحة الناشر، ص: 109. الأعلام 7:155.

(3) النقاية: مختصر في أربعة عشر علما مع زبدة مسائلها لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة 911 هـ، ثم شرحه وسماه: إتمام الدراية فرغ من تأليفه سنة 873 هـ: كشف الظنون 2:1970.

(4) الإسراء: 36.

(5) ألفية محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي في النحو، أنظرها في: مجموع مهمات المتون، ص: 317 – 381.

السرير الذي يقوم عليه المؤذنون في الصف الذي يلي صحن المسجد، وكان عامة جلوسنا هنا. وبعدما خرجت من المدينة كتبت لأصحابنا بأبيات ثلاثة في روي، وأمرهم بإلصاقها في الأسطوانة التي كنت أجلس إليها تذكرة بي لأنال من دعائهم، وهي هذه[1]:

[طويل]

أجيرانَ خيرِ الخلقِ مُنوا بدَعوة ... لمنْ نابَ عنهُ في الخطابِ بنانُهُ

لئنْ غابَ عنكمْ شخصهُ ففؤادهُ ... لديكمْ رهينٌ لا تُفكُ رهانُهُ

فإنْ خفتمْ نسيانهُ فكتابهُ ... يذكركمْ بهِ وهذا مكانُهُ

وأما ما قرأته بالمدينة على المشايخ القاطنين بها والواردين عليها فسيأتي ذكره عند ذكر من لقيته بالمدينة من المشايخ والأصحاب الذين ينبغي أن يشاد بذكرهم.

ولما كان منتصف صفر دخل الركب العراقي المدينة المشرفة ونزلوا بركبهم شامي سلع من غربي ذباب إلى قريب من مساجد الفتح، وكنا نخرج في بعض الأيام إلى مخيمهم قصد التفرج، وتأخر في هذه السنة قدومهم إلى المدينة لبطئهم في الطريق كثيرا. ذكر لي بعضهم أنهم أخذوا فيما بين مكة والمدينة نحوا من خمسة وأربعين يوما بسبب أداء المكوس الموظفة عليهم من قبل الأمراء، فقد أدوا من ذلك كثيرا. أخبرني بعضهم أن جملة ما أدوا من المكوس من يوم خروجهم من بلادهم بأصبهان يزيد على خمسين دينارا ذهبا لكل رأس، والخمسون عندهم معدة لهذا، يعدونها من بلادهم كل من خرج للحج منهم يخرج زيادة على ما يحتاج من النفقة والكراء خمسين دينارا للمكوس التي تؤخذ منهم في الطريق، فإن كانت المكوس التي تنوبهم الخمسين فأقل لم يتضرروا بذلك لاستعدادهم لها وإخراجهم بها مخرج الصدقة، وما زاد على الخمسين استضروا به، وقد أخذ منهم في هذه السنة عامل البصرة لما مروا بها ثلاثين دينارا، وذلك بأنهم لا يأتي معهم من بلادهم عسكر يحميهم في الطريق من أعرابها ومحاربيها، فإذا وصلوا إلى البصرة أشخص معهم عامل البصرة عسكرا من ناحيته وأميرا من قبله حتى يردهم إلى البصرة فيأخذ منهم ذلك لأجل هذا متعللا بأنهم ليسوا في ولاية سلطانه، فلا تجب عليه نصرهم ولا

(1) وردت الأبيات في: نشر المثاني 2:264.

حمايتهم إلا بإتاوة يأخذها منهم، وأما سلطانهم فهو الشاه ملك أصبهان وما والاها من عراق العجم مما وراء النهر وعساكره لا تقدر على الوصول إلى عراق العرب الذي هو من أعمال مملكة صاحب الروم، ولأجل ذلك لا يدفع هذا المكس أهل بغداد ولا أهل الكوفة والبصرة، وإن قدموا معهم في الركب لأنهم في طاعة ملك الروم وإيالته.

وأمراء هذه البلاد عماله، فيلزمون بحماية الرعاية والذب عنها في مقابلة الخراج المأخوذ منهم في كل سنة، ومن لا يصل خراجه إلى بيت مال السلطان فيذب عنه سلطانه الآخذ لخراج بلده، وإلا فلا حماية له إلا ما يدفعه. وهذه سياسة كسروية ومقاصد دنيوية ما أنزل الله بها من سلطان، ولا جاء لها في سنة نبيه من بيان، فكل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه[1] ونصرته وحمايته على القادر واجبة ولو كان أحدهما من أقصى المشرق والآخر من أقصى المغرب، فما بالك بوفد الله ووفد رسوله، فالذب عنهم والدفاع واجب على كل أمير ومأمور؛ رعاية لجانب الله ورسوله، واهتضامهم وإذلالهم بأخذ الخراج الزائد على الجزية أضعافا مضاعفة هضم لجانب الدين وسيرة الأئمة المعتدين لا المهتدين، بيد أن هؤلاء المأخوذ منهم هذه المكوس روافض فساق في الاعتقاد، فهم جديرون بأكثر من ذلك من الإهانة، إلا أن انتضامهم في سلك الحجاج الوافدين على الله ورسوله واتسامهم بسمة الإسلام يوجب لهم حرمة ما داموا في طريق الحج، على أن الآخذين منهم لم يقصدوا بذلك إهانتهم على فسقهم وسوء معتقدهم، بل طلبا لحطام الدنيا واتباعا للسياسة الكسروية كما قدمنا، فلو فرض أنهم أهل سنة وجماعة ما احترموهم لأجلها ولعاملوهم بمثل ذلك أيضا، وحينئذ فمدار أمورهم ومقاصدهم على ما يصلحون به أمور دنياهم وإن أضر بآخرتهم، والله المستعان، وناهيك بما يقع لحجاج المغاربة عند دخولهم مصر وخروجهم منها، إلا أنهم لا يأخذون إلا ممن معه تجارة. وعند الخروج من مصر لا يأخذون إلا من أهل المغرب الأقصى وأهل السودان متعللين بما ذكرنا، أو لأنهم ليسوا من رعية السلطان، فلا يخرجون السلع من بلد السلطان إلى بلاد سواها إلا بجعل وخراج، (قاتلهم الله أنى يوفكون)[2]. وقد ذكر بعض المؤرخين أن مثل هذا كان يقع قبل هذا الزمان من

---

(1) مسند أحمد 2:360.
(2) التوبة: 30. المنافقون: 4.

أمراء مكة للحجاج المغاربة فيأخذون منهم قدرا معلوما من المال على كل غني وفقير ومن لم يكن له مال يدفع منه ذلك المقدار حبس حتى يفوته الحج إلى أن قيض الله لذلك بعض صالحي ملوك مصر فبعث إلى أمير مكة في إسقاط ذلك عن الحاج وجعل له قدرا معلوما عظيما من الأموال يأتيه في كل سنة من مصر، فانقطعت تلك المحنة بسبب ذلك، فجزاه الله عن المسلمين خيرا.

فهكذا ينبغي أن تكون همم الملوك في النظر في مصالح المسلمين ودفع الضرر عنهم بأنفسهم وأموالهم إن لم يكن إلا ذلك، وعلة أمراء مكة في أخذ ذلك كالذين أسلفنا ذكرهم فيقولون: نحن حماة الحرم والدابين عنه وعن الوافدين عليه، ولولا ذلك لاختطفتهم ذئاب الأعراب، ولا يقوم ذلك إلا بعساكر وحماة، ولا قيام لهم إلا بأموال، وبلاد الحجاز ضعيفة لا يفي ما يتحصل من خراجها بذلك فلا بد لنا من أموال نستعين بها على ذلك، إما من سلاطين الأقطار أو من رعاياهم إذا وصلت إلينا، ولهذا لا يأخذ سلطان مكة شيئا من كل ما يرد من الشام ومصر والمغرب لأنه، وإن كان مستقلا في مملكته هو في الحقيقة عامل من عمال الخاقان الأعظم صاحب الروم يأتيه من مصر بالأموال والأطعمة ما يقوم بكفايته وكفاية عساكره، وأما أهل اليمن فأمراؤهم من الإمامية أقاربه من النسب، بل والمذهب، وبينهم مواصلات كثيرة ومحاماة، وأما الهند فلا يفدون إلا في البحر وغالبهم تجار فيدفعون العشر بجدة، وإن قدم بعض كبرائهم قاصدا للحج فقط فإنه يستصحب من الهدايا والتحف ما يجل وصفه. وأخذ أمير مكة في هذه السنة من هؤلاء الأعجام أهل العراق أحد عشر دينارا ذهبا لكل نفس ستة لدخول مكة، وخمسة لدخول المدينة، وقد حبسهم على المشي بعد الخروج من مكة إلى مر الظهران حتى أقاموا هنالك نحوا من اثني عشر يوما بسبب بقية بقيت عليهم من الخراج المؤدى، فلما وصلوا إلى بدر حبسهم أميرهم هناك أسبوعا حتى أعطوا ثمانية دنانير أخر لكل نفس؛ متعللا بانقضاء الزاد والعلوفة بسبب التعطيل المذكور، وهذا كله سوى ما يعطونه للأعراب من يوم خروجهم من المدينة، وقد قدموا في هذه السنة بركب عظيم فيه داية الشاه وطبيبه وحاجبه أو وزيره، وعدة الذين أعطوا المكس من الأعجام سوى الأعراب والخدام ثمانية عشر مائة، وطالت إقامتهم في المدينة قريبا من شهر، ولم يكن فيهم نفع لأهل المدينة من بيع ولا شراء ولا صدقة إذ جلهم روافض، ويقصدون بصدقاتهم من هو على مذهبهم، ولا يزورون من

مزارات البقيع إلا مشاهد أهل البيت فلهم عليها ازدحام، وعند زيارة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لا يقفون للسلام على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، بل كثير منهم لا يمرون بالناحية التي هما فيها، وقد مرض واحد من أصحابنا، ونحن إذ ذاك بمشهد السيد إسماعيل، وكان يضطجع بباب المشهد وعليه ثوب أحمر، والأعجام يلبسون الأحمر في الغالب، فإذا رأوه على باب المشهد وعليه زيهم مع ملازمته لمشهد السيد إسماعيل ظنوه على مذهبهم فتيمموه بصدقاتهم، ولم يرتحل هؤلاء اللئام من المدينة حتى سئم أهل المدينة مقامهم وملوا جوارهم مما أفسدوا بسرحهم من النخيل والبساتين، وكانت إبلهم ترعى بناحية الحرة الشرقية إلى قريب من أحد وإلى الغابة، فأفسدوا من صغار النخيل وضعيف الشجر كثيرا، وغلوا الأسعار بالمدينة لنفاد أزوادهم وعلوفاتهم، فارتحلوا في التاسع أو الثامن من ربيع الأول.

غريبة:

بينما أنا ذات يوم بالحرم الشريف ومعي رجل من الشرفاء من بلاد المغرب له رواء، وبين أيدينا كتب منها سفر من الفتوحات المكية وسفر من المحاضرات والمسامرات[1]، وكلاهما للشيخ محي الدين، إذ جلس إلينا رجل من أصبهان زعم أنه شريف، أظنه في سني، ممن قدم في ذلك الركب فقال لصاحبي: أنت من طلبة العلم، لما يرى من حسن سمته وبذاذة[2] ملبسي، فأشار له صاحبي إلي. فأخذ يسألني عن الكتب التي بين يدي، وأنست إليه حين زعم أنه شريف وزعم أنه مالكي المذهب. فسألته عما يقرا بناحيتهم من كتب المذاهب، فتبين لي كذبه. ثم أخذ يسألني ولم أعرف سوء معتقده. فكان مما قال لي أن قال: ما معنى الله ؟، ولم أفهم سؤاله، فقلت: علم على الذات الواجب الوجود إلى آخر ما يقال في ذلك. فقال: ما معنى العلم؟ فأجبته. وكانت في كلامه لكنة أعجمية، وكان يريد غير ما أجيبه به، ثم تأملت كلامه فإذا هو يريد البحث في مسألة الاسم، هل هو عين المسمى أو غيره، فتكلمت معه في ذلك بما لأئمتنا من التفرقة بين معنى الاسم والمسمى والتسمية، وإن الخلاف في ذلك عند المحققين يرجع إلى وفاق، ثم انتقل

(1) يقصد كتاب: محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار لابن عربي.
(2) في ط: بذة.

إلى الكلام في مسألة إثبات الصفات، فشممت منه رائحة إنكارها، بل صرح بذلك إلا أنه يوري فيقول: هم يزعمون كذا، وأن معنى الوارد في إثباتها كذا، وأن إثباتها يؤدي إلى كذا وكذا، وكل ما أقمت عليه حجة في إثباتها ورد ما استدلوا به على نفيها يقول: لو كنت تفهم العجمية لأجبتك، وكان لسانه بالعربية فيه بعض ثقل، وعلى كل حال له مشاركة حسنة وقوة بحث في المعقولات على مذهب أهل الاعتزال، إلا أني بحمد الله لم يورد علي إشكالا في معتقد أهل السنة إلا نقضته وأزلته، فلا يكون له جواب إلا ما تقدم من التعلل بعدم معرفتي بلسانه، فكان آخر ما قلت له: نحن معاشر أهل السنة والجماعة نجعل معتمدنا في العقائد الدينية الأدلة النقلية من الكتاب والسنة الصحيحة الموافقة للأدلة العقلية، ونرد ما خالف الكتاب من مقتضيات الفهوم والآراء، ونقدم رأي صاحب الشريعة، صلى الله عليه وسلم، وفهمه، ورأي السلف الصالح وفهمهم على آرائنا وأفهامنا ونتهمهما في ذلك، وأنتم بالعكس تحكمون عقولكم وأوهامكم فتحملون الأدلة الشرعية كلها المقطوع بها على ما يوافق أهواءكم وآراءكم، فتصيرون المتبوع تابعا، والتابع متبوعا، فشتان بين من يحكم الكتاب والسنة على عقله ورأيه، ويرد ما خالفهما إليهما بتأول تشهد له اللغة ولا ينفيه العقل، وبين من يحكم عقله ورأيه فيحمل عليها الكتاب والسنة بتكلف وتعسف، ويتخذ إلهه هواه ومعبوده موهومه، فكادت أصواتنا أن ترتفع حتى اجتمع إلينا ناس ممن بالمسجد، ويمنعني من الوقوع به والإغلاظ عليه بعد تحقق مذهبه وسوء معتقده انتسابه إلى أهل البيت. ثم تكلم في مسألة الكلام فأقيمت صلاة العصر، فقمنا إلى الصلاة وافترق المجلس و لم ألقه بعد ذلك. وقد أخبرت بعد ذلك أنه اجتمع بشيخنا بدر الدين الهندي، وهو ممن هو في تحقيق العلوم النظرية، وكان ذلك بمجلس صاحبنا أحمد بن التاج رئيس المؤقتين بالحرم الشريف، فدار الكلام بين الأعجمي وبين شيخنا، فألقى عليه الشيخ سؤالا فقال: لا أجيبك عن هذا إلا لو كنت في بلد إذا أقمت عليك الحجة أمرت بإحراقك بالنار فينفذ أمري. قلت: وهذه جرأة عظيمة منه قاتله الله. وتساهل من حضر ذلك إذ كان حقهم أن يذيقوه على هذه الجرأة على أهل السنة في بلاد السنة ما يستحقه من النكال وعظيم الوبال، أو يرفع أمره إلى الولاة ويعرفون بما يستحقه على ذلك، إلا أن الاهتمام بمثل هذا في هذه الأوطان أغرب

من غريب، ولو رفع إليهم ما رفعوا لذلك رأسا، وقد نقل صاحبنا عبد الغني الحلبي[1] صورة المجلس بيني وبينه إلى شيخنا الملا إبراهيم بن حسن الكوراني، وكانت له قوة نظر وإدراك وحسن تصرف ومعرفة بلسانهم فقال لي لما لقيته: لولا أنا نهينا عن مباحثتهم لبعثت إليه ولأخذت عليه بآفاق السماء حتى أكبه على وجهه، ولقد صدق؛ إنه لجدير بذلك، فإنه والله اليوم الذي لا يتعين لمناظرة أهل الأهواء سواه، لما آتاه الله من العلم والحكمة ونوراية الظاهر والباطن وعلم[2] باصطلاحات أهل كل علم يتوقف عليه إثبات العقائد الدينية بأدلتها القاطعة، فنسأل الله تعالى أن يمد الوجود بإطالة بقائه، وأن يفيض الجود من مدده علينا آمين.

ولما استهل ربيع النبوي نظف الحرم الشريف وفرش بفرشه المعهودة من الزرابي المبثوثة الحسان التي لا يوجد لها نظير إلا في بيوت الملوك، وغالبها يأتي من أرض الهند من عند ملوكها، وقد رأيت سدا بعضها حريرا خالصا، وكنت أتوقى الصلاة فيها، وطعمها من جيد الصوف الملون الذي لا يكاد يفرق بينه وبين الحرير إلا ذو بصيرة يفرش بها المسجد النبوي، أعني القديم السقف كله، وأخرجت الربائع التي فيها المصاحف العتيقة والأجزاء الحسان من وقف الملوك والكبراء وصففت في قبلة المسجد وفتحت خزائن الكتب العلمية الموقوفة بالحرم الشريف يستعير منها الناس للقراءة، وشرع الأئمة في القراءة والتدريس، وكانت عادتهم إذا كان اليوم السابع عشر من ذي القعدة، ويسمونه الكنيس، جمعت بسط الحرم الشريف كلها وأدخلت إلى المخازن فلا يبقى في المسجد إلا الحصر. وأدخلت المصاحف التي في المسجد والسبحات إلى الروضة، ورد كل من استعار كتابا إلى صاحبه أو إلى ناظر الخزانة التي أخذه منها، واقتضى غالب الديون، وتفاصل الشركاء، وانتهى أمر غالب الأكرية يتهيئون بذلك للموسم لأنه في غالب الأمر مظنة ارتحال قاطن وقدوم غائب، واجتماع الناس من الآفاق، واشتغال أهل المدينة بقبض الأوقاف، والجرايات التي تأتيهم من الآفاق، وذهب من يريد النسك إلى مكة أو من يريد التجارة، فلا يبقى بالمدينة إلا القليل من الناس، ويكنس الحرم

(1) عبد الغني بن صلاح الدين الخاني الحنبلي الحنفي، ولد بحلب سنة 1048 هـ، جاور بالحرمين مدة طويلة، ولازم الشيخ إبراهيم الكوراني، تولى بعض المناصب في المدينة،وألف رسائل وسمها المحبي باللطيفة، توفي بالمدينة المنورة سنة 1095هـ: خلاصة الأثر 4: 434.

(2) في ط: العلم.

الشريف في ذلك اليوم، وفيه يكنس البيت العتيق بمكة أيضا، ويفعل فيها مثل ذلك وأيام الموسم عند أهل الحرمين الشريفين فيها يجمعون غالب أمور معاشهم فلا يتفرغ أحد لتدريس ولا عبادة إلا ما لا بد منه، فإذا انقضت أيام الموسم وذهبت الركبان الواردة من الآفاق و لم يبق بالحرمين إلا أهلها رجعوا إلى معتاد حالها في الأمور الدينية من القراءة والتدريس وأنواع العبادات والدنيوية من الفلاحة والتسعير في الأسواق وتصحيح المكايل والموازين. وأما أيام الموسم فلا سعر معلوما ولا مكيال وافيا، ولا ميزان صحيحا، كل يفعل ما شاء، ولا يتكلم الولاة في شيء من ذلك إلا أن يقع أمر مهم. ولما تأخر ارتحال الأركاب في هذه السنة تأخر فرش الحرم الشريف إلى أول ربيع، وتنافس الناس في الخدمة في ذلك اليوم بنقل البُسط وغيرها، وعمل في ذلك الأمراء العظام فمن دونهم، وناهيك بشرف مقام يتشرف أعظم الملوك بتولي خدمته، ويجعل بسطه التي تداس[1] بالأرجل على رقبته، ويعفر مصون شيبه في قتير[2] حصره، ويكحل بتراب أرضه إنسان عين بصره، ولقد رأيت الأمير إبراهيم الذي كان أمير الحاج المصري، وهو من الأمراء الكبار مشمرا عن ساقه قد جمع عليه ثيابه وقد كاد الغبار أن يواري بشرة وجهه وهم يخرجون صناديق الكتب من الحجرة الشريفة، وما كان يتولى الخدمة هنالك إلا من ومن. ولقد جهدت أن أتشرف بشيء من تلك الخدمة فلم أقدر إلا على بسط الفرش في محالها بعد وصولها إليها، وفي ذلك، والحمد لله، كفاية ينال بها محصلها أكبر عناية.

ولما قربت ليلة المولد الشريف، وهي الثانية عشر، بولغ في تنظيف الحرم وتزيينه، وغسلت مصابيحه وجعل فيها مائع شديد الحمرة لا أدري ما هو، وألقي فوقه قليل زيت طيب أخضر، فإذا توقد المصباح ظهر إشراق المصباح لشدة صفائه وملاقاته لضوء النار، وأشرقت حمرة ذلك المائع لكونها ملاقية لصفاء الزجاج، فتصير حمرته كحمرة الياقوت، وذلك الحظ من الزيت فوقه أخضر كالزمرد وفوقه صفاء الزجاج يتموج فيه ضوء النار، وينعكس فيمازج إشراقه صفاء الزيت وخضرته وصفاء المائع الأحمر وحمرته، فلا تسأل عن حسن ذلك المنظر وبهائه، وقد رتبت المصابيح في تعليقها ترتيبا لائقا وشكلت تشكيلا بديعا بين تربيع

(1) في ط: تدوس.
(2) القتير: القصب: لسان العرب: قتر.

وتدوير، فيا له من منظر ما أبهجه، وليل ما أسرجه، ونور النبوءة مشرق على كل ذلك وبرز على جميع ما هنالك فقد اتفق أرباب الأذواق السليمة أن كل شيء مستحسن في الدنيا من ملابسها وجواهرها ويواقيتها وطيبها يزداد حسنا في المدينة على حسنه الذي كان له قبل ذلك لسر يدركه أهل البصائر بصفاء السرائر، وكيف لا وتلك حضرة مظهر أهل الجمال ومنبع الكمال، فما من جمال في الدنيا والآخرة إلا وهو مستمد بذلك الجمال، فكيف لا يزداد حسنا عند حصوله بمحل أصل الجمال لقربه من منبعه وقرب استمداده من مجمعه، فإذا كان بعد صلاة العصر من اليوم الحادي عشر أخذ القناديل الكبار والحسك العظام من الحجرة غالبها من النحاس المطلى بالذهب، فمن لم يعرف أصلها لا يظنها إلا ذهبا خالصا، وكل واحدة أعظم من قعدة الرحل العظيم، وصفت في صحن المسجد ووضعت فيه الشموع الغليظة الصافية اللون منها ما يزن نصف القنطار ومنها ما دون ذلك، وفي وسط تلك القناديل قنديل كبير من فضة خالصة زنته أكثر من قنطار، فيه خمس حسك كبار من فضة مدور الشكل، فيوضع في كل حسكة منه شمعة وتبسط البسط الرفيعة من جوانب القناديل من كل جهة لجلوس الأمراء وأرباب المراتب ولجلوس المنشدين، فإذا صليت المغرب أوقدت المصابيح كلها والشمع التي في صحن المسجد وأخذ الناس في الاجتماع وأوقدت أربع مشاعل كبار على أساطين معدة لذلك في صحن المسجد اثنان في مقدمه واثنان في مؤخره، فإذا صليت العشاء جلس الأمراء في الفراش المعدة لهم كل في مرتبته، وجلس الشعراء أمامهم والمنشدون، وضربت خيمة قريبة من باب النساء ووضعت فيها أنواع الأشربة الحلوة، فإذا امتلأ المسجد وغص بأهله وجلس كل واحد في موضعه قام المنشدون فينشدون من غرر القصائد في مدح النبي، صلى الله عليه وسلم، ما انتخبوه وأعدوه لذلك الموضع بألحان عجيبة وتراجيع متسقة، وبإزائهم جماعة يردون عليهم بأصوات حسنة، فيجيء السقاؤون بأنواع الأشربة الحلوة فيسقون الأمراء ثم المنشدين ومن معهم من أتباعهم[1]، ثم سائر الناس، ثم يؤتى بأنواع الرياحين والأزهار فتوضع بين أيديهم أضغاثا ثم تفرق أيضا على الحاضرين، ثم يؤتى بأطباق من اللوز والسكر وأنواع الحلاوي فتفرق أيضا وينثر ما بقي منها على عامة الناس، ولا يزالون كذلك حتى يمضي من الليل ما شاء الله، النصف أو

(1) ساقط من ط.

قريب منه، فينصرفون. وهذه الليلة من الليالي الغر المسترخص شراؤها بباقي العمر لولا ما شانها من كثرة النساء في المسجد وإكثارهن من الولاول، إلا أن أكثرهن في مؤخر المسجد من قبة الشمع وما حولها إلى آخر المسجد.

ومن عادة أهل المدينة أيضا في كل ليلة جمعة أن يجتمع الناس بعد صلاة العشاء في آخر أروقة المسجد النبوي الموالي لصحن المسجد، فيأتي جماعة من المنشدين فينشد كل واحد قصيدة أو قصيدتين بصوت رخيم وتطريب وتقسيم، والناس محدقون بهم، ولهم أتباع يردون عليهم مثل ما تقدم في ليلة المولد، إلا أنهم لا يحتفلون لذلك في ليلة الجمعة كاحتفالهم لليلة المولد ولا قريبا منه. ومن عادتهم أيضا في يوم الجمعة الخروج للبقيع ووضع الرياحين الكثيرة على القبور، خصوصا المشاهد المعلومة، فيكون عندها أضغاث من الرياحين[1]، ويؤتى به إلى الحجرة الشريفة أيضا ويلقى من طيقان الشبابيك إلى داخلها فلا يزال هنالك حتى يذبل ويذوى[2] فيخرج الناس في كناسة الحجرة ويقتسمها الأغوات بينهم مع باقي الشمع الذي يوقد داخل الحجرة، وما يتساقط من الطيب، فيجمعون ذلك يهدون منه لأصحابهم وللأكابر، ويبعثون منه إلى من يهاديهم من أهل الآفاق، وقد أنالونا من ذلك حصة، فجزاهم الله خيرا.

ومن عادتهم أيضا يوم الجمعة أن يكنس المسجد النبوي كله ويؤتى بأغطية من ديباج أسود مخوص بالذهب فتعلق على أبواب المسجد، ويؤتى برايتين سوداوتين من ديباج مخوص أيضا فيركزان عن يمين المنبر وشماله، وتكسى درج المنبر من أعلاه إلى أسفله ديباجا من ذلك النعت أيضا، ويعلق أيضا على أبواب الحجرة الشريفة، فإذا كان قبل الزوال بقريب من ساعتين طلع المؤذنون على المأذنة فيبتدئ مؤذن الرايسية بالذكر والصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، وقراءة آيات من القرآن، فإذا فرغ تلاه صاحب السليمانية على نحو من ذلك، ثم لا يزالون كذلك يتناوبون الذكر والصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، والتلاوة في المآذن كلها إلى أن يخرج الإمام بأثر الزوال يقتسمون الوقت بذلك، فإذا قرب دخول الإمام، قام أحد المؤذنين على سرير المؤذنين فينشد ما شاء الله، فإذا دخل الإمام ورقى المنبر أذن المؤذنون دفعة واحدة داخل المسجد على السرير الذي في

(1) في ط: الريحان.
(2) في ط: يزبل ويروى.

وسط المسجد، وكيفية آذانهم أنه يبتدئ رئيسهم فيقول: الله أكبر، فيقوله الآخرون بعده دفعة واحدة، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله مثنى، فيقولونه أيضا بعد فراغه منه دفعة واحدة وهلم جرا إلى آخر كلم الآذان. وأما الخطبة فهي كالإمامة موزعة بين فقهاء المدينة، لكل واحد مقدار معلوم من الأيام على قدر حصته التي يأخذها من جامكية الخطباء، فمنهم مقل ومكثر، وذلك إما بالوراثة من أسلافهم أو بالشراء من الولاة، وهو الغالب، فمنهم من تدور نوبته في كل شهر مرة، ومنهم من لا تصل إليه النوبة إلا مرة في السنة، ومنهم بين ذلك على حسب أنصبائهم في المال المأخوذ على ذلك. والحاصل أن المناصب الشرعية كلها في البلاد المشرقية، حجازا ومصرا وشاما، من إمامة وخطابة وأذان وإقامة وقضاء وفتوى وشهادة، بل ووقيد المساجد، إنما تنال بالشراء من الولاة، فإذا مات صاحب خطة أو عزل دفع الراغب فيها مالا للولاة فيولونه مكانه، على أي حال كان من صلاحيته لذلك أم لا، فعظم الخطب على المسلمين والإسلام في ذلك، خصوصا منصب القضاء فما رأينا ولا سمعنا في البلاد المشرقية كلها بقاض يقارب الحكم بما يشبه أن يكون شرعا، وإنما مدار أمرهم على الرشا جهارا، فينقض الحكم الواحد في اليوم الواحد مرارا متعددة بحسب كثرة الرشا وقلتها، والله المستعان على أن بعض أصحابنا ممن سيأتي ذكره عند ذكرنا من لقيناه بالمدينة، وهو الشيخ عبد الله باعفيف اليمني قد أثنى على قاضي المدينة لحينه، وهو القاضي مكي، ثناء حسنا، وزعم أنه متبع للحق جهده، وأنه من أصحاب شيخنا السيد محمد باعلوي اليمني المكي، وأنه هو الذي أمره بتولية خطة القضاء والبقاء فيها بعد إرادة التنصل عليها. وغالب الناس بالمدينة على خلاف مدعى صاحبنا هذا في هذا القاضي، والله أعلم بحقيقة أمره، بيد أن في سنة تسع وخمسين، وهو أول سنة حججت فيها، جاء إلى المدينة قاضي تركي من قبل القسطنطينية فأظهر فيها العدل غاية، وأقام الدين على الحق، وضرب على أيدي كثير من ولاة المدينة ومنعهم من كثير من الباطل والظلم الذي هم به متصفون، فثقلت وطأته عليهم واشتدت شكيمته على السلطان الأمير زيد بنفسه، حال بينه وبين كثير من مراداته التي على خلاف الديانة. وكان السلطان زيد قدم في تلك السنة إلى المدينة وأقام بها مدة فلم يزل يحتال على القاضي حتى اغتيل ليلة من الليالي، وكان يأتي إلى المسجد النبوي قرب صلاة الصبح راكبا يصلي في المسجد، فكمن له رجل قريب من باب المسجد فضربه بجنبيه فقطع بها أمعاءه ففر الضارب في ظلمة الليل، ولم يكن مع القاضي إلا قليل من خدامه، فأجرى فرسه

من ألم الضربة حتى أتى باب المسجد، بل قيل إنه دخل المسجد بفرسه حتى أتى وجاه الوجه الشريف فترل وأخذ بشباك الحجرة مستغيثا برسول الله، و لم يرسل يده من الشباك حتى قبضت روحه إلى رحمة الله، وفر الضارب و لم يدر أين توجه حتى سمع به في مكة أو جدة، فأظهر السلطان التأسف على موته، وأظهر التفتيش على الضارب، وزعم أنه لا علم له به، ولو علمه لنكل به وقتله، والخاصة من الناس لم يصدقوه في ذلك وعلموا أنه لا يقدر أحد على الجرأة إلا بإذنه، وأنه لا يخفى عليه فاعله لشدة حزمه وعظيم مكره وكثرة بهائه، حتى أنه لا يكاد يخفى عليه سارق شملة بأرض الحجاز كلها فكيف يخفى عليه مثل هذا؟، فيا لله أي قاض بعد هذا الشهيد، يقدر على إظهار الحق والقول به في هذه الديار وما شاكلها؟، وإلى الله المشتكى.

ومن عادة المدرسين بالمدينة أيضا تعطيل القراءة في المكاتب والتدريس يوم الثلاثاء ويوم الجمعة، ويقرؤون فيما سوى ذلك من الأيام خلاف عادتنا بالمغرب من التعطيل يوم الخميس والجمعة، فكنت أيام إقرائي بالحرم الشريف يكلفونني القراءة يوم الخميس فيشق ذلك علي لكونه خلاف المعتاد لدينا، ولخروجنا في ذلك اليوم إلى زيارة أحد وغيره من المشاهد، فطالبتهم كل المطالبة أن نعوض الخميس بالثلاثة فأبوا كل الإباية، فجريت على عادتهم كما قيل:

[سريع]

إن جئتَ أرضًا أهلُها كلهم ... عُور فغمضْ عينكَ الواحده[1]

ومن عادتهم أيضا بمكة والمدينة التهنئة بالشهر، أي شهر كان، خلاف المعتاد لدينا بالمغرب فإن التهنئة عندنا إنما تكون بالأعياد وماشاكلها، ولديهم لا بد من التهنئة في أول يوم من كل شهر، فيذهب كل واحد إلى من له عليه حق بولاية أو شيخوخة أو صحبة حتى يهنيه بالشهر في مترله، ولله در القائل:

[كامل]

إن الأهلةَ في السماءِ مناجل ... بطلوعِها تتحصدُ الأعمارُ

أبدا[1] يُهَني بعضُنا بعضا بها ... وطلوعُها بأفولنا إنذارُ

(1) ورد البيت بلا نسبة في كتاب: ألف باء 42:1.

ومن عادتهم في إقامة الصلوات الخمس بالحرم الشريف الصلاة في أول الوقت ما عدا الصبح للحنفي فيؤخره إلى قرب الإسفار، فيصلون الظهر أول ما تزول الشمس، وما يقيل غالب الناس إلا بعد الصلاة فيذهبون بعد الصلاة إلى منازلهم لنوم القائلة، وكان ذلك يشق علينا قبل اعتياده، فتكاد صلاة الظهر تفوتنا في المسجد لأنا لا نتأهب بها إلا بعد الأذان، وليس بين الأذان والصلاة قدر يسع التأهب، فمن لم يتأهب لصلاة قبل دخول الوقت فاتته الصلاة في الجماعة غالبا، وذلك خلاف السنة في تأخير صلاة الظهر للجماعة إلى ربع القامة، وأول من يصلي من الأئمة الشافعي ثم الحنفي، إلا في صلاة المغرب فيتقدم الحنفي لضيق وقته عنده كالمالكي، ولا يؤم بالمدينة من الأئمة سواهما من أرباب المذاهب إلا في الجمعة فيصلي صاحب النوبة على أي مذهب كان، فيتناوب الإمامان الصلاة في المحراب النبوي، فإن صلى أحدهما فيه صلى الآخر في المحراب الآخر الذي على يمين المنبر الشريف، وأما المحراب العثماني الذي في الصف الأول فلا يصلى فيه إلا في بعض أيام الموسم إن كثر الناس.

لطيفة:

ربما صلى بعض المالكية في بعض الأوقات بالناس لتعذر غيره ممن هو أهل أو إنابته له فيصلي على هيئة الشافعي من الابتداء بالبسملة وقبض اليدين ورفعهما للركوع والرفع منه، وفي أول كل ركعة وتثنية التسليم جهرا أو تأخير القنوت عن الركوع والجهر به، وكان بعض المالكية ينكر ذلك على فاعله فيقول: إما أن يصلي الصلاة على مذهبه أو يدع الإمامة. وكنت أنا أخفف الأمر في ذلك فأقول: قد علم من الشارع التحذير من الأمور التي توقع في المخالفة وتوغر الصدور، خصوصا في أمور الدين، فإذا فعل الإمام حيث اضطر إلى الائتمام به أمورا ينكرها المأموم له، فربما دخل في وعيد من أم قوما وهم له كارهون، وهذا حيث لا ضرر ليه في الفعل والترك بأن لا يكون المتروك واجبا، ولا المفعول مبطلا، كبعض المستحبات وخلاف الأولى، فيكون ذلك من باب تعارض مندوبين أو مكروهين اضطر إليهما فإن موافقة المأموم للإمام وعدم كراهيته له أمر مرغوب فيه مكروه

(1) في ط: فلما.

خلافه، خصوصا إن كان ذلك يؤدي إلى تخليط على المصلين فإن كثيرا من المأمومين عوام لا يفرقون بين مقتضيات المذاهب ولا يعرفون محل الخلاف، فربما انتظر القنوت وراء الإمام في المحل الذي يعرفه فيتركه أصلا، ومعلوم أن تأخيره إلى بعد الركوع أولى من تركه بدليل أن ناسيه يفعله في ذلك المحل، وكالسلام فربما انتظر التسليمة الثانية إذ بها الخروج من الصلاة عند بعضهم، فيؤديه ذلك إلى ترك السلام أو الفصل الكثير بين سلامه وسلام إمامه، وكل ذلك محذور كترك البسملة فإنها واجبة عند الشافعي تبطل الصلاة بتركها فربما سمعه المأموم ممن لا يعرف جواز ذلك في غير مذهبه، أو يظن إن إمامه ممن يرى وجوبها وأنه تركها عمدا، فيعتقد بطلان صلاته، فيكون مقتديا بمن يعتقد بطلان صلاته، فيسري البطلان إلى صلاته إن كان ممن يعتقد ارتباط صلاة المأموم بصلاة الإمام، إلى غير هذا من المفاسد والتخليط الذي يقع في الصلاة مع أن هذه الأمور التي عددنا كلها أولا ليس في فعلها أو تركها كبير ضرر في المذهب. أما البسملة فقد علم ما في المذهب من الخلاف في ذلك، وحكاية ابن رُشيد مع ابن دقيق العيد معلومة في النقل عن المازري، وهو من هو، إنه كان يفعله ويقول: أفعل ما لا تبطل الصلاة بفعله في مذهبي قولا واحدا، وتبطل بتركه في مذهب غيري قولا واحدا، وقد ذكره الشيخ زروق، رضي الله عنه، مثالا لورع المحققين في غير ما موضع، وهو اتقاء مواضع الخلاف، وقد حكي عن بعض أئمة الشافعية أنه اقتدى بمالكي فكان يقول له عند الدخول في الصلاة: أقسمت عليك إلا ما بسملت، فلما سمعه لم يبسمل، قال: نويت الصلاة على مذهب مالك، انظر ورع هذا السيد ودقيق نظره فإنه استسهل الاقتداء بمن يعتقد بطلان صلاته، وليس كل الناس يحسن ذلك، فلو أن الإمام بسمل لأنقذه من هذه الورطة، مع أنه لا كبير ضرر عليه في ذلك، غايته أنه أتى بخلاف الأولى في مشهور مذهبه.

وأما القبض فقد علم ما فيه من الخلاف في المذهب، وقد قال به أئمة محققون من أهل المذهب، كاللخمي وغيره، خصوصا إن علل بخشية اعتقاد الوجوب، فإن ما هذا سبيله من المكروهات لا يعبا به المحققون إذا صحت به الأحاديث، سيما مع انتفاء العلة كهذه المسألة، فلو اطرد ذلك لأدى إلى ترك السنن كلها أو غالبها المداوم عليها لأن المداومة عليها ذريعة إلى ذلك، وإنما قال الإمام، رضي الله عنه، بذلك في مسائل قليلة لعارض في الوقت اقتضى ذلك،

كقول بعض العوام في آخر السبت من شوال العيد الثاني، فرأى الإمام قطع هذه المفسدة أولى من المحافظة على هذا المندوب، فإذا انقطعت المفسدة وأمن من عودها فلا معنى لترك ما جاءت به الأحاديث الصحيحة إلا محض التقليد الذي لا زبدة له إذا مخض، ويسمُج[1] في السمع إطلاق الكراهة والمنع فيما صح عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه فعله أو أمر به ورغب فيه إلا لضرورة أسمج من ذلك، وقد رأيت كثيرا من المالكية يقبضون أيديهم في الصلاة وذلك لخفة الأمر فيه كما تقدم، ولكون السدل في البلاد المشرقية كلها شعار الروافض ولا يفعله من الأئمة إلا المالكية والعوام يعتقدون أنه لا يفعله إلا الرافضة، فمن رآه سادلا يديه في الصلاة قالوا إنه رافضي.

غريبة:

أخبرني شيخنا الملا إبراهيم أنَّ بعض الفقراء المالكية وصل إلى بعض أطراف الشام فدخل إلى قرية أهلها أهل سُنَّة وجماعة، فلما قام إلى الصلاة رأوه سادلاً يده فظنُّوا أنه رافضي، فقصدوا إذايته، فقال لهم: إني مالكي وتبرأ من الرفض، فقالوا له: كذبت إن المالكية لا يسدلون أيديهم فليس أحد من أهل السنة يقول بذلك، وإنما هو فعل الروافض، حتى ذهب معهم إلى فقيه البلد فسألوه فقال لهم: صدق إن المالكية يقولون بذلك، فإلا بلأي ما أنقذه من أيديهم، فانظر هذه الحيرة التي ألقى فيها هذا المسكين نفسه، فلو أنَّه إذا أفضت به الحال إلى هذه البلاد التي صار فيها مذهبه غريباً لا يعرف ترك ما يشين عرضه ويؤدي إلى حصول الضرر له في بدنه، مع أنه لا كبير ضرر عليه في دينه، لسلم وسلم غيره من إساءة الظن به، كيف وقد جوز الأئمة، رضي الله عنهم، ترك كثير من السنن التي صارت شعارا للمبتدعة، بل استحبوا تركها لأنا نهينا عن التشبه بأهل الأهواء والبدع، فكما كره بعضهم لبس الخاتم في هذه الأزمنة لكونه من شعار أهل المجون مع أنه سنة ثابتة قولاً وفعلاً، وكرهوا تطويل اللحية وإعفاءها فوق المعتاد لأنه شعار الوهبية كما قال الشيخ زروق، مع أن إعفاءها قد قيل بوجوبه. فليكن السدل أيضا كذلك

(1) يسمج: يقبح: لسان العرب: سمج.

مكروها في البلاد التي صار فيها شعار الروافض، مع أن خلافه الذي هو القبض ثابت أيضا في السنة قولاً وفعلاً لثبوت الأرسال أو أزيد.

وممن كان يقبض في صلواته كلها فرضاً ونفلا من المالكية شيخنا أبو مهدي عيسى الثعالبي، فكنت أرى أن السدل أولى به وبأمثاله ممن يقتدى ليراه عامي فيعلم أنه من فعل أهل السنة أيضا كالقبض، فتنتفي الريبة في حق العامي، فإذا رأوه هو وأمثاله من أئمة المالكية عوام أرباب المذاهب يقبض لم يصدقوا بعد ذلك من ادعى من عوام المالكية أنه في مذهبه واتهموه بالرفض وقالوا: قد رأينا أئمة المالكية يقبضون، فحقه هو أن لا يخالف رسوم المذهب في ورد ولا صدر لارتفاع الظنة والريبة في حقه لشهرته وعلمه، فيكون قدوة لغيره، وقد كنت أردت أن أشافهه بذلك فاستحييت.

لطيفة:

كنا أيام سماعنا للمعجم الصغير للطبراني على شيخنا الثعالبي بالحرم النبوي إذ مَرَّ بحديث فيه حجة لمذهب المالكية أشار إليَّ وإلى بعض فقهاء المالكية ممن كان يحضر المجلس فيقول: هذا حجة لكم، وإذا مر بما يخالف المذهب قال: هذا حجة عليكم، فلما جاء ذكر حديث: إنا معاشر الأنبياء أمرنا [بثلاث؛ بتعجيل الفطور وتأخير السحور و] بوضع اليمنى على اليسرى في الصلاة[1]. قال: هذا حجة عليكم، فقلت: لا حجة علينا في هذا، فإن ظاهر اللفظ الخصوص، ولا عموم فيه، فاستضعف جوابي وقال: وردت به أحاديث صحيحة عامة قولاً وفعلا، ومن أنصف علم أنه لا ضعف في الجواب لأني لم أنكر كون القبض ثابتا في السنة، وأنه له أصل، وإنما أنكرت إثباته بهذا الأصل بالخصوص وأن هذا الحديث بخصوصه لا يكون حجة على مالك في كراهية القبض، فلو لم يرد في القبض إلا هذا الحديث وحده لم يكن فيه حجة على منكر القبض، بل لساغ لقائل أن يقول بعدم جوازه لغير الأنبياء وأنه من الخصائص لظهور اللفظ في ذلك، كقوله: نحن معاشر الأنبياء

(1) المعجم الأوسط 3:238.

لا نورث[1]، ولكن كرهت مراجعة الشيخ بمثل ذلك في المجالس الحافلة الغاصة بأهلها، فأعرضت.

وأما الرفع في كل خفض ورفع فقد صحت الأحاديث به وثبتت الرواية به عن مالك، فقد روي عن أبي عمر بن عبد البر أنه كان يرجحه ويصحح روايته عن الإمام فقال له بعض أصحابه: ما يمنعك من فعله مع صحة الحديث به وثبوت الرواية فنقتدي بك في فعله. فقال: أكره مخالفة الأصحاب في أمر فيه سعة، فأنت ترى كراهيتهم رحمهم الله للمخالفة في الأمور التي فيها سعة، وقد كان شيخنا الثعالبي أيضا يفعله في الفرض والنفل، وكان حقه أيضا أن لا يفعل لما تقدم من كونه مُقتَدى به، ولكون هذا أيضاً من شعار الروافض، وزيادة أنهم لا يرفعون حتى مع تكبيرة الإحرام، وقد رأيت جماعة بالصفراء[2] يصلون في مسجد لهم فلم أرَ أحداً منهم يرفع يديه في تكبيرة الإحرام، بل يفتتحون الصلاة بالقراءة سادلين أيديهم، فعلمت أنهم روافض، وهم غالب أهل تلك القرى، وقد أطلعت شيخنا الثعالبي على كلام ابن عبد البر المتقدم في محله من شرح القباب لقواعد عياض[3]، فلم يلتفت إليه واستمر على رأيه في ذلك.

وقد رأيت بعض المشايخ يخالف ما جرى به العمل عند أهل المذهب إذا صَحَّت الأحاديث بخلافه، وهي وإن كانت قولة وردت عن الإمام كما صحت عن الشافعي أنه قال: إذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط[4]. بل قال بعض الأئمة إنَّ هذه القولة التي اشتهرت عن الشافعي، رضي الله عنه، وجعله أصحابه أصلاً من أصولهم حتى كثرت مخالفتهم لإمامهم في فروع كثيرة قد ورد عن الأئمة الأربعة، فالذي عند المحققين من أهل المذهب أنه لا ينبغي إظهار المخالفة ومصادمة نصوص المذهب في أمر له أصل في السنة، وإن لم يبلغ درجة غيره في الصحة فإن ذلك مما يؤثر الخلاف ويوقع في التشويش على الناس بذلك وحملهم على خلاف

---

(1) مسند الربيع 1:261.

(2) الصفراء: على لفظ تأنيث أصفر، قرية فوق ينبع كثيرة المزارع والنخل ماؤها عيون يجري فضلها إلى ينبع، وبين ينبع والمدينة ست مراحل، والصفراء على يوم من جبل رضوى: معجم ما استعجم 3:836.

(3) القباب: أبو العباس أحمد القباب، فقيه محقق، له شرح على قواعد عياض، توفي سنة 779 هـ: شرف الطالب، ص: 85.

(4) ميزان الاعتدال 6:220.

ما مضى عليه عمل الناس في الأعصار المتطاولة مما له أصل في السنة وفي كتاب سنن المهتدين[1] للمواق وما يكفي ويشفي من ذلك.

وأما القنوت بعد الركوع فأمره أخف من كل ما تقدم، مع ما يلزم من التخليط على المصلين الذين لم يألفوا ذلك إذا قدم، وقد كره الأئمة سجود التلاوة في صلاة الفريضة وأباحوا تركه خشية التخليط على المأمومين مع أنه سنة في الصلاة وغيرها، ولذلك قال ابن عرفة: إذا جرى العمل به كصبح يوم الجمعة في جامع الزيتونة بتونس[2] فلا ينبغي تركه، لأن تركه حينئذ يوقع في التخليط، فيظن من بعُد من المأمومين في ركوع الإمام أنه يسجد سجود التلاوة المعهودة، فيهوي إلى الأرض فلا يرجع حتى تفوته الركعة، فانظر كيف دار الأمر بين الاستحباب والكراهة مع الخوف من التخليط والأمن منه، فلا يبعد أن يقال: ينبغي للإمام أن يؤخر القنوت إذا خاف التخليط على المأمومين لجريان العمل بذلك.

وأما تثنية السلام فقد صحت به الأحاديث أيضا وثبت عن الإمام، رضي الله عنه، أنه كان يفعله إذا صلى وحده، وأما اختباره لنفسه في صلاته إلا وهو يراه صوابا، وفي تركه في البلد التي اعتيد فيها أيضا تخليط المأموم كما تقدم، ولا ضرر عليه في فعله لأنه بالتسليمة الأولى خرج من الصلاة، فأي ضرر عليه في ذكر تكلم به بعد الخروج من الصلاة فيه مصلحة لمن اقتدى به، وبمثل هذا أجاب بعض الأئمة على إنكار بعض العلماء لما جرى به العمل من التثويب بعد الآذان بقولهم: أصبح ولله الحمد، وبالصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، قبل الآذان للعشاء ليلة الجمعة فقال: أرأيت لو أنه بعد الفراغ من الآذان تكلم بكلام دنيوي أو ضحك أو فعل فعلاً من الأفعال أينكر عليه في ذلك، فكيف إذا تكلم بذكر من الأذكار بعد الفراغ من آذانه، والعلة في ذلك ما ثبت عن الإمام في أمثال ذلك من خشية الإدخال مما ليس من العبادة فيها، وإن كان عبادة في نفسه، وهذه العلة في الغالب منتفية في هذه الأزمنة لتقرر الدين ووضوحه، فلا تلتبس عبادة بأخرى ولا يخشى اعتقاد وجوب ما ليس بواجب إلا على ما صرف، فيسأل أهل الذكر إن كان لا يعلم، وقد أطلنا الكلام في هذه المسألة لكونها مما يحتاج إليها في تلك

(1) أنظر: سنن المهتدين في مقامات الدين، ص: 49.
(2) جامع الزيتونة: ابتدأ بتأسيسه حسان بن النعمان والي إفريقية والمغرب حوالي سنة 80 هـ، ثم أعاد بناءه عبد الله بن الحبحاب سنة 116 هـ: المساجد في الإسلام، ص: 558.

الديار، وليس هناك من يحققها مثل هذا التحقيق وللنظر فيها مع ذلك مجال، وستكون لنا عودة، إن شاء الله، إلى تحقيق هذه المطالب فقد كتبناها من غير مراجعة لأصول المسائل ولا مطالعة فروعها، وإنما كتبت ما سنح في الوقت ليكون عرضة للمتأمل في إبراز صوابه من خطئه وحقه من خطله، والله ولي التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل.

ومن عاداتهم في الصلاة على الجنائز إدخال الجنازة إلى الحرم الشريف، فيصلى عليها بالمسجد، ثم يمر بها أمام الوجه الشريف ويوقف وُقيفة، ثم يذهبون بها إلى محلها من البقيع أو غيره، إلا جنائز الروافض كالنخاولة، فإنه لا يدخل بها المسجد ولا يُؤتى بها للمواجهة، بل يأتي بها أصحابها خارج المسجد من ناحية الروضة ثم يرجعون، ولقد أحسن من سرّبهم[1] ذلك من الولاة، فحق من يبغض ضجيعي الرسول ورفيقيه في المحيا والممات أن يبعد حياً وميتاً.

ومن عاداتهم في الإملاكات أن يكون عقد النكاح بالمسجد، ولقد حضرت إملاك هندي قدم من مكة مع الشيخ عيسى في الرجبية وكان بينه وبين الشيخ صحبة، فأراد العقد لولده على ابنة رجل آخر من كبار تجار الهند، فلما كان وقت العقد ذهب بي الشيخ معه وكرهت خلاف أمره، وما كنت أحب حضور محافل أهل الدنيا المشوبة بأنواع من التصنيع والمباهاة خصوصاً في ذلك المحل الذي حق الإنسان فيه أن يخضع ويخشع، ويضع نفسه بالمحل الذي وضعها الله فيه من الذل والاحتقار، فجلس الشيخ مسنداً ظهره للمنبر النبوي وجلست بإزائه، وجلس أرباب المراتب من العلماء والخطباء وأكابر الناس صفين من المنبر إلى الحجرة الشريفة، صف مستقبل القبلة وصف مسند ظهره إلى جدار القبلة، وجلس عن يسار الشيخ كبير الخطباء بالمدينة الخطيب أحمد البري[2]، وبإزائه المتعاقدان والابن وأبو البنت، فشرع الخطبة وأطال وأجاد في الثناء عليهما إلى أن ذكر العقد وأشار إلى المتعاقدين، ورضيا بذلك، كل ذلك بلسان الذلق[3] وصوت جهوري، وذلك الذي أنكرته مع المبالغة في الثناء على المتعاقدين بما أكثره زورٌ وباطل بحضرة

---

(1) سربهم: أذهبهم وأمضاهم.
(2) أحمد بن عبد الله بن أبي اللطف البري الحنفي الخطيب المدني، من أعيان المدينة المنورة وعلمائها، ولد سنة 1010 هـ، وتوفي سنة 1092 هـ: خلاصة الأثر 1: 231.
(3) ذلق اللسان: حدته: لسان العرب: ذلق.

أشرف الخلق وفي روضة الجنة، فصغرت نفسي عندي وتضاءلت، ووددت أني لم أحضر ذلك المجلس، ولو كنت أعلم أن صورة المجلس على هذا الوجه ما حضرته.

ثم أُتي بأطباق الرياحين ووضعت بين الصفين، وأطباق من اللوز والسكر وفُرّق ذلك على الحاضرين، وقام المنشد فأنشد قصيدة أو قصيدتين في مدح النبي، صلّى الله عليه وسلّم، فافترق المجلس، وقام الحاضرون إلى المتعاقدين يهنوهما، فانسللت وكان ذلك ضحى وذهبت. وهذه صورة إملاك كل ذي وجاهة ورياسة من أمير أو تاجر أو صاحب خطة، وأما غيرهم فعلى حسب ما يتفق لهم.

فإذا كان ليلة الدخول أُتي بالرجل ومعه جماعة كبيرة من أصحابه وأقاربه، ومعهم الشمع حتى يوقف على باب المسجد بعد العشاء الآخرة، فيدخل ويسلّم على النبي، صلّى الله عليه وسلّم، ويدعو فيخرج، ثم يذهب به، كذلك يزفون إلى بيت المرأة في دار أهلها، عكس المعتاد في كثير من البلاد أن المرأة هي التي تُزَف إلى زوجها، وأن الدخول في بيت الزوج، وعند هؤلاء لما كانت العادة الدخول بالمرأة في بيت أهلها صار الزوج هو الذي يُزف، فإذا أصبح الزوج ذهب من بيت الزوجة إلى بيته، وأخذ في إطعام الناس طعام الوليمة، وجاء الناس لتهنئته، وفي الليلة المقبلة تأتي الزوجة من دار أهلها إلى دار الزوج، ولكل قطر عادة ولكل قوم سادة، وعادات السادات سادات العادات.

ومن عاداتهم في التعامل بيعا وشراء أنهم يسمون الأربعين مائديا صرفا، فيقولون عشرة أصرف وعشرين صرفا، يعنون كل أربعين قيراطا من قراريط الفضة المسكوكة يعد صرف كقولنا في المغرب مثقالاً، ويقولون للدينار من الذهب المسكوك شريفياً وسلطانياً، ويقولون للريال المسكوك من الفضة ريالاً وقرشاً. ويقولون للقيراط المسكوك مُحَلّقاً وللصاع الذي به التعامل ربْعيّاً، ولجزءيه ركيله، ويسمون الصروف المتقدمة إذا ذكرت مجموعة ذهباً فيقولون: عشرون ذهباً وثلاثون ذهباً يعنون عشرين صرفاً من غير قصد إرادة الذهب، إذ التعامل بالذهب إنما هو بالدنانير وأجزائها.

لطيفة:

قد وقعت بيني وبين بعض مدرسي المالكية مناظرة بسبب هذه المسألة، أعني تسمية الصرف بالذهب، وذلك أن بعض الموثقين كتب في معاملة بين شخصين: أربعين ذهباً أو ثلاثين ذهباً، يعني الصروف، فلما كان وقت الاقتضاء قال له: إني آتيك بالصروف التي هي العدة المذكورة من القراريط، قال له المدرس: لا يحل ذلك إلا مع المناجزة لأن هذا صرف مؤخر، فإن الذي في ذمتك هو الذهب، وأنت الآن تريد دفع الفضة عنه، فهو صرف ما في الذمة، ولا بدَّ فيه من صرف هنا، إذ المراد بلفظ الذهب هنا العدة المذكورة من الفضة باتفاق من المتعاملين وغيرهما من سائر الناس، حتى المدرس بنفسه لا ينازع في ذلك، والعبرة إنما هي بمدلول اللفظ المفهوم منه عند المتعاقدين لا بمدلوله لغة، فإن العرف الخاص نقل هذا اللفظ من مدلوله لغةً إلى مدلول آخر معروف في العرف الخاص لا ينازع فيه أحد من أهل البلد، فلو أرادوا مدلول الذهب لغة عنه باللفظ الدال عليه في عرفهم كما قدمنا ويفيد ذلك كون هذا المقدار من الفضة، وهو الأربعون قيراطاً، ليس في الذهب فرد يقابله من أفراد الذهب المسبوك الذي يقع به التعامل حتى يصار إلى أنه هو المراد، فلو قلنا إن المراد الذهب لغة لكان فيه جهالة، إذ لا يدري أهي أربعون ديناراً أو أنصاف الدينار أو أرباعه، ولأن كل ذلك لا يقابل الأربعين قيراطاً التي هي المرادة، فلو كان في التعامل ذهب مسكوك يروج رواج الأربعين قيراطاً لتوهم أنه المراد، وهذا غني بوضوحه عن الإيضاح. فلما بلغ ما قلت إلى ذلك المدرس لم يذعن للحق مع وضوحه، فطلب الاجتماع بي، وجاءني وأنا في المسجد فذكر ذلك لي، وذكرت له ما تقدم فلم يجد مدفعاً إلا أن قال: انظر ما تتقلد من ذلك فإني أخاف أن يكون ذلك ذريعة للناس إلى التعامل بالربا. فقلت له: إذا وضح الحق وتبين فلا يترك مخافة الوقوع في الباطل، فإن ذلك إنما يكون مع التباس الأمر واشتباهه فيحتاط الإنسان لدينه، فيترك ما لا بأس به حذراً مما به البأس، وأما بعد تمييز الباطل بصفته المعلومة شرعاً وتمييز الحق جانباً منه بوصفه المعروف حتى لا يخاف التباس الحق بالباطل، فلا معنى لترك الحق إذ ذلك لأجل توهم متوهم.

ثم انجرَّ بنا الكلام إلى مسألة صرف الريال بالمائدية؛ وهي القراريط المذكورة من دون وزن بل بالعدد، وقد جرى على ذلك عمل أهل الحجاز ومصر إلا القليل، وقليل ما هم، فقلت له: لو انضبط لهم مقدار معلوم من خمسين أو ستين

من القراريط تكون في وزنها قريباً من وزن الريال، لخرجت عن مسألة العتبية[1] من قول ابن القاسم في الدينار بعشرين قيراطاً من الذهب، إذ لا فرق بين الذهب والفضة في ذلك، فلمّا خفف في دينار واحد في مقابلة عشرين قيراطاً، فليكن كذلك درهم كبير من الفضة وهو الريال في مقابلة أجزاء كثيرة من الفضة، نحو الأربعين أو الخمسين أو الستين إذ لا عبرة بكثرة العدد وقلته مع اعتبار التفاوت اليسير في الوزن، وانفراد إحدى الجهتين بالواحدة. ولكن لما لم ينضبط العدد المدفوع فيه الريال، فتارة يكون خمسين وتارة إلى ستين، كان في ذلك مكايسة ظاهرة، وخرجت المسألة من بابها المعروف الذي سبب الرخصة مع الضرورة. فأبى من قبول ذلك ولو مع الانضباط حتى أطلعته على كلام شيخ مشايخنا سيدي العربي الفاسي[2] في مسألة الريال والرد فيه من دراهم وقته، أو المبادلة، وقد حقق ذلك كل التحقيق، فلمّا رآه، رجع إلى مثل قوله الأول، والجواب عنه ما قررنا أولاً. وقد نقلنا من كلام الشيخ المذكور ما لا بُدَّ منه في شرحنا لنظم بيوع ابن جماعة[3]، وهو الذي أطلعته عليه إذ لم يكن عندي إذ ذاك عين الرسالة التي ألفها في ذلك.

ثم جرى ذكر مسألة أخرى قريبة من ذلك وهي أن المشتري للزرع مثلا قد يريد دفع الريال الكامل في آصع منه فيقول المشتري: أشتري منك الزرع على أن تأخذ مني الريال بحساب خمسين قيراطا أو ستين لكل ريال على ما يتفقان عليه، فيأخذ الزرع منه مثلاً بعشرة قراريط للصاع أو أقل أو أكثر، فيدفع له الريال على حسب ما تراضوا عليه أولا، فأفتى المدرس المذكور بعدم جواز ذلك قائلاً: إن البيع وقع بالقراريط فلا يجوز دفع الريال الكامل عنه لأنه مراطلة ما في الذمة وهي لا تجوز لعدم تحقق المماثلة، وهي شبه المسألة التي قبلها المرخص فيها في العتبية إذا استوفيت شروطها، لأنه إن ساغ دفع الريال في خمسين قيراطا يدا بيد بلا مراطلة ساغ دفعه في خمسين مترتبة في الذمة لأن المناجزة حاصلة في كلتا الصورتين، فإن ما في الذمة حاضر، وأما ما يسير التفاوت الذي عسى أن يقع فهو مغتفر للضرورة

(1) العتبية: منسوبة إلى مصنفها فقيه الأندلس محمد بن احمد بن عبد العزيز العتبي القرطبي المتوفى سنة 254 هـ،وهو مسائل في مذهب الإمام مالك: كشف الظنون 2: 1124.
(2) تقدمت ترجمته.
(3) يقصد: إرشاد المنتسب إلى فهم معونة المكتسب: شرح لمعونة المكتسب وبغية التاجر المحتسب، وهو نظم في 370 بيتا نظم فيه بيوع ابن جماعة التونسي، وتحتفظ الخزانة العامة بالرباط بنسختين منه تحت رقم: 1236د، و1479د: أنظر: إتحاف الأخلاء، ص: 61.

ولكون ذلك معروفا، والذي رأى أن هذه المسألة ليست من المراطلة ولا المبادلة في شيء فهي جائزة على كل حال لأن الذي وقع عليه العقد أولاً هو الريال الكامل لكون الدافع اشترط دفعه والآخذ رضي بأخذه، وبه وقع القضاء آخرا، فالـــذي وقع عليه العقد هو الذي وقع به الاقتضاء،، وذكر القراريط فيما بين ذلك إنما هو لبيان المقدار المبيع من الآصع إذ العرف بيع الأصع بالقراريط، فهو بمنزلة ما لـــو قال: أشتري منك من الآصع بالريال ما كان يباع بكذا وكذا قيراطاً، والقدر المبيع من الأصع بالعدة المذكورة من القراريط معلوم للبائع والمشتري، فلو كان الزرع مثلاً يباع بعشرة قراريط للصاع فقال المشتري للبائع: آخذ منك خمـــسة آصـــع وأدفع لك ريالاً كاملاً بحساب خمسين قيراطاً للريال، فقد علم البائع والمشتري من أول وهلة الريال مدفوع في خمسة آصع من الطعام لا في خمسين قيراطا مترتبة في الذمة، فلو امتنع البائع من أخذ الريال بعد ذلك لم يجبر المشتري على دفع القراريط إذ ليست معقودا عليها ولا يجبر المشتري إلا على دفع ما وقع عليه العقد، فليتأمل المنصف.

ومما أفتى به ذلك المدرس أيضاً أن المواعدة في الـــصرف إذا وقعـــت بـــين مصطرفين فلا يحل لأحدهما الصرف من الآخر بعد ذلك ولو فسخا عقد العـــدة وأنشئا عقدا آخر، وخالفته في ذلك فقلت: إنما الحرام هو نفس المواعدة لكونـــه ذريعة إلى الصرف المستاخر، فإن اصطرفا بعد ذلك وهما على ذلك الوعد وتقابضا تماماً للوعد المتقدم فهو حرام أيضاً لأنه مبني على حرام وناشئ عنه، وإن افترقا بعد المواعدة والعلم بتحريمها وألغياها فأتى أحدهما بنقده إلى الآخر وقال له: إن مـــا فعلنا من المواعدة حرام وقد ألغيناها فإن شئت الآن أصارفك علي ما نتراضى عليه الآن فعلت، ثم تراضيا على الصرف بحضور النقدين وأنشأا عقداً آخر فلا بـــأس بذلك، ولو قيل فيه بالكراهة إن قرب زمان المصرف من زمان الهبة لاتهامهما على القصد إلى الإيفاء بالوعد لم يبعد، وهذه المسألة قريبة من مسألة المواعدة بالنكاح في العدة، والعقد بعد الخروج من العدة، فلو رجعا عن تلك المواعدة وألغياها بعد الخروج من العدة وتابا مما صدر منهما من المواعدة لم يمتنع إنشاء عقد آخر عليها بعد الخروج من العدة، فلو امتنع ذلك لكانت مؤبدة التحريم ولا قائل به، بل لو عقد عليها في العدة ففسخه الحاكم قبل المسيس لم يمتنع العقد عليها بعد الخروج من العدة، فلا يكون العقد المحقق الوقوع أخف من المواعدة في الصرف، وعد في

وقت لا يحل فيه العقد لغيبة النقدين وأحدهما بإيقاعه في وقت يحل، وهو وقت حضورهما كمواعدة النكاح فإنها وعد في وقت لا يحل فيه النكاح للعدة بإيقاعه في وقت يحل، فإذا ألغى المصطرفان العدة وأنشآ عقدا حيث يحل لهما، فهو بمنزلة إنشاء عقد النكاح بعد الخروج من العدة، فيكره إن اتهما بقصد الوفاء بالوعد، بل لو عقد المصطرفان عقد الصرف في غيبة النقدين بحكم الحاكم بفسخه، فلهما إنشاء عقد آخر عند حضور النقدين، وحينئذ يقال: لِم قيل بالكراهة في تزويج المواعدة في العدة إذا تزوجها خارج العدة و لم يقولوا بالكراهة في المعقود عليها في العدة فيفسخ العقد، فإن شاء تزوجها بعد العدة فله ذلك من دون كراهة، مع أن العقد أشد من الوعد بالعقد كما ذكرتم أولاً؟ فيقال: لعل العقد، وإن كان أشد، فقد عرض له من الفسخ ما صير الموجود منه كالمعدوم لأن حكم الحاكم بالفسخ يصير العقد كأن لم يكن، وتقع به المفاصلة الكلية بين المتعاقدين حتى لا طمع لأحدهما في الآخر، فإذا أنشأا عقداً آخر علم أنه لا علقة ولا وصلة بينه وبين العقد المحظور، بخلاف العاقد بعد العدة والعدة فإنه لم يتخلل بين الوعد والعقد فسخ يفصل أحدهما من الآخر لأن الفسخ إنما يعتمد العقود، ولا عقد هنا، فيتهمان على البقاء على حكم الوعد المتقدم حتى يقع الطول الدال عادة على إلغائها، وهذا فرق لائح، والله أعلم.

ولتحرر هذه المطالب المتقدمة المتعلقة بالصرف بتأمل صادق ومراجعة كتب الفروع فإني كتبتها استعجالاً، وستكون لنا عودة، إن شاء الله، إلى تحريرها بعد الفراغ من تسويد الرحلة.

ومن عادتهم في الشراء من الأعراب الذين يجلبون اللبن والجبن والسمن والغنم أن يشتري منهم قوم من الأعراب الساكنون بالمدينة وأطرافها، ولهم اسم يختصون به، كالبرغازين[1] عندنا بالمغرب، فيدخلونه الأسواق ويشتري منهم أهل المدينة، وهذا من تلقي السلع المنهي عنه، ولكنهم قد ألفوا ذلك واستمرت عليه عادتهم وألف ذلك القادمون أيضا لو أن أحدا من أهل المدينة أراد أن يشتري منهم لم يبيعوه إلا بأضعاف ما يشتري به البرغازون، فإذا جاء البرغازون أخذوه منهم بأقل من ذلك، ويركنون إليهم ويميلون إلى قولهم ويعرفون كيفية المساومة معهم فلا يعتاصون عليهم لقرب الشكل من الشكل، وغيرهم ليس بتلك المثابة، فلا

(1) يقصد السماسرة والوسطاء.

يكاد أحد يشتري منهم لجفائهم وغلظ طباعهم، فاستسهل الشراء من البرغازين بربح قليل زيادة على ما اشتروا به من الأعراب، ولقد شاهدنا في أيام المواسم بالحرمين العجب مما يباع فيهما من الهشيم اليبس وكثرته مع غلاء الأسعار، فيدخل السوق من الأحمال ما يقرب من الألف في كل يوم فلا يمسي شيء من ذلك، وشاهدنا حمل جمل يباع بدينار ذهباً، وأخبرت أن العرب يستعدون لذلك من أول السنة فيحصدونه في البادية إبان الربيع وييبسونه وينقلونه إلى قرب الأمصار حتى تأتي الركبان فيجتمع لهم من ذلك ما يقوم بكفاية سنتهم.

ومن عادتهم في أكرية الرواحل من القوافل الذاهبة إلى مكة والينبع، أنّ بالمدينة رجالاً يعرفهم غالب الحمالين، فمن احتاج الكراء من أرباب الدواب أو أرباب السلع أتى إليهم، فيعقدون له الكراء مع صاحبه، ويتكفلون بما عسى أن يصدر من الجمّال من غدر في الطريق بهروب أو مكر، ويسمى أحد هؤلاء المُخَرِّج، فلا يعقد أمر كراء إلا بحضرة أحدهم. وجلوسهم في الغالب بباب المصري، ويأخذون بذلك حلاوة من الجمال ومن المكري، وذلك دأبهم بمكّة أيضاً.

وقد كانت الأسعار، أيام مجيئنا المدينة، شديدة، فكان القمح ثلاثة آصع بريال، والصاع عندهم يقرب من ثلاثة آصع بصاع الزعوة، وأما التمر فنحو أربعة آصع بالريال، والشعير ليس بينه وبين القمح إلا يسير تفاوت، خلاف المعهود في غالب البلاد، والعسل اشتريت رطلاً منه للدواء بقريب من ثلث الريال، والسمن دون ذلك، وأما الفواكه فكانت في أيامها ووسط إبّانها العنب بثلاثة مائدية للرطل، وقد رأيت رمانة في آخر الإبان بيعت بخمس مائدية. وفواكه المدينة مع غلائها في غاية الجودة خصوصاً عنبها ورطبها.

وأما الخضر فأكثرها وجوداً الجزر والباقلا[1] والملوخية والبامية والبصل واللفت، والخضر البريّة ليس فيها إلا الخبيز، ولا يأكل أحد في تلك البلاد السمن القديم والشحم الغوي[2] إلا أضر به ما لم يكن حديث عهد بالبلد، فإذا طالت إقامته في البلد تطبع بطبعهم وطبع ذلك البلد المشرق وهواؤه قلما يوافق أحدا من أهل مغربنا الأقصى ممن بلده ريف ذات مياه وخصب، وإنما يوافق أمزجة أهل

(1) الباقلاء: الفول: لسان العرب: بقل.
(2) الغوي: الفاسد: لسان العرب: غوي.

الصحراء كتوات وتجيورارن وأهل السودان، وذلك، والله أعلم، لفرط حرارة بلاد هؤلاء، فقلما رأيت أحدهم مريضا في تلك البلد إلا مرضا خفيفا، وقلّما رأيت أحداً ممن بلده كبلادنا ريف وخصب إلا وقد ألط[1] به المرض إلا القليل ممن طالت إقامته جدا في البلد وتطبع بطبع أهلها.

لطيفة:

لما قرب زمان انقضاء الحر، وأقبلت هوادي زمن البرد، وظهرت البرودة في الهواء صباحاً ومساءً، أخذ أهل البلد يدثرون أبدانهم في الثياب الكثيفة التي تلبس في أيام البرد الشديد، وكنا نحن لألفتنا لشدة البرد في بلادنا نتلقاه بأبداننا ونعري له أطرافنا، فرحنا بقدومه لما قاسيناه من شدة الحر الذي لم نعهد مثله في قطرنا، فكان الناس ينهوننا عن ذلك ولا ننتهي، ويقولون: ليس هواء هذه البلدة وبردها كالذي تعهدون، إن البرد في أول إبانه يسرع فساداً في الأمزجة، وهو أضرُّ من البرد الشديد الذي يكون في وسط الشتاء، ويقولون: إن الناس يلبسون من غليظ الثياب في آخر الخريف ما لا يلبسون في صميم الشتاء وشديد الزمهرير. فكنا لا نلتفت لذلك ثقة بما نعهده في أنفسنا في بلادنا من الصبر على بردها الذي لا يكون برد هذه البلدة بالنسبة إليه إلا كنسبة زمان الاعتدال لزماني الحرّ والبرد، فكان ذلك، مع قدر الله تعالى، هو السبب في حصول المرض المتطاول بنا وبكل أصحابنا، ولقد صدقوا فيما قالوا، ويشهد له قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: توقوا البرد في أول إبانه، وتلقوه في آخر أوانه، فإنه يفعل بالأبدان ما يفعل بالأشجار، فأوله محرق، وآخره مورق، هـ. ولم أكن رأيت هذا الكلام إذ ذاك وإنما اطلعت عليه بعد ذلك في كتاب ربيع الأبرار للزمخشري، ولو اطلعت عليه لم أعده، خصوصاً في تلك البلد، فإن بدن الإنسان يكون مشتعلاً حرارة ويبسا لغلبة الحرّ، فإذا فاجأ البردُ البدنَ في تلك الحرارة أضرَّ به، بخلاف البرد الذي يجيء في آخر الإبّان فإنه يصادف نحو البدن وقد سكنت حرارته، والله أعلم.

(1) ألط: لط يلط: لزق: لسان العرب: لط.

ولم تزل الأسعار على ما تقدم من الغلاء إلى أن هجم الشتاء وقرب زمان الربيع، أرخت السماء عَزالِيَها[1] بالأمطار الغزيرة المتوالية، وسالت الأودية، ولم يأت أحد من ناحية إلا حدّث بالجود، فلانت الأسعار وكثر اللبن والجبن في الأسواق، وكان الجبن أول ما بدأ يباع بثمانية مائدية للرطل، فلم تمضِ إلا مدة يسيرة حتى صار يباع بمائديين، وكثر اللحم السمين، وكان قبل ذلك هزيلاً جداً، ومع هزاله قلّ ما يوجد.

ولأهل المدينة ولوع وغرام شديد بأكل اللحم، زاعمين أنهم يستضرُّون بتركه لحرارة أبدانهم ويبسها، فيحصل لهم الترطيب به، فإذا أكلوا غيره حصل لهم يبس في الطبيعة، حتى إن من نسائهم من لا يطبخ غداءً ولا عشاءً إلا أن يكون لحما، ويقلن: نحن لا نعرف الطبخ بلا لحم، ولو أدى ذلك إلى بقائهم بلا عشاء ولا غداء. وقد أخبرني بعض أصحابنا أن من أهل المدينة من يشتري العبد فلا يكون له شغل إلا شراء اللحم، فيدور عليه في المدينة وأسواقها وفي العوالي وقباء، في زمن قلته، فلا يرجع إلى سيده حتى يحصله، أو يدور المدينة ونواحيها كلها، فإذا حصله كان ذلك شغله في ذلك اليوم، ولا يستعمله في غيره، لأنه إنما تملكه بقصد ذلك.

وأهل المدينة، زادهم الله خيراً ووسع عليهم، أهل رفاهية وتوسع في المعيشة في زماننا هذا، وتغال في الملابس الفاخرة، وتزيّوا بزي الأعاجم في مآكلهم ومشاربهم وملابسهم، لكثرة سكنى الأعاجم بها، فإن بها طائفة كبيرة من عسكر الترك زاعمين أنهم معدون لحراستها، وفي الحقيقة إنما يأكلون مال السلطان في غير شيء، فلا يغيثون ملهوفاً ولا يردعون ظالماً. وبها من الأعاجم أقوام كثيرون من الأكراد والترك وأطراف الشام، يشترون الحصص والجامكية، فيجلسون بالمدينة ويرتزقون بما يأتيهم من ذلك على حالهم التي كانوا عليها في بلادهم من التوسعة، فاقتدى بهم غالب أهل المدينة من أقويائها.

وقد كانت المدينة في الزمان المتقدم معروفة بالقناعة حتى قال مالك، رضي الله عنه، في الكفارة والنفقات بالتفاوت بين المدينة وغيرها لقناعتها، فآل الأمر في هذا الزمان إلى خلاف ذلك فصاروا أرفه الناس عيشاً، وأكثرهم في المآكل

---

(1) أرخت السماء عزاليَها: كثر مطرها: لسان العرب: عزل.

والملابس إسرافاً، أعني الكبراء منهم، وأما الفقراء وغالب المجاورين – خصوصاً المغاربة – فهم على حالهم من الفقر والمسكنة.

ولقد أُخبرت أن للنساء عليهم عادة يسمونها الشخشخة، وهو ما تشتري به المرأة ما تشتهيه من الأزهار، فربما بلغ ذلك ريالاً في كل يوم، ولقد سألت شيخنا الثعالبي عن سبب إيثاره سكنى مكة على المدينة، مع أنا نقول بفضل المدينة على مكة، فقال: إنَّ أهل هذه المدينة قد تحضروا وغلب عليهم طبع الأعاجم ورفاهيتهم وإسرافهم، وتشبهوا بهم في ملبسهم وفي غالب أحوالهم، وأنا امرؤ مسكين فقير أخاف أن ينشأ أولادي وأزواجي ويتطبعوا بطبعهم في ذلك، بخلاف أهل مكة فإنهم لم يزالوا على أعرابيتهم واستعمال البداوة وعدم المبالاة والاعتناء في الملبس والمأكل، قد غلبت عليهم البداوة، وكثرة مخالطتهم لأهل البادية وسكناهم بها حتى أمراؤها من الأشراف، فإن غالب سكناهم بالبادية، وإن كانت لهم منازل بمكة، ومن ولد له مولود منهم استرضع له من العرب بالبادية، فلا يأت به حتى يقارب الحلم، ولباس الملك وأولاده وبني عمه، وإن كان في غاية الرفعة واللطافة فإنه على زي لباس العرب في تعممهم وتقمصهم، فيلبسون العمائم القصار ذوات الأهداب الطويلة ويرسلون لها العذبة إلى قريب من ذراع، ويلبسون الدشوت الرفيعة إلا أنها على هيئة دشوت الأعراب، ولا يلبسون الجوخ التي تلبسها العجم ولا الأقبية التي هي على زيهم، ويلبسون النعال ذات السيور التي على ظهر القدم دون السرموجة[1] التي تلبسها الأعاجم. وعلى كل حال فأهل مكة قد غلبت البداوة على جميع شؤونهم وظهرت فيهم دون أهل المدينة، ولذلك قل سكنى الأعاجم بها، إلا القليل، لأنها وطن السلطان وأولاده وأقاربه، ونفوسهم لا تنقاد للذل وجريان الأحكام عليها في كل ورد وصدر، فيشمئزون من سكنى مكة ويميلون إلى المدينة لكون عسكر الترك بها وهم جنسهم وأحكام السلطان، وإن كانت نافذة هناك أيضاً، لكنها بعيدة منهم فليست كمحل وطنه. أخبرني بهذا من سبر حال البلدين وعلمه زيادة على ما رأيته أنا من ذلك.

ولما كان في أواخر جمادى الثانية كثرت الأمطار بالمدينة وما حولها، وسالت أودية المدينة سيولاً متعددة كما قدمنا ذلك عند ذكر الأودية، وبينما نحن ذات يوم بالمدينة بعدما صلي الظهر أرخت السماء عزاليها وأمطرت مطراً وابلاً سحا كأنه

---

(1) السرموجة: نوع من الأحذية.

طوفان، وفي أقل من ساعة صار صحن المسجد كله كالبركة العظيمة من ماء الميازيب وماء المطر، فضاقت عنه البلاليع المتخذة لسلوكه في صحن المسجد، وكان ببعضها بعض اختناق فلم يرع الناس إلا اندفاق الماء إلى داخل المسجد وأتى على الزرابي المبثوثة والحصر، فبجد واجتهاد تصايح الناس ممن كان بقرب المسجد، وجمعت البسط والزرابي بعدما ابتل أكثرها، وصار الماء إلى المنبر والمحراب النبوي ووصل إلى الصف الأول، فصار المسجد من داخله بركة ماء، فما جاء العصر وأحد يجد مكان مصلي في المسجد سالما من الماء، فصلى الإمام العصر في تكة الخدام مع طائفة من الناس، وصلى باقي الناس في أروقة الصحن الشرقية والغربية، فاجتمع الناس لإخراج الماء من المسجد بالأسطال والأواني الكبار، فجد في ذلك من رغب في الجد، وكانت لنا سطلة كبيرة من نحاس فأتينا بها وبواحد من أصحابنا يستقي بها اغتناما لبركة الخدمة في تلك البقعة المطهرة، وكنت إذ ذاك فضلة مرض لم أقدر على مزاولة شيء من أعمال الخدمة باليد، ولكني وقفت ورغبت الناس في العمل، وعمل في ذلك جماعة من أصحابنا المغاربة أعمالا حسنة، وما فرغ الناس من إخراج الماء إلى قرب المغرب، فبات المسجد على حاله غير مفرش، وفي الغد بولغ في تنظيفه وغسله وكنسه، وأخبرنا ناس من أصحابنا الذين طالت إقامتهم بالحرمين أنهم ما شاهدوا وقوع مثل ذلك ولا سمعوا به فيما مضى، ويشهد لعدم وقوعه أنه لو وقع لاحتيل في فعل ساتر بينه وبين الصحن ووقاية تدفع الماء وتمنعه من الدخول كما وقع ذلك بإثر هذه الحادثة فإن شيخ الحرم أمر باتخاذ أحجار منحوتة محكمة الإتقان قدر ذراع في الطول مثبت أسافلها في أرض المسجد فيما بين كل أسطوانتين من الأساطين الموالية للصحن يمنع ذلك من دخول الماء إلى المسجد ولو اجتمع في الصحن إلا أن يكثر جدا ويرتفع فوق الأحجار، وذلك نادر أن يقع، ولو وقع لكان رجوعه إلى الخروج من باب الرحمة وباب جبريل أقرب من دخوله إلى المسجد، ولقد أجاد شيخ الحرم في وضع هذا الحاجز وفي تنقية البلاليع التي في صحن المسجد، وشيخ الحرم وهو كبير العبيد الأغوات الموقوفين على خدمة المسجد والحجرة الشريفة، والآغا بلغتهم كناية عن الخصيّ من العبيد، واختاروا وقف الخصيّ دون غيره لكونه أطهر وأنزه وأكثر فراغاً من الاشتغال، إذ لا أهل له ولا ولد يشتغل بهم، وهو أبعد من دنس الجنابة ومباشرة النساء، وهم عدد كثير قريب من الثمانين، يزيدون وينقصون بحسب كثرة الراغبين في الوقف وقلّتهم، والأربعون منهم هم الكبار الذين يأتي رزقهم

ومؤونتهم من بيت المال، وما زاد على ذلك إنما يرزقون من الأوقاف الـــتي لهـــم بالمدينة، أو مما يأتيهم من الهدايا والصدقات من أقطار الأرض، ويسمى ما سوى الأربعين البطالين، لأنهم إنما يستعملون في الأشغال التي هـــي خـــارج الحجـــرة والمسجد النبوي من الأعمال الممتهنة، ولا يجلسون مع الأكابر في الدكـــة، إنمـــا يجلسون خارجها، ولهم ضبط وسياسة كسياسة الملوك، فلكل واحد منهم رتبـــة معلومة وشغل معلوم. فإذا مرَّ بالأصاغر أحد الأكابر قاموا كلهم، وكذلك الأكابر فيما بينهم، فأكبرهم شيخ الحرم وهو يتجدد في الغالب إما في سنة أو ســـنتين أو أكثر، ولا يأتي إلا من دار السلطان من عبيده، ويليه النقيب، ويليه المستشار، وهو الذي يتولى قبض الصدقات وما يهدى لهم أو للحجرة، وبيده مفـــاتيح الحجـــرة وحواصل الزيت والشمع، والحاصل أن جميع ما يتصرف فيه الأغوات ومـــصالح المسجد ومن أوقافهم كل ذلك بيده، فإذا مات أحد من الأربعين دخـــل أحـــد البطالين في موضعه، وهو من كان شيخ البطالين والترتيب في ذلك بالتقدم، فمن تقدم مجيئه يقدم على من تأخر مجيئه، وليس فيهم شافعي ولا حنبلي، بل كلـــهم حنفية ومالكية على مذهب ساداتهم الذين أوقفوهم، وذلك لأن الشافعية والحنابلة لا يرون صحة وقف الحيوان.

ومن أوقف عبداً من الأغوات على الحجرة نسب إليه، سواء كان من التجار أو من الأمراء أو العلماء، فيقال: آغا فلان، وقد كان كبيرهم المستـــسلم أيـــام مجاورتنا الأغا يحيى، وهو من أوقاف الشيخ الصالح الحاج الأبر سيدي أبي حفص بن الشيخ عبد القادر بن بوسماحة المغربي من ناحية فِجيج، وتوفي الأغا يحيى بعد خروجنا من المدينة ونحن بمكّة، وتولّى مكانه الآغا مصطفي وهو مالكي أيـــضاً. وكلاهما كان يبالغ في تعظيمنا والإحسان إلينا، فجزاهما الله خيرا، وكل الأغوات أهل خير وبركة قد اختارهم الله لخدمة أشرف البقاع وشرّفهم بالنسبة إلى أشرف الخلق، صلى الله عليه وسلم، ولقد شاهدت منهم أناسا على قدم صدقٍ في العبادة منهم الأغا عبد النبي، وهو شيخ البطالين إذ ذاك، والأغا عنبر منهم أيضاً، ولقـــد اعتكفت ليلة في المسجد فلم يبت فيه أحد غير سوى الأغوات، فاجتهـــدت أن أساويه في القيام والصلاة فما قدرت، والفضل بيد الله.

والأغوات كلهم يبيتون في المسجد ما عدا شيخ الحـــرم والنقيـــب، وأمـــا الآخرون فلا يبيت واحد منهم بداره إلا لعذر بيّن من مرض أو نحوه، ولكنـــهم،

جزاهم الله خيراً عن تعظيم المكان وتوقيره وتبجيله، وعادتهم كل ليلة، إذا فرغ الناس من صلاة العشاء ورواتبها، قاموا بيدهم الفوانيس الكبار مشعلة، ليخرجوا الناس من المسجد، فيأتون إلى المواجهة والصف الأول فيقف بعضهم أول الصف ووسطه وآخره، فيخرجون كل من فيه، فإذا لم يبقَ أحد في ذلك الصف، تكلموا بكلمة ذكر رافعين أصواتهم بها، فينتقلون إلى الصف الذي يليه، ثم كذلك حتى لا يبقى في المسجد أحد إلا هم، فيغلقون الأبواب ويطفئون المصابيح كلها إلا التي في مواجهة الوجه الشريف والتي في داخل الحجرة، فيخرجون من المسجد إلى الصحن وإلى الأروقة التي بجانبه، فيخرجون فرشهم من الحواصل، وينامون هناك، ولا ينام أحد منهم في المسجد، بل ولا يأتيه إلا من قصد منهم الصلاة، وغالب نوم الصغار منهم في مؤخر المسجد. ومن وراء المسجد، في الناحية الشامية، ميضأة كبيرة فيها بئر كبيرة وأخلية، وفتح لها باب إلى مؤخر المسجد ولا تفتح إلا ليلا بعد غلق الأبواب، وتسرج فيها المصابيح لوضوء الأغوات وإزالة حقنة من احتاج إلى ذلك بليل، فإذا غلقت الأبواب هدأت الأصوات منهم وخشعوا، فلا تكاد تسمع من أحد منهم كلمة، فمن احتاج منهم إلى أحد كلمه الآخر السِّرار[1]. ولقد رأيتهم يبالغون في خفض أصواتهم بالليل، حتى بالسعال والعطاس، وتنزل عليهم السكينة، وتلحقهم هيبة المكان، وليس ذلك منهم بمجرد استعمال، بل لما يخالط قلوبهم من هيبة المكان. ولقد أخبروني أنه لا يقدر أحد منهم بليل أن يصل إلى الروضة وأطراف الحجرة والمواجهة إلا الأفراد منهم، وأنهم يسمعون بالليل قعقعة السقوف وفرقعة الشبابيك، حتى يظن أن أحد أبواب الحجرة فتح، وأن بعض السقوف وقع، فلا يجدون شيئاً من ذلك، والله أعلم، لتنزل ملائكة الرحمة على قبره، صلّى الله عليه وسلّم، أو قدوم بعض رجال الغيب للزيارة، ويظهر ذلك بالليل لهدوء الأصوات به وخلو المكان، وإن كان تنزل الملائكة على قبره، صلى الله عليه وسلم، وغشيان الرحمة له لا ينقطع ليلاً ولا نهاراً، ولقد شاهدت من الهيبة والعظمة في إحدى الليالي التي بتها في المسجد ما أعجز عن وصفه، ولقد كنت أجهد إذا عسعس الليل أن أصل إلى المواجهة وأقف للتسليم والدعاء فما أصل إلى ذلك حتى تكاد أوصالي تتقطع هيبة، فإذا وصلت وسلمت وأردت إطالة الوقوف للدعاء كما كنت أفعل نهاراً فلا أقدر، فأخفف السلام والدعاء وأرجع، ولقد

(1) السرار: مصدر ساررت الرجل سرارا: لسان العرب: سرر.

سمعت بعض ما ذكر من فرقعة السقف وما أشبه ذلك فملئت منه رعبا إلا أني كنت أشتغل عنه وأتلهى عن سماعه بقراءة القرآن سرا، فيا لها من ليلة هي نتيجة عمري وفريدة أيامي، فلئن كانت ليلة القدر كألف شهر فهذه الليلة عندي كألف ليلة القدر، اللهم لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، فلك الحمد على جزيل عطائك ولك الشكر على سوابغ آلائك.

فإذا كان بعد الثلث الآخر من الليل جاء رئيس المؤذنين، ففتحوا له وصعد إلى المئذنة الرايسية، وأذن وشرع في الدعاء والذكر والصلاة على النبي، صلّى الله عليه وسلّم، فيقوم كل من في المسجد من الأغوات فيتوضؤون، ثم يصبحون كل ما في المسجد من المصابيح، فإذا فرغوا من الإصباح، وقرب الصباح، فتحوا أبواب الحرم، ولا يأتي وقت فتحها حتى تجتمع بأبواب المسجد جماعات كثيرة من المجتهدين، ينتظرون الفتح، فإذا فتحت الأبواب دخلوا مزدحمين، وتسابقوا الصف الأول من الروضة فيما بين القبر والمنبر، فمن سبق إلى موضع كان أحق به، فإذا أراد القيام لحاجة كزيارة أو تجديد وضوء بسط نمرة له في محله، فلا يجلس فيه أحد ولو أبطأ، وكثيراً ما يعتدي في ذلك أقوام فيدخلون مع أول داخل من غير طهارة لقصد السبق إلى الموضع وتحجيره، فإذا بسط فيه فروته أو منديله ذهب إذ ذاك إلى الطهارة وأسبابها، وكثير منهم يبطئ في الطهارة فيحجر على الناس المحل، وربما عرض لأحدهم حاجة في منزله أو في السوق فيترك النمرة في محله فلا يقربه أحد وإن أبطأ كثيرا، وفي ذلك من الضرر على المصلين ما لا يخفى، على أن في دخولهم مزدحمين واستباقهم إلى الروضة ربما سمع لأقدامهم دوي من شدة العدو، سوء أدب لا يخفى وربما يحتج لذلك محتج بقوله عليه السلام: لو يعلم الناس ما في الصف الأول لاستبقوا إليه[1]، فلا بد بتقييد ذلك بما لا يخل بأدب البقعة المطهرة وساكنها لقوله عليه السلام: وآتوها تمشون، يعني الصلاة، وعليكم السكينة والوقار، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا[2]، والمراد بالمسابقة في الحديث المتقدم الاهتمام بشأنه والحرص على الصلاة فيه والتبكير إليه من غير عدو بالأقدام ومزاحمة بالمناكب.

---

(1) نص الحديث النبوي الشريف كما ورد في كتب الحديث: لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه: تلخيص الحبير 1:290.
(2) صحيح مسلم 1:420.

وساداتنا الأغوات، رضي الله عنهم، لا يغفلون طرفة عين عن حراسة الحرم الشريف وتأديب من أساء الأدب فيه بلغط ورفع صوت أو نوم، ولو في قائلة، إلا في مؤخر المسجد، ومن وجدوه مضطجعاً من دون نوم للاستراحة، فإن مدّ رجليه إلى ناحية الحجرة زجروه، وإن استقبل القبلة بوجهه أو الحجرة من غير أن يكون مستدبراً لها تركوه، ولا يغفلون عن حضور المسجد في ساعة من ليل أو نهار، فإن خرجت طائفة جلست طائفة.

ولهم ديار وخدم وأتباع، وضياع وخيل، وسعة دنيا، ولا يشغلهم ذلك عَمَّا هم بصدده من خدمة المسجد، بل لبعضهم أزواج وسراري، اتخذوها للتلذذ بما سوى الجماع.

وأحكامهم فيما بينهم منضبطة غاية الانضباط، ولا يحكم فيهم سلطان ولا غيره، ولا يولّى عليهم ولا يعزل منهم، إلا بأمر شيخهم. ولا يرث معهم بيت المال إن مات أحدهم، إنما يتوارثون بينهم. ومن وجبت عليه عقوبة أو أدب منهم أدبوه، من غير أن تكون لأحد عليهم ولاية، كل ذلك تعظيماً لجانب النبي، صلّى الله عليه وسلّم، أن تكون لأحد ولاية على عبيده. ولقد أنكرت منهم تأديب من لزمه الأدب من صغارهم في المسجد في بيت بإزاء دكتهم قريباً من الحجرة فيسمع صياحه وصوت الضرب كل من بإزاء الحجرة، فكنت أرى أن لو جعلوا لذلك محلاً بعيداً من المسجد والحجرة الشريفة، ولا يدخل معهم من العبيد الذين يهدون من الآفاق إلا من أرادوا إدخاله بمال يدفعه عنه سيده عنه، أو يدفعه هو إن كان له مال، ومع ذلك يبقى في مرتبة الصغار المشتغلين بالخدمة الخارجية، فإن رضوا حاله وحسنت أخلاقه تركوه حتى تأتي نوبته في الدخول في زمرة الأربعين، وإن ظهرت منه خيانة وسوء أخلاق وسرقة أو شيء يشينه، نفوه إلى حيث شاء من البلاد.

ولقد وجدت هناك خصيا لبعض ملوك المغرب دفع لهم مالاً جزيلا ليدخل في زمرتهم وكان كهلا لا يحسن خدمة الصغار، فدفع لهم مالا آخر على تحريره من الخدمة، وقنع بأن يكون محسوبا في زمرتهم يناله من أوقافهم وصدقاتهم، ولقد أصاب في ذلك وأحسن النظر لنفسه إذ أنقذه الله من خدمة سلاطين الدنيا إلى خدمة سلطان الدنيا والآخرة، ومن جوار الظلمة العجزة إلى جوار الكرام البررة.

وبالجملة فلعبيد النبي، صلّى الله عليه وسلّم، وخدّام مسجده جلالة قدر، وعظم منصب، وسعة أرزاق، وكرم أخلاق، وهم أحقّاء بذلك. ولكبيرهم كلمة نافذة في المدينة، تنفذ أحكامه، وتمضي تصرفاته، في القويّ والضعيف ويطأ عقبه الكبراء والأشراف.

وعلى طول إقامتي بالمدينة لم أدرِ كيفية تصرف الولاة فيها، ولا من له التصرف التام بها، فإن شيخ الحرم وهو كبير الخدّام كما تقدم تنفذ أحكامه، وكبير العسكر الساكنين بالقلعة أمير أيضاً، وابن عم السلطان زيد وزوج ابنته السيدة تقية النائب عنه في النظر في مصالح البلد كذلك، والأمير الذي تنسب إليه إمرة المدينة من الشرفاء الحسينيين كذلك، والحاكم الذي يسجن ويضرب ويقتل ويؤدب، وهو من خدام السلطان كذلك. ولا أعلم هل لكل واحد من هؤلاء ولاية على قوم بالخصوص أو على عمل من الأعمال، ولم يشف لي أحد غرض إلا بمجرد العلم بالإحاطة بأخبار المدينة دينيّها ودنيويّها لحبي لها ولساكنيها أسأل غرضاً في كيفية ذلك، ولم أبالغ في الفحص عنه، إذ لم يتعلق لي به الله أن يحقق لي ذلك ويجعل قبري بها على أحسن حال تسر المؤمن في دينه ودنياه آمين.

ولم يكن يدعى في الخطبة يوم الجمعة إلا لثلاثة، يدعى أولاً – بعد الصلاة على النبي، صلّى الله عليه وسلّم، والترضي عن الآل والخلفاء والصحابة – للسلطان الأعظم ملك الترك، إلا أنهم يبالغون في تعظيمه بأوصاف لا ينبغي أن يعظم بها أحد من الخلق، خصوصاً بحضرة الرسالة، وليس في تلك الأوصاف أحسن ولا أجمل ولا أكمل من قولهم فيه: خادم الحرمين الشريفين، فأكرم بها نسبة – وقد رأيت في بعض التواريخ أن أول من وصف بذلك من الملوك في الخطبة السلطان الأجل صلاح الدين بن أيوب، وأنه لما قال الخطيب ذلك وسمعه سجد شكراً لله أن أهّله لذلك وسمّاه به، وهكذا ينبغي أن تكون همم الملوك، فلا شرف لهم إلا بالانتساب لله ورسوله، ولا الله عز وجل إلا بالتذلل لجناب الله، ولا رفعة إلا بالخضوع لهيبة الله، ولا حماية إلا بالانقياد لأحكام الله.

ثم بعد الدعاء لملك الترك موصوفاً بكونه ملك البرّين والبحرين، والشامين والعراقين، يدعى للسلطان زيد بن محسن موصوفاً بكونه حامي الحرمين الشريفين.

ثم يدعى لأمير المدينة السيد الحسين بن حماد[1] موصوفاً بكونه حامي حمى المدينة وأميرها، على أنه — فيما يظهر – ليس له من ولاية المدينة وإمرتها إلا الاسم أو ما يقرب منها، لأنه من تحت أمر السلطان زيد والتصرف لنوابه وأقاربه.

وقد كانت إمرة المدينة فيما مضى والتصرف في ولايتها لبني حسين كما أن مكة لبني حسن، وكانت تقع بينهما حروب، وكانت بنو حسن لهم قوة وبطش ربما غلبوا عليهم. والآن صار الأمر لبني حسن، فجمعوا الولايتين، ولم يبقَ لبني حسين إلا رسوم قليلة من ولاية المدينة، وصاروا كلهم إلا القليل بادية يرحلون وينزلون بنواحي المدينة، وهم قبيلة عظيمة قوية، ليس لهم اسم إلا بنو حسين، وكبيرهم الموسوم بولاية المدينة نازل بالمدينة، وبعض أقاربه، ولهم شارة حسنة، ومنازل رفيعة تدل على نباهة الذكر.

ولما خَفَّ مرضي ووجدت بعض الراحة في أواخر جمادى الأولى وأوائل الثانية شرعت في تكميل الأمداح التي ذكرت أول الرحلة أني وضعتها على حروف المعجم، وكان التوجه إلى هذه الوجهة المباركة ببركة الشروع فيها، وكان الموضوع منها قبل الرحلة عشرة أحرف وبقيت عشرون، فشرعت في تكميلها وأنا ملازم للفراش، إنما كنت أكتب منها ما أكتب وأنا في فراش التمريض، إلا أن هذه القصائد جاءت على طراز آخر ونمط غير الأول، سيتبين منه اللبيب ذو الذوق السليم أن الأول نفس محب طالت عليه الغربة وأذاب قلبه لاعج الشوق، وأن القصائد الأخر نفس محب وصل على محبوبه وتمتع بالتقلب في ربوعه وأطلاله، وأول الحروف التي كملتها في المدينة حرف الزاي وأوله[2]:

[طويل]

زيارةُ خيرِ العالمينَ هي الكنزُ ... ومَدحي لهُ من كلِ نائبةٍ حِرزُ

جِواري لهُ حصنٌ حصينٌ وملجأ ... به تُكشفُ البَلوى بهِ يُدفعُ الرجزُ

وحُبي لهُ سِرا وجهرًا ويقْظةً ... ونوما وفي دُنيا وأُخرى هو الفوزُ

وسيأتي ذكر القصائد إن شاء الله بتمامها في آخر الرحلة.

(1) الحسين بن حماد أمير المدينة المنور في سنة 1073، وردت ترجمته نقلا عن الرحلة العياشية في: تاريخ أمراء المدينة المنورة، ص: 349.
(2) وردت الأبيات في: التوجيهات، ص: 154.

ولما كان أول رجب جعل الناس يقدمون من أقطار الحجاز كمكة واليمن والطائف ونجد وجدة وما والاها من أطراف اليمن لشهود الرجبية وزيارة سيد الشهداء حمزة، رضي الله عنه، فما من يوم إلا وتدخل فيه قافلة من مكة ونواحيها. وقدم شيخنا الشيخ عيسى الثعالبي بأولاده، وقدم معه جماعة من المغاربة المجاورين بمكة، وجماعة من طلبة مكة كأولاد شيخنا قاضي المالكية بمكة تاج الدين، وقدم جماعة من أصحاب شيخنا القشاشي، كصاحبنا العلامة حسن العجيمي، وفقيه من فقهاء الحنفية يسمى الزنجبيل، والشيخ حسن الذهان، وهو من أصحاب شيخنا القشاشي، ولم يزل الناس يتلاحقون، فخرج أهل المدينة إلى أحد من اليوم الخامس ولسادس من الشهر، ورجعوا في اليوم الثاني عشر، ولم يبق بالمدينة إلا القليل، وخرج العسكر لحراسة الطرقات من المدينة إلى أحد، وتقدم شرح ذلك في زيارة أحد.

وبعد الرجوع من أُحد نزل الوافدون بالمدينة ينتظرون الرجبية، وهي ليلة سبع وعشرين منه ليلة المعراج، وقدم خلق كثير من الأعراب، وكانت بالمدينة سوق عظيمة، وامتلأ المسجد وجوانبه، فما من يوم إلا ويزداد الخلق فيه كثرة، وأكثرهم عرب حفاة ليس لهم من دين ولا مذهب، جلهم لا يعرف صلاة وصوماً، فتدخل جماعة منهم المسجد غاسلين أطرافهم يريدون الصلاة على زعمهم، فيقف أحدهم مليا ثم يسجد على قدر ما يرى، إما ثمان سجدات أو عشر سجدات أو أكثر على حسب نشاطه، ثم ينصرف. وغالبهم على هذا الوصف، ومنهم أفراد يدينون دين الحق، وسلامهم على النبي صلى الله عليه وسلم: حيا الله محمد، رافعين بها أصواتهم، فإذا كانت الليلة السابعة والعشرون تكامل حسن الناس، فمن لم يدخل المسجد من قريب من العصر قلما يجد موضعا لصلاة المغرب والعشاء، فيغص المسجد بمن فيه ويفتح الحرم طول الليل ويبيت الناس في ذكر وقراءة وصلاة كل على حسب ما يسنح له إلى الصباح، فإذا أصبح الناس أخذ الأعراب في التوديع فيسمع لهم حنين كحنين الإبل في المسجد، وصياحا وصراخا رافعين أصواتهم بالصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، والاستغاثة به، فيرق قلب سامعهم، ويحن ويشفق لهم على جفائهم وجهلهم، فلا يأتي مساء ذلك اليوم حتى لا يبقى بالمدينة منهم إلا القليل، وعسى الله أن ينفعهم بحسن نياتهم.

لطيفة:

أخبرني شيخنا الملا إبراهيم عن الشيخ القشاشي أنه بينما هو ذات يوم عند المواجهة إذ جاء أعرابي في شملته وبيده عصاه حتى وقف أمام الوجه الشريف، فضرب بعصاه الأرض مرتين وهو يقول: يا محمد، يا محمد، لا تقل أنا ما جئتك، ها أنا ذا، فذهب ولم يزد على ذلك، وكان الشيخ يقول: عسى أن يكون ذلك نافعاً له عند الله فإن ذلك مبلغ علمه، ولو كان يرى أن أكثر من ذلك ينفعه ويقضي به حق تعظيمه لفعله. وكان الشيخ، رضي الله عنه، كوشف له عن حال ذلك الأعرابي فرأى من صدق نيته وقوة اعتقاده في جانب الرسول أن من جاءه ووقف عنده اتخذ بذلك عهدا عنده ينفعه يوم القيامة ما أوجب له أن صدق الله ظنه وجعل ذلك نافعا له في عقباه، ولا يبعد ذلك فقد كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يحتمل الأعراب أكثر من ذلك من جفاهم، ويقنع من حدهم بقوله: صبأت، إذا كان لا يحسن أن يقول أسلمت، حتى يعلمهم بلطف ويرفق بهم، فكذلك بعد وفاته أو أكثر، فإنه صلى الله عليه وسلم يزداد كل وقت ترقيا في مدارج الرحمة والقرب من الله فيقبل شفاعته في هذا الأعرابي الذي جاءه وهو يعتقد أن من جاءه ووقف ببابه استوجب بذلك، رحمة الله، أما تراه كيف أخذ يثبته ويناديه ويعلمه بأنه قد حضر بالباب، ولم يحسن أكثر من ذلك، وعلم الله في خلقه لا يحاط به، ورحمته وسعت كل شيء. وقد قال تعالى عقب هذا: (فسأكتبها للذين يتقون)[1]، الآية. ولم ينفها عمن سواهم، وذكر بعض أفراد العوام بعد ذكره لا يخصص على الصحيح.

وبالجملة فعرب الدرب[2] والحجاز وتهامة ونجد أجهل العرب وأكثرهم جفاء، قلما تجد أحدهم يحسن شيئاً من رسوم الشريعة الظاهرة وصلاة وصيام إلا القليل. وعوام الأعراب والبربر بمغربنا بالنسبة إلى هؤلاء فقهاء، فلا تجد عاميّاً بالمغرب، وإن بلغ الغاية في الجفاء، إلا وهو يعلم أن الصلاة ذات ركوع وسجود،

(1) يشير إلى قوله تعالى: (واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) الأعراف: 156.

(2) الدرب: قرية باليمن: معجم البلدان: الدرب.

وإن كان لا يحسن أن يقرأ فيها، ويعلم وجوب صوم رمضان، بل هو أشدّ عندهم من الصلاة، بخلاف هؤلاء، فقد أخبرني مخبر عن عرب الدرب أنه سأل بعضهم هل صام أم لا؟ وهو رجل كبير كهل، فقال: إني إلى الآن لم أصم، لكن أبي صام ثلاثة أيام، فاستفهمه عن ذلك فقال: إن الرجل عندنا إذا قارب أوان الهرم والشيخوخة صام ثلاثة أيام، فيقولون فلان صام، وذلك علامة بلوغه حد الكبر، وأما قبل ذلك فلا يعرف صياماً ولا غيره، وهم جديرون بذلك لبعدهم من الأمصار، وقلّة القرى في بلادهم، فلا يجدون أحداً يعلمهم الخير ولا يرشدهم إليه، وعلى تقدير دخولهم الأمصار في بعض الأحيان فلا يلقي إليهم أحد بالاً، ولو رآهم أكبر فقهاء الأمصار يصلّون الصلاة المتقدمة من تتابع السجدات لا يزيد على أن يضحك منهم، أو يتغافل ويذهب عنهم، فمتى يعرف هؤلاء صلاة أو صياماً أو حدّاً من حدود الشريعة؟

ولقد رأيت رجلاً بالينبع ظهر الشيب في مفرقه، وسألته عن مكّة فقال لي: ما حججت قط. وبينه وبين مكّة ثمانية مراحل، وسألته عن المدينة فقال لي: دخلتها مرتين أو ثلاثاً، وبينه وبينها ثلاثة مراحل، وأمثال هؤلاء كثيرون.

ولما استهل شهر شعبان أخذت القوافل في الرجوع إلى مكة، ورجع غالب من جاء من أهلها، ولم يبق بالمدينة إلا القليل ممن أراد شهود رمضان بالمدينة، فخرج سيدي عيسى الثعالبي مع أول قافلة، وكانت نيتنا أن نصوم رمضان بمكة، فتهيأنا للخروج ولم نخرج إلا بعد النصف من شعبان كما سيأتي ذكره إن شاء الله في خروجنا من المدينة إلى مكة، وقد سمعت عليه، رضي الله عنه، أيام إقامته بالمدينة المشرفة معجم الطبراني الصغير بلفظه بالروضة المنورة فيما بين القبر الشريف والمنبر، وسمعت من لفظه أيضا الأربعين حديثا عن أربعين شيخا لتقي الدين الفاسي[1]، رضي الله عنه، وسمعت من لفظه أيضا بعض الشمائل[2]، وأجاز لي سائر مروياته حسبما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى. ومما أنشأته في بعض تلك الأيام وأنشدته أمام الوجه الشريف هذه القصيدة:

---

(1) محمد بن أحمد بن علي تقي الدين الفاسي، نزيل الحرمين الشريفين، الفقيه العلامة، ولي قضاء المالكية بمكة المكرمة سنة 807 هـ، من أهم مؤلفاته: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، توفي سنة 833 هـ: لقط الفرائد، ص: 231. شجرة النور الزكية 1:363.

(2) الشمائل النبوية والخصائل المصطفوية لأبي عيسى محمد الإمام الترمذي المتوفى سنة 279 هـ: كشف الظنون 2:1059.

[طويل]

لوجهِ رسـولِ اللهِ وجهـتُ آمَـالي ... وتَوجيهُها من خيرِ صـالِحِ أعمـالي
إذا لم أُوجههـا إليـهِ مـنِ الـذي ... يـرقُّ لأحزانـي سـواهُ وأوجَـالي
ومن يكشفُ الكربَ الذي أشتكي ومـنْ ... يغيثُ إذا أدعـو وينقـذُ أوحـالي
أتيـتُ بعـزمٍ زائـرًا ومُجـاورا ... وذاك الذي أملتـهُ منـذُ أحْـوالِ
وقـد حقـق اللهُ العظـيمُ بفـضلهِ ... أماِيَ كانتْ قبـلُ تخطـرُ بالبـالِ
فما كانَ قِدْما خاطرًا صارَ حاضِـرا ... فللهِ ربي الشكرُ في كـلِ أحْـوالِ
فهـا أنـذا في طيبـةٍ مُتبختـرا ... بخلقانِ أثـوابي وأطـرافِ أسْـمالِ
لعَمري لأسْـمالي هنـايَ أعَـز لي ... من الحُلةِ الحَمْـرا هنـاكَ وأسمـالِ
فكم بين منْ في طيبـةَ آمنـا بهـا ... ومنْ في أقاصِي الغربِ ما بين أهوالِ
فذاكَ يَغـدُّو في عنًـى ويـروحُ في ... ضنًى بينَ آسـادٍ هنـاكَ وأغـوالِ
وهذا يـروحُ في غِـنى ويبيـتُ في ... هنا بين إكرامِ الرسـولِ وأفـضالِ
يُصلي صلاةَ الفرضِ ما بـينَ مِنـبرِ ... وقـبرِ تَغَـشاهُ طـوارق إجـلالُ
ومِن بعدها يَمـشي عليـهِ سـكينة ... إلى موقفِ الزوارِ من دون تِـشغالِ
فيبقى أمامَ المـصطفى واقفًـا لـهُ ... مناوبـةً مـا بـينَ عِـز وإذلالِ
إذا ما رأى خيرَ الورى عَز ثَـم أن ... رأى نفسهُ فالذلُ أولى بـذا الحـالِ
يُـصلي عليـهِ أو يُـسلم أو همـا ... معا دونَ فصلٍ وهْو غايـة إكمـالِ
ويعطفُ شيئا عـن يمـين مُـسَلما ... على صاحبيهِ مُوضحي كل إشـكالِ
ويـدعُو لديـهِ بُكـرةً وعـشية ... بما يرتجي في النفسِ والأهلِ والمـالِ
أُنادي إلَهـي عنـدَ بـابِ حبيبـهِ ... نـداء بـهِ تنفـك عـنيَ أغـلالِ

وأطلـــبُ ربي مُوقنـــا بإجابـــة ليغفِـرَ أوزارِيَ ويُـذهبَ أغـلالي
وأخفِضُ صـوتيَ في النـداءِ ببابـهِ وخفضت لقدري عند ذاك أعـلال
عليـــهِ صـــلاةُ الله ثم ســـلامةُ كذاكَ على الأزواجِ والـصحبِ والآلِ

وهذه القصيدة من جملة القصائد التي على حروف المعجم إلا أنها أول مـا أنشئت بالمدينة.

ومما أنشدته أيضاً هذه الأبيات، وكان ذلك في ورد حال فقلت:

[خفيف]

يا رسولَ الإلهِ مـا لـكَ عِنـدي حاجةٌ وحـوائجي الـدهرَ عنـدكْ
أنت عنيَ في غِـنى وعـن الخلـــ ـــقِ جميعا وجئتُ أطلـبُ رفـدكْ
أنـت بـالله ذُو غِـنى واعتـزاز ما الذي أرتَجـي لفقـري بعـدكْ
لـيسَ لي ملجـأٌ سِـوى الله إلا أنتَ يا ملجـأَ المـساكينِ وحـدكْ
يا عَذولي بـهِ اسـتجرتُ فحـسبي اجتهدْ إن شئتَ العـداوةَ جهـدكْ
فيـه اتقـي عـداك وأكفـي وبهِ اجتني علـى الـرغمِ شَـهدكْ
لستُ يا دهرُ بعدَ نحـسكَ أخـشى لا ولا أرتَجي مدى الدهرِ سـعدكْ
يـا نـبي الإلـهِ أنـتَ جَـواد كيـفَ لا تبلـغَ الأمـانيَ وفـدكْ
فعليـكَ مـن الإلـهِ صـلاةٌ وسلامٌ بحسبيَ منَ الـسوءِ عبـدكْ

وأنشدت يوما آخر:

[بسيط]

ربِّ بأسمائِك الحُسنى بأوصافِك الــ ـعُلى بـذاتكَ بـالملاكِ بالرسُـلِ
ربِّ برحمتكَ العُظمى التي سـبقتْ غضبْكَ إرحَمْ عُبيدًا بات ذا وجَـلِ
ربِّ بكل الذي أنزلتَ مـن كُتـب على النبيـئينَ للتـذكيرِ والعمـلِ

ربِّ بخـــيرِ عبـــادِ الله ســـيدنا   محمـــد المُـــصطفى بجـــاهِ كـــل ولي

كنْ لي وخذ بيدي في كـــل نائِبـــة   وعافِني واهْـــدني لأوضـــح الـــسبُل

ذكر من لقيته بالمدينة من المشايخ الأعلام والأصحاب الكرام ممن أخذت عنه أو أخذ عني أو صاحبته في الله ولم يخب فيه ظني حياهم الله

أول من قرأت عليه بالمدينة وأخذت عنه، بقية السلف الصالح وقدوة كل غاد في اكتساب الحمد ورائح، أستاذ المقرئين وإمام المحدثين، الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الرحمن الديّبع اليمني الزبيدي[1]، زاده الله عِزًّا وشرفاً، وأسكنه من منازل التقرب غرفا، هو من قدماء مشائخي، لقيته بمكة سنة أربع وستين فأخذت عنه ما تيسر، وأجاز لي كما هو مذكور في كتابنا اقتفاء الأثر[2]، وهو كان السبب في اتصالي بالشيخ الإمام الختم صفي الدين القُشاشي، وكتب إليه كتابا، ثم لقيته أيضا في هذه المدة بمكة. فكان السبب أيضا في اتصالي بشيخنا الملا إبراهيم خليفة شيخنا القشاشي، وكان الشيخ، رضي الله، عنه عقد بينهما عقد أخوة خاصة، فلما لقيته بمكة راسلته عن أصحاب الشيخ وأولاده وعن حالهم بعد وفاته، فأخبرني بخبر الخليفة المذكور، وأكّد علي في لقائه وأثنى عليه كثيراً، وكان شيخنا الثعالبي أيضاً ذكر لي جملة من خيره، وكان من قدر الله، مع إضماري لقاءه والاجتماع به، لم يقدر لي ذلك أيام إقامتي بالمدينة حتى قدم شيخنا أبو الحسن الديبع لزيارة النبي، صلى الله عليه وسلم، آخر المحرم أو أول صفر كما سيأتي في ترجمة شيخنا الملا إبراهيم، فذهبت معه إلى زيارته وعرفه بي. ولما قدم شيخنا أبو الحسن المدينة ونزل بجوار المسجد، وكان قدم بأهله قاصداً للزيارة، واجتمعت به في الحرم الشريف وأنست به، وكنت إذ ذاك حديث عهد بسكنى المدينة لم أخالط كثيراً من أهلها، فسألته أن أقرأ عليه ختمة من القرآن العظيم

---

(1) أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الرحمن الديبع اليمني الزبيدي، فقيه محدث، سمع عليه أبو سالم صدر صحيح البخاري وأجاز له باقيه، توفي عام 1076 هـ: التقاط الدرر، ص: 167. اقتفاء الأثر، ص: 138. نشر المثاني 2:153.

(2) اقتفاء الأثر، ص: 139.

بقراءة الإمام عبد الله بن كثير المكي[1]، فأذن في ذلك وجعل لي وقتا معلوما بين من يقرأ عليه، وكان لما قدم المدينة انثال الناس عليه لقراءة القرآن، وكان محققا لقراءة السبع مجيدا لها حسن التلاوة، ما سمعت أذني في أقطار الأرض كلها،على كثرة ما سمعت، أحسن منه تلاوة للقرآن وأطيب منه نغمة به وأجود منه ترتيلا له، يعطي الحروف حقها في مخارجها من غير إفراط ولا تفريط، في تؤدة وسكون ووقار بقراءة مسترسلة متناسبة لا يرجع فيها ترجيع أهل الألحان ولا يسرع إسراع الهذرمة[2]، ولا يمد في غير محل المد، ولا يتركه في محله، محافظا على مراتبه من توسط وإشباع وقصر، مجيد للنطق بالإمالة وتسهيل الهمز وتليينه، مراعيا لصفات الحروف من تفخيم وترقيق، وتغليظ وتشديد، وغنة وإظهار وإخفاء، إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله، فجزاه الله عن كتابه خيراً.

وكان أيام إقامته بالمدينة كثيراً ما يقوم للإمامة لحسن صوته وعذوبة قراءته وتزاحم الناس على القرب منه لسماع قراءته. ولقد أخبرت أن شيخه الشيخ إسحاق جمعان[3] كان لا يترك أحدا يؤم بمسجده سواه ويقول: لا تقرأ في صلاة الصبح إلا بما فوق سورة الجمعة، يريد التلذذ بسماع قراءته، وكان ممن ابتدأ القراءة عليه بالمدينة شيخنا الملا إبراهيم وشيخنا بدر الدين الهندي وغيرهما، فابتدأت القراءة عليه صبيحة يوم الاثنين رابع صفر عام ثلاث وسبعين وألف بالمسجد النبوي أمام الوجه الشريف بعد صلاة الحنفي على يسار المحراب العثماني، وقرأ: (آنذرتهم)[4]، بالتسهيل بين بين، وكان حسن النطق به، وقال: لا نعرف فيه محض الهاء، فأخبرته بأن شيخنا أستاذ الجماعة بفاس أبو زيد بن القاضي[5] قد نقل في مفرداته عن أبي عمرو الداني[6] جواز إبدالهما هاء محضة، فسألني أن أطلعه على

---

(1) عبد الله بن كثير بن عمرو بن عبد الله بن زاذان، فارسي الأصل، العطار قرأ على عبد الله بن السائب المخزومي وعلى مجاهد وحدث عن ابن الزبير وغيره، الإمام العلم مقرئ مكة وأحد القراء السبعة، عاش خمسا وسبعين سنة مات سنة 120 هـ: سير أعلام النبلاء 5:118. شذرات الذهب 1:157.

(2) الهذرمة: هذرم الرجل في كلامه: خلط فيه: لسان العرب: هذرم.

(3) إسحاق بن محمد جمعان اليمني، الفقيه، كان كثير التردد للحج، توفي عام 1076هـ: التقاط الدرر، ص 167.

(4) يشير إلى قوله تعالى: (وسواء عليهم آنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون): البقرة: 5.

(5) تقدمت ترجمته.

(6) أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الداني، الأندلسي القرطبي، الإمام الحافظ المجود المقرئ، ولد في سنة 371 هـ ورحل إلى المشرق سنة 397 هـ، من مؤلفاته: إيجاز البيان في قراءة ورش، والتلخيص في قراءة ورش أيضا، والمقنع في الرسم، وكتاب المحتوى في القراءات، توفي أبو عمرو سنة 444 هـ: سير أعلام النبلاء 18:77. شذرات الذهب 2:272.

ذلك، فأطلعته عليه، فسُر بذلك، ونص ما ذكره شيخنا ابن القاضي في مفرداتــه المكية: جرى الأخذ عندنا بفاس والمغرب في المسهل بهاء خالصة مطلقا، وبه قال الداني ومنعه أبو شامة الجعبري[1]، وفصل ابن حدادة بجــوازه في المفتوحــة دون المضمومة والمكسورة هــ. وقد اشتد سرور شيخنا الملا إبراهيم بالاطلاع علــى هذا النص لكونه، رضي الله عنه، غلبت العجمة على لسانه فيعسر عليه النطــق بالهمز المسهل، بل كان لا يطيقه فقال: الحمد لله الذي جعل في الأمرِ ســعة و لم يكلفنا فوق طاقتنا، فنحن نقنع بموافقة قول إمام من الأئمة، خصوصاً هذا الإمام المتفق على جلالته أبا عمرو الداني، رضي الله عنه.

ومما نبهني عليه شيخنا أبو الحسن حال القراءة، وكنت أغفل عنه كثيراً مــا قال لي: ويحذر القارئ من قراءة (غشاوة)[2] ونحوه بالهاء على نية الوقف، ثم يصل، ولا بد من وقف بيّن، يعلم به أن القارئ فصل بين ما وقف عليه وما ابتدأ به، وإلا صار كمن قرأ بالهاء في الوصل، وهو لحن.

ومما نبهني عليه تفخيم الخاء في (يخادعون)[3] وما أشبهه، قال: وتتبعها الألف في التفخيم لأن الخاء حرف استعلاء، وكذلك أيضاً تفخيم القاف في نحو قــال وقام، وكذلك المحافظة على إظهار اللام في نحو: قلنا وجعلنا. قال ابن الجزري في مقدمته[4]:

[و] احرِصْ على الإظهار[5] في جعلنا

لأنَّ اللام إن لم تظهر أسرع لها الفتح، وكان لا يسامح القارئ عليه في ترك الغنة في محلها من نون وميم، وميم أخفيت قبل باء، أو نون قلبت قبل باء، أو نون أو تنوين إدغاما في ياء، وواو وميم ونون، ويحذر من إخفاء الميم الساكنة لذي واو

---

(1) أبو بكر بن أبي شامة، الشيخ الجعبري، المقرئ المؤذن،الشيخ المجود، توفي سنة 713 ه: معرفة القراء الكبار 2:727.

(2) من قوله تعالى: (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم): البقرة: 7.

(3) من قوله تعالى: (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون): البقرة: 9.

(4) الجزرية، ضمن كتاب: مجموع مهمات المتون، ص: 208.

(5) في الجزرية: السكون.

وفاء لأنها يسرع إليها الإخفاء إن لم يتنبه لها نحو: (هم فيها)[1]، (قم فأنــذر)[2]، (إنكم وما تعبدون)[3].

وأنشد في حروف الإخفاء وقال: يجمعها أوائل هذا البيت وهو:

[بسيط]

صف ذاتنا جودُ شخصٍ قد سمَا كرما   ضع ظالما زدْ تُقى دُم طالبــا فتــرى

وأنشد أيضاً في المواضع التي ورد أن النبي، صلى الله عليه وسلم وقف عليها، أملاها علي من حفظه و لم ينسبها:

[طويل]

أيا سَــائلِي عمــا أتانَــا بــهِ الأُلى   عن المُصطفى من وقْفــهِ مُتسلــسِلا

ففي البِكر جا الخيراتُ والثاني قلْ بهــا   أتَى بعد يُعلمْهُ علــى الله مُــسجلا[4]

وعِمــــران إلا الله أولهــا أتـــى[5]   عقودٌ بها الخيراتُ قد جاء مُرسَــلا

وأيضا بها من أجْــلِ ذلــك جاءنــا   وآخِرهــا قــد جــا بحــق مُــرتلا

وأنْ أنذرِ الناسَ الذي حلّ يُونــسا[6]   وقــلْ بعـــدهُ فيهـــا لِحَــق تَنَــزّلا

إلى الله جاء في يوســف ويتلوهــا[7]   أتانَا علــى الأمثــالِ كــي يَتمــثّلا

خلقها بنحل بعد الأنعــام لفظــة[8]   وبعدَ ألا تُــشركْ بلقمــانَ أنْــزلا[1]

(1) وردت العبارة 16 مرة في القرآن الكريم، أكثرها في سورة البقرة.
(2) المدثر: 2.
(3) من قوله تعالى: (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) الأنبياء: 98.
(4) الإشارة هنا إلى قوله تعالى: (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب) البقرة: 197.
(5) يشير إلى الآية السابعة من سورة آل عمران.
(6) الإشارة هنا إلى قوله تعالى: (أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس): يونس: 2.

(7) يقصد قوله تعالى: (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين) يوسف: 108.
(8) يقصد قوله تعالى: (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) يوسف: 5.

وغافر فيها لفظـــةُ النـــارِ بعْـــدها[2] حكايةُ حملِ العرْشِ في قـــصةِ المَـــلا

وقلْ بحشَرَ في النازعـــاتِ وبعـــدهُ[3] على ألْفِ شهْرٍ جاءَ في القـــدْرِ أوَّلا[4]

ومن كل أمـــرِ جابهـــا وبنـــصرِهمْ على لفظِ واستغفرهُ تمَّـــتْ فحَمْـــدلا[5]

وإفادته رحمه الله كثيرة، ومحاسنه شهيرة، و لم يختم عليه أحد القـــرآن مـــن الذين ابتدأوا عليه القراءة أيام إقامته بالمدينة، فيما علمت، إلا أنا فـــإني لازمتـــه، وكان معتنيا بشأني، وكنت أولا أقرأ وقتا واحدا بعد صلاة الصبح، ثم زادني وقتا آخر بين الظهرين، فلما كان اليوم الذي قبل يوم خروجه من المدينة ذهب لزيارة قباء، ولحقته هناك، وقرأت عليه هناك حتى قاربت الختم، وقرأت عليه أيضا المقدمة الجزرية في تجويد القرآن هناك أيضا، وتفرغ لي رحمه الله ذلك اليوم عـــن جميـــع أشغاله.

وفي الغد يوم رحيله ختمت عليه بالحرم النبوي قرب المواجهة، فكانت مدة القراءة نحوا من سبعة عشر يوما، وقد كتبت بين يديه، رضي الله عنه، بعد فراغي من قراءة المقدمة الجزرية[6] ما نصه: الحمد لله قرأت المقدمة الجزرية بمجلـــسين في يوم واحد أولهما في رباط السلطان خارج مسجد قباء، وثانيهما بعد صلاة الظهر عند المحراب النبوي في مسجد قباء على شيخنا صدر المقرئين وإمام المحدثين الشيخ أبي الحسن علي الديبع اليمني، رضي الله عنه وأرضاه، وأجازنا بها وبسائر مروياته، وقرأت القرآن أيضا عليه كله بقراءة ابن كثير، فأجازني به بأســـانيده المعروفـــة، وحضر قراءة المقدمة المذكورة أخونا الأمجد الفقيه النبيه الشيخ الصالح صالح بـــن أحمد المطري اليمني نزيل الحرم الشريف، قال ذلك وكتبته ظهر يوم الأربعاء الموفى

---

(1) يقصد قوله تعالى: (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم): لقمان: 12.

(2) يقصد قوله تعالى: (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم): غافر: 7.

(3) يقصد قوله تعالى: (فحشر فنادى) النازعات: 23.

(4) يقصد قوله تعالى: (ليلة القدر خير من ألف شهر): القدر: 3.

(5) يقصد قوله تعالى: (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا): النصر: 3.

(6) المقدمة الجزرية: في التجويد، وهي لشمس الدين محمد بن محمد الجزري المتوفى سنة 833 هـ، أنظرها في: مجموع مهمات المتون، ص: 205 – 211.

عشرين من شهر الله صفر عام ثلاثة وسبعين وألف الفقير إلى الله تعالى أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المغربي المالكي كان الله له آمين.

ثم كتب الشيخ، رضي الله عنه، بخط يده عقب ما كتبته ما نصه: الحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ويكافي مزيده، صحيح ما قاله الأخ في الله تعالى، وقد استخرت الله تعالى وأجزت له ذلك وجميع مروياتي في علم القراءات بمضمون الشاطبية[1] والتيسير[2]، وجميع ما يجوز روايته من كتب الحديث وغيرها لعملي بأهليته، وأجزت لجميع من ذكر بذلك، وأوصيه بتقوى الله تعالى، وأن لا ينساني من دعائه بحسن الخاتمة في عافية وسلامة، تقبل الله ذلك منه وجعله خالصا لوجهه الكريم، قال ذلك بفمه، ورقمه بقلمه أفقر عباد الله وأحوجهم إليه، العبد الفاني علي بن محمد بن عبد الرحمن الدّيبع الشيباني الشافعي مذهباً، الزبيدي بلداً ووطنا، الأشعري معتقداً، حامداً مصلياً عفا الله عنه وعن مشايخه في الدارين، وعن جميع المسلمين آمين آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .هـ ما كتبته عقب كتابتي الأولى.

وأما أسانيده في القراءات فقد كتبت من خطه ما نصه: قرأت على سيدي ووالدي وشيخي الفقيه الصالح الناسك الحافظ عفيف الدين عبد الله بن عبد الباقي العدني العقاقي الزبيدي رحمه الله قال: قرأت على سيدي الإمام العلامة محمد الطاهر بن المخلص الزبيدي، قال: قرأت على جماعة أجلهم الشيخ الإمام العلامة جمال الدين محمد بن أحمد الملحاني الشهير بمفضل الزبيدي، قال: قرأت على أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي بن يدير، قال: قرأت على أبي محمد عبد الله بن محمد النائري، قال: قرأت على شيخ الشيوخ أبي الخير محمد بن محمد الجزري، قال: قرأت على عدة من المشايخ، منهم الشيخ تقي الدين عبد الرحمن بن علي بن المبارك البغدادي الواسطي المصري الشافعي، قال: قرأت على العلامة ملحق الأواخر بالأوائل، تقي الدين محمد بن أحمد بن عبد الخالق الشهير بالصائغ، قال: قرأت على العلامة كمال الدين علي بن شجاع الضرير الشافعي، قال: قرأت على ولي الله أبي القاسم الشاطبي، قال: قرأت على أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن

(1) الشاطبية: أو حرز الأماني ووجه التهاني؛ قصيدة في القراءات للقاسم بن فِيُره الرعيني الشاطبي الأندلسي المتوفى سنة 589 هـ: شرف الطالب، ص: 66.
(2) تيسير الأصول إلى جامع الأصول لعبد الرحمن بن الديبع، والكتاب مطبوع.

هذيل الأندلسي، قال: قرأت على أبي داوود سليمان بن نجاح، قال: قرأت على الإمام أبي عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الداني بأسانيده. هـ ما نقلته من خطه رضي الله عنه. وبهذا السند أجاز لنا القراءات ومؤلفات ابن الجزري. وأما أسانيده في كتب الحديث وغيرها فهي مذكورة في رسالة اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر[1].

وخرج، رحمه الله، قافلاً إلى بلاده يوم الخميس الواحد والعشرين من صفر، وودعناه، وأودعناه الدعاء وأودعناه، وكان، رضي الله عنه، كثير الحج، قلَّ ما يخلو له عام من حج مع أنه فقير لا مال له، إلا أنه لعلمه وصلاحه يقصده الناس كثيراً من أهل بلده للاستيجار على الحج، وكان، رضي الله عنه، يتأول في ذلك نص إمامه الشافعي، رضي الله عنه، فقد روي عنه أنه قال: ما أكل المرء ما يأخذه في أجرة الحج. قال لي رضي الله عنه: فأنا أغتنم بركة شهود المشاعر العظام وأكل الحلال، ولا غضاضة عليه في ذلك، فإن الإجارة على الحج عند الشافعية جائزة بلا كراهة، بل من رغب فيها، بل واجب على العاجز الذي له مال، وعلى الميت الصرورة[2] المستطيع.

وشيخنا هذا، رضي الله عنه، مبتلي بفقد الأولاد والثكل بهم، فكان كثيراً ما يسأل مني ومن جماعة من أصحابنا الدعاء أن يرزقه الله ولدا يخلفه من بعده وينتفع بصالح عمله، حتى كتب إلي من مكة بذلك يؤكد في الوصية، وكنت أرجو أن يحج في العام المقبل فأغتنم بركة الاجتماع به، فلم يحج في تلك السنة ولا في التي بعدها كما كتب لي بذلك خليلنا حسن العجيمي[3] مخبراً أنه منعه مرض أستاذه الشيخ إسحاق جمعان، وهذا آخر العهد بخبره.

لطيفة:

تذاكرنا يوماً بحضرة شيخنا أبي الحسن دفن الموتى بالبقيع على مرور الأزمان في محل واحد، مع أنه لا يجوز الدفن في قبر ما دام صاحبه به، فقال لي: إن هذه

(1) اقتفاء الأثر، ص: 138.
(2) الصرورة رجل صرورة: لم يحج قط: لسان العرب: صرر.
(3) أبو علي حسن بن علي العجيمي المكي الحنفي، فقيه متصوف، أخذ عن مشايخ الحرمين، توفي بالطائف عام 1113 هـ: التقاط الدرر، ص: 284. فهرس الفهارس 2: 810.

الأرض لملوحتها ونداوتها تفني الأجساد بسرعة، فقلما يجاوز فيها الإنسان سبع سنين إلا وتبلى عظامه فلا يبقى لها أثر، قال: وهي كأرض بلادنا مدينة زبيد[1] بأرض اليمن، قال: إني قد دفنت عدة من أولادي بيدي في قبر واحد في أمد غير متطاول، فكنت إذا مات لي ولد ذهبت به إلى قبر أخيه الذي قبله فأحفر فلا أجد له أثراً فأضعه وأواريه في محله، ثم كذلك الآخر. وكان سبب جريان ذكر ذلك أني زرت معه ذات جمعة البقيع فلما زرنا قبر شيخنا صفي الدين القشاشي في الدكة التي وضعها بأقصى البقيع معدة لدفنه ولدفن أصحابه قلت له: كيف وضع الشيخ، رضي الله عنه، هذه الدكة مع أن هذا بالقطع كله مقابر. فذكر لي ما تقدم، ولا شك أن القبر بعد ذهاب عظام المقبور فيه منه لا يمنع الدفن. قال صاحب المختصر: "والقبر حبس لا يمشى عليه، ولا ينبش ما دام به"[2]. ولا يعكر على ذكرنا من أكل أرض المدينة للأجساد بسرعة ما ورد من نقل بعض شهداء أُحُد بعد أزمان وأعصار متطاولة، ووجد أنهم على حالهم ومن بُدو قدم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، زمن عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، لأن ذلك كرامة وقعت على خلاف العادة وتصديق لحديث: لا تأكل الأرض أجساد الأنبياء ولا الشهداء[3]، ومن ذكر معهم، ولا شهيد على وجه الأرض أفضل من عمر، رضي الله عنه، ومن شهداء أحد رضي الله عنهم آمين.

ومنهم شيخنا العلامة الدراك الفهامة محقق العلوم على اختلاف أنواعها ومقيد شورادها في بطئها وإسراعها، ومداوي أدواء القلوب مع تباين طباعها، ومؤهل إضلال المعارف بعد إقواء رباعها، نادرة الأعصار، وعديم الشكل في سائر الأمصار، حامل لواء الشريعة والحقيقة، وغائص بحار الأنظار الدقيقة، بذهن ذهنه يستصبح في حوالك ليالي المعقولات، وبمنار نور علمه يهتدى في هواجر نهار النقولات، قد نهج لأهل الإرادة طرقا كانت قبله رمسة، فاقتدى من أغرم نفسه

(1) زبيد: بلد باليمن معروف: معجم ما استعجم 2:694.
(2) مختصر خليل، ص: 57.
(3) نص الحديث الشريف كما ورد في المعجم الأوسط (5:97): حدثنا عبد الرحمن بن زياد أبو مسعود الكناني الأبلي قال حدثنا عبدة بن عبد الله الخزاعي الصفار قال حدثنا حسين بن علي الجعفي عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبي الأشعث الصنعاني عن أوس بن أوس الثقفي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن افضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم علي معروضة. قالوا: يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ قال: يقولون قد بليت. قال: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء .

في يومه ما استهلكت أمسه، فأظهر نوعا من المعارف لا يدرك أهل زمانه جنسه، فصار ملة وحده، وطريقة ملته منزهة عن كل خسة، فهو إمام الأئمة وحبر الملة، (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه)[1]، فقيه الصوفية وصوفي الفقهاء، وعالم الصلحاء وصالح العلماء، وارث علوم الختم، الصفي ووارد مورد الأنس الصفي، سيدنا وشيخنا وقدوتنا وإمامنا الملا إبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري ثم الشهراني زاده الله من نوره القدسي على نوره النفسي، ومن علمه الوهبي على علمه الكسبي، أناله الله من كل مكرمة أعلاها، وأذاقه من كل شربة قدسية أحلاها، نشأ، رضي الله عنه، على ما أخبرني، في بلاده من شهران من جبال الكرد في عفة وصيانة وديانة، وأخذ في طلب العلم في بلده على مشايخ قطره، فقرأ العربية ومهر في المحتاج إليه منها، وأول ما يقرؤون في العربية عندهم العوامل[2] للجرجاني، ثم كافية ابن الحاجب[3]، وهي العمدة عندهم، وقد ألف شيخنا هذا تأليفا حسنا في العربية على نمط العوامل المذكورة، استدرك عليه عوامل كثيرة تركها، وقرأ أيضا فنون المعقولات من كلام ومنطق وفلسفة بأنواعها من هندسة وهيئة وغيرهما، وقد أخبرني حين قراءتي كتاب الهداية الأثيرية[4] في الحكمة عليه أنه كان في أول قراءته لها عرضت مسألة هندسية فلم يتجاوزها حتى قرأ علم الهندسة وأتقنه، ثم عرضت مسألة من الهيئة فاشتغل بعلم الهيئة حتى عرفه، ولم يزل كذلك لا تعرض مسألة تتعلق بعلم من العلوم إلا وقرأ ذلك العلم حتى يحيط علماً بمقاصد الكتب، ولم يختمه حتى حققه وحقق معه عدة علوم، وكذلك كان شأنه في كل العلوم لا يرضى لنفسه الاقتصار منها على أدنى، وقرأ المعاني والبيان وأصول الفقه وفقه الشافعية، كل ذلك في بلاده، وقرأ لتفسير أيضا في بلاده على علماء قطره، وأكثر استفاداته على شيخه الملا محمد شريف، وسيأتي ذكره.

ولم يترك علماً من العلوم إلا أخذ منه نصيباً في بلاده إلا علمي الحديث والتصوف، أما علم الحديث فقال لي رضي الله عنه: ما كنت أظن أنه بقي على

---

(1) البقرة: 130.

(2) العوامل في النحو لأبي على حسن بن أحمد الفارسي المتوفى سنة 377 هـ: كشف الظنون 2:1179.

(3) الكافية في النحو للشيخ جمال الدين أبى عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب، المالكي النحوي المتوفى سنة 646 هـ: كشف الظنون 2:1369.

(4) الهداية إلى علوم الدراية: منظومة للشيخ الإمام محمد بن محمد بن محمد الجزري المتوفى سنة 833 هـ: كشف الظنون 2:2028.

وجه الأرض أحد يقول حدثنا وأخبرنا حتى وصلت إلى بلاد العرب بالشام ومصر والحجاز. وأما التصوف فكذلك أيضاً ما كنت أظن أن ليس أحد يتداوله بالقراءة والتصنيف والمنازلة بالفعل إلا ما في بطون الدفاتر أو ما عند المنقطعين في رؤوس الجبال. ولقد أخبرني صاحبنا السيد محمد بن رسول[1]، وكان بلديه وعليه جل انتفاعه لأنه أصغر منه سناً أن شيخنا الملا محمد شريف كان يقول: بلغ من قوة حافظة الملا إبراهيم أنه لو لمح مسألة في أي ما[2] كتب وغاب عنه سبع سنين ثم سئل عنها لقال: هي في كتاب كذا في صفحة كذا في سطر كذا، وهذا لعمري إدراك ألمعي وذكاء إياسي، وكفى بشهادة هذا الشيخ له فإنه أدرى به من كل أحد لأنَّ الشيخ والد معنوي، والوالد أدرى بأخلاق ولده. ولما استكمل أنواع الكمالات الإنسانية التي أمكنه اكتسابها في بلده خرج من بلاده، بعد ما مات والده وتزوج وولد له، قاصدا لأداء فريضة الحج وسنة الزيارة، ثم يعود إلى بلده، وكانت طريقهم على بغداد؛ فإن بلادهم في ناحية الشمال من بغداد. ولما وصل إلى بغداد أقام فيها أياما ثم خرج مع قافلة قاصداً مكة، وكان معه أخوه عبد الرحمن، وهو أصغر منه، وبعد انفصالهم عن بغداد بأيام مرض أخوه مرضاً منعه من المشي وعزم على الرجوع إلى بغداد. قال: فلما رأيت عجزه وعزمه على الرجوع لم تطب نفسي بتركه وفراقه، مع ضعفه ومرضه، فرجعت معه إلى بغداد ولم يمكنهما الحج في تلك السنة، فبقي في بغداد وطالت إقامته به، أظن نحو العامين فيما أخبرني. وطلب منه أهل بغداد التدريس، قال: وكنت لا أحسن اللسان العربي إلا ما أقرأ في الكتب، فشق ذلك علي فعانيتُه أياماً، فسهل الله ذلك علي حتى لا أبالي أقرأت بالفارسية أم بالعربية. قال: وكان هنالك طلبة من الأتراك فطلبوا مني أن أقرئهم بالتركية في كتبهم التي هي بلغتهم، وكنت لا أحسن شيئا منها، فتعلمتها في مدة قليلة فصرت أقرأ بالعربية والفارسية والتركية، وما كان شيء أحب إلي من اللغة العربية حتى أني كنت أطلب الله تعالى كثيراً وأقول: أمنيتي من الدنيا أن يرزقني الله ولداً ذكراً أعلمه التكلم بالعربية، وذلك لغلبة العجمة في بلادهم. ولم يزل في بغداد على أحسن حال إلى أن مَنَّ الله عليه بمحبة كتب القوم والمطالعة فيها في مجاورة الشيخ قطب الزمان مولاي عبد القادر الجيلي. قال: فبينما

---

(1) السيد محمد بن السيد رسول الحسني الشهروزري البرزنجي، تفقه على يد الشيخ إبراهيم الكوراني: تحفة الأخلاء، ص: 123.
(2) زيادة من ط.

أنا ذات ليلة وقد فَكَّرتُ في أمري وخلوي مما عليه أهل الحق، فصغرت لدي نفسي وعلمت أن ذاك لا ينال إلا على يد شيخ، فسألت الله تعالى عند قبر الشيخ أن يلهمني ما فيه صلاح نفسي وأن يوجهني إلى حيث يعلم لي الخير ويجمعني بشيخ أسلك طريق الحق على يديه، قال: بينما أنا قائم في أثناء ذلك رأيت الشيخ عبد القادر، رضي الله عنه، في النوم وهو يشير إلى ناحية المغرب، فاستيقظت وعرفت أني أقصد جهة المغرب ولا أنتهي حتى ألقى من يدلني على الله، أو أجول أقصى العمران من ناحية المغرب، فتجهزت للرحيل من بغداد وقصدت الشام لأنها في مغرب بغداد، فلما وصل إلى الشام أقام بها على الحال التي كان عليها في بغداد من التدريس ولقاء الناس بدمشق. قال: وكنت مغرما بكلام الشيخ محي الدين وزيارته ومطالعة رسائله، وحصلت لي مبادئ الفتح في فهم بعض كلام القوم.

قلت: وذلك الشأن ببركة الشيخ محي الدين فقد قال السيد عبد الوهاب الشعراني فيما رأيته في بعض تأليفه نقلاً عن غيره من المشايخ مقرراً لما نقل ومصدقاً له أن من خاصية كلام الشيخ محي الدين أن المثابر على مطالعته يرزق الفهم في كلام القوم وحل مشكلاته، ومصداق ذلك في شيخنا هذا فإنه من أشد الناس كلفا بمطالعة كتبه الكبيرة والصغيرة، وقد أعطي من الفهم في كلام القوم وحل مشكلاته والإحاطة باصطلاحات الصوفية وفهم إشاراتهم، وكشف أسرارهم وتمييز أذواقهم ما لم يعطه أحد ممن رأيت[1] في مشارق الأرض ومغاربها. ومن بركة مطالعة كلام الشيخ محي الدين اتصل بغوث الزمان ورئيس أهل العرفان، شيخنا الختم صفي الدين القشاشي إذ كان كلام الشيخ محي الدين هو السبب في ذلك، وذلك على ما أخبرني أنه وقع كلام بينه وبين بعض أصحابه أيام إقامته بدمشق في حل إشكال وقع في بعض كلام الشيخ في الفتوحات[2]، فدار الكلام بينهما في ذلك، وبعد ذلك قال له صاحبه: إني رأيت في هذه المسألة كلاما لبعض علماء العصر من أهل المدينة المشرفة، يعني شيخنا القشاشي، وكان كتب في تلك المسألة شيئا فأتاه بكلامه، فلما رآه وطالعه استحسنه. قال لي: فقلت له: يبعد أن يكون في هذا الوقت من يتكلم بهذا الكلام لعله منتحل من كلام بعض من تقدم. فلما قلت له ذلك أتاني برسالة الشيخ المسماة بـ: ضوء الهالة في ذكر هو

(1) في ط: رأينا.
(2) الفتوحات المكية للشيخ محي الدين ابن عربي الحاتمي الأندلسي.

والجلالة. فلما طالعتها ورأيت فيها ما بهر عقلي مما منح الشيخ من العلوم اللدنية والمواهب القدسية والكشوفات الغيبية، فرجعت على نفسي باللوم فقلت لها: لم يبق بعد هذا إن لم تصدقي بمقام الرجل إلا محض الخذلان الناشئ عن إساءة الظن بعلماء المسلمين ونسبة الكذب إلى ذي شيبة في الإسلام ملحوظ عند أهله بعين الإجلال والإكرام، فوقعت في قلبي محبته واعتقدت تعظيمه وإجلاله.

قلت: وقد رأيت هذه الرسالة وهي في كراسة مضمنها أن الشيخ، رضي الله عنه، طاب وقته ليلة من الليالي لورود بعض العارفين لزيارته فأخذ يذكر بذكر هو الله على كيفية بينها في الرسالة، وذلك فيما بين المغرب والعشاء، فاستغرق في الذكر إلى أن حصلت له غيبة مقدار ربع ساعة أو نحو ذلك، فكشف له في تلك الغيبة من أسرار الملك والملكوت ومعاني الأسماء والصفات، ومنح من العلوم الوهبية ما بَهَر العقول سماعه، فذكر، رضي الله عنه، في تلك الرسالة أنواع العلوم التي وهبها في تلك الغيبة والكشوفات التي حصلت والإسراءات الروحانية التي منحها في تلك المدة القليلة، وذلك شيء يستغرب وقوعه في هذه الأعصار من لم يؤيده الله بمدد التصديق بأهل ولايته، قال شيخنا الملا إبراهيم: وبعد رؤية هذه الرسالة لم يبق عندي شك في أن صاحبها هو الفرد في وقته وأنه طلبتي التي كنت أطلبها وإليه إشارة الشيخ عبد القادر؛ إذ نحو إشارته وجدت أخباره واتضح أمره، ولا يلزم من صدق رؤياي أن تكون إشارته إلى محل وجوده، بل ولو إلى محل وجود خبره. ثم أخذت في مكاتبة الشيخ، رضي الله عنه، من دمشق إلى المدينة فتأتيني كتبه بما يزيد وثوقا ويقينا بأنه البُغية.

وأقمت بدمشق قريبا من أربع سنين على هذا الحال إلى أن أتاني كتابه يأمرني بالقدوم إليه، فتجهزت للرحيل من دمشق وخرجت منها قاصدا مصر فمررت بالقدس والخليل وزرته[1]، فذهبت إلى مصر ولم أتفرغ للقاء المشايخ بمصر لشغل القلب أنا به متهم من القدوم على الشيخ ولم ألق من مشايخ مصر المشهورين إلا الشيخ شهاب الدين الخفاجي وإلا الشيخ سلطان، أما الشيخ شهاب الدين فسبب اجتماعي به أني كنت إذ ذاك آخذا في تأليف كتاب: إنباه الأنباه على إعراب لا إله إلا الله، فأشكلت علي مسألة، ووجدت النقل فيها عن كتاب سيبويه، وتوَهَّمت أن فيه تحريفاً، فأردت تصحيح النقل من نَفْس الكتاب فسألته

(1) في ط: وزرت.

عنه بمصر فقيل لي: لا يُوجد إلا عند الشيخ شهاب الدين، فذهبت إليه ورَحَّب بي وأخرج لي الكتاب، ووجدت النقل منه على نحو ما توهمت، فصححت النقل منه وفرحت بذلك غاية، وكانت تلك طلبتي و لم تكن همتي الرواية، وكنت أقول في نفسي: إني متوجه في طلب هذا الأمر الذي أنا بصدده وأنا عازم على ركوب البحر إلى مكة، فربما غرقت فيه فلا يبقى مني من يقول حدثنا ولا أخبرنا، فأكون قد ضيعت وقتي بشيء لا أدري هل يحصل المقصود منه وشبت إرادتي بما ليس من شكلها، فأعرضت عن طلب الرواية وما هو من شكلها من ملاقاة علماء الرسوم، و لم أتفرغ إلا للزيارة وقضاء ما لابد من الأوطار.

وأما الشيخ سلطان فإن بعض أصحابي الذين كنت آلفهم ويألفوني كان من أصحابه و لم يزل يقول لي: يقبح عقلك أن يدخل القاهرة و لم يلق أحدا من علمائها و لم يأخذ عن أحد من مشايخها، ولهم علو سند وقدمٍ راسخ في الرواية والدراية، و لم يزل هذا شأن العلماء وأهل الفضل إذا قدموا بلداً أخذوا عَمَّن بها من كبار المشايخ، وكنت أتعلل له بما تقدم فيقول: هذا مقصد محمود من المقاصد الدينية لا ينافي ما أنت بصدده إذا أخلصت فيه النيَّة، فلم يزل بي حتى ذهبت معه إلى الشيخ سلطان، فسمعت عليه بعض أحاديث الصحيحين وبعض المنهاج[1] في فقه الشافعية، وأجازني وكتب لي بخطه الإذن في الفتوى والتدريس والرواية عنه.

قلت: وقد رأيت الإجازة التي كتب له الشيخ بخطه عنده، وكأني مع شيخنا الملا إبراهيم في لقاء المشايخ بمصر على طرفي نقيض، وذلك أني دخلت القاهرة قبله وبعده، فأخذت عن غالب من أدركت بها ممن هو أهل لذلك إلا الشيخ سلطان، فدخلها هو مرة واحدة فلم يأخذ عن أحد بها إلا عنه، وما منعني أنا من الأخذ عنه، رضي الله عنه، إلا الحدة التي جبل عليها والشكاسة التي في أخلاقه والشراسة التي قل أن توجد بدّين فضلا عن صديق، ولكن الله بلطف صنعه وخفي حكمته قادر على أن يجمع له بين تلك الأخلاق والمباركة التي هي أمر من الصبر وأحد من رؤوس الإبر، وبين الصدق مع الله في موارده ومصادره، كما يدل على ذلك جده واجتهاده في عباداته وتقشفه في هيبته وتعففه في مكسبه، وإعراضه عن الرياسة الدنيوية، وما كان السبب لأخذ شيخنا الملا إبراهيم عنه إلا تسخير الله وسبقية

(1) منهاج الدين: كتاب في شعب الإيمان، وهو الشيخ الإمام أبو عبد الله حسين بن الحسن الحليمي الجرجاني الشافعي المتوفى سنة 403 هـ: كشف الظنون 2: 1871.

الكتاب بذلك، ولعل المتوسط له في ذلك كان شديد المداخلة معه، فتحين في ذلك وقت انبساطه وما أنذره حتى أمكنه ذلك، وسيأتي إن شاء الله في ذكر رجوعي إلى القاهرة بعد المجيء من القدس ما وقع بيني وبين الشيخ سلطان عندما رمت الأخذ عنه والله يغفر لي وله وينفعنا ببركاته آمين.

وممن لقيته الشيخ إبراهيم، من مشايخ الطريق بمصر، من دون أخذ عنه، [و][1] الشيخ محمد الخلوتي[2] القاطن بجامع المارديني من مصر، وكنت قد اجتمعت به في إحدى خطراتي بمصر، وزرته مرتين أو ثلاثا في محله من الجامع المذكور وقال لي: إن طريقتنا نحن محمدية لا تنسب لأحد، وكان، رضي الله عنه، من الموسومين بالصلاح في تلك الديار. وطريق الخلوتية مشهورة عند أهل مصر وغيرهم، فلما اجتمعت بالملا إبراهيم وذكرت له ما سمعته منه قال لي: وأنا قد سمعت ذلك منه وأثنى عليه ثناء حسنا، وذكر لي أنه كان جالسا عنده فجرى في خلده يا ترى، وهل بقي أحد اليوم في هذه الديار ممن له التصرف في المقامات والأحوال وما يشبه هذا، قال: فلما جرى ذلك في قلبي قال لي بسرعة: قد بقي في هذه الديار من له التصرف والنفع والدفع، أو كلاما قريبا من هذا. قال: فقلت في نفسي: إن كانوا موجودين فأين هم؟ فإنا لم نَرَ منهم أحداً. فذكر كلاماً يدل على أنه منهم صريحاً، فشممت من نفسي رائحة الإنكار لذلك، فرجعت عليها باللوم والتوبيخ وقلت لها: ما أبعدك من الظفر بالخير، أي شيء يفيد فيك وأي حيلة تعمل معك؟ قلتِ هل بقي منهم أحد؟ فقال لك: بقي. وقلت: أين هو؟ فبينه لك، فأنفت. ولو بيّن غيره لما قبلت أيضاً هذا، والله الجحود البين، فتبت إلى الله من الإنكار عليه واعتقدته.

قلت: وهكذا ينبغي لمن ألهم رشده وسعى في إصلاح قلبه أن يكون خصيم نفسه وحجيجها حسن الظن بعباد الله ما لم يظهر منهم ما دل القاطع على منافاته لصلاح الطوية والحافظ بالمكابرة جحود وردي تقليد، وفيما سوى ذلك فسوء الظن من فساد الطوية وفساد الداخلة. اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه.

---

(1) زيادة اقتضاها السياق.

(2) محمد بن أيوب بن أحمد الخلوتي الحنفي الدمشقي، لزم الشيخ أحمد العسالي مع والده في طريق الخلوتية، من فضلاء أهل الذوق، توفي سنة 1072 هـ: خلاصة الأثر 3: 399.

ولم تطل إقامة الملا إبراهيم بمصر على ما أخبرني، بل جد السير وأسرع النقلة قاصدا الحجاز وحادي الشوق يحلو به، وسائق العناية يسوقه، ورائق التوفيق يهديه، وهمة الشيخ جاذبة لأفكاره ومحبته آخذة بمجامع قلبه، فركب البحر من السويس حتى أناخ بجدة، وكان ذلك في أشهر الحج فبقي بمكة حتى حج وأدى الفريضة، فذهب إلى المدينة وزار الرسول الأعظم والنبي الأكرم وأفضل شافع وأقرب مشفع، صلى الله عليه وسلم، ولقي الشيخ الذي كان طلبته منذ أزمان فواجهته عنايته وجذبته إلى حضرة التقريب همته، فاجتمعت على قلبه نورانية حضرة الاصطفا، وسريان مدد أهل الصفا، فلم تلبث أمراضه أن عالجها الشفا، فأقام بحضرة الشيخ يغذيه بألبان تربيته ويربي طفل إرادته بلطائف أغذيته، ويحضره في أنديته، وينمي ضعيف سلوكه بأحسن تنميته، فقطعه عن أعظم ما لوفاته وألذها عنده، وهو التدريس في العلوم الظاهرة التي هي هِجيراه[1]، ومنعه من حضور مجالسها عند سواه، ثم أدخله الخلوة، وكان ذلك كما أخبرني في رباط السلطان الذي بباب الرحمة، أحد أبواب الحرم الشريف، وأمره بإنهاء كل ما يتجدد له من المعارف والعلوم إليه، فكان الشيخ، رضي الله عنه، يعظم سروره بما ينهيه إليه من ذلك ويعجبه حسن إدراكه وسرعة نفوذه في طرق المعارف وترقيه في مدارج السلوك، فينبهه على ما عسى أن يقع له من الوهم والحيرة، وينقذه من أوحال الشكوك بنافذ همته، فسار في مهامه السلوك سير جاد يهديه ماهر خريت[2]، عارف بأغوار الطريق وأنجادها، عالم بشعابها وأوهادها، فلا تسأل عن قرب وصول من هذه صفته إلى مقصوده، ولا تستبعد ما ينال عند وصوله من كرامة معبوده، وما شق عليه من عقبات الطريق التي سلكها، ولا طال عليه منها إلا عقبة محو الصور المنتقشة في لوح قلبه من مكتب تعليم العلوم الظاهرة وتقرير أدلتها التي هي من بضاعة العقل والحس مكتسبة وعلى نهجها سائرة، والعلوم الوهبية والمعارف الإلهية التي هي من وراء طور العقل لا ترسم في القلب ما لم يصف من كدر الجمود على النقل.

ولقد أخبرني، رضي الله عنه، أنه لما أدخله الشيخ الخلوة أدخل رجلا آخر من أصحابه، وكان ذلك في يوم واحد، فبعد الأربعين يوما أذن لصاحبه في

(1) هجيراه: دأبه وديدنه: لسان العرب: هجر.
(2) الخريت: الدليل الحاذق: لسان العرب: خرت.

الخروج و لم يأذن لي إلا بعد السبعين، وكنت أوبخ نفسي وأقول: ما أبعدك عن الخير، دخلت مع صاحبك في يوم واحد، وها هو لحسن استعداده وقوة جده واجتهاده قد أذن له في الخروج، وأنت إلى الآن لم تزالي مع كدوارتك ومعايبك. قال: فلما أذن لي في الخروج وجئت إلى الشيخ قال لي: يا ولدي ليس اللوح الذي لم يكتب فيه أصلا، وإنما توسخ من طول المكث مثل الذي كتب فيه طويلا وانتقشت فيه صور الحروف فإن الأول يقرب جلاؤه من دون كبير مؤنة والثاني لا ينجلي إلا بعد مؤنة كبيرة، فعلمت السر في تأخيري عن صاحبي، وكان هو قليل الأخذ في العلوم الظاهرة، و لم تزل حال الملا إبراهيم تترقى عند الشيخ إلى أن أذن له في الإفتاء والتدريس، وزوجه ابنته، وكان في آخر حياة الشيخ قبل موته بأعوام هو الذي يتولى كتب الجواب عن الرسائل التي تأتي للشيخ من الآفاق ثم يطلع عليها الشيخ، فتارة يزيد فيها شيئاً أو ينقص منها شيئاً، وتارة يتركها على حالها. ولقد رأيت كثيرا من الرسائل التي هي من تصنيف الملا لإبراهيم مكتوبا في هوامشها بخط الشيخ، وكان الشيخ، رضي الله عنه، ترد عليه أسئلة كثيرة من سائر الآفاق شاما وعراقا ويمنا، بل ومن الهند، وكان يجيب عن كل ذلك في العلمين الظاهر والباطن، وأعطاه الله من القوة على ذلك ما يدل على أنه مأذون له في الإرشاد وممد من الله بالتوفيق والإسعاد. وغالب رسائل الشيخ، وهي كثيرة نحو السبعين، إنما كانت أجوبة عن أسئلة، ولذلك انتشرت في البلاد، فيوجد كثير منها بالشام واليمن ما لا يعرفه أهل الحجاز، وقد اعتنى تلميذه وخليفته الملا إبراهيم بجمعها واستكتابها من الآفاق، فاجتمع عنده أكثرها. ولما قربت وفاة الشيخ، رضي الله عنه، قدمه على جميع أصحابه وأولاده، واستخلفه وأوصى إليه، فصار هو الخليفة من بعده ظاهرا وباطنا، قائما بوظائف التدريس ومجالس الذكر والتلقين والإلباس والصحبة والإرشاد إذ لم يترك الشيخ رحمه الله شيئا مما يتوقف عليه أمر الإرشاد إلا وأتحفه به من تلقين وإلباس وصحبة وغير ذلك، وسيأتي ذكر الوصية التي كتب له الشيخ، رضي الله عنه، قبل موته في آخر الترجمة.

ذكر اجتماعنا به، وما قرأناه عليه واستفدناه منه، وما كتبناه له وشيء من كلامه رضي الله تعالى عنه (وأرضاه)[1]

تقدم في ترجمة شيخنا أبي الحسن الديبع أنه هو وشيخنا الثعالبي كانا السبب في معرفتي به لثنائهما عليه وتحريضهما لي على لقائه والاتصال به، فلما قدمت للمدينة وكانت أيام الموسم وكثرة الأشغال وعلمت أنه لا يتفرغ لي، وكنت أؤخر لقاءه يوما فيوما لكون مترله خارج المدينة، فلم يقدر لي لقاؤه حتى قدم شيخنا أبو الحسن الديبع، وكان بينهما ود وإخاء من قبل الشيخ، فذهبت معه إليه ودخلنا إليه في مكانه الذي كان يجلس فيه خارج زاوية الشيخ، فوجدناه في علية له فيها كتبه التي يطالع فيها، فرحب بنا كثيراً، وأعلمه الشيخ أبو الحسن بشأني وأني ممن صحب الشيخ وأنتسب إليه، فرعى لي ذلك حق رعايته، وهش وبش، وأنس ورحب، ودعا بخير، وكنت كتبت قصيدة في مدحه قبل الاجتماع به فناولها إياه شيخنا أبو الحسن وهي هذه[2]:

[طويل]

أشافِيَ قلبي بعدما كنتَ جارحهْ ... يُحبكَ مني كل عُضو وجارحهْ

عليكَ ثنائِي ما حييتُ فإنني ... بسانحَةٍ من كل خير وسارحهْ

وبينَ يديْ نجوايَ قدمتُ مِدحَتي ... لتُكرمَني والمرءُ يكرمُ مادِحَهْ

ولَمْ أبْغِ إكرامًا بدُنيا أنالهَا ... ورِفعة قدرٍ في الديانَةِ قادحَهْ

ولكنْ لإصلاحِ بنفسٍ خبيثة ... عن الخيرِ ما زالتْ مدَى الدهرِ جامحهْ

فما زلتُ من أقصَى البلادِ أسُوقها ... إلى المُصطفى خيرِ الورى وهْيَ فارحهْ

ومنْ بعدهِ للشيخ كيما يذلها ... فتسكنْ فهي بالرياسَةِ طافحهْ

فلما وجدتُ الشيخَ لله رائِحا ... بروْحِ وريحانٍ وأعبقِ رائِحهْ

---

(1) زيادة من ط.
(2) وردت القصيدة في الثغر الباسم، ص: 12.

سألتُ ذوي العرفانِ عن بابِ فضلِهِ ومن صارَ بعد الشيخِ للناسِ فاتِحهْ
فقالوا أبُو إسحاق خاتِمة النهى وفاتَحُهُ الإحسانِ أكرمْ بفاتِحهْ
فيممتُ هذا البابَ أرجو افتَاحه فها أنذا أدعُو وأقرأ فاتِحهْ
أناديكَ يا مولايَ بالسر قائلا مقالةَ صَبٍ قد سكنتَ جوانحهْ
أمولايَ إبراهيم يُا منْ بفضلِهِ طيورُ العُلا في دوحةِ المجدِ صَادحهْ
ببابِك عبدٌ طالِب لزيارَة لكيما ينالَ دعوةً منك ناجحهْ
أحبكَ لا عن رؤيةٍ سبقتْ له ولكن لأخبارِ أتتْ عنكَ صَالحهْ
يُمت بذا الشيخِ الذي بركاتهُ وأسرارهُ بينَ المُريدينَ لائِحهْ
وكانت لهُ من قبل ذا نسبةٌ له على نسبةِ الأشياخ بالسرِ راجحهْ
وأنتَ لهُ نِعم الخليفةِ وارِث لمرتبةٍ عن أعيُنِ الخلقِ نازحهْ
فأكرِمْ بذا إرثا وأنعِمْ بوارث له فطنةٌ في أبحُرِ العلمِ سَابحهْ
إلى اللهِ يدعو القاصدينَ بِهمة لكل مريدٍ لم تزلْ وهْيَ ناصِحهْ
ولِمْ لا وشيخُ العصرِ في السر خصهُ بغاديةٍ من كل علمٍ ورائحهْ
وهذبَهُ حتى تخلصَ واغتدى ورتبتهُ في الدينِ والعلمِ واضِحه
عليهِ من اللهِ الرضَا وعليكَ ما أحبتكَ نفسٌ للمكارمِ جانحهْ
وما دامَ قصدُ اللهِ من بابِ أهلهِ يزيلُ كُروبا لم تزلْ قبلُ فادحهْ
أصلي على خيرِ الورَى بعد حمْدِ منْ أتاهُ خزائِنُ الهُدى ومفاتِحهْ

هـ. والحمد لله.

ولما فرغ من قراءة القصيدة استحسنها ودعا لي بخير، وبالغ في التحفي، وقَدَّم لنا كسراً من الكعك مع ملح وسعتر، فلم أر ألذ من تلك الأكسار، وأتى بالقهوة على ما هو المعتاد منهم، وكنت غير راغب فيها، ولكن تناولت منها

مساعدة، وعندما أنس بي، رضي الله عنه، وتفاوضنا الكلام وعلم أن لي ماسة بطلب الحديث، وكانت رغبته فيه من أعظم الرغبات بعدما كان فيه أولا من الزاهدين كما قدمنا، سألني هل حصلت لك رواية الحديث المسلسل بالأولية بشرطه؟ فقلت له: نعم[1]. فقال: إني كنت راغباً في تحصيله بشرطه و لم يتفق ذلك لي إلى الآن، وهذا أول مجلس لقيتك فيه فأحب سماعه منك قبل سماع شيء من الحديث. فحدثته به فرأى ذلك غنيمة حصلت له، والحديث المسلسل بالأولية هو ما أخرجه البخاري في الكنى والأدب المفرد، وأخرجه غيره أيضاً عن عمرو بن دينار عن أبي قابوس مولى عبد الله بن عمرو بن العاصي، رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء[2]. وهذا الحديث رواه سفيان بن عيينة، رضي الله عنه، عن عمرو بن دينار قال سفيان: وهو أول حديث سمعته من عمرو، ثم لم يزل الأئمة من لدن سفيان يرويه بعضهم عن بعض بصفة الأولية إلى أن وصل إلينا بصفته، فقد رويته عن عدة من مشايخي بشرطه، منهم شيخنا زين العابدين الطبري، حدثني به أول ما حدثني، ومنهم الشيخ إبراهيم الميموني حدثني أيضاً قال: وهو أول حديث سمعته من سيد الدنيا الشيخ محمد الرملي[3]، وأسانيد الحديث مذكورة في غيرها من إجازات مشايخنا، رضي الله عنهم، فلما سمع مني شيخنا الملا إبراهيم هذا الحديث الشريف واتصلت روايته له بشرطه طلب مني أن أجيزه به وبجميع مروياتي لما رأى لي من اتساع باع في الرواية، وسمع مني بعض الشفا وثلاثيات البخاري، فتعللت الله له واستعذرت، فلم يُجْد ذلك، فاستعنت بالله وكتبت له بطاقة تضمنت مرغوبه بعد أن ناولته برنامج رواياتي فقلت له: اقتطف منه ما أردت من الأسانيد وأسماء المشايخ والمسموعات في أي ما فن، لأن استيفاء جميعها يطول علي وأنت في غنى عن بعضها لوجوده عندك، ففعل، رضي الله عنه، وانتخب منه ما أحتاج إليه، فكفاني مؤنة سرد الأسانيد، وكذلك كنت أفعل مع جميع من استجازني في البلاد المشرقية إلا القليل منهم، فمن علمت أنه لا رغبة له في اتساع الرواية وأنه يكتفي بسند أو سندين ما كتبت له ما تيسر، ونص البطاقة

(1) أنظر: اقتفاء الأثر، ص: 165.
(2) كتاب الكنى 1:64.
(3) محمد بن أحمد بن حمزة، شمس الدين بن الشعاب الرملي المنوفي المصري، فقيه متصوف، ولد 919 هـ وتوفي سنة 1004 هـ: خلاصة الأثر 3:342.

التي كتبت له مجيزاً وصيرهًا لموعوده المقترح تنجيزاً، وجادت بها القريحة عندما سميتها تعجيزا: حمداً لمن قطع باسمه الأول سلسلة الأولية وأبقى باسمه الآخر تسلسل الحوادث الأبدية على وفق الأقدار الأزلية، وشكراً لأولي مستحق للحمد والشكر من كل ذي أولوية، وأجل محمود ومشكور في العوالم السفلية والعلوية، وأوثق مستند يحسن إليه الاستناد وأصح سند ترفع إليه سلاسل الإسناد الذي لم يستند إلى شيء إلا لانفراده بالقيومية والربوبية، وإليه يستند كل شيء بحكم المربوبية والعبودية، مجير من صح استناده إليه بالمعارف الوهبية، ومجازي من أصغى إلى حديث نفسه بتركه مع علومه الكسبية، راحم الرحماء من عباده أهل الخصوصية بجعلهم مظاهر لأخلاقه الرحمانية الرحيمة، وصلاة وسلاماً شرف قدرهما وفاح نشرهما وارتفع ذكرهما وأمر أمرهما على أسمى من إلى أعلى السماء يسمى، فأمسى وبأسمى الأسماء عند الله وملائكته في السماء يسمى، ثم أصبح وهو أسنى من كل ذي سناء وسما وأسمى، أحلم من تخلق بأخلاقه الحلما، وأحكم من تطفل على حكمته الحكما، وأعلم من أسند عنه العلما: ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء[1]، إنما يرحم الله من عباده الرحما[2]. ورضي الله عن آله الطيبين الأطهار وعن سائر أزواجه الطيبات والأصهار، أولئك أفضل من نشرت لنشر سؤددهم سود الرايات، وسودت بكتب محاسنهم صحف السادات من أهل الروايات، وعن أصحابه المستنين بسنته في كل سنن، الحاملين عنه الفرائض والسنن، العاضين عليها بالنواجد والأسنان، الضاربين عليها بمحدد النصل والسنان، الناصرين لها باللسان والبنان، القاطعين في نصرها كل مجدول من شراك وعنان، وعن التابعين لهم وتابعيهم بإحسان الذين لهم المنة بنقل هذا الدين على كل إنسان، فقد هذبوا ونقحوا وكتبوا وصححوا وسمعوا فحملوا وردوا فقبلوا ورووا ورووا، وما نووا فيما نووا، (فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا)[3] ولا تنكبوا عما عليه من نصرة الدين في سائر الأقطار، وكانوا حتى انتشرت الشريعة في سائر الأمصار، وتحصنت من الزيغ بأسلحتهم في كل الأعصار، فأشرق الدين بحول الله متألقة أزهاره مترعة حياضه وأنهاره، يحمله من كل خلف عدوله وأفاضله، ويبلغه من كل سلف رؤوسه أماثله حتى وصل إلينا على حين فترة من

---

(1) كتاب الكنى 1:64.
(2) كشف الخفاء 1:250.
(3) آل عمران: 146.

أهله وقلة فرعه وأصله، ولولا أنّ الله تكفل بحفظه في هذه الملة وجعله في صدور طائفة من الأئمة لمحيت منذ أزمان آثاره، وتمزق من طول ما لبسه شعاره ودثاره، ولله الحمد على نعمه التي لا تحصى وأياديه التي لا تستقصى. هذا وإن ممن أهله الله لحفظ هذه الرتبة في هذه التربة، وأحيا به رسوم الشريعة والحقيقة، وأبان به العلوم الجلية والدقيقة، وجمع له بين طهارة السر والعلانية، وجعل أعماله كلها على بصيرة وعلى نية، وأتحفه بالوراثة الأحمدية في البلد المحمدية، وطهره عن الأخلاق الدنية وحلاه بالوصاف الدينية، شيخنا ومرشدنا ومنعشنا ومنقذنا الملا إبراهيم بن حسن الكوراني[1] ثم الشهراني، بل النوراني ثم الصمداني، نزيل طيبة المطيبة، ومزيل الغطاء عن الأسرار المغيبة، جعله الله في كل أوطاره مهديا، ولعباده في نيل أوطارهم هاديا، وسلك به مسالك الموفقين رائحا وغاديا، ولقد بلغ من اهتمامه بأمر الدين وسلوك سبيل الأئمة المهتدين مبلغا لا يرضى فيه لنفسه أن يفوته شيء من شوارد العلوم إلا ما اقتنصه بحبالة عزمه، ولا يترك شاذة ولا فادة من الكمالات إلا تناولها بسيف حزمه، فلم يدع واديا من أودية الدراية إلا هبطه، ولا محلولاً من عقود الرواية إلا ربطه، ومن المعلوم أن من معالم الرواية التي هي على أنصاف الراوي أكبر آية رواية الأعلى عن الأدنى والأكبر عن الأصغر حسا ومعنى، وكأنه أسمى الله قدره، وأنار في سماء المعالي فجره، أراد لهذه الفضيلة تحصيلا، وقصد أن يحيط بطرق الرواية جملة وتفصيلاً، فرآني للرواية أهلا وإن لم أذق بين أهلها عللاً ونهلاً، لإنصافه الذي جاوز الحد وفات العد، فلذلك استجازني وليته أجازني، وإلى من هو من أهل الرواية جازني.

ولما ألزمته نفسي من طاعته وانجماعي على أني من جماعته لم أتلكأ فيما طلب مني، ولم استعذ بقصوري الظاهر عني، بل امتثلت ما أمر به، وأتيت وانتثلت سهم الإصابة من كنانتي ورمي، فإن قرطست الغرض فببركة همته، وإن أخطأت فالجعالة ثابتة في ذمته، إذ لم يشترط على الإصابة لانتفاء التقرير بالتقرير أني لست من تلك العصابة، فأقول لله مستخيراً وبه مستجيرا:

[طويل]

أجزتُكَ لكن مثلكُم مــن يُجيــزني ... ولم يَــستفِدْ مــني ولكــن يُفيــدني

(1) إبراهيم بن حسين: الكردي الكوراني، عارف متصوف، جاور بالمدينة المنورة مدة، توفي عام 1102 هـ: صفوة من انتشر، ص: 350.

بما قد سمِعتُ من شُيوخي قراءة   من الشيخ أو مني وهُم يسمعونَني
وكل الذي أرويهِ مما أجازَني   وناولني من بالروايةِ يعتني
وكل الذي حمَّلتهُ فحمَلتهُ   بشرطٍ لدى أهْلِ الحديثِ مُبيَّنِ
وما صح أني قد رويتُ لديكمُ   فاخبرْ به عني وحدِّثْ وعنْعِنِ
خصوصًا حديثَ الأوليةِ أنني   أجزتُ به من قبلِ كل مُعيَّنِ
وكل الذي في جمعِنا من مُؤلف   بأي فنونِ العلمِ أو من مُدَوِنِ
بإسنادهِ إن شئتَ فاكتبْ جميعَها   وإن شئتَ بعضًا فاقتطفْ منهُ واجتنِ
وأكثرهُ ساوَيْتني فيه أنتَ في   غنى عنهُ بل في بعضهِ أنت مُقتني
وهَبْ أنني قد فتّ بالترِ مهولا   يقاربُ قطعا ما بهِ أنت فُتّني
فكم حِكمةٍ منكم تلقفتُها وكم   فلم تستفدْ عشارَ ما قد أفدتَني
وما كنتُ أهلا أن أجيزكَ إنما   دعوتَ فلبيتُ الندا إذ دعوتَني
ولو أنني استطعت[1] امتاعا لكنت قد   أبَيْتُ وقِدمًا كان ذلك دَيْدني
وفي كلِ حالِ أحمدُ الله مُهديا   صلاةَ لِمَنْ من ربهِ حبهُ يُدني

وكتبت له هذه البطاقة إثر ما اقتطعته من الأسانيد وأسماء المشايخ، فاغتبط بذلك، ولا يخفى ما اشتملت عليه هذه النبذة من براعة البدء وسلاسة النظم والنثر وحسن التخلص ولطيف الاعتذار وتناسب الفقر وتمكن القوافي، وما أبعد صدور مثلها من مثلي لولا أن مكان القول ذا سعة، وأوصاف المخاطب عن أن يحيط بها قولي مع ذلك شاسعة.

ولم أزل مدة إقامتي بالمدينة أواصل زيارته وأكثر الترداد إليه في محله إلا أيام مرضي فإنه، رضي الله عنه، كان يتعاهدني بالعيادة، فجزاه الله خيرا، ولقد جبله الله على أخلاق من مجامع الخير قل أن توجد في غيره علماً وعملاً وورعاً وزهادة

(1) في ط: استطعت.

وتواضعاً وصبراً وحلماً واحتمالاً وصدقا وإخلاصا وعدم مبالاة بالنفس، يلبس ما تيسر ولا يأكل ما تعسر، تاركاً لزي متفقهة الوقت ومتصوفته من تكبير العمامة وتطويل الأكمام وإرسال الطيلسان ولباس الجوخ، إنما يلبس عمامة متقاربة يرسل عذبتها بين كتفيه، ويلبس من متوسط الثياب ما يناسب وقته من حـــر وبـــرد، وفشت[1] صوف ملون بالأبيض والأسود كما هو لباس عامـــة أهـــل الحجـــاز، وكومية لاطية تحت العمامة، إذا وجده من لا يعرفه في محل درسه مع أصحابه لا يميز بينه وبينهم لاختلاطه بهم، ولعدم تصديره وإظهار التمييز عليهم حتى في كلامه وتقريره للأبحاث، يبدي ذلك على وجه يشبه المذاكرة والمفاوضة فيقولك لعل كذا وكذا، ويشبه أن يكون كذا، أترون أن هذا يفهم على هذا، فإذا رجع ولـــو أدنى مراجعة توقف حتى يتثبت بيد أن لسانه فيه بعض ثقل في التقرير بالعربيـــة. وإذا كتب فلا تسأل عما يبدي ويعيد في تقريره، وقد قرأت عليه شـــرح الهدايـــة في الحكمة[2] لوالد السيد الجرجاني قراءة بحث وتدبر وتحقيق من أوله إلى آخره، وكان مجلسه، رضي الله عنه، روضة من رياض الجنة، قلّما يقرر مسألة مـــن مـــسائل الحكماء إلا وأدرج فيها ما يشاكلها من الحقائق وعقائد المتكلمين، ويبدي ما بين كلامهم وكلام العارفين والمتكلمين من التفاوت ويقول: قاربوا العثور على الحق. ولما يهتدوا إليه لفقدان نور المتابعة والاستضاءة بمـــشكاة النبـــوءة، وذلـــك لأن موضوع العلمين ومطلوب الفريقين متقارب، إذ كل منهما البحث فيه إنما هـــو على ماهية الوجود المطلق، وأوليته ومتعلقاته وأوصافه وأقسامه وتمييز القديم منـــه من الحادث، إلا أن الحكماء تكلموا في ذلك ببضاعة عقولهم المزجاة فلم يصلوا إلا لحدس وتخمين وأوهام مستندة إلى تجاريب وقياسات الغائب على الشاهد، وكل ذلك لا يفيد صريح العلم الذي يثلج الصدر. بيد أن الإشراقيين منهم معتمـــدهم على كشوفات تحصل من الرياضات الفلسفية وأذواق وإدراكات وجدانية تحصل لهم من مصاحبة مشايخهم، وهي أيضاً كثيرة الغلط عظيمة الاشتباه، لا يكاد يتميز فيها الحق من الباطل، وهي طريقة الأقدمين منهم كأفلاطون. وأول من أخـــرج الحكمة والقوة إلى الفعل وجعل لها قوانين تعليمية من منطق وهندســـة تلميـــذه إرسطا، وتسمى حكمة هؤلاء حكمة المشائين لمشيهم حول أساتذتهم يتعلمون من

(1) فشت: الفشاش: الكساء الغليظ: لسان العرب: فشش.

(2) هو شرح السيد الشريف على بن محمد الحرجانى المتوفى سنة 816 هـــ على كتاب الهداية: كشف الظنون 2:2038.

ألفاظهم وحكمهم، وتسمى حكمة الأولين حكمة الإشراقيين لكون مرجعهم إلى ما يشرق في بواطنهم من الحكم والإدراكات، وهي كما قدمنا كثيرة الاضطرابات لأن للعقول حدا تنتهي إليه، والمطلوب وراء طور العقل، ولله در القائل:

[بسيط]

وللعقــول قــوى تــستر مــدى   إن تعده ظهرتْ فيهِ اضــطراباتُ[1]

وقد ألف في كل من الطريقين تآليف قديمة وإسلامية، وأحسن التآليف في الأولى تأليف السهروردي المقتول المسمى بــ: حكمة الإشراق[2]، وقــد قــرأت بعضه على شيخنا الملا إبراهيم، وكان صاحبنا بلديه السيد محمد بن رسول ابتدأ عليه قراءة هذا الكتاب.

وأما المليون فالمتكلمون منهم بحثوا عن ماهيَّة الوجود من طريق العقل أيضا، إلا أنهم مستندون إلى النقل أيضاً، واعتمدوا عليه ورفضوا ما لم يمكن رده إليه من أقوال الحكماء، كقدم العالم وتأثير الأفلاك، والقول بالعلة والطبيعة، وغير ذلك مما هو مقرر في محله. ووافقوه في أشياء كثيرة لم يرد نقل بما يخالفها أو ورد واحتمل، فأهل السنة يتمسكون بصريح النقل ويهملون آراء الحكماء ولا يؤولون النقــل، والمعتزلة بالعكس، ولأجل ذلك أدخل المتكلمون من الفريقين في كتبهم من أقوال الحكماء وآرائهم ومذاهبهم وعلومهم ما كاد العلمان به أن يشتبهاً، أعني علــم الكلام وعلم الحكمة، حتى إن كتب المتأخرين من المتكلمين كالعضد[3] والسعد[4]، معظمها إنما هو في تقرير مذاهب الحكماء، فصارت الإلهايات والنبويات منها جزء من الجزاء، ومع ذلك فقد أبرزوها في قالب تقريراتهم واحتجاجاتهم، وإن كــانوا يخالفونهم فيما لم يوافق عليه النقل.

---

(1) البيت مكسور.

(2) كتاب حكمة الإشراق للشيخ شهاب الدين أبي الفتح يحيى بن حبش السهر وردي المقتول بحلب سنة 587 هـ: كشف الظنون 1:684.

(3) الإشارة هنا إلى شرح العلامة عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي المتوفى سنة 756 هـ لكتاب: منتهى السول والأمل في علمي الأصل والجدل، للشيخ الإمام جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب المالكي، المتوفى سنة 646 هـ: كشف الظنون 2:1853.

(4) الإشارة هنا إلى شرح سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى سنة 791 هـ لمفتاح العلوم للعلامة سراج الدين أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي المتوفى سنة 626: كشف الظنون 2:1763.

لطيفة:

ذكر الإمام السمرقندي[1] في بعض تآليفه كلاماً له يشتمل على تقسيم عجيب في التمييز بين مذاهب العلماء الإشراقيين والمشائين ومذاهب المتكلمين والصوفية المحققين، فلنذكره هنا تتميماً للفائدة فقال ما نصه: الطريق إلى معرفة المبدإ والمعاد من وجهين، أحدهما طريق النظر والاستدلال، وثانيهما طريق أهل الرياضة والمجاهدة، فالسالكون للطريقة الأولى إن التزموا ملة من ملل الأنبياء عليهم السلام فهم المتكلون، وإلا فهم الحكماء المشاؤون والسالكون للطريقة الثانية، وهم أهل الرياضة والمجاهدة إن وافقوا في رياضتهم أحكام الشريعة فهم الصوفية المتسرعون، وإلا فهم الحكماء الإشراقيون، انتهى. وهو كلام عجيب تتميز به المذاهب، وهو غير مخالف لما قدمنا من الكلام في مذهب الحكماء والمتكلمين.

وأما العارفون والمحققون فمعتمدهم في أول الأمر على النقل الصحيح والفهم الصريح من الكتاب والسنة من غير إسناد في ذلك إلى قول متفلسف تقليداً، ولا إلى تخمين بعقل وحدس بفكر إلا ما لا بد منه في فهم المنقولات، فيقبلون بكليتهم على صدق المتابعة وتزكية النفس وتهذيبها على طريق الاقتداء وأفراد الوجهة وقطع العلائق حتى تشرق أنوار الحق في قلوبهم فتفتح لها أبواب الملكوت فتشاهد بأنوار البصائر وصفاء السرائر حقائق الوجود العلوية والسفلية، وتدرك الأشياء الغيبية على ما هي عليه، ولذلك لا يقع في كلامهم غالباً على حقائق الموجودات ما يخالف ما أخبر به عنها مخترعها تعالى ومنشؤها على لسان رسوله الأكرم، صلى الله عليه وسلم، وإن ظنه من لم يفهم مقاصدهم مخالفاً فذلك لقصور نظره على أنهم متفاوتون في قوة نور البصيرة ونفوذ الإدراك وصحة الكشف، فقد يخبر أحد منهم بخلاف ما أخبر به، وكل منهم صادق لأنه أخبر بما أدرك؛ وفوق كل من ذي العلمِ العليم[2]، ومنتهى العلم إلى الله العظيم.

وما أقرب طريقهم من طريق الحكماء الإشراقيين، لولا ما فات الإشراقيين من نور التوفيق المسبب عن صدق المتابعة، ومن تأمل كلام حكماء العارفين كابن

---

(1) للشيخ الإمام نور الدين أبى بكر احمد بن محمد الصابوني الحنفي المتوفى سنة 508 هـ، من مؤلفاته :الهداية في الكلام: كشف الظنون 2:2040.

(2) في ط: عليم.

سبعين[1] والشيخ محي الدين وأضرابهما علم قرب ما بين الطريقين في المدرك وبعد ما بينهما في المدرك.

وقد أطلنا الكلام في هذه المسألة لئلا يستبعد جاهل مزج قراءة كتب الحكماء بكلام العارفين الأصفياء، ولعمري إن في قراءة كتبهم وفهم كلامهم أعظم معين على فهم الحقائق لمن وفق لصدق المتابعة، وأيد بصحبة عارف كشيخنا الملا إبراهيم فإنه ما برز على أهل زمانه، ولا فات سائر أقرانه إلا بذلك فإنه بعد ما تمهر في فهم المعقولات وإدراك أقاويل الحكماء وسبر آرائهم وَفْقَاً لصحبة عارف زمانه، فأشرقت أنوار المعارف من مشكاة قلبه الذي كاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار، وكذلك كان الإمام الغزالي، رضي الله عنه، وأضرابه كما أخبر عن نفسه في كتابه: المنقذ من الضلال بعدما حقق تلك العلوم بأسرها وخاض فيها خوض ماهر خريت أدركته العناية الأزلية فصار أمره إلى ما صار. وأما من لم يوفق لما وفق إليه من ذكر من صدق المتابعة وصحبة العارفين فهي من أعظم الضرر عليه توقعه في مزالق من الأوهام ومتشابهات من الأفهام، لا يكاد يتحصل على شيء يشد عليه يده لا ينكشف له فهم يثق بما أداه إليه إلا سرى به إلى فهم آخر يصير معه الاعتقاد الأول شَكّاً ووهماً. ثم كذلك إلى هلم جرا، وذلك شأن من ينتقل من كون إلى كون، والأكوان كلها ظلمة وخيالات وأوهام لا تخرج من وهم إلا إلى وهم، ومن وفق انتقل من كون إلى مكون، ولا يكون ذلك إلا به، فمن انتقل بالله وصل إلى الله، ومن انتقل بنفسه وعقله الذي هو من جملة الأكوان لم يصل إلا إلى الكون الذي انتقل منه، ولله در العارف ابن عطاء الله إذ قال[2]: لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى [يسير والمكان][3] الذي انتقل منه هو الذي انتقل إليه، ولكن ارحل عن الأكوان إلى المكوّن، (وإن إلى ربك المنتهى)[4].

(1) عبد الحق ابن سبعين: من كبار المتصوفة بالغرب الإسلامي، توفي بمكة المكرمة سنة 667 هـ: شجرة النور الزكية 1:281. الأعلام 3:280.
(2) الحِكم، ص: 112.
(3) إضافة من الحكم.
(4) النجم: 41.

وجل المكون أن يصل إليه أحد إلا بتوصيله، فمن طلب الحق بالحق وصل إلى صريح الحق، ومن طلب الحق بغير الحق لم يصل إليه أبدا، وكل ما سوى الله فليس بحق لأنه خيال ووهم إن فتشته لم تجد شيئا، والحق ليس كذلك.

وقد قرأت عليه، رضي الله عنه، طرفا من شرح المواقف للسيد، قال، رضي الله عنه، في إجازته لي ما نصه: وقد قرأ علي طرفا من شرح المواقف للشريف الجرجاني، قدس سره، قراءة دراية، واخترنا من مباحثه ما يكون سلماً إلى فهم الحقائق[1]. هـ كلامه. والذي اختار لي من ذلك هو مبحث الوجود هل هو مقول بالاشتراك على إفراده أو بالتوطؤ، وكلام السيد، رضي الله عنه، في ذلك غاية في التحقيق، وهو أرقب من رأينا من المتكلمين لمذاهب العارفين وأكثرهم عثوراً على مقاصدهم، و لم لا يكون كذلك وقد سلك على يد غوث الزمان الشيخ علاء الدين العطار البخاري أجل خلفاء الإمام القطب نقشبند، رضي الله عنهم، ودخل في طريق القوم على يديه وترك ما كان عليه من أبهة المدرسين، فأشرقت أنوار المعارف من قلبه، وظهرت عليه بركات صحبة القوم، وكان، رضي الله عنه، من جماعة الملا سعد الدين التفتزاني ومن أكابر أصحابه حتى برز عليه في حياته، وكتب على كثير من مصنفاته كتابات أبانت عن إنافته عليه في تحقيق العلوم، وقد حصلت بينه وبينه مناظرة في مجلس تمرلنك سلطان ما وراء النهر فأفحمه، ثم اعتذر إليه بعد ذلك، وقد أخبرني بعض المشايخ أن السعد وجماعته، وفيهم السيد قدموا لزيارة بعض المشايخ العارفين، فلما جلسوا بين يديه قال لهم ذلك العارف أيكم يتخلص عن هذه الوظائف ويترك هذا المنصب وجاهه لدنيوي وأنا أوصله إلى الله في أقرب مدة، فضن الملا سعد الدين برياسته، وكانت له رياسة كبيرة في آخر عمره وجاه عند الأمراء وجلالة قدر عند أرباب الدولة وغيرهم من العوام، فقال السيد لذلك العارف: أنا أتخلع من رياستي وأترك هذه الوظائف العلمية والمناصب الدنيوية، فقبل منه ذلك وصرف همته إليه، فانتفع بذلك في أقرب مدة و لم يسم لي من سمعت ذلك منه العارف الذي سلك على يديه حتى رأيت في كتاب الرشحات[2] للكاشفي أنه صحب الشيخ علاء الدين العطار

---

(1) إتحاف الأخلاء، ص: 123.

(2) رشحات عين الحياة: كتاب فارسي في مناقب مشايخ النقشبندية ورسوم طريقهم ضمنا لحسين بن علي الواعظ الكاشفي البيهقي المشتهر بالصفي: كشف الظنون 2: 1844.

وصحب أيضا تلميذه الشيخ نظام الدين الخاموش بأمر شيخه علاء الدين رضي الله عنهم آمين. فعلمت أنه هو الذي وقع له معه ذلك.

وقرأت عليه أيضاً في علم الحقائق التحفة المرسلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم للشيخ محمد بن فضل الله الهندي[1] أجل تلامذة الشيخ الإمام وجيه الدين العلوي، فهو في طريق أخو شيخ مشايخنا الفاضل، العلامة الجامع بين علم الظاهر والباطن، سيدنا صبغة الله بن روح الله الحسيني، قدس سره، وهي رسالة صغيرة مفيدة جدا في وحدة الوجود سيأتي إن شاء الله ذكرها في آخر الترجمة، وسماها: التحفة المرسلة لكون عادة العلما في بلاد العراق والهند بل ومصر والحجاز، إذ ألف أحدهم كتاباً أجاد فيه وأتقنه أتحف به ملك قطره وجعله برسمه واسمه، وهذا الإمام أجزل الله ثوابه لم ير في الوجود أعظم ولا أفخم قدراً من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فجعل رسالته هذه تحفة مرسلة إلى روحه، صلى الله عليه وسلم، لكونه هو أصل الموجودات ومنبع فيضها ومددها على اختلاف أجناسها وامتداد فروعها لأن روحه المقدسة أول مخلوق على ما جاء في الأحاديث، فكأن الرسالة موضوعة فيه، صلى الله عليه وسلم، فناسب إرسالها إليه، ولقد أصاب مرسلها وأتى البيوت من أبوابها، ووفق لما ذهل عنه غيره ممن همه الدنيا وزهرتها، ولذلك عمت بركة هذه الرسالة. ولقد أخبرني شيخنا الملا إبراهيم أن بعض أصحابنا المجاورين، وكان يقرؤها عليه إذ ذاك، ونحن هناك، أنه أخبره أن هذه الرسالة ببلادهم قد طار صيتها واشتهر أمرها، فصارت تقرأ في المكاتب ويتعلمها الأولاد، كالرسائل الصغار التي في مبادي العلوم، ولقد علم كل منصف أن ذلك إنما حصل لها ببركة نسبتها إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، وبركة نية مؤلفها، وإلا فهذا العلم قد صار من الغرابة بحيث أنكرته أذواق كثير من فحول العلماء المحققين، فضلا عمن دونهم من المترسمين، فضلاً عن العوام، فضلاً عن صبيان المكاتب، ولكن إذا أراد الله بعبد خيراً حبب إليه الإيمان وزينه في قلبه وزين إليه أسبابه، فكما يوفق العبد في صغره إلى أخذ العقائد الدينية الواجبة على عامة المؤمنين فيتلقفها تقليداً من غير أن يحصل له كبير فهم لمعانيها حتى إذا تكامل عقله وبلغ مبلغ المدركين لحقائق العلوم سهل عليه إدراك معانيها وانشرح صدره لقبول أنوارها لا لفعالها قبل تقليدا، فكذلك عقائد الأكابر التي لا يدركها عوام الخلق إذا

(1) محمد بن فضل الله الهندي، زاهد متصوف، توفي ببلده سنة 1092 هـ. الأثر 4:110.

وفق العبد لأخذها في صغره تلقينا، ثم خلق الله له في كبره استعدادا لفهمها وجمعه بعارف يمد بأنواره في تحقيقها انشرح صدره لقبول ذلك وفهمه وإدراكه بسرعة بلا كبير مؤنة لإلفه لسماعه واعتقاده تقليدا، لكن الذي ظهر لي أنه الحق أولى بالصواب، وأظنه هو الواقع عندهم في بلادهم أن يلقن الصبي أولا العقائد المشهورة المألوفة التي كلف بها سائر الخلق الظاهرة من نصوص الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، ويؤمر بقراءة صغار الرسائل المؤلفة في ذلك لأئمة أهل السنة، ثم بعد ذلك، إن شاء وليه، أن يقرئه أيضا شيئا مما هو خاص بعقائد الأكابر تيمنا بهم وتبركا بكلامهم، ويعلمه أن هذا الذي لقنه الآن ليس هذا وأن فهمه، وأن له رجالاً مخصوصين هم صفوة الحق من عباده وخلفاء أنبيائه قلوبهم مملوءة بمعرفته ومحبته، لم يبق فيها مساغ لغيره وتكون فائدة تلقينه ذلك في الصغر أن لا ينشأ على جمود القريحة على ما اعتادته أولاً وتلقفته من الصغر، فيعتقد أن ليس هناك أمر وراء هذا ولا فهم أعلى منه ولا ذوق أحلى يمنحه الله من شاء من خالص أحبائه، زيادة على ما علمه غيرهم من عوام الخلق غير مناف لما في الكتاب والسنة ولا مباين لما أمر باعتقاده عوام البشر، إلا أنه أعلى منه وأدق وأرق وأصفى وأحلى وأغلى، فإن اعتقاد العبد أن ليس وراء ما أدركه من العلوم والمعارف مرمى ولا مطلب أعظم حجاب وأكبر منافع له عن الوصول إلى ما وصل إليه غيره، خصوصا هذه العلوم التي هي أذواق ومعارف وكشوفات خفية وإدراكات وهبية غير مكتسبة، فتعمل ولا متسلق عليها بمجرد بضاعة العقل، فقلما تحصل لمن لم يتقدم له حسن ظن بأهلها واعتقاد وجودها وتعظيم أربابها، ولذلك والله أعلم زاد المتأخرون من العلماء في ذكر العقائد التي ينبغي اعتقادها وإن لم تكن من الإلهيات ولا من النبويات اعتقادا أن الأئمة أرباب المذاهب على هدى من ربهم لئلا ينشأ المكلف على رديئ التعصب لبعضهم المؤدي إلى تضليل الباقين، فيحرم بركة الانتفاع بأقاويلهم وأقاويل أصحابهم، فيفوته جانب عظيم من علوم الديانة، إذ ما من علوم الشريعة إلا وقد ألف فيه أرباب المذاهب كلهم، والمشتغل بذلك الفن لا يقتصر على كتب أهل مذهبه فيه، فكم من مالكي انتفع بكتب الشافعية في التفسير والحديث والتصوف، وبالعكس، فلو كان المشتغل بقراءة هذه الكتب لا يعتقد تعظيم أصحابها ولا هدايته لقل انتفاعه بها أو عدم رأسا، ولأجل ذلك أيضا ينبهون في العقائد على أن طريق الجنيد، رضي الله عنه وصحبه طريق مقوم مقدم، وكذلك الإمام الشاذلي والجيلي وأضرابهم من رؤساء أئمة الصوفية الذين هم

مذاهب معروفة في طريق القوم وآراء منتخبة إذا اعتقد الإنسان من حال صغره عظمتهم ومحبتهم وأنهم على هدى، ساقه ذلك في كبره إلى الاقتداء بهم وأتباع طريقهم، واعتقاد ما يسمع من كلامهم ولو لم يفهم معناه لعلمه أن قائليه أهل حق وهدى وبصائر نافذة وقلوب مطهرة، والله تعالى أعلم، فلنذكر رسالة التحفة المرسلة بتمامها، لوجازتها وغرابتها في مغربنا، فأقول: قرأت على شيخنا الملا إبراهيم وسمعت منه بلفظي بسنده إلى مؤلفها قال: باسم الله الرحمن الرحيم (الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتخلي عن الكونين، فلنذكر التحفة: باسم الله الرحمن الرحيم)[1]، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً[2]، الحمد لله رب العالمين والعافية للمتخلي عن الكونين، والصلاة والسلام على المظهر الأتم، محمد وآله وأصحابه أجمعين، أما بعد، فيقول العبد الضعيف المذنب المحتاج إلى شفاعة النبي، صلى الله عليه وسلم، محمد بن الشيخ فضل الله: هذه نبذة من الكلمات في علم الحقائق جمعتها بمحض فضل الله وكرمه، وجعلت ثوابها لروح النبي، صلى الله عليه وسلم، وسميتها بالتحفة المرسلة إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، (وأسال الله أن يبلغ ثوابها إليه)[3] إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

اعلموا إخواني، أسعدكم الله وإيانا، أن الحق سبحانه وتعالى هو الوجود، وأن ذلك الوجود ليس له شكل ولا حد ولا حصر، ومع ذلك ظهر وتجلى بالشكل والحد و لم يتغير عما كان من عدم الشكل وعدم الحد، بل الآن كما كان، وإن ذلك الوجود واحد والإلباس مختلفة ومتعددة، وأن ذلك الوجود حقيقة جميع الموجودات وباطنها، وأن جميع الكائنات حتى الذرة لا تخلو عن ذلك الوجود، وأن ذلك الوجود ليس بمعنى التحقق والحصول أنهما من المعاني المصدرية ليسا بموجودين في الخالق، فلا يطلق الوجود بهذا المعنى على الحق الموجود في الخارج، تعالى عن ذلك علوا كبيرا، بل عنينا بذلك الوجود الحقيقة المتصفة بهذه الصفات، أعني وجودها بذاتها ووجود سائر الموجودات بها وانتفاء غيرها في الخارج، وأنّ ذلك الوجود من حيث الكنه لا ينكشف لأحد ولا يدركه العقل ولا الوهم ولا الحواس، ولا يتأتى في القياس لأن كلهن محدثات، والمحدث لا يدرك كنه المحدث، تعالى ذاته وصفاته عن الحدث علواً كبيراً، ومن أراد معرفته من هذا

(1) ما بين قوسين ساقط من ط.
(2) ساقط من ط.
(3) زيادة من ط.

الوجه وسعى فيه ضيع وقته، وأن لذلك الوجود مراتب كثيرة: المرتبة الأولى: مرتبة أن لا تعين، والإطلاق والذات البحث لا بمعنى أن قيد الإطلاق ومفهوم سلب التعين ثابتان في تلك المرتبة، بل بمعنى أن ذلك الوجود في تلك المرتبة منزه عن إضافة النعوت والصفات ومقدس عن كل قيد حتى عن قيد الإطلاق أيضاً، وهذه المرتبة تُسَمَّى بمرتبة الأحدية، وهي كُنه الحق سبحانه وتعالى، وليس فوقها مرتبة أخرى بل كل المراتب تحتها. والمرتبة الثانية: مرتبة التعين الأول، وهي عبارة عن علمه تعالى بذاته وصفاته وبجميع الموجودات على وجه الإجمال من غير امتياز بعضها عن بعض، وهذه المرتبة تسمى بالوحدة والحقيقة المحمدية. المرتبة الثالثة: مرتبة التعين الثاني، وهي عبارة عن علمه بذاته وبصفاته وبجميع الموجودات على طريق التفصيل، وامتياز بعضها عن بعض، وهذه المرتبة تسمى بالواحدية والحقيقة الإنسانية، فهذه ثلاث مراتب كلها قديمة، والتقديم والتأخير عقلي لا زماني. والمرتبة الرابعة: مرتبة الأرواح، وهي عبارة عن الأشياء الكونية المجَرَّدة البسيطة التي تظهر على ذواتها وعلى أمثالها. والمرتبة الخامسة مرتبة عالم المثال، وهي عبارة عن الأشياء الكونية المركبة اللطيفة التي لا تقبل التجزيء والتبعيض ولا الخرق ولا الالتئام. والمرتبة السادسة: مرتبة عالم الأجسام، وهي عبارة عن الأشياء الكونية المركبة الكثيفة التي تقبل التجزيء والتبعيض والخرق والالتئام. والمرتبة السابعة: المرتبة الجامعة لجميع المراتب المذكورة الجسمانية والنورانية والوحدة والواحدية، وهي التجلي الأخير واللباس الأخير، وهو الإنسان. فهذه سبع مراتب، الأولى منها هي مرتبة أن لا ظهور، والستة الباقية منها هي مراتب الظهور الكلية، والأخيرة منها، أعني الإنسان إذا عرج وظهر جميع المراتب المذكورة مع انبساطها يقال له الإنسان الكامل، والعروج والانبساط على الوجه الأكمل كان في نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، ولهذا كان خاتم النبيئين، وأن أسماء مرتبة الألوهية لا يجوز إطلاقها على مراتب الكون والخلق، وكذا لا يجوز إطلاق أسماء مراتب الكون على مرتبة الألوهية، وأن لذلك الوجود كمالين، أحدهما كمالي ذاتي، وثانيهما كمالي أسمائي، وأما الكمال الذاتي فهو عبارة عن ظهوره تعالى له على نفسه بنفسه في نفسه لنفسه بلا اعتبار الغير والغيرية، والغنى المطلق لازم لهذا الكمال الذاتي، ومعنى الغنى المطلق مشاهدته تعالى في نفسه جميع الشؤون والاعتبارات الإلهية والكيانية مع أحكامها ولوازمها ومقتضياتها على وجه كلي جملي لاندراج الكل في البطون الذاتي ووحدته كاندراج جميع الأعداد في الواحد العددي، وإنما سميت غنى مطلقاً

لأنَّه تعالى بهذه المشاهدة مستغنٍ عن ظهورِ العالم على وجه التفصيل لا حاجة له في حصول المشاهدة إلى العالم وما فيه، لأنَّ مشاهدة جميع الموجودات حاصلة له تعالى عند اندراج الكل في بطونه ووحدته. وهذه المشاهدة تكون شهوداً غيبياً علمياً كشهود المفصل في المجمل الكثير، والكثير في الواحد، والنخلة مع الأغصان وتوابعها في النواة الواحدة. وأما الكمال الأسمائي فهو عبارة عن ظهوره تعالى لنفسه على نفسه وشهوده شهوداً عياناً عينياً وجودياً كشهود المجمل المفصل والواحد في الكثير والنواة في النخلة وتوابعها، وهذا الكمال الأسمائي من حيث التحقق والظهور موقوف على وجود العالم وما فيه لأن معناه السابق لا يحصل إلا بظهور العالم على وجه التفصيل، وأنَّ تلك الوجود ليس بحال في الموجودات ولا متحد بها لأن الحلول والاتحاد لا بد لهما من وجودين حتى يحل أحدهما في الآخر أو يتحد أحدهما بالآخر، والوجود واحد لا تعدد له أصلاً، وإنما التعدد في الصفات على ما يشهد به ذوق العارفين ووجدانهم، وأن العبودة والتكاليف والراحة والعذاب والآلام كلها راجعة إلى التعينات، وأن ذلك الوجود باعتبار مرتبة الإطلاق منزه عن هذه الأشياء كلها، وأن ذلك الوجود محيط بجميع الموجودات كإحاطة الملزم والموصوف بالصفات لا كإحاطة الظرف بالمظروف والكل بالجزء، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وأن ذلك الوجود كما أنه باعتبار محض الإطلاق وسار في ذوات جميع الموجودات بحيث يكون ذلك الوجود في تلك الذوات عين تلك الذوات، كما كانت تلك الذوات قبل الظهور في ذلك الوجود عين ذلك الوجود، كذلك الصفات الكاملة لذلك الوجود باعتبار كليتها وإطلاقها سارية في جميع صفات الموجودات عين صفات الموجودات، بحيث تكون تلك الصفات الكاملة في ضمن صفات الموجودات عين صفات الموجودات، كما كانت صفات الموجودات قبل الظهور في تلك الصفات الكاملة عين الصفات الكاملة، وأن العالم بجميع أجزائه غير الصفات الكاملة أعراض، والمعروض هو الوجود، وأن للعالم ثلاثة مواطن، أحدها التعين الأول، ويسمى فيه شؤونيا، وثانيها التعين الثاني، ويسمى فيه أعياناً ثابتة، وثالثها التعين في الخارج ويُسَمَّى أعياناً خارجية، وأن الأعيان الثابتة ما شمت رائحة الوجود وإنما الظاهر أحكامها وآثارها، وإن المدرك أولاً في كل شيء هو الوجود وبواسطته يدرك ذلك الشيء كالنور بالنسبة إلى سائر الألوان والأشكال، ولأجل دوام الظهور وشدته لا يعلم هذا الإدراك إلا الخواص، وأن القرب قربان: قرب النوافل وقرب الفرائض، أما قرب النوافل فهو

زوال الصفة البشرية وظهور صفاته تعالى بأن يحيي ويميت بإذنه تعالى، ويسمع ويبصر من جميع جسده لا من الأذن والعين فقط، وكذا يسمع المسموعات من بعيد ويبصر المبصرات من بعيد، وعلى هذا القياس، وهذا معنى فناء الصفات من صفات الله تعالى، وهو ثمرة النوافل.

وأما قرب الفرائض فهو فناء العبد بالكلية عن شعور جميع الموجودات، حتى عن نفسه أيضاً بحيث لم يبق في نظره إلا وجود الحق سبحانه وتعالى، وهذا معنى فناء العبد في الله تعالى وهو ثمرة الفرائض، وإن من القائلين بوحدة الوجود من يعلم أن الحق سبحانه وتعالى حقيقة جميع الموجودات وباطنها علماً يقينياً، ولكن لا يشاهد الحق سبحانه وتعالى في الخلق، ومنهم من يشاهد الحق في الخلق شهوداً حاليا بالقلب، وهذه المرتبة أعلى وأولى من المرتبة الأولى، ومنهم من يشاهد الحق في الخلق والخلق في الحق، بحيث لا يكون أحدهما مانعاً عن الآخر، وهذه المرتبة أولى وأعلى من المرتبتين السابقتين، وهي مقام الأنبياء والأقطاب بمتابعتهم، ومن المحال أن تحصل المرتبة المتوسطة من تلك المراتب الثلاث لمن خالف الشريعة والطريقة فضلا عن المرتبة الأخيرة التي هي أعلى مما سواها من المرتبتين، وأن جميع الموجودات من حيث الوجود هي عين الحق سبحانه وتعالى، ومن حيث التعين غير الحق سبحانه وتعالى، والغيرية اعتبارية، وأما من حيث الحقيقة فالكل هو الحق سبحانه وتعالى، ومثاله الحباب والموج وكور الثلج فإن كلهن من حيث الحقيقة الماء، ومن حيث التعين غير الماء، وكذا السراب من حيث الحقيقة عين الهواء ومن حيث التعين غير الهواء، والسراب في الحقيقة هواء ظهر بصورة الماء. أما الدلائل الدالة على وحدة الوجود فهي كثيرة، إما من القرآن بقوله عز وجل: (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله)[1]، (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد)[2]، (وهو معكم أينما كنتم)[3]، (ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون)[4]، (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم)[5]، (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)[6]، (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)[1]، (وإذا سألك

(1) البقرة: 114.
(2) ق: 16.
(3) الحديد: 4.
(4) الواقعة: 88.
(5) الفتح: 10.
(6) الحديد: 3.

عبادي عني فإني قريب)[2]، (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)[3] (وكـــان الله بكل شيء محيطاً)[4]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة.

وأما من أقواله، صلى الله عليه وسلم، فقوله: أصدق كلمة قالتها العـــرب كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل[5]، إن أحدكم إذا قام إلى الصلاة فإنما يناجي ربه فإن ربه بينه وبين القبلة. وقوله، صلى الله عليه وسلم، عن الله تعالى: ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها[6]. وقوله صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني[7]، إلخ. وروى الترمذي في حديث طويل: والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله تعالى[8]، ثم قرأ عليه الصلاة والسلام (هـــو الأول والآخـــر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)[9] إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة.

وأما من أقوال الأئمة العارفين بالله الدالة على وحدة الوجود فكثيرة كثـــرة بحيث لا تأتي في العد والحصر، ولذا لم أذكرها، وإن شئت فعليك بمطالعة نسخهم تجد إن شاء الله تعالى أيها الطالب إذا أردت الوصول إلى الله تعالى فالزم متابعـــة النبي، صلى الله عليه وسلم، أولاً قولاً وفعلاً ظاهراً وباطناً، ثم أفعال مراقبة وحدة الوجود ثانياً التي هي معنى الكلمة الطيبة من غير اشتراط الوضوء، وإن وجد فهو أولى، ولا تخصيص وقت دون وقت ومن غير ملاحظة النفس دخولاً وخروجاً في المراقبة، ولا ملاحظة حروف الكلمة الطيبة، بل لا تلاحظ إلا المعنى فقط في كل حال، قائما أو قاعداً ماشياً أو مضطجعاً، متحركاً أو ساكناً، شارباً أو آكـــلاً. وطريق المراقبة أن تنفي إنيتك إلا هذه الإنية، وهي معنى لا إله، ثم تثبـــت الحـــق

(1) الذاريات: 21.
(2) لبقرة: 185.
(3) الأنفال: 17.
(4) النساء: 125.
(5) صحيح مسلم 4:1768.
(6) المعجم الأوسط 9:139.
(7) صحيح مسلم 19:90.
(8) كشف الخفاء 1:125.
(9) الحديد: 3.

سبحانه وتعالى في باطنك ثانياً، وهو معنى إلا الله. فإن قلت: إذا كان الوجود واحدا وغيره ليس بموجود فأي شيء ينفي وأي شيء يثبت؟ قلت: وهم الغيرية والاثنينية الذي نشأ للخلق، وهذا الوهم باطل، فعليك أن تنفي هذا الوهم أولا ثم تثبت الحق سبحانه وتعالى في باطنك ثانيا. واعلم أيها الطالب إذا غلب عليك الحال بفضل الله تعالى لا تقدر على نفي إنيتك الوهمية، بل لم يبق فيك إلا إثبات الحق سبحانه وتعالى، رزقنا الله تعالى وإياكم هذا المقام بحرمة النبي، صلى الله عليه وسلم، آمين يا رب العالمين.

ومما قرأته عليه أيضاً إجازة الشيخ محي الدين بن العربي الحاتمي، رضي الله عنه، كتب بها لبعض ملوك وقته[1] ونصها مع بعض اختصار من آخرها: باسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، أقول: وأنا محمد بن علي بن العربي الحاتمي، وهذا لفظي استخرت الله تعالى أجزت للسلطان الملك المظفر بهاء الدين غازي بن الملك العادل المرحوم، إن شاء الله، أبي بكر بن أيوب وأولاده ولمن أدرك حياتي الرواية عني من جميع ما رويته عن أشياخي من قراءة وسماع ومناولة وكتابة وإجازة، وجميع ما ألفته وصنفته من ضرب العلم وما لنا من نثر ونظم على الشرط المعتبر بين أهل هذا الشأن، وتلفظت بالإجازة عند تقييدي هذا الخط وذلك في غرة المحرم سنة اثنين وثلاثين وستمائة بمحروسة دمشق، وكان استدعاؤه أن أذكر له من أسماء شيوخي ما تيسر لي ذكره منهم وبعض مسموعاتي وما تيسر من أسماء مصنفاتي، فأجبت استدعاءه ونفعنا الله وإياه بالعلم، وجعلنا وإياه من أهله إنه ولي كريم، فمن شيوخنا أبو بكر محمد بن خلف بن صافي اللخمي، قرأت عليه القرآن الكريم بالقراءات السبعة والكتاب الكافي[2] لأبي عبد الله محمد بن شريح الرعيني المغربي في مذاهب القراء السبعة المشهورين، وحدثني به عن ابن المواق أبي الحسن شريح بن محمد بن محمد الرعيني عن أبيه المؤلف. وحدثني من شيوخنا في القرآن أيضا أبو القاسم عبد الرحمن بن غالب الشراط من أهل قرطبة، قرأت عليه أيضاً القرآن الكريم بالكتاب المذكور، وحدثني به أيضا عن ابن المؤلف.

---

(1) هو الملك المظفر بهاء الدين غازي بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، من ملوك الدولة الأيوبية، توفي سنة 645 هـ: فهرس الفهارس 317:1. الأعلام 112:5.

(2) الكافي في القراءات السبع لأبي عبد الله محمد بن شريح بن أحمد الرعيني الإشبيلي المتوفى سنة 476 هـ: كشف الظنون 1379:2.

ومن مشايخنا أيضاً القاضي أبو محمد عبد الله الباءتي بمدينة فاس، حـــدثني بكتاب التبصرة في مذاهب القراءات السبعة[1] لأبي محمد بنٍ طالب المقري عن أبي بحر سفيان بن العاصي عن المؤلف بجميع تواليف مكي أيضا، وأجـــازني إجـــازة عامة. ومن شيوخنا أيضا القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن حمزة، سمعت عليـــه كتاب التيسير[2] لأبي عمرو الداني، حدثني عن أبيه عن المؤلف وبجميـــع تواليـــف الداني وأجازني إجازة عامة. ومن شيوخنا القاضي أبو عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون الأنصاري[3] سمعت عليه كتاب التفضي[4] لأبي عمر بن عبد البر الـــنميري الشاطبي، وحدثني به عن أبي عمران موسى بن أبي بكر عن المؤلف وبجميع تواليفه مثل: الاستذكار[5] والتمهيد[6] والاستيعاب[7] والانتقا[8]، وأجازني إجـــازة عامـــة وأجاز أن أروي عنه جميع توالفيه. ومن شيوخنا المحدث أبو محمد عبد الحق بـــن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي الإشبيلي[9]، وحدثني بجميع مصنفاته في الحديث، وعد لي من أسمائها: تلقين المبتدئ والأحكـــام الـــصغرى والكـــبرى والوسطى وكتاب التهجد وكتاب العاقبة ونظمه ونثره، وحدثني بكتاب الإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح عنه.

ومن شيوخنا عبد الصمد بن محمد بن الفضل بن خراساني سمعـــت عليـــه صحيح مسلم حدثني به عن الفراذمي عن عبد الغافر الفارسي عن الجلودي إلخ،

---

(1) التبصرة في القراءات السبعة للشيخ الإمام أبي محمد مكي بن أبي طالب المقري القيسي المتوفى سنة 437 هـ في خمسة أجزاء وهو من اشهر مصنفاته: كشف الظنون 1:339.

(2) التيسير في القراءات السبع للامام أبي عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الداني المتوفى سنة 444 هـ: كشف الظنون 1:520.

(3) أبو عبد الله محمد بن سعيد ابن زرقون الأندلسي، فقيه حافظ، له كتاب الأنوار في الجمع بين المنتقى والاستذكار، توفي بإشبيلية سنة 585 هـ: شرف الطالب، ص: 65.

(4) كتاب التفضي بحديث الموطأ للحافظ أبي عمر بن عبد البر يوسف بن عبد الله القرطبي بن عبد البر النمري القرطبي المتوفى سنة 463 هـ: كشف الظنون 2:1907.

(5) الاستذكار لمذاهب أئمة الأمصار وفيما تضمنه الموطأ من المعاني والآثار لابن عبد البر النمري القرطبي المتوفى سنة 463 هـ: كشف الظنون 1:78.

(6) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد للحافظ أبي عمر بن عبد البر: كشف الظنون 1:484.

(7) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن البر النمري القرطبي: كشف الظنون 1:81.

(8) الانتقاء للمذاهب الثلاثة للعلماء، يعني مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي لابن عبد البر القرطبي: كشف الظنون 1:175.

(9) عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين الأزدي، أبو محمد، من أهل إشبيلية، فقيه حافظ، خرج من وطنه ونزل بجاية بعد الخمسين وخمسمائة، له عدة مصنفات منها كتابه في الأحكام، وهو نسختان كبرى وصغرى، وكتاب التهجد، وكتاب العاقبة، وكتاب تلقين الوليد، توفي ببجاية آخر سنة 582 هـ: التكملة لكتاب الصلة 3:120.

وأجاز لي إجازة عامة. ومن شيوخنا يونس بن يحيى العباسي الهاشمي نزيل مكـــة، سمعت عليه كتبا كثيرة في الحديث والرقائق منها صحيح البخاري، حدثني به عن أبي الوقت عن الداودي، إلخ. من شيوخنا المكيين أبي شجاع زاهر بـــن رســـتم الصبهاني إمام المقام بالحرم الشريف، سمعت عليه كتاب أبي عيـــسى الترمـــذي، حدثني به عن الكرخي عن العورجي عن الخزاعي عن المحبوبي أجـــاز لي إجـــازة عامة. ومن شيوخنا البرهان نصرٍ بن أبي الفتح بن علي الحضرمي إمام مقام الحنابلة بالحرم الشريف سمعت عليه كتباً كثيرة منها السنن لأبي داوود السجستاني حدثني بها، عن أبي جعفر بن محمد بن علي بن محمد السمناني، عن أبي بكر احمد بن علي بن ثابت الخطيب، عن أبي عمر القاسم بن جعفر الهاشمي البصري، عن أبي محمد بن أحمد بن عمر اللؤلؤي، عن أبي داوود، وأجاز لي إجازة عامة وحدثني بكتب الخطيب. ومن شيوخنا محمد بن أبي الوليد بن أحمد بن محمد بن شبل، قرأت عليه كتبا كثيرة من تواليفه، وناولني كتاباً يُسَمَّى نائب المجتهـــد وكتـــاب المقـــصد والأحكام الشرعية من تواليفه. ومن شيوخنا أبو عبد الله بن علون حدثني بكتب القاضي أبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي المعافيري عنه أجاز لي إجازة عامة. ومن شيوخنا عبد الله بن عمر بن أحمد ابن منظور الصفار حدثني بكتب الواحدي كتابة عن عبد الله الجبار بن محمد بن أحمد الحواري عنه. ومن شيوخنا أبو الوائل بن العربي سمعت منه سراج المهتدين للقاضي ابن العربي[1] ابن عمه، حدثني به عنه وأجاز لي إجازة عامة. ومن شيوخنا أبو الثناء محمود بن المظفر اللبار حدثني بكتب ابن خميس عنه، وبكتب الحميدي، ومنهم محمد بن محمد البكري سمعـــت عليـــه رسالة القشيري عن جده عبد الكريم المؤلف وأجازني إجازة عامة. ومنهم ضـــياء الدين بن عبد الوهاب بن علي بن سكينة شيخ الشيوخ ببغداد وأجازني إجـــازة عامة وأخذ عني أخذت عنه، حدثني بتآليف القشيري عن ابنه عبد الوهاب عنه. ومنهم أبو الخير أحمد بن إسماعيل بن يوسف الطالقاني القزويني، حدثني بتـــآليف البيهقي وأجازني إجازة عامة. ومنهم أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السلفي الأصبهاني أجاز لي إجازة عامة، وهو يروي عن أبي الحسن شريح بن عمر بن شريح الرعيني المقري.

(1) أبو بكر محمد بن عبد الله القاضي أبو بكر ابن العربي الإشبيلي، الفقيه العلامة، ولد سنة 468 هـ، وتوفي سنة 543 هـ، ودفن بفاس، له عدة تآليف منها: سراج المهتدين، قانون التأويل، العواصم من القواصم، وغيرها: شرف الطالب، ص: 62، شجرة النور الزكية 1:199. فهرس الفهارس 2:855.

وأيضا ممن أجازني إجازة عامة وكتب لي أن أروي عنه كتب السلمي عن محمد بن مصبار البيهقي عنه، ومنهم جابر بن أيوب الحضرمي، أجاز لي إجازةً عامة وهو يروي عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني المقري، وأيضاً ممن أجازني إجازة عامة محمد بن أسعد بن محمد القزويني والحافظ الكبير ابن عساكر. وهو القاسم بن علي بن الحسن بن وهبة بن عبد الله بن الحسن الشافعي صاحب تاريخ دمشق. ومنهم محمد بن يوسف بن علي القزويني، ومنهم أبو الطاهر بن عوف، ومنهم أبو الطالب اللخمي بالإسكندرية، ومنهم أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الحافظ كتب بالرواية بجميع تواليفه. ومنهم أبو بكر بن أبي الفتح السجستاني، ومنهم محمد بن أبي المعالي عبد الله بن موهوب بن جامع بن عبدون البغدادي الصدفي، ويعرف بابن البنا.

ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي الفاسي قرأ على جميع مصنفاته. ومنهم ابن النجار المالقي المحدث، ومنهم أبو الحسن بن الصائغ الأنصاري، ومنهم عبد الجليل[1] مؤلف المشكل في الحديث، وشعب الإيمان. ومنهم أبو عبد الله بن المجاهد. ومنهم عمران موسى بن عمران المتريلي. ولولا خوف الملل وضيق الوقت لذكرنا من سمعنا عليه ومن لقيناه.

وأذكر من مؤلفاتي ما تيسر فإنها كثيرة وأصغرها جزء أو كراس، وأكبرها ما يزيد على المائة. فمن ذلك المصباح في الجمع بين الصحاح في الحديث، واختصار مسلم واختصار البخاري واختصار الترمذي واختصار المحلى والاحتفال فيما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من سني الأحوال. وكتاب الجمع والتفصيل في أسرار المعاني والتنزيل، فرغ منه أربعة وستون مجلدا إلى قوله تعالى في سورة الكهف: (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح)[2] الأربعين المتقابلة في الحديث الأربعين في الطوالات، ثم عد من تآليفه 358.

وما قرأته عليه أيضاً هذه المكاتبة وجوابها، وهما مفيدان غاية. ونص ما قرأته عليه: الحمد لله اجتمع الشيخ كمال الدين عبد الرزاق الكاشاني ببعض أصحاب

---

(1) عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل الأنصاري الأوسي الأندلسي، المشهور بالقصري، متصوف مشارك، صنف التفسير وشرح الأسماء الحسنى وكتاب شعب الإيمان، توفي بسبتة سنة 608 هـ: سير أعلام النبلاء 22:12.

(2) الكهف :59.

الشيخ علاء الدولة السمسناني فسأله ما يقول شيخكم في ابن العربي وكلامه؟ فقال: يعتقد أنه رجل عظيم الشأن ولكنه غالط في قوله بأن الحق هو الوجود المطلق، فقال عبد الرزاق: أصل جميع معارفه هذا الكلام، ولا أحسن من هذا الكلام، فعجبا لشيخكم لا يستحسنه مع أن جميع الأنبياء والأولياء والأئمة على هذا، فأوصل التلميذ هذا الكلام إلى شيخه علاء الدولة، فكتب في جوابه في جميع الملل والنحل لا يوجد كلام أشنع من هذا الكلام، وإذا حقق الأمر كان مذهب الطبيعيين والدهريين أولى من هذه العقيدة بكثير، فلما وصل الكلام إلى عبد الرزاق كتب إلى علاء الدولة مكتوبا حاصله لا يخفى أن كل ما لم يكن على قانون الكتاب والسنة، فلا اعتبار له عند هذه الطائفة لأنهم متبعون. وبناء هذا المعنى، أي وحدة الوجود على هاتين الآيتين (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم)[1] إلى (شهيد)، (إلا إنهم في مرية من لقاء ربهم)[2] إلى (محيط). والناس على ثلاث مراتب: الأولى مرتبة النفس، وهم أهل الدنيا، وأصحاب الحجاب ينكرون الحق وصفاته، فمن آمن منهم نجا من النار. والثانية مرتبة القلب، وهم أهل البصيرة بتجليات الأسماء، يستدلون بآياته في الآفاق والأنفس على معرفة الصفات والأسماء وما كان معلوما عند الطائفة الأولى، أي أهل الإيمان، وهو مرضي عند هؤلاء. والثالثة مرتبة الروح وأهل هذا المقام تجاوزوا عن مرتبة تحلي الصفات إلى شهود جمع الأحدية، وحالهم في حالة الحد (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد)[3]، وهذه الطائفة يرون الخلق مرآة للحق والحق مرآة للخلق، وأعلى من هذا هو الاستهلاك في عين أحدية الذات ووصف المحجوبين مطلقاً (ألا أنهم في مرية من لقاء ربهم)[4]، وأهل التجليات، وإن حصل لهم اليقين ولكنهم قاصرون عن معنى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك)[5] الآية. ومحتاجون إلى تنبيه، (ألا إنه بكل شيء محيط)[6]، وشهود هذه الحقيقة وما ظفر بمعنى (كل شيء هالك إلا وجهه)[7] إلا الطائفة الأخيرة، وفي هذه الحضرة هو المقام الأول والآخر والظاهر

---

(1) فصلت: 52.
(2) فصلت: 53.
(3) فصلت: 53.
(4) فصلت: 54.
(5) الرحمن:26.
(6) فصلت: 53.
(7) القصص: 88.

والباطن عيان، وفي كل المتعينات وجه الحق مشهود، وتحققوا في وجود الأسماء والتعينات تنزه (فأينما تولوا فثم وجه الله)[1]، فعلم من هذه الإحاطة أن الحق تعالى منزه عن جميع التعينات، وتعينه بعين ذاته وأحديته ليست كأحدية الأعداد حتى يكون له ثان، فمن كان له هذه المرتبة جرده الله عن قيود العقول وشهد تلك الإحاطة، ومن لا بقي في حجب الجلال. قال سيدنا علي رضي الله عنه: الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة، فإنه لو شاء حسا أو عقلا في وقت تجلي الجمال المطلق حصل التعين وصار الجمال جلالاً وصار الشهود نفس الاحتجاب، سبحان من لا يعرفه إلا هو وحده، والإنصاف أن كل بحث ذكرتموه في العروة وهو اسم كتاب لعلاء الدولة في نفي هذا المعنى دلائله ليست على منهج مشتقيهم، وإني بعدما حصلت العلوم الشرعية والعقلية حيث لم يحصل لي المطلوب منها علمت أن معرفة المطلوب وراء طور العقل فاخترت صحبة المتصوفة، واستحسنوا هذا الكلام، ومع ذلك لم أكن وجدته في نفسي لم يطمس إليه القلب فأخذت الخلوة في مفازة سبعة أشهر حتى كشف الله لي عن هذا المعنى واطمأن قلبي، والله سبحانه وإن قال: (فلا تزكوا أنفسكم)[2]، لكن قال: (وأما بنعمة ربك فحدث)[3]، ولو لم يكن كما ذكر كيف يصدق وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله، وكيف يصدق ولو دلى أحدكم حبله لهبط على الله، وكيف يكون أقرب من حبل الوريد.

والحاصل ينبغي أن ينظر في هذا المعنى فإن ثالث ثلاثة بنص القرآن كفر، ورابع ثلاثة صرف الإيمان (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم)[4] إذ لو كان ثالث ثلاثة كان متعينا مثلهم، ولكنه أبو جودة الحقاني محقق الأعداد فهو مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، ولو لم أجده عيانا ما أكثرت عليكم الدلائل، ومن لم يصدق الجملة هان عليه أن لا يصدق التفصيل (وإنا وأياكم لفي هدى أو في ضلال مبين)[5]هـ. ملخصاً.

---

(1) البقرة: 114.
(2) النجم: 31.
(3) الضحى: 11.
(4) المجادلة: 7.
(5) سبأ: 24.

وكتب جوابه علاء الدولة على ظهر مكتوبة وأرسله إلى كاشان، وهو هذا: (قل الله ثم ذرهم)[1] الآية. كبراء الدين وسالكوا طريق اليقين اتفقوا على أن الذي يجني ثمرة الحق هو من كان طيب اللقمة، وصدق اللهجة شعارا له ودثارا، وحيث أن هذين مفقودان فما المقصود من هذه الطامات والترهات، آية العزيز كنت أطالع في كتاب الفتوحات وأكتب على هوامشه، فلما وصلت إلى قوله: سبحان من أظهر الأشياء وهو عيناها، كتبت (والله لا يستحي من الحق)[2] آية. الشيخ: لو سمعت أحدا يقول فضلة الشيخ عين وجود الشيخ لا تسامحه البتة، بل تغضب عليه، فكيف يسوغ أن ينسب إلى الله هذا الهذيان؟ تب توبة نصوحا لتنجو من هذه الورطة الوعرة التي يستنكف منها الدهريون والطبيعيون واليونانيون، (والسلام على من اتبع الهدى)[3]. وأما ما كتبتموه من أن في العروة ليس على المنهج المستقيم، فنقول: إذا كان الكلام مطابقاً للواقع واطمأنت إليه النفس ولا يعترض عليه الشيطان فذلك يكفينا والقلب يطمئن على وجوب وجوده ووحدانيته ونزاهته، ومن لم يؤمن بوحدانيته فهو مشرك حقيقي، ومن لم يؤمن بنزاهته من جميع ما يختص به من الممكن فهو ظالم حقيقي لأنه ينسب إليه ما لا يليق بكمال قدسه والظلم وضع الشيء في غير محله، ولذلك لعنهم الله في محكم كتابه (ألا لعنة على الظالمين)[4]، سبحانه عما يصفه به الجاهلون.

ولما تأملت في المكتوب ثانيا تذكرت أن هذا المقام حصل لي في أوائل المكاشفة وأواسطه، ولما وصلت إلى نهاية المكاشفة ظهر لي غلطه أظهر من الشمس يقينا لا مدخل للشك فيه، وكيف يؤول أكثر الآيات البينة لأجل آيات معدودة متشابهات، وذلك مثل محكم قوله تعالى: (قل إنما أنا بشر مثلكم)[5] وأخواتها فنؤول هذا ونقتدي بقوله: (وما رميت إذ رميت)[6]، وما علموا أن هذا لأجل تفهيم الخلق خصوصية رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كما يقول الملك إذا أرسل مقربا له رسولا: يده يدي ولسانه لساني. وكما يقول الشيخ في إرسال مريده لإرشاد قوم: يده يدي، والغرض أن الغفلة عن قوله: (ألا لعنة الله على

---

(1) الأنعام: 92.
(2) الأحزاب: 53.
(3) طه: 46.
(4) هود: 18.
(5) الكهف: 105. فصلت: 5.
(6) الأنفال: 17.

الظالمين)[1] والإعراض عن قوله: (إنَّ الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا)[2] وأمثالها والتمسك بآية: (هو الأول والآخر والظاهر والباطن)[3] جهل بأن المراد هو الأول الأزلي تنتهي إليه سلسلة الاحتياج فضلاً عن شيء آخر، وهو الآخر الأبدي بأنه إليه يرجع الأمر كله، وهو الظاهر في آثاره الظاهر بسبب أفعاله الصادرة عن صفاته الثابتة لذاته، وهو الباطن في ذاته لا تدركه الأبصار ولا يعرف ذاته إلا هو. وقد صح عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: كل الناس في ذات الله حمقا. وقال، صلى الله عليه وسلم: تفكروا في آلاء الله ولا تتفكروا في ذات الله[4]. آية العزيز العلم المجرد الذي هو اعتقاد جازم مطابق للواقع نسبته إلى الشريعة، وعلم اليقين تعلق ببداية مقام المكاشفة، وعين اليقين بوسطه وحق اليقين بنهايته وحقيقة حق اليقين التي هي عبارة عن اليقين المجرد المشار إليه بقوله: (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)[5] تعلقه بقطب درجات مقام المكاشفة، وكل من وصل إلى هذا المقام كل ما يقوله فهو مطابق للواقع وليس التوحيد المذكور في منازل السائرين آخر المقامات، بل هو المقام الثمانون وآخر المقامات المائة العبودية، وهو عود العبد إلى بداية حاله من حيث الولاية دائر مع الحق في شؤون تجلياته تمكناً. وبالجملة هذا المعنى الذي ذكرتموه ظهر لي في بداية مقام التوحيد ووسطه وبعده. ولما وضعت القدم في نهاية مقام التوحيد ظهر لي أنه غلط مخطئ مقرا على نفسي أن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، فيا أيها العزيز اقتد أنت بهذا. ولما وقع النظر إلى قوله تعالى: (فلا تضربوا لله الأمثال)[6] فحوت الأمثال بالكلية والسلام هـ.

وقال الملا جامي في ترجمة الشيخ محي الدين ابن العربي: الشيخ علاء الدولة كان معترفا بفضل الشيخ، ولكنه كان يخطؤه في قوله بأن الحق هو الوجود المطلق، بل كان يكفره. وبعض أهل العصر ممن كان يعتقد الشيخين ويتبع كلا منهما قال في بعض رسائله: لا خلاف حقيقيا بينهما فإن تخطئة الشيخ علاء الدين وتكفيره للشيخ راجع إلى أنه فهم من كلام الشيخ معنى غير مراد الشيخ، وذلك أن للوجود

---

(1) هود 18.
(2) فاطر:6.
(3) الحديد: 3.
(4) اعتقاد أهل السنة 3: 524.
(5) الحجر: 99.
(6) النحل: 74.

ثلاث اعتبارات: الأول اعتباره بشرط شيء؛ وهو الوجود المقيد. والثاني بشرط لا شيء؛ وهو الوجود العام. والثالث؛ لا بشرط شيء، وهو الوجود المطلق. والشيخ محي الدين أراد المعنى الأخير، وعلاء الدولة حمله على المعنى الثاني، ودليل ذلك أن علاء الدولة أشار إلى إطلاق وجود الذات بالمعنى الأخير حيث قال في بعض رسائله: الحمد لله على الإيمان بوجوب وجوده ونزاهته عن أن يكون مقيداً محدوداً أو مطلقاً لا يكون له، بلا مقيداته وجود، وذلك أنه تعالى إذا لم يكن مقيداً محدوداً ولا مطلقا يتوقف وجوده على وجود المقيدات فلا بد أن يكون مطلقاً لا بشرط شيء، فليس مشروطاً بالقيد ولا العموم. وأما القيود والتعينات فهي شرط لظهوره في المراتب لا أنها شرط لوجوده في حد ذاته. والنزاع الذي بين علاء الدولة وعبد الرزاق من هذا القبيل، والله أعلم.

ومما سمعته عليه بقراءة غيري طرفاً من الفتوحات المكية لأستاذ المحققين سيدي الشيخ محي الدين محمد بن العربي قدس سره وهو يرويها وبقية كتب الشيخ محي الدين عن شيخه سيدي الشيخ أحمد الشناوي عن الشمس محمد الرملي عن زكريا، عن أبي الفتح المراغي، عن الحافظ بهاء الدين عبد الله بن محمد العثماني المكي، عن الحافظ أبي نصر محمد بن محمد الشيرازي عن مؤلفها. و لم يزل يجري على لسانه كثير من حكايات صاحب الفتوحات، رضي الله عنه، ووقائعه ومن جمله ما حكى لي عنه أنه، رضي الله عنه، أعني الشيخ محي الدين ذكر عن نفسه أنه كان ذات يوم بمكة جالساً مع أصحابه فجرى ذكر الحديث الذي فيه قول الله جل جلاله لأبينا آدم عليه السلام أخرج بعث النار. فقال الشيخ، رضي الله عنه، لأصحابه: تعالوا نهدي لأبينا هدية نتخذ بها عنده يدا حتى لا يخرجنا فيمن يخرج. فقالوا: نعم، فأي شيء نهديه له؟ فقال الشيخ إن الله قد نهج لنا على لسان رسوله نهج النيابة عن الغير في بعض الأعمال البدنية كالحج والعمرة، وليس هذا وقت حج، قوموا بنا فلنعتمر عن أبينا آدم ليكون ذلك وسيلة لنا عنده. فقاموا كما هم فذهبوا إلى التنعيم بقصد الإحرام، فلما وصلوا مساجد عائشة وجدوا هنالك بعض أصحاب الشيخ، وكان قد خرج قبلهم بقصد العمرة فسألهم عن الخبر وقال: ما الذي أخرجكم وقد تركتكم ورائي بمكة وما لكم نية في الخروج. فأخبروه بما قال الشيخ. فجاء إلى الشيخ وقال له: إني خرجت قبلكم بقصد العمرة، وأنا الآن أريد أن أحرم بما به أحرمتم وبالقصد الذي به قصدتم. فقال له الشيخ له: امض أنت

على عملك الذي خرجت له فإنك لم تخرج بهذه النية. فأحرم الشيخ، رضي الله عنه، وأصحابه بالنية المذكورة، فجاؤوا مكة وتمسحوا بالبيت ووقفوا بالمروتين وتم نسكهم. فلما كان في الليلة المقبلة رأى صاحبهم الذي أحرم بغير ما أحرموا به أن القيامة قد قامت وحشر الناس وقيل لآدم عليه السلام: أخرج بعث النار، فجيء بالشيخ وأصحابه فقال آدم عليه السلام: إن هؤلاء عندي يدا أكافيهم بها اليوم فلا أخرجهم فيمن أخرج. قال الرائي: فقلت: وأنا معهم فإني من أصحاب هذا الشيخ. فقال إنك لم تحرم بما به أحرموا. فقلت: قصدت ذلك فمنعني هذا الشيخ. فقال الشيخ، رضي الله عنه، مصدقا له: أنا منعته ولكنه صاحبنا فهبه لنا، فوهبه لهم. انتهت الحكاية بالمعنى.

وعندما حكى لنا شيخنا هذه الحكاية قال لي الشيخ: وأنت إذا ذهبت إلى مكة فاعتمر عمرة عن أبينا آدم بهذه النية، فلما منَّ الله بالوصول إلى مكة والإقامة فيها اعتمرت عمرا متعددة في رمضان وغيره، و لم ألق بالاً لما ذكر لي الشيخ، رضي الله عنه، ورأيت أن ذلك منه تلميحاً فقط حتى جاءني كتاب منه بعثه إلي من المدينة يحضني فيه على ذلك، ونص الكتاب تيمنا بألفاظه وتبركا بنفسه الرباني لما اشتمل عليه من الإشارات العرفانية والحقائق العيانية، وذلك شأنه، رضي الله، عنه في سائر كتبه على منهج شيخه الصفي، فلا دلالة لهم إلا على الله، ولا إشارة لهم إلا إليه، ونصه: الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه، عدد خلق الله بدوام الله، من الحقير إبراهيم إلى الأخ الفاضل نادرة الوقت سيدي الشيخ عفيف الدين أبي سالم عبد الله العياشي، كان الله له، حيث كان وأمده في السر والإعلان في عافية آمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فإن سألت عنا فلله الحمد في عافية، والمسؤول أن تكونوا كذلك موفقين لاغتنام الخيرات في تلك المواطن المباركات، شاهدين من أقام فيها الآيات البينات لتكون من أهل الاعتبار التلويني من الصور إلى المعنى بسلطان من الله ذي العزة والجبروت، وهكذا ينبغي أن يكون شأن من أضيف إلى الله بكونه عبد الله لا عبدا لغيره من صور الأكوان من حيث هي، وما نظر إليها من حيث هي مجالي النور الأحدي، فلم يخضع إلا إلى الله كما ورد في آخر حديث الكسوف أن الله إذا انجلى لشيء خشع[1]. أيدني الله

(1) الجامع الصغير 154 :1.

وإياكم بنور من عنده من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، آمين والسلام على الأخ عبد الرحمن وبقية أصحابكم، وإن اجتمعت بأخي عبد الرحمن فبلغ سلامي إليه، وإن تيسر فاشربوا عني ماء زمزم بنية العفو والعافية، ثم بنية حفظ القرى، جزيتم خيرا، ولا تنسوا الاعتمار عن أبينا أبي البشر آدم صنع الله صلوات الله عليه وسلامه، صلة للرحم وتمهيداً للشفاعة، وامتثالا لأمر الله الطالب لذلك بما وضع من الشرع الشريف الموصل إلى السعادة بإذن الله المنان، وبلغ سلامي إلى شيخنا بركة الوقت سيدي الشيخ عيسى سلمه الله تعالى ونفع به آمين، هـ بحروفه.

وعندما وصل إلي الكتاب امتثلت أمره فخرجت إلى التنعيم راجعاً، وأحرمت بالنية المذكورة، نسأل الله أن ينفعنا بأمثال إشارة أوليائه ويشفع فينا نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وكل أنبيائه.

قال شيخنا، رضي الله عنه، بإثر الحكاية المتقدمة: ولما بلغت حكاية الشيخ محي الدين وأصحابه إلى بعض المترسمين من الفقهاء الشافعية قال: إذا يلزمهم الدم لأن آدم عليه السلام أفاقيا. قلت: البحث بأمثال هذا عند أهل القلوب مما يستبرد، وعلى تقدير وقوعه فلا نسلم أن آدم أفاقيا، إما لأن الدنيا كلها بالنسبة إليه بمترلة بلد الإنسان أنزله الله إليها وأباح له التصرف فيها كلها والتقلب فيها حيث شاء، وإما لأن مكة أم البلاد وهو أبو أهلها، فهي بالنسبة إليه بلد الإنسان[1]، وإن كانت جميع الأرض له بنسبة دار الإنسان على جميع البلد الذي هو ملكه، أو نقول مكة هي بلده حقيقة إذ هو الذي بنى البيت أولاً على ما ورد في بعض الأحاديث، فلا يعلم على وجه الأرض موضع ما بنى فيه آدم، وطاف به وتعبد لله وسجد وكثر تردده إليه، إلا موضع البيت، وهذا معنى كونه بلده، إذ الموضع الذي كثر تردد الإنسان إليه أكثر من غيره وكثرت إقامته به وهو محل عبادته هو بلده، وعلى القول بأنه مدفون على جبل أبي قبيس كما قال به غير واحد، أو في موضع البيت على ما رأيت للشيخ محي الدين في بعض تآليفه، فلا كلام في أنها بلده، ويؤيد ذلك ما ورد أيضا أنه تعرف بحواء في عرفات، فسميت عرفات وازدلف إليها في مزدلفة، فسميت مزدلفة، فأول مكان اجتمع فيه الإنسان بأهله ودنا منهم هو بلده، فأي بلد على وجه الأرض يعلم لها من النسبة لآدم ما علم لهذا البلد من النسبة بالبناء والتعبد الكثير والدفن به والاجتماع بالأهل والدنو منهم. ومدفن

(1) ساقط من ط.

زوجته حواء بجدة، وهي من عمل هذا البلد على القول بأنها مدفونة فيها، فالبلد الذي هو مدفن الإنسان ومدفن أهله أحق البلاد بأن تنسب إليه من غيرها من البلد التي لم يعلم له فيها إلا مجرد مروره أو نزوله، كجبل سرنديب بالهند، فإن قيل قد علم أن آدم كان عيشه وعيش أولاده من الحراثة، والزراعة والغرس وتعاني الأعمال التي هي مكاسب أولاده من بعده،، ومكة ليست ببلاد زرع وحراثة وغرس كما هو المشاهد، ولقول إبراهيم (بواد غير ذي زرع)(1)، فظهر أن مسكن آدم وبلاده هي بلاد أخرى غير مكة، إما بالهند الذي هو محل نزوله، أو غيره من البلاد، فيقال: لا نسلم أن مكة إذ ذاك لم تكن بلاد زرع وحرث مع أن أعمالها القريبة منها من الطائف ونجد، ومن الظهران وغير ذلك من قرى الحجاز ذات مزارع، وكور مكة بنفسها ليست بها مزارع الآن لا يقدح في ذلك، فقد قال الأعرابي للنبي، صلى الله عليه وسلم، في حديث الرجل الذي اشتهى الزراعة في الجنة: إذا لا تجده إلا قرشياً أو أنصارياً(2)، فوصف قريشا بالزراعة مع أن وطنهم بمكة وليست بأرض زرع، ولكنهم كانوا يزرعون في نواحيها، وأيضاً فإن آدم عليه السلام أعطي من القوة على العمل وغيره ومن عظم الجسم والخلقة ما لم يعط غيره من بنيه، بدليل حديث: و لم يزل الخلق ينقصون(3) حتى الآن، وسخر له الملائكة يعينونه في أعماله لكونه غريب الشكل في الأرض، فأيّد بهم، يعينونه في أشغاله ويحرسونه من مردة الشياطين، مع ما أعطي من سلطان النبوءة والاجتباء، وأعطي من حلل الخلافة في الأرض، فلا يبعد أن تكون مكة هي وطنه، وأطراف الأرض من شام ومصر وعراق ويمن بالنسبة إليه وإلى بلده نسبة بساتين البلد ومزارعه إليه، فيتصرف في الشام والعراق في أشغاله؛ من حراثة وزراعة وغير ذلك، ثم يأوي إلى أهله(4)، ومسكنه بمكة، لما أعطي من القوة، فيكون ذلك عنده، مع بعد المسافة، بمنزلة غدوة أو روحة يغدوها أحدنا أو يروحها إلى ضياعه، ومكاسبه لما أعطي من القوة وأيد به من المعونة، وقد أطلنا الكلام في هذا مع أنه ليس من متين العلم، ولكنه لا يخلو من فوائد إظهارا لجهل هذا الفقيه المجترئ على الرد على أولياء الله تعالى و لم يراع الأدب، فنسبهم إلى الجهل بما يجب عليهم في

(1) إبراهيم: 39.
(2) صحيح البخاري 826:2.
(3) فيض القدير 11:2.
(4) في ط: إليه.

فرع من الفروع من الديانة، ومن أيد بنور العلم لم يشكل عليه شيء مما ورد عن أهل الله مما يبادر عوام الناس المترسمة إلى إنكاره، وإني أحمد الله حمدا كثيراً وأشكره شكرا أثيراً على ما منحني من حسن الاستماع وحسن القبول لما أسمع من كلامهم فإني بحمد الله ما أذر أني سمعت كلاماً من كلامهم فنفر منه قلبي أو كرهه، وإن كان في غاية الإشكال، بل ينشرح قلبي لسماعه وقبوله، ولو لم أفهمه، وغالبه لا أكرر النظر فيه مراراً بحسن النية إلا ويمن الله بفهمه على وجهه أو ظهور محمل لائق عليه، وما[1] لم أجد محملا أجد له في قلبي برد التسليم له والتفويض في معناه لله ولرسوله ولأولي العلم من خلقه إذ هم خلفاء الله ورسوله في فهم كلامه وكلام أوليائه.

وولد الشيخ محي الدين بمُرسية[2] ليلة الاثنين السابع والعشرين من رمضان سنة ستين وخمسمائة.

ومن فوائد الشيخ محي الدين في كتاب الفتوحات ما نصه[3]: وعندي أن البسملة متعلقة بالحمد لله، فإنّ الله تعالى لا يحمد إلا بأسمائه ولا نتكلف في القرآن محذوفا إلا لضرورة، ولا ضرورة هنا، فإذا قال العارف: باسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله علق الباء بما في الحمد من معنى الفعل كما قلت، لا يثني على الله إلا بأسمائه. وأما قولهم المصادر لا تعمل عمل الفعل إلا إذا تقدمت، وأما إذا تأخرت فتضعف، فعندي غير مرضي في التعليل لأنه تحكم من النحوي، انتهى. فما أدق فهم هذا العرف، فلله در الإمام الغوري في قوله فيه: هو أعرف بكل فن من أهل كل فن. قال بعضهم إثر ما تقدم: وما ذكر من الامتناع هو مذهب جمهور النحاة، واختار جمع من المحققين منهم الرضى والسعد جواز عمله في الظروف المتقدمة، وهو الأظهر لأنها مما تكفي فيها رائحة الفعل هـ.

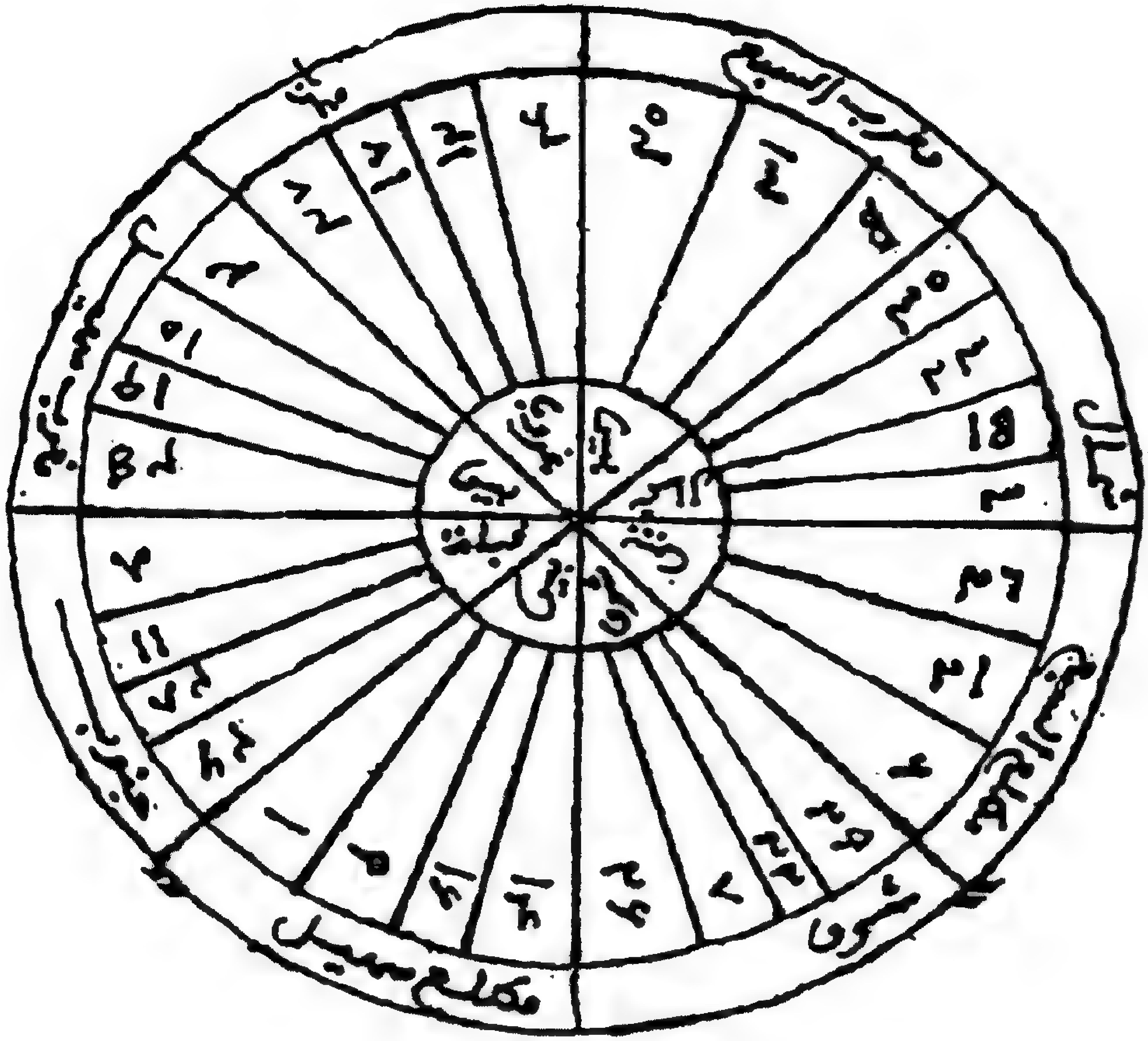
قلت: فقول العارف محي الدين: لا يثني على الله إلا بأسمائه لا يرد عليه أن الثناء على الله كما يكون بالأسماء يكون بالأوصاف الكاملة، وكل أوصافه تعالى كاملة، وبأفعاله المحمودة وكل أفعاله تعالى محمودة، لأنا نقول الثناء بالأوصاف

(1) في ط: لو.
(2) مُرْسية: مدينة بالأندلس من أعمال تدمير، اختطها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وسماها تدمير بتدمر الشام، فاستمر الناس على اسم موضعها الأول: معجم البلدان: مرسية.
(3) لم يرد هذا النص في الطبعة التي اعتمدناها من كتاب الفتوحات.

والأفعال يشمله الثناء بالأسماء فإن أسماءه مشتقة من أوصافه وأفعاله آثار أسمائه وصفاته، فيرجع الثناء كله إلى كونه بالأسماء، فإن قيل: لم يقل فإن الثناء عليه لا يكون إلا بأوصافه، فيكون شاملاً أيضاً لأن الأسماء مشتقة منها والأفعال أثرها.

قلنا: لو قيل ذلك لم يشمل الثناء بما ليس من الأسماء مشتقاً كأعظمها وهو الله الذي هو علم فإنه ليس مشتقا من شيء على أصح الأقوال، ولأن الثناء بالأسماء أبلغ من الثناء بالصفات لأن الأسماء دالة على الذات والصفات، فالعلم منها دال على الذات بسائر صفاته، والمشتق منها دال على الذات الذي له الصفة التي اشتق منها الوصف كما هو المعروف عند المحققين أن المشتق معناه الذات الذي له الصفة لا مجرد الصفة، بخلاف الصفة فإنما لا تدل على الذات بالوضع وإنما تدل بالالتزام على ذات ما تقوم بها الصفة، فقد ظهرت أبلغية الثناء بالأسماء، فلا يثنى على الله إلا بأسمائه وفي ضمنها الثناء بالأوصاف والأفعال. وللعارفين كلام أعلى من هذا وأدق في كون الأفعال كلها من مقتضيات الأسماء وكذلك الأوصاف، ولسنا الآن بصدده. وكلام العارفين بالله لا يخلو من ملاحظة هذه الأسرار لأن كلامهم ميراث كلام الله ورسوله الذي هو منبع اللطائف والأسرار.

ومن فوائد الشيخ محي الدين أيضاً في شرحه لكتابه: براءة المعاني في العالم الإنساني أن رجال الغيب والأرواح المقدسة في كل يوم من أيام الشهر متوجهون على جهة من الجهات الثمانية، فإذا أردت سفرا أو حاجة فاعرف موضعهم من الدائرة الآتية ثم توجه بقلبك وقالبك إليهم، ثم اقرأ الفاتحة واهد ثوابها إليهم وقل: السلام عليكم يا رجال الغيب يا أرواحا مقدسة يا نقبا يا نجبا يا أبدال يا أوتاد، أغيثوني بنظرة وأعينوني بقوة، بحرمة محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. فترجع وقد نلت مطالبك وبلغت مآربك، وهذه الدائرة المباركة:



ورأيت في بعض التقاييد مما يتعلق بهذه الدائرة ما نصه: دعاء يقرأ بنية رجال الغيب وهو هذا: السلام عليكم يا رجال الغيب، يا أيها الأرواح المقدسة أغيثوني بغوثة، وانظروني بنظرة، يا رقبا، يا نقبا، يا نجبا، يا أبدال، يا أوتاد، يا أمامين، يا غوث، يا قطب، أغيثوني في جميع أموري بحرمة سيد المرسلين وإمام المتقين محمد، عليه الصلاة والسلام، سلمكم الله في الدنيا والآخرة. يدعو به وهو غير مستدبرهم ويقوم لهم بخشوع وسلام.

وهذا دعاء الاستقبال، يعني، والله أعلم، استقبال القبلة بعد التوجه إليهم أولاً ثم يقول: باسم الله الرحمن الرحيم اللهم إني أسألك اللطف في القضاء كما لطفت بعظمتك دون العظماء وعلمت ما تحت أرضك كعلمك أني أسألك اللطـــف في القضاء كما لطفت بعظمتك دون العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، اجعل لي من كل هم أمسيت فيه فرجاً ومخرجاً، اللهم إني أسألك باسمك الكبير المتعالي الذي ملأ الأقطار كلها أن تكشف عني ما أمسيت وأصبحت

فيه، يا حي يا قيوم يا قائم على كل نفس بما كسبت، أسألك بما سألك به الإمام الأعظم القطب الجامع الفرد وبالإمامين والبدلا والرقبا والنجبا والأمنا أن تسخر لي كل مخلوق على اختلاف الألوان واللغات، وأن تجلب لي المنافع والخيرات من جميع الآفاق والجهات، يا بروح اجلب المنافع والفتوح، وابعث لي الأرزاق من كل باب مغلق ومفتوح يا الله، قسماً عليك بنبيك الممدوح بالمدد والفرح والنجاة مشعر بروح، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

لطيفة:

رأيت في كتاب المحاضرات والمسامرات للشيخ محي الدين ابن العربي، رضي الله عنه، ما نصه[1]: "أنشدنا أبو عبد الله بن عبد الجليل قال: أنشدنا أبو الحسن علي المسفر[2] بسَبْتَة لنفسه:

[مخلع البسيط]

يا أيها المُبتلى بذَمي	قد علمَ الله ما تقولُ
منْ حاسبَ النفسَ كُل حين	لم يتهاونْ بما يقولُ

كان هذا الشيخ المسفر جليل القدر، حكيماً، عارفاً، غامضاً في الناس مخمول الذكر، رأيته بسبتة[3]، له تصانيف منها: منهاج العابدين[4] الذي يعزى لأبي حامد الغزالي وليس له، إنما هو من مصنفات هذا الشيخ، وكذلك له أيضا كتاب

---

(1) محاضرة الأبرار 160:1

(2) علي بن محمد بن يوسف بن عبد الملك الأنصاري الوراق، من أهل مرسية، يكنى أبا الحسن، اشتهر بلقب المسفر، رحل حاجا فأدى الفريضة وعاد إلى مرسية، وتوفي سنة 621 هـ،ستمائة ومولده بعد الخمسين وخمسمائة: التكملة لكتاب الصلة 232:3.

(3) سبتة: بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب، وهي تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق الذي هو أقرب ما بين البر والجزيرة: معجم البلدان: سبتة.

(4) قال صاحب كشف الظنون: منهاج العابدين للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة 505 هـ، وقيل هو آخر تأليفه، رتبه على سبع عقبات: الأولى عقبة العلم، الثانية عقبة التوبة، الثالثة عقبة العوائق، الرابعة عقبة القوادح، السابعة عقبة الحمد والشكر، وهو كتاب لطيف نافع لمن أراد الآخرة واعرض عن الدنيا: كشف الظنون 1876:2.

النفخ والتسوية[1] الذي يعزى لأبي حامد، ويسميه الناس المضنون به على غير أهله، ولهذا الشيخ أيضا القصيدة المشهورة"[2]:

[رمل]

قـــلْ لإخـــوانٍ رأوني ميّتـــا فبكـــوني إذ رأوني حَزنـــا

أتظنـــونَ بـــأني ميْـــتُكمْ لـــيسَ ذاك الميْـــتُ والله أنـــا

هـــ.

قلت: قد اشتهر واستفاض بسَبْتَة نسبة منهاجٍ العابدين للغزالي، وقد كنت قبل رؤية هذا الكلام أتعجب من كونِه ليس جارياً على مذهبه في كتبه ولا هـــو مطابق لنفسه، وقد كنت أبحث كثيراً عن المشايخ الذين نقل عنهم فيـــه حيـــث يقول: قال شيخنا أبو محمد قال شيخنا أبو عمرو: وليس ذلك دأبه في مصنفاته، وأنا مع ذلك لا أشك أن الكتاب له لاشتهار ذلك، وللإشارة فيه إلى إحياء علوم الدين، ولنقله فيه عن إمام الحرمين سماعا، فلما رأيت كلام الشيخ محـــي الـــدين المتقدم تيقنت أنه ليس له لعدالة الشيخ محي الدين وسعة علمه واطلاعه، سيما وقد ذكر أنه يعزى لأبي حامد مما نفاه عنه مع علمه بالعزو المذكور، إلا لعلم يقـــين حصل له بأنه لغيره مع شواهد القرائن المتقدمة، فإن كلام الإمام أبي حامد لا يكاد يخفى على من مارسه، فإنه لسان وقته بلاغة وتحريراً، وذو الذوق السليم يميز بين الكلامين، ويشهد لذلك أيضا أن من عرف بالإمام أبي حامد من المتقـــدمين لم يذكر هذا الكتاب في تآليفه، والله أعلم.

وقد اشتهر نسبة كثير من التآليف لغير أربابها، فمنها كتاب مفتاح الفلاح[3]، فقد ذكر الشيخ زروق وغيره أنه لابن عطاء الله، وقد ذكر لي شيخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي أنه لشمس الدين البرشيني. قال لي شيخنا، وهو الغالب على الظن لبعده من كلام الإمام ابن عطاء الله في جميع تآليفه فإنه لا يكاد كلامه يخلو مـــن

---

(1) نقل صاحب كشف الظنون ما جاء في كتاب محاضرة الأبرار في سياق حديثه عن مؤلفات الغزالي: كشف الظنون 2:1876.
(2) محاضرة الأبرار 1:160.
(3)مفتاح الفلاح في ذكر الله الكريم الفتاح للشيخ تاج الدين أحمد بن محمد بن عطاء الله الإسكندراني المتوفى سنة 709 هـــ: كشف الظنون 2:1769.

نقل كلام شيخه المرسي ومن كلام الشاذلي، وهذا الكتاب ليس فيه إلمام بشيء من ذلك، والله تعالى أعلم.

وأول ما أنشده الشيخ محي الدين في الفتوحات بيتين ذكرهما في خطبة الكتاب وهما[1]:

[مخلع البسيط]

الـــرب ربٌّ والعَبْــدُ عبــد   يا ليــتَ شِعري مــن الْمُكلــفْ

إن قلــتَ عبــدٌ فــذاكَ ميْــت   أو قلــتَ رب أنَّــى يُكلــفْ

وذيلهما شيخ شيوخنا العارف بالله أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسي بقوله[2]:

[مخلع البسيط]

نعــمْ بحــق إثبــاتِ عبْــد   لنعــتِ فَــرقِ معــهُ يُكلــفْ

والعبــدُ مَيْــتٌ بغــيرِ رب   لــسِرِ عــوْن منــه مكلــف

هـ.

قلت: ويمكن أن يقال بحسب مدرك عقولنا معاشر القاصرين، وإلا إشارته، رضي الله عنه، مما لم تبلغه عقولنا بعد المكلف هو العبد بعدما أفاض عليه الرب نور وجوده فصار مظهرا له، فليس بميت على هذا، فلولا نور الوجود الحق المفاض على العبد ما صح تكليفه إذ هو ميت كما قال: بل عدم محض، ولولا العبودية التي هي مظهر من مجالي ذلك الوجود ما صح التكليف أيضا إذ الوجود الحق لا يكلف، فمن أيده الله بنور الهداية أدرك الحقيقة المكلفة ذات النسبتين بحيث لا يصح التكليف بدون إحداهما، ومن طلب تمييز النسبة المُكَلَّفة من تلك الحقيقة لم يتضح له ذلك ووقع في الحيرة، بل لا يصح ذلك التمييز أصلاً لأن النسب أمور اعتبارية، والأمور الاعتبارية لا يمكن تمييزها بدون ما اعتبرت به أو له، إذ لو تميزت صارت قائمة بنفسها في الوجود الخارجي أو الذهني، والنسب والإضافات أمور

(1) الفتوحات المكية 1:2.
(2) ورد البيتان في: صفوة من انتشر، ص: 90.

اعتبارية لا تحقق لها في حد ذواتها، وأستغفر الله من الخوض فيما لم يبلغه فهمي وغاض دونه علمي، فإني أعلم أن إشارة العارف، رضي الله، عنه إنما هي لأمر فوق هذا، ولكن لما جرى في البيتين ذكر الرب تنزه وتقدس عَمَّا لا يليق بكماله من ممازجة الحوادث وملابستها أردت أن أذكر للبيتين معنى يقرب من أفهام العقول الضعيفة حتى لا يقذف الشيطان فيها شيئا مما يشين عقائد أصحابها أو يحملها على إساءة الظن باعتقاد العارف، ووازن ذلك السؤال مع تجنب ذكر لفظ الرب تنزيها له عن نسبة التكليف إليه ولو ترديدا مع سلبه آخراً عنه بأنى الاستبعادية أن يقال[1]:

[مخلع البسيط]

الروح روح والجسم جسم ... يا ليتَ شِعري من المُكلفْ

إن قلتَ جسمٌ فذاك ميت ... أو قلتَ روح أنى يُكلفْ

ويأتي فيه ما تقدم إذ الجسم بلا روح ميت حقيقة لا يصح تكليفه، والروح بلا جسم لا يكلف أيضا، إذ التكليف إنما هو بالأعمال المزاولة بالأبدان لمن يصح منه الفعل والترك، فأما من يصح منه الفعل أصلاً كالجسم دون روح فلا يكلف، ومن لا يصح منه الترك أصلاً، كالروح قبل ملابسة الجسم فلا يكلف أيضا لأنه من عالم الأمر، وقد قال الله تعالى: (قل الروح من أمر ربي)[2]، فهو كالملائكة الذين هم أرواح مجردة لا يصح وقوع المخالفة منهم فـ(لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)[3]، وكذلك كانت الأرواح قبل ملابسة الأجساد لا يصح وقوع المخالفة منها بل هي منقادة للأمر بدليل إقرارها بالربوبية كلها في عالم الذر دون تأب ولا تَلك، وكذلك أيضا قبل استحكام ملابستها للأجساد ووقوع الألفة المتطاولة بينه وبينها وذلك قرب الولادة بدليل قوله عليه السلام: ما من مولود إلا ويولد على الفطرة[4]. الحديث. فإذا فهمت ذلك علمت أن المكلف الحقيقة الإنسانية الملاحظ في حقيقتها النسبة الروحانية والنسبة الجسمانية، وإن ذهبت لتحقيق تمييز إحدى النسبتين عن الأخرى ذهبت الحقيقة الإنسانية المكلفة

(1) الفتوحات المكية 2:1.
(2) الإسراء: 85.
(3) التحريم:6.
(4) صحيح البخاري 456:1.

رأساً، إذ الجسد بلا روح ليس بإنسان مكلف، والروح بلا جسد كذلك، فالحقيقة المكلفة تحدث عند ازدواجهما وتنفى عند اقترافهما، ولذلك قال أهل الحق: إنّ التنعيم والتعذيب في الآخرة إنما هو للروح والجسم معاً، إذ بهما توجد الحقيقة المكلفة المتوعدة بالعذاب الموعودة بالتنعيم لا للروح وحده كما قال الملحدة، فإذا فهمت معنى الترديد في التكليف هل للروح أو للجسم وهما معاً محدثان، وأن التكليف في الحقيقة إنما هو لأمر يوجد عند تمازج الحقيقتين لم يبعد عليك، إن نور الله بصيرتك ولم يسرع إلى خيالك اعتقاد الحلول والاتحاد في جانب الربوبية أن تفهم ذلك أيضا فيما بين الربوبية والعبودية، فالربوبية قديمة والعبودية حادثة والتكليف إنما هو لحقيقة توجد عند ملاحظة نسبة العبودية الحادثة للربوبية القديمة، والنسبة بينهما نسبة الأثر إلى المؤثر، فلولا فيضان نور وجود المؤثر على الأثر لما وجد الأثر، ولولا الأثر لما ظهر سلطان قدرة المؤثر لغيره، إذ لا غير بدليل: كنت كنزا لم أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفوني[1]، يعني كنزاً لم يعرفني غيري، فبعد وجود الأثر منسوباً للمؤثر فثبت هناك حقيقة يصح نسبة التكليف إليها لا وجود لها بدون الأثر والمؤثر، وإن شئت قلت: هي الأثر ملحوظا نسبته إلى المؤثر، ولا نقول: هي المؤثر ملحوظاً ظهور وجوده في الأثر لما في ذلك من إيهام وقوع التكليف على الرب تعالى عن ذلك. وأما المثال الآخر في المحدثين فيصح ذلك من الجانبين، والله تعالى أعلم. وقرأت على شيخنا الملا إبراهيم طرفاً من فصوص الحكم للشيخ محي الدين، وناولنيه، كما قرأ منه على شيخنا صفي الدين وناوله إياه، وهو ناوله إياه الشيخ محي الدين في رؤيا رآها، وقد ذكر الشيخ محي الدين، رضي الله عنه، في أول هذا الكتاب أنه ناوله إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

وهذا الكتاب من أغمض كتب الشيخ محي الدين إشارة وأدقها عبارة على صغر حجمه، وقد اعتنى الناس بشرحه، فشرحه جماعة كثيرة، ومع ذلك حارت أفهامهم في فهم كثير من رموزه واستخراج خبايا كنوزه، وأحسن ما رأيت عليه من الشروح شرح الملا عبد الرحمن الجامي، وكان الملا جامي، رضي الله عنه، آية من آيات الله في علمي الظاهر والباطن، وله شرح على كافية ابن الحاجب، هو من

(1) كشف الخفاء 173:2.
(2) فصوص الحكم، ص:9.

أحسن شروحها، وهو أكبر ساداتنا أهل سلسلة الخوجكان صاحب أصحاب بهاء الدين نقشبند رضي الله عنهم.

وقرأت عليه أيضاً طرفاً من أنوار التنزيل للقاضي ناصر الدين البيضاوي، رضي الله عنه، من أوله[1]، وذلك المحل الذي قرأته عليه هو الذي قرأه على شيخنا صفي الدين القشاشي، فاخترت قراءة المحل الذي قرأه على الشيخ تيمنا بذلك. وقرأت عليه المراجعة التي وقعت بين كمال الدين الشيخ عبد الرزاق الكاشي وبين الشيخ علاء الدولة السمناني[2]، رضي الله عنهما، في مذهب الشيخ محي الدين، وقوله في معنى الوجود المطلق، وستأتي بنصها إن شاء الله، بل تقدمت.

وقرأت عليه أيضاً مواضع كثيرة من كلامه في رسائله وتآليفه، أكثرها يتعلق بمسألة وحدة الوجود ووحدة الصفات. وقرأت عليه رسالة كتبها برسمي في المسألة التي ألف فيها شيخنا صفي الدين وبالغ في إيضاحها وتعددت تآليفه فيها، وهي مسألة كسب العبد ونسبة فعل العبد إليه وإلى قدرة الرب، فقد انتصر الشيخ، رضي الله عنه، في ذلك للقولة المنسوبة لإمام الحرمين وتأولها على ما ينافي مذاهب أهل الحق، وتشهد له بصائر أهل الكشف وتعضده شواهد الآيات ومعاني الأخبار الصحيحة، وما فعل، رضي الله عنه، من تأويلها وتبيين معناها على حسب ما ظهر، وإن كان فيه غموض على أفهام كثير من الناس أولى مما فعله كثير من المشايخ من القضاة ببطلانها والتشنيع على الإمام أو على من نسبها إليه وأنكروا وجودها في كتبه، وذلك قصور منهم، رضي الله عنهم، فإنها قولة صَحَّت عن الإمام في رسالته النظامية التي هي من آخر مؤلفاته، ولذلك لم يتردد المتقدمون في نسبتها إليه لإحاطتهم بأخبار الإمام ومطالعتهم لكتبه. ولما لم تشتهر هذه الرسالة لتأخرها كاشتهار الإرشاد وغيره من كتبه، لم تبلغ إلى بعض المتأخرين، فأنكر وجود القولة المشهورة في شيء من كتب الإمام، وظن أنها مفتعلة عليه وصدرت منه في مجلس المناظرة على وجه المعارضة أو إرخاء العنان أو غير ذلك مما لا يعد مذهبا لقائله. وقد بالغ شيخنا رضي الله عنه، في إيضاحها والاستشهاد لها في رسائله الثلاث، وكذلك تلميذه الملا، إبراهيم بالغ في بيانها وكشفها، ومع ذلك لم

(1) إتحاف الأخلاء، ص: 124.
(2) أحمد بن محمد بن أحمد الملقب بعلاء الدولة السمناني، عالم مشارك، له تصانيف كثيرة في التفسير والتصوف وغيرهما، توفي قبل الأربعين وسبعمائة بقليل: طبقات الشافعية 2:248.

تخل من غموض و لم تتضح كل الوضوح، ولا غرو إذ هي من معضلات المسائل التي حارت فيها أفكار المتقدمين و لم تحصل على طائل في تحقيق معناها آراء المتأخرين، فقصارى أمرهم فيها اعتقاد انفراد الرب تعالى بالخلق والتقدير، واعتقاد أن للعبد في أفعاله الاختيارية كسبا به صح نسبة الأفعال إليه، وثبت التكليف وعلي ترتب الثواب والعقاب، وهذا معتقد جميع أهل السنة، وهو الحق الذي لا محيص عنه، ولكنهم إذا ضويقوا في تحقيق معنى هذا الكسب تباينت آراؤهم بين مائل إلى ما يقرب إلى الجبر، ومائل إلى ما يقرب إلى القدر. وأهل السنة لا يقولون بواحد منهما فقد قال الإمام سعد الدين في شرح العقائد بعد ما ذكر كلاما في معنى الكسب ما نصه: وهذا القدر من المعنى ضروري إذ لم نقدر على أزيد من ذلك في تلخيص العبارة المفصحة عن تحقيق كون فعل العبد بخلق الله تعالى وإيجاده مع ما للعبد فيه من القدرة والاختيار، فإذا علم أن فحول أهل السنة قد عجزوا عن تحقيق معناه مع تظاهرهم وتظافر معتقداتهم على نفي الجبر والاستقلال، فلا ينبغي المبادرة إلى التشنيع والإنكار على من أحدث قولا في المسألة بفهم أتاه الله إياه وانتصر لقول من الأقوال المقولة فيها لأهل السنة بدلائل بينها الحق له، وبصيرة أنارتها الهداية الإلهية ما دام لم يقض بصحة أحد القولين المتفق على إبطالهما عند أهل الحق، وهما الجبر والاستقلال، لأن ذلك هو المعيار الصادق، فما دام العبد يعتقد في المسألة معتقدا ليس بجبر ولا استقلال، فهو على الجادة وإن عجز عن تحقيقه، إذ لا نكلف بإدراك الكنه في كثير من المسائل الاعتقادية، وإنما المكلف به فيها اعتقاد الثبوت والوجود فقط. هذه المسألة، أعني مسألة الكسب، ليست من المسائل التي يستحيل فيها إدراك الكنه حتى نحكم بتضليل من ادعى إدراك كنهه وحقيقته، بل لغموضه وخفائه لم نكلف بمعرفة حقيقته بل باعتقاد ثبوته ووجوده، وإن للعبد كسباً به نيط التكليف يوجد بوجوده مع استكمال الشرائط، وينتفي بانتفائه لأن من لم يعتقد ذلك وقع لا محالة في أحد أمرين محالين: تجوير المولى تعالى أو تعجيزه تعالى الله عنهما علواً كبيراً. ولا بدع في اعتقاد الإنسان ثبوت شيء لا يدري كنهه كالروح، فإنا نعلم يقيناً وجوده وثبوته مع عجزنا عن إدراك كنهه. وليس إدراك الكنه فيه محال عقلاً ولكنه لصعوبته أمسك الشارع عن إيضاح معناه لعجز عقول أكثر الناس عن إدراكه. وقد نص الغزالي وغيره على أنه لا ينبغي

لمسلم أن يعتقد أن النبي، صلى الله عليه وسلم، لم يعرف ماهية الروح و لم يدرك حقيقته كيف، وقد[1] أدرك من المعارف الإلهية والحقائق الربانية ما لم يخطر ببال أحد من الخلق سواه؟ فكيف يعجز عن إدراك حقيقة روحه الذي به هو هو، فيصير كأنه عجز عن إدراك نفسه، ومن عجز عن إدراك نفسه فهو عن إدراك غيره أعجز، وهو، صلى الله عليه وسلم، أجل قدراً من ذلك، بل له التصرف التام في عالم الأرواح بأسره، وهو روح الأرواح الأمين نديمه وسميره في غالب الأوقات، وروح القدس ينفث في روعه بما كان وما سيكون، فكيف لا يكون عالماً بالروح وحقيقته، وإنما أمرنا بالإمساك فأمسك لكونه مشرعاً، وقد قال: خاطبوا الناس بما يفهمون، أتريد أن يكذب الله ورسوله[2]، بذلك تقول في الكسب هو صفة من صفات العبد يحس كل أحد بوجودها فيه وثبوتها في محله فيها يفرق بين أفعاله الاختيارية والضرورية، ولكنه لا يدري حقيقتها ولا يحقق كل التحقيق نسبة أفعاله إليها، مع اعتقاد انفراد الله تعالى بخلق العبد وخلق أفعاله غير مفتقر إلى معين. واعتقاد أن لكسب العبد دخلا في وجود أفعاله على وجه لا يضايق فيه القدرة الإلهية ولا يزاحمها ولا يعينها، ولكن عجزنا عن إدراك ذلك على وجه، ومن أتاه الله فهما وعلما ونورا فأدرك حقيقة ذلك كما يدرك العارفون بالله حقائق أشياء كثيرة من علم الغيب والشهادة قد عجز عن إدراكها أكثر الخلق، فلا ينبغي الإسراع إلى الإنكار عليه ولا التشنيع عليه إذ لم يدع محالا، فالأولى التسليم له، سيما إن كان من أئمة الهدى ورؤساء السنة وكبراء الأمة، كإمام الحرمين، رضي الله عنه، وممن ظهرت ديانته، وثبتت إمامته، واتضحت عدالته، وغلبت على الظن ولايته، وثبتت في علوم الشرع مشاركته، ولم يرم ببدعة ولم ينبذ بسوء اعتقاد كشيخنا الغوث صفي الدين القشاشي رضي الله عنه، وإن كان لا بد من التعقب والنقد والنظر في كلام من هذه صفته، فلينظر بعين الإنصاف وسداد الرأي إلى كلامه، فإن فهمه الناظر حق إليهم سبره بالمعيار المتقدم من عرضه على آراء أهل الضلالة، فإن وافق أحد الجانبين الباطلين كل الموافقة حتى صار هو هو، فهو جدير بأن يلغى ويترك وتوكل سريرة قائله إلى الله لاحتمال أن عبارته لم توف بما في ضميره لعلمنا بأنه من أهل السنة، وإن لم يوافق أحد الجانبين المحكوم ببطلانهما إلا أنه على خلاف ما كنا نعتقده نحن ونتوهمه ونفهمه من كلام الغير، فلا ينبغي أن

---

(1) في ط: وهو قد.

(2) تفسير القرطبي 8: 184، وفيه حدث بدل خاطبوا.

تحكم ببطلانه لأجل مخالفته لكلام الغير، لأنَّ الحق في المسألة ليس منحصراً في شيء بعينه يدركه كل أحد، فيحتمل أن هذا القائل قد عثر على الحق أو على جانب منه إذ ليس فيه إمارة الباطل ودليله.

وأما إن كان الناظر في كلام أحد من الأئمة المتقدم ذكرهم لم يفهمه كل الفهم و لم يحط علما بمقاصده والتبست عليه المذاهب في تحقيق مقالته، وهذا وصف غالب من ابتلى بالاعتراض على المشايخ، فما أجدر هذا بأن يمسك عن الخوض في ذلك لأن الحكم على الشيء بالصحة والفساد فرع تصوره، وهذا لم يتصور شيئاً من معتقد هذا الإمام حتى يحكم برده أو إمضائه، فليحرر هذا المسكين معتقد نفسه على مذهب أهل السنة والحق، وليجتهد قدر طاقته في تتريهه عن مذاهب أهل الباطل في موافقة أهل الحق قدر وسعه، وليترك ما وراء ذلك لأهله، فإن خاض فيه فقد عرض نفسه لما لا قبل له به.

وقد ابتلي أقوام من المترسمة من أهل عصرنا بالتشنيع على شيخنا صفي الدين وتبديعه وتضليله، وقالوا: إنه يقول بتأثير القدرة الحادثة، وخالف الشيخ السنوسي وغيره من المشايخ، ورد عليهم. فإذا طولبوا بتحقيق ما ردوه عليه عجزوا، فإذا قيل لهم: ما معنى التأثير الذي نسبه للقدرة الحادثة وما معنى التأثير الذي نفيتموه أنتم مع تسميتكم لها قدرة؟ لم يؤتوا من الجواب إلا بجعجعة ليس لها طحين، وهمهمة ليس معها تبيين، مع أنَّ الشيخ، رضي الله عنه، مصرح بعدم تسميته وصف العبد قدرة إلا على وجه المجاز، إذ لا يعقل من معنى القدرة إذا أطلقت إلا وصف له تأثير، فإن سمينا وصف العبد الذي له نسبة في وجود الفعل جعلها الله له قدرة مجازاً، فلنسم تلك النسبة التي جعلها الله له في وجود الفعل أيضاً تأثيراً مجازاً، وإن قلنا لا تأثير لقدرته، نعني حقيقة، فلنقل لا قدرة له أيضاً حقيقة، وإنما هي قدرة واحدة قديمة إلهية ذات نسبتين، نسبة وجودها وقيامها بذات المولى جل جلاله أزلاً وأبداً، فتنسب إليها الأفعال حقيقة على وجه الخلق والاختراع والاستقلال بها على وفق الإرادة القديمة، ونسبة ظهورها في محل العبد وتجليها فيه كما هو شأن سائر الصفات في تجليها، إذ قدرة العبد من قدرة سيده، وحوله بحوله، وقوته بقوته، كما أفصح بذلك لا حول ولا قوة إلا بالله الذي هو كتر من كنوز الجنة، فتنسب إليها الأفعال بهذا المعنى على جهة الكسب والإضافة، وينسب إلى ذلك الكسب تأثير يناسبه على وجه المجاز لكونه محلاً لظهور الأثر، فإن المجاز عند العرب إذا تجوز في

حقيقة من الحقائق تجوز فيهما مع عوارضها المشخصة التي لا تثبت الحقيقة ولا توجد إلا بها، فإذا تجوز في إطلاق السبع على المنية تجوز في الحقيقة السبعية مع عوارضها وصفاها التي لا تكمل السبعية إلا بها، مثل الأظفار والجرأة العظيمة والاغتيال بالقهر، وجعلت تلك الأوصاف كلها مجازاً للمنية كما كانت للسبع حقيقة، وإلا لما صح التجوز، فلو قيل مثلاً: المنية سبع لا ناب له ولا ظفر ولا جرأة ولا اغتيال لقبح ذلك كل القبح عند كل ذي ذوق سليم، وقضى برده على كل ذي عقل فهيم، فكذلك يقال في الكسب الذي هو وصف العبد مع القدرة، فإن سمينا وصف العبد قدرة لكونه له نسبة جعلية في وجود الفعل، كما أن للقدرة نسبة ذاتية في ذلك، فلنجعل لذلك الكسب الذي سميناه قدرة تأثيراً مجازياً يناسبه، وإلا بطل تسميته قدرة كما بطل تسمية المنية سبعا من غير إثبات أوصاف السبع لها، ولأجل هذا مع تتريه أوصاف الحق تعالى أن ينسب شيء منها إلى العبد تحاشى الأقدمون من أهل السنة والسلف الصالح عن تسمية وصف العبد قدرة فلا تكاد تسمع في مؤلفاهم إلا الكسب حتى تجاسر على إطلاق القدرة المتأخرون ورأوا أن لا فرق بينه وبين القدرة، ولم يتجاسروا على إطلاق التأثير على نسبته إلى الفعل تباعداً عن قول القدرية بخلق العبد أفعاله فقالوا: قدرة لا تأثير، فأثبتوا لعبد قدرة فراراً من قول الجبرية، وقالوا لا تأثير لها فراراً من قول القدرية، ولعمري إنها لعبارة حسنة في بادي الرأي متوسطة بين قولي الإفراط والتفريط، إلا أنها إذا حكمت على معيار التحقيق وطولب صاحبها كل المطالبة أدَّت إلى شيء لا يدرك له صاحبه معنى ولا يجد له مفهوماً، ولذلك قال بعض من عاب علم الكلام كما نقله ابن القيم وغيره بمحالات الكلام ثلاثة: طفرة النظام، وأحوال أبي هاشم، وكسب الأشعري، فإنك إذا حققتها لم تجد شيئاً، فطفرة النظام هو قوله إن الجوهر ينتقل من المكان الأول إلى الثالث من غير أن يمر بالثاني، وأحوال أبي هاشم يقول ليست موجودة ولا معدومة، وكسب الأشعري يقول قدرة ولا أثر لها وذلك عين العجز. وانظر إلى ما آل الأمر إليه بسبب سوء التعبير حتى عد معتقد أهل الحق والسنة مع محالات المعتزلة في نسق واحد، فإذا سعى أحد من علماء الأمة بما أتاه الله من النور والفهم كشيخنا القشاشي وبذل مجهوده في إثبات معنى للكسب يبعد به شيئاً ما عن هذه المحالات التي عد من جملتها وأيد ما أثبته من ذلك بالآيات والأحاديث وأقاويل أهل الحق مع نورانية الكشف الصحيح، فلا يشنع عليه إلا مخذول أعمى البصيرة، ولقد تكلمت مع بعض من زعم أنه ألف في الرد عليه فقال لي: إني

حرت في كلام هذا الرجل بينما أقول هو قدري محض، لما يظهر من كلامه إذ رجع رأيي فيه إلى أنه جبري محض، فلا أدري من أي الجهتين هو وقد حرت في أمره، قلت له: شهدت ورب الكعبة بالسنية المحضة، وأنت لا تشعر لأن أقوى دليل على كون معتقد العبد موافقا للسنة في هذه المسألة كونه ليس مع أحد الجانبين، ودليل كونه في غاية التوسط الذي هو غاية التحقيق كونك كلما اعتبرته مع أحد الطرفين ظننته أقرب إليه من الطرف الآخر كقطب الدائرة ومركزها، فعلامة توسطه أنك كلما اعتبرته مع قطر من أقطارها ظننته أقرب إليه من الآخر، وهكذا كلام هذا العارف إذا سمعت قوله القدرة العبد تأثير قلت: هذا قريب من مذهب القدرية، وإذا سمعت قوله: إنما هي قدرة واحدة ولا قدرة للعبد أصلاً إلا ما يظهر من أثر قدرة الحق في محله، قلت: هذا قريب من مذهب الجبرية، وهذا لعمري غاية التحقيق لمن علمه، وهو حري بالاعتقاد لمن فهمه، وبالتسليم لمن لم يفهمه فإن فيه نوع غموض لا يظهر كل الظهور إلا بالكشف الصحيح، ولذلك كانت تآليف الملا إبراهيم في المسألة أقرب إلى الأفهام من تآليف شيخنا الصفي لأن الصفي الغالب عليه والمستولي عليه صحة الكشف فيعتمد عليه كثيراً وعلى أقاويل العارفين كالشيخ محي الدين وأضرابه وعلى دلائل الكتاب والسنة، ولا يعرج على دلائل المتكلمين إلا قليلا فعسر فهم كلامه على كثير من المترسمة الذين لم يكونوا على قدمه في العرفان والكشف عن معاني الأسماء والصفات.

وأما شيخنا الملا إبراهيم فلقوة نظره في المعقولات وسعة اطلاعه على أقاويل المتكلمين وتمييز صحيحها من فاسدها أبرز المسألة في قالب مسائل علم الكلام، واحتج لها بادلتهم، وردها على صحيح أقوال أهل السنة، وتتبع الأدلة التي أبطل بها أهل السنة أقوال القدرية والجبرية، وبين أن واحداً منها لا يدل على بطلان هذه القولة بعمومه ولا بخصوصه، بل ذكر لي أنه فحص غاية الفحص فلم يجد في كلام الأشعري، رضي الله عنه، ما يدل على نفي الأثر عن القدرة الحادثة وإنما يوجد ذلك في كتب الأصحاب معزواً له. قال: بل وجدت في كلامه نفسه في كتاب الإبانة الذي ضمنه معتقده، وأمر أصحابه باعتقاد ما فيه، ما يشعر بما هو كمذهب إمام لحرمين، وقد نقل ذلك في رسائله وسأذكر بعضها آخر الترجمة إذ الغرض من هذه الرحلة أن تكون ديوان علم، فلا آلو ما أدخلت فيها من الفوائد لرغبة كثير من الصحاب في ذلك.

أخبرني الشيخ الملا إبراهيم أنه كان في أول اتصاله بالشيخ يضيق عليه النطاق في أمثال هذه المباحث من وحدة الوجود ووحدة الصفات وغير ذلك مما لم يوافق عليه العارفون بآراء المتكلمين لأنه كان متضلعاً بعلوم أهل الكلام، وكان الشيخ الصفي، رضي الله عنه، إذا أحس منه بشيء من ذلك يقول له: أثبت فسيشرح الله صدرك لقبول الحق، وليس هذا الأمر بسهل إنما هو كالخروج من دين إلى دين. قلت: والمعتقدات هي أعلى الدين، فلا يخرج الإنسان من معتقد ألفه إلى معتقد أعلى منه إلا ببرهان واضح ونور لائح، يظهر به عدم مخالفة الاعتقاد الثاني للمعتقد الحق الذي قامت عليه دلائل الكتاب والسنة، إلا أن المعتقد الثاني يكون أعلى من الأول وأبين أوضح إذ لا يكون الاعتقاد الثاني مبايناً للأول إلا إذا كان أحدهما فاسداً، ومعتقدات أهل السنة والحق قامت البراهين القطعية التي لا تحتمل شكا ولا ترديدا على صحتها إلا أن بعضها أكمل من بعض في الوضوح والبيان، وإن كانت كلها بينة واضحة فليس معتقد عوام المؤمنين المستند أولا إلى تقليد علماء الأمة ثم ثانيا بعد انتهاء عقولهم إلى نظر جملي كمعتقد علماء الأمة العارفين بأدلة الكتاب والسنة وقضايا العقول الضرورية والنظرية بمعتقدات هؤلاء لا يطمع في تزلزلها شيطان مريد ولا ملحد عنيد لتشييدها بالأدلة القاطعة والحجج الساطعة، ومع ذلك فليست معتقداتهم بالنسبة إلى معتقدات كبراء العارفين أهل الكشف الصحيح والذوق الصريح والبصائر النورانية إلا كنسبة معتقدات العوام إلى معتقداتهم، لأن معتقد العارف مستند إلى الشهود والعيان ببصائر الإيمان والإيقان، فلا يحتاجون إلى إقامة دليل ولا وجود برهان، فمثل معتقدات الفرق الثلاثة كمن كانوا في بيت مظلم فأخبرهم مخبر بطلوع الشمس فصدقوه كلهم لتجربتهم له قبل ذلك، ولأنه لا يكذب فلم يبق عندهم شك في طلوع الشمس، ثم نظر قوم منهم إلى شقوق وطيقان في جدار البيت فرأوا ضوءاً لامعاً ونوراً واضحاً فازدادوا يقينا بطلوع الشمس لقول المخبر: وما لاح لهم من الدليل الدال على طلوعها وهو الضوء اللامع، ثم قام قوم إلى باب البيت ففتحوه فرأوا قرص الشمس بعينه، فحصل لهم علم[1] اليقين بطلوع الشمس من غير احتياج إلى دليل، بل غابوا عن مشاهدة الدليل، فلو رام أحد منهم أن يستدل بعد الشهود عد ذلك منه غلطا كما قيل:

---

(1) في ط: علم.

[طويل]

فـــؤاديَ لا يحتـــاجُ فيـــه لـــشاهِدِ   وتقريريَ المعلومَ ضربٌ مـــن الجهـــلِ

ومن الأمثال الشهيرة ليس بعد العيان بيان. وقد قال الشيخ أبـــو الحـــسن الشاذلي: إنا لننظر على الله ببصر الإيمان والإيقان فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان. فقد تبين لك تفاوت حال المعتقدات مع صحتها كلها، وكون المعتقد شيئاً واحداً، فالانتقال من عقائد العوام على عقائد العلماء لا يحصل إلا بعد فهم الأدلة الـــتي استدلوا بها، والعلم بصحتها، وكذلك الانتقال من عقائد العلمـــاء إلى عقائـــد العارفين لا يكون إلا عن منزلة صحيحة لأحوالهم والوصول إلى مقاماتهم، فمـــن أراد اعتقاد معتقداتهم تقليدا صعب عليه الأمر ونازعه الوهم لأن العقل لا يـــذعن لقبول ما لم يدرك، ولكن كما ينبغي للعوام تقليد العلماء فيما قالوه وإن لم تدركه عقولهم، وثوقاً منهم بحسن نظرهم وسداد رأيهم كذلك ينبغي للعالم تقليد العارف الذي فوقه فيما لم يبلغه عقله تحسينا لظنه به إذ لم يأت بشيء أقام القاطع مـــن العقل والنقل على بطلانه، إنما أتى بشيء عجز عقل العالم عن إدراكه لـــضعف بصيرته وعدم وصوله إلى ما وصل إليه العارف وببركة تقليده له وحسن ظنه بـــه يوصله الله إلى لقائه حتى يصير ما كان تقليداً علماً يقيناً، وما كان علماً عن غيب عرفاناً عن شهود، وإن لم يوفق لتقليده فيما قال، فأقل درجته التسليم له فيما أتى به، إذ منازعته فيما لم يحط به علما و لم يدركه عقله حرمان وخذلان.

ولقد أخبرني الملا إبراهيم أن الشيخ صفي الدين كان يقول لهـــم في أثنـــاء التقرير لهذه المباحث: يا أولادي إنما أشتغل بنقل هذه الأدلة وتهذيبها وأفرح بمـــا أجده من كلام أئمة الحق موافقا لقولي، كل ذلك لأجلكم وحرصا على هدايتكم، وإلا فإنا على بصيرة من ربي ونور منه فيما أقوله من ذلك وأعتقده، ولا يـــضرني مخالفة مخالف ولا يزيدني علماً موافقة موافق.

قلت: ومصداق ذلك قوله عليه السلام لما نزل قول الله تعالى: (فإن كنـــت في شك مما أنزلنا عليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك)[1] الآية. لم أشك و لم أسأل لكونه عليه السلام حصل له من العلم واليقين ما لا مزيد فيه موافقـــة أحد، ولا ينقص منه مخالفته. قال الملا: كنت أقول للشيخ لما ظهر لي لوائح صدق

---

(1) يونس:94.

مقالته وشرح الله صدري لفهمها: يا سيدي إن هذه المقالة لا يمكن تقريرهـا ولا تمشيتها على قواعد المتكلمين إلا من فهم معنى وحدة الصفات، وأقر بها وصدق بها، وأكثر المتكلمين لا يقولون بذلك ولا يعرفونه كما لا يعرفون وحدة الوجود. قال الملا: ثم رأيت بعد ذلك في كلام العارف بالله الشيخ عبد الجليل القصري صاحب شعب الإيمان، وهو من أشياخ الشيخ محي الدين ما يشير إلى نحو ما قلته وإن لم يصدق بوحدة الوجود ووحدة الصفات لم يقدر على فهم شيء من أقوال العارفين خصوصاً في المعتقدات، ومع ذلك فقد كان الملا لا يألو ما أبرز أقاويل العارفين في قالب آراء المتكلمين تقريبا للأفهام، ومن طالع رسائله وتآليفه صدق بذلك وعلم صحته.

لطيفة:

كان شيخنا الملا، رضي الله عنه، ذات يوم، يقرر لي مسألة من الحقائق المتعلقة بوحدة الوجود، فاعتاصت على فهمي وأبيت من قبولها، ثم بعد ذلك لقيته فقال لي: إني كنت اغتممت آنفاً لعدم قبول فهمك لما أقرره لك وأهمني ذلك كثيراً، فنمت فرأيت في النوم قائلاً يقول لي: حياتهم تفقههم، فانتبهت، فزال ما بي من الغم، ورجوتُ الله تبارك وتعالى سيفقهك في هذا الأمر بما يضعه من حياة المعرفة في قلبك لا بنظم الأدلة وتقريرها، وإني لأرجو بركة هذه الرؤيا وأطمع في ظهور صدقها، ولا يأس من روح الله[1]. على أني أحمد الله تعالى ولا أجحد حصول بعض أثرها، نسأل الله تعالى تمام النعمة ودوامها.

ولقد كان، رضي الله، عنه يعجبه صدقي في عدم قبول ما لم أحط به علما، وقولي له: إني وإن صدقت القوم فيما يقولون، واعتقدت صحة مقالتهم، فإني لا أنتقل عما أنا عليه من معتقد العوام المقطوع بصدقه إلا ببرهان من الله واضحٍ، وحجة منه قاهرة، فإن يُردني الله بذلك ويؤهلني لسلوك طريقهم، فسيفتح لي باباً من المعرفة فسأدرك ما تقول، وإن يكن غير ذلك فلا ينبغي لي أن أتعاطى ما ليس لي به علم: ولا خير في ود يكون تكلفا[2].

(1) إشارة إلى قوله تعالى: (يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) :يوسف: 87.
(2) هذا صدر بيت للبوسي بقيته: ولا في ودود حيث لنت له شمخ: زهر الأكم 2:235.

وقد قال صاحب الحِكم: الواردات الإلهية قلما ترد إلا بغتة، وقد جلت أن تنال بتعمل وتكلف[1]. وربما أكثر محاورتي بعض أصحابه عند جمودي على ما أنا عليه من عقائد العوام، فيقول لهم الشيخ: دعوه فإن لصدقه بركة سينال بها بعض ما امتنع من قبوله الآن، واستصوب رأيي في ترك تكلف ما لم يؤهلني الله لمعرفته، ولكن مع ذلك كان يحضني على تصديق المشايخ واعتقاد أن ما قالوه حق وإن لم أفهمه، وتقليدهم فيما لا ضرر عليّ في تقليدهم فيه، ويقول لي: إن تقليد الصادق واعتقاد صحة قوله أصل كل خير، وما نال من نال من أهل الطريق إلا ببركة اعتقادهم في مشايخهم، والتقيد المذموم إنما هو الاقتصار عليه من غير سعي في إدراك العلم، أو تقليد ما لم يتبين صدقه، وأما من تبين صدقه، كالرسل، عليهم السلام، أو ورثتهم من أكابر العارفين، فتقليدهم بمترلة العلم الحاصل بالدليل، لأن الدليل القائم عندك على عدالتهم وهدايتهم وسلوكهم سبيل الحق دليل لصدقهم فيما ادعوا ومُبين لصدق مقالاتهم، وهذا كله فيما كان ظاهر اللفظ واضح المعنى، وأما ما خفي على الإنسان معناه، لغموضه ودقته، فيجزم بصحته وصحة مدعيهم على نحو ما فهموه هم، لا على نحو ما يخيل إليه هو أنه هو معناه، حتى يتبين له ببرهان واضح أنه فهمه على النحو الذي أرادوه، وعلامة ذلك أن يفهم كلامهم على نمط لا يخالف كتاباً ولا سُنَّة، ولا يورثه شكاً ولا تزلزلاً في معتقداته، بل ينشرح به صدره ويقوى به يقينه، وتنبسط أنوار علمه في قلبه حتى يعلم أنه الحق، وما دام يجد على المعنى الذي فهمه من كلامهم ظلمة وشكا وتزلزلا في اليقين، وتخيلا لتصوير الحق على صورته، وتنقلاً من فهم إلى فهم، تارة أعلى منه وتارة أدنى منه من غير انضباط، فليعلم أنه لم يفهم إلى الآن كلامهم على ما هو عليه، وليتمسك بمعتقده الذي لا خفاء فيه، وليحسن الظن بهم فيما قالوه أنهم أرادوا به غير ما فهمه هو، وليلجأ إلى الله تعالى أن يفهمه ما أشكل عليه من كلامهم تفهيما يوافق به ظاهر الكتاب والسنة، وهذا معيار صادق يعلم به الإنسان أنه فهم كلام العارفين على وجهه أو أخطأ فيه فتمسك به، (ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون)[2]، وإلى هذا المعنى يشير قول بعض العارفين من شيوخ الرسالة في قوله[3]: إنه لتقع لي

(1) جاء في الحكم: قلما تكون الواردات الإلهية إلا بغتة، صيانة لها أن يدعيها العباد بوجود الاستعداد: الحكم، ص: 119.
(2) الروم: 59.
(3) لم ترد هذه الفقرة في النسخة التي اعتمدناها من الرسالة القشيرية.

النكتة من كلام القوم فأدعها تختلج في صدري أياما، فأقول لها: لا أقبلك إلا بشاهدين عدلين من كتاب وسنة، فمعنى شهادة الكتاب والسنة للنكتة أن يفتح له فيها فهم توافق الكتاب والسنة حتى ينشرح صدره لقبولها، فمعنى عدم قبولها عدم قبول المعنى الذي فهمه منها لا عدم قبولها أصلا وردها على أربابها وحكمه ببطلانها، فمعاذ الله أن يقضي عارف بذلك في كلام عارف، ولأجل ذلك قال سيدي عبد الوهاب الشعراني ناقلاً عن غيره ومقرراً له في أي ما كتب من تآليفه: ما من أهل كل علم من العلوم إلا ويقع بينهم اختلاف في أشياء كثيرة يثبتها قوم وينفيها آخرون، أو يصححها هذا ويبطلها ذاك، إلا المحققون من الصوفية العارفون بالله فإنه لا يقع بينهم اختلاف أصلاً، وما يظن أنه اختلاف في كلامهم لا اختلاف فيه أصلاً عند من فهمه لأنهم لا يتكلمون إلا بصدق وعن مشاهدة، لأن الطريق لسان صدق، وما كان صادقاً لا يمكن فيه اختلاف، لأن الصدق لا يناقض الصدق؛ إذ كل متناقضين من الكلام فأحدهما صادق والآخر كاذب، ولا يقع فيه وهْم أيضا لأنهم لا يتكلمون عن حدس وتخمين، وإنما يتكلمون عن مشاهدة ويقين، ولأجل ذلك لا يقع اختلاف وتناقض في كلام الله وكلام أنبيائه ورسله لأنه كله صدق، والصدق يصدق بعضه بعضا، ولذلك كان القرآن (مُصَدِّقاً لما بين يديه)[1] وما خلفه، فهو مصدق لكل صدق، ويصدقه كل صدوق، وكذلك كلما هو صِدق، والعارف وارث النبي في الصدق، ولذلك كانت الصديقية أدنى درجة تلي درجة النبوءة، فمن وجدت في كلامه اختلافا حقيقيا وتناقضا بينا فليس بصديق، بل هو في عداد السالكين السائرين، يستقيم تارة ويعوج أخرى، حتى يصل إلى ما قسم له أو يعاجله الأجل في الطريق، فيحشر في زمرة السائرين إلى الله لا في زمرة الواصلين إليه، والمؤمن القوي عند الله خير من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، والله المستعان.

ولقد قَرَّر لي الملا، رضي الله، عنه ذات يوم كلاماً يتعلق بشيئية المعلوم، وأن المراد بذلك عند العارفين الحقائق العلمية، فهي شيء لحصول الوجود العلمي لها، وأنه ما من شيء وجد، أو سيوجد، إلا وله حقيقة علمية هي عينه في الدائرة العلمية، وهو عينها في الدائرة الحسية وعلى طبقها في الوجود الخارجي من دون

---

(1) البقرة: 97.

تفاوت، فالموجودات كلها لها مراتب في الوجود من وجود خارجي ووجود علمي وما بينهما من مراتب الوجود إلى أن تصير محواً وعدماً في وجود الذات.

وأراد رضي الله عنه أن يدرجني بفهم ذلك إلى فهم وحدة الوجـود، وأنّ الوجود المطلق الحق الشامل لكل وجود مقيد غير مقيد في حد ذاته حتى بقيـد الإطلاق، فاعتاص علي فهم ذلك التقرير وامتنعت من قبوله لما سبق إلى أفهامنا من أن المعدوم قبل وجوده محض ليس بشيء ولا ثابت خلافاً للمعتزلة القائلين بشيئيته وثبوته، وكنت أظن أن هذا التقرير ينحو نحو هذا المنحى، فاشمأزّت نفسي منـه لعداوتي أهله حتى تبين لي بعد ذلك أن بين المذهبين بون بعيد، (فإذا الذي بينـك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)[1].

وقد ألّف شيخنا الصفي في هذه المسألة رسالة سماها نفحة السيقين وزلفـة التمكين للموفقين بيّن فيها معنى كون المعدوم شيئاً وثابتاً عند العـارفين وأهـل السنة، وأن ذلك بمعنى حقيقته العلمية؛ إذ لا نزاع في أنه ثابت في علم الله متميز بحقيقته عن كل الحقائق، فله حصة من الوجود التي هي الوجود العلمي، لا كما يقوله المعتزلة - أذلهم الله - من كونه موجوداً في نفسه ثابتاً كالصور في البيـت المظلم، فيدخل عليها سراج، فيبرزها ذلك السراج ولا يوجدها[2] لأنها موجـودة قبل ذلك.

وأهل السنة يقولون: إنها قبل الوجود عدم محض، يعني ليس لها شيء مـن الوجود في حد ذاتها، ولا ينكرون تعلّق العلم بها. والعارفون كشفوا القناع وفصلوا في الجزء المشاع، فقالوا: إن للوجود مراتب كثيرة، أول مراتبها، التي يقع فيهـا تفصيل الحقائق وتمايزها الوجود العلمي، وآخرها الوجود الخارجي الحسي الذي هو غاية تمايز الحقائق وتباينها بعوارضها الخارجية المشخصة لها، فالمعدوم بـالنظر إلى الوجود العلمي المتعلق به شيء وثابت، وبالنظر إلى الوجود الخارجي عـدم محض إذ لم يحصل له شيء منه، وهو الذي نفاه أهل السنة عنه رضي الله عنـهم، وهو الصحيح. وأما الوجود العلمي فلم يقع فيه نزاع بين الفـريقين، ولم يبـق خلاف بين أهل السنة وأهل الحرمان إلا في كون الحقائق، باعتبار تعلق العلم بها، تستحق بذلك إطلاق الشيئية والثبوت عليها أم لا تستحقه، وهو خلاف لفظي،

(1) فصلت: 33.
(2) في ط: يوجهها.

والخطب فيه سهل. وقد علم أن ما هذا[1] سبيله لا يعده المحققون خلافاً، والذي اعتاص عليَّ من فهم[2] هذه المسألة عند تقرير الشيخ لها هو جعلها أصلاً لوحدة الوجود ووجه بنائه عليها، فكان يُخيَّل لي إذ ذاك أن ذلك يؤدي إلى القول بقِدَم العالم لأن تعلق العلم بكل موجودٍ قديم، فلو قدرنا المعدوم موجوداً بذلك الوجود العلمي لكان ثبت له الوجود أزلاً، وذلك معنى القِدَم. وذهب عني أن هذا الوجود العلمي من النسب والإضافات التي هي اعتبار محض، وأن الوجود الحقيقي الذي يحكم بقدمه أو حدوثه وجود الشيء في نفسه الذي هو به في حد ذاته، وذلك لم يقع في الأزل إلا لله بأسمائه وصفاته، ووقوعه لغيره إنما هو فيما لا يزال، وما سميناه وجوداً علمياً حاصلاً للمعدوم إنما هو اعتبار محض، أي اعتبرنا تعلق علم الله به، فحصل له بذلك وجود ما صح أن يعتبر في مرتبة ما، وهي مرتبة تعلق العلم بمعلومه، إذ العدم المحض لا يعتبر في مرتبة ما، إذ ليس هنالك ما يعتبر، فلا يخبر عنه ولا يشار إليه ولا يراد، إذ لا فرق بين قولك: أردت عدماً محضاً و لم أرد شيئا، وعلمت عدماً محضاً و لم أعلم شيئاً، بخلاف العدم الإضافي فإنه معتبر في مراتب كذا، فتقول: أردت عدم كذا وعلمت عدم كذا، فقد تبين لك أنه لا فرق بين قولنا حقيقة المعدوم موجودة في علم الله قبل وجوده في الخارج، وبين قولنا تعلق علم الله بوجوده في الأزل.

ولقد قال لي صاحبنا السيد محمد بن رسول، وكان حاضراً: تقرير الشيخ للبناء المذكور وعدم تسليمي له ذلك: عجباً لك فلان مع ذكائك وزكاء فطرتك، كيف لا يقبل ذهنك هذا مع ظهوره. فقلت له: أعجب من ذلك أمرك لي أن أقفو ما ليس لي به علم[3]، وأطلق من يدي ما كنت أعلم قبل هذا قبل أن أجد ما هو أحسن منه، مع شهادتك لي بالذكاء وزكاء الفطرة، فلا أعظم بلادة وبلها من الصبي، ومع ذلك لو جهدت كل الجهد أن يعطيك ما في يده من غير أن تعطيه أحسن منه لم يعطِكه، فإذا رأى أحسن منه فلا يحتاج إلى معالجة بل يرمي ما في يده ويأخذه، وأنا لو رأيت أحسن مما في يدي، وفهّمنيه الله وعلمنيه، لأخذته ورميت ما عندي من غير أن أحتاج إلى تحريضك لي وثنائك علي، فأنا أتمسك بما

(1) في ط: هذا ما .
(2) في ط: فهمه.
(3) إشارة إلى قوله تعالى: (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا): الإسراء: 36.

عندي وأطلب غيره، فإن وجدت منها أحلى وأصفى وأبرد مما في أدواتي، وشربت وملأت أدواتي، وأهريق[1] ما فيها، وإن هرقتها قبل ذلك لقول الناس: إن أمامك ماء عذب بارد أحسن من الذي في الأداوة، خشيت أن تهب سموم محرقة فأموت عطشا قبل الوصول إلى الماء، فدعني أتبلغ بما عندي، فإنه ممسك لرمقي وكاف لحاجتي حتى يأتيني الفتح أو أمر من عند الله. (فإذا جاء أمر الله قضي بالحق)[2]، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، وقديما قيل في الأمثال: رد بمائك، وكم من مريد ضل من هذا الوجه إن برقت له بارقة من فهم أو علم أراق ما عنده من ماء العلم والمعرفة، فاعتمد عليها قبل أن يتمكن منها، فقد ينقطع ذلك أو يكون برقيه خُلّبا[3]، فيبقى مذبذبا لا بما أمامه انتفع ولا بما خلف ورائه انتجع. ومن أراد ستر عورته فلا يخلع القميص الموالي لبدنه حتى يلبس آخر فوقه، وإلا انكشفت عورته وهو لا يدري. ومن رأى حلة تباع في السوق فباع شملته[4] ليشتريها فقد فوّت على نفسه الانتفاع بالشملة، ولم يدرك التمتع بالحلة، فافهم الأمثال وتجنب مواضع الإشكال، وعض على دينك بالنواجد والأضراس، ولا تكن طُفيل الأعراس، والله المستعان.

ولما قرأت على الملا في شرح الهداية قول الحكماء: لا بد للجوهر من وقفة بين كل حركتين مختلفتين، فألزموا على ذلك أن ذرة لو ارتفعت في الجو ولقيها حبل منهبط لوقف الجبل عند ملاقاته، إذ لا بد للذرة من وقفة بين حركتها مرتفعة وحركتها منهبطة، فالتزموا ذلك. فقلت له: يا سيدي يمكن أن يجاب من قبل الحكماء بأنا لا نسلم وقوف الجبل لأن الذرة لا تثبت حتى تلاقي الجبل، بل يردها انضغاط الهواء أمام وقع الجبل، فتنحدر قبل ملاقاة الجبل فتكون تلك الوقفة الخفية قد حصلت لها قبل ملاقاتها للجبل. فقال: يمكن أن يجاب بهذا، وكان رضي الله عنه منصفا. وقد يقال في هذا الجواب أنه لم يصادف محل الإلزام لأن الإلزام إنما هو على تقدير ملاقاة الجبل للذرة، وأنتم فرضتموه غير ملاق لها، فلا يكون جوابا. فنقول: إن الملاقاة المذكورة لا تقع عادة، ولو قدرها العقل وفرضها، إذ لا يصح عادة طلوع ذرة مصادمة لهواء قد ضغطه انحدار جبل قوي مع أن حركتها

(1) أهيرق: هراقت السماء ماءها وهي تُهريق، والماء مُهراق: لسان العرب: هرق.
(2) غافر: 77.
(3) خلب: البرق الخُلّب: الذي لا غيث فيه: لسان العرب: خلب.
(4) الشملة: كساء يشتمل به: لسان العرب: شمل.

قهرية وحركته طبيعية، وإذا لم يبق إلا مجرد الفرض والتقدير، فلا يضرنا تقدير جبل قد حصرته ذرة ومنعته من الهبوط إذا كان ذلك فرضا وتقديرا غير واقع في الخارج. فإن قيل: إن الهواء المنضغط المانع لحركتها العلوية هو أيضاً متحرك، فيلزم أيضاً وقوفه، ووقوفه يستلزم وقوف الجبل فيعود الإلزام، فنقول: إنما يلزم من ذلك وقوف الجزء الملاقي للذرة من الهواء لأنه ذو أجزاء، ووقوف ذلك الجزء وحده لا يلزم منه وقوف الهواء كله المستلزم لوقوف الجبل. وعلى تقدير تسليم وقوف الهواء كله تلك الوقفة التي بلغت النهاية في القلة والخفة وسرعة الانقضاء حتى لا يثبتها حس ولا تدركها نفس، فلا نسلم استواء الحركتين في الخفة، أعني حركة الهواء وحركة الجبل، فقد تكون حركة الهواء أسرع، وهو الظاهر، فتحصل تلك الوقفة بلا هواء ولا تحصل للجبل لأنها أقل مما بين الحركتين والتفاوت أو مساوية[1] فتأمل.

وعندما جرى ذكر قولهم: أتحصر الذرة الجبل، قال لنا الملا رضي الله عنه: كان شيخنا الصفي يقول في أشياء يتوقف فيها أكابر العلماء وفحول النظار مع أنها سهلة المدرك قريبة الفهم: هذه ذرة حصرت جبلا كما قال الحكماء لكون عقول الأكابر وأفهامهم كالجبال، ومع ذلك توقفت عن فهم تلك المسائل مع حقارتها كالذرة. قال: فمن ذلك ما ورد في بعض التفاسير في قوله تعالى: (ولقد كرمنا بني آدم)[2] أنه أكرمهم بأنهم يأكلون بأيديهم، ورد عليه بعض العلماء أنه يرد هذا التفسير بكون هذا غير خالص بالآدمي، فإن القرد يأكل بيده. قال شيخنا الصفي: وهذه ذرة حصرت جبلا، فإن ما يأكل به القرد ليس يداً، إنما هو رِجل لأنه من ذوات الأربع، وقوائم ذوات الأربع إنما هي أرجلها لأنها عليها تمشي، وتسميته ذلك في بعض الأحيان يدا عند إرادة التمييز بين المقدم منها والمؤخر إنما هو على سبيل المجاز، وإلا فتسميتها أرجلا شائع لغة وعرفاً، فانظر إلى هذا مع وضوحه كيف خفي على هذا العالم حتى يرد به على المفسرين، وأشباه هذا كثير في جميع الفنون، فقد روي أن بعض فحول النظار خرج من المسجد فوجد رأس إحدى نعليه عند عقب الآخر، فلم يدر كيف يدخلهما، إن جاء من ناحية عقب هذا لم يتمكن له إدخال الأخرى، حتى جاء صبي فقلبها، فجعل عقبها من ناحية

(1) في ط: متساوية.
(2) الإسراء: 70.

عقب الأخرى، فأدخل رجليه فيهما واعترف لذلك الصبي بالذكاء. فاعجب لهذا مع كونه من أكابر النظار كيف خفي عليه هذا وتوقف فيه حتى أرشده صبي.

وقرأت على شيخنا الملا إبراهيم كراسة بخطه فيها الأسماء الإدريسية وسنده فيها وما يوجد بين الروايات من الاختلاف فيها، وهي ثلاث روايات: رواية أبي طالب المكي في قوت القلوب، ورواية ابن أبي الدنيا في كتاب الدعاء، ورواية الغوث الموجودة في كتاب الجواهر، وذكر ما اختلفت فيه الروايات وترجيح الراجح منها، وذكر بعض شروط العمل بها وأدعية الفتح والاختتام، وذكر بعقبها فوائد أخر نافعة، كل ذلك مما أخذه عن الشيخ الصفي وتلقاه منه، وبآخر ذلك ما اقتطفته من الوصية التي كتبها له الشيخ قبيل موته، وأجازني بكل ما اشتملت عليه الكراسة بعد قراءتها عليه كلها قراءة بحث وتدبر وتفهم ومراجعة فيما لم أفهمه، ولنسق الكراسة المذكورة بتمامها، وإن كان فيها طول لاشتمالها على فوائد كثيرة قل أن توجد في غيرها، وهذا نصها:

باسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، الحمد لله، رأيت بخط شيخنا الإمام قدس سره وأعاد علينا من بركاته آمين ما صورته: قال شيخنا أحمد بن علي الشناوي رحمنا الله به: وكل اسم من الأسماء الأربعينية ذكر أربعة آلاف وأربعمائة وأربعة وأربعين بنية وفاء جميع الشرائط حصلت بإذن الله تعالى، هـ. ورأيت أيضاً بخطه رحمنا الله به ما صورته: يا غياثي عند كل كربة، ومجيبي عند كل دعوة، ومعاذي عند كل شدة، ويا رجائي حيت تنقطع حيلتي، يا غياثي، قله كل يوم تسعة وتسعين مرة وصل على النبي صلى الله عليه وسلم أوله وآخره، فهو يكفيك لمهمات الدنيا والآخرة، وترى به خيراً كثيراً إن شاء الله تعالى هـ. ورأيت بخطه أيضا نفعنا الله به ما صورته: "الاسم الحادي والأربعون: يا غياثي عند كل كربة، ومجيبي عند كل دعوة، ومعاذي عند كل شدة، ويا رجائي حين تنقطع حيلتي، (يا غياثي من خواصه)، من داومه سنة كاملة أدرك أقصى المطالب، وانتهت إليه جميع المآرب، وهذا الاسم غني عن الشروط فلا يحتاج إلا إلى الإجازة والعمدة على معرفة من يؤديه بصدق وجمع همة وحضور مع الله"[1]، ذكره سيدنا محمد الغوث بن خطير الدين الشطاري رضي الله عنه في جواهره، وقد أجاز كاتبه أحمد بن محمد القشاشي به وما قبله من الأسماء أخاه

(1) الجواهر الخمس، ص: 151.

الأكمل أبا بكر السكري عملا وإجازة لمن يستحق، والله الموفق لا رب غيره، وأن يبتدئ العامل عند بدئه في الشروع بالفاتحة إلى المشايخ المجيزين والأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين، ويصلي ركعتين يهدي ثوابهما إلى روح النبي، صلى الله عليه وسلم، ولكافة أرواح المشايخ ولوالديه والمسلمين، وأن يتقي الله في عمله ولا يعمل إلا خيرا، ويتجنب مخالفة الشرع وكافة المعصية ما استطاع، (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل)[1]، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وعلى كافة النبيئين والمرسلين وآلهم آمين. فإذا وفى بإذن الله ذلك حصل له التصرف في خواص جميع الأسماء العظام بكرم الله وعنايته، وينكشف له حقيقة كل ذرة من ذرات العوالم الثمانية عشر ألفا ويعلم أحوال العالم خيراً أو شَرًّا. ومن قرأ يا غياثي كل يوم أربعين مرة يشاهد جمال وجه سيد الأنبياء وسلطان مملكة الاصطفاء في كل ليلة، ويتشرف به وكل ما أشكل عليه ينحل له بالسهولة، والله أعلم.

ورأيت بخطه أيضاً نفحنا الله بنفحة خير منه ببركاته آمين ما صورته: يا الله، يا واحد يا أحد، يا جواد، انفحني منك بنفحة خير (إنك على كل شيء قدير)[2]، من قرأ هذه الأسماء كل يوم أحد عشر مرة بعد الفريضة من الصبح أو السنة يسر الله عليه نفقة يستعين بها على أمر دينه ودنياه، وإن لم تصل يوماً فيوماً تصل جملاً جملاً، وهو عمل غوث الثقلين ووصل إلى هذا الفقير من شيخه ومفتاح قفل نشأته الأكمل أحمد بن علي الشناوي، قدس الله روحه، فإذا أراد العامل الشروع فيه يشرع من فجر يوم الخميس كما شرطه المشايخ رضي الله عنهم، وليقرأ الفاتحة عند الابتداء لروح غوث الثقلين وجميع أهل سلسلته من المجربين[3] والتابعين وعباد الله الصالحين، وإن قرأ الفاتحة كل يوم كان أكمل، وإن لم تتيسر فيكفي أول مرة مجازا به كل راغب فيه بإذن الله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، انتهى.

قلت: ووصل إلى هذا الفقير الحقير من شيخه وقدوته إلى الله تعالى إمام وقته وغوث زمانه وقطب أوانه سيدي الشيخ صفي الدين أحمد بن محمد المدني

---

(1) الأحزاب: 4.
(2) آل عمران: 26.
(3) في ط: المجيزين.

المعروف بالقشاشي، روح الله روحه وأعلى في أعلى منازل المقربين فتوحه، ورحمنا به آمين، كما كتبه لي بخطه في هذا المجموع كغيره من الأسماء، والله المرجو النفع به، والحمد لله رب العالمين يوم الأربعاء.

قال سيدنا شيخ السلسلة الغوثية رحمنا الله بأهلها سيدي الشيخ محمد الغوث قدس الله روحه ورحمنا به وبكُمّل أتباعه آمين في مقدمة الجوهر الثالث ما نصه[1]: "إذا أراد أن يشرع في دعوة الأسماء العظام فعليه أن يتعلم فن الدعوة (أي شروطها)[2]، من المرشد الكامل".

قال سيدي الشيخ أبو المواهب قدس سره في ضمائر السرائر، أي العامل، ثم قال الغوث قدس سره[3]: "وبعض المشايخ يجيزون المسترشدين[4] بلا عمل ويرشدونهم[5]، فلهذا لم يجد التأثير فقلما يجدونه، فلو عمل ولو بجزئيات الأسماء، وأجاز ولو بكلياتها، جاز". ثم قال الغوث قدس سره: "حتى ظهر عالم المعينات على عالم الأرواح (...) مع عظمته في عهد الفقير بحيث لا يكون في سلسلة الفقير إلى يوم القيامة رجعة في الدعوة"[6]. ثم قال بعد قوله: "وأن تجمع مقطعات الاسم بحساب الجُمل فيطرح من الجملة 12.12 إلخ، فإن لم يطابق بهذا الوضع يقل التأثير في بعض الدعوات التي شرط فيها استخراجهما؛ أي شرائط الأسماء وشرائط العمل"[7]. قال سيدي أبو المواهب، قدس سره، في الضمائر: اعلم أن التأثير ولو اشترط في دعوته موافقته للبرج والكواكب لا ينضبط ولو في كليات تلك الخواص لاختلاف القوافل والقلوب إلخ. وبخط شيخنا قدس سره ورحمنا به على حاشية الجواهر ما نصه: قوله رضي الله عنه في بعض الدعوات: دليل لك أنك في بعضها وهو الغالب لا يقل التأثير، وعليه جرى سلطان قوله تعالى (أدعوني أستجب لكم)[8]، جرت أوضاع دعوات السنة بالتلقين للمؤمنين والمؤمنات، فلا تغفل والله أعلم هـ.

---

(1) الجواهر الخمس، ص: 103.
(2) ما بين قوسين غير وارد في كتاب الجواهر.
(3) الجواهر الخمس، ص: 104.
(4) في الجواهر: المسترشد.
(5) في الجواهر: ويرشدونه.
(6) الجواهر الخمس، ص: 105.
(7) الجواهر الخمس، ص: 106.
(8) غافر: 60.

وقال شيخنا الإمام، رحمنا الله به، في كتاب الترغيب الملقب ببستان العابدين بعد أن ساق الأسماء الإدريسية بسنده، على الحافظ ابن حجر بسنده، إلى ابن أبي الدنيا في كتابه الدعاء بسنده للحسن البصري قال: هذا في هذا الطريق إلينا، وأما من طريق شيخنا عن سيدنا السيد صبغة الله عن سيدنا الوجيه العلوي عن سيدنا السيد محمد الغوث صاحب كتاب الجواهر الخمس ففيها في الجوهر الثالث إلى أن قال: ولكن له شروط يحتاج العامل إليها في طريق العمل، وهي تحتاج الحضور بين يدي المجيز للمعاناة خوفا من الضرر بعون الله وإذنه، والإجازة أيضا لا تكون في شرطه إلا لمن عمل ولو بجزئيات الدعوة على ما شرطوه فيها، ليكون له بذلك اليقين خبرة واطلاع إذا كان له قوة ينفذ منها إلى باقي الدعوات الكبار، إلى أن قال: هذه كلها مطالب فيها مشاق وأخطار عظيمة يخشى معها على النفس والعقل، فلذلك لم نجز المذكور، وهذا المقصد أي المروي في كتاب الدعاء لابن أبي الدنيا، وهو سبيل الرحمة وطريق النبوءة في زمن التجنب، أي الطريق الأولى سهلة يسيرة يخبر بها كل طالب راغب إلى الله في قضاء حاجته من فضل الله. وقد قال تعالى: (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم)[1]، فمن أراد قضاء حاجة لآخرته ودنياه، من ذكرٍ أو أنثى، من المؤمنات العابدات صام لله ثلاثة أيام، فإذا أتمها اغتسل ولبس ثوباً جديداً، ولو قميصاً، أو ما تيسر، رجاء حصول المطلوب والإجابة فيه من فضل الله ورحمته، وتبدل الحال الأول بالحال المطلوب، وبرز إلى فضاء من داره أو مسجده أو صحراء حين نوم الناس فيناجي الله بها، ويحتاج إلى حفظها ليكون أهنى وأمرى للمناجاة، وألذ وأشهى، إلى أن قال في هذه الطريقة بأنها سليمة مأمونة، وهي طريق الأنبياء والتابعين، والأخرى طريق المجتهدين الأفراد أهل الجهاد في الله لأنفسهم التُّبَّع للرسل على العزيمة من سيدهم، إلى أن قال: فقد انقطع سيدنا السيد محمد الغوث للعمل بالأسماء ثلاث عشرة سنة، إلى أن قال: فاستخرج الجواهر بالغوص الماهر، وظفر بالدر، وإفاضة الدر، ولكنه بشروط، وكُلف ساحة لا يطيقها إلا هو وأمثاله، فلذلك لم نجر بطريقة لأجل ما فيها من الشروط والضبط المضبوط في سماع الأسماء أيضاً، ولو كان على خلاف العربية فيعتمدونه كما هو مسموع لهم من المشايخ.

(1) البقرة: 197.

قلت: يعني أنهم ذكروا الأسماء خواص عديدة عليها، منها خواص لها إذا قرئت معربة على قواعد النحو، ومنها ما يترتب عليها إذا قرئت بنوع لحن، وإن أمكن في بعضها توجيهه بوجه يخرج عن ذلك النظام، وهذا مما كتبوه عن وجدانهم وتجريتهم مع العمل بها وقراءتها، والله أعلم. ثم قال: بخلاف الطريق الأولى لسلامتها وتيسر عملها إلا بالشروط المذكورة فإنها سهلة قريبة يسيرة، وقد يفتح الله فيها للعامل بها ما لا يحصى خيره مما سأل وزيادة، فقد سئل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو الخليفة الأعظم، عن ماء البحر أطهور هو؟ فقال: هو الطهور ماؤه الحل ميتته[1]، فزاد على المسألة، فكيف بالكريم المنان على الجميع، وعلى الله قصد السبيل وإليه المرجع والمآب، هـ.

قال سيدي الشيخ أبو المواهب الخامي، قدس سره، في ضمائر السرائر، الفصل الثالث في الدعوة الحرفية: اعلم أنَّ في دعوة هذا الفصل وفي الفصل السادس يوافق بعض الإعراب في الاسم القواعد النحوية، وبعضا يخالفها لتعلقه بالسماع ليس له قاعدة، عرفوه بالمكاشفة وتالي الأسماء إن شاء قرأها على إعرابها الأصلي، وإلا ففي قراءتها بالمجموع سر خفي لم يذكر في الأصل لكن أهل الكشف أظهروه وقالوا: لكل شكل منه خاصية. انتهى.

حدثني شيخنا الإمام غوث زمانه وقطب أوانه، السيد الشيخ صفي الدين أحمد بن محمد بن يونس الملقب بعبد النبي، ابن القطب أحمد بن علي المقدسي الدجاني المدني قدس الله سره ورحمنا به والمحبين آمين بالأسماء الإدريسية، عن شيخه المحقق سيدي أبي المواهب أحمد بن علي بن عبد القدوس العباسي ثم الشناوي ثم المدني، عن شيخه العلامة السيد صبغة الله بن روح الله الحسيني البروجي ثم المدني، عن شيخه العلامة سيدي وجيه الدين العلوي الأحمد أبادي، عن شيخه شيخ السلسلة الغوثية سيدي السيد محمد بن خطير الدين الحسيني المعروف بالغوث الذي دخل عالم الأرواح في عهده بحيث لا يكون في سلسلته رجعة في الدعوة إلى يوم القيامة كما صَرَّح به عن نفسه في كتابه الجواهر الخمس. قال سيدنا أبو المواهب الشناوي قدس سره في ضمائر السرائر التي هي حاشية الجواهر: وفي هذه المنقبة ما تتطاطأ دونه شمارخ المجد من كل رتبة، وشواهد هذا المدعي فيمن تلاه على قدمه وارتضع ثدي المجد من حكمه كالعروة الوثقى؛ وجيه

(1) السنن الكبرى للبيهقي 1:253.

الدين العلوي، والآية الكبرى صبغة الله الإلهي الولَوي، وعقود المراتب الكبرى أولاده ومعدومي النظير أحفاده، وكذلك روح الله الإمام العصمة وولده صبغة الله نعمة الله وأوفى نعمة إلخ هـ.

واتصل الجواهر المتضمن للأسماء وغيرها بشيخنا في هذه السلسلة علما وعملا، فمن التلقي والعمل سلسلة الغوث من طريق شيخه الحاج حضور قدس سره إلى المنتهى فذلك مذكور في كتابه الدرجات له، وغيره، وأورد سلاسل الغوث شيخنا قدس سره في كتابه: السمط المجيد[1]، وأما من طريق الرواية فدل كلام الغوث قدس سره في أول كتابه الجواهر[2] أن ولادته كانت سنة 956 أو 957. ثم بخط سيدنا السيد صبغة الله، قدس سره، أن مولد الغوث سابع رجب سنة 956، لأنه قال بعد حكايته رحلته إلى شيخه سلطان الموحدين الحاج حضور، وما يتعلق بذلك من رياضته وتصنيفه للجواهر بعدها وإظهاره إياه للناس. قال: "وكان عمري إذ ذاك خمسين سنة، وكان في ست وخمسين سنة بعد التسعمائة هجرية"[3]، ووفاة القاضي زكرياء سنة 966، وقد أجاز من أدرك حياته من المسلمين كتابة وتلفظا، فدخل الغوث قدس سره في عموم إجازته، وهو ممن يروي عن الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى وشكر سعيه. والأسماء الإدريسية مذكورة في كتاب الدعاء لابن أبي الدنيا، وقد قال الحافظ ابن حجر: أخبرنا بكتاب الدعاء لابن أبي الدنيا أبو هريرة بن الذهبي إجازة، أنا القاسم بن مظفر بن عساكر سماعا بإجازته من أبي منجابي الليثي، بإجازته من أبي الفرج مسعود بن الحسن الثقفي والحسن بن العباس الرستمي قالا: أنا أبو نصر أحمد بن محمد بن عمر بن ساسويه، أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي قراءة عليه وأنا أسمع من حديث النعمان بن بشير[4]: الدعاء هو العبادة إلى قوله: فاغفر لي ذنوبي. وإجازة لسائره. أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن علم الصفار، ثنا ابن أبي الدنيا فيما أورده الحافظ جلال الدين السيوطي في فتاويه الحديثية في كتاب: الأدب والرقاق حيث قال بعد قوله: مسألة السماء التي اشتهرت للبوني هل لها أصل في السنة ما

---

(1) ذكر الكتاني أن هذه الفهرسة قد طبعت بالهند: فهرس الفهارس 2:790.
(2) الجواهر الخمس،ص: 6.
(3) الجواهر الخمس،ص: 6.
(4) النعمان بن بشير بن سعد الخزرجي، من الصحابة الأجلاء، توفي حوال سنة 65 هـ: أسد الغابة 5:22.

نصه: الجواب: لم أقف لها على أصل إلا ما أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الدعاء قال: نا محمد بن سعيد قال: نا سلام الطويل عن الحسن بن علي عن الحسن البصري قال: لما بعث الله إدريس عليه السلام إلى قومه وقد فشا فيهم السحر فلم يطقهم، علمه الله تعالى هذه الأسماء ثم أوحى إليه ألا تبذلهن للقوم فيدعوني بهن ولكن قلهن سراً في نفسك، فكان إذا دعا بهن استجيب له، وبهن دعا فرفعه الله مكاناً عَلِيًّا، ثم علمهن الله تعالى موسى وكان لا يخلص إليه سحر ولا سم إذا دعا بهن، ثم علمهن محمدا، صلى الله عليه وسلم، فكان إذا دعا بهن استجيب له، وبهن دعا في غزوة الأحزاب. قال الحسن: فإذا أردت أن تدعو الله التماس المغفرة لجميع الذنوب والخطايا فصم ثلاثة أيام، واغتسل والبس ثيابا جددا، وقم إذا نام كل عين فاخرج على فضاء من الأرض فادع الله تعالى بهن أربعين مرة فإنهن أربعون اسماً عدد أيام التوبة، ثم سل حاجتك من أمر آخرتك ودنياك، تقول: سبحانك لا إله إلا أنت يا رب كل شيء ووارثه. يا إله الآلهة الرفيع جلاله. يا الله المحمود في كل فعاله. يا رحمن كل شيء وراحمه. يا حي حين لا حي يبقى في ديمومة ملكه وبقائه. يا يوم ولا يفوت شي من علمه ولا يؤوده. يا واحد أنت الباقي في أول كل شيء وآخره، يا دائم فلا فناء ولا زوال لملكه. يا صمد من غير شبه ولا شيء كمثله. يا بار فلا شيء كفؤه ولا مداني لوصفه. يا كبير أنت الذي لا تهتدي القلوب لصفة عظمته. يا بارئي النفوس بلا مثال خلا من غيره. يا زكي الطاهر من كل آفة بقدسه. يا كافي الموسع لما خلق من عطايا فضله. يا نقيا من كل جور لم يرضه و لم يخالط أفعاله. يا منان أنت الذي وسعت كل شيء رحمة. يا منان ذا الإحسان قد علم كل الخلائق منه. يا ديان العباد فكل يعود خاضعا لرهبته. يا خالق من في السماوات والأرض وكل إليه معاده. يا رحيم كل مصرخ ومكروب وغياثه ومعاذه. يا تام فلا تصف الألسن كل جلاله وعزه. يا مبدئ البدائع لم يبغ في إنشائها عونا من خلقه. يا علام الغيوب فلا يفوت شيء من حفظه. يا حليم الأناة فلا يعادله شيء من خلقه. ما أفني إذا برز الخلائق لدعوته من مخافته. 26: يا حميد الفعال ذا المن على جميع خلقه بلطفه. يا عزيز المنيع الغالب على أمره فلا شيء يعادله. 28: يا قاهر ذا البطش الشديد أنت الذي لا يطاق انتقامه. يا قريب المتعالي فوق كل شيء علوه وارتفاعه. يا مذل كل جبار بقهر عزيز سلطانه. يا

نور كل شيء وهديه[1] الذي فلق الظلمات بنوره. يا عالي الشامخ فوق كل شيء علوه وارتفاعه. يا قدوس الطاهر من كل آفة فلا شيء يعادله من خلقه. يا مبدئ البرايا ومعيدها بعد فنائها بقدرته. يا جليل المتكبر عن كل شيء، فالعدل أمره والصدق وعده. يا محمود فلا تبلغ الأوهام كل ثنائه ومجده. يا كريم العفو ذا العدل أنت الذي ملأ كل شيء عدله. يا عظيم ذا الثناء الفاخر وذا العز والمجد والكبرياء فلا يذل عزه. يا عجيب[2] فلا تنطق الألسن بكل آلائه وثنائه. يا غياثي عند كل كربة، ويا مجيبي عند كل دعوة، أسألك أمانا من عقوبات الدنيا والآخرة، وأن تحبس عني أبصار الظلمة المريدين بي السوء، وأن تصرف قلوبهم عن شر ما يضمرون إلى خير ما يملكه غيرك، اللهم هذا الدعاء ومنك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان هـ.

الحمد لله أخبرني[3] شيخنا الإمام صفي الدين أحمد بن محمد المدني قدس سره ورحمنا به، عن شيخه المحقق أبي المواهب أحمد بن علي بن عبد القدوس الشناوي، عن جماعة؛ منهم الشيخ شمس الدين الرملي، والبدر حسن الدنجيهي، فالرملي عن القاضي زكرياء، عن جماعة منهم الحافظ عمر بن فهد[4] عن الجمال المرشدي المكي، عن الحافظ بهاء الدين عبد الله المكي، عن سليمان بن حمزة المقدسي، وأحمد بن نعمة البياني، والدنجيهي عن الحافظ جلال الدين السيوطي، أنا الشهاب الحجازي إجازة عن أبي إسحاق التنوخي عن أبي العباس الحجار كلهم، أي المقدسي والبياني والحجار، عن عبد العزيز بن دلف، أنا أبو الفتح محمد بن يحيى البرداني، أنا أبو علي محمد بن محمد المهدي[5]، أنا عمر بن أبي طالب محمد بن علي بن عطية المكي، أنا أبي بكتاب قوت القلوب في معاملة المحبوب، ومنه في الفصل الحادي والعشرين في كتاب الجمعة وهيئتها وآدابها وذكر المريد في يوم الجمعة وليلتها ما نصه: "ومما يختص به يوم الجمعة من الذكر والتحميد[6] بالأسماء فصول أربعة:

---

(1) في ط: وهذا أنت.
(2) في ط: مجيد.
(3) في ط: أخبرنا.
(4) عمر بن محمد بن محمد بن أبي الخير، ابن فهد، عالم مؤرخ، توفي بمكة سنة 885 هـ: الأعلام 63:5.
(5) في ط: الهندي.
(6) في القوت: التمجيد.

أولها: الأربعون اسماً التي دعا بها إدريس صلى الله عليه وسلم، خصه الله تعالى بها، وذكر الحسن البصري أن موسى صلى الله عليه وسلم قد كان دعا بهن وإنها[1] كانت من دعاء محمد صلى الله عليه وسلم"[2]. إلى أن قال: ذكر دعاء إدريس النبي صلى الله عليه وسلم: ثنا الحسن بن يحيى الشاهد، قال: ثنا القاسم بن داوود القراطيسي، قال: ثنا عبد الله بن محمد القرشي، قال: ثنا محمد بن سعيد المؤذن قال: ثنا سلام الطويل عن الحسن البصري، قال: لما بعث الله تعالى[3] إدريس عليه الصلاة والسلام إلى قومه علّمه هذه الأسماء، فأوحى الله تعالى: قلهن سرا في نفسك ولا تبدهن للقوم فيدعوني بهن. قال: وبهن دعا فرفعه[4] الله تعالى مكانا عليا، ثم علمهن الله تعالى موسى صلى الله عليه وسلم، ثم علمهن الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم، وبهن دعا في غزوة الأحزاب. قال الحسن: وكنت مستخفيا من الحَجاج فدعوت[5] الله تعالى بهن فحبسه عني، ولقد دخل علي ست مرات فأدعو الله بهن، فأخذ الله تعالى بأبصارهم عني، فادع تعالى بهن التماس المغفرة لجميع الذنوب، ثم سل حاجتك من أمر[6] آخرتك ودنياك فإنك تعطاه إن شاء الله تعالى فإنهن أربعون اسما عدد أيام التوبة: سبحانك لا إله إلا أنت يا رب كل شيء ووارثه [ورازقه وراحمه][7]: يا إله الآلهة الرفيع جلاله، يا الله المحمود في كل فعاله، يا رحمن كل شيء وراحمه، يا حي حين لا حي في ديمومة ملكه وبقائه، يا قيوم فلا يفوت شيء من علمه ولا يؤوده، يا واحد أنت الباقي في أول كل شيء وآخره، يا دائم فلا فناء ولا زوال لملكه، يا صمد من غير شبه ولا شيء كمثله، يا بارئ فلا شيء كفؤه ولا إمكان لوصفه، يا كبير أنت الذي لا تهتدي القلوب لوصف عظمته، يا بارئ النفوس بلا مثال خلا من غيره، يا زكي الطاهر من كل آفة بقدسه، يا كافي الموسع لما خلق من عطايا فضله، يا نقيا من كل جور لم يرضه و لم يخالط فعاله يا حنان أنت الذي وسعت كل شيء رحمة وعلما، يا منان ذا الإحسان قد عم كل الخلائق منه، يا ديان كل العباد كل يقوم خاضعا لرهبته، يا

---

(1) في الرحلة: فإنها.
(2) قوت القلوب في معاملة المحبوب 133:1.
(3) في القوت: عز وجل بدل تعالى في كل هذا الدعاء .
(4) ساقط من الرحلة.
(5) في الرحلة: فأدعو.
(6) في الرحلة: إمرة.
(7) إضافة من قوت القلوب.

خالق من في السماوات والأرض وكل إليه معاده، يا رحيم كل صريخ ومكروب وغياثه ومعاذه، يا تامٍ فلا تصف الألسن كل جلال ملكه وعزه، يا مبدئ البدائع لم يبغ في إنشائها عوناً من خلقه، يا علام الغيوب فلا يفوته شيء من خلقه ولا يؤده، يا حليم ذا الأناة فلا يعادله شيء من خلقه. يا معيد ما أفناه إذا برز الخلائق لدعوته من مخافته، يا حميد الفعال ذا المن على جميع الخلق بلطفه، يا عزيز المانع الغالب على أمره فلا شيء يعادله. يا قاهر ذا البطش الشديد أنت الذي لا يطاق انتقامه. يا قريب يا متعالي فوق كل شيء علو ارتفاعه. يا مذل كل جبار عنيد بقهر عزيز سلطانه. يا نور كل شيء وهديه الذي[1] فلق الظلمات بنوره. يا علي الشامخ فوق كل شيء علوا ارتفاعه. يا قدوس الطاهر من كل سوء فلا شيء يعادله من خلقه. يا مبدئ البرايا ومعيدها بعد فنائها بقدرته. يا جليل المتكبر عن كل شيء فالعدل أمره والصدق وعده. يا محمود فلا تبلغ الأوهام كل ثنائه ومجده. يا كريم العفو ذا العدل أنت الذي ملأ كل شيء عدله. يا عظيم ذا الثناء الفاخر وذا العز والمجد والكبرياء فلا يذل عزه. يا عجيب فلا تنطق الألسن بكل آلائه وثنائه. يا غياثي عند كل كربة، ويا مجيبي عند كل دعوة، أسألك اللهم يا رب الصلاة على نبيك محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم، وأمانا من عقوبات الدنيا والآخرة، وأن تحبس عني أبصار الظلمة المريدين بي السوء، وأن تصرف قلوبهم عن شر ما يضمرون إلى خير ما لا يملكه غيرك. اللهم هذا الدعاء ومنك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم تسليماً"[2] هـ. الحمد لله.

قلت: أبو طالب إنما رواها في القوت من طريق ابن أبي الدنيا، كالسيوطي في الفتاوى فإن عبد الله بن محمد شيخ القراطيسي هو ابن أبي الدنيا، والسند الذي بعده السند الذي ساقه السيوطي في الفتاوى عن كتاب الدعاء لابن أبي الدنيا، إلا أنه زاد بين سلام الطويل والحسن البصري شخصاً هو الحسن ابن علي، ووقفت على نسخ من قوت القلوب فلم أجد في شيء منها هذه الزيادة، و لم أقف على كتاب الدعاء بعد، فلا أدري أسقط من نسخ القوت أو زيد في نسخ الفتاوى، والكل فيه مخالفة لرواية القوت في الجواهر، ولننبه على ذلك، فمنها أن سيدي

(1) في ط: وهذا أنت.
(2) قوت القلوب في معاملة المحبوب 1:133– 134.

الشيخ أبا المواهب الشناوي قدس سره ذكر في ضمائر السرائر حاشية الجواهر ما نصه: واختلف في الاسم الأول، فبعضهم فيه إلى يا رب، وبعضهم إلى كل شيء، وبعضهم إلى ورازقه، وبعضهم إلى وراحمه، لكن العاملون المتأخرون اتفقوا على أنه من سبحانك إلى وراحمه، لأن الزيادة لا تزيد الحكم بل تفيده فائدة زائدة هـ.

ورواية كتاب الدعاء باتفاق القوت والسيوطي إلى ووراثه كما رأيت. ومنها أن نسخ القوت والجواهر متفقة على يا قيوم فلا يفوت بالفاء، وفي نسخة الفتاوى: ولا بالواو، ولعله من الكاتب. ومنها: يا صمد، من غير شبه بلفظه، ومن شبه على وزن مثل وفلا بالفاء في الجواهر وفي القوت، ولا بالواو. وفي مكان من في بعضها وبعضها كالجواهر وشبيه على فعيل بزيادة الياء. وفي نسخة الفتاوى: وكذلك إلا أنها في لا من. ومنها في الفتاوى: يا بار، كالجواهر، وفي القوت: يا باري. ثم القوت كالجواهر إلا في حرف يدانيه. والفتاوى يخالفهما في قوله: ولا مدانٍ لوصفه. ومنها: يا كبير أنت الله الذي. في الجواهر بذكر الجلالة والعقول مكان القلوب، والوصف مكان الصفة، وفيهما: أنت الذي، بلا تصريح والقلوب، قال: لوصف وفي سيدي لصفة، ولفظ العقول أنسب في المعنى من القلوب، والوصف أوضح من الصفة في المعنى المصدري. ومنها: يا نقيا بالنصب في ج وفي ق وس: يا نقي بصورة المرفوع، ولعله على قاعدة بعض المحدثين في كتابتهم المنصوب بصورة المرفوع، ثم يكتبون عليه فتحتين علامة للتنوين كما نقله السيوطي في شرح المسند للشافعي، وحكى أنه رآه كذلك في خط الذهبي وغيره، وذلك لأن نقيا منادى مشابه بالمضاف، لأن قوله من كل جور متعلق به فيكون منصوباً كما هو مُقَرَّر. ومنها: يا منان، ففي ج وق زيادة علما بعد رحمة، وفي نسخة س: بلا علم، ولعله من الكاتب. ومنها يا ديان العباد، ففي ج: كل بلا فاء يقوم خاضعا لرهبته ورغبته، وفي ق كل بلا فاء أيضا يقوم خاضعا لعزته، وفي نسخة لرهبته، وفي ف فكل، بالفاء يعود بالعين، والدال لرهبته. ومنها: يا خالق ففي ج: كل إليه بلا واو، وفيهما: وكل بالواو. ومنها: يا تام، ففي ج: كل جلاله وملكه وعزه، بإضافة كل إلى جلاله وإضافته إلى الضمير. وفي س كذلك إلا أنه حذف وملكه، وفي ق: كل جلال ملكه وعزه بإضافة جلال إلى ملكه.

ومنها في ق وس يا مبديء البدائع بالهمزة، وفي ج: يا مبدع بالعين، ومنها: يا قريب، ففي ج: علوا ارتفاعه، بإضافة علواً إلى ارتفاعه، وفي ق: كل شيء

ارتفاعه بحذف علوا، ورفع ارتفاعه، وفي س علوا وارتفاعه بإضافة علوا إلى الضمير وعطف الارتفاع عليه. ومنها يا قدوس، ففي س: يعادله، وفي ج: يعاد، بالعين المهملة والذال المعجمة، وكذا في نسخة من القوت وفي نسخة منه يضاده بالضاد والدال المهملة المُشَدَّد، وفي نسخة من القوت أيضاً: يعانده بضم الياء والعين المهملة بعدها نون وبعده دال مهملة من المعاندة، وفي بعض نسخ الجواهر يعازه، بالزاي، وأورده في بعضها بالراء المهملة، وفي بعضها بالدال المهملة مخففة، والذي يغلب على الظن أن الرواية يعانده أو يضاده بالضاد المعجمة، والدال المهملة المشددة، وأن يعاده بالعين المهملة والدال المهملة أو بالذال المعجمة، وكذلك بقية النسخ كلها تصاحيف بعضها من بعض بتصرف الكتاب، والله أعلم، وإن قال في الضمائر: إن العمل على يعاذه بضم الياء التحتية والذال المعجمة، أي ليس له من يعيده من خلقه هـ. وذلك لأن ما ذكره تفسير ليعيده معلوما، وأما يعاده مجهولا فلا يتعدى إلى المفعول إلا بالحذف والاتصال، فإن كان محفوظا بالتقدير فلا شيء يعاذ منه، فحذف من الجارة وأوصل والمعنى مأخوذ من مضمون قوله تعالى: (وهو يُجير ولا يجار عليه)[1]، أي فلا شيء يعاذ ويصان في ملاذ وملجإ منه إذا أراد به شيئا من جميع خلقه ويعاده إن كان محفوظاً، فمعناه يغالبه بالعزة ويعاره بالعين المهملة، والراء، إن لم تكن تصحيفاً فمعناه لا شيء يفعل به ما هو كاره له بمعنى غير مريد، فالكراهة تقابل الإرادة التي هي المشيئة لا الإرادة التي هي المحبة التي تقابلها الكراهة الشرعية فإنّ الكراهة الشرعية واقعة لأنها مرادة، أي مشيئته وإن لم تكن محبوبة، والله أعلم.

ومنها: يا جليل، ففي ج: المتكبر على كل، وفيهما عن كل منها يا عجيب، ففي ج: يا عجيب الصنائع، بإضافته إلى الصنائع، وفي نسخة من القوت: يا عجيب الأمور، بإضافته إلى الأمور، وفي شرح الأسماء الحسنى لزروق: يا عجيب الشأن. وفي نسخة منه كالفتاوى يا عجيب بلا إضافة إلى شيء، ثم فيها ما إلى وثنائه، وفي ج زيادة ونعمائه، ومنها يا غياثي، ففيهما إلى دعوة بزيادة حرف النداء في مجيي، وفي ج زيادة ومعادي، والله أعلم.

الحمد لله ترجم شيخنا الإمام، قدس سره، لدعاء الافتتاح له والاختتام ننقله بعبارته تبركا. قال قدس سره: هذا دعاء الافتتاح بأسماء الله الحسنى ولسائر

(1) المومنون: 89.

الدعوات والأوراد إذ لا تخلو منها جميع الدعوات والأوراد، وبها، إن شـــاء الله، حصول كل مراد للمريد كما شاء وأراد لأمر الفاني أحمد بن محمد بن عبد النبي الدجاني مجيزا به من أراد، وبالله الرشاد والسداد، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم، باسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما إلى يوم الدين آمين. اللهم إني أسألك بحق أسمائك الشريفة وما اشـــتملت عليه من مكنون سرك وبديع أمرك وغامض لطفك وشديد فهمك، يا من أبـــرز صوراً عنها كما شاء وسلها منها ببدائع الإنشاء، أسألك اللهم بجبروهما المـــصور القاضي في العالمين بما كان ويكون أن تفتح اللهم لي خزائن أسرارها، وتمكـــن لي بدائع اقتدارها في الذين يعلمون والذين لا يعلمون بكلمة التقدير الإلهي التكويني، كما يكون على لباس عافيتك في ذلك وكمال وقايتك عـــن ســـطوات قهـــرك المتدارك، وأن تسلك بي في ظاهرها وباطنها وأولها وآخرها مسلك أوليائك، وأن تجنبني بها مواقع نجوم أعدائك المنسلخين عنها بعد الإيتاء لابتلائـــك، وتعيـــذني برضاها من سخطها، وبمعافاها من عقوبتها، وبها منها بعضا وكلا، إذ هي منـــك إياك لا غيرك (فادعوا الله مخلصين له الدين)[1] بالاسم المُسَمَّى، وذلك من تسبيحها عند عبدك بمأمور وارد (سبح اسم ربك الأعلى)[2]، فإن تجعلني بكرمك عند النداء بها إليك بذلك أهلا، يا نعم النصير ونعم المولى، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وعلى عامة الأنبياء والمرسلين وآلهم وتابعيهم صلاة لا تبرح بالدوام تتلى، وتتجدد على مر الدهور ولا تبلى.

ولنسق الأسماء الإدريسية هنا كما هي مذكورة في الجواهر ثم نورد دعـــاء الاختتام لشيخنا قدس سره بعدها، وقد رويناها كما مر عن شيخنا الإمام عـــن شيخه أبي المواهب أحمد بن علي الشناوي، عن شيخه السيد صبغة الله بـــن روح الله، عن شيخه سيدي وجيه الدين العلوي، عن شيخه شيخ السلسلة صـــاحب الجواهر سيدي الشيخ محمد الغوث قدس الله أسرارهم أجمعين إنـــه أوردهـــا في الجواهر هكذا: سبحانك لا إله إلا أنت يا رب كل شيء ووارثه ورازقه وراحمه[3].

(1) غافر: 13.
(2) الأعلى: 1.
(3) الجواهر الخمس، ص: 130.

يا إله الآلهة الرفيع جلاله[1]. يا الله المحمود في كل فعاله[2]. يا رحمن كل شيء وراحمه[3]. يا حي حين لا حي في ديمومة ملكه وبقائه[4]. يا قيوم فلا يفوت شيء من علمه ولا يؤوده[5]. يا واحد الباقي في أول[6] كل شيء وآخره[7]. يا دائم فلا فناء ولا زوال لملكه وبقائه[8]. يا صمد من غير شبيه فلا شيء كمثله[9]. يا بار فلا شيء كفؤه يدانيه ولا إمكان لوصفه[10]. يا كبير أنت الذي لا تهتدي العقول لوصف عظمتك[11]. يا بارئ النفوس بلا مثال خلا من غيره[12]. يا زكي الطاهر من كل آفة بقدسه[13]. يا كافي الموسع لما خلق من عطايا فضله[14]. يا نقيا من كل جور لم يرضه ولم يخالطه فعاله[15]. يا حنان أنت الذي وسعت كل شيء رحمة وعلما[16]. يا منان ذا الإحسان قد عم الخلائف منّه[17]. يا ديّان العباد كل يقوم خاضعاً لرهبته ورغبته[18]. يا خالق من في السماوات والأرض كل إليه معاده[19]. يا رحيم كل صريخ ومكروب وغياثه ومعاذه[20]. يا تام فلا تصف الألسن كل جلالك[21] وملكك وعزك[22]. يا مبدع البدائع لم يبغ في إنشائها عونا من خلقه[23].

---

(1) نفسه، ص: 132.
(2) نفسه.
(3) نفسه، ص: 133.
(4) نفسه.
(5) نفسه.
(6) في الجواهر: أول.
(7) الجواهر الخمس، ص: 134.
(8) نفسه.
(9) نفسه.
(10) نفسه، ص: 135.
(11) نفسه.
(12) نفسه، ص: 136.
(13) نفسه، ص: 137.
(14) نفسه.
(15) نفسه، ص: 138.
(16) نفسه.
(17) نفسه، ص: 139.
(18) نفسه.
(19) نفسه، ص: 140.
(20) نفسه.
(21) في الجواهر: جلاله وملكه وعزه.
(22) الجواهر الخمس، ص: 141.
(23) نفسه.

يا علام الغيوب فلا يفوت شيء من حفظه[1]. يا حليم ذا الأناءة فلا يعادله شيء من خلقه[2]. يا معيد ما أفناه إذا برز الخلائق لدعوته من مخافته[3]. يا حميد الفعال ذا المن على جميع خلقه بلطفه[4]. يا عزيز المنيع الغالب على جميع أمره فلا شيء يعادله[5]. يا قاهر ذا البطش الشديد أنت الذي لا يطاق انتقامه[6]. يا قريب المتعالي فوق كل شيء علو ارتفاعه[7]. يا مذل كل جبار عنيد بقهر عزيز سلطانه[8]. يا نور كل شيء وهداه أنت الذي فلق الظلمات نوره[9]. يا عالي الشامخ فوق كل شيء علوا ارتفاعه[10]. يا قدوس الطاهر من كل سوء فلا شيء يعادله من خلقه[11]. يا مبدئ البرايا ومعيدها بعد فنائها بقدرته[12]. يا جليل المتكبر على كل شيء فالعدل أمره والصدق وعده[13]. يا محمود فلا تبلغ الأوهام كل ثنائه ومجده[14]. يا كريم العفو ذا العدل أنت الذي ملأ كل شيء عدله[15]. يا عظيم ذا الثناء الفاخر وذا العز والمجد والكبرياء فلا يذل عزه[16]. يا قريب المجيب المداني دون كل شيء قربه[17]. يا عجيب الصنائع فلا تنطق الألسن بكل آلائه وثنائه ونعمائه[18]. يا غياثي عند كل كربة، ويا مجيبي عند كل دعوة، ومعادي عند كل شدة، ويا رجائي حين تنقطع حيلتي[19].

(1) نفسه، ص: 142.
(2) نفسه.
(3) نفسه، ص: 143.
(4) نفسه.
(5) الجواهر الخمس، ص: 144.
(6) نفسه.
(7) نفسه، ص: 145.
(8) نفسه، ص: 146.
(9) نفسه، ص: 147.
(10) نفسه.
(11) نفسه.
(12) نفسه، ص: 148.
(13) نفسه.
(14) نفسه، ص: 149.
(15) نفسه.
(16) نفسه، ص: 150.
(17) نفسه.
(18) نفسه، ص: 151.
(19) نفسه.

دعاء الاختتام:

"اللهم إني أسألك بحق هذه الأسماء الشريفة وشرفها وكرمها أن تصلي على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، وأسألك إيمانا وأمانا من عقوبات الدنيا والآخرة، وأن تحبس عني أبصار الظلمة المريدين بي السوء، وأن تصرف قلوبهم عن شر ما يضمرون إلى خير ما لا يملكه غيرك. اللهم هذا الدعاء مني ومنك الإجابة، وهذا الجهد مني وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين برحمتك يا أرحم الراحمين"[1].

دعاء الاستجابة:

"اللهم يا مُفتح الأبواب ومسبب الأسباب، ويا مقلب القلوب والأبصار، ويا دليل المتحيرين، ويا غياث المستغيثين، ويا مخرج المحزونين، أغثني أغثني، توكلت عليك يا رب، قضيت فرضيت]، فوضت أمري إليك، يا رزاق يا فتاح يا باسط، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين"[2]هـ.

وهذا دعاء الاختتام لها ولكل دعاء ولا دعاء إلا بها ولها: باسم الله الرحمن الرحيم اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وبكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك واستأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن نور بصري وجلاء همي وذهاب غمي، وأن تجعل لي من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا يا من قامت السماوات والأرض بأمره، يا من يمسك السماء باسمه الماسك أن تقع على الأرض إلا بإذنه، يا من لا يدعى إلا بأسمائه (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه)[3]، فبأسمائك الحسنى دعوتك فلا تخيبني وأكرمني بها ولا تهني وأعطني ولا تحرمني، وآثرني بها ولا تؤثر علي، فالدعاء منك وإليك، والمعول في تحقيق المطالب على ما سبق به علمك وفاضت به على يد إرادتك وقدرتك مواهب يديك، يا من يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، فأسألك اللهم أن تتقبل مني وأن تكون لي فيما طلبته مني

(1) نفسه، ص: 70.
(2) نفسه.
(3) الزمر: 67.

بمأمنك وإليك فيما أرجو وأخشى وأستنزل بك المحبوب من كل مطلوب وأستدفع بك الكروب في السكون والممشى، يا من له الإنشاء فيما أراد كيف شاء، لا إله إلا أنت يا حنان يا منان، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام ثلاثا، وصلى الله على من فتحت به خزائن الغيب فكان الغيب فيه مشهودا والقائمون على ذلك بعد الإنزال شهودا، وسلم عليه تسليما رشيدا سديدا أبيدا على سائر الأنبياء والمرسلين وآلهم وصحبهم والتابعين، (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين)[1] هـ الحمد لله. وفي هامش النسخة الفارسية للجواهر التي عليها خط سيدنا السيد صبغة الله، قدس الله سره، ما معناه وترجمته: افتتاح الأسماء الأربعين العظام يصلي على النبي، صلى الله عليه وسلم، اثنا عشر مرة ويقول ناد عليها سبع مرات، ويقول: سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب ثلاث مرات، ويقول: هذا الاسم الذي عده بعضهم من الأسماء العظام الأربعين ثلاث مرات، وهو: يا قريب المجيب المداني دون كل شيء قربه، ثم يشرع في قراءة الأسماء العظام بعد الاعتصام واعتصام الأسماء العظام هذا: باسم الله الرحمن الرحيم، اللهم يا قيوم الوجود، ويا فائض الجود، ومنزل البركات، وغاية الحركات، ومنتهى الرغبات، نور النور ومدبر الأمور وواهب الحياة للعالمين، أيدني بنورك، ووفقني بمرضاتك، وألهمني رشدك، وطهرني من رجس الظلمات، وخلصني من غسق الطبيعة إلى مشاهدة أنوارك ومعاينة أضوائك ومجاورة مقربيك ومرافقة سكان ملكوتك، واحشرنا مع الذين أنعمت عليهم (من النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً)[2]، غفرانك اللهم غفرانك، آمنا بك وأقررنا بآياتك، وصَدَّقنا رسالاتك، وعلمنا أنه لا مذهب وراءك، ولا حول إلا حولك، ولا عز إلا عزتك، خضعت لجلالك رقابنا، وخشعت لعزتك نفوسنا، اقبضنا من غضبك إلى رضاك، ومن عذابك إلى رحمتك، ومن ظلماتنا إلى نورك، أزل عنا العمى وارفع عنا الهوى، ما جعلت إلينا أمر خلقنا فلا تجعل إلينا مر كمالنا، وارحمنا وارضنا عنك وارْضَ عنا إنك بالجود الأعم على العالمين منا رحمة للعالمين برحمتك، يا أرحم الراحمين. من منهج الدعوات لابن طاووس[3] هـ

(1) الصافات: 180- 182 .

(2) النساء: 69.

(3) علي بن موسى بن جعفر، ابن طاووس، فقيه فاضل، توفي سنة 664 هـ ترجم له الزركلي ولم يذكر له منهج الدعوات: الأعلام 5: 26.

بصورته. وفي هامش تلك النسخة بعد إيراد الأسماء الأربعين ما معناه وترجمته: اختتام الأسماء الأربعين العظام: يقول: يا قريب المجيب المداني دون كل شيء قربه ثلاث مرات، وسبحان ربي العلي الأعلى الوهاب ثلاث مرات، ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم سبع مرات، ثم يقرأ هذا الدعاء فإنه للأمن من الخوف وسعة الرزق ومجرب إلى الغاية منقول عن الأمين: باسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللهم صل على محمد وآل محمد، اللهم إنك أمن من كل شيء، وكل شيء خائف منك، فبأمنك من كل شيء وبخوف كل شيء منك، أمني من خوف كل شيء يا من (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[1]، (كهيعص)[2]، كفيت (حم عسق)[3] حميت، (وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما)[4]، تحصنت بذي الملك والملكوت، واعتصمت بذي العزة والجبروت، ورميت كل من أرادني بسوء، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله أجمعين الطيبين الطاهرين، والحمد لله رب العالمين، من منهج الدعوات لابن طاووس، هـ.

الحمد لله الطريق الأول يصوم ثلاثة أيام، يوم الأربعاء والخميس والجمعة، ثم في يوم الجمعة وقت الضحى يغتسل ويصلي ركعتين سنة الوضوء، ثم يصلي ركعتين لروح النبي، صلى الله عليه وسلم، يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة والضحى، وفي الثانية بعد الفاتحة سورة الإخلاص إحدى عشرة مرة، ثم يصلي ركعتين لروح الشيخ شهاب الدين السهروردي، في كل ركعة بعد الفاتحة سورة الإخلاص ثلاث مرات، ثم يصلي ركعتين لروح السيد جلال البخاري، وركعتين لروح الشيخ محمد الغوث قدس الله أسرارهم أجمعين، في كل ركعة الإخلاص ثلاث مرات، ثم يصلي ركعتين مثل ما تقدم لروح شيخنا صفي الدين القُشاشي، ثم يصلي ركعتين لازدياد محبة الله تعالى، يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة الإخلاص ثلاث مرات، ثم يقرأ ألفي مرة ومائتي مرة هذا الاسم: يا حليم ذا الأناة فلا يعادله شيء من خلقه، يا حليم، يختم بالاسم، وهكذا في كل اسم قرئت مجموعة أو مفردة لدفع الرجعة، فلا يرجع اسم من أسماء الله، ولو فوت القارئ من الشرائط،

(1) الشورى: 9.
(2) مريم: 1.
(3) الشورى: 1.
(4) طه: 108.

وهذا الاسم لا يعلم للسفهاء، ثم يشرع بنية الشرائط. السند الأول: يشرع بعد استيفاء الشروط على أوجه العزيمة أو الرخصة يوم السبت بعد صلاة الفجر يقرأ كل يوم خميس من الأسماء 434 مرة، والخمسة الثانية من الأسماء في اليوم الثاني، وهكذا إلى تمام الأسبوع، والستة الباقية يقرؤها العدد المذكور بعد صلاة الجمعة، فبعد هذه الشرائط وآدائها يصير متصرفاً في الأسماء كلها، فيقرأ بنية الدعوة لأي حاجة أراد كل يوم خمسة من الأيام بالشرط المذكور، والبداية بع صلاة الفجر من يوم السبت، ويلازم بعد العصر: يا قريب المجيب المداني دون كل شيء قربه، يا قريب. والورد أحد وأربعون مرة قبل صلاة الفجر يقرأ الخمسة كل يوم إحدى وأربعين مرة بطريق الورد كل خمسة موزعة على أيام الأسبوع، والنهاية بعد صلاة الجمعة كما سبق يحصل المقصود.

السند الثاني بعد الصيام والصلاة وقراءة الاسم الذي سبق لرد الرجعة، يقرأ لكل خمسة بنية النصاب ألفين ومائتين مرة، وبنية الزكاة ألف ومائة، وبنية العشر خمسمائة وستين مرة، وبنية القفل ثلاثمائة مرة، وبنية الدور المدور تقرأ الأسماء كلها مائة مرة، وفي هذا الطريق لا حاجة بالمبدإ والختم بعد فراغ هذه الشرائط يقرأ لكل حاجة كل خمسة ثلاثمائة وستين مرة، ووروده بعد تمام الدعوة والشرائط أن يقرأ كل يوم خمسة من الأسماء إلى تمام الأسماء في الجمعة، والستة الباقية بعد صلاة الجمعة إحدى وأربعين مرة كل يوم بطريق الملازمة.

سند الدعوة المجموعة: بعد أداء الصوم والصلاة والقراءة المذكورة أن يبتدئ بقراءة الأسماء كلها من سبحانك إلى غياثي ألفا وإحدى وأربعين مرة في مدة تيسرك بعد أداء الشرائط، إن كان مبتدئا يقرأ بها في إحدى وأربعين يوما مقسما الألف والآحاد والأربعين مرة على الأيام الأربعين، وإن كان متوسط يقرؤها في تسعة أيام واثني عشر يوماً أو أحد وعشرين يوماً، ويقسم القراءة على أيام القراءة، وإن كان منتهيا يقرؤها في ثلاثة أيام أو في سبعة أيام العدد المذكور مقسماً على الأيام للحاجة، ولكل حاجة عدد معين يقرؤه بين الصبح الكاذب والصادق، أو في دير جبل، أو في واد، أو في بستان، أو في خلوة، أو في ساحل الماء الجاري، إن لم تتيسر هذه الأماكن يقرأ في نصف الليل في مكان خال مع الاعتصام، وهو هذا: باسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد بعدد كل ذرة ألف ألف مرة،

وعلى آل سيدنا محمد وبارك وسلم (نصر من الله وفتح قريب)[1]، (وبشر المومنين)[2]، (فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين)[3]، ويقرأ هذا قبل الأسماء في كل مرة والاختتام، واللهم إني أسألك بحق هذه الأسماء الشريفة الكريمة أن تصلي على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، وأسألك إيمانا وأمانا من عقوبة الدنيا والآخرة، وأن تحبس عني أبصار الظلمة المريدين بي السوء،.. إلخ.

الحمد لله، رأيت بخط شيخنا الإمام قدس الله سره ورحمنا به ما صورته لكاتبه: اللهم إن الوقوف لكل سائل ببابك والعياذ بك والتوجه في كل حال إليك، بل أنت الطالب والمطلوب عند كل طالب ومطلوب، فخلصنا بك إليك ولا تحجبنا بنا يا من إليه المشتكى والمفزع، اقض حوائج عبادك آمين.

ومن خطه أيضا: عزيمة لأم الصبيان[4]، وذلك مس من الجن: باسم الله الرحمن الرحيم ارقاش باعش مرقاش أسطاف اسنطاف خطوف خطاف شعداس وفرداس، الله رب العزة يا طها وحبوش ارفح شنوح أرمد حشيا القديم الأزلي الأبدي (إن الذين فتنوا المومنين والمؤمنات) إلى (الحريق)[5]، أنشدكم بالله العزيز القهار الوافي الدافع، وبالعهد الذي أخذه عليكم سليمان بن داوود عليهما السلام، أن لا تضروا من يحمل هذا التعويذ، وأن تتركوه وتحفظوه في حرز الله وضمانته، بحق النبي محمد وآله الطيبين الطاهرين وباسم الله الكبير، أعوذ بالله العظيم من كل عرق نقار ومن شر حر النار، أذهب البأس رب الناس، اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً هـ.

ومن خطه أيضا روّح الله روحه: روى الشيخ الوفائي أنَّ واحداً من مريدي الشيخ صدر الدين القونوي[6] -قدس الله سره- دخل عليه فرأى عنده جماعة مهيبة بحيث ارتعدت فرائصه من الخوف حتى التجأ إلى نعل فضمها إلى صدره، فسكن بعض روعه وهم ينظرون إليه نظراً المغضب وقالوا: لولا نعل الشيخ عنده لأخذناه

---

(1) الصف: 13.
(2) لبقرة: 221.
(3) يوسف: 64.
(4) أم الصبيان: كناية عن الريح التي تعرض للإنسان فيغشى عليه منها: لسان العرب: أمم.
(5) البروج: 10.
(6) محمد بن إسحاق بن محمد القونوي، صوفي، من تلامذة ابن عربي، توفي سنة 673 هـ: الأعلام 30:6.

كما نأخذ بني آدم، وحكوا كيفية أخذهم، وطلب الشيخ منهم أن يكون بينه وبينهم عهد وذمة لا ينقضوهما ولا يأخذوا من كانت هذه الأسماء عنده، قال: وقد جربت هذا من لدن الشيخ فما تخلق بإذن الله تعالى، والحمد لله. يكتب في ورق لطيف ثم يلف ويجعل في شمع ويجعل في كرباس[1] أزرق، ويجعل في جلد أخضر ويعلق في عنقه، وإن لم يندفع بهذه الكيفية يكتب في إناء أخضر جديد ويصب عليه الماء ويرش به المريض يشفى بإذن الله، ويؤخذ عليه وزن نواة من ذهب أو فضة يتصدق بها طعاماً على الفقراء لمن قدر على ذلك أو حسب ما تيسر له هـ.

قلت: وقد شافهني شيخنا الإمام روح الله بهذه الحكاية ثم قال: وقد اشترط الشيخ صدر الدين شروطا ونحن نعلمها بلا ترك الشروط، ويقع بها النفع بإذن الله، فلما سألته عن المجموع الذي كتبت فيه العزيمة فدلني عليه. ثم بعد هذا المجلس منه بمدة رأيته كتب بخطه على حاشية الصفحة التي فيها هذه العزيمة وغيرها ما نصه: نقل هذا كله وأنفع به الناس، نفعك الله ونفع بك آمين.

ومن خطه نفعنا الله به ما صورته: ومما يكتب للحُمَّى حروفاً مقطعة يتبخر بها حين تأتي ثلاثة أيام وهي: 1 فرعون هامان قارون في النار. 2 هامان قارون فرعون في النار. 3 قارون فرعون هامان في النار. ومما يكتب لها للأكل كذلك ثلاثة أيام كل يوم واحدة حروفا مقطعة 1 يعقوب 2 كيعوب عيغوب.

ومما يكتب للضرس في ورقة صغيرة وتجعل في الضرس إذا كان محفورا: (لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون)[2]، وتقرأ الفاتحة عليه ثلاثا أو خمسا أو سبعا يزول بإذن الله.

ومما يكتب ويعلق للصداع: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين)[3].

ومما يكتب للمصروع من الجن آية الكرسي وآخر سورة البقرة فإنها لا تستطيعها البطلة أي الجن هـ. ما في تلك الصفحة.

---

(1) الكرباس: الثوب: لسان العرب: كربس.
(2) الأنعام: 67.
(3) هود: 44.

ومن خطه قدس سره فائدة تعمل لجميع أنواع الجن المؤذية، وتكتب لأم الصبيان أيضا التي يصرع بها الصبيان ولمريض طال مرضه وشبه هذا، وهي نافعة مجربة بإذن الله تعالى، وهي تكتب في إناء مدهون أو صيني أو في ورقة ويعلق، أو ورق سبع أشجار لا شوك بها وهي: آل شلع يعويق بيه يه وه تبكه تبكف تمكعال بصعي كفي ممال مطيعي لك يا الله، اللهم بشلشل هنوت حيفوش هاشه كاشه عند عشيش ريح، أخرج أيها السوء والوجع الطارق من هذا الجسد جسد عبد الله فلان بن فلان أو جسد أمة الله فلانة بنت فلانة بعزة من (لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد)[1]، ثم تكتب الفاتحة والإخلاص والمعوذتين وبعده تكتب (ونترل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين)[2]، وأضف إليه صموم قصوم طائر متوشلخ سلوم كلوم، (وهو القاهر فوق عباده)[3] يخرج الجني بالقهر بإذن القاهر فوق عباده هـ. وقد أجزت به المسلمين لنفع المسلمين هـ من خطه قدس سره.

(ومن خطه، قدس سره)[4]، ومما ينفع للمصروع قراءته العشر الآيات من سورة البقرة، فمن قرأها على مصروع أفاق، ومن علقها عليه عوفي بإذن الله، أولها من أول السورة إلى (المفلحون) أربع آيات، وآية الكرسي، وبعدها آيتان إلى (خالدون)، وثلاث من آخرها (لله ما في السماوات) إلى آخرها. وقد أجزت بها مريدها، وهن رعاية الله عليه هـ. قال شيخنا الإمام رحمه الله ومن خطه الشريف نقلت: اعلم أن الفاتحة الكريمة حقيقة جملة القرآن، وإنما القرآن إلى الكريم كله تفضيلها فكله الفاتحة والفاتحة كله، وساق الكلام في بيان ذلك بنحو ورقة وصفحة، ثم قال: وقد أجزت بها مريدها أن يكتبها لكل علة لأنها محيطة بجميع آيات الشفاء من جميع الأمراض فتكتب لكل داء ولكل علة وكرب وضيق وعسر يفك بإذن الله، وتقرأ كذلك وردا أقله سبع في اليوم وسبع في الليلة، وتقرأ سبعين مرة صباحا ومساء سبعين، وتقرأ مائة وعشرين ليلاً ومثلها نهاراً، وتقرأ أيضاً 125 مرة موزعة على الليل والنهار 28 في الصباح ومثلها في الظهر وكذا مثلها في العصر، وفي المغرب 25، وفي العشاء 28، فذلك 125، وتقرأ ثلاثمائة وستين وردا

(1) الإخلاص: 3- 4.
(2) الإسراء: 82.
(3) الأنعام: 19.
(4) زيادة من ط.

في اليوم والليلة مجموعة أو موزعة مع الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، أول كل ورد منها وأوسطه وآخره، وفيها أوراد كثيرة بحسب القائلين إلى هنا كلامه قدس سره: الحمد لله وحده.

ومن خط شيخنا صفي الدين القشاشي، قدس الله سره، ما نصه: وصية العبد أحمد لأولاده زكاهم الله وآتاهم تقواهم بكرمه آمين، ورحم الله الموصي والموصى، (وهو أرحم الراحمين)[1]، وجعل الكل لما رضيه من التابعين. باسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قال تعالى: (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله)[2]. وقال: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)[3]، وهم المجانبون للهوى المتبعون للأجر، وهم الخلفاء أبدا، فالتقوى لله جملة العبادة أمراً ونهياً، والعبودية الباطنة علماً وعقداً، والعبودية الخالصة لله بكل ذلك أفراداً وقصداً، إذ هو الطالب ذاك والمطلوب منه العون عليه، كذلك فله العبادة من الكل وبه الاستعانة فيه، (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه)[4] لمن فهم، وعلى ذلك المدار ظهوراً وبطوناً بدءاً وعوداً، ثم لتكون التقوى لله لا لشائبة من الهوى والحكم للخالص من ذلك، وإن قل، ثم للغالب بلا مغالب، ثم للمغالب مع المغالب.

وهذه درجات[5] العاملين للتقوى، والرابعة البارزة عنها للغافلين حتى حكم الله لصاحب ذلك بالانتقال والبقاء، والله خير الحاكمين. وقد عم أرباب البصائر في الدين أن الهوى مفسد أو مقعد في الأوامر الإلهية فكيف بالكونية. قال تعالى: (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن)[6]، فلا يستقيم الأمر الإلهي من قبل الإله أو من قبل الرسل أو من قبل الخلفاء إلا لاتباع الأمر، ويرشد إلى مزيد بيانه في الحضرة الكونية قوله تعالى: (يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد)[7]، يعني باتباع الهوى، يعني حالاً بالشقاق،

(1) يوسف: 64.
(2) النساء: 130.
(3) التوبة: 120.
(4) الزمر: 67.
(5) في ط: درجة.
(6) المومنون: 72.
(7) ص: 25.

ومآلاً بما نسوا يوم الحساب، فلا تنس أيها الخليفة ومن معك، ذكرني الله وأياكم يوم الحساب، وهذا خطاب من الله لمن خاطبه الله تعالى به ثم لجميع المستخلفين في الأرض ليحكموا به ولو في أنفسهم أو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين بقصد الله، لا[1] مهاباة ولا محاباة إلا ما كان في مؤلف يدعى إلى الحق الأكمل وإلى الكمال، ثم لا يمنعه عن الصرف لله إذ هو الطالب والمطلوب كما في وارد قوله تعالى: (أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى)[2]، فهذه تذكرة للتابعين المتخلفين لأنهم كما كان خلقه القرآن، كذلك التابع له يكون إذا استوفى خلقه القرآن بحسبه، فأوصى الخلفة من بعدي والتابعين رأيي والمسلمين بتقوى الله العظيم، وأن لا يتبع الهوى كما أمر الله[3]، فإن المتروك فينا من كتاب الله وسنة رسوله، وهذا كتاب الله كما سمعت وعليه استنطاقه بسنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كما قال صلى الله عليه وسلم: فاستنطقوا القرآن بسنتي ولن تعمى أبصاركم ولن تزل أقدامكم ولن تقصر أيديكم ما تمسكتم بهما، فأوصي من بعدي بذلك كما أوصى به الرسول، صلى الله عليه وسلم، فإن أجابه من التابعين ذوو النهى بترك هواه لله واتِّباع الحق وطلب رضوانه مع المكرمين بذلك، جعلك الله بكرمه كذلك فقد وفى ووافى الإسلام ووفى الاستسلام، وليعظه وليبين له ليقبل، فإن أعرض عن القبول و لم يرضٍ إلا اتباع الهوى فيعرض عنه ويتبع سبيل من أناب إلى أن يحدث الله بعد ذلك أمراً، فإنما هما سِماطان[4] يمر المستخلف بينهما كما مر النبي بينهما، فمن استجاب تبعه، ومن أبى تخلف إلى الهوى عبادة له، (ومن أضل ممن اتبع هداه بغير هدى)[5] ولا علم، وفيه فسحة ورخصة، وإلا فالعزيمة التجريد لله وهو متاع المقربين، ولذلك لما كان الإمام علي، رضي الله عنه، من أولي العزم والعزيمة أعرض عن المشرك الباصق في وجهه وقد أضجعه للذبح، فلما فعل به ما ذكر تركه وقام فقيل له في ذلك، فقال: كان القصد أولا مجردا لله وإعلاء كلمته، فلما فعل بي خشيت أن يدخل ذلك القصد شيئا مما للنفس، فأعرضت عنه لذلك، فهكذا شأن أولي العزم، والعزم بالتعزم كالحلم بالتحلم. فأوصيك أيها الخليل

---

(1) في ط: فلا.
(2) عبس: 5- 7.
(3) إشارة إلى قوله تعالى: (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب): ص: 26.
(4) سماطان: مثنى سماط وهو الصف: لسان العرب: سمط.
(5) القصص: 50.

والتابعين بذلك (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون)[1]، لأن هذا سبيلهم الاستخفاف لعدم يقينهم بالعاقبة كأنهم يرونها، فدوموا بعون الله على اليقين، فاليقين الإيمان كله، فهذه نبذة هو الأمر كله ولا تخلص العبادة عن شر إلاه عبد إلا بترك الهوى لأنه شر إله عبد على وجه الأرض، وقد قال تعالى في حق المؤثرين له، وهو سمة المبتدعين السوء قاطبة، (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى)[2] (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى)[3]، أي حالا مآلا إذ تارك الهوى في روضة من رياض الجنة برضاء الله عنه حالا كما لا يخفى على البصيرية، وهذه النبذة للعامل عليها هي مدرجة كل خير متى فارقت الهوى تولاه الله بها إلى سرح خيره الظاهر والباطن حقق الله للجميع ذلك بكرمه إذ هو المعبود والمستعان وعليه التكلان. وإذا كانت الأخرى، وهي محل الانسفار بقليل أو كثير وما بينهما وبقدر ذلك يكون الشقاق، وبقدر المتروك منه يكون الالتئام والانجبار، (إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين)[4].

وأوصيكم أن فرط شيء من القصور فليكن مجردا للعزيمة على الرشد بإذن الله والتوبة والإقبال على الله، لا مؤخراً على الإقدام ولا موجباً لليأس كما ورد: اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن[5]، أو كما قال، فعلى ذلك ووزنه تكونون في عبادته حال كونكم مستعينين به وإليه المصير. ثم أوصيك وإياهم برعاية اتباع الأوامر واجتناب المناهي والحضور مع الله في ذلك فإنه الآمر والناهي والكتاب نائب الله ونائب الرسول، فاستحكموه مسكة المقبل عليه المؤثر على غيره بلا عكس فإنه العكس، ولتعلم كل مفرد من الجميع أنه مكلف بالكتاب كله ومخاطب بالطاعة للرسول، ولا يعود عليه من ذلك إلا ما يخصه، كما قال: (لا يضركم من ضَلَّ إذا اهتديتم)[6]، فاهتد أيها الخليفة ومن معك مستمسكاً، وكن على أريكته الكريمة متدركاً فإنه دار الخلافة والأمان لأهل البصائر لا العميان، متى جانب آي الاستمساك والتدرك والهوى أو تذكر عند

(1) الروم: 59.
(2) النجم: 23.
(3) النازعات: 39 – 40.
(4) هود: 114.
(5) مسند أحمد 5:135.
(6) المائدة: 107.

المفارقة فلذلك فارعوي، وفعل ذلك من أولي الألباب ذكرى وإنابة إلى الله وإليه مآب.

وأوصيك ومن معك من الأولاد والأتباع ألا تأخذوا بقول القائل حتى تستبينوه لتمضوا على بينة غير ملامة ولا ندامة، أخذاً وتَرْكاً بإذن الله تعالى، فاحرصوا على هذا فإنه طريق سلامة لمن اتبعه، ومجرد وبال لمن خالفه حيث يصبح على فعله نادما، وإذا أنعم الله بنعمة فنفرت فلا تيأسوا من روح الله[1] والله يقبض ويبسط بما سبق به العلم فانتظروا الفرج، وانتظار الفرج عبادة[2]، و(سيجعل الله بعد عسر يسرا)[3]، فما نفى العسر بل أثبته، وجعل الفرج يعقبه بإذن الله. وأوصيك وسائر التابعين أن تستقيموا الأمر أخذا وتركا فإنه حبل الله الممدود ولا تطغوا ولا تقصروا (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا)[4] من المبتدعين والظالمين (ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون)[5]، وعافانا الله وإياكم وبصرنا بذلك في المستبصرين وإياه نعبد وإياه نستعين، واستعينوا عند الشدائد بالصبر والصلاة ليلا ونهاراً (إن الحسنات يذهبن السيئات)[6]، واصبروا (فإن الله لا يضيع أجر المحسنين)[7]؛ وهم العاملون بالأمر أخْذاً وتركاً. وأوصيكم أن لا تتركوا قراءة يس والجزر[8] وتبارك كل ليلة والواقعة فإنها أمان من الفاقة، و(ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم)[9] والله يحب من عباده فعل الرخصة كما يحب منه فعل العزيمة. وكل صباح يس وتبارك، ففي ذلك الكفاية من المضار، ودفع المكاره، والأمان من الأعداء الظاهرة والباطنة. وكمال العبودية بإذن الله تعالى في يس قلب القرآن، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات، فلا تضيعوا هذا الخير المرفوع بالله والذخيرة ليوم

---

(1) إشارة إلى قوله تعالى :(يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون): يوسف 87.
(2) شعب الإيمان 205:7.
(3) الطلاق: 7.
(4) هود: 113.
(5) الحجرات: 11.
(6) هود: 114.
(7) هود: 115.
(8) كتب في الطرة من ط: وهي ألم السجدة.
(9) البقرة: 197.

النشور (يوم التغابن)[1]، (فاذكروا آلاء الله لعلكم تُفلحون)[2]، وتبارك الواقية والأمان من مخوف القبر، أي وقت مات العبد، وتظلل عليه يوم القيامة، وسورة الجزر كذلك، ويدافعان عنه وينادان على رأسه لا سبيل إليه، فاذكروا واقبلوا، هذا من فضل الله واذكروا نعمة ربكم إذ استويتم عليه فيه الاستواء والاحتواء، واذكروا تعدد السور مع كل تال قبله الله في وحدانيتها الشخصية وصورها العددية بحسب العاملين، ولا يشغله عامل عن عامل، فالله الله في ذلك، لا تفرطوا فيه بعد بذله ووصوله إليكم فإنما تفرطون، فالتفريط فيكم وتغبنون بالتفريط يوم التغابن، فاذكروا، فالذاكر حي ومقابله ميّت، أحياكم الله وإيانا آمين، فتجملوا بفضل الله، وجملونا بين عباد الله جملكم الله بذلك مع من جمله الله وإيانا آمين. فالشيخ في قومه كالنبي في أمته كما تعلمون. وأوصيكم بالمحافظة بعد ركعتي الفجر بدعاء العزيز باسمه العزيز: يا عزيز، يا عزيز، يا عزيز إحدى وأربعين مرة وإحدى عشرة مرة: يا الله، يا واحد، يا أحد، يا جواد، انفحني بنفحة خير إنك على ما تشاء قدير. ويا إله الآلهة الرفيع جلاله خمس عشرة، ويا قيوم فلا يفوت شيء من علمه ولا يؤده سبعة وعشرين مرة، إلى هنا بين السنة والفريضة، وباسم الله على ديني ونفسي، باسم الله على أهلي ومالي، باسم الله على ما أعطاني ربي لا أشرك به شيئا، الله أكبر الله أكبر، أعز وأجل وأعظم مما أخاف وأحذر. اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل جبار عنيد وشيطان مريد، وأعوذ بك من كل ذي شر، (أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم)[3] ثلاث مرات. اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم واسمك العظيم من الكفر والفقر، (رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين)[4] ثلاثا. اللهم علمني ما ينفعني وتقبله مني، ومرة واحدة الذي خلقني إلى سليم، (فسبحان الله حين تمسون)[5] إلى (تخرجون)، فمن قرأ ذلك في الصباح مرة وفي المساء مرة أدرك ما فاته، فأدركوه ولا تتخلّفوا عنه، وليعلمه بعضكم بعضا، ولمن أحب من ذكر أو أنثى فإن خيره لا يحصى.

---

(1) التغابن: 9.
(2) الأعراف: 68.
(3) من قوله تعالى: (إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) هود: 55.
(4) الأنبياء: 88.
(5) الروم: 16 – 17.

وأوصيك ومن معك أن تلقنوا أذكار السنة من سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، مائة بالصباح ومائة بالمساء أو سبعين سبعين، أو أربعين أربعين دبر كل صلاة مفروضة لا تتركونه، أتركوا غيره ولا تتركوه توسلوا به. قال صلى الله عليه وسلم: ثلاث من كُنَّ فيه أو واحدة منهن تزوج من الحور العين حيث شاء: رجل أؤتمن على أمانة فأداها مخافة الله عز وجل، ورجل خلى عن قاتله، ورجل قرأ في دبر كل صلاة قل هو الله أحد عشر مرات[1]، فالله الله في ذلك. وأوصيكم بحفظ الصلاة والصيام[2] والجنابة لإمكان الحياز ولو بالتسامح، فيدخل على العامل الجنب في الصيام والصلاة، والجنابة بالغفلة عن شيء لا يتم معه عمله، فليحرص ولا يصل إلى أحد الوسواس الخناس، فنعوذ برب الناس من شر الوسواس الخناس.

وأوصيك والجماعة أن لا تفرطوا في القراءة لله كل صباح على أحياء ما أنعم الله به على الجميع (وذَكِّر فإنَّ الذكرى تنفع المومنين)[3]، ولا تنسوا ما يحتاج إليه الوقت من إحياء سنن القوم المتروك بقراءة شيء من كتبهم، كالرسالة[4] أو العوارف[5] أو القوت لأبي طالب المكي، أو طهارة القلوب[6] أو الإحياء الجامعة للإحياء لمن ذاق الحيا، وكذلك تذكرة القرطبي[7] والبدور السافرة[8] والصواعق[9] للإمام الفائق، والصحاح مرة مرة، البخاري ومسلم مرة مرة، سنن أبي داوود مرة، والترمذي والنسائي وابن ماجة، فأحيوا تحيوا، حقق الله ذلك بكرمه وجعله كلمة باقية فينا وخلفنا عباد الله الصالحين وعامة التابعين آمين. وكذلك إحياء المكتب بالقرآن إن تيسر وتوفر من أبنائكم من يقرأ، والفقراء والجيران وكذلك الراتب بالزاوية ليلة الثلاثاء، والإحياء برمضان على نسق عادة الله المنان، علينا بها من

(1) فيض القدير 3:290.
(2) في ط: السلام.
(3) الذاريات: 55.
(4) يقصد الرسالة القشيرية.
(5) عوارف المعارف للسهروردي.
(6) طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب للشيخ الإمام عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدهرى الديرى المتوفى سنة 697 هـ: كشف الظنون 2:1118.
(7) التذكرة بأحوال الموتى والآخرة، لمحمد بن أحمد القرطبي الأندلسي المتوفى سنة 671 هـ: كشف الظنون 1:390.
(8) عنوان الكتاب كاملا: البدور السافرة عن أمور الآخرة، للسيوطي: فهرس الفهارس 2:1016.
(9) الصواعق على النواعق لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطي المتوفى سنة 911 هـ: كشف الظنون 2:1083.

الأدران، والصلاة جماعة، والتروايح، وختم القرآن كل ليلة بالربعة بعد الصلاة، وقراءة ما تيسر من الحديث بعد ذلك وقراءة الوترية بالزاوية والقرآن عشرة أجزاء كل ليلة بالمكتب يقوم محمد ومصطفى والأولاد إن هدوا إلى الطيب من القول وأنتم معهم، وناظرنا على الكل بالتلاوة والزاوية، وكذلك لمصرف الأرادب 3 التي تخرج من الوكالة في المعادات كما يعرفه الأولاد. وخصص الزاوية معوزة على ذلك القيام، والراتب على الألسنة ودرس القرآن والختم يوزع عليه، ومن رغب إلى الله كان لله نفسا ومالا، فيجد الله عنده توابا رحيما حالا ومآلا، وكذلك عشر ذي الحجة لا تتركوها بالإحياء والصيام لله فإنها من أحب الأعمال الصالحات المسرعة بالعاملين إلى حضرة الرب قرب الله ومحبته، ويرحم كبيركم صغيركم، ويوسع له الكنف، وليوقر الصغير الكبير، وليتق الله كلا ولا يبخس منه شيئا، ومن لم يستطع (أن يمل هو فليملل وليه بالعدل)[1]، فالأخلاق كالأحوال والأقرار كالأقدار، وتواصوا جميعا بالحق (وتواصوا بالصبر)[2]، (ولا تيأسوا من روح الله)[3] ولا يصدق أحدكم الإساءة عن التماس عفو الله والإنابة مع المنيبين إلى الله، (إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا)[4] وقد تم فالتمسوه كما تلتمسوا ليلة القدر. هـ ما يتعلق به الغرض من الوصية، باقيها في أمر الأوقاف والأولاد جزاه الله خيرا عن نصيحته وجعلنا ممن امتثل بركته، ومن نظم شيخنا الملا إبراهيم، أبقاه الله، في تاريخ وفاة الإمام القطب أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه:

[طويل]

إمامُ التقى نجمُ الهدى شاذِليهم ... غياثُ الورَى في القومِ من فضلِ ذي المَننِ

توفي وكيفَ العيشُ والزمنُ الذي ... مضَى فيه قد أضحى توفي أبو الحُسْنِ

وله أيضا في تاريخ شيخ شيخه الشناوي (رضي الله عنهما)[5]:

[طويل]

(1) البقرة: 281.
(2) العصر: 3.
(3) يوسف: 87.
(4) الطلاق: 3.
(5) زيادة من ط.

سـلامٌ لعبـاس إمـامُ معَـارف وذا هو شـنَّاوهمُ أحمـدُ الأوحَـدْ
مضى ولسانُ الغيبِ عن عامِ موتـهِ يترجمُ تاريخا مـضَى نجْبـةُ أحمـدْ
تـوفي ليـومِ الأربعـاءِ ودفنُـهُ بصبحِ الخميسِ بالمضافِ إلى الفرقـدْ

يعني بقيع الفرقد، وهي مقبرة المدينة زادها الله شرفاً وجعلنا بها مقبورين على الإيمان في عافية.

وقد ألبسني، رضي الله عنه، كما ألبسه شيخنا الصفي، ونص ما كتبته بين يديه: الحمد لله، ألبسني شيخنا العلامة الموفق بفضل الله للرشاد الجارية أحوالـه بتوفيق الله على السداد، الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن حسن الشهرزوري العمامة بعدما اعتم بها على رأسه المبارك وأرخى لها العذبة، كما ألبسها من شيخنا العمدة القدوة صفي الدين أبي العباس أحمد بن محمد القشاشي، رضي الله عنه، بـسنده، وكان إلباسه لي آخر يوم الجمعة ثالث عشر شعبان سنة ثلاث وسـبعين وألـف بالمدينة المشرفة بمنزل سيدنا الأخ الأجل الفاضل الأكمل السيد محمد بن رسـول الشهرزوري كان الله لنا وله آمين. ثم كتب هو بخط يده عقبه: صحيح ذلـك. وكتبه إبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوي ثم الشهراني ثم المدني كان الله له عنه فيما له بفضله آمين والحمد لله رب العالمين.

ذكر تآليفه رضي الله عنه

فمنها كتاب إنباه الأنباه على إعراب لا إله إلا الله، ابتدأه في بلاده، وفرغ من تهذيبه وتحقيقه وإكماله بعد استقراره بالمدينة، وهو كتاب مفيد لم يؤلـف في معناه مثله، أودعه من التحقيقات ما لا يوجد في غيره، ومن النكـت النحويـة والقواعد الأصولية والمباحث البيانية كل درة فريدة وجمانة ثمينة، لم يـدع شـيئا يتعلق بإعراب الكلمة المشرفة من جميع العلوم إلا ذكره مـع زيـادة التحقيـق والتدقيق، ثم ختمه بأربعين حديثا في فضل لا إله إلا الله وذكر سنده في تلقينـها، وقد طال بحثه على جمع الأحاديث المذكورة في مجالها، واستعان في ذلك بشيخنا أبي مهدي الثعالبي، فلم يتفرغ لذلك إلى أن منّ الله عليه بجمعها من مظانهـا في

رسالة للعارف محمد البكري[1] أفردها لفضل لا إله إلا الله، ذكر فيها أزيد من مائة حديث، فكتبت إليه بخبرها وأنه إن احتاج إليها لتغير شيء من الأحاديث التي ذكرها أبعثها له. وبالجملة فهو كتاب نفيس محتو على درر العلم تنافس أصحابنا ومشايخنا في كتابته لما أدخلناه المغرب، نفعنا الله وإياه وإياكم بذلك آمين.

ومنها إفاضة العلام في مسألة الكلام أجاد فيه كل الإجادة، وقد علم محل هذه المسألة وعظم قدرها من علم الكلام وأنها لصعوبتها هي السبب في إضافة هذا العلم للكلام، ومبنى هذا التأليف أولاً على تحقيق النزاع الذي بين الأشعرية والحنابلة في الكلام، وذهاب الحنابلة فيه إلى القول بالحرف والصوت، وادعاء القدم لهما صونا لجانب القرآن عن نسبة الحدوث إلى شر منه، و لم يبالوا بما أداهم إليه ذلك من جحد الضرورة المشاهدة في حدوثها وانقضائها، وقد كثرت القالة في ذلك بين متأخري الشافعية والحنابلة حتى أدى ذلك إلى تضليل كل من الفريقين صاحبه، وبسبب هذه المسألة وغيرها من المسائل التي تمسك فيها الحنابلة بظواهر الكتاب والسنة، كالاستواء والنزول والقدم والوجه والعينين وغير ذلك من أحاديث الصفات، حكَم بتضليل شيخ الإسلام ابن تيمية، وأتباعه كابن القيم، معاصروه من الشافعية كالسبكيين وغيرهم، وتحاملوا عليه ونسبوه إلى العظائم، وقد أجاد شيخنا رضي الله عنه بالفحص عن كل ما نسب إلى الحنابلة و لم يقلد في ذلك أهل مذهبه من الشافعية لعلمه بما يقع بين المتناظرين وعدم تحقيق محل النزاع ونسبة كل واحد منهما صاحبه إلى لازم قوله وتعلقه بظواهر أقواله، وإن كان في صريح كلامه ما يدفع تلك اللوازم ويحي على تلك الظواهر، ولذلك كتب شيخنا عند عزمه على البحث في هذه المسائل بإشارة شيخه الصفي إلى الشيخ عبد الباقي الحنبلي البعلي الدمشقي، وهو إذ ذاك كبير الحنابلة وإمامهم علما وعملا وصلاحا بدمشق ليكتب له بمعتقد الحنابلة محررا مبينا بأدلته حتى لا ينسب إليهم شيئا مما يقولوه وأخذ هو في الفحص عن رسائل الشيخ ابن تيمية وأصحابه فيما يتعلق بذلك حتى ظفر من ذلك بما تحرر له به معتقد الحنابلة ومبنى طريقهم، وكتب إليه الشيخ عبد الباقي رسالة متضمنة لجميع ما طلب منه بيانه، فحينئذ أخذ في تصنيف هذا الكتاب وحرر فيه النظر ودققه وحققه في مسألة الكلام ثم في سائر المسائل

---

(1) محمد بن محمد بن عبد الرحمن، أبو الحسن البكري المصري، مفسر متصوف، كان يقيم عاما بمصر وعاما بمكة المكرمة، من كتبه: شرح منهاج النووي، تفسير البكري، توفي سنة 955 هـ: الكواكب السائرة 194:2. الأعلام 57:7.

التي وقع فيها النزاع ونظر في ذلك نظر ما هو منصف متحل بجميل الأوصـــاف.
قال لي: لما أمعنت النظر في رسائل القوم ومصنفاتهم وجدتهم برآء من كثير ممـــا رموهم به أصحابنا الشافعية من التجسيم والتشبيه، وإنما القوم متمسكون بمذاهب كبراء المحدثين كما هو المعروف من حال إمامهم رضي الله عنه من إبقاء الآيات والأحاديث على ظاهرها والإيمان بها كذلك، مفوضين فيما أشكل معناه، وهذا لا يذمه أحد من الأشعرية، بيد أن الحنابلة مشددون في رد التأويل في ذلك يجهّلون من يذهب إليه كالأشعرية، فيقولون: الله ورسوله وسلف الأمـــة أدرى بمعـــاني الآيات والأحاديث من هؤلاء المؤولين وما ورد عنهم أنهم أولوا شيئا من ذلـــك، فأما أن يكون ذلك لأن معناه خفي عليهم فكيف ظهر لهؤلاء ما خفـــي علـــي أولئك، وإما لأنها على ما يظهر من معناها لأن الشرع جاء بلغة العرب فمراد الله بهذه الألفاظ هي المعاني التي تريدها منها العرب في لغتهم وتطلق على كل واحد بحسب ما يليق به، فالمراد بالاستواء والفوق والنزول هي معانيها المعهودة في كلام العرب، فإذا قلت زيد فوق السرير فمعناه مستقر عليه متمكن منه مستعل. ولمـــا علمنا أن زيدا جرم من الأجرام والسرير كذلك تحقق لنا أن الفوقيـــة في حقـــه واستقراره فوق السرير يوجب مماسته له وتحيزه في جهة من جهاته، وغير ذلك من الأوصاف التي يوجبها استقرار جرم على جرم. وأما المولى جل جلاله فماهية ذاته غير مدرَكة لأحد من الخلق، فكيف نقول بأن استقراره فوق العرش يوجب مماسته له وتحيزه في جهة، لأن ذلك لازم استقرار الجسم. وأما استقرار من ليس بجسم، فلا نحكم بأنه يوجب كذا وكذا حتى نعلم ماهيته والماهية غير معلومة، فنثبت له استقرارا حقيقيا فوق عرشه لأنه أثبته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله بإثبات الفوقانية التي معناها في اللغة التي جاء بها القرآن الاستقرار على الشيء والاستعلاء عليه على وجه يليق بذاته لا ندركه الآن لأنا لم ندرك ذاته ولم نعلـــم ماهيتـــه، فكيف نحكم على ذاته بأن استقرارها على شيء وعلوها عليه يوجـــب المماســـة والتحيز، فقد يستقر الشيء على الشيء بلا مماسة لاستحالتها من المـــستقر وإن جازت في حق المستقر عليه، وكذلك يقولون في النزول إن المحالات المذكورة إنما تلزم من نزول الأجسام من الانتقال[1] والتغير، بل نثبته له لأنه أثبته لنفسه، ونقول إنه نزول حقيقي منزه عما يطرأ ويقع من نزول الأجسام لأنه ليس بجسم، وكذلك

(1) في ط: الانتقام.

القول في الاستواء نؤمن به على ما هو المفهوم من كلام العرب لأنه أثبته لنفسه بكلام هو من لغة العرب، ولا نقول بما التزمتمونا من الجهة والمماسة أيضا لأن ذلك في استواء الأجسام بعضها على بعض. وأما استواء من ليس بجسم على جسم فلا ندرك منه ونعقل، إلا أنه استواء وكيفيته وما يلزم منه لا نعلمه لعدم علمنا بالماهية، وقد بالغ ابن القيم في الرد على الأشعرية في مثل هذا حتى أتى بعبارة سوء وقال: إنهم تكلفوا في كلام الله تعالى ورسوله، وتنطعوا في فهمه، و لم يتلقوه بالقبول كما فعل من أخلص إيمانه من السلف الصالح حتى وقعوا فيما وقع فيه من قبلنا من الأمم من تنطعهم على أنبيائهم. قال: فلام الأشعرية كنون اليهود في الزيادة والتنطع، فاليهود أمروا أن يدخلوا الباب سجدا ويقولوا حطة[1]، فدخلوا يزحفون أستاههم وقالوا حنطة، فزادوا النون تنطعا وتقوّلا على الله ما لم يقله، والأشعرية كذلك. قال الله تعالى: (الرحمن على العرش استوى)[2]، فتنطعوا وقالوا: استولى، فزادوا اللام تنطعا. ولقد أساء، سامحه الله، الخطاب وتنكب بمحض العصبية عن الصواب فإن الأشعرية، رضي الله عنهم، لم يجحدوا استوى و لم يمتنعوا من قوله، بل قالوا استوى وبه يقرؤون ويتقربون إلى الله تعالى، ولكن بعضهم أول المعنى لما رأى الظاهر منه محالا على الله فقال: معنى استوى استولى لورود اللفظين معا في لغة العرب بمعنى واحد كقوله[3]:

[كامل]

قد استوى بشر على العراق ... من غير سَيف ودم مهراق

وأمثال هذه التعصبات الفاسدة هي التي أوقعت الفريقين فيما وقعوا فيه، وإلا فالكل على هدى، إن شاء الله، فيما يظهر لأن المفوض مسلم لمراد الله تارك ما لم يكلف بعلمه، والمتأول متبع لما علم صحته وثبوته من الكتاب والسنة حامل عليه ما لم يتضح معناه حتى تكون العقيدة كلها على نسق واحد ولا يسرع إلى فهم القاصر معنى لا يليق بالرب فيثبته له، فالتأويل لأجل هذا حسن لأنه حراسة عن اعتقاد ما لا يجوز اعتقاده، فإذا سمع قاصر الفهم استوى لم يتبادر إلى فهمه إلا

(1) إشارة إلى قوله تعالى: (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون): البقرة: 58- 59.
(2) طه: 5.
(3) ورد البيت بلا نسبة في: شذرات الذهب 1:79.

المعنى المستحيل، فإذا سمع قول العالم معناه استولى عليه بالقهر والغلبة زالت تلك الشبهة من قلبه، وهذا الذي أولنا به الاستواء وإن لم يكن هو مراد الله ورسوله فهو لا شك معنى ثابت لله متصف به لا ينافي ما هو معناه عند الله، فلا كبير ضرر في ذلك ولا تحكم إذ لم نقل ليس له معنى إلا هذا، بل نقول يحتمل أن يكون معناه هذا وهذا صدق لأنه محتمل. ولقد أطلعني بعض أصحابنا الحنابلة بالقاهرة على رسالة للشيخ ابن تيمية وهي معتمدة عند الحنابلة فطالعتها كلها فلم أر فيها شيئا مما ينبز به ويرمى به في العقائد سوى ما ذكرنا من تشديده في رد التأويل وتمسكه بالظواهر مع التفويض مع المبالغة في التتريه مبالغة نقطع معها بأنه لا يعتقد تجسيما ولا تشبيها، بل يصرح بذلك تصريحا لا خفاء فيه. والعجب ممن يترك صريح لفظه بنفي التشبيه والتجسيم ويأخذه بلازم قوله الذي لا يقول به ولا يسلم لزومه لقوله: وعلى كل حال فهو كما قال كثير من المشايخ في الشيخ محي الدين، وكثيرا ما سمعته من شيخنا العلامة سيدي عبد القادر رضي الله عنه يقول: محكم كلامه يقضي على متشابهه، ومطلقه يرد إلى مقيده، ومجمله إلى مبينه، ومبهمه إلى صريحه، كما هو شأن كل كلام ظهرت عدالة صاحبه، والله أعلم .

ولقد أحسن شيخنا، رضي الله عنه، التوفيق بين كلامهم وكلام الأشعرية وبرأهم من كثير مما نسب إليهم متأخرو الأشعرية، كما أن الأشعرية مبرأون مما نسب إليهم (متأخرو)[1] الحنابلة من التعطيل والتحريف لكلام الله عن مواضعه، والكل على هدى إن شاء الله متمذهبون بمذاهب أهل السنة والجماعة، يصدق كلام بعضهم بعضا، ويصدقون كلهم بكلام الله ورسوله، وهو مصدقهم وإن اختلفوا في التأويل والتفويض فهما طريقان مسلوكان منتهجان منسوبان معا لأهل السنة والجماعة، وإن كثر التفويض عند السلف لعدم احتياجهم إلى ذلك بظهور أهل الأهواء المتمسكين بمتشابه الآيات والأخبار الحاملين لها على قبيح آرائهم، فتعين عن[2] أهل السنة والجماعة المناضلين على الاعتقاد الحق تأويلها على ما يوافق الحق ليبطل تمسك المبتدعة بها. و لم يقل أحد من الأشعرية بوجوب التأويل وأنه لا يجوز الإيمان بالمتشابه على ما هو عليه، بل استحبوا التأويل للغرض المذكور و لم يخالف عقائد أهل الحق من المقلدين للأئمة الأربعة إلا طوائف قليلة لا يعبأ بهم

---

(1) زيادة من ط.
(2) في ط: عن.

كما قال الشيخ تاج الدين السبكي في كتابه مفيد النعم ومبيد النقم، فقد قال فيه عند ذكره للعلماء في المثال السادس والأربعين ما نصه: وهؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة ولله الحمد في العقائد يد واحدة، كلهم على رأي أهل السنة والجماعة، يدينون الله تعالى بطريق شيخ السنة أبي الحسن الأشعري، رحمه الله، لا يحيد عنها إلا رعاع من الحنفية والشافعية لحقوا بأهل الاعتزال، ورعاع من الحنابلة لحقوا بأهل التجسيم، وبرأ الله المالكية فلم يُر مالكي إلا أشعري العقيدة هـ لفظه. قلت: وناهيك بهذه المنقبة العظيمة لإمامنا وأتباعه، رضي الله عنه، أقر له بها عظماء مخالفيه من أهل المذاهب. ولأهل مغربنا خاصة، فلم يعرف في علمائهم وأكابرهم قديما وحديثا من هو رأس وإمام في مذهب من المذاهب المخالفة، وقد استدل بذلك سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام الشافعي على صحة معتقد الإمام أبي الحسن الأشعري قال: ويدل على صحة مذهب الإمام الأشعري كون معتقد أهل الغرب قاطبة الذين شهد لهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بأنهم؛ لا تزال طائفة منهم ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله[1]، وهم ظاهرون، كما ورد في بعض روايات الحديث، طائفة من أهل الغرب، وتأويله بالدلو العظيم أو غير ذلك عدول عن الظاهر بلا ضرورة، فالصواب إبقاؤه الله[2] على ظاهره. قلت: ومن أراد أن ينشرح صدره ويتبين له تبينا لا مراء فيه صحة مذهب الإمام الأشعري وأنه مذهب أهل السنة والجماعة، فليطالع كتاب الإمام أبي القاسم بن عساكر المسمى بتبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري فقد أتت فيه من أدلة الكتاب والسنة وأقاويل السلف والخلف بما لا يمترى معه عاقل خال من التعصب أنه إمام السنة ورئيس الجماعة المضمون لها العصمة من الله. ولقد قال لي شيخنا الملا إبراهيم يوما: ما رأيت مذهبا من مذاهب أئمة المتكلمين أقرب إلى مذاهب العارفين وأشبه بها من مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري، فما قال العارفون أهل الكشف في مسألة بخلاف أقوال المتكلمين إلا وجدت قول الأشعري أقرب إلى قولهم من قول غيره بحيث يمكن رده إلى أقوالهم بأدنى تأويل، بل المواضع المستشكلة من كلامه جارية على وفق ما يقوله أهل الكشف، ولذلك أشكلت على من لم يبلغ مقامه في المعرفة من أهل الظاهر، كقوله في الوجود: إن وجود كل شيء عينه هو عين قولهم في الوجود المطلق

(1) مسند أحمد 4:429.
(2) ساقط من ط.

ووحدته. وقوله في الصفات: لا هي هو ولا هي غيره. وقوله في الكسب والاستطاعة: كل ذلك لا كبير فرق بينه وبين ما اتضح لبصائر أهل الكشف، ومن طالع تآليف المؤلفين في عقائد العارفين وإجماعاتهم كالكلاباذي[1] في التعريف، وجدها لا تباين مذاهب أهل السنة والجماعة فيما اتفقوا عليه، وقريبة من مذهب الأشعري فيما اختلفوا فيه، وقد ذكرت ما قال شيخنا الملا لشيخنا صدر الجماعة وإمام كل صناعة العلامة العارف المحقق سيدي عبد القادر علي الفاسي، فصدقه في ذلك وقال: لا شك أن الإمام الأشعري كان له حظ وافر من العلم بالله والمعرفة به مؤيدا في أقواله مسددا في آرائه غير خال من الكشف الصحيح والذوق الصريح، ولولا ما أقامه الله فيه من مناظرة أهل الأهواء ومناضلتهم والجري معهم على نحو ما عرفوه من أدلة المتكلمين لكان رأسا في طريق القوم وإمام العارفين في زمانه، وقد شهد له بذلك أهل البصائر من العارفين في زمانه وبعده، ولقد قال لي شيخنا الملا: إنه ليشق علي كثيرا أن أجد في كلام العارفين ما يخالف بظاهره أقوال الإمام الأشعري دون غيره من المتكلمين، ومع ذلك فلا ألبث إلا يسيرا حتى يفتح الله لي بابا من الفهم يتضح لي به موافقة كلامهم لرأيه فأحمد الله كثيرا، وقد قدمنا أن أهل الصدق لا اختلاف بينهم وإن أوهمه ظاهر كلامهم في بعض المواضع، والله أعلم .

ومن تآليفه أيضاً القول الجلي، وهو جواب عن أسئلة وردت من قبل بعض علماء الزيدية من أهل اليمن في حياة الشيخ الصفي وأمره بالجواب عنه. ومن رسائله التتمة على المسألة المهمة، يعني مسألة الكسب التي ألف فيها شيخه الصفي رسائله الثلاث. ومنها رسالة أخرى سماها ذيل التتمة في المسألة أيضاً. ومنها الرسالة التي ألّفها برسمي في المسألة. فرسائله فيها ثلاث عدد رسائل شيخه، إلا أنها أصغر منها. ومنها رسالة في حديث الأعمال بالنيّات أجاد فيها كل الإجادة وحقق الكلام فيها غاية التحقيق، وسبب اطلاعي على هذه الرسالة أني ذكرت له يوما أني رأيت بالقاهرة سفرا من شرح الجامع الصغير[2] للمبتولي ذكر صاحبه أنه شرح حرف الهمزة منه في ثلاثة عشر مجلدا، والسفر الذي رأيته سفر كبير وليس

(1) محمد بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي، من حفاظ الحديث، له كتاب: التعرف لمذهب أهل التصوف، توفي سنة 380 هـ: كشف الظنون 1:225. الأعلام 5:295.

(2) شرح الجامع الصغير للسيوطي لأحمد بن محمد المتبولي المتوفى سنة 1003 هـ: كشف الظنون 1:560.

فيه إلا الكلام على حديث إنما الأعمال بالنيات. فقال لي: إن التطويل في مثل هذا إنما هو بأمور خارجة عن معنى الحديث المشروح أو بأمور ليست من التحقيق في شيء، كالاشتغال بجلب الأقوال غثها وسمينها، والاسترسال في جلب الفروع الفقهية المتعلقة بذلك، واختلاف آراء الفقهاء في ذلك، وأما تحقيق معنى النية وزبدة الأقوال المقولة في معناها وكيفية انطباقها وشمولها لسائر الأعمال فهو ما أودعته رسالتي المؤلفة في ذلك، ولقد صدق في دعواه. قال لي: وقد أطلعني شيخنا أبو مهدي عيسى الثعالبي على رسالة القرافي المسماة بالأمنية، فأحكمت مطالعتها فلم أجد فيها زيادة على ما ذكرت، وحين أطلعته على رسالتي حكم بأن رسالتي أتم تحقيقا وأوجز لفظاً.

ومنها رسالة أخرى ألفها في مسألة طال البحث فيها بين الشيخ القشاشي وأصحاب الشيخ عبد الأحد النقشبندي الهندي، وهي مسألة تفضيل البشر على الكعبة، وهي مسألة قديمة البحث تكلم عليها الشيخ محي الدين في الفتوحات وحكم بتفضيل البشر، فلما جاء الشيخ آدم شيخ شيخنا جمال الدين على المدينة، وهو من أجل تلامذة الشيخ عبد الأحد، ألف رسالة في ذلك وجنح إلى تفضيل الكعبة وزعم أن شيخه كان يقول بذلك، وخالفه في ذلك شيخنا الصفي، فلم ينشب الشيخ آدم أن توفي إلى رحمة الله. وسمعت بعض الأصحاب يقول إن الشيخ الصفي تصرف فيه بقوة الحال وأعلم بموته فمات قريبا من ذلك. فلما قدم إلى المدينة في سنة ثمان وستين أولاد الشيخ عبد الأحد السيد محمد المعصوم وأخوه وأولادهم، وكانت لهم نجابة وعلم وفهم على ما أخبرني شيخنا الملا، جرى ذكر المقالة التي وقع البحث فيها بين شيخنا الصفي وبين تلامذة أبيهم، فأمر الشيخ الصفي تلميذه الملا إبراهيم أن يؤلف في ذلك فألف رسالة مفيدة، ولما قدِم أولاد الشيخ عبد الأحد المدينة قدموا في شارة عظيمة وأتباع كثيرين، وانثال الناس عليهم للأخذ منهم والتبرك بهم، فبعثوا أولادهم للقاء شيخنا صفي الدين وزيارته. قال لي شيخنا الملا لما انفصل أولادهم من عند شيخنا قال لنا إن هؤلاء كبراء قوم وأهل علم ونسبة لله قد قدموا علينا في هذه البلدة المشرفة وتفضلوا ببعث أولادهم لزيارتنا، فيحق عليكم أن تزوروهم في محالهم التي نزلوا فيها مكافأة لهم لئلا يجدوا في قلوبهم، فوجهني أنا والشيخ مهنا للقائهم، وكان الشيخ مهنا رضي الله عنه من رجال وقته له حال قوية وسلوك مستقيم في الطريق، صحب السيد سالم شيخان

باعلوي[1]، رضي الله عنه، وبعد وفاته اتصل بالشيخ القشاشي لما بينه وبين شيخه من الصحبة والألفة، وكان الشيخ مهنا يقول إنه وجد الشيخ القشاشي لما اتصل به أكمل حالا وأتم عرفانا من السيد سالم، فلعل الشيخ الصفي وصل بعد السيد سالم إلى مقام أعلى من مقامه، أو كان كذلك أعلى منه حتى في حياته، إلا أن الشيخ مهنا لقوة استغراقه في شيخه لم يشعر إذ ذاك بعلو مقام الصفي على مقامه. قال لي الملا: ولما عزمنا على زيارة السيد المعصوم أنا والشيخ مهنا وجماعة من الأصحاب أضمرت الجزع منهم وتهيبت لقاءهم لما أخبرت به أن لهم تصرفاً في القلوب قويا وتوجها عظيما في مراقبتهم، كما هو شأن السادات النقشبندية، رضي الله عنهم، فلما أردنا الخروج قال لنا الشيخ: اذهبوا على بركات الله وتحفظوا على نعالكم لئلا تسرق لكم، ولكن ما ثم إلا الخير، قال ذلك على وجه المزاح، وفهمت منه أنه قال: تحفظوا على قلوبكم وأسراركم أن يتصرفوا فيها بهممهم وتوجهاتهم. ولكن لما قال الشيخ ما ثم إلا الخير، علمت أنه يمدنا بمدده، فلا يقدرون على التصرف فينا. قال: فلما دخلنا على كبيرهم وجدناه على سرير وتلقانا وسلم علينا وأجلسنا وجلس، فلحقتنا هيبة منه عظيمة ورعب، والمجلس غاص بأهله، فلما استوى بنا المجلس نظرت إليه وهو متوجه، ونظرت إلى الشيخ مهنا وهو جالس بإزائي ضارب برأسه إلى دقنه وهو يغط غطيط البكر، ولم يشعر به أحد غيري، فبعد ساعة رفع الشيخ مهنا رأسه وهو يقول سراً: تحسبون أن أحداً ليس يقدر عليكم، أو أن ليس في البلد أحد يقاومكم حتى خشيت أن يسمعه، فرفعت رأسي إلى السيد المعصوم فرأيته قد ارفضّ عرقاً، فانفصل المجلس ولم يكلمنا بكلمة واحدة، فعلمت أن الشيخ أمدنا بمدده وأنه رام التصرف فينا ولم يقدر، فأوجم لذلك، وكذلك عادة المشايخ النقشبندية، رضي الله عنهم، إذا راموا التصرف في أحد وغالب حاله حالهم وقوي عليهم ولم يقدروا عليه انقلبت قوة حالهم عليهم، فمنهم من يغشى عليه، ومنهم من يصعق، بل ربما أدى ذلك بعضهم إلى الموت. أو ما ترى الصقر إذا انقض على الصيد بقوة فاخطأه ربما كان في ذلك هلاكه، وكان هذا الشيخ لما توَجَّه إلى بواطن أصحاب الشيخ بالتصرف وقابله الشيخ مهنا بتوجه أقوى منه لقوة مدد شيخه فلم يقدر على التصرف فيهم انفعل لذلك وارفض عرقا. فلم يتكلم بكلمة خجلا، وكان الشيخ مهنا، رضي الله عنه، إذ ذاك أقوى

(1) سالم بن أحمد شيخان باعلوي، الحسيني الشافعي، عارف مصنف، من أئمة الصوفية بمكة المكرمة، ولد سنة 995 هـ، وتوفي سنة 1046 هـ: خلاصة الأثر 2:200. الأعلام 3:70.

أصحاب الشيخ الحاضرين هناك حالاً وأتمهم استعداداً، فتوجه لمنازلة هذا القرن ومقاومته دون أصحابه، فلما رجعنا إلى الشيخ وجدناه ينتظرنا وكأنه كان يمدنا، والله أعلم.

ومن تآليفه أيضاً الشرح الكبير والصغير على منظومة شيخه الصفي في العقائد، وقد أجاد فيها كل الإجادة وأحسن غاية الإحسان، وقد وهب لي نسخة من الشرح الكبير وكتب على ظهرها بخطه هدية من الفقير إبراهيم إلى أخيه فلان والله تبارك وتعالى يكافيه عنا بأحسن المكافآت. وله رسائل أخرى وسوى ما تقدم، وتقاييد على مسائل مما يشكل في فنون كثيرة. ومن تآليفه رسالة في الكلام على الاستخارة اليومية التي جرى عمل الصوفية بها، وهي صلاة ركعتين في كل يوم بنية الاستخارة وقراءة دعاء الاستخارة معتبرا لجميع شؤونه الدينية والدنيوية. كان يقول، على ما ذكر بعضهم، في خلال الدعاء: اللهم إن كنت تعلم أن جميع ما أحرك فيه وأنطق به في حقي وفي حق غيري، وجميع ما يتحرك فيه غيري وينطق به في حقي وفي حق أهلي ومالي وولدي من ساعتي هذه إلى مثلها من الغد خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فأقدره لي. إلى آخر دعاء الاستخارة الوارد في الحديث، فإن بعض الناس قد أنكر ذلك على الصوفية وقال: ليس له أصل في السنة. فكتب الملا في ذلك رسالة استطرد فيها شرح دعاء الاستخارة شرحاً وجيزاً مفيداً، نفعنا الله وإياه بذلك.

ذكر التعريف بشيخه الذي هو قدوته وإمامه ومُرَقيه في مدارج العرفان

وهو شيخنا الإمام قدوة الأكابر الأعلام، شيخ العارفين، وسائس قلوب الراحلين والخائفين، ذو التصرف التام في العلمين، ومرشد السالكين، وإمام الحرمين، غوث زمانه، وقطب أوانه، الشيخ السيد صفي الدين أحمد بن محمد بن يونس المُلَقَّب بعبد النبي بن القطب أحمد بن علي المقدسي الدجاني بتخفيف الجيم، المدني، قدس الله سره ورحمنا به، والمحبين آمين. كان رضي الله عنه إماماً في العلوم الظاهرة والباطنة، رأساً في علوم الحقائق، صدراً في صدور أهل هذه المائة، قد أقر له بالتقدم علماء زمانه وكبراء أوانه، وشَهِد له بالقطبانية العظمى والصديقية

الكبرى أهل البصائر الصافية، فصاروا من أعوانه. أخبرني شيخنا الملا إبـراهيم أن الشيخ الكامل المكمل سيدي أبا الصبر أيوب بن أحمد بن أيوب الصالحي العدوي الشامي الدمشقي[1] رضي الله عنه كتب إلى شيخنا القشاشي كتابا قال فيه بعـد الافتتاح: أما بعد، لأن لكل وقت صمدا يصمد إليه في الأمور، وأنت صـمد ذا الوقت، ثم ساق الكلام على هذا النمط إلى آخر الكتاب. قال الملا: فلما قـرأه الشيخ أمرني بكتب الجواب كما هو عادته في آخر أمره. فقلت: يا سيدي إن مثل هذا لا أقدر على أن أجيب عليه، إنما يجيب عليه أنت، ولكن إذا كتب سـيدنا الجواب فليطالعنا عليه، وإنما امتنعت عن الجواب لأن المرء لا يخبر أحداً عن حاله إلا نفسه، وهذا عارف يكاتب عارفاً ويصفه بالصمدانية الـتي هـي القطبانيـة العظمى، فمن أين لمثلي أن يجيب عن ذلك بنفي أو إثبات. قال: فلمـا كتـب الجواب وأطلعني عليه وجدته قد افتتحه بقوله: الحمد لله على ذلك، كذلك، فقلت في نفسي: هذه البغية فلا أعظم من شهادة هذا العارف له بالقطبانية، وتصديقه له في ذلك بحمد الله على ذلك، والإقرار أنه كذلك، والشيخ أيوب هذا كان إماماً في المعارف والعلوم الإلهية، تصدر للعلم وتربية المريدين في دمشق ونواحيها، وأتـاه الناس للسلوك على يديه من أقطار الأرض، وله تأليف في علوم القوم كثيرة النفع غزيرة العلم. أخبرني بعض الأصحاب أنه ألّف كتاباً عظيماً على نمط الفتوحـات المكية فرأى الشيخ محي الدين في النوم وكأنه قد غار منه، فقال له: يا أيوب أتريد أن تخمل ذكر كتابي بظهور كتابك؟. فلما أصبح ذهب به إلى الماء وغسله كلـه تأدبا مع الشيخ محي الدين. وهذا لعمري غاية الأدب مع العارفين، ولا يعـرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل، فشهادة مثل هذا الشيخ على جلالة قـدره وتمكنه في العلوم والمعارف مقبولة لا يقدح فيها إلا أعمى البصيرة، وكـم مـن عارف وسالك شهد بما شهد به هذا الشيخ، وشهادة الكون بأسره أقوى شهادة إذا ألقت إليه كبراء العارفين أزمتهم في زمنه، ووردت عليه الأسئلة من جميع أقطار الأرض بالاستفتاء في العلوم الظاهرة والباطنة، فيجيب الكل بما لا ينازعه فيـه إلا مكابر ممن أعلم أهل الهند بما أعلم به أهل المغرب من علمه وفضله حتى انقـادوا للاقتداء به إلا من أهله، لذلك وأظهره علما لعباده ينتفعون بالأخذ من علومـه

---

(1) الشيخ أيوب بن أحمد بن أيوب الحنفي الخلوتي، متصوف من الطريقة الخلوتية، ولد ونشأ بدمشق، صنف عددا من الرسائل والكتب في التصوف، توفي سنة 1071 هـ: خلاصة الأثر 1:422. الأعلام 2:37.

ويسترشدون باقتفاء آثاره، ومن رأى تآليفه ورسائله في أنواع العلوم، خصوصا علوم الحقائق، لا يمتري في أنه قطب زمانه لأن الأوصاف التي ذكر أهل الطريق للقطب، والعلوم التي ذكروا أنه مختص بها كلها موجودة في الشيخ رضي الله عنه، وهذه كتبه فلينسج أحد على منواله فيها ممن لم يهتد بطريقه و لم يستفد من تحقيقه. أصله رضي الله عنه من القدس الشريف، وبه كان جده الأعلى الشيخ العارف قطب زمانه أحمد بن علي المقدسي رضي الله عنه، وله أتباع كثيرون هناك وأولاد وزاوية، فلما نشأ ولده يونس المسمى بعبد النبي وذاق شيئا من المعارف ساح في الأرض وترك بلاده وانسلخ من الجاه الذي ورثه من والده وبقي إخوته وسائر متعلقات أبيه بالقدس، وذهب هو إلى الحجاز وساح فيه وفي اليمن، ثم استقر آخراً بالمدينة، وسبب تلقيبه بعبد النبي أنه كان يجمع الفقراء ويأتي بهم إلى المسجد ويدفع لهم الأجرة ليصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم يومهم، فسمي لذلك عبد النبي، وكان يبيع بالمدينة القشاشة، وهي سقط المتاع من الأشياء التي تسترخص من أي نوع من نعال أو خرق ومحابر وإبر وغير ذلك مما يحتاج إليه الفقراء، فسمي لأجل ذلك القُشاشي، بضم القاف وتخفيف الشين، أخبرني الملا أنه قدم رجل من اليمن يقال له القَشاشي، بفتح القاف والشين المُشَدَّدة، فجاء إلى الشيخ وقال: يا سيدي أنت منا، يعني في النسبة. فقال الشيخ: لا، نحن قشاشتنا سماوية، وأنتم قشاشتكم أرضية، يشير رضي الله عنه إلى الرفع والخفة في الأولى، وإلى النصب والثقل في الأخرى، ويشير أيضاً إلى أن نسبتنا اكتسبناها من الفرار إلى الله والتعلق به وهضم النفس، ونسبتكم اكتسبتموها من الأسباب الدنيوية والاستكثار منها لأن القشاش في عرف التاجر الذي يبيع أصنافا كثيرة من التجارة المطلوبة لكل أحد، بخلاف القشاشة المتقدمة لا يشتريها إلا الفقراء ولا يشتغل ببيعها، سيما إن كان ذلك عن اختيار لا عن ضرورة، إلا من ذلت نفسه لله وقصد بذلك نفع الفقراء كهذا الشيخ، و لم يزل الشيخ يونس بأرض الحجاز خامل الذكر لا يشعر أحد من أهله بمكانه، سيما مع تغير النسبة وحدوث اللقب إلى أن تُوفي وبقي ولده والد الشيخ سالكاً على طريق والده من الاشتغال بما يعنيه، وبسلوك طريق أهل العلم بالله، وثم نشأ ولده شيخنا صفي الدين على قدم أسلافه من الزهد والعبادة وطلب العلم في صغره، فحصل منه ما كفاه وسلك في طريق القوم على يد والده وغيره من المشايخ وجال في بلاد الحجاز، ودخل اليمن مرارا ولقي أكابر العارفين بها، وكانت إذ ذاك وكراً للصالحين بها جماعة كثيرة من أهل

المعرفة وأصحاب الأحوال من آل باعلوي ومن العيدروسية ومن الجبرتية وغيرهم من أرباب الطوائف، فانتفع بلقائهم وتأدَّب بآدابهم، وحصل النفع الكثير والخير الكبير بزيارتهم وخالص دعواتهم رضي الله عنه وعنهم وعنا بهم أجمعين، وكانت طريق أسلافه، رضي الله عنهم، في السلوك قادرية، ومذهبهم في الفروع مالكية، فنشأ الشيخ، رضي الله عنه، على ذلك سالكاً على طريقتهم متمذهباً بمذهبهم المالكي إلى أن اتصل بالشيخ الشناوي كما سيأتي، وسلك على يديه، اقتضت محبته له وشدة اتّباعه له واقتداؤه به في سائر تقلباته كما هو شان المريد الصادق مع شيخه الحاذق إن تمذهب بمذهب الشيخ في الفروع أيضاً، وكان الشيخ الشناوي شافعيا، وكان الشيخ القشاشي، رضي الله عنه، يقول: تشفعت بالشيخ، وهو كلام بليغ موجه كما ترى إذ يحتمل التشفع به إلى الله تعالى لأن الشيخ للمريد شفيعه أو تصيره شافعياً بسببه، وكلاهما حاصل، وكان الشيخ أولاً قد قرأ في المذهب المالكي عدة مؤلفات، فلما انتقل إلى مذهب الشافعي وقرأ كتب[1] أصحابه صار يُفتي في المذهبين، وقد أخبرني الملا عنه أنه قال: قرأت المقدمة العشماوية في مذهب مالك على النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام كلها، ورأيت بخط صاحبنا وحبيبنا حسن بن علي العجيمي في رسالة له، وهو من أجل تلامذة شيخنا الصفي أن الشيخ أخبره أنه قرأ على النبي صلى الله عليه وسلم في النوم القرآن كله من أوله إلى آخره، وهذه منقبة عظيمة لهذا الإمام فإن المشايخ قديما وحديثا كانوا يتباهون بقراءة آية أو سورة أو بعضها على النبي، صلى الله عليه وسلم، في النوم، وينقلون ذلك مسلسلاً بأسانيدهم، ويرون ذلك من أجل المفاخر وإن كثرت فيه الوسائط، فكيف بمن قرأ القرآن كله عليه صلى الله عليه وسلم، ولا يذهبن بك الوهم الكاسد والتخيُّل الفاسد إلى أن الشيخ، رضي الله عنه، انتقل عن مذهبه ومذاهب أسلافه الذي هو مذهب مالك إلى مذهب الشافعي لهوى نفس أو تحصيل رئاسة أو ولاية منصب، كما هو شأن كثير من أرباب النفوس في هذه الأزمنة، خصوصا مذهب الحنفية فقد كثر المتنقلون إليه في هذه الأزمنة لأغراض فاسدة، حداهم[2] على ذلك وجود الملك والرئاسة في أهل ذلك المذهب، وهذا شأن من لا خلاق له ولا دين، وإنما الحامل للشيخ على التمذهب بمذهب الشافعية ما ذكرنا أولا من اقتدائه بالشيخ الشناوي وسلوكه

---

(1) في ط: كتاب.
(2) في ط: هداهم.

على يديه في الحقائق، وكان ذلك في زمان تعطشه إلى موارد الحقيقة، وفي عنفوان إقباله على السلوك بكليته، فوجد الشيخ الشناوي رضي الله عنه منهلاً بارداً وماء معيناً وزلالاً صافياً لا يظمأ من شرب منه أبدا، ولا يروى منه من تابع السقي مجرداً، فاستولت بذلك عليه روحانية الشيخ وغاب كله في كله، فلم يبق له حينئذ مذهب ولا رأي إلا مذهبه ورأيه في مصادره وموارده حتى في العادات، فضلاً عن العبادات بحيث لو أن الشيخ انحرف طبعه ومزاجه عن أكل طعام ما أو فاكهة ما لما وجد المريد في حال اتحاده بالشيخ مساغا لذلك وغص بريقه عند تناوله، وفي هذه الحال وتمكنها من المريد يتهيأ سريان جميع ما أودع الله من المعارف في قلب الشيخ إلى قلب المريد بسهولة من غير تكلف ولا تعمل، ويتخلّق جنين المعرفة في قلب المريد، ويتكون ولا يزال، مع شدة الاتصال، ينمو إلى أن يصير بشراً سوياً، فيكمل خلقه وولادته وفطامه في الأمر الذي قدر الله، فإذا بلغ أشده فحينئذ يتمكن انفصاله عن الشيخ وتمايزه عنه كانفصال الوالد الحسي عن والده، مع أن أصله منه ومبدأ نشأته منه، ولولا شدة الاتصال الكائن بين الأبوين في مبدإ نشأة الولد وتمازج مائهما في حال لا يمكن في الحس أن يقع أكثر منها اتصالا لما تكون الولد وتخلق من النطفة، فلو وقع أدنى انفصال بين النطفتين يتمكن معه من دخول ريح بينهما لفسدت النطفة واستحالت إلى شيء آخر، فكذلك الولادة المعنوية ما لم تمازج الأسرار الأسرار، والقلوب القلوب، وتتحد الأوصاف بالأوصاف، وتغيب الأرواح في الأرواح حتى لا يبقى تمايز إلا في الأشباح، ولا يتخلق جنين المعرفة في باطن المريد، فإن فارقه بعد تخلقه أيضا قبل تمام الولادة وإكمال التربية قلما يكون منه شيء، إلا أن هذه الولادة المعنوية قد تكون على نعت توالد أهل الجنة كما ورد في الحديث أن الرجل ليشتهي الولد في الجنة فيكون حمله وولادته ومبلغه مبلغ الرجال في ساعة واحدة[1]، فكذلك أيضا هذه الولادة المعنوية عند قوة الاستعداد من الجانبين قد يحصل ذلك في آن واحد، وبقدر ضعفه يطول الأمر، ولهذا أشار بعض العارفين بقوله إن العقبات السبع التي ذكرها صاحب المنهاج من

---

(1) نص الحديث النبوي الشريف كما ورد في سنن ابن ماجة: حدثنا محمد بن بشّار، ثنا معاذ بن هشام، ثنا أبي عن عامر الأحول، عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثم المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة، كان حمله ووضعه في ساعة واحدة كما يشتهى: سنن ابن ماجة 1452:2 .

الناس من قطعها في ساعة واحدة ومن الناس من قطعها في سبعين يوما، وقد انجر الكلام إلى تقرير هذه المسألة في هذا المحل من غير قصد ساق إلى ذلك.

ذكر حال الشيخ مع شيخه الشناوي وإيضاح عذره في الانتقال إلى مذهبه

فإن الإنسان إذا صار إلى هذه الحال لا يمكنه أن يكون له مذهب ولشيخه مذهب في الشريعة والحقيقة معا ظاهراً وباطناً، فإن قلت إن هذا يقتضي أن كل من اقتدى بشيخ في المعارف والحقائق لزمه أن ينتقل إلى مذهبه في الفروع، وإلا لم يفتح له مع أن الواقع خلاف ذلك، فقد اقتدى علماء أكابر محققون من المالكية بأئمة شافعية وبالعكس، وحصل لهم النفع التام مع بقاء كل واحد على مذهبه في الفروع، فنقول: لم نذكر ذلك إيذانا بأنه ضربة لازب بحيث لا يصح الاقتداء إلا مع ذلك، وإنما ذكرناه إظهارا لعذر من انتقل، وإيضاحا لبيان سببه، وأنه لم يكن عن هوى نفس وإنما هو لأرجحية ذلك المذهب عنده بما استولى عليه من محبة شيخه وامتزاج روحانيته بروحانيته حتى صار الراجح عند الشيخ راجحا عند المريد، والإنسان لا يجوز له أن يقلد من المذاهب إلا ما اعتقد راجحيته لا مرجوحيته كما هو مقرر عند الأصوليين، وأسباب الترجيح كثيرة فقد يكون هذا أحدها، بيد أن المريد إن قويت عارضته في علوم الديانة وسبقت من الله هدايته وتشعشعت نورانيته بحيث (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار)[1]، فأقل اتصال بالشيخ يكفيه في توقد مصباح قلبه كما ذكرنا، فمن قطع العقبات في ساعة واحدة فإذا نور الله بصيرته وأتحف بمفاتيح الهداية سريرته، أدرك بعين قلبه وإنسان عين بصيرته توافق المذاهب في الأصل، أنه لا اختلاف بينهما في نفس الأمر وإن كان يظنه ضعيف البصر فلقصوره فلا يضره مخالفة شيخه في المذهب، إذ لا يراه خلافاً كما هو في نفس الأمر ليس بخلاف، ولو كان في نفس الأمر خلافاً لضره ولو اعتقد هو عدم المخالفة[2]، فإن الموافقة في الديانة والعقيدة شرط في الاتصال الحقيقي، وما ليس بخلاف حقيقي فلا تضر المخالفة فيه، بل هو كالمخالفة في الخلق

(1) النور: 35.
(2) في ط: المخالف.

والألوان لا عبرة به إذ اللطيفة التي كان الإنسان بها إنسانا متحدة وإن تغايرت الأجسام. نعم، إذا كان المريد من المترسمة الذين غلب على قلوبهم حب التعصب بحيث يعتقد خطأ أهل مذهب شيخه في أشياء يفعلها، ويرى أن شيخه لم يصادف في فعلها، وأنّه أخطأ فيها الصواب، فهذا تضره مخالفة شيخه في المذهب لأن اعتقاد المخالفة يضر ولو لم تكن مخالفة في نفس الأمر، كما أن اعتقاد الموافقة لا ينفع إذا لم تكن موافقة في نفس الأمر، فمتى ينتفع المريد بشيخ يعتقد خطأه وعدم إصابته في فروع من الديانة، وإذا شاهد بنور العلم أو بصفاء البصيرة اتفاق المذاهب في أصلها وأنها دين واحد من رب واحد على لسان رسول واحد لإنسان واحد، لأنّ الإنسان واحد من حيث التكليف إذ لم يكلف الإنسان بما لم يكلف به إنسان آخر، والخلاف بين أهل المذاهب إنما هو في الصورة، فلا يرى بينه وبين شيخه اختلافاً، ولو اختلفت المذاهب، بل يرى بينهما كل الموافقة، فهذا لا يلزمه الانتقال، ولذلك لا يأمر الشيخ المريد بالانتقال إلى مذهبه، لأنّ[1] المذاهب شيء واحد، وقد أُلّف في اتفاق المذاهب علماء من أهل الظاهر والباطن، وأجل التآليف في ذلك جمع بين كلام أهل الظاهر وأهل الباطن كتاب الميزان[2] لسيدي عبد الوهاب الشعراني، رضي الله عنه، فقد بيّن أولاً اتفاق المذاهب من حيث الحقيقة وذكر ما بنيت عليه مقاصد الشريعة، وذكر ما كشف له من أحوال أهل المذاهب من طريق الكشف، ثم تتبّع الفروع التي وقع فيها الخلاف بين أرباب أهل المذاهب يترلها على تلك المقاصد، حتى اتضح أن المذاهب كلها جارية على نهج واحد، وسأضرب لك مثلاً واضحاً لذلك لم أرَ من ذكره، ويتضح لك به اتفاق المذاهب كل الوضوح، وذلك مثل قوم نبتت لهم عين ماء زلال من صخرة في جبل، فاجتمعوا للمورد[3] منها، فكان كل واحد يتناول منها على قدر حاجته من غير واسطة، وذلك مثل الهدى الذي جاء به النبي، صلى الله عليه وسلم، ومثل الصحابة الذين تلقوه منه بلا واسطة، ثم تكاثر الناس عندما[4] سمعوا بذلك العين ولم يقدروا على أن يتناولوا كلهم من العين بلا واسطة، فاتخذت لماء العين بركة عظيمة يجتمع فيها الماء، فيتناول الناس من جوانب تلك البركة، ولا يصلون إلى

(1) في ط: لكن.
(2) أنظر: الميزان 1:93.
(3) في ط: الورود.
(4) في ط: بعدما.

العين، وذلك مثل ما اجتمع بين دلائل الكتاب والسنة في زمان التابعين وتابعيهم حتى دونت السنة وجمعت من حملتها المتفرقين في البلاد من الصحابة وتابعيهم، فصار الناس يأخذون الأحكام من الكتاب والسنة، فمن صح عنده حديث عمل به، ومن فهم آية من كتاب الله تعالى اقتدى بها، ثم تكاثر الناس تكاثراً أكثر من ذلك الأول، وفيهم أعجمي وعربي، وذكي وبليد، وصغير وكبير، وحر وعبد، فوقع الازدحام العظيم على البِركة المذكورة، وليس كل الناس يقدر على التناول منها ولا جميعهم يحسن السباحة فيها لعمقها وعظمها وسعة جوانبها، فصار بعض الناس ممن لا يحسن التناول منها ولا يقدر على العوم فيها يقع في وسطها فيهلك، وبعضهم يقف على جانبها حتى يموت عطشاً ولا يصل إليه إلا بلالة أيدي المتناولين، فلما رأى أهلها ذلك اتخذوا لماء البركة المستمد من ماء العين مسارب من تحت الأرض، وخدّوا له الأخاديد، ودرجوه بلطيف صنعهم وحسن احتيالهم حتى أروه على وجه الأرض وجعلوه أنهاراً عظيمة من عن يمين البركة ويسارها ذاهبة في عامر الأرض وغامرها طولاً وعرضاً، وقسموا تلك الأنهار جداول صغيرة كثيرة تستمد من الأنهار المستمدة من البركة المستمدة من العين، فعظم النفع بذلك لكل أحد من قوي وضعيف، فصار كل واحد يتناول حاجته على حسب قوته، فإن كان المحتاج إلى تناول الماء واستعماله ضعيف جداً تناول من الجدول الصغير الجاري على وجه الأرض فيغترف بيديه أو يكرع بفيه، وذلك مثل العامي الذي لم يفقه شيئاً من العلم فيتناول من العالم العارف بمذهبه المقلد لإمامه، وهو مثل الجدول المستمد من النهر العظيم الذي هو مثل الإمام المجتهد المستمد من البركة العظيمة التي هي مثل دلائل الكتاب والسنة المستمدة من العين الحرارة الغزيرة العذبة الباردة الصافية التي هي مثل النبوءة التي أوتيها سيدنا ومولانا محمد، صلى الله عليه وسلم، وإن كان هذا المحتاج لتناول الماء واستعماله له فضل قوة وعنده آلة يقدر بها على التناول من النهر تناول منه من غير احتياج إلى الجدول، وذلك مثل من له فقه في الدين وقدرة على فهم كلام الأئمة المجتهدين؛ كالعلماء المقلدين لأئمتهم من أهل كل مذهب العارفين بنصوص أهل مذهبهم المتفقهين فيها، فيأخذون الأحكام من نصوص الأئمة المجتهدين وأقوالهم من غير احتياج إلى تقليد مقلد آخر لقدرة أخذهم على فهم كلام الإمام المجتهد الذي قلده هو وغيره، وإن كان هذا المحتاج لتناول الماء قد تمهر وتدرب ولطف ذكاؤه وحسن استعداده وقويت عارضته، وجمع من كل الآلات التي يحتاج إليها الغواصون في البحار

العظيمة لاستخراج الدرر النفيسة حتى حصلت لهم ملكة تامة وقدرة نافذة على أن يتناول من أصل البركة من غير احتياج إلى جدول ولا نهر، فهذا يسوغ له الأخذ من ماء البركة قبل انقسامه إلى أنهار وإلى جداول، وهذا مثل المجتهد الذي كملت فيه أوصاف الاجتهاد التي ذكرها الأصوليون وذكروا أنه لا يجوز له أن يقلد غيره بل يأخذ أحكام دينه من دلائل الكتاب والسنة على حسب ما أداه إليه اجتهاده وافق ذلك قول مجتهد آخر أو خالف، وليس بعد هذه الرتبة رتبة على نزاع في بقاء أحد من أهلها في هذه الأعصار إذ لا يجترئ أحد أن يقول اليوم أخذت الأحكام من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكرعت من أصل العين من غير احتياج إلى الماء المجتمع في البركة العظيمة التي هي مثل الكتاب والسنة، ومن قال ذلك وهو سالم العقل والإدراك ضربنا معشر المسلمين الذي فيه عيناه[1]، وإن كان في عقله خلل صفعنا قفاه بالإعراض عنه وتركناه. نعم قال عارف محقق ذو كشف صحيح وذوق صريح: أنا قد منّ الله علي بمشاهدة نبع الماء من أصل العين وشاهدت دخول جريته الصافية في البركة فاستقيت منه على بصيرة أنه ماء العين لم يخالطه غيره من ماء مطر أو غيره ولا دنسته الأيدي، فيسلم له حاله إذ لم يأت بما يخالف كتابا ولا سنة، وإنما ادعى أنه أخذهما من أصلهما بلا واسطة، وذلك مثل ما قال الشيخ محي الدين، رضي الله عنه، أنه صحح أحاديث كثيرة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، من طريق الكشف وإن لم تصح عند أهل الصناعة الحديثية، ومثل من يقول من العارفين إنه سمع القرآن أو آيات منه من النبي صلى الله عليه وسلم، فيسلم له ذلك، ولو ادعى مع أنه سمع منه قرآنا غير هذا أو حديثاً مخالفاً لما ثبت بوجه صحيح أو ضعيف لضرب بذلك وجه صاحبه وعد من مثالبه لا من مناقبه، فقد استبان لك مما قررنا في مثل هذا المثال وقربنا من المنال أنه لا اختلاف بين أرباب المذاهب في الحقيقة وأنه ماء واحد من بركة واحدة من عين واحدة وإن اختلفت مجاريه، وكثرت جداوله وأنهاره، وتغيرت بعض أوصافه لاختلاف محاله، فإن الماء عند المحققين لا لون له، وإنما لونه لون إنائه ولون حصباء نهره، وطعمه ورائحته لا يختلفان باختلاف الأواني، إلا أن يكون في أرضه عفونة أو حمأة، أو في إنائه دسومة ودهنية، فيغتفر من ذلك الشيء القليل لأن الماء لا ينجسه إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه، وذلك مثل ما يقع في آراء بعض المجتهدين مخالفة

---

(1) يقصد رأسه.

بعض ظواهر الكتاب والسنة مما يظن به ضعف نظر المجتهد في تلك المسألة، وذلك في بعض الصور النادرة، فلا يضر ذلك وله أجر واحد، ولا يخرجه ذلك عن كون قوله دينا بخلاف ما خالف صريح الكتاب والسنة، أو خرق إجماع الأمة، فهذا مثل التغير[1] الفاحش المخرج عن خلقية الماء، فيلغى ولا يعتبر ولا يعد ديناً فليتأمل.

والأقسام التي ذكرنا في المثال من مجتهد ومُقَلِّد وعامي يمكن أن يزاد فيها وتقسم إلى أكثر من ذلك بحسب المجتهد في المذهب والمقلد الذي له قدرة على الترجيح وغير ذلك من أقسام المقلدين إلى أن يصل إلى العامي الصرف الذي لا يفهم إلا ما شوفِه به مع المبالغة في التبيين، فيفهم المثال لأجل ذلك بعد الجدال إلى مذاهب صغيرة ثم إلى القرب والأدوات، إلى أن يصل إلى صاحب الآنية التي ليس فيها إلا قدر ما يشربه، ولكن اقتصرنا على الأقسام الثلاثة إيثاراً للاختصار، وقد أطلنا الكلام في هذه المسألة ولا بأس بذلك لأنها من غرر المسائل، وقد ساق إليها ذكر انتقال الشيخ القشاشي إلى مذهب شيخه الشيخ الشناوي، رضي الله عنهما، وكان السبب في اتصال الشيخ القشاشي بالشيخ الشناوي على ما أخبرنا به الملا إبراهيم عن حكاية الشيخ له أنه بمكة في بعض سياحاته بعدما لقي مشايخ كثيرة بمكة واليمن والمدينة فرأى في المنام وهو بمكة الشيخ الشناوي كأنه واقف وذكرُه يسيل منياً قد تلطخت به رجلاه وثيابه، فلما استيقظ من النوم قال: علمت من الرؤيا أن الشيخ الشناوي وصل إلى مقام تربية المريدين وأنه ذكر مستعد للولادة ولكنه لم يجد مريداً يتلقى منه علومه، فذهبت ضائعة كما أن الفحل الذكر إذا لم يجد أنثى تقبل الولادة ذهب منيّه ضائعاً، فانظر رحمك الله إلى لطف هذا التعبير وخفاء مدركه الذي لا يشك عاقل في صدقه بعد وضوح معناه، فلو أنّ أحداً من ضعفاء العقول أمثالنا الذي رأى هذه الرؤيا لعدها من أضغاث الأحلام، أو أوّلها على حمق المرأى وسفهه، (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده)[2].

قال الشيخ رضي الله عنه: فلما أصبحت وظهر لي تأويل الرؤيا عزمت على السفر إلى المدينة المشرفة، وكان الشيخ الشناوي إذ ذاك ساكنا بالمدينة، قال: فلما دخلت المدينة كان أول من لقيت الشيخ الشناوي فصافحني وأخذ بيدي وقال: مرحبا بمن جاء يقتبس من علومنا، أو كلاماً هذا معناه، فذهب إلى محل زاويته

---

(1) في ط: الغير.
(2) إبراهيم: 14.

وكاشفني بجميع أحوالي وتيقنت صدق رؤياي، فلزمته من ذلك الوقت و لم أفارقه إلى أن مات. و لم تزل حال الشيخ القشاشي تترقى عند الشيخ الشناوي حتى صار عنده أخص أصحابه وزوجه ابنته، وصار هو الخليفة من بعده، كما وقع لشيخنا الملا إبراهم مع الشيخ القشاشي إذ زوجه ابنته وصار خليفتــه. وكـــان الـــشيخ القشاشي مع لقائه لمشايخ كثيرين لا ينتسب آخرا إلا إلى الشيخ الـــشناوي لأن كماله على يده وهو الذي رقاه إلى منصة العرفان وبلغه مبلغ الرجال وأفاض عليه المعارف الإلهية فيضا، وكان رضي الله عنه إماما في العلمين: علم الشريعة والخليقة. له تآليف كثيرة في المعارف والحقائق، منها: ضمائر السرائر، وحاشية على كتاب الجواهر، وهو كتاب نفيس جليل القدر عظيم النفع، وله رسائل كثيرة في علـــوم الحقائق، واسمه الشيخ أبو المواهب أحمد بن علي بن عبد القدوس القرشي العباسي الشناوي ثم المدني، وكان يلقب بالحرمي[1] رضي الله عنه، لقي كثيرا من المشايخ وأخذ عن علماء عصره كالشمس الرملي، والشهاب بن قاسم العبادي[2] وغيرهما من علماء القاهرة وغيرها، واستقر آخرا بالمدينة عند شيخه ومربيه ومن إليه انقطع بالنسبة واشتهر بالتتلمذ له، وهو السيد صبغة الله بن روح الله الحسيني البروجي ثم المدني، والسيد صبغة الله أخذ الطريق عن شيخه العلامة سيدي وجيه الدين العلوي الأحمد أبادي، وهو عن شيخه شيخ السلسلة الغوثية سيدي السيد محمد بن خطير الدين الحسيني المعروف بالغوث، وكان من بلدة كواليار[3] بأقصى الهند من وراء دهلي وباقي السند مذكور في الجواهر[4] وغيرها، وكانت، وفاة الـــشيخ محمـــد الغوث خامس رمضان سنة تسع وخمسين، أو سنة ستين، وتـــسعمائة، ومولـــده سابع رجب يوم الجمعة وقت الظهر سنة خمس وتسعمائة، ووفاة تلميذه الـــشيخ وجيه الدين العلوي سنة تسع وتسعين وتسعمائة أو قبلها بسنة على ما ذكر الملا نظام الدين السندي، ووفاة تلميذه السيد صبغة الله ضحى نهار الـــسبت الـــسابع والعشرين من جمادى الأولى سنة خمس عشرة وألف بالمدينة المنورة، ودفن خلف

(1) في ط: الخامي.
(2) شهاب الدين أحمد بن قاسم العبادي القاهري الشافعي، الإمام العلامة الفهامة، من مصنفاته الحاشية على شرح جمع الجوامع المسماة بالآيات البينات، وحاشية على شرح الورقات، وحاشية على المختصر في المعاني والبيان، وحاشية على شرح المنهج، توفي بالمدينة المنورة عائدا من الحج سنة 994 هـ: شذرات الذهب 4: 434. الأعلام 1: 198.
(3) في ط: كبناليار.
(4) الجواهر، ص: 5 – 6.

قبة سيدنا إبراهيم بن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ووفاة تلميذه الشيخ أبي المواهب الشناوي خامس ذي الحجة سنة ثمانية وعشرين وألف[1]، ودفن بالبقيع قرب شيخه، وولادته ثامن شوال سنة خمس وسبعين وتسعمائة، ووفاة تلميذه شيخنا غوث الأنام سيدي أبي الفضل صفي الدين أحمد بن محمد القشاشي المقدسي المدني تاسع عشر ذي الحجة سنة واحد[2] وسبعين وألف، روح الله أرواحهم وقدس أسرارهم، ورضي عنهم آمين.

كتبت هذه الوفيات من خط شيخنا الملا إبراهيم رضي الله عنه إلا أنه كان عبر عن الوفاة بالعرس فيقول: عرس فلان وعرس فلان، وسألته عن ذلك فقال: إن هذا اصطلاح بعض مشايخ الهند وقد صدقوا، فإن يوم اجتماع العارف بربه وخروجه من سجن الطينة الدنيوية إلى فضاء الأرواح القدسية خير أيامه وأسعدها وألذّها إليه فتسميته عرساً أنسب.

ولنرجع إلى ما كنا فيه من ذكر بعض أحوال شيخنا القشاشي فقد علمت مما تقدم من الوفيات أنه لم يمكث أحد من مشايخ سلسلة الغوث في الخلافة القدسية والوراثة المحمدية أكثر منه، فقد نيف على أربعين بعد موت شيخه الشناوي، وقد علم أن شيخه الشناوي لم يخلف أحداً من أصحابه يساوي الشيخ القشاشي في مقامه ولا يحاكيه في مرامه، فهو من لدن وفاة الشيخ إمام عارف معرف سالك مسلك، يربي المريدين، ويرشد المرادين، ويترقى في مقامات اليقين، ويؤم أولياء الله المتقين إلى أن حاز الصديقية العظمى والقطبانية التي هي المقام الأسمى، والله أعلم كم مكث فيها، وكانت منة الله العظمى علي بالاجتماع به والأخذ عنه سنة أربع وستين بسبب وصية لي من شيخنا الثعالبي ومن شيخنا أبي الحسن الدّيبع، وأنا من جملة أصحابه، بل الثاني من خواصهم، وأصحبني من مكة كتاباً إلى الشيخ يتضرع إليه في قبوله وإقباله علي، فلقيته في محل تدريسه من زاويته مرتين أو ثلاثا، ولقنني الذكر وأوصاني بما أرجو الانتفاع به في حياتي وبعد مماتي، وأمرني بانتساخ شرحه على الحِكَم[3]، وحضني على لزوم طريق السادات الشاذلية بعد ثنائه الكثير عليها، وكان هذا من جملة ما كنت أحتج به على شيخنا الملا

---

(1) كذا في خ وط.
(2) كذا في خ وط.
(3) الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري المتوفى سنة 709هـ.

إبراهيم مباسطا له إذا ألح علي في تقرير شيء من كلام الشيخ محي الدين، رضي الله عنه، وعدم انقيادي له في أخذ ذلك تقليدا، فأقول له: إن الشيخ، رضي الله عنه، لم يشاهد في قبول شيء من الطرق غير طريق الشاذلية، ولذلك حضني عليها وأمرني بملازمتها، ولو رأى في استعدادا لغيرها لأمرني به، فيقول لي: بل رآها هي الغالبة عليك في الوقت، فأمرك فلزومها حتى تترقى بركة لزومها إلى فهم غيرها، والله المستعان.

أخبرني شيخنا الملا أن الشيخ الصفي، رضي الله عنه، رأى الشيخ محي الدين في منامه وألبسه وزوجه أخته. قلت: ولعل هذه الرؤيا هي التي تقدمت عن شيخنا الملا أن الشيخ محي الدين ناول فيها شيخنا الصفي كتاب الفصوص له، وقد قلت يوما لشيخنا الملا عقب ذكره لرؤيا الشيخ هذه: أتدري ما تعبير رؤيا الشيخ هذه؟. قال: لا، إلا أنها رؤيا حسنة تدل على وصلة بين الشيخ الصفي وبين الشيخ محي الدين في عالم الأرواح.

قلت: لكني أفهم منها أكثر من هذا إن أذنت لي. قلت. قال: لا بأس قل ما ظهر لك في لباسها. قلت: أما إلباسه إياه فهو إشارة إلى قيامه مقامه وظهوره بحاله في شرح الحقائق العرفانية، فإنا لم نَرَ ولم نسمع في وقتنا هذا بعارف له لسان الشيخ محي الدين في الحقائق كأنه ينطق بلسانه، إلا شيخنا هذا فهو محيي طريقه ومبين إشكالاتها ومبرز خباياها كما لا يخفى على كل ذي ذوق سليم. وأما تزويجه إياه أخته فهو إشارة إلى ما منحه الشيخ من التكلم في مسألة وحدة الصفات وتأليفه فيها وشرحه لها واستدلاله عليها بما لم يتهيأ مثله لأحد قبله، فقد كانت هذه المسألة إنما توجد في كلام العارفين المتقدمين إشارة ورمزاً وأدراجا في كلام آخر ولم يفرد لها أحد بالكلام ولا بين غورها وصَيَّرها عُرضة للقبول والرد إلا شيخنا الصفي فله بها مزيد اختصاص، وقد علم أن وحدة الصفات هي أخت وحدة الوجود التي لم يأت أحد من المتقدمين والمتأخرين فيها بما أتى به الشيخ محي الدين حتى صار إمام كل قائل بها ومتبوع كل مصدق بها، فأكثر فيها التأليف، وشرح وأوضح ورمز وأشار واستدل ودل، وضرب الأمثال وأزاح الإشكال، فكل متكلم فيها إلى آخر الدهر عيال على كلامه فيها، فهو أحق بها وأهلها، وإليه تُنسب دون غيره ممن له فيها كلام حتى صار إذ قال المترسمون في أحد يريدون وصفه بالقول فيها فيقولون: فلان يقول بمذهب ابن العربي، أو ينتحل مذهب

الحاتمي في الوجود، فإذا فهمت ذلك فمعنى تزويج الشيخ محي الدين أخته من شيخنا تمكينه من التصرف في وحدة الصفات، وهي أخت وحدة الوجود التي هي علم الشيخ وأصل معارفه وأدقها وأرقها، والتمكين من الشيء والإذن في التصرف فيه على وجه سائغ شرعاً إذا كان ممن هو أهل لمن هو أهل وكفؤ هو معنى التزويج وإظهار ذلك في عالم المثال على صورة بتزويج دون الهبة والعطية والبيع، إعلاما بشدة الاتصال والإيلاف لذلك الأمر والاغتباط به، وحصول النتيجة كما هو شأن الزوجة، وإعلاما بأنه أيضا كفؤ إذ التزويج لا يكون إلا من الكفؤ بخلاف البيع والهبة، وإعلاما أيضا بكرامة هذه المسألة وأنها ليست مما يباع ويوهب لحريتها وكرامتها على أهلها إلى غير ذلك من الأسرار التي يدركها كل ذي ذوق سليم (وفوق كل ذي علم عليم)[1].

وكان الشيخ الصفي له بصر تام في فهم كلام الشيخ محي الدين وغيره من أهل الحقائق، ومع ذلك فكان يعطي كل مقام حقه ويوفي كل علم قسطه ويبين مرتبته من الدين، فلم يغلب علم من العلوم غلبة يترك لها غيره ويزهد فيها، وكان له بصر تام بعلم الأسماء والحروف وأسرارها وبعلم (الأذواق)[2] والدوائر والأوفاق وطبائع الأشياء، كل ذلك له فيه التصرف التام، وبعين[3] الدعوات وأسرارها، كل ذلك يتصرف فيه تصرف ماهر بحيث لا يتقيد بما يذكره أهل الفن من الشروط والقيود لذلك، بل يزيد تارة وينقص أخرى، ويعتبر ما لم يعتبروا ويلغي ما اعتبروا، وكان كتاب الجواهر الخمس الذي هو من أسرار أهل سلسلته نصب عينيه مع حاشية شيخه عليه، وله أيضا كلام كثير وتقاييد حسنة في ذلك، إلا أنها متفرقة بيد أصحابه لم تدون، ومع ذلك فكان لقوة كماله وتصرفه في المقامات لا يرى هذا العلم هو الغاية كما يراه من المتقدمين والمتأخرين من أربابه كالبوني والبسطامي[4] وغيرهما.

أخبرني الملا إبراهيم قال: كان الشيخ الصفي يقول: نحن لا ننكر على أصحاب هذه العلوم الجادين فيها الباحثين عنها المشتغلين بها كل الاشتغال من

---

(1) يوسف: 176.
(2) زيادة من ط.
(3) في ط: بعبر.
(4) أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي، سلطان العارفين، أثرت عنه كرامات وخوارق، توفي سنة 261 هـ: البداية والنهاية 11:35. سير أعلام النبلاء 13:89.

حيث أنها ليست جزء من أجزاء الكمال، إنما ننكر عليهم من حيث ادعائهم أنها عين الكمال حتى اقتصروا عليها وجعلوها هي غاية مطلوبهم فإن المطلوب الذي هو عين الكمال أمر وراء ذلك لا يتقيد صاحبه بعلم ولا عمل ولا حال ولا مقام لأن له كل علم وعمل وحال ومقام. قال لي شيخنا الملا: وكان الشيخ الصفي إذا جرى ذكر أرباب المقامات والأحوال ربما يشير إلى نفسه ويقول: نحن لا مقام لنا لأننا من أهل يثرب، وقد قال الله تعالى: (يا أهل يثرب لا مقام لكم)[1]، وما ذاك إلا أن لهم كل المقامات، فليس لهم مقام مخصوص، وكذلك النبي، صلى الله عليه وسلم، وكُمل أصحابه ليس لهم مقام مخصوص يستولي عليهم دون غيره من المقامات، بل يتصرفون في كل مقام بما يوافق مراد الحق ويعطون كل ذي حق حقه، فهم (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة)[2]، ولم يقل تعالى: لا بيع لهم ولا تجارة، بل كان لهم بيع وتجارة وضياع ومزارع، ولكنهم يتصرفون في كل ذلك تصرف من لم يغب عن شهود الله في كل ذلك، فيؤدون إلى الحق الذي منه عليهم ويتناولون منه الحق الذي لهم، كل ذلك لله بأمر الله، وهذا هو مقام العارفين الكُمل من أهل الله، ولعل جاهلا بإشارات العارفين يقول: إن حمل قوله تعالى (يا أهل يثرب) الآية، على هذا المعنى إحالة لكلام الله عن ظاهره وتحريف له عن مواضعه، وذلك لجهله بمذهب العارفين في إشاراتهم بالآيات والأحاديث فإنهم لا ينفون المعاني الظاهرة للآية، بل يثبتونها ويقرون بها، ويستخرجون ما أعطاهم الله من الفهم والنور ومعاني أُخر تشير إليها الآية إشارة خفية يقتبسها العارف منها، وهذا المقدار من الدلالة لا ينكره إلا جاهل، والشيخ، رضي الله عنه، أشار بذلك إلى أنه من العارفين الذين استولوا على سائر المقامات ولم يستول عليهم مقام، وأنه في ذلك من خلفاء كمل الصحابة الذين لهم قدم صدق في الوراثة المحمدية، وهذا المقام الذي هو كناية عن سائر المقامات إنما يكون الكمال منه لقطب الوقت، فكان الشيخ أشار بالقطبانية لنفسه ولم يفهم ذلك إلا خواص أصحابه رضي الله عنهم، وما رأيت[3] كلام أحد من عارفي[4] زماننا، بل ومن قبله، يساوي كلام الشيخ الصفي في مزج الحقائق

(1) الأحزاب: 13.
(2) النور: 37.
(3) في ط: رأينا.
(4) في ط: كان في.

بالأحاديث النبوية والآيات القرآنية حتى لا يكاد كلام له يخلو من آية أو حديث، فكأن كتب الحديث كلها جمعت له جمعاً، فهو يأخذ منها ما شاء متى ما شاء، مع زيادة عزو الحديث لراويه ومخرجه، وذلك قلما يوجد في كلام غيره من أهل الحقائق إن أتوا بحديث أطلقوه بلا نسبة إذ ليس ذلك من وظيفهم. والشيخ رضي الله عنه كما أخبر عن نفسه لا مقام له ولا وظيف مخصوص ولا اصطلاح مفرد، بل له كل المقامات والاصطلاحات والوظائف والتصرف التام في غالب علوم الشريعة، وكذلك كان رضي الله عنه في هيئته المحسوسة وأحواله الظاهرة ليس على نمط الفقهاء المدرسين أهل المناصب، ولا على نمط الزهاد المتقشفين يلبس الطيب ويأكله ولا يأتي أبواب الأمراء ولا يرغب في معرفتهم، وإن أتوا إلى بابه لا يمنعهم من الدخول عليه، وإذا دخلوا عليه لا ينهرهم ولا يعبس في وجوههم، بل يترلهم منازلهم التي أنزلهم الله فيها، ويكرم كريمهم كما أمر بذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويقدم إليهم من الطعام ما حضر، ومع ذلك فلا يخليهم من نصيحة برفق ووعظ بلين، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد من جهالة وإنقاذ من ضلالة، فلا يخرجون من عنده حتى يظهر فيهم أثر الخير والميل له والحب له، وتصغر عندهم نفوسهم لما يشاهدون من عظمة وعزة من اعتز بعزة الله وعظمته، وهذا لعمري خلق الكُمل من العارفين، ولم يكن رضي الله عنه منقبضا عن الناس متزويا عنهم، بل كان يجالسهم ويكالمهم ويتصرف فيما احتاج إليه من أموره الدنيوية ويحسن القيام بأوقاف زاويته بتولية من هو أهل وصرف غيره، والأمر بإصلاح ما يحتاج إلى إصلاحه وإيصال الحقوق إلى أربابها، وذلك كله لا يشغله عن الله طرفة عين، فلا تكاد تسمع منه كلامين متناسقين لم يتخللهما ذكر الله أو دلالة عليه أو وعظ أو دعاء أو إرشاد مسترشد، قال لي شيخنا الثعالبي: ما رأيت مثل شيخنا الصفي، ما دخلت عليه قط فأخرج إلا والدنيا بين عيني أحقر[1] من كل حقير[2] ونفسي أذل من كل ذليل، ولو تكرر دخولي عليه مرات، وهذا شأن الذين إذا رُؤُوا ذُكِر الله.

وأما مكاشفاته، رضي الله عنه، بالإخبار عَمَّا في ضمائر أصحابه وإشارته إليه في أثناء كلامه فبحر لا ساحل له، ولقد أخبرني الملا أن الشيخ كان مع تمكنه

---

(1) في ط: أصغر.
(2) في ط: صغير.

من الحقائق إذا أراد أحد من أصحابه أن يقرأ عليه شيئا من المواضع المشكلة في الفتوحات أو غيرها لا يأذن له حتى ينصرف الناس ويخلو المكان إلا من خواص أصحابه ويأمر بغلق الأبواب، وهذه صفة العارفين، فقد كان الجُنيد رضي الله عنه لا يتكلم في الحقائق إلا مع خواص أصحابه ويقول: علمنا هذا إنما هو خاص لخاص، وشاهد ذلك كله قوله صلى الله عليه وسلم: خاطبوا الناس بما يفهمون[1]، الحديث. وقول أبي هريرة رضي الله عنه: ملأت من النبي، صلى الله عليه وسلم، وعاءين، أما أحدهما فها أنا أبثه لكم، وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم[2]، وليس هذا الوعاء المذخر إلا علوم الحقائق التي هي خاصة، وقد أخطأ من زعم أنه علم الحدثان، إذ لا يكون ذلك وعاء يقابل به الوعاء الذي بثه في الناس من علوم الشريعة، لأنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، إنما ذكر لأصحابه من أمور الكائنات أشياء قليلة لعدم تعلق علم ولا عمل بذلك، بخلاف علوم الحقائق فقد كان النبي، صلى الله عليه وسلم، مع أصحابه كالشيخ مع المريدين يأمرهم بالتكاليف والأحكام العامة لسائر المؤمنين، ويخص من شاء منهم بما شاء من الحقائق والمعارف، ويأمر البعض بقيام الليل، ويترك البعض، وينهى البعض عن سرد الصوم، ويقر عليه آخر، كل ذلك منه صلى الله عليه وسلم بلطف تربية وحسن تغذية بالأعمال والمعارف، ومما ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه[3]:

[بسيط]

يا رُب جَوهرِ علم لو أبوح به　　لقيلَ لي أنت ممن يعبدُ الوثنا

ولاستَحل رجالٌ مسلمون دمي　　يرون أقبح ما يأتونه حسنًا

---

(1) ورد هذا الحديث النبوي الشريف بصيغة: حدث الناس بما يفهمون: تفسير القرطبي 2:184.

(2) ورد هذا القول في صحيح البخاري برواية: حدثنا إسماعيل قال حدثني أخي عن بن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال ثم حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين فأما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم: صحيح البخاري 1:56.

(3) لم يرد البيتان في ديوان الإمام علي.

لطيفة:

أخبرني الملا إبراهيم قال: أخبرني شيخنا الصفي عن شيخه الشناوي أنه كان ذات يوم في خلوته مستلقيا إذ رأى وزغا يمشي على الحائط، فأراد أن يضربه وغلب عليه شهود الحقيقة وأنه خلق من خلق الله موجود بإيجاده مصرف بتصريفه إلى غير ذلك مما تقتضيه الحقيقة، ثم تذكر أمر الشرع بقتله، وأنه لا ينبغي إهمال الأمر الشرعي نظراً إلى الحقيقة، فتردد في الشهودين حتى غلب عليه امتثال أمر الشرع، فأخذ حجرا فرماه به فأخطأه، ففر فضحك الشيخ وقهقه وقال: الحمد لله الذي جمع لنا بين الأمرين؛ امتثال أمر الشرع بضربه وعدم قتله المنافي بظاهره لحكمة الله في إيجاده وتصويره وإحيائه وتصريفه فيما خلق له.

قال شيخنا الصفي إثر حكايته لذلك: أما أنه لو كنت أنا ذلك لما توقفت ولشدخت[1] رأسه بالحجر من دون رمي، لأن ذلك هو عين الحكمة التي اقتضتها الحقيقة، فإن كل ما أمر الشرع بفعله فذلك هو عين الحكمة الموافقة لمراد الله في ذلك الفعل، كذبح كل حيوان أبيح أكله وقتل العدو الكافر، فلا يمنع من ذلك شهود الحقيقة لأن ذلك هو عين الحق الذي هو مقتضى الحقيقة ببيان الحق لنا على لسان الشرع صلى الله عليه وسلم، وهذا كما ترى غاية في التحقيق يدل على علو شأن هذا الشيخ وكمال شهوده حتى لا تغلب عليه حقيقة ولا شريعة، بل انطوت عنده الحقيقة في الشريعة والشريعة في الحقيقة، فصار الكل شيئا واحدا، فما من شريعة إلا وهي حقيقة، إذ هي مراد الحق، وما من حقيقة إلا وهي شريعة لإرشاد الشارع إلى مشاهدته، ومن غلب عليه وصف كان بحكمه، ومن غلب على الأوصاف كان بحكم الحق في كل وصف.

لطيفة:

أخبرني شيخنا الملا إبراهيم أنه كان في أول مرة يتعاني شهود الصلوات في الحرم الشريف اغتناما لفضل الصلاة فيه، وكانت نفسه لا تطيب أن تفوته الصلاة فيه ومنزله كان خارج المدينة، فربما أغلقت دونه الأبواب داخلا أو خارجا،

---

(1) الشدخ: التهشيم: لسان العرب: شدخ.

فتحصل له المشقة في ذلك، فقال له الشيخ يوماً: لا تكلف نفسك ما تتضرر به وصل هنا في مسجدنا، وإنا لنرجو من الله أن يحصل لك من الثواب ما يحصل لمن صلى في الحرم الشريف، فمن ذلك اليوم طابت نفسي ولا أبالي إن تعذر علي الوصول إلى الحرم. قلت: ربما سمع هذا قاصر من المتفقهين فيبادر إلى إنكاره فيقول: كيف صح له التسوية بين مسجد محله والمسجد النبوي مع أن الصلاة فيه خير من ألف صلاة فيما سواه، وهل هذا غلا تشريع فأقول: ليس في هذا ما ينكر. أما من جهة الحكم الظاهر فقد ورد أن نية المؤمن خير من عمله، وأن الله يعطي العبد على قدر نيته، وورد أن من نوى أن يعمل عملاً صالحاً فعيق عنه بعائق كتب له أجره، كما ورد أنه يكتب للمريض والمسافر أجر ما كان يعمل في الصحة والحضر، ويكتب للنائم إذا نوى القيام فغلبته عيناه أجر قيامه، فكذلك هذا السيد لما كانت نيته الصلاة في المسجد النبوي ولازم ذلك حتى عيق عنه في بعض الأوقات بما يحصل له من المشاق التي يرخص للشارع لأجلها في ترك كثير من المأمورات، فلا بُعد في قولنا أنه يحصل له أجر من صلى في المسجد لأجل نيته سيما مع امتثال أمر شيخه وعمارة مسجده والصلاة بمن فيه من الفقراء وعمارته بالذكر والقراءة والصلاة مع الشيخ وفضلاء أصحابه فإن في هذه القربات إذا خلصت فيها النية ما ينجبر به ما فات من التضعيف، فرب قربة وحسنة تفوت ألف حسنة أو تساويها لما حفت به من الأوصاف الجميلة والفوائد الكثيرة، كهذه الصلاة التي يصليها في مسجد الشيخ بحضور قلب وسكون وتؤدة مع جماعة فيهم الشيخ فتسري بركته في صلاة الحاضرين، فإن من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها، وقد ورد: من صلى مع مغفور غفر له[1] ولو ذهب إلى المسجد لم يصل إليه حتى يتعب لبعده ويتشوش فكره بالرجوع وتخييل غلق الأبواب دونه، سيما إن أبطأ الإمام شيئا ما، فبمجرد فراغه من الصلاة يقوم بسرعة من غير جلوس لذكر ودعاء، فلا يبعد أن تكون الصلاة الأولى مساوية لألف صلاة من أمثال هذه في غير الحرم، هذا مع أن مسجد الشيخ داخل في حدود ما بين المصلى والحجرة كما في بعض الأحاديث: ما بين مسجدي ومصلاي روضة من رياض الجنة[2] على قول بعض

---

(1) ورد هذا الأثر في تفسير ابن كثير برواية: من أكل مع مغفور له غفر له، قال ابن كثير: وهذا الحديث لا أصل له وإنما يروى هذا عن بعض الصالحين أنه رأى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، في المنام فقال: يا رسول الله أنت قلت من أكل مع مغفور له غفر له؟. قال: لا، ولكني الآن أقوله: تفسير ابن كثير 4:394.
(2) التاريخ الكبير 2:276.

العلماء أن المراد بالمصلى مصلى العيد، فكان بعض السلف يرغب في سكنى الناحية التي بين المسجد النبوي ومصلى العيد ويقول: إنه روضة من رياض الجنة.

وأما توجيه ما ذكر الشيخ من حيث الباطن فإن شرف الأمكنة ليس لذاتها إنما هو لما اشتملت عليه وأودعه الله فيها، وشرف المسجد النبوي لمجاورته لغيره، صلى الله عليه وسلم، وبيته وصلاته فيه مدة حياته وغير ذلك، فإذا أكرم الله تعالى ولياً من أوليائه بحضور روحانيته، صلى الله عليه وسلم، وشهوده في محله دائماً، وإن كان بعيداً من مسجده، لأنَّ الأمكنة بالنسبة إلى الأرواح مستوية، فلا يبعد أن يكون لذلك المكان الذي حضرت فيه روحانيته، صلى الله عليه وسلم، وحصلت مشاهدته على الدوام ما كان حاصلاً بمسجده من الفضل بالنسبة إلى ذلك الشخص الذي أكرمه الله بذلك، ولا يلزم من ذلك مشاركة ذلك المكان للمسجد النبوي في الفضل لأنَّ حصول ذلك الفضل للمسجد النبوي عام في الأزمان والأشخاص، وهذا خاص بهذا الشخص والزمن الذي هو فيه، ولا شك أن الشيخ رضي الله عنه من أهل هذا الشهود، فيكون لمسجده من الفضل بالنسبة إليه وإلى خواص أصحابه الغائبين في المتحدين فيه حبا وولاء مثل ما كان للمسجد النبوي لحضوره، صلى الله عليه وسلم، بروحانيته فيه سيما مع قرب المكان جدا بحيث لا يكاد يغيب عن خيال المصلي شهود الروضة والحجرة وما هناك من الآثار حتى كأنه فيه وإن كان من أهل الكشف كشف له عنه حقيقة حتى يراه وكأنه فيه، وإن بلغ إلى رتبة الأبدال أمكن أن يكون فيه مع أنه في محله، فكم من بعيد الدار وهو قريب، وهذه المراتب الشريفة ليست بعيدة من حال الشيخ، فإذا أتحف بذلك وصارت صلاته كمن صلى في الحرم النبوي، فلا يبعد أن يتحف الله بذلك جميع من صلى معه ببركته، سيما إن كان هو إمامهم وارتبطت صلاتهم بصلاته.

ذكر بعض تآليف شيخنا صفي الدين رضي الله عنه

وهي كثيرة تقارب السبعين، فيما أظن أني رأيت من أسمائها مقيداً في برنامج بعض الأصحاب، والذي تعلق ببالي منها الآن شرحه على حِكم ابن عطاء الله،

وهو في غاية الجودة[1]، لولا صعوبة كلامه على القاصرين أمثالنا لدقة مغزاه فيه ورقة منحاه، وغلبة الإشارة، إلى حضرة الوجود المطلق على كلامه، وانفرد من دون الشروح بخصيصة لا يعادله فيها غيره، ومأثرة لا يشارك فيها، وهي ختمه رضي الله عنه كل حكمة بحديث يناسبها، وهذا مما يدل على سعة اطلاع الشيخ وحفظه للأحاديث النبوية وفهمه لها، بحيث يدرك المناسبة بين الحديث والحكمة في بعض الحكم من وجه خفي لا يكاد يتفطن له، وهذا شأن فطن العارفين وأفهامهم، وقد حضني على استنساخه عند لقائه، رضي الله عنه، فيسّر الله ذلك من وجه لا عسر فيه، وكان والده سيدي محمد بن عبد النبي كتب على الحكم شرحاً كبيرا فأراد الشيخ اختصاره، فطلب منه شيخنا محمد بن علوي عندما ورد المدينة سنة 1047 أن يبتكر شرحا غير مختصر من الذي قبله لأن ذلك أجدر بإيداع الفوائد التي يفتح الله فيها فقبل إشارته.

ومنها حاشية له على المواهب اللدنية للقسطلاني، مفيدة مع صغرها، رأيتها بخطه في عدة كراريس. ومنها كتابه: بستان العابدين، ذكر فيه أورادا كثيرة بأدلتها وفضائلها وفضائل آيات من القرآن وسور منه، وهو غاية في بابه.

ومنها كتابه السمط المجيد[2]، ذكر فيه طرق رواياته وأسانيده عن مشايخه، وأكثرها في طريق القوم، فقد استولى غالب طرقهم وساق أسانيده إلى أصحابها ثم أسانيدهم إلى منتهاها مع ذكر شيء من حكاياتهم ومآثرهم.

ومنها رسائله الثلاث في مسألة الكسب التي انتصر فيها لقول إمام الحرمين، والصغرى منها أتمها تحقيقاً وأكثرها تدقيقاً.

ومنها الرسالة المسماة: ضوء الهالة في ذكر هو والجلالة، وقد تقدم خبرها في أول ترجمة الملا إبراهيم.

ومنها شرحه لرسالة السيد سالم شيخان المسماة منقذة الموهوم من مزلقة الوهوم، وهي صغيرة جداً موجزة لفظاً كبيرة قدراً. ولنذكر نص الرسالة المذكورة، ومنها يعلم حال شرحها وشارحها، ونصها: باسم الله الرحمن الرحيم،

(1) ذكر محقق كتاب الحكم أن نسخة من هذا الشرح محفوظة بالمكتبة الظاهرية بدمشق: الحكم، ص: 85 من مقدمة المحقق.

(2) السمط المجيد: في تلقين الذكر والبيعة وإلباس الخرقة وسلاسل أهل التوحيد للقشاشي: فهرس الفهارس 2:1061.

قال سيدنا السيد الأمجد العلامة الأوحد سالم بن أحمد شيخان باعلوي، رحمهما الله تعالى: باسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لوليه، والصلاة على نبيه، وعلى آله وصحبه وتابعيه وحزبه، وبعد فإن كل شيئية امتازت في وجودها بنسبة واحتازت في شهودها برتبة ما ميز منها ما في الوجود إلا العلم، ولا أظهر ما عنها في الشهود إلا النور، وهي من حيث هي قابلة تتقلب عليها الشؤون بظهور أثر الأسماء طوراً بعد طور، فالظاهرية في مظهرية الشيء لمن له الولاية بالحق لا لاختلافه الشيء الموسوم بالخلق فإن الأشياء بحقائقها لا بخلائقها، فحكمه حكم الصدى بالنسبة الترجيعية إلى الندى، وحكم الجليد بالنسبة الجمودية إلى الماء، معقودان عينا موجودان حكما، والمظاهر الخليقة الملازم لها الحدوث، ولم ترتفع عنها أنحاء العدمات ليست هي من حيث خلقيتها عين الذات، بل هي لها اعتبارات لأنها ليست مما ثبت قدمه حتى يستحيل عدمه، وليس لها وجوب وجود استقلاليا في وجودها حتى تساوقه فتكون عين وجودها وما طرف العدم مع متعلقها بأولى من طرف الوجود إن لم يترجح لها في التعقل الذاتي إلى أمد نسبة الوجود، فصارت هي وإن كانت من حيث المظهرية معلومة هي من حيث الظاهرية التي بها كل شيء هالك معدومة، وإن فرضت فموهومة، وما قصد المحققون فيما إليه بالحق ذاهبون إلا وحدة وجودية العبد الصادقة على أمرية معانيه لا وحدة موجوديته الصادقة على خليقة مباينة كون صورة موجوديته من تجسد الخيال لها حكماً ما إذا انصبغت[1] للنجيب بظاهرية الحق في مظهريته، وتعالى محيط السبحات أن تكون القاذورات من حيث اختلاف موجوديتها عين الذات، وما عنوا بهذا إلا وجوديتها التي هي تعلقها في علم ربها ما لها هي هي في ثبوتها الحكمي وسلبها، وهي الدقيقة الذاتية والأمر الإلهي التي يتوجه إليه منها الخطاب (وما يذكر إلا أولو الألباب)[2].

تمت منقذة الموهوم من مزلقة الوهوم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ومنها الإفاضة الرحمانية على الكمالات الإلهية، وهو حاشية على كتاب الكمالات الإلهية للشيخ عبد الكريم الجيلي رضي الله عنه، وهو كتاب جليل القدر نبيه الذكر، جعل صاحبه الحقيقة المحمدية هي مظهر الكمالات الإلهية بأسرها

---

(1) في ط: الصبغة.
(2) البقرة: 268.

ومنها تفرعت إلى غيرها من المظاهر، ثم أخذ يفل ذلك شيئا فشيئا ولكنه قد يغلب عليه في شهود الحقيقة فلا يعطي الشريعة حقها، وللشيخ الصفي، رضي الله عنه، في حاشيته تعقبات ظاهرة عليه ظهر فيها علو مقامه وتمكنه من الشريعة والحقيقة، وهذه الحاشية مفيدة جدا، ولنذكر كلاما منها يتعلق بالوجود المطلق نصه: الحق وجود مطلق على تعينه بنسبة دون الإطلاق، وإلا فجميع ما هو له على حدته في بطونه كما هو على حدته في ظهوره، لا تبديل له، ولا للكمالات عن[1] مقتضى تمايزها في الباطن اعتبارا، كما حال التجرد يكون العالم والمعلوم والعلم واحدا مع تميز كل، وإن انمحى اثر التمييز ظاهراً فهو باطن ما يبدل القول لديه بحال في الظهور والبطون، فكذلك في الشؤون، وإنما ينمحي الاسم ظاهراً ويندرج في الإطلاق، بحيث لا تميز له، ثم بحال إلا بحكم ما لله عند كل شأن منه وإليه لا دخل لنسبة الظهور بحال إلا لله وحده، كما قال سيدنا علي وفا أو محمد وفا، الكل هو بلا مراء إن أطلقت قيوده، والكل نحن يا فتى لأننا صدوره، فالكل هو من حيث الطمس فيه يكون وانمحاء الآثار التي هي مقتضيات التعين، فلا إشارة ثمة إلا له لهلاكه فيه لا لكونها صارت هو لأنها حدوده وحدوده معتبرة له في البطون والظهور عند أهل العيان والعيون، فالخلط لا سبيل له، فلو تغيرت الحقائق باطنا لتغيرت ظاهرا، ولا وجود له بل (كل في فلك يسبحون)[2] ظهورا وبطونا، ويختلف بحسب المحلات والمراتب إذ لكل درجات، فتحفظ ولا تغلط، واضرب لك مثالاً بالماء وما عنه من المنعقدات إذا ظهرت أو لفظت فهي في باطنه هو بمعنى الاستهلاك فيه وانمحاء التمييز والآثار لا فإن صارت داخلة في حقيقة الماء وإلا لعدم المنعقد وطلب مكانه لأنه انقلب ماء، فتذكر ترشد، فكل باق على حدته وحقيقته، وإن بطن وصار مرفوع القيد في مطلق كما في مطلق الوجود وقس به مثله، (وعلى الله قصد السبيل)[3].

ومنها رسالة: نفحة اليقين وزلفة التمكين للموفقين، وهي التي حقق القول فيها على كون الحقائق بجعولة أو غير مجعولة على مذهب العارفين أهل الكشف الصحيح.

---

(1) في ط: على.
(2) الأنبياء: 33.
(3) النحل: 9.

لطيفة:

قال الشيخ، رضي الله عنه، في آخر هذا الكتاب: ولما كان ليلة الثلاثاء خامس عشرين شهر رجب الحرام من هذا العام، عام اثنين وستين وألف، بالمدينة الشريفة رأيت في المنام خيراً إن شاء الله تعالى، ورأيت الله جل جلاله في مثال إنساني وقد فتح بابا من أبواب الجنة بوسط جبل من جوف ذلك الجبل، وهو كباب السر يدخل منه أقوام مخصوصون، ويسر الله بكرمه وعفوه الدخول مع الداخلين منه، وكأنا من حيث الدخول في محل شاهق بجبال كريمة صورتها كالسكر النبات المعقود تمثيلا، أو البرد أو البلور الذي يرى منه ما وراءه، ونحن نازلون منها إلى المستقر، ثم خيام لا يكيف حسنها على نسق واحد بيض مضروبة بغير أوتاد ولا طُنب[1]، ونحن نتبع أمر الله جل جلاله، وكان في نفسي مسألة في هذه الدار أود سؤال الحق جل وعلا عنها عند اللقاء، فذكرتها وسألت عنها أهي كذا؟. فقال الحق جل جلاله: نعم، هي لك كذلك. فسجدت شكراً لله بين يديه تعالى ثم انتبهت وما أردت كتابة هذا ولا تدوينه، فلما كان من الليلة الثانية رأيت أمراً يقتضي إثباته، ورأيت أن العقم سرى في الرجال عن اللقاح، وهو شخص ممثل يمشي على هيئة من غير استعمال، فحيث وصل حصل منه بذلك المحل ما بعث له، وحيث لم يصل الأمر فيه موسع باستغنام تلك الفرصة بين يدي مجيئه، ورأيت في الواقعة الأولى أكثر الداخلين المسرعين إلى كرامة الله من غير المنظورين والمُشار إليهم، بل أكثرهم من أهل الأسباب الرعاة للأمانة والأوامر ومن لا أعرف، (فاعتبروا يا أولي الأبصار)[2] (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله)[3]. فجوهرة القلب الجامدة بالغفلة إذا سلط عليها السالك بإذن الله بنار الذكر الشديد، وأجج وقودها آداب الذكر جامدها فعاد ماء جاريا محيطا، وفك مركبها فعاد واحدا بسيطا وصفه الأوصف وقيده الأقيد، فخطابه في الحضرة المحمدية، ومنها (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله)[4]، ومتابعة، (فاتبعوني يحببكم الله)[5]،

(1) الطنب: حبل يشد به الخباء والسرادق: لسان العرب: طنب.
(2) الحشر: 2.
(3) الزمر: 21.
(4) الفتح: 10.
(5) آل عمران: 31.

فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده ومريده[1]، و(يد الله فوق أيديهم فمنٍ نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً)[2]، فخذ من الكثير ولو بالقليل، فالوعد بالعطاء عطاء، ولو كان تعطى التعليل فوعد الكريم دين لأنه دين، والجزاء واجب عند مالك يوم الدين، فدن بالدين لعلك تكن من السالكين الذاهبين إلى ربهم في طلب هدايته، وقل عند توجهك في كل نفس: (إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)[3] آمين. (وقل ربٍ أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيراً)[4] أو قل: (وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا)[5]، (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلامٍ على المرسلين والحمد لله رب العالمين)[6]. وهو آخر الرسالة، وهي مفيدة جداً في بابها.

ومنها رسالة (في)[7] الذكر باسم الجلالة مفرداً، وهي مسألة كثر فيها البحث بين المتأخرين، فأجاز ذلك العارفون عن آخرهم، ومنع بعض المترسمة محتجا بظواهر لا تجري، ورسالة شيخنا في هذه المسألة مفيدة مع صغر حجمها.

وله رضي الله عنه ديوان شعر أكثره على لسان أهل الحقائق، ونظمه فيه عذب المذاق، وإن كان ربما يوجد فيه ما يستضعف عند أهل الأدب، فمن ذلك قوله:

[طويل]

عليكَ بصافِي ود ليْلى وكُنْ لها ... غلامَ غلامٍ خالصَ الود والعهْدِ

ولا تبغِي من دونِ ذلك بُغية ... فما دُونها إلا توهمٌ لا يُجدي

---

(1) في ط: مؤيده، زالإشارة هنا إلى نص الحديث القدسي :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثم إن الله عز وجل يقول: ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فأكون أنا سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، وقلبه الذي يعقل به، فإذا دعا أجبته، وإذا سألني أعطيته، وإذا إستنصرني نصرته، وأحب ما تعبد لي عبدي به النصح لي: المعجم الكبير 8:206.

(2) الفتح: 10.

(3) الفاتحة: 5 – 7.

(4) الإسراء: 80.

(5) الإسراء: 81.

(6) الصافات: 180 – 182.

(7) زيادة من ط.

فقِبلَـــةُ كُـــلِ العاشـــقينَ جَمالُهـــا إليه تُـــصلي فِتيـــةُ العلَـــمِ الفـــردِ
إلى أن بدتْ منهم علـــيهمْ وفـــيهم وأبدَتْ ثنايا حُسنِ بارقهـــا الهِنـــدِي
ولاحَتْ بشرقِ الكونِ مذ بانَ صُبحها وأمسَتْ بغربِ الغرْبْ تسألُ عن نجْدِ
فلما اهتدَى السَّاري بهـــا لخِيامهـــا وباتَ على دينِ الغرامِ بهـــا يـــشدِي
وآذَنَ داعِي الحانِ نـــدمانَ وَصْـــلها وبثَّ كؤوسَ الوصلِ في سكرةِ الوجـــدِ
بدا حَيُّها القيومُ في كـــلِ شـــاخِص وأشرقَ في سلْمَى وأغربَ في دَعْـــدِ
وأوْرَى فأوْرَى فالورَى مـــن تـــوارَّه يـــسيرُ برُكبـــانِ الغـــرامِ إلى نجـــدِ
إلى دارِ ليلى والمـــضَارب شـــرعتْ بـــساحَتها للنـــازلينَ بهـــا تهـــدي
فمُتـــسعُ الأحْـــشا خِيـــامُ مَقِيلـــها وفَيْحا مجالِ العادياتِ مـــن الوجـــد
أثرْنَ به نَقْعـــا فلمـــا[1] انتـــهوا إلى نهى غايةِ التزيلِ في الـــسيرِ والجـــد
وسطْنَ بهِ جَمعا على الـــضد منـــهمُ لأنهمُ في الأصلِ خالونَ عـــن ضـــد
فيا لكم إذا قـــامَ ســـوقُ غرامِهـــا على ساقهِ والوجـــدُ يخفـــقُ بالبنـــدِ
هـــ.

لطيفة:

إنما كنا معشر أتباع الشيخ القشاشي نلقبه بصفي الدين، مع أن المشتهر في اصطلاح المشارقة تلقيب أحمد بشهاب الدين، لما أخبرني به شيخنا الملا إبراهيم أن الشيخ كان يكره هذا اللقب ويقول: إن أحمد أشرف الأسماء، فكيـــف يلقـــب بالشهاب الذي هو للعذاب والرجم. وأظن أنه قال: وهو اسم شيطان، فكـــان، رضي الله عنه، يرى أن الأولى تلقيب أحمد بصفي الدين، فانظر ما أحسن هـــذا

(1) اقتباس من قوله تعالى: (والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا): العاديات: 1 – 5.

اللقب وما ألطف مناسبته لهذا الاسم الشريف. وإشارات العارفين واستبطاناتهم كلها على هذا الأسلوب عند من فهم ذلك عنهم، والله يجعلنا من أهل الفهم عنه وعنهم آمين آمين.

ولما اجتمعت بغالب فقهاء المدينة المشرفة، رضي الله عنهم، وأخذت عمن هو أهل للأخذ منهم، كتبت استدعاء يشمل على نثر ونظم استجزتهم فيه لنفسي وولدي وجماعة من أصحابنا وأبناء مشايخنا، وكان من جملة من كتب عليه بإسعاف الرغبة شيخنا الملا إبراهيم، رضي الله عنه، ويأتي ذكر الاستدعاء المذكور وما كتبت عليه آخر الرحلة، إن شاء الله تعالى، لأني أفردتُ لذلك رسالة سميتها: تحفة الأخلاء بأسانيد المشايخ الأجلاء أذكرها بتمامها هناك، إن شاء الله.

ولنختم ترجمة شيخنا الملا إبراهيم بالرسالة التي كتبها برسمي فيما يتعلق بمسألة الكسب التي هي من مفادات شيخه الصفي رضي الله عنه وسبب كتبه لهذه الرسالة أني كنت قبل ذلك بمدة ونحن بالمغرب وجدت عند بعض الإخوان من أصحاب الشيخ الصفي إحدى رسائله في المسألة، وهي الوسطى، فاستنسختها ثم أطلعت عليها شيخنا علامة الوقت وعارف الزمان الشيخ أبا محمد عبد القادر بن علي الفاسي، قدس الله سره ورفع ذكره، وطلبت منه مطالعتها والنظر في مقاصدها لكثرة الطاعنين على صاحبها، ولا يقبل في كلام العارفين إلا كلام أمثالهم، فطالع بعضها فاستطالها لكونها غير مبوبة ولا مفصلة، ومع ذلك فلم يحكم على صاحبها بتضليل ولا تبديع كغيره من المترسمين، وقال: لو اختصر هذا الكلام وحصلت مقاصده لكانت لنا عودة إلى تحقيق النظر فيه وإمعانه. ولما اجتمعت بالملا إبراهيم سألته أن يختصر مقاصد الشيخ في رسائله حتى يمكن الناظر فيه تأمله، ويجرده من كثرة الأمثلة والشواهد والأدلة، فكتب هذه الرسالة وسماها: الإقماع المحيط، وهي هذه: باسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الغني القريب، الأقرب العلي الأعلى، الجامع بالذات بين الكمالات المتقابلات وله الحمد في الآخرة والأولى، أحمده على أن منّ علينا بالإيمان، فإنه الأحد الواحد المتجلي في كثرة الأسماء القدوس الذي في عين قدسه به قام كل علو وسفل، إذ هو قيوم الأرض والسماء، وأشهد أن لا إله إلا الله الصمد الجواد العزيز الحكيم الواسع المحيط الحق الذي مد ظل النور الوحداني على الحقائق فتعدد في عين وحدته بإظهار آثار كل مركب وبسيط، وذلك أن الله، لغناه الذاتي، له الإطلاق التام الحاوي لكل تقييد وإطلاق،

فكان له التجلي متى شاء وكيف شاء فيما شاء من حقائق الأنفاس في الآفـــاق، ومن تحقق ما ذكر اتضح عنده معنى لا قوة إلا بـــالله في عـــين، و(أن القـــوة لله جميعا)[1]، وانكشف لديه معنى: (والله خلقكم وما تعملون)[2] في عين إثبات تأثير قدرة العبد بإذن الله موفقا سميعا، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المبعـــوث بالكلمة الجامعة لمراتب التوحيد، لا إله إلا الله المؤيد بتأييد (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)[3]، المقرب بتقريب (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله)[4]، وصلى الله وسلم على آله الأطهار وأصحابه المقربين الأبرار، من المهـــاجرين والأنـــصار وتابعيهم بإحسان من السابقين واللاحقين، صلاة وتسليما فائض البركات علـــى الآفاق والأنفس في الظاهر والباطن عدد خلق الله بدوام الله الخلاق وذي القـــوة المتين.

أما بعد، فإن مسألة توحيد الأفعال مع إثبات الكسب بتأثير قدرة العبد بإذن لا باستغلال قد ألف فيها شيخنا الإمام العارف بالله المحقق الراسخ الكامل المكمل الأكمل، قطب زمانه وغوث أوانه، سيدي الشيخ صفي الدين أحمد بن محمد بن يونس الملقب بعبد النبي بن الولي الشهير أحمد المقدسي الدجاني المدني المعـــروف بالقشاشي، قدس الله روحه وأعلى في أعلى المقربين فتوحه، وأعاد علينا والمحـــبين من بركاته آمين رسائل آخرها الكشف والبيان عن مسألة الكسب والإيقان، وهي آخر مؤلفاته على الإطلاق. ولما وصل في هذه السنة، ســـنة 1073 إلى المدينـــة المنورة، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، سيدنا العالم العامل فيما أحسبه ولا أزكي على الله أحدا، نادرة الوقت، غريب الزمان، الفقيه المحدث، الـــصوفي ذو الحظ الوافر من جامعيته تجلى الاسم المضاف إليه، سيدي الشيخ عفيف الدين عبد الله أبو سالم بن محمد بن أبي بكر العياشي المغربي المالكي، عاش لله بالله عبد الله، من خلص حزب الله في حماية الله آمين. وذكر لنا أن بعض رسائل شيخنا قـــدس سره في مسألة الكسب وصلت إليهم، ثم نظر في رسالة الكشف وصلت إليهم، ثم نظر في رسالة الكشف والبيان ورآها مبسوطة، طلب تلخيص مقاصدها تقريبا لها إلى الأفهام مع تذييله بالتنبيه على اندفاع ما استدل به العلامة التفتازاني في شرح

(1) البقرة: 164.
(2) الصافات: 96.
(3) الأنفال: 17.
(4) الفتح: 10.

المقاصد على أن قدرة العبد لا تأثير لها أصلاً من العقليات فإنه من باب إماطة الأذى عن طريق تحقيق المقام. فاستخرت الله تعالى ثم توجهت للمطلوب سعيا في تبليغ ما اهتم بنشره الشيخ قدس سره، ولاسيما في هذه الأواخر شديد الاهتمام مستحضرا أن هذه المسألة لكونها على هذا الوجه المنقح من نفاذاته، قدس سره، بإذن الله كأنه القائل على لساني وفي ميزانه، الله ولي كل توفيق وإنعام، والله سبحانه بيده أزمة القلوب وملكوت كل شيء وإليه المصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم في كل مقصد صغير وكبير، وهذا أوان الشروع فيما هو المطلوب من التلخيص والتقريب، والله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب.

تمهيد: اعلم أن الحق الذي يجب اعتقاده وإن كان هو الوسط بين طرفي إفراط وتفريط كما ورد: خير الأعمال، وفي لفظ، الأمور أوساطها[1]، ودين الله بين القاسي والغالي، وفي لفظ أن دين الله وضع دون الغلو وفوق التقصير، والحسنة بين السيئتين لا ينالها إلا بالله[2]، الحديث. وأن الكسب هو أمر بين الأمرين لا جبر ولا تفويض لبطلان الجبر بالضرورة، وبطلان الخافية استقلالا بالاستدلال، لكن القول بأن الوسط هو أن يكون للعبد قدرة تتعلق بالمقدور لا تأثير لها فيه أصلا لا يحصل به توسط شافي، إذ لا يتميز عن الجبر تمييزا يكشف الغمة عن طالب التحقيق في هذه المسألة المهمة، ولهذا قيل: إن الكسب بهذا المعنى اسم بلا مسمى، والأقوال التي ذكرها العلامة التفتازاني في شرح المقاصد في تفسير الكسب ليس فيها شفاء.

أما القول بأن الوسط هو أن يكون للعبد قدرة مؤثرة، لكن بإذن الله لا بالاستغلال فهو توسط حسن متميز عن الطرفين تمييزاً بيِّناً يكشف الحيرة، وقد أيده شواهد الشرع المعصوم لمن تلقاها بالإيمان الواسع، وأمعن النظر فيها بالعقل السليم، لا ينكره النظر العقلي من ذي فطرة سليمة، لم يتكدر صفاء بصيرته بغبار الشبهات الخيالية، ومحاها الله المنان عنه بعد التكرر بعزته فإنه يمحو الله ما يشاء ويثبت و(لكل أجل كتاب)[3]. وأما من اشتغل محله بالمألوف المتداول ثم لم يسلك طريق الإنصاف خاليا عن التعصب، طالبا للتحقيق، فالغالب أنه لا يتلقاه بالقبول

(1)السنن الكبرى للبيهقي 273:3.
(2) شعب الإيمان 403:3.
(3) الرعد: 39.

لكونه يتوهم ببادي الرأي أنه كقول المعتزلة حيث يسمع لفظ التأثير، وهذا من كون الإنسان عجولا[1] لما فيه من الخفة النارية، فلو ثبت بما فيه من الترابية المحتوية على الرزانة لينظر باذلا للجهد فيقدم، أو يحجم على نية، لكان أمس بإنسانيته مع ما فيه من امتثال قوله صلى الله عليه وسلم: إذا أردت أمرا فعليك بالتؤدة حتى يريك الله منه المخرج[2]، وقد قال تعالى: (فإن تنازعتهم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تومنون بالله واليوم الآخر)[3]. وقال صلى الله عليه وسلم: لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به[4]. وقد ورد: طوبى للسائرين إلى ظل الله تعالى الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سئلوه بذلوه، والذين يحكمون للناس بحكمهم لأنفسهم، وذلك أن هذه المسألة لا يعلمها على التحقيق الأتم إلا من سلك منازل السائرين إلى الحق المبين ففاز بعد الفناء التام بالبقاء من الله العلام، فتجرد له إدراك آخر ليس من قبيل إدراكه الأول، فعرف نفسه معرفة محققة شهودية يعرف ربه بحسب درجته وسعة دائرته، فكان من الراسخين في العلم من طريق الوهب الإلهي لا من طريق الفكر، فيعلم الحافظ أن الفعل بتأثير القدرة المضافة إلى العبد بإذن الله لا يكون قادحا في توحيد الأفعال مناف لكلية لا خالق إلا الله لكونه يعلم تأويل المتشابهات بالوهب الإهي على وجه ليس فيه صرف اللفظ عن ظاهره، مع أنه لا يستلزم تجسيماً ولا تشبيهاً، ولا حلولاً ولا اتحاداً، ولا تجزئة ولا قياما للحادث بالقديم ولا بالعكس، ولا ما يشاكل ذلك من الشبهات التي تطرأ على أهل الأفكار في المتشابهات لو حملت على ظاهرها، ويليه من آمن بشواهد الشرع إيمانا صادقا لا يزلزله المألوف في الكتب الكلامية المتداولة، ثم نظر فيها نظر منصف طارح للتقييد بما تقرر عنده أولا طالب للتحقيق متوجها إلى الله في المضايق وعند طرق الشبهات أو يهديه سواء السبيل، فإن الله سبحانه يمن عليه بفهم الآيات على وجهها والهداية إلى الحق المختلف فيه بصادق وعد الله، (ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم)[5]، وإن تفاوتت[6] الدرجات في ذلك، وانظر في كلام أئمة الكشف الصحيح لمن تلقاها بالإيمان الواسع في مساعدة لفهم

(1) إشارة إلى قوله تعالى: (ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا) الإسراء: 11.
(2) الأدب المفرد 306:1.
(3) النساء: 58.
(4) الفردوس بمأثور الخطاب 153:5.
(5) التغابن: 11.
(6) في ط: تفاوت.

الآيات والأحاديث على الوجه المطلوب وبالله التوفيق. ويليه صاحب النظر الفكري إذا اعتنى الله به فوفقه للنظر الصحيح فإنه تناول المسألة من وراء حجاب الفكر، ولكن دون درجة من قبله، أعني صاحب الإيمان بالمتشابهات الذي هدي إلى الحق لاختلاف مبنى المسألة عندهما، فإن صاحب الإيمان إذا تم له الأمر في الفهم بهداية الله تعالى مبني المسألة على توحيد الصفات مع فهمه أنه لا يلزم شيء من الشبهات المشار إليها، وصاحب النظر الفكري المجرد لا يبنيها على ذلك لظنه استلزامه للمحذورات السابقة، ويكتفي بأنه لا مانع عقلا من أن يخلق الله للعبد قدرة يمكنه بها من العقل، لأنه لا ينقطع نسبته إليه تعالى بالإلحاد لأن إلحاد المكلف له إنما هو بتمكن الله تعالى إياه منه وإقداره عليه، وهذا وإن كان فيه الكفاية لكونه من لوازم الأول، ولكن بين القولين بون بعيد، وكل ميسر لما خلق له وبالله التوفيق، وإذا سمعت هذا، فنقول وبالله التوفيق وبيده ملكوت التحقيق: من المعلوم أن الممكن لما كان في كونه موجودا محتاجا إلى غيره كان الفقر إلى الغير في وجوده وكمالاته التابعة لوجوده ذاتيا له، وأن الواجب لما كان في كونه موجودا غنيا بذاته عما سواه كان الغنى (عن الغير في وجوده)[1] وكمالاته ذاتياً له والله سبحانه وتعالى هو الواجب الوجود لذاته، فهو الغني بذاته عما سواه في وجوده وكمالاته، والممكن فقير بالذات إلى الله في وجوده وكمالاته التابعة لوجوده، فكما لا وجود له إلا بالله، كذلك لا كمال له إلا بالله، ومن كمالات العبد القدرة على أفعاله الاختيارية وتمكينه من تحصيلها بلا قدرة له على تحصيل شيء منها إلا بالله كما قال تعالى: (ما شاء الله لا قوة إلا بالله)[2]. وقال، صلى الله عليه وسلم، في الحديث المتواتر كما قال السيوطي[3] رحمه الله: ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومفاد الاستثناء من النفي إثبات، والنزاع فيه مدفوع كما أوضحنا في إنباه الإنباه على تحقيق إعراب لا إله إلا الله، فالعبد كما أن له وجودا بالله لا مستقلاً، كذلك له قوة بالله لا مستقلة، ومعلوم عند الالتفات أن كل وصف حاصل لشيء بغيره فهو في الحقيقة لذلك الغير لا لشيء، فكما أنه لا وجود حقيقة إلا لله ولغيره بالله، كذلك لا قوة حقيقة إلا لله ولغيره بالله، ولهذا قال سبحانه: (أن القوة لله جميعا)[4]، أي أن

---

(1) بياض في ط.
(2) الكهف: 38.
(3) لعله يشير إلى قول السيوطي: لا حول ولا قوة إلا بالله، أي لا حول عن معصية الله إلا بعصمته، ولا قوة على طاعته إلا بمعونته: الديباج 122:2.
(4) البقرة: 164.

القوة الظاهرة في مظاهر الأقوياء لله جميعاً حقيقة لا لهم لأنها بـــالله كوجـــودهم، وهذا من أوضح الدلائل على توحيد الصفات لكل ذكي منصف فإنها، أي صفات الكائنات من عكوس أنوار التجليات للصفات الأزلية بحسب الظاهر، فهي وحدة بالذات متعددة بالنسب والاعتبارات على وجه مقدس عن جميع الـــشبهات، ولا يعلم ذلك تحقيقا إلا أهل الكشف الصحيح والمؤمنون بالمتشابهات المؤيدة لقـــولهم إيمانا واسعا صادقا مع التتريه بـــ(ليس كمثله شيء)[1]، فإنه الإيمان الجامع بين نفي التشبيه والتعطيل الذي هو التوحيد عند أهل السنة كما قال الحافظ ابن حجـــر رحمه الله تعالى في فتح الباري حيث قال: وأما أهل السنة ففسروا التوحيد بنفـــي التشبيه والتعطيل[2]، والإمام أبو الحسن الأشعري -شكر الله سعيه- قد صرح في الإبانة[3] الذي هو المعتمد في المعتقد له وأنه آخر مؤلفاته، كما صرح به الحافظ ابن تيمية الحنبلي، رحمه الله، بالإيمان بالمتشابهات إجمالاً وتفصيلاً بعض تفصيل، ومن ذلك أنه قال: وإن لله تعالى عينين بلا كيف، ثم قال: وإن الله تجلى للجبل فجعله دكا[4]، إلى أن قال: وإن الله يقرب من عباده كيف شاء، وهو في كل حال متره عن الكيف حتى في حال تجليه في ذلك الكيف، وذلك أن الله تعالى له الإطـــلاق الحقيقي الذي لا يقابله تقييد لذاته، فهو متره عن كل قيد في عـــين التجلـــي في المقيد، فالتجلي في الصور والمظاهر كما صح به الأحاديث لا يقدح في كمـــال نزاهته، بل هو كمالات إطلاقه الحقيقي، فإن مقتضاه أن لا يتقيد بقيد مع قابلية الظهور بكل قيد إرادة، والله واسع حكيم.

ثم نرجع ونقول: من المعلوم أن كل فعل صادر عن العبد فإنما يصدر بقوة، وإذ لا قوة إلا بالله، فلا فعل له إلا بالله، وكلما ثبت أنه لا قوة إلا بالله ثبت أنه لا قوة إلا لله كما يوضحه قوله تعالى: (والله خلقكم وما تعلمون)[5]، وقوله صلى الله عليه وسلم: إن الله صانع كل صانع وصنعته[6]، فالله ســـبحانه خَلَـــق العُمَّـــال

---

(1) الشورى: 9.
(2) فتح الباري 344:13.
(3) الإبانة 22:1 .
(4) إشارة إلى قوله تعالى: (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) الأعراف: 143.
(5) الصافات :96.
(6) تذكرة الحفاظ 272:1.

والأعمال، بل خلق كل شيء كما قال، لكنه كيف يشاء بواسطة مع غناه عنها أو بلا واسطة كما يدل عليه قوله تعالى: (إن الله يفعل ما يشاء)[1]، وقوله: (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء)[2]، عموماً وما سيأتي من الآيات والأحاديث خصوصا، وكلما كان كذلك كان كون الأفعال الاختيارية للعباد محكومة لله تعالى بواسطة مظاهرهم على كونها مكسوبة لهم بالله لكن بنسبتين مختلفتين، فإن الله خالقهم وخالق أعمالهم مع غناه عنهم، وإحاطة علمه بتفاصيل تلك الأعمال ومباديها وهم كاسبون لأعمالهم بالله مع فقرهم الذاتي وعدم استقلالهم، وعدم علمهم بتفاصيل شيء منها إلا ما شاء الله منها، وقد دل شواهد الشرع على تحقيق الاعتبارين، أي أن الله يفعل بالأسباب، أي بتوسط مظاهر العباد، كما يفعل عندها وكما يفعل بلا سبب، وأن العباد يعملون بالله ما يشاء الله أن يعملوه بإذنه، أما ما يدل على أن الله يفعل بالأشياء مع غناه فنحو قوله تعالى: (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم)[3]، مع قوله: (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم)[4]، فالذي يميت الألوف بكلمة كيف يحتاج إلى مقاتلة المخاطبين لتعذيب الكفار، فإنه (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)[5]، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت ذلك، فأبرز الأمر بمقتضاها بجوده ورحمته مع تحقق غناه، ونحو قوله تعالى: (ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض)[6]، فدفاع الناس بعضهم بعضاً عين دفاع الله بعضهم ببعض، إلا أنهم يدافعون بالله مع تحقق الفقر إليه تعالى، إذ لا قوة لهم إلا بالله والله يدافع بهم مع غناه عنهم، ونحوه قوله صلى الله عليه وسلم: أنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر[7]. وقوله صلى الله عليه وسلم: يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وكنتم عالة فأغناكم الله بي[8]. وقوله صلى الله عليه وسلم: لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم[9]، إلى غير ذلك من

---

(1) الحج: 18.
(2) آل عمران: 6.
(3) التوبة: 14.
(4) البقرة: 241.
(5) يس: 81.
(6) البقرة: 249.
(7) صحيح البخاري 3:1299.
(8) صحيح البخاري 4:1574.
(9) صحيح البخاري 3:1077.

الآيات والأحاديث. وقوله: إن الله يفعل عند الأشياء لا بها، إن أريد به أن فعل الله لا يتوقف على الأسباب، بل هو غني عنها قادر على الإيجاد بلا مدخلية توسطها بدليل أن أول مخلوق خلقه الله لم يكن صدوره عنه تعالى بواسطة مظهر العبد وإلا لتسلسل، وكلما كان غنياً عنها فعله بها لحكمة اقتضى جوده ورحمته مراعاتها حسبما سبق به العلم المحيط لا للافتقار إليها، فهي أسباب عادية، أي أن الله جرت عادته بإيجادها[1] الأشياء بها لحكمة مع غناه عنها، فهو في معنى الفعل عندها لا بها كان قولا صحيحا، وإن أريد به أنه لا يصح أن يفعل الحق سبحانه بتوسط الأسباب أصلا ولا لمقتضى الحكمة مع غناه عنها، فهو قول لا دليل عليه، تأمل.

وقولهم بلزوم الاستكمال بالغير شبهة تنكشف بأن الإيجاد بالأسباب، إنما يستلزم الافتقار المنافي للمعنى المستلزم للاستكمال إذا توقف الفعل على تلك الأسباب حقيقة لا عادة، لكنها عادية فلا افتقار فلا استكمال بالغير وبالله التوفيق. وأما ما يدل على الاعتبار الثاني، أي أنّ العباد يفعلون بالله ما شاء الله أن يفعلوه فمن ذلك قوله تعالى في الحديث القدسي الصحيح لداوود، عليه الصلاة والسلام، بعد ذكره صلى الله عليه وسلم أعمال عابد آل داوود من الصلاة والتسبيح والتكبير وغيرها: يا داوود إن ذلك لم يكن إلا بي، ولولا عوني ما قويت عليه، الحديث. فمفاد الاستثناء أن تلك الأعمال التي صدرت منه إنما كانت بالله، وصدورها منه فرع تأثير قدرته بإذن الله وعونه وتمكينه وتقويته وأقداره، لأن الأعمال آثار القدرة ولا أثر بلا تأثير كما هو واضح. قال أستاذ المحققين محي الدين محمد بن علي بن العربي قدس سره ونفعنا به في الدارين آمين في الباب 104 من الفتوحات المكية ما نصه: فهل ما يطلب منا نعجز عنه أو لا نعجز، ومحال أن يطلب منا ما لم يجعل فينا قوة الإتيان به ويمكننا من ذلك فإنه حكيم، وقد أعطانا في نفس هذا الطلب علما بأن فينا قوة ربانية ولكن من حيث أنا مظهر لها، اكتسبناها قصوراً عَمَّا تستحقه من المضي في كل ممكن، فطلبنا المعونة منه، فشرع لنا أن نقول (وإياك نستعين)، ولا حول ولا قوة إلا بالله[2]. هـ بلفظه، وفيه قول بتوحيد الصفات وتأثير القدرة المضافة إلى العبد بالتمكين والمعونة وقرر هذا في غير ما موضع من الفتوحات قدس سره. ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: اللهم إنك

---

(1) في ط: بإيجاد.
(2) الفتوحات المكية 186:2.

سألتنا من أنفسنا ما لا نملكه إلا بك فأعطنا منها ما يُرضيك عنا[1]. ومفاد الاستثناء أن العبد يملك ما سئل منه من التكاليف بالله ولا يكون ذلك إلا بتأثير قدرته فيها بإذن الله. ومنها قول سيدنا أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، بعد أن استخلف: لقد قلدت أمرا عظيما ما لي به من طاقة، ولا يد إلا بتقوية الله[2]. ومنها قول سيدنا علي، رضي الله عنه، للقائل بالاستطاعة: قل أملكها بالله الذي إن شاء ملكنيها. ومنها قوله تعالى: (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله)،[3] فإن مفاد الاستثناء أن الضرر والإتيان بسلطان يقعان بإذن الله وتمليكه والوقوع فرع تأثير. قال البيضاوي: أي ليس لنا الإتيان بالآيات، ولا يستبد به استطاعتنا حتى نأتي بما اقترحتموه، وإنما هو أمر بمشيئة الله فيخص كل نبي بنوع من الآيات هـ. فلم ينف في الأول لا التأثير بالذات لا مطلقا، ولم ينف في الذاتي إلا استبداد استطاعتهم واستقلالها لا أصلها المقيد بالإذن. وقال الحافظ في فتح الباري في حديث الاستخارة في قوله: وأستقدرك، أي أطلب منك أن تجعل لي على ذلك قدرة، ثم قال في قوله: فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم ما نصه: إشارة إلى أن العلم والقدرة لله وحده وليس للعبد من ذلك إلا ما قدره الله له[4] هـ. وهذا كالتصريح بتوحيد الصفات، وهو الأصل في هذا الباب، وهو كقول الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله في كتاب الشكر من الإحياء: ولا قادر إلا الملك الجبار[5]، مع قوله في جواهر القرآن في باب المحبة: لا قدس ولا قدرة ولا علم إلا للواحد الحق، وإنما لغيره القدر الذي أعطاه إلخ. وقال في كتاب الشوق من الإحياء: فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين: (إنَّا مَكَّنَّا له في الأرض)[6]. وهذا القول من الإمام حجة الإسلام ومن وافقه، أعني توحيد الصفات، هو التحقيق الذي ليس فوقه إلا عين اليقين ثم حق اليقين، وعليه مدار التكليف، وبه يزاول إشكالات هذه المسألة لمن أتاه الله فهمه سالما من الشبهات الخالية، ويؤيده أن شواهد ذو النسبتين مختلفتين كما في تقريره، فقد شهدت بأن القدرة واحدة بالذات متعددة بالنسب والاعتبارات لما حصل لها

---

(1) طبقات المحدثين 3:224.
(2) المستدرك على الصحيحين 3:70.
(3) البقرة: 101.
(4) فتح الباري: 11:186.
(5) إحياء علوم الدين 4:77.
(6) الكهف: 83.

التعدد في المظاهر بالتعينات الجزئية المتفاوتة حسبما تفاوت المظاهر من غير لـــزم شيء من الشبهات المتوهمة، كالتبعيض والحلول والاتحاد وقيام القديم بالحادث أو ما يشاكلها لما مر أن الحق سبحانه له الإطلاق الحقيقي، ومقتضاه أن لا يتقيد بقيد مع صحة ظهوره في كل قيد شاء الظهور فيه كيف شاء، وهو مع ذلـــك علـــى كمال نزاهة قدسه كما هو واضح لمن فهم معنى الإطلاق الحقيقي الذي لا يقابله تقييد، وبالله التوفيق. ومنه ينكشف للفطن المؤمن أنه لا منافاة بين القول بتـــأثير القدرة المضافة إلى العبد المتعينة بحسب مظهره بإذن الله، وبين توحيد الأفعال، وأنه لا خالق إلا الله. وإذا علمت هذا فنقول الكسب في اللغة بالمعنى المصدري كمـــا سيجيء نقله هو التحيل مطلقا، بمعنى الحاصل بالمصدر هو المكـــسوب المحـــصل، وشرعا بالمعنى المصدري تحصيل خاص، وهو تحصيل العبد بقدرته المؤثرة بإذن الله ما تعلقت به مشيئته التابعة في التعلق به لمشيئة الله، فبقيد التأثير تميز من الجبر تمييزاً واضحاً، وبقيد الإذن وتبعية المشيئة تميز عن الإيجاد بالاستقلال الذي هو قول أهل الاعتزال القائلين بأن الله يشاء ما لا يفعلونه ويفعلون ما لا يشاء الله، وانكـــشف توسط بين طرفي تقصير الجبر وعلو الاستقلال انكشافا بينا بإذن الله الكبير المتعال والحمد لله رب العالمين.

فصل:

دل كلام الشيخ أبي الحسن الأشعري –شكر الله سعيه– في الإبانة على أنه لم ينكر على المعتزلة إلا الاستقلال لا أصل التأثير بالإذن، وذلك أنه قال: "أمـــا بعد، فإن كثيرا من المعتزلة وأهل القدر مالت بهـــم أهـــواؤهم إلى التقليـــد إلى رؤسائهم، ومن مضى من أسلافهم فتأولوا القرآن على آرائهم تأويلا لم ينزل الله به سلطانا ولا أوضح به برهانا"[1]. إلى أن قال: "وزعموا أن الله يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء، خلافاً لما أجمع عليه المسلمون من أن ما شاء الله كان، وما لا يشاء لا يكون، وردا لقول الله (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله)[2]، فأخبر أنا لا نشاء

(1) الإبانة 14:1، والظاهر أن العياشي ينقل من كتاب كنب المفتري الذي يتطابق نصه مع ما أورده، أنظر: تبيين كنب المفتري 155:1، وما بعدها.
(2) الإنسان: 30.

شيئا إلا وقد شاء أن نشاءه"[1]، إلى أن قال: وزعموا" أنهم يملكون الضر والنفع لأنفسهم [من دون الله عز وجل][2] ردا لقول الله تعالى [لنبيه صلى الله عليه وسلم][3]: (قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله)[4]، وانحرافاً عن القرآن وعما أجمع المسلمون عليه، وزعموا أنهم ينفردون بالقدرة على أعمالهم دون ربهم، وأثبتوا لأنفسهم غنى عن الله عز وجل"[5]. إلى هنا انتهى كلامه رحمه الله بلفظه في آخر مصنفاته والمعول عليه من بين كتبه الكثيرة.

وظاهر بأدنى التفات أنه لم ينكر عليهم إلا زعمهم الاستقلال بالمشيئة والاستقلال بملكهم الضر والنفع لأنفسهم لا بالله، وزعمهم الانفراد بالقدرة على أعمالهم، وأن ربهم المستلزم للغنى عن الله والاستقلال والانفراد باطل بالنقل والعقل والكشف. وأما القدرة على الأعمال بلا زعم الانفراد بل بإذن الله وتمكينه، والملك للضر والنفع بإذن الله، فليس في كلامه ما يدل على نفيه أصلا، بل مفهومه يثبته كما لا يخفى، ويوضحه قوله فيما بعد: وإنَّ أحداً[6] لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله الله ولا يستغني عن الله[7] هـ. فإنه يدل على أن العبد يستطيع أن يفعل شيئاً بالله في وقت فعل الله له، فإن قوله: ولا يستغني عن الله يدل على أنه إنما يفعل بالله لا بنفسه مستقلا، وكل ما كان كذلك فلا يتأتى له الفعل قبل فعل الله، بل حين فعله، فإن الفعل واحد بالذات متعدد بالنسبة والاعتبارات كما مر، ومن هنا يقول إن القدرة مع الفعل وكل ما كان كذلك كان قابلاً لتأثير قدرة العبد بإذن الله، لأن استطاعة الفعل حين فعل الله إيقاعه بالله حين إيقاع الله إياه بالعبد وإيقاع الله بالعبد بالتأثير بلا خلاف، فإيقاع العبد أيضا بالتأثير تمكين الله لما مر من كون الفعل واحد بالذات مختلف بالنسب، وهذا من لوازم توحيد الصفات عند التحقيق. وقولهم لازم المذهب ليس بمذهب، معناه أنه لا يحكم به بمجرد لزومه، فإن اعتقده فهو مذهب، ويترتب عليه حكمه اللائق به، ولم يبلغني عن الأشعري نص بالالتزام أو عدمه، لكن ظاهر إيمانه بالمتشابهات مع التنزيه يقتضي

(1) الإبانة 1:15- 16.
(2) ما بين معقوفتين زيادة من الإبانة.
(3) ما بين معقوفتين زيادة من الإبانة.
(4) يونس: 49.
(5) الإبانة 1:17.
(6) في ط: واحدا.
(7) تبيين كذب المفتري 1:159.

ذلك، ولا سيما تنصيصه على أن الله يتجلى وأنه يقرب من عباده كيف يشاء مع نفيه للكيف أولاً، وهذا تمام التحقيق، فإن الله سبحانه، وإن تجلى في ذي الكيف، فهو منزه عن الكيف في كل حال، لإطلاقه الحقيقي كما مرت الإشارة إليه، ويوضحه قوله قبل ذلك، وتثبت لله قدرة كما قال: (أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة)[1] هـ. فإن مقتضى اسم التفضيل استدراك المفضل والمفضل عليه في أصل شيء واحد مع مزيد الأول على الثاني فيه، ومقتضى هذا لغة أن يكون القوة حقيقة واحدة ثابتة لله بالذات لكونه هو الذي خلقهم، لهم بالجعل والإفاضة والأصل في الإطلاق الحقيقة، وهو القائل: قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وما رُوي عن الصحابة، ونحن بذلك معتصمون[2]. وهو القائل: ونعول فيما اختلفنا فيه على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم[3].

وعلى هذا فحقيقة الكسب المعتمد ما عرفناه به لا تعلق للقدرة بالمقدور بلا تأثر لها فيه أصلاً، كما هو المشهور عنه. ومنه يتضح أنه لا منافاة بين أقواله السابقة الدالة على أن لقدرة العبد تأثيراً بإذن الله لا مستقلاً، وبين قوله فيما بعد: وإنه لا خالق إلا الله، وإن أعمال العباد مخلوقة لله مقدرة[4] هـ. أما لما تبين من كلامه الدلالة[5] على القول بتوحيد الصفات، وإما لأنه فعل للعبد إلا بإذن الله وتمكينه، وكل ما كان لا فعل له إلا بالله فلا فعل إلا لله حقيقة، والله أعلم. ومنه يظهر أن ما نقله في المواقف عن الإمام الرازي في الجمع بين مذهبي الأشعري والمعتزلة ما نصه: ولعل الشيخ الأشعري أراد بالقدرة القوة المستجمعة شرائط التأثير، فلذلك حكم بأنها مع الفعل وأنها لا[6] تتعلق بالضدين، والمعتزلة أرادوا بالقدرة مجرد القوة العضلية، فلذلك قالوا بوجودها قبل الفعل وتعلقها بالأمور المتضادة، فهذا وجه الجمع بين المذهبين .[7]هـ ملخصا. جمع صحيح، لأن الشيخ الأشعري، رحمه الله، على ما تقرر قائل بالتأثير بإذن الله وأما ما في شرح المواقف

---

(1) فصلت: 14.
(2) الإبانة 1:20.
(3) نفسه 1:29.
(4) الإبانة 1:23.
(5) في ط: من الدلالة.
(6) ساقط من ط.
(7) المواقف 2:138.

من الاعتراض عليه بأن القدرة الحادثة ليست مؤثرة عند الشيخ، فكيف يصح أن يقال إنه أراد بالقدرة القوة المستجمعة لشرائط التأثير، فمدفوع عنه بأن القول بعدم التأثير إن كان منقولاً عنه نقلاً صريحاً ففي غير الإبانة المعول عليها، فيقدم ما فيها على ما في بقية الكتب على أن قوله في عامة كتبه كما نقله ابن القيم في شفاء العليل يدل على التأثير أيضا فإنه "قال في عامة كتبه: معنى الكسب أن يكون الفعل بقدرة محدثة، فمن وقع منه الفعل بقدرة قديمة فهو فاعل خالق، ومن وقع منه بقدرة محدثة فهو مكتسب".[1] هـ.

ولا شك أنه صريح في أنّ العبد يقع منه الفعل بقدرة محدثة، ومن المعلوم أن الواقع بالقدرة أثرها وإلا لم يكن واقعاً بها، والأثر فعل التأثير بالضرورة فقوله: في عامة كتبه[2] أيضا موافق لما في الإبانة، والإشكال في قوله: بقدرة العبد[3]، مع وقوعه بقدرة الله يزول بكون الفعل واحداً بالذات مختلفاً بالاعتبار لكون القدرة واحدة بالذات مختلفة بالاعتبار كما تقرر، ودل عليه كلام الأشعري، رحمه الله، أيضاً وبالله التوفيق.

فصل:

ذهب إمام الحرمين في النظامية التي ألفها بعد الإرشاد[4] إلى أن قدرة العبد مؤثرة بتمكين الله لا بالاستقلال، وقد نقل كلامه في بيان ذلك بلفظه وطوله العلامة ابن القيم الحنبلي في شفاء العليل[5]، وحيث إن الداعي لشيخنا قدس سره في تأليف رسالته الانتصار كان نصرة قول إمام الحرمين، فلا بأس بنقل طرف من كلامه، فإن بعض المتأخرين أنكر ثبوت ذلك عنه، وعلى تقدير صحته عنه رده عليه بما جوابه مذكور في اختصار الانتصار لشيخنا قدس سره، فنقول، وبالله التوفيق، أقوالا في معنى الكسب ما نصه: وقد اضطربت آراء أتباع الأشعري في الكسب اضطراباً عظيماً واختلفت عباراتهم فيه اختلافا كثيراً إلى أن قال: قلت:

---

(1) شفاء العليل 1:130.
(2) شفاء العليل 1:130.
(3) شفاء العليل 1:142.
(4) الإرشاد إلى قواعد الأدلة في أصول الاعتقاد لعبد الملك بن عبد الله الشافعي المعروف بإمام الحرمين: تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، ص: 105.
(5) شفاء العليل 1:142.

الذي قاله الإمام في النظامية أقرب إلى الحق مما قاله الأشعري والباقلاني ومن تابعهما، ونحن نذكر كلامه بلفظه قال: قد تقرر عند كل حاضر بعقله مترق عن مراتب التقليد في قواعد التوحيد أن الرب سبحانه وتعالى مطالب عباده بأعمالهم حياتهم، وداعيهم إليها ومثيبهم ومعاقبهم عليها فيما لهم، وتبين بالنصوص التي لا تتعرض بالتأويلات أنه أقدرهم على الوفاء بما طالبهم به ومكنهم من التوصل إلى امتثال الأمر والانكفاف عن مواقع الزجر، ومن نظر في كليات الشرائع وما فيها من الاستحثاث والزواجر ثم استراب في أن أفعال العباد واقعة على حسب إيثارهم واختيارهم واقتدارهم، فهو مصاب في عقله أو مستقر على تقليده مصمم على جهله، ففي المصير إلى أنه لا أثر لقدرة العبد في فعله قطع طلبات الشرائع والتكذيب بما جاء به المرسلون، فإن زعم من لم يوفق لمنهج الرشاد أنه لا أثر لقدرة العبد في مقدوره أصلاً، وساق الكلام في رده إلى أن قال: فقد فهمنا بضرورات المعقول من الشرع المنقول أنه عزت قدرته، طالب عبده بما أخبر أنهم ممكنون من الوفاء به فلم يكلفهم إلا على مبلغ الطاقة والوسع، ثم ساق احتمالات، قال في آخرها: وهذه الأقسام بجملتها باطلة ولا ينجى من هذا الملتطم ذكر اسم محض لقب بجرد من غير تحصيل معنى. قال: فإذا لزم المصير بأن القدرة الحادثة تؤثر في مقدورها، فنقول: قدرة العبد مخلوقة لله تعالى باتفاق القائلين بالصانع والفعل المقدور بالقدر واقع بها قطعا، ولكنه يضاف إلى الله سبحانه تقريراً وخلقاً فإنه وقع بفعل الله، وهو القدرة، وليست القدرة فعلاً للعبد وإنما هي صفة، وهي ملك لله وخلق له، فإذا كان موقع الفعل خلق لله فالواقع به مضاف خلقا إلى الله تعالى وتقريرا، وقد ملك الله العبد اختياراً يصرف به القدرة، فإذا وقع بالقدرة شيئاً آل الواقع إلى حكم الله من حيث أنه وقع بفعل الله، ولو اهتديت إلى هذا الفرقة الضالة لم يكن بيننا وبينهم خلاف، ولكنهم ادعوا استبدادا بالاختراع وانفرادا بالخلق والابتداع، فضلوا وأضلوا، ونبين تمييزنا عنهم بتفريع المذهبين بأنا لما اضطررنا فعل العبد إلى تقدير الآلة قلنا أحدث الله القدرة في العبد على أقدار أحاط بها علمه، وهي أسباب الفعل وسلب العبد العلم بالتفاصيل وأراد من العبد أن يفعل وأحدث فيه دواعي مستحثة وخيرة وإرادة وعلم أن الأفعال ستقع على قدر معلوم فوقعت بالقدرة التي اخترعها للعبد على ما علم وأراد، إلى أن قال: ومن هدى إلى هذا استمر له الحق المبين ثم بعد ضرب مثل هذا قال: فهذا والله الحق الذي لا غطاء دونه ولا مراء فيه لمن وعاه حق وعيه. ثم بسط الكلام بسطا

وافيا إلى أن قال: قد أطلت أنفاسي ولكن لو وجدت لي اقتباس هذا العلم من يسرد لي هذا الفصل لكان وحق القادر على كل نفس بما كسبت أحق إلى من ملك الدنيا بحذافيرها طول أمدها هـ، والحمد لله رب العالمين.

فصل:

ذكر الإمام حجة الإسلام، قدس سره، في كتاب التوبة من الإحياء كلاما تضمن القدح في الأقوال الثلاثة أعني: الجبر المحض والاختراع الصرف الذي هو الاستقلال والتوسط، بمعنى كون القدرة مقارنة غير مؤثرة أصلا. ثم قال: فإن قلت قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب بأنه صادق من وجه، وهو مع صدقه قاصر، وهو متناقض، فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال[1]. ثم مَثَّل بحكاية الحمار مع الفيل إلى أن قال في آخر الكلام: وإذا كان هذا كلاماً يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها، وليس ذلك من غرضنا، فلنرجع إلى ما كنا بصدده[2] هـ. وهو إشارة إلى توحيد الصفات المشار إليه في جواهر القرآن. وفي الإحياء أيضا كما مر نقله. ويدل كلامه هذا أن ما تقدم في قواعد العقائد جرى على المشهور لا على المختار، والله أعلم.

فصل:

قال المحقق الكمال ابن الهمام الحنفي في المسايرة بعد نقل ما في قواعد العقائد من معنى الكسب في المشهور ما حاصله: قولكم إن القوة تتعلق بالفعل لا على وجه التأثير لا طائل تحته، لأنا لا نفهم من الكسب إلا التحصيل. قال تلميذه الكمال ابن أبي شريف الشافعي: قوله إن الكسب لا يفهم منه إلا التحصيل هو بحسب ما وضع له لغة هـ. قال: وتحصيل الفعل المعدوم ليس إلا إدخاله في الوجود، وهو إيجاده، وقولكم بأنّ القدرة تتعلق بلا تأثير كتعلق القدرة القديمة تتعلق في الأزل قياس مع الفارق، لأن معنى ذلك التعلق بنسبة معلوم من مقدوراتها

(1) إحياء علوم الدين 4:6.
(2) إحياء علوم الدين 4:6.

إليها بأنها ستؤثر في إيجاده عند إرادة إيجاده، فإذا تعلقت الإرادة أثرت القدرة، لكن القدرة الحادثة عندكم مقارنة لا تؤثر أصلاً، ولا وقت تعلق الإرادة، فصحة كون من قدرته تؤثر عند تعلق إرادته فاعلا بالاختيار لا يستلزم صحة كون من لا تؤثر قدرته أصلا، ولو تعلقت الإرادة فاعلا بالاختيار، وكلما كان كذلك لم يتميز الكسب عن الجبر المحض المستلزم لضياع التكليف وبطلان الأمر والنهي، فإن مجرد تعلق القدرة بلا تأثير لا تحصيل به فلا كسب به فلا يدفع الجبر والجبر باطل وملزوم الباطل باطل، ولا مانع عقلا من أن يخلق الله للعبد قدرة يمكنه بها من الفعل لحكمة صحة التكليف واتجاه الأمر والنهي، مع أنه لا تنقطع نسبته إليه تعالى بالإيجاد لأن إيجاد المكلف لها، إنما هو بتمكين الإله تعالى إياه منها وأنواره عليها، وأما ما ذكروه من العقليات على نفي تأثير قدرة العبد بالكلية فليس شيء منها لازما على ما يعلمه الواقف عليها هـ ملخصاً. قلت: وذلك لأنهم ذكروا وجوها عقلية كلها مفروضة في أن العبد لو كان مستقلا بإيجاد أفعاله لكان كذا كذا كما يظهر ذلك بمراجعة شرح المقاصد وشرح المواقف، وظاهره أنه لا ورود لشيء من ذلك أصلاً على من يقول بأن العبد لا تؤثر قدرته إلا بإذن الله وتمكينه، لأنه ناف للاستغلال، كالجبر فهي إن تمت إنما تنهض حجة على من يدعي الاستقلال كالمعتزلة ومن يحذو حذوهم من أهل الأهواء، وإنما قلنا إن تلك الوجوه العقلية مفروضة في استغلال العبد لأن التفتازاني، رحمه الله، صرح بالاستقلال في الأربع من الوجوه الخمسة التي ذكرها في شرح المقاصد، وترك التصريح في واحد منها وهو الثاني، ولفظه: "إن العبد لو كان موجدا لأفعاله لكان عالما بتفاصيلها واللازم باطل"[1]، وهذا الذي ذكر فيه التصريح بالاستقلال صرح فيه السيد بالاستقلال في شرح المواقف حيث قال: التأثير لو كان العبد موجدا لأفعاله بالاختيار والاستقلال لوجب أن يعلم تفاصيلها واللازم باطل إلخ، ومع تصريحه بالاستقلال لم يسلم من الاعتراض فإنه لما بين بطلان اللازم بأن النائم وكذا الساهي قد يفعل باختياره كانقلابه من جنب إلى جنب ولا يشعر بكمية ذلك الفعل وكيفيته قال: واعترض عليه بأنه يجوز أن يشعر بالتفاصيل ولا يشعر بذلك الشعور أو لا يدوم له الشعور هـ. وهذا يوضح أن الله جعل للإنسان في كل من حالتي النوم واليقظة إدراكا يدرك به الأشياء على حسب ذلك الموطن، وقد صرحوا بأن القوة الفكرية التي لها

(1) شرح المقاصد 228:4.

التركيب والتفصيل والاستنباط، متحركة دائما لا تسكن لا في النوم ولا في اليقظة أصلا، والحاصل أن ما ذكروه في بيان الملازمة من أن الإتيان بالأزيد والأنقص والمخالف ممكن، ولا بد لرجحان ذلك النوع، وذلك المقدار من مخصص هو القصد إليه، ولا يتصور ذلك إلا بعد العلم به، انتهى، لازم للقائل بالاستقلال.

وأما القائل بأن العبد لا يشاء إلا أن يشاء الله، ولا تؤثر قدرته إلا بإذن الله، ولا يعلم شيئاً من التفاصيل إلا ما شاء الله، فلا يلزمه ذلك لأن المخصص عنده لرجحان ذلك النوع وذلك المقدار من مخصص هو القصد إليه، ولا يتصور ذلك إلا بعد العلم به انتهى لازم للقائل بالاستقلال.

وأما القائل بأنَّ العبد لا يشاء إلا أن يشاء الله، ولا تؤثر قدرته إلا بإذن الله، ولا يعلم شيئا من التفاصيل إلا ما شاء الله، فلا يلزمه ذلك لأن المخصص عنده لرجحان ذلك النوع، وذلك المقدار هو مشيئة الحق سبحانه، وهي تابعة لعلمه تعالى، وعلمه محيط بالتفاصيل، والعبد يقصد الفعل على الوجه الذي يأذن الله له ويمكنه منه، والعبد عالم به على هذا الوجه، وهو كاف للقصد إليه التابع لمشيئة الله تعالى، وإن لم يكن كافياً لزاعم الاستقلال، ونحن لا ندعي إلا التأثير بإذن الله لا بالاستقلال، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، (وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين)[1].

ومنهم الشيخ العلامة الدراك الفهامة الفقيه النبيه الخطيب الأديب الشيخ ياسين بن محمد بن غرس الدين الخليلي[2]، رحمه الله تعالى ورضى عنه، أحد خطباء المسجد وأئمته، وأمثل المدرسين به في هديه وسمته، أصله من بلد الخليل عليه السلام، وكان عمه الإمام الأجل الشيخ غرس الدين الخليلي قد استوطن المدينة آخر أمره، وتولى بها عدة وظائف من إمامة وخطابة وتدريس، وكان الشيخ ياسين ابن أخيه ويتيمه في حجره، فرُبِّي في كفالته وقرأ عليه وعلى غيره من المشايخ، ودخل مصر والشام في حياة عمه وقرأ على جماعة من المشايخ، فلما توفي عمه بالمدينة المشرفة سنة ثمان وخمسين تولى وظائفه وأكثر مكاسبه إذ كانت ابنته تحته،

---

(1) الصافات: 181- 182.

(2) الشيخ ياسين بن محمد بن غرس الدين الشافعي الأنصاري، الخليلي، فقيه مصنف، كان متمكنا من علوم كثيرة لا سيما الفقه والحديث،جاور بالمدينة وتولى الخطبة والتدريس بالمسجد النبوي مدة، توفي سنة 1086 هـ: خلاصة الأثر 493:4. التقاط الدرر، ص: 123. نشر المثاني 382:2.

فاستقر بالمدينة واستوطنها وصار أحد المشار إليهم فيها، وله مروءة وحشمة وديانة، فهو أقرب من رأيت من أرباب الوظائف للتمسك بالهداية وأبعدهم عن أسباب الغواية. لقيته، رضي الله عنه، أول ما لقيته بمكة المشرفة وكان فيها حاجًّا ومجاوراً مدة، فقرأت عليه هناك بعض شرحه على ألفية العراقي في السير، وهو شرح حافل أجاد فيه وأودعه من لطائف علم السير وبدائعه ما تفرق في كثير من مؤلفات المتأخرين، كسيرة الشامي والحلبي وغيرهما، وهو في سفرين كبيرين، وكتبت له أول ما اجتمعت به بيتين وهما[1]:

[بسيط]

يا من لهُ رغبةٌ في العلمِ يحملهُ عن أهله فالتَجِىء للشيخ ياسين

فهْو الذي يُرتجى في كلِّ مشكلة وهْو الذي من جراحِ الجهل يأسوني

ولما قدم المدينة بعدما استقر بنا المترل فيها شرع في التدريس بالحرم النبوي، وكان معظم تدريسه في صحيح البخاري وفي كتاب إحياء علوم الدين، وكنت أحضر تدريسه فيهما بعض الأحيان، وقرأت عليه في مترله بعض كتاب المواهب[2] وبعض الشفا وغير ذلك، وأجازني إجازة عامة[3]، وهو أول من كتب على الاستدعاء الذي كتبته هناك كتابة مطنبة حسنة، وسيأتي ذكرها في تحفة الأخلاء آخر الرحلة، وقد ناولني تذكرة له شحنها بالفوائد وأودعها كل غريبة من نظم ونثر، وأنشدني قصيدة للشيخ المقري ولمفتي الشام في حينه، وكانا قد اجتمعا في نادي بعض الأكابر، فتجاريا وتباريا، فكان ينظم هذا بيتا وهذا بيتا إلى أن كملت قصيدة نحوا من ثلاثين بيتا، ولم يعلق بذهني منها إلا بيت واحد للمقري لغرابة جناسه وهو:

[رجز]

يا جُملتي لا تدْغمي وفَككي مُفَصل المَدح لهُ من فكّك

وكلامهما في فن البلاغة طويل النجاد غمر الرداء من الأدب المستجاد.

---

(1) ورد البيتان في: إتحاف الأخلاء، ص: 92. نشر المثاني 2:42.
(2) كتاب المواهب اللدنية للقسطلاني.
(3) أنظر نص الإجازة في: إتحاف الأخلاء، ص: 92 وما بعدها.

ومنهم الشيخ الذكي اللوذعي الذكي الفصيح اللسان والبنان، الثبت الجنان، الممدود العنان في كل فن، المحدود السنان في العلوم على حداثة السن، الراوية ذو الأسانيد العالية، الشيخ إبراهيم بن الشيخ خير الدين[1] رضي الله تعالى عنهما، كان أبوه، قدس الله سره، من علماء القاهرة ومدرسيها، ثم قادته سلاسل السعادة وحَدَا به حادي الرغبة في فنون العبادة إلى سكنى الحرمين الشريفين، فقدم المدينة على ما أخبرني ولده سنة سبع وعشرين وألف. أخبرني ولده، أدام الله رعايته، أنه لما قدم المدينة أنشأ قصيدة سينية في مدح النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول في أثنائها[2]:

[طويل]

أريــدُ مقامًــا عنــدكمْ لا يــشوبهُ   خروجٌ لغيرِ الحج إلا مــنَ الــرمسِ

فكمل الله له مطواه[3] من ذلك وبلغه مراده، فلــم ترقــل[4] ركائبــه ولا أوضعت[5] نجائبه إلى قطر من الأقطار ولا مصر من الأمصار من لدن حل المدينة إلا لمكة المكينة، حتى توفي إلى رحمة الله بطيبة سنة ست وخمسين وألف، ومن أبياتــه السائرة سيرة الأمثال التي قل أن يوجد لها مثال قوله في محبة المدينة الشريفة[6]:

[طويل]

إذا لم نطبْ في طِيبــة عنــد طيِّــب   بــه طيبــة طابــتْ فــأين نطيــبُ

طَيَّب الله نشره وأطاب عيشه في الفردوس الأعلى وذكره، ورفع في المــلإ الأعلى قدره، وقد تطفلت عليه في ذلك فقلت:

[طويل]

بطيبــةَ طــابَ الطيبــونَ لطيبهــا   بأطيــبِ طيــبِ طَيِّــب لُمطَيِّــبِ

---

(1) الشيخ خير الدين بن أحمد بن نور الدين الرملي، الإمام مفسر فقيه، شيخ الحنفية في عصره، أقام بالقاهرة مدة قبل أن يجاور بالمدينة المنورة، توفي سنة 1056 هـ: خلاصة الأثر 2:134. التقاط الدرر، ص: 243. نشر المثاني 2:368.

(2) ورد البيت في: نشر المثاني 2:36. صفوة من انتشر، ص: 228.

(3) مطواه: حاجته؛ من الطية وهي الحاجة والوطر: لسان العرب: طوي.

(4) ترقل: أرقت الناقة إرقالا: أسرعت: لسان العرب: رقل.

(5) أوضعت: يصعن الحصى غيبنه في الأرض (لسان العرب: وضع)، والإشارة هنا إلى الحركة والانتقال.

(6) ورد البيت في: نشر المثاني 2:36. صفوة من انتشر، ص: 228.

وكانت له، رحمه الله، حشمة وافرة وحرمة ظاهرة أزمان إقامته بالمدينة، وصار معدوداً من أخيار أهلها، وتولى بها المناصب الفاخرة من إمامة وخطابة وتدريس إلى ديانة ظاهرة ومروءة باهرة حتى تُوفي، فتولى ولده الشيخ إبراهيم ما كان لأبيه من الوظائف و لم يقصر به عن ذلك حداثة سنه، بل رفع بضبعيه[1] إلى أعلى مراتب أبيه الجد والجد، فدرس وأمَّ وخَطَبَ وأفتى، وقام بذلك أتم قيام، وأعطي فصاحة في نطقه، وسلامة في ذوقه، وإنصافاً في خلقه، وسماحة في خلقه، فباشر الوظائف بعفته، وغلها وقاره على طيب شبابه وخفته، كان أول اجتماعي به أوائل سنة خمس وستين بمترله، وقرأت عليه بعض الأربعين النووية وأجازني إجازة عامة، وكتب لي بخطه ذلك، وهو أيضا ممن كتب على الاستدعاء الذي كتبته بالمدينة، وسيأتي نص كتابته في تحفة الأخلاء[2]، وله نظم رائق ونثر فائق كتب لي بخطه قصيدتين من نظمه إحداهما في مدح النبي، صلى الله عليه وسلم، فلنذكرهما تبركا وإعلاما بقدر قائلهما، وإظهارا لمترلته في علم البلاغة، وإشادة برفعة قدره في نادي أهل اليراعة، وهذه أولهما عارض بها دالية مشهورة لغيره في وزنها ورويها واختار لها من المقاصد مدح النبي صلى الله عليه وسلم إذ هو أجلُّ المقاصد وأسنى المراصد:

[بسيط]

زارتْ على غفلةٍ من غيرِ ميعادِ ... غيداءُ تسحبُ تيهًا خيرَ إبرادِ
كالشمسِ إن وضحتْ والبدرِ إن لمحتْ ... والوردِ إن سمحتْ في ضدها نادي
والدر إن بسمتْ والزهر إن نسمتْ ... والزهر إن نظمتْ عقدا لأجيادي
حوراء ما حللتْ لي نظرة حرمتْ ... لكن أذابتْ بحَرِّ الهجر أكبادِي
يا ويحَ قلبي بها كمْ ذاقَ من حُرق ... حتى لقد شَيَّبتْ بالبُعدِ فؤادِ
أبكي وأمسحُ دمعي كاتِما لأسى ... نيرانهُ في الحشا آلتْ لإيقادِ
يا صاحبي إذا ما رُمتما سَكنى ... عُوجا قليلا كذا عن أيْمَنِ الوادي

(1) ضبعاه: عضداه: لسان العرب: ضبع.
(2) أنظر: تحفة الأخلاء، ص: 148.

أو رُمتما شرحَ حالي في الهوى فلقد   غُدّيتُ در التصابي قبلَ ميلادي
وصادعُ البيْنِ أن يخفَى فلا عجب   صوادحُ البانِ وهنا سجوهَا بادِي
يا ضرةَ الشمسِ يا من لا شبيهَ لها   جبينك أعذبُ من عذبٍ إلى صادي
فإن يكن عزَّ وصلٌ أو بخلتِ بهِ   فعللينا ولو طيفا بميعادِ
أما علمتِ بنيرانِ الخليل وذا   تَنْسيمُ وصلكِ يشفي غلةَ الصادي
يا صاحِ إن رُمتَ فعلا من جَميلك بي   وقفْ بمُنعرجِ الزوراءِ يا حادي
فثَم من صيّرتْني في الهوى مثلا   لا أرتضِي قيسَ فيها بعضَ أندادي
صاحتْ عن الوصلِ لم تسمحْ به صلبا   بلى تثنَّت على حقْف بميادِ
وأقبلتْ كالمَها تَختال في حُلل   فعطَّرَ الند منها ذلك النادِي
ولاحَ في الخد وردٌ والربا زهْر   يا حيْرتِي بينَ ناء فيكَ أو ناءِ
وعندما أبصرتْ جسمي يذوبُ أسى   وزفرتي بين إصدار وإيرادِ
وإنني لم أطقْ أخطُو ولا قدما   كأنني مُرصَدٌ في حِفظ أرصَاد
قالتْ: أسرتُك يا هذا وصرتَ لنا   رِقا وما سُورنا ما إن له فادِ
فهل ترى مَخْلصا مني؟، فقلتُ: نعم   مَدحِي لأشرَفِ مبعُوث لإرشادِ
مُحمد سَيد الكَونينِ والثقلَيْن   والفريقينِ منْ قَارٍ ومن بَادِ
خير الخلائقِ محمود الطرائق   معْروف السوابقِ مَرجوا لإنجادِ
حامِي الذمارِ مغيث الجَار إن وجلتْ   قلوبٌ وقّادة من فادح أو غادِ
هادي الأنامِ شفيع في الزحَام إذا   ضاقَ الخناقُ بأرواحِ وأجسادِ
يقولُ كل لِهولِ الخطبِ: نفسي، لا   يثنيهِ عطفٌ لآباءِ وأولادِ[1]

(1) إشارة إلى قوله تعالى: (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه): عبس 34 – 36.

فينثني قـــائِلا، لا قـــولَ مُفتخـــر: أنا لهـــا عنـــدَما ضـــاقَتْ بِـــوِرادِ
فذاكَ حَقا مقامُ الحمـــدِ خُـــص بـــه   أتـــى يُـــداني بـــأزواجٍ وأفْـــرادِ
أوصافهُ الغُر لا تُحصى وما بَرحـــت   عَواليِـــا مُرغمـــاتٍ أنـــفَ حُـــساد
لذاكَ مـــن راجَ يَرويهـــا لـــشهرتها   بين المَـــلا غـــير مُحتـــاجٍ لإســـنادِ
مـــاذا يقـــولُ بليـــغٌ راح يمدحُـــه   والله مادحهُ في قـــافٍ وفي صـــادِ[1]
يا سيدِي يا رسولَ الله خُـــذ بيـــدي   يا ملجأ العاكِف المُـــضطر والبَـــادِ
إليك أشكُو أمُورا عِيل مُـــصطبري   منها ولا ملجَـــأ يُرجـــى لإسْـــعاد
إلاكَ يـــا خـــيرَ مَبعـــوث لأمتـــهِ   بَرا عَطوفـــا رَؤوفـــا رَاحمـــا هـــادِ
فأنتَ أنتَ إذا خطبٌ خشَى فغـــشَى   مـــأمولُ راجٍ ومقـــصودٌ لقُـــصادِ
فلتُنْجِ ذا العبدِ مما حـــلّ يـــا أملـــي   ولتُدركنـــهُ بإصـــلاحٍ لإفـــسَادِ
فقد غدا ســـائِلا بالبـــاب مُنطرحـــا   قتيلَ ما قد جنَـــى مـــا إن لـــه وادِ
فلا تُضع سعيهُ يا خيرَ من وخَـــدت[2]   لـــهُ المطايَـــا بتبْويـــبٍ وإسْـــنادِ
فـــإن للجـــارِ حَقـــا ثَابتـــا ولـــهُ   فيكم مَطـــامعُ لا تُحـــصى بعـــدّادِ
فبلغـــوهُ المُرَجـــى مِـــن مطالبـــهِ   أوْرُوا لهُ زنـــدَهُ مـــن بعـــدِ إخمـــادِ
فقد أتَى مادحًـــا يرجـــو إجَازتـــهُ   قـــضاءَ أمـــرٍ مُهـــم فـــادحٍ عـــادِ
فقد كفينا له يا خيرَ مـــن قَـــضيت   بـــسرحهِ الرحـــب آمـــال الوُفـــادِ
فذاك أقصى مـــرامٍ جئـــتُ أطلبـــهُ   بعد الـــشفاعَةِ والحُـــسنى وإمـــدادِ
فإن يلُحْ لي المُرجى منـــك ا أمَلـــي   فكل دَهـــري كـــأعراسٍ وأعيَـــادِ
ما صنعتِي الشعْر لكني وفـــدتُ بـــه   أرجـــو جَـــوائزهُ رغمـــا لحُـــسادِ

(1) يقصد سورتي ق وص.
(2) وخدت: الوخد ضرب من سير الإبل، وهو سعة الخطو في المشي: لسان العرب: وخد.

فاقبَلْ ألوكة[1] صَب خـــائفٍ وجِــل ... مُضْنَى الفــؤادِ بــأحزانٍ وأنكـــادِ

وجازِهِ بالذي ترضـــاهُ مـــن مِـــنح ... حتى يـــصيرَ بـــأنواعِ الثنـــا شـــادِ

يهدي لكم من بناتِ الفكرِ حاليـــة ... صِينَتْ مَناهلـــها عـــن ورد مُرتـــاد

فاقتْ سِواها بـــلا مِثـــل يُعارضُـــها ... إذ لبستْ من ثنـــاكُمْ خـــيرَ أبـــرادِ

وزيَّنتها صِـــفاتٌ ضِـــمنها نُظمـــت ... كالعقدِ زِيـــنَ بلبّـــات[2] وأجيـــادِ

فاقبَلْ شـــفاعتهَا في شـــأنِ ناظِمهـــا ... حتى يلـــوحَ فريـــدا بـــين أنـــدادِ

صلى عليكَ إلهُ العرشِ ما مـــدحتْ ... بلابـــلُ الـــروحِ في أفنـــانِ ميـــادِ

وآلكَ الغُر والصحْبِ الكرامِ ومـــن ... يقفـــوهمُ حـــالَ إصْـــدارِ وإيـــرادِ

مع السلامِ الذي مسكُ الختـــامِ بـــه ... يزهُو بزهر الربا إن فاحَ في النـــادي

ما فازَ بالوصلِ مهجُـــور فأنـــشدَنا ... زارتْ على غفلةٍ من غـــيرِ ميعَـــاد

انتهت القصيدة المباركة بحمد الله.

وله أيضاً ممتدحاً بعض الولاة:

[متقارب]

تَعطـــفْ بمُـــضنى عليـــلِ المقـــالْ ... ودعْ عنك هـــذا الجَفـــا والمِطـــالْ

أمـــا قـــد علمـــتَ بـــأني امـــرؤٌ ... أحِب الجميـــلَ وأهـــوى الجمـــالْ

وأغـــشَى المغـــاني إذا مـــا حـــوتْ ... لطيـــفَ البنـــانِ حليـــفَ الـــدلالْ

بـــسهمِ اللحـــاظ إذا مَـــر بي ... أصـــابَ فـــؤاديَ دون النـــصَالْ

ووردِيّ خـــــــــــد إذا لاح لي ... سما الطـــرفُ مـــني بمثـــل الـــلآلْ

ووجـــهٍ يفـــد ســـناهُ البـــدور ... إذا مـــا تَبـــدى بجـــنح الليـــالْ

(1) ألوكة: رسالة: لسان العرب: لوك.
(2) اللبات: جمع لبة؛ وهي وسط الصدر والمنحر: لسان العرب: لبب.

وجسم حكَى الماءَ في رِقة ... عليه منَ الشعرِ مثل الظلالْ
فصبح الجبينِ وليل الشعُورْ ... بهذا الهُدى وبهذا الضلالْ
وقَدٌّ كغُصنٍ وريا ليتةُ ... يميلُ بنفحِ الصبَا والشمالْ
فخُذْ ما صفَا لك من ودهِ ... ولا تخشَ عارا ولا أن يُقالْ
فما كل وقتٍ يبيحُ الزمانْ ... لنا عاطِلٌ هو بالحسنِ حالْ
ولا الدهرُ في كل ساعاتهِ ... يغيثُ الفقيرَ ببذلِ النوالْ
فإنْ لاحَ فاجتنِ أنوارهُ ... فما كل يوم يلوحُ الهِلالْ
ولا تمهلنْ لذةً أمكنتْ ... وباكرْ صبوحك قبل الزوالْ
أحباتنا إن مُضناكمُ ... لدى سرحكم قد أناخَ الرحالْ
فلا تمهلوهُ ولا تتركوهْ ... ولا تمنعوهُ لذيذَ الوصالْ
فما كل شوقٍ لديكم يُبث ... ولا كل عِلم لديكم يُقالْ
ولا كل سَهم يُجيد المضا ... ولا كل شَهم يُجيد التزالْ
وإني امرؤٌ سابق للعُلا ... أبُث النوالَ وأجني المعالْ
وأقتطفُ الأدبَ المُجتنى ... فأحيي رسومَ ربوعِ خَوالْ
فلا تعذِلَنّي ولا تلحِني ... ودعني أُنظم سِلك اللآلْ
فكم في بقايا الركيا نَدى ... وكم في خَبايا الزوايا رجالْ
فأعظِمْ بمولى سما قدرهُ ... وحازَ من المكرماتِ العَوالْ
سليلُ الأكابرِ عينُ الأفا ... ضل ذخر الأماثل تاج الموال
مُحكمُ آرائهِ في الندا ... ومولى الصفات جزيل النوالْ
إذا ما أتاهُ ذوو حاجةٍ ... أغاثهمُ قبلَ بث السؤالْ

ليهنكَ طيرُ السعودِ الذي بدوح معاليكَ أضحى وقالْ

وله أيضاً، أسمى الله قدره، مجاوباً عن بيتين كتبتهما له أول اجتماعي به ونسبة هذه الأبيات لسببها الركيك الردي نسبة الروض الأنيق للثرى الندي[1]:

[بسيط]

مذ لاحَ بالمغربِ المأهولِ فاضلةُ وراحَ مُرتضعا ثديَ العُلا ناشِي

عاشت معالمُ أربابِ النهى وسمتْ ولا عجيبٌ إذا عاشتْ بعياشي

فليقَ للعلم كيْ تبقى مدارسةُ مأهولة يقتفِيها القاصدُ الناشِي

وأما البيتان اللذان هما سبب هذا السحر الحلال والعذب الزلال فهما قولي[2]:

[وافر]

سبرنا العالمينَ فما رأيْنا كإبراهيمَ سيدنا الخيارِي

تخيرهُ الزمانُ كما تراهُ خيارا من خيار مِن خيارِ

وله نظم كثير[3] ونثر غزير سوى ما ذكر، وله يد طولى في الخطابة وباع طويل في الكتابة.

لطيفة:

أخبرني شيخنا إبراهيم الخياري[4]، يوم رجوعي من مكة، وقد لقيته بالحرم الشريف وسلمت عليه وقال لي: كنت رأيت قبل قدومك بيوم أو يومين رؤيا، وهي أني خرجت إلى الحرم الشريف فوجدتك جالساً فيه متربعاً وليس عليك إلا

(1) وردت الأبيات في: نشر المثاني 2:384.
(2) ورد البيتان في: نشر المثاني 2:384.
(3) ذكر المحبي أن للشيخ الخليلي ديوان شعر مرتب على حروف المعجم: خلاصة الأثر 2:134.
(4) أبو سالم إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري الشافعي المدني، المصري الدار، فقيه حافظ، من شيوخ أبي سالم العياشي بالمدينة، توفي في حدود سنة 1083 هـ: اقتفاء الأثر، ص: 140، خلاصة الأثر 1:25.

كساء صوف من هذه التي يلبسها المغاربة وأنت كهيئة المحرم، ولك جثة عظيمة قدر أربعة رجال، ولبطنك أعكان[1] كبيرة قد بدت من جوانب الكساء، وحولك نحو سبعة رجال على زي المغاربة وأنت تدرس لهم في كتاب، ففرحت لما قص علي من تلك الرؤيا لأنها رؤيا صالحة من رجل صالح في بقعة صالحة تدل على حال صالحة إن شاء الله، وهذه الرؤيا تحتمل أوجها من التعبير كلها يشير إلى مكانة في الدين عالية وأهلاها أجلاها وهو أحلاها وأغلاها، ولا يأس من روح الله فهو ولي المؤمنين من عباده.

ومنهم شيخنا قدوة الأكابر الأعلام، وشيخ مشايخ الإسلام، الباذل عمره في خدمة العلم، المتحلي بحلية الوقار والحلم، الناهل من أحلى مناهل أهل الصفا، المتمم نسكه لمجاورة المصطفى، الشيخ بدر الدين الهندي[2] رضي الله عنه. كان رضي الله عنه آية في الذكاء والفهم ووعاء من أوعية العلم، له في كل الفنون تحقيق، وفي فهم المشكلات تمكين وتدقيق، إماماً في الأصولين، بارعاً في اللسانين، ماهراً في المعقولات، باهلاً في المنقولات، سلك على طريق السادات النقشبندية سلوك خريت هاد، وخبر منه الشعاب والوهاد، قدم المدينة المشرفة سنة ثمان وستين مع أبناء الشيخ عبد الأحد، معدودا من علية أتباعهم، جادا في سلوك طريقهم وأتباعم، و لم يزل بالمدينة من لدن قدومهم قاصدا جوار المصطفى واغتناما للحج فيما بعد ذلك من السنين واغتناماً لتكثير القربات في محل مضاعفة الحسنات، وأقبل في المدينة على نشر العلم وبثه وبعث رائد التعليم لما يعلم وحثه، مع شدة إقباله على أنواع العبادة، و لم يمنعه ذلك من الإفادة والاستفادة، ما رأيت أمضى منه عزماً ولا أشد منه حزماً، ولا أكثر منه تأدباً في ترداده بالحرم الشريف وعند الزيارة يكنس مع الخدام في غالب الأيام بيده في المسجد النبوي، قرأ على الشيخ عبد الحكيم الهندي[3] وهو أكبر تلامذة الشيخ عبد الحليم الهندي، وكان يبالغ في الثناء على شيخه، ويذكر عن شيخ شيخه من قوة الفهم وغزارة العلم ونفوذ بصره في سائر العلوم ما لا مزيد عليه، وذكر أن له حاشية كبيرة على

---

(1) الأعكان: الأطواء في البطن من السمن: لسان العرب: عكن.

(2) بدر الدين الهندي: حافظ مشارك، انتسب إلى الطريقة النقشبندية، انتقل من الهند وجاور بالمدينة مدة: التقاط الدرر 245. نشر المثاني 2:385.

(3) الملا عبد الحكيم بن شمس الدين الهندي، من علماء الهند وأعيانها، ألف مؤلفات عديدة منها حاشية على تفسير البيضاوي، وحاشية على مطول السعد، كانت وفاته سنة 1067 هـ: خلاصة الأثر 2:318. الأعلام 3:283.

البيضاوي في أربعة أسفار وأكثر فيها من التحقيقات وبالغ في التدقيقات، ولشيخنا هذا، أرضى الله عنه، اعتناء بالدراية أكثر من الرواية، ويرى الاشتغال بها قصوراً كما هو شأن علماء العجم، وله عارضة قوية في علوم المناظرة، حضرت تدريسه في شرح المنار في أصول الفقه لابن الملك، وهو كتاب نفيس في أصول الحنفية قد اعتنى المتأخرون منهم بشرحه، وفيه من نفائس العلم ودقيق البحث ورقيق الاستنباط شيء كثير، وكانت تقع بيني وبين طلبة الحنفية في مجلسه أبحاث كثيرة، وينتصر الشيخ لمذهبه معهم، ولم يكن يحضر مجلسه من المالكية ولا فضلاء الشافعية من أستعين به في نصرة المذاهب المخالفة لهم، بل ربما حضر من لا[1] يعد في العير ولا في النفير فيكون عليّ لا لي، فمن ذلك أنه جرى في بعض كتبهم ذكر التسمية في الوضوء، وعزى بعض أئمتهم القول بوجوبها لمذهب مالك، فقلت لهم: إن مشهور مذهبنا خلاف ذلك، بل لا نعلم في المذهب قولاً بوجوبها، فقام رجل من أهل المجلس مالكي فقال: إن في المذهب قولاً بوجوبها، وما أراد بذلك إلا إظهار نفسه وأنه من أهل العلم، وأنا أتحقق جلية أمره، وأنه لا يعلم في المذهب ما يقيم به فرضه من فروعه، فأعرضت عنه لذلك علما بأنه لا يفيد مراجعته لعدم من ينصفني منه.

وحضرت على الشيخ بدر الدين أيضا قراءة شرح الفناري على إيساغوجي، وكان يقرره أحسن تقرير ويبالغ في التبيين بإيضاح الأمثلة وإظهار العلل ويلقي على الحاضرين أبحاثاً نفيسة، ثم يجيب عنها بعد عجزهم ويقرر لهم من قواعد الفن ما تتضح به مشكلاته، فإذا أورد إشكالاً وعجزوا عن حله قال: هذا مما يدل على عدم اعتنائهم وتحصيلهم، أليس قد قررنا آنفاً كذا وكذا في قاعدة كذا وكذا، وبه ينحل هذا الإشكال وربما طالبهم في أول درس اليوم بإعادة درس الأمس، فيعجز أكثرهم عن ذلك، فإن أردت أن أتكلم معهم قال لي: لست إياك أعني. وحضرت تدريسه في مختصر السعد على تلخيص المفتاح، وجرى فيه مجرى الذي قبله في الإيضاح والتبيين وحسن التقرير وإظهار الحجج، ولم أر فيه أمراً أغمصه[2] عليه سوى الاقتصار في علم النحو على مقدمات منه صغيرة، وأكبر تأليف يعرفه في النحو كافية ابن الحاجب، فكان لأجل ذلك ربما يقع في البحث قصور من جهة

(1) في ط: لم.
(2) أغمصه: أعيبه: لسان العرب: غمص.

علم العربية والاقتصار على القواعد المتداولة منه، وكان يجري على لسانه كثيراً فتح همزة أن بعد حيث، وكنت أستحي أن أذكر له ذلك حتى جرى ذكره يوماً فقلت له: رجح أكثر النحاة فيها الكسر وعدوها من المواضع التي تكسر فيها إن، فأنكر ذلك وأعانه الحاضرون لقصورهم، وقالوا إن ابن مالك لم يعدها في المواضع التي تكسر فيها إن، ولكن دل على أنها مفتوحة، فقلت لهم: أليس في كلامه ما يدل على حصره مواضع الكسر، مع ذلك فلم تناولها ضابط الفتح لأن حيث لازمة الإضافة إلى الجمل، فإذا كانت في أول جملة لزم كسرها إلى غير ذلك من الحجج، فلم يلتفتوا لقولي ولم يكن بيدي إذ ذاك من كتب الفن ما أستظهر عليهم، فأعرضت عنهم.

وقد قرأت عليه أول شرح المواقف للسيد، وكان، رضي الله عنه، يحثني على الاشتغال به والمقام معه حتى أختمه، ولم يمكني ذلك لقرب الرحيل إلى مكة، وابتدأت عليه أيضاً شرح القطب على الشمسية، وقرأت عليه منه جملة صالحة، وكان يأمرني بتقييد تقريراته وأبحاثه، ثم أعرضها عليه فيرد عليّ من تقييدي ما لم يوافق تقريره، وعلى كل حال، فلم ألق بالبلاد المشرقية كلها أقوى منه عارضة في علوم المناظرة وتقريرها. ووقعت بينه وبين شيخنا أبي مهدي جفوة بسبب سؤال كان كتبه صاحبنا النبيه الدراك سيدي محمد بن سليمان الروداني[1]، وأوهم أنه جاء من ناحية من النواحي في مسألة منطقية، وهي شكل من القياس الشرطي يشتمل الحد الوسط منه على جزء غير تام، فسأل عن كيفية رده إلى أحد أشكال الحملي، فلما وجهوا به إلى الشيخ بدر الدين وتبجحوا بأنه صعب المرمى يقرب من المعمى، فاستسهل الأمر فيه أولاً قبل تأمله، ثم إنه توقف في الجواب برهة وطلب مراجعة كتب الفن، فشنعوا عليه استسهاله مع الاحتياج فيه إلى المراجعة والتوقف الطويل، وصادف ذلك مجيء شيخنا أبي مهدي من مكة، وكانت له عارضة قوية في علم المنطق، فطولع بالسؤال وكان قد تقدم له علم بتلك المسألة فأجاب فيها أحسن جواب، فآل الأمر إلى أن كتب في المسألة الشيخ بدر الدين وكتب الشيخ أبو مهدي، فأورث ذلك جفوة بين الشيخين، وزعم شيخنا بدر الدين أن المغاربة تمالئوا عليه، أعني السائل والمجيب، وأنهم قصدوا امتحانه، وتبرأ

(1) محمد بن محمد بن سليمان السوسي الروداني، نزيل الحرمين، إمام محدث، ولد سنة 1037 هـ، أخذ على يد جلة من علماء المغرب والمشرق، جاور بمكة والمدينة سنين عديدة، توفي سنة 1094 هـ: خلاصة الأثر 4:205. التقاط الدرر، ص: 229.. الفكر السامي 4: 334.

الشيخ أبو مهدي من ذلك، وأخبرني أنه كتب ولا علم له بالسائل ولا بمطالبة الشيخ بدر الدين بالجواب، وقد أخبرني صاحبنا الشيخ أحمد بن التاج[1] أنه ألف في المسألة رسالة جمع فيها كلام السائل والمجيبين، وأنه ينقل كلام كل واحد يصوب ما ظهر له تصويبه ويحكم بخطإ غيره، وقد تحامل فيه على الشيخ بدر الدين تحاملاً بينا مع أنه في الفن ليس بذاك ما أظنه يصلح أن يكون كأجل تلامذته، ولكن كان يرى نفسه أعلى من الشيخ قدرا، وما ذاك إلا لقوة إنصاف الشيخ، رضي الله عنه، وقوة رغبته في العلم واستدراك فضيلة الكمال في جميع العلوم، فكان يقرأ على صاحبنا ابن التاج كتاب ابن الياسمين في علم الجبر والمقابلة[2] لمعرفته بعلم الحساب والتوقيت والتنجيم فإنه رئيس المؤقتين بالحرم الشريف، رآه يتردد إليه متعلما شمخت نفسه ورأى أنه أعلم منه، وما ذاك إلا من جهله بنفسه، فأين الثريا من يد المتناول.

وقد كنت كتبت إليه أطلب منه أن يقرئني كتاب الهداية في الحكمة للأثير، وشرح الشمسية للقطب، وأفزع إليه أن يلقنني الذكر على طريق السادات النقشبندية، فأنعم بكل ذلك، إلا أنه أشار بقراءة شرح المواقف للسيد بدل الهداية وقال: إنه مشتمل على زبدة علم الحكماء وآراء المتكلمين، وكتبت له في ضمن ذلك أبياتا وهي هذه:

[طويل]

أمولايَ بدرَ الدين إنيَ ظمآنُ ... لما أنت له من عُلومك ريَّانُ

فإنكَ بحرٌ بالمعارفِ موجهُ ... وما غاضَ بحْر موجه الدهر عرفانُ

فلا تمنَعنْ ذا غلةٍ من صبابَة ... وقد جاءَ يَسعى نحوكم وهْو لهفانُ

وحاشَا تُرد الكف صِفرا ونحوكمْ ... على طمعٍ مُدت وعلمكَ طوفانُ

أنلْني بفضلِ حكمةٍ في هدايَة ... فليس لما أنعمتَ عنديَ كفرانُ

---

(1) شهاب الدين أحمد بن التاج، عالم متصوف، له كتاب الجفر الكبير، توفي بمكة عام 1081 هـ: التقاط الدرر، ص: 246.

(2) ابن الياسمين: أبو محمد عبد الله بن محمد بن الحجاج الأدريني، توفي ذبيحا بمراكش سنة 601 هـ له أرجوزة في الجبر والمقابلة توجد منها نسخة محفوظة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: 2427 د: الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية 2:147.

وَمَــنَّ بإصــلاحِ الجنــانِ بمنطــقٍ ... وإيقاظِ قلبٍ دائمــا هــو ســكرانُ

وتلقين ما لُقنــتمُ مــنْ شــيوخكمْ ... فكانَ لكــمْ بــالله علــمٌ وإيقــانُ

وإن مُــرادي في انتــسابِ إلــيكمُ ... يُنــالُ بــه عفــوَ الإلــهِ وغفــرانُ

فإن جُدتَ من قَصدي بما أنت أهله ... فذلكَ فضلٌ من عُــلاك وإحــسانُ

وإنْ كانَ منــعٌ إنــني أنــا أهلــهُ ... وفضلكَ منه لــيسَ يمنــعُ إنــسانُ

فلا زلتَ تُولي الفضلَ من جاء قاصِدا ... وتكسُو لباسَ العلمِ من هُو عريــانُ

وقد أقبل علي لما ناولتها إياه إقبالاً تاماً ولقنني الذكر على طريق السادات النقشبندية بين المغرب والعشاء في روضة الجنة بين القبر والمنبر عند باب الوفود وقال لي: إن أقمت معنا هنا بالمدينة بذلنا معك المجهود فيما قصدت من العلوم العقلية ثم بعد ذلك نبتدئ قراءة البخاري دراية لا كما يفعل مشايخكم أهل الرواية، وكان يقول لي أيام سماعنا للمعجم الصغير للطبراني على شيخنا أبي مهدي: لو حضر طلبة الهند قراءتكم هذه لاستغربوا ضحكاً منها، وأي فائدة في سماع الحديث من غير بحث عن معناه منظوما ومفهوما وما فيه من عموم وخصوص، والنظر بينه وبين معارضه وما يؤخذ منه من الأحكام، إلى غير ذلك من فوائد قراءة الحديث، ولا شك أنّ ما ذكره هو دراية الحديث وفائدته الغائية، ومع ذلك فلا ينكر فضل علم رواية الحديث وفائدته وثمرته، فإنه علم شريف قد اعتنى به قدماء الأئمة وتفننوا فيه وأكثروا فيه التآليف ونظموا ونثروا وشرحوا وحشوا، وقد قل اعتناء أهل العصر به كما هو شأن علماء العجم، فليس لهم به إلمام لا لهم عليه تعويل، متقدمهم ومتأخرهم، إلا القليل، ولذلك تقع للمفسرين منهم والفقهاء أوهام كثيرة واستدلال بأحاديث ضعيفة، بل وموضوعة إلى غير ذلك مما لا يخفى على متأمل كلامهم.

وقد فاجأني الرحيل إلى مكة و لم استوف الغرض من صحبته ولا قضيت لباناتي من القراءة عليه، وكان، رضي الله عنه، مشتغلا أيام مجاورته بالمدينة بكتابة شرح على الشفا للقاضي عياض، وأخبرني بعض أصحابنا أن بيته الذي كان يسكن فيه في الرباط المقابل للحجرة الشريفة، فيه كوة تقابل الحجرة، وكان يجلس وقت التصنيف بإزائها مكشوف الرأس مستقبل الحجرة بأدب وتواضع فكأنه

يستمد من الحجرة النبوية، وأشعر نفسه بعض ما لها من التعظيم والإجلال والإكبار، وشيخنا هذا ممن رزق السعادة في ذلك، فما رأيت في المجاورين وسكان البلد من يدانيه في ذلك فضلاً عمن يساويه. ولقد كان، رضي الله عنه، في محل تدريسه بالحرم الشريف لا يجلس إلا مستقبل الحجرة بوجهه، وإن جلس أحد بينه وبينها بحيث يحول بينه وبين رؤيتها أقامه وحوله عن يمينه أو يساره، فتكون حلقة تدريسه منفرجة من ناحية الحجرة، وفي ذلك أدب منه ومن الجالس لأنه يستدبر بذلك الحجرة الشريفة المطهرة. وما أحق شيخنا هذا إلا أن يلقب بين المتأخرين بإمام الحرمين كأبي المعالي في الأقدمين لأنه مكث فيهما زيادة على المدة التي مكثها أبو المعالي سنة، وهو يعلم ويدرس ويجيب السائلين، وقد أخبرني بعض الأصحاب أن لشيخنا هذا في بلاد الهند رئاسة عظيمة وإنافة قدر بين علمائها ورؤسائها، وله هنالك أولاد وديار ودنيا عريضة، وترك كل ذلك رغبة في جوار المصطفى صلى الله عليه وسلم، وقد أخبرت أنه يريد الآن الرجوع لبلاده لقضاء حق الأهل والولد، فنسأل الله تعالى أن ينفع بطول بقائه المسترشدين ويجعله من الأئمة المهتدين آمين.

ومنهم شيخنا جمال الدين الهندي النقشبندي، رضي الله عنه، وقد تقدَّم ذكره وإني لقيتُه بمكّة وتلقنت منه هناك، ولما قدمنا المدينة وألقينا عصا التسيار بها قدم بعدنا بأيام ونزل برباط الشيخ عبد القادر شرقي المسجد، وكنت آتيه هناك مراراً كثيرة وأجلس بين يديه للمراقبة أحياناً، وكان يحثني على الإكثار من مجالس المراقبة وترك الاشتغال بالعلوم الرسمية ويقول لي: إنها تشوش الفكر وتحجبه عما هو بصدده، وتحول بينه وبين ما يترقبه من تجلي أنوار الحضرة الصمدية على القلب، ويقول لي: إن هذا الأمر لم تشتغل به الآن إلا حيث أمكنك ذلك في هذا البلد قل ما يتأتى لك ذلك في غيره، بخلاف هذه العلوم الكسبية التي هي من جملة الأمر الصناعي أينما حاولت أمرها أمكنك ولو بعد الرجوع إلى بلادك، والعاقل يقدم ما يخشى فواته على غيره وإن كان مساويا له، فما بالك إذا كان المخشي فواته أشرف، وكنت أعلم صدق كلامه في ذلك وصحته، ولكن نفسي لم تطاوعني إلى ذلك، و لم تسخ بترك ما ألفته من مباحثة علماء الرسوم، وأنا أكره التكلف في الفعل والترك من دون باعث قوي ووارد وقتي يعين على الفعل والترك

ما دمت أجد لحالي موافقاً في الشرع، وأستسلم لأمر الله فيما وراء ذلك، وأسأل الله أن يحقق ذلك على الوجه الذي يرضاه العبد الفقير.

وكان شيخنا، رضي الله عنه، قد غلب عليه في آخر أمره مرض بخفقان القلب وانضغاط الروح في أوقات مخصوصة من ليل أو نهار، وكان يخيل إليه أن ذلك أثر سحر كيد له من بعض الحسدة لما يراه من تنقله في الأوقات، ويسألني عما يرقي به ذلك ويبطل عمل السحرة لاعتقاد أهل تلك البلاد أن للمغاربة في فن الدعوات وأسرار الأسماء والترقي يد طولى ليست لغيرهم، وأتعلل له بعدم المعرفة لشيء من ذلك، فيظن أن ذلك من باب إخفاء الأسرار وكتمانها على الأغيار، فكتبت له شيئاً مما أراه نافعاً لذلك، ومع ذلك فما كنت أعتقد أن ما أصابه سحر، بل غلب على ظني أن حرارة الذكر هي التي تثور في قلبه فيحصل له منها ما يحصل، فإنه كان شديد المثابرة على الذكر الخفي بالقلب والسر، فأشرت له بذلك فلم يقبل لرغبته في ذلك ووفور داعيته إليه وطول ملازمته له منذ زمان، إلا أنه، رضي الله عنه، مع شدة مجاهدته وانتفاعه بصحبة عارف زمانه غير مطالع لكتب القوم كثيراً ولا منقر عن أغوارها، فقصاراه الإقبال علي والجد والاجتهاد فيما هو بصدده، وقد نَصَّ كثير من الأئمة على أن حرارة الذكر تورث مثل ذلك، سيما الأسماء المفردة، وخصوصا الذكر على طريقتهم العلية بحبس النفس وضبط الحواس وسكون الأطراف فإن ذلك مما يقري حرارة الباطن ويثيرها على القلب فيحصل له خفقان للروح الذي سلطانه في القلب انضغاط، وقلت له: يا سيدي لو مزجت الذكر بغيره من الأذكار التي يحصل بها التسكين للروح مثل الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، وغيرها، ومثل مناجاة ابن عطاء الله(1) فقد نص الأئمة أنها تورث البسط القوي فإذا استعملها من غلب عليه القبض اعتدل حاله و لم يلتفت إلى شيء من ذلك وغلب عليه توهم ما تَخَيَّله أولاً، وأنا لا أقدر على مراجعته هيبة له وإجلالاً، وقد أنحله ذلك المرض حتى صار مثل الخلال وغلبت عليه آثار الجلال مثل من رآه علم أنه من الحضرة الجلالية والله تبارك وتعالى ينفعنا بمعرفته والانتساب إليه.

---

(1) أنظر مناجاة ابن عطاء الله في: الحكم، ص: 163 – 169.

لطيفة:

أخبرني شيخنا جمال الدين أن شيخه الشيخ آدم النقشبندي رضي الله عنه كان لقوة حاله ربما سرى مدده في بعض العجماوات. قال: ومن ذلك أنَّ كلباً كان يتبع الشيخ في أسفاره ويلازم محله ولا يعرف أحد من أين هو، قال: وسافرنا إلى مكة وتبعنا فأخذه بعض الفقراء وربطه إلى شجرة بالبادية بعدما ذهبت الرفقة، فلم يشعروا إلا وهو معهم في مكة. قال: وغار منه بعض الفقراء وأنفوا منه، فقتله، فكانوا يرون أن ذلك الكلب حصل من الشيخ التفات إليه في بعض أحواله الغالبة عليه. قلت: لا بدع في ذلك فقد ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني في طبقاته في ترجمة سيدي يوسف العجمي أنه كان إذا خرج من الخلوة بعد انتهاء أمره فأول من وقعت عليه عيناه ظهر أثر تلك النظرة فيه واكتسب بها أحوالا نفيسة، فخرج مرة من الخلوة وقد احمرت عيناه فلم تقع عينه إلا على كلب فصار ذلك الكلب يتبعه الكلاب أينما ذهب، فتسامع الناس به وصاروا يأتونه فاشتهر أمره حتى صاروا يهدون له الأطعمة وللكلاب التي معه، فبلغ خبره إلى الشيخ فبعث من أتى به فلما وصل بين يديه قال له: اخسأ، فدارت عليه الكلاب التي كانت تتبعه فصارت تنهشه حتى قتلته[1]. قال: وكان الشيخ، رضي الله عنه، يتأسف[2] على تلك النظرة ويقول: لو وقعت على إنسان لصار عينا من عيون الله ينتفع به الخلائق، وهذا أمر لا يحيله عقل ولا يمنعه شرع، ولله في خلقه أسرار لا تحيط بها أفهام كثير من العقلاء الأكابر فضلا عن غيرهم.

لطيفة:

لما لقيت الشيخ بمكة شاورته عَمَّا أرومه من المجاورة بالمدينة فحَضَّني عليها ورَغَّبني فيها فقال لي: قد ورد في الحديث أن حب الوطن من الإيمان[3]، والمدينة هي وطن كل مؤمن لأنها وطن الإيمان، فلذلك يحبها كل مؤمن. قلت: ويشهد لما قال، رضي الله عنه، من أنها وطن الإيمان قوله عليه السلام: إن الإيمان ليأرز إلى

---

(1) الطبقات الكبرى، ص: 375.
(2) في ط: يأسف.
(3) كشف الخفاء 1:413.

المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها[1]، فإذا كانت وطن الإيمان وهو أشرف أوصاف المؤمن، بل هو في الحقيقة كليته التي بها صار معتبرا وجوده، ولولا الإيمان لكان العدم المحض أفضل منه، فإذا ثبت هذا ثبت أن وطن الإيمان هو وطن المؤمن، وقد ثبت في الحديث المتقدم أن المدينة وطن الإيمان، وفي هذا إشارة حسنة إلى أدب حسن وهو أنه لا ينبغي لساكن المدينة بل ولو لمن بات بها ليلة، بل أقام بها لحظة من المؤمنين أن يرى في حال إقامته بها أنه غريب، بل يرى نفسه كأنه في ذلك الوقت استقر بوطنه الذي هو أحب أوطانه بين أهله وأقربه إذ المدينة وطنه الحقيقي كما تقدم، بل لا ينبغي أن لا يطلق على أحد ممن في المدينة من أهل الآفاق وأنه غريب أو مجاور تأدّباً لما يشعر به ذلك من غربته في وطن الإيمان الذي هو روحه وحقيقته، ولا يكون غريبا في وطن الإيمان إلا من لا عبرة بإيمانه، فأي صفة ذم أقبح من وصف المؤمن بكونه دخيلاً في الإيمان غريبا فيه، فلتتأمل هذه النكتة فإنها حسنة عند من له ذوق سليم وعرف الإشارة ولم يتقيد فهمه بصريح العبارة. نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن كانت المدينة وطنه حسا ومعنى، ونال من جميع الآفات الدينية والدنيوية سلامة وأمنا، آمين[2].

---

(1) صحيح البخاري 2:663.

(2) ورد في آخر الجزء الأول من النسخة خ: "انتهى السفر الأول من رحلة الفاضل أبي سالم سيدي عبد الله بن محمد بن أبي بكر، تغمده الله برحمته، وأسكنه فسيح جنته، على يد الحسن بن محمد بن احمد، تاب الله له وغفر زلته، إنه سميع مجيب، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه".

وفي ط جاء ما نصه: " انتهى النصف المبارك بحمد الله وعونه".

محتويات المجلد الأول